التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة حصرياً للناشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

دار الكتاب الثقافي

للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن / إربد

شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٦١٦١٦)

فاكس

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)

ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (211-620347)

E-mail:

Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٨ / ١/٩٢)

٢٢٢

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)

التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٨.

صدر على شكل ستة أجزاء

(...) ص.

ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).

الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٨م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع

الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ

سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ

(٢٦٠-٣٦٠) مِنَ الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ

هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الخامس

دار الكتاب الثقافي

الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ النَّمْـــلِ

سُورَةُ النَّمْلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَأَلْفٌ وَتِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (طس اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، أَقْسَمَ بِهِ أنَّ هَذا الْقُرْآنَ الآيَاتُ الَّتِي وُعِدْتُمْ بِهَا)(١) فقال قتادةُ: (هُوَ اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الْقُرْآنِ)(٢). وَقِيْلَ: هو اسمٌ من أسماء السُّورة. وقولهُ تعالى: ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ معناهُ: وآياتُ الكتاب المبين بالحلال والحرام.

وقولهُ تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون (هُدًى) في موضعِ رفعٍ؛ أي هو هُدًى، والمعنى: (هُدًى) أي بيانٌ من الضَّلالةِ لِمن عَمِلَ به، (وَبُشْرَى) بما فيه من الثواب للمصدِّقين به أنهُ من عندِ الله.

ثم عرَّفَهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي زَيَّنَّا لَهم صلاتَهم حتى رأوْها حسنةً، (فَهُمْ يَعْمَهُونَ) أي يتردَّدُون فيها متحيِّرين، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لأنَّهم خسِرُوا أنفُسَهم وأهلِيهم وصَارُوا إلى النار.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١١ ص١٦٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٩٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ ؛ أي إنَّكَ لَتعِي القُرْآنَ وحياً من عندِ الله تعالى، أنزلَهُ بعلمهِ وحكمته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ ؛ أي واذكُرْ إذ قالَ مُوسَى لامرأتهِ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ ؛ أبْصرْتُهَا، وكانت امرأتهُ يومئذ ابنة شُعيب ، فقال لها حين ضَلَّ الطريقَ: أنِّي أبصرتُ ناراً، فامْكثُوا ها هنا، ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ ، أي حتَّى آتِيكُم من عندِ النار بخبرِ الماء والطريق، فإن لَم أجِدْ أحداً يُخبرني عن الطريق آتيكم بشعلةِ نار، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ ؛ والشِّهَابُ: خَشَبَةٌ فيها نورٌ ساطعٌ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ ؛ أي لكي تَصْطَلُوا من البَرْدِ، وكان ذلك في شدَّةِ الشِّتاء، يقالُ: صَلَى بالنار وَأصْلَى بها إذا استدفأ، والمعنى: أو آتِيكُمْ بالشُّعلةِ المقبسَةِ من النار لكي تذودُوا[1] من البردِ.

والشِّهَابُ: هو النارُ الْمُسْتَطَارُ، ومنه قولهُ ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[2] والقبَسُ والْجَذْوَةُ: كلُّ عودٍ أشْعِلَ في طرفهِ نارٌ. قرأ أهلُ الكوفة (بشِهَابٍ قَبَسٌ) منوَّن على البدل أو النعتِ للشهاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ ؛ معناهُ: فلما جاءَ موسَى إلى النار التي رَآها نُودِيَ نداءَ الوحي: أنْ بُورِكَ مَنْ فِي طلب النار وهو مُوسَى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الملائكةِ. وهذه تحيَّةٌ مِن الله لِموسى بالبركةِ كما حَيَّا إبراهيمَ بالبركةِ على ألْسِنَةِ الملائكةِ حين دخلُوا عليه، فقالُوا: رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أهْلَ الْبَيْتِ.

وَقِيْلَ: المرادُ بالنار هو النُّورُ، وذلك أن موسَى رأى نُوراً عَظِيماً، ولذلك ذكرهُ بلفظ النار، ومَن في النار هم الملائكةُ؛ لأن النورَ الذي رآهُ موسى كان فيه ملائكةٌ لَهُمْ زَجَلٌ بالتسبيح والتقديس، ومَنْ حَوْلَهَا هو موسَى؛ لأنه كان بالقُرْب منها ولم يكن فيها. وأهلُ اللغة يقولونَ: بُورِكَ فُلاَنٌ؛ وَبُورِكَ فِيْهِ؛ وَبُورِكَ لَهُ وَعَلَيْهِ، بمعنى واحدٍ. والمرادُ بالبركةِ ها هنا ما نَالَ مُوسَى من كرامةِ الله له بالنبوَّة.

---

(١) في المخطوط: (تذوقوا)، والصحيح كما أثبتناه، أو (لكي تستدفئوا من البرد).

(٢) الصافات / ١٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ كلمة تَنْزِيْهٍ عمَّا تَظُنُّ الْمُشَبِهَةُ أنَّ اللهَ تعالى كان في تلك النار، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي أنا الدَّاعِي الذي يدعُوكَ، أنا اللهُ العزيزُ في مُلْكِي، الحكيمُ في أمرِي وقضائي.

فإن قيلَ: بماذا عَرَفَ مُوسَى ؟ قُلْنَا: إنَّما عَرَفَ نبوَّةَ نفسهِ أن ذلكَ النداءَ من اللهِ تعالى حتى جعلَ يدعُو الناسَ إلى نُبُوَّةِ نفسهِ بالمعجزة، وذلك أنهُ رأى شجرةً أخضرَ ما يكونُ من الشَّجرِ في أنضرَ ما يكون، لَها شعاعٌ يرتفعُ إلى السَّماء في الهواءِ، والنارُ تلتَهبُ في أوراقِها والأغصان، فلا النارُ تُحْرِقُ الأوراقَ ولا رطوبةُ الشجرِ والأغصان تُطْفِئُ النارَ، فلما رأى ذلكَ بخلافِ العادة، عَلِمَ أنه لا يكونُ ذلك إلاَّ مِن صُنْعِ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ ﴾ ؛ أي وَقِيْلَ لهُ: أَلْقِ عَصَاكَ من يدِكَ، فألقَاهَا فاهْتَزَّتْ ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ؛ أي تضطربُ كأنَّها جانٌّ، والْجَانُّ: الحيَّةُ البيضاءُ الخفيفة السريعةُ، السريع شدَّة الاضطراب يقال لها الْمِسَلَّةُ. وإنَّما شبَّهها بالْجَانِّ في خِفَّةِ حركَتِها وسرعةِ انتشارها عن الأعيُنِ، وشبَّهَها في موضعِ آخر بالثُّعبان لِعِظَمِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ ؛ أي أعْرَضَ موسى هَارباً من الخوفِ من الحيَّة، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْۚ ﴾ أي لَم يَرْجِعْ ولَم يَلْتَفِتْ إلى شيءٍ وراءَهُ، يقال: عَقَّبَ فلانٌ إذا رَجَعَ.

فقالَ اللهُ: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ ، مِن ضَرَرِها، ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يخافُ عندي وفي حُكْمِي مَن أرسلتهُ، ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ؛ مِن الْمُرْسَلِيْنَ بارتكاب الصغيرةِ ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ ، ثُمَّ تابَ مِن بعد ذلكَ، ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ به، فكان السببُ في هذا الاستثناءِ أنَّ موسى كان مُستَشْعِراً حقَّهُ لِمَا كان منه من قِبَلِ القبطيِّ، فأمَّنَهُ اللهُ بهذا الكلامِ.

والصغائرُ والكبائر من الذّنوب تُسمَّى ظُلْماً؛ ولذلكَ قال مُوسَى ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾(١). ويقالُ: إن قولَهُ (إلاَّ مَنْ ظَلَمَ) استثناءٌ منقطع، ومعناهُ: لكِنْ مَن ظَلَمَ، فإنه يَخافُني إلاّ أن يتوبَ ويعملَ صالحاً، فإنّي أغفرُ له وأرْحَمهُ. والمعنى: إلاّ من ظَلَمَ نفسه بالمعصيةِ (ثُمَّ بَدَّلَ حَسَناً) أي توبةً وندَماً (بَعْدَ سُوء) عملِهِ (فَإنِّي غَفُورٌ رَحِيْمٌ) كأنه قالَ: لا يَخافُ لديَّ المرسلونَ الأنبياءُ والتَّائبُونَ، وقال بعضُهم: (إلاّ) ها هُنا بمعنى (ولا) كأنهُ قال: (لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ الله تعالى أعطاهُ آيةً أخرى في ذلكَ المكان، ومعنى (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي بيضاءَ لَها شعاعٌ مِن غير برَصٍ(٣)، والْجَيْبُ جيبُ القَميصِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أظهَرَها بين الآيَتين، والآياتُ التِّسعُ: قَلْبُ العَصَاةِ حَيَّةً، وجَعْلُ يَدِهِ بيضاءَ، وما أصابَ فرعونَ من الْجَدْبِ في بَوادِيهم، ونقصِ الثَّمرات في مزارعهم، وإرسال الطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّمِ، فهذه الآياتُ التِّسعُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي خارجين عن طاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ ؛ أي فلمَّا جاءَتْ فرعونَ وقومه الآياتُ التسع، ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ ؛ أي بَيِّنَةً واضحةً، ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ كذبُوا بالآياتِ التسع كلِّها ونَسَبُوا موسى إلى السِّحر، ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ ؛ أي جَحَدُوا بألسِنَتهم وأنكَرُوا تلك الآياتِ، وعَلِمُوا بقلوبِهم أنَّ تلك الآياتِ ليست من جنسِ أفعال السِّحر، وأنَّها من اللهِ تعالى، أي عَلِمُوا يقيناً أنَّها من عندِ الله لكن جَحَدُوا بها تَجبُّراً وتَكبُّراً وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ؛ أي شِرْكاً وتَكبُّراً عن أن يؤمِنُوا، ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ في الأرضِ بالمعاصي، كيفَ أهلَكَهم اللهُ بالغَرَقِ في اليَمِّ.

---

(١) القصص / ١٦.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٣٧.

(٣) (غير) سقطت من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ ؛ أي أعطيناهما معرفةَ الدِّين وأحكامِ الشَّريعة، وَقِيْلَ: عِلماً بقضاءِ الطَّير والدَّواب وتسبيح الجبال، فقابَلا تلكَ النعمةِ بالشُّكر، ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا ﴾ ؛ بالنبوَّةِ والكتاب وإلانَةِ الحديدِ وتسخير الشَّياطين والجنِّ والإنسِ، ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ﴾ ؛ أي وَرِثَ نُبُوَّتَهُ وعلمَهُ ومُلكَهُ، وذلك أنهُ كان لداودَ تِسْعَةَ عشرَ إبناً ذكراً، فورثَ سليمانُ مُلْكَهُ ومجلسَهُ ومقامه ونبوَّته مِن بينهم.

وعن أبي هريرةَ قال: (نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ إلَى دَاوُدَ عليه السلام مَخْتُوماً، فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ؛ أن اسْأَل ابْنَكَ سُلَيْمَان عَنْهُنَّ، فَإنْ أخْرَجَهُنَّ فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: فَدَعَا دَاوُدُ[(١)] سَبْعِيْنَ قِسِّيْساً وَسَبْعِيْنَ حَبْراً، وَأجْلَسَ سُلَيْمَانَ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ إنَّهُ نَزَلَ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيْهِ عَشْرُ مَسَائِلَ، أرَدْتُ أنْ أسْأَلَكَ عَنْهُنَّ، فَإنْ أنْتَ أخْرَجْتَهُنَّ فَأَنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِي. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لِتَسْأَلْ نَبِيُّ اللهِ عليه السلام عَمَّا اللهُ يَرَاهُ، وَمَا تَوْفِيْقِي إلاَّ باللهِ.

قَالَ: أخْبِرْنِي يَا نَبِيَّ: مَا أبْعَدُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا أقْرَبُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا آنَسُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا أوْحَشُ الأَشْيَاءِ؟ وَمَا الْقَائِمَان؟ وَمَا الْمُخْتَلِفَان؟ وَمَا الْمُتَبَاغِضَان؟ وَمَا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ؟ وَمَا الأَمْرُ الَّذِي إذَا رَكِبَهُ الرَّجُلُ ذمَّ آخِرَهُ ؟

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: أمَّا أقْرَبُ الأَشْيَاءِ فَالآخِرَةُ، وَأمَّا أبْعَدُ الأَشْيَاءِ فَمَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأمَّا آنَسُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ فِيْهِ رُوحٌ، وَأمَّا أوْحَشُ الأَشْيَاءِ فَجَسَدٌ لاَ رُوحَ فِيْهِ، وَأمَّا الْقَائِمَان فَالسَّمَاءُ وَالأَرْضُ، وَأمَّا الْمُخْتَلِفَان فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَأمَّا الْمُتَبَاغِضَان فَالْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، وَأمَّا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ الرَّجُلُ حَمَدَ آخِرَهُ فَالْحِلْمُ عَلَى الْغَضَبِ، وَأمَّا الأَمْرُ الَّذِي إذا رَكِبَهُ ذمَّ آخِرَهُ فَالْحِدَّةُ عَلَى الْغَضَبِ.

قَالَ: فَفَكَّ الْخَتْمَ فَإذا هِيَ هَذِهِ الْمَسَائِلُ سَوَاءٌ عَلَى مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. فَقَالَ الْقِسِّيْسُونَ وَالأَحْبَارُ: لَنْ نَرضَى حَتَّى نَسْأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَإنْ هُوَ أخْرَجَهَا فَهُوَ الْخَلِيْفَةُ

---

(١) في المخطوط: (سليمان) والسياق يقتضي (داود) فأثبتناه.

مِنْ بَعْدِكَ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: سَلُونِي وَمَا تَوْفِيْقِي إلاَّ بِاللهِ، قَالُوا: مَا الشَّيْءُ الَّذِي إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ ؟ قَالَ: هُوَ الْقَلْبُ؛ إذا صَلُحَ صَلُحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، وَإذا فَسَدَ فَسَدَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ. قَالُوا: صَدَقْتَ! أَنْتَ الْخَلِيْفَةُ مِنْ بَعْدِهِ. وَدَفَعَ إلَيْهِ دَاوُدُ قَضِيْبَ الْمُلْكِ، وَمَاتَ مِنَ الْغَدِ).

وعن محمَّد بن جعفر عن أبيهِ قال: (أعْطِيَ سُلَيْمَانُ مُلْكَ مَشَارِق الأَرْضِ وَمَغَارِبهَا، فَمَلَكَ سَبْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَسِتَّةَ أشْهُرٍ، مَلَكَ أهْلَ الدُّنْيَا كُلَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ وَالشَّيَاطِيْنِ وَالدَّوَاب وَالطَّيْر وَالسِّبَاعِ، وَأعْطِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْطِقَ كُلِّ شَيْءٍ)[١].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ ؛ صَوْتٌ منهُ. قال الفرَّاءُ: (مَنْطِقُ الطَّيْرِ: مَعْنَى كَلاَمِ الطَّيْرِ، جَعَلَهُ كَمَنْطِقِ الرَّجُلِ إذا فُهِمَ)[٢]. قال مقاتلُ:(كَانَ سُلَيْمَانُ جَالِساً إذْ مَرَّ بِهِ طَائِرٌ، فَقَالَ لِجُلَسَائِهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ هَذا الطَّائِرُ؟ قَالُوا:لاَ! قَالَ: إنَّهُ قَالَ لِي: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيْلَ. وَمَرَّ سُلَيْمَانُ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى بُلْبُلٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ يُحَرِّكُ رَأسَهُ وَيُمِيْلُ ذنَبَهُ وَيَصِيْحُ، فَقَالَ لأَصْحَابهِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذا الْبُلْبُلُ ؟ قَالُوا: اللهُ أعْلَمُ! قَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: أكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ)[٣].

وعن الكلبيِّ قال: (صَاحَ وَرَشَانٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: أتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا: لاَ! قَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: لِدُو لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَاب. وَصَاحَتْ فَاخِتَةٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ؛ فَقَالَ: إنَّهَا تَقُولُ: لَيْتَ ذا الْخَلْق لَمْ يُخْلَقُوا، وَلَيْتَهُمْ إذا خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذا خُلِقُوا. وَصَاحَ هُدْهُدٌ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: كَمَا تُدِيْنُ تُدَانُ، وَصَاحَ طَاوُوسٌ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ. وَصَاحَ صُرَدٌ عِنْدَهُ؛ فَقَالَ: إنَّهُ يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا اللهَ يَا مُذْنِبِيْنَ. وَصَاحَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: الحديث(٤١٩٥). وتعقب الذهبي هذا الخب فقال: (هذا باطل).

(٢) معاني القرآن: ج ٢ ص٢٨٨. وفي أصل المخطوط: (منطقُ الطيرِ كلاَمُهُ) وضبط النص كما في معاني القرآن للفراء.

(٣) ذكره القرطبي أيضاً عن مقاتل؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٥. والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤ عن فرقد السَّبخي.

خِطَّانٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: قَدِّمُوا خَيْراً تَجِدُوهُ. وَهَدَرَتْ حَمَامَةٌ؛ فَقَالَ: إِنَّهَا تَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى مِلْءَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ. وَصَاحَ قُمْرِيٌّ؛ فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْقُدُّوسِ. وَصَاحَ بَازٌ فَقَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ. وَالضِّفْدَعُ يَقُولُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ. وَالْقَطَاةُ تَقُولُ: مَنْ سَكَتَ سَلِمَ. وَالْحَدَاةُ تَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَذْكُورِ بِكُلِّ لِسَانٍ)[1].

وعن مكحول قال: (صَاحَ دَرَّاجٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ عليه السلام فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ؟ قَالُوا: لاَ! قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[2]. وعن الحسن قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[إِنَّ الدِّيْكَ يَقُولُ فِي صِيَاحِهِ: اذْكُرُوا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ][2]. وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قَالَ: (إِذَا صَاحَ النَّسْرُ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ عِشْ مَا عِشْتَ آخِرُهُ الْمَوْتُ، وَإِذَا صَاحَ الْعُقَابُ قَالَ: فِي الْبُعْدِ مِنَ النَّاسِ أُنْسٌ، وَإِذَا صَاحَ الْقُنْبَرُ قَالَ: إِلَهِي الْعَنْ مُبْغِضِي آلَ مُحَمَّدٍ)[3].

ورُوي أنَّ قَوماً من أهلِ العِرَاقِ مِن أهل الكتاب وَفَدُوا على ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ فقال لهُ: أنتَ ابنُ عمِّ الذي يزعمُ أنه رسولُ اللهِ ﷺ؟ قال: (نَعَمْ). قالُوا: يا قوم قد عرَفْنا الكُتُبَ، وعرَفْنا ما فيها ونحنُ نسألُكَ عن سبعةِ أشياءَ، فإنْ أنتَ أخبرتَنا بها آمَنَّا وصدَّقنا، قال: (اسْأَلُونِي تَفَقُّهاً وَلاَ تَسْأَلُونِي تَعَنُّتاً). قالوا: أخبرْنا ما يقولُ القُنْبَرُ في صفيرِهِ والزُّرْزُورُ والدُّرَّاجُ؟ وما يقولُ الدِّيكُ في صياحِهِ؟ والضِّفْدعُ في نَقِيْقِهِ؟ والحِمَارُ في نَهِيْقِهِ، والفَرَسُ في صهيلِهِ؟

فقالَ: (أَمَّا الْقُنْبَرُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ مُبْغِضِي مُحَمَّدٍ وآل مُحَمَّدٍ. وأَمَّا الزُّرْزُورُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قُوتَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ يَا رَزَّاقُ. وَأَمَّا الدَّرَّاجُ فَيَقُولُ: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. وأَمَّا الدِّيْكُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اذْكُرُوا اللهَ يَا غَافِلِيْنَ. وَأَمَّا الضِّفْدَعُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: سُبْحَانَ الْمَعْبُودِ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ. وَأَمَّا الْحِمَارُ فَإِنَّهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٥-١٦٦، كله من كلام فرقد السبخي.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٣ ص١٦٦.

الْعَنِ الْعَشَّارَ. وَأمَّا الْفَرَسُ فَإنَّـهُ يَقُـولُ ((إذا الْتَقَـى الصَّفَّـانِ))(١): سُبُوحٌ قُـدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ). فقَالُوا: يا ابنَ عبَّاس نشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّـداً رسـولُ اللهِ، وحَسُنَ إسلامُهم(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ يعني من أمرِ الدُّنيـا والآخـرةِ، وقـال مقاتلُ: (يَعْنِي الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ وَتَسْخِيْرَ الرِّيَاحِ وَالْجِنِّ وَالشَّـيَاطِيْنِ)(٣). وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي الزيادةُ الظَّاهرة على ما أُعْطِي غيرُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ ؛ أي جُمِعَ له من كلِّ جهةٍ جماعةٌ من الجنِّ والإنس والطَّير. والْحَشْرُ: جمعُ الْخَلْقِ من موضـعٍ إلى موضعٍ، ومنهُ الْمَحْشَرُ لِعَرَصَاتِ يَوْمَ القيامةِ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مُعَسْـكَرُ سُلَيْمَانَ مِائَةُ فَرْسَخٍ، خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَـخاً لِلإنْـس، وَخَمْسَـةٌ وَعِشْـرُونَ فَرْسَخاً لِلجِـنِّ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلسِّبَاعِ، وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ فَرْسَخاً لِلطَّيْرِ)(٤).

ووجهُ تسخيرِ الطَّيرِ له أنَّ اللهَ زادَ في عقُولِها حتى كانت تفهمُ مـا يقـالُ ويـراد منها، وتقبلُ الأدبَ وتخافُ وتحذر، وكان لسليمانَ عليه السلام ألفُ بيتٍ مـن قَوَاريْـرَ علـى الخشب، فيها ثلاثمائة صريحة، وسَبْعُمائة سَرِيَّةٍ، فيأمرُ الرِّيحَ العاصفَ فترفعـه، ويـأمرُ الرَّحا فتسيرُ به، فأوحَى اللهُ وهو يسيرُ بين السَّماء والأرض: أنِّي قَدْ زِدْتُ فِي مُلْكِكَ أنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ أحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ إلاَّ جَاءَتْ بِهِ الرِّيْحُ فَأَخْبَرَتْكَ بِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (كَانَ عَلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ جُنُودِهِ وَزَعَةٌ تَرُدُ أوْلاَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِيَجْتَمِعُواْ وَيَتَلاَحَقُواْ)(٥) وهو من الوَزْعِ الـذي هو الكفُّ، يقالُ: وَزَعْتُهُ أزَعُهُ وَزْعاً، والشَّيْبُ وَازِعٌ؛ أي مانعٌ. قال الليـثُ: (وَالْـوَازِعُ

---

(١) ما بين (( )) سقطت من المخطوط.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٤.

(٣) قاله مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٢ ص٤٧١-٤٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التواريخ : باب تسخير سليمان عليه السلام الإنس: الحديث (٤١٩٧) عن مُحمَّد بن كعب وسكت عنه.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٥٢). وينظر: المحرر الوجيز: ص١٤١٦.

فِي الْحَرْبِ الْمُوَكَّلُ بالصُّفُوفِ يَزَعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ)[١].

ومعنى الآيةِ: (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي كان يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرهم ليتلاحقوا، وكانوا يجتمعونَ ويتفرَّقون ويقومون في مسيرِهم على مراتبِهم. وَالإيْزَاعُ هو المنعُ من الذهاب، والوَازِعُ هو القيِّمُ بأمْرِ الْجَيْشِ، ومن ذلكَ قولُ الحسنِ:(لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَزْعَةٍ)[٢] أي مِن سُلْطَانٍ يَكُفُّهُمْ، ويقالُ: لا بدَّ للسُّلطان من وَزْعَةٍ؛ أي مَن يَمْنَعُ الناسَ عنهُ. وأصلُ الوَزْعِ الكفُّ والْمَنْعُ، ومنهُ الحديثُ: [إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلْطَانِ أكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بالْقُرْآنِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ ؛ أي سَارُوا جميعاً حتَّى إذا وصَلُوا إلى وادٍ كثيرِ النَّملِ، قال كعبٌ: (هُوَ وَادٍ بالطَّائِفِ)، وقال قتادةُ ومقاتل: (هُوَ بالشَّام)[٤]، ﴿ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ ﴾ ؛ لأصحابها على وَجْهِ التَّحذيرِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾ ؛ أي منازلَكم، ﴿ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ ؛ أي لا يَكْسِرَنَّكُمْ سليمانُ وجنودهُ، ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ بذلكَ؛ أي وهم لا يَعْلَمُونَ بحَطْمِكُمْ ووَطْئِكُمْ، فطارَتِ الريحُ بكلامِ النَّملةِ، فأدخلتْهُ في أُذن سُليمانَ عليه السلام ليسمعَها، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾ ؛ وكان أكثرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ التَّبَسُّمُ.

ونُصِبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ضَاحِكاً) على الحالِ، وسببُ ضَحِكِهِ مِن قَولها التعجُّبُ، وذلكَ أنَّ الإنسانَ إذا رأى ما لا عَهْدَ له بهِ عَجِبَ وضَحِكَ. قال مقاتلُ: (ثُمَّ حَمَدَ رَبَّهُ حِيْنَ عَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسَمِعَ كَلاَمَ النَّمْلَةِ)[٥] ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٧ معلقاً.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤١٦.

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن: ج ٣ ص١٤٥٠؛ قال: (رَوَى أشْهَبُ قَالَ: قَالَ مَالِكُ بْنُ أنَسٍ: قَالَ عُثْمَانُ: (مَا يَزَعُ النَّاسَ السُّلْطَانُ، أكْثَرَ مِمَّا يَزَعُهُم الْقُرْآنُ). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٦٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦١٩٨).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٢.

نِعْمَتَكَ ﴾ ؛ يقالُ: فلانٌ مُوزَعٌ بكَذا؛ أي مُولَعٌ بهِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وَفِّقْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ، ﴿ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ وَ، وَفِّقْنِي، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ في الآخرة.

فإن قِيْلَ: بمَاذا عرفَتِ النملةُ سليمانَ، وعلى أيِّ سبيلٍ كانت معرفتُها بهِ؟ قُلْنَا: إنَّها كانت مأمورةً بطاعتهِ، فلا بدَّ أن تعرفَ مَن أُمِرَتْ بطاعتهِ، ولا يمنع أنْ تعرفَ الدوابُّ والبهائمُ هذا الضربَ، كما تعرفُ كثيراً من منافعِها ومضارِّها، والنملةُ فيها من الفَهْمِ فوقَ هذا، فإنَّا نشاهدُ صُنْعَهَا في إدخال رزْقِهَا وحفظِهِ وتعهُّدِهِ، حتى إنَّها تكسرُ ما تجمعهُ من الحبوب نصفَين نصفين لئَلاَّ تَنْبُتَ، إلاَّ اللُّوَيْزَةَ فإنَّها تكسرُها أربعَ قِطَعٍ؛ لأنَّها إذا كسرَتْها نِصفَين تنبتُ، فالذي هَدَاها إلى هذهِ الأمور هو الذي ألْهَمَهَا معرفةَ سُليمانَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي طَلَبَها وبحثَ عنها، والطَّيْرُ اسمٌ جامع للجِنْس، وكانت الطيرُ تَصْحَبُ سليمانَ في سفرهِ، تُظِلُّهُ بأجنِحَتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ ؛ أي قال: مَا الْهُدْهُدُ لا أراهُ أعْيُناً؛ أي لَحظْتُهُ فلم تَرَهُ بين الطيرِ، ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

واختلَفُوا في سبب تفقُّدِهِ عن حال الْهُدْهُدِ. قال ابنُ عبَّاس:(كَانَ الْهُدْهُدُ يَرَى الْمَاءَ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ كَمَا تَرَاهُ مِنَ الزُّجَاجِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ إذا احْتَاجَ إلَى الْمَاءِ فِي مَسِيْرِهِ، أمَرَ الْهُدْهُدَ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى أقْرَب مَوْضِعٍ مِنَ الْمَاءِ، فَاحْتَاجَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إلَى الْمَاءِ، فَلِذلِكَ تَعَرَّفَ عَنْ حَالِ الْهُدْهُدِ).

قال عكرمةُ[1]: قُلْتُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ كَيْفَ يَرَى الْهُدْهُدُ الْمَاءَ وَإنَّ صَيَّادَتَنَا يَأْخُذُونَهُ بالْفَخِّ فَلاَ يَرَى الْخَيْطَ وَالشَّبَكَةَ ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (مَا ألْقَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَى لِسَانِكَ إلاَّ الشَّيْطَانُ، أمَا تَعْلَمُ أنَّهُ إذا جَاءَ الْقَدَرُ ذهَبَ الْبَصَرُ). وعن سعيدِ بن جُبَير: (أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ تَفَقُّدِ سُلَيْمَانَ الْهُدْهُدَ، فَقَالَ: لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَسَافَةَ الْمَاءِ. وَأنَّ الصَّبِيَّ يَضَعُ لَهُ الْفَخَّ فَيُغَطِّي عَلَيْهِ بشَيْءٍ مِنَ التُّرَاب فَيَجِيْءُ فَيَقَعُ فِيْهِ، فَقَالَ:

---

(١) في جامع البيان: مج ١١ ج١٩ ص١٧٥: (قال له نافع بن الأزرق).

وَيْحكَ! أمَا عَلِمْتَ أنَّ الْقَدَرَ يَحُولُ دُونَ الْبَصَرِ). ورُوي أنه قالَ:(إذا نَزَلَ القضاءُ والقَدَرُ ذهَبَ اللُّبُّ وعَمِيَ البصرُ)[(١)].

وقال وهبُ: (كَانَ سَبَبُ تَفَقُّدِهِ لَهُ لإخْلاَلِهِ بالنَّوْبَةِ[(٢)]، كَمَا يَتَعَرَّفُ الْوَالِي عَنْ رَعِيَّتِهِ)[(٣)]، ويقالُ: كانتِ الطيرُ تُظِلُّهُ من الشَّمسِ، كانت تقفُ في الهواءِ مصطفَّةً موصولةَ الأجنحةِ ومتقاربةً، فلما أخْلَى الهدهدُ بمكانهِ بَانَ ذلك لوقوعِ الشَّمسِ عليه، فلذلكَ تعرَّفَ عن حالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ قال المفسِّرون: تَعْذِيْبُهُ إيَّاهُ أن ينتفَ ريشَهُ ثُم يلقيهِ في الشَّمسِ فلا يَمنَعُ مِن نَمْلَةٍ ولا مِن شيءٍ من هَوَامِّ الأرضِ. ويقالُ: هو قصُّ جناحهِ، ويجوزُ أن يُعَاقَبَ بأن لا يجري عليه القلمُ على وجهِ التأديب، كما يؤدِّبُ الأبُ ولده الصغير. وَقِيْلَ: تعذيبهُ أن يَنْتِفَ ريشَهُ ويدعَهُ مُمَعَّطاً[(٤)] في بيتِ النملِ فيلدغوهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لأشُدَّنَّ رجليْهِ والقيَهُ في الشَّمسِ، وقِيْلَ: لأطْلِيَنَّهُ بالقَطْرِ وأجعلَهُ في الشَّمسِ. وَقِيْلَ: لأفرِّقنَّ بينَهُ وبين إلْفِهِ. وَقِيْلَ: لأمنعنَّهُ من خدمَتِي.

قولهُ تعالى: ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ؛ أي لأقْطَعَنَّ حلْقَهُ، ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي بحجَّةٍ ظاهرة توجبُ عُذْرَهُ في غيبته، وقصَّتُهُ: أنَّ سليمانَ عليه السلام لَمَّا فرغَ من بناءِ بيت المقدسِ عَزَمَ على الخروجِ إلى أرضِ الْحَرَمِ، فتجهَّزَ للسيرِ واستصحبَ مِن الْجِنِّ والإنسِ والشَّياطينِ والطُّيور والوحوشِ ما بلغَ معسكرهُ مِائَةَ فرسخٍ، وأمرَ الرِّيحَ فحملَتْهم، فلما وَافَى الحرمَ أقامَ به ما شاءَ اللهُ أن يُقيمَ، وكان ينحرُ كلَّ يومٍ مدَّةَ إقامتهِ خمسةَ آلافِ ناقة، ويذبحُ خمسةَ آلاف ثور، وعشرون ألفَ شاةٍ، وأقامَ بمكَّةَ حتى قضَى نُسُكَهُ.

---

(١) هذه الروايات أخرجها الطبري في جامع البيان: الأثار (٢٠٤٥٩-٢٠٤٦٠). وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤١٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٦.

(٢) في المخطوط: (لإجلاله نبوته).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج١٩ ص١٧٦ من غير إسناد.

(٤) في مختار الصحاح: ص٦٢٨: (معط): (رَجُلٌ (أمْعَط) بَيِّن الْمَعَطِ، وَهُوَ الَّذِي لاَ شَعْرَ فِي جَسَدِهِ، و(امْتَعَطَ) شَعْرُهُ و(تَمَعَّط) أي تَسَاقَطَ مِن دَاءٍ وَنَحوِهِ).

ثم سارَ إلى أرضِ اليمن فوافَى صنعاءَ اليمنِ وقتَ الزَّوال، فأحبَّ النُّزولَ ليُصَلِّي ويتغدَّى، فطلَبُوا الماءَ فلم يجدوهُ، وكان الهدهدُ دليلَهُ على الماءِ، فلما نَزَلَ سليمانُ قال الهدهدُ: إنَّ سليمانَ قد اشتغل بالنُّزول، فارتفعَ الهدهدُ إلى جهةِ السَّماء، فنظرَ يَميناً وشِمالاً فرأى خُضْرَةَ بساتين مَأربَ في أرضِ بلقيسَ، فمالَ إلى جهةِ الْخُضْرَةِ، فالتقى بهُدهُدٍ من هدهُدِ سَبأ، فقال لهُ: مِن أينَ أقبلْتَ وأينَ تريدُ ؟ قال: أقبلتُ من الشَّامِ مع نبيِّ اللهِ سُليمانَ ﷺ، قال لهُ: ومَن سليمانُ ؟ قال: مَلِكُ الإنسِ والجنِّ والشياطينِ والوحوشِ والطُّيور. ثُم قال له هدهدُ سُليمانَ: وأنتَ مِن أينَ أقبلتَ ؟ قال: مِن هذه البلادِ، قال: ومَن مَلِكُها ؟ قال: امرأةٌ يقالُ لها بَلْقِيسُ؛ مَلَكَتِ اليمنَ كلَّها وتحتَها اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ، مع كلِّ قائدٍ مائة ألفِ مقاتل، فهل أنتَ منطلقٌ معي ننظرُ إلى مُلْكِها ؟ قال: أخافُ أن يَفْقِدَنِي سليمانُ في وقتِ الصَّلاة إذا احتاجَ إلى الماءِ، فقال لهُ هدهدُ بلقيس: إنَّ صاحبَكم يسرُّهُ أن تأتيهِ بخبرِ هذه الملكةِ. فانطلقَ معهُ ونظرَ إلى بلقيسَ ومُلكِها، وما رجعَ إلاّ وقتَ العصرِ.

قال: فلما نزلَ سليمانُ ودخلَ عليه وقتُ الصَّلاة، طلب الهدهدَ لأنه نزلَ غير ماءٍ، فسألَ الإنسَ عن الماءِ فقالُوا: ما نعلمُ هنا ماءً، فسألَ الجنَّ والشياطينَ فلم يعلَمُوا، ففقدَ الهدهد فلم يجدْهُ، فدعا بعفريتِ الطيرِ النِّسْر، فسألَهُ عن الهدهدِ، فقال: ما أدري أينَ ذهبَ، فغَضِبَ سليمانُ عند ذلك، وقالَ (لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيْداً أوْ لأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأْتِيَنِي بسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ) أي بحجَّة.

ثُم دعَا بالعقاب وقال لهُ: عَلَيَّ بالهدهدِ الساعةَ، فرفعَ العقابُ نفسه حتى التزقَ بالهواءِ وارتفعَ حتى نظرَ إلى الدُّنيا كالقَصْعَةِ في يَدَي أحدِكم، ثُم التَفتَ يَميناً وشِمالاً، فإذا هو بالهدهُدِ مقبلٌ من نحوِ اليَمَنِ، فانقضَّ العقابُ نحوه يريدهُ، فلما رأى الهدهدُ ذلك عَلِمَ أن العُقابَ يقصدهُ بسوءٍ، فناشده اللهَ تعالى، فقال لهُ: بحَقِّ الذي قوَّاكَ وأقدركَ عَلَيَّ إلاّ رَحِمْتَنِي ولا تتعرض لِي بسوءٍ، فولَّى العقابُ عنه وهو يقولُ له: ثَكِلَتْكَ أمُّكَ! إنَّ نبي اللهِ قد حلفَ لَيُعَذِّبَنَّكَ أو لَيَذْبَحَنَّكَ، ثُم طارَا متوجِّهين نحوَ سُليمانَ.

فلما وصلَ إليه قال له العُقابُ: قد جِئْتُكَ يا نبيَّ الله، فلما قَرُبَ إليه الهدهدَ رفع رأسَهُ وأرخَى ذنبَهُ وجناحيه يَجُرُّهُمَا على الأرضِ تَوَاضُعاً لسليمانَ، فلما دَنَا

منهُ، قال لهُ: أيْنَ كُنتَ؟ لأُعَذِّبَنَّك عذاباً شَديداً، فقال لـه الهدهـدُ: يا نبيَّ اللهِ؛ اذكُرْ وقوفَكَ بين يَدَي اللهِ سُبْحَانَهُ، فلما سَمع ذلك سليمانُ ارتعدت فَرَائِصُهُ فَعَفَا عَنْهُ.

ثُم قالَ له: ما أبْطَأكَ عنِّي؟ فقال: أحَطْتُ بما لَمْ تُحِطْ بهِ، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ؛ أي لَم يلبَثْ إلاّ يَسيراً حتى جاءَ الهدهـدُ، ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ؛ أي علمتُ شيئاً من جميعِ جهاته، وَقِيْلَ:معناهُ: اطَّلَعْتُ على ما لَم تَطَّلِعْ عليهِ، وجِئتُكَ بأمرٍ لَم يُخبرْكَ بـه الجنُّ والإنسُ، وبَلَغْتُ ما لَم تَبْلُغْهُ أنتَ ولا جميعُ جنودكَ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي بخبرٍ صدقٍ ولا شكَّ فيه.

وقُرئ (مِنْ سَبَإٍ) بالتنوين. قال الزجَّاجُ: (مَنْ لَمْ يَصْرِفْهُ فلأنَّهُ اسْمُ مَدِيْنَةٍ تُعْرَفُ مِنَ الْيَمَنِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ مَسِيْرَةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وَمَنْ صَرَفَهُ؛ فلأنَّهُ اسْمُ الْبَلَدِ، وَيَكُونُ مُذكَّرًا سُمِّيَ بهِ مُذكَّر)(١). وفي الحديثِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ سَبَإٍ، فَقَالَ: [كَانَ رَجُلاً لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْبَنِيْنِ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَامَّ أرْبَعَةٌ...](٢). وسنذكرُ أسماءَهم وقصَّتَهم في سورةِ سَبَأ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قرأ عاصمُ ويعقوب (فَمَكَثَ) بفتح الكافِ، وقراءةُ العامَّة بضمِّ الكاف، وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ؛ واسْمُها بلقيسُ بنتُ الشَّرْحِ، وَقِيْلَ: شِراحيلُ بن ذي جَدَن(٣)، وكان مَلِكاً عظيمَ الشَّأنِ، وكان قد مَلَكَ أرضَ اليمنِ كلِّها، وكان يقولُ لِمُلوكِ الآفاقِ: ليس أحدٌ منكم كُفْؤٌ لِي، وأبى أن

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٨٧.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٢٠٢٥: الحديث (٦٣٩). في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٤؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني علي بن الحسن؛ لم أعرفه).

(٣) تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج ١ ص٢٨٩: تاريخ ما قبل الهجرة؛ قال الطبري: (وهي - فيما يقول أهل الأنساب - يلمقة ابنة اليشرح؛ ويقول بعضهم: ابنة أيلي شرح، ويقول بعضهم: ابنة ذي شرخ بن ذي جَدَن بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان).

يتزوج منهم، فزوَّجُوهُ امرأةً من الجنِّ يقالُ لَها: ريحانة بنتُ السكن، فولـدت بَلْقِيسَ، ولَم يكن لهُ ولدٌ غيرَها[١].

وعن النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: [كَانَ أحَدُهُمْ يُؤتَى بَلْقِيسَ جِنِّياً][٢] فَلَمَّا مَـاتَ أبُوهَـا وَلَمْ يُخَلِّفْ أحَداً غَيْرَهَا طَمِعَتْ فِي الْمُلْكِ، فَطَلَبَتْ مِنْ قَوْمِهَا أنْ يُبَايِعُوهَـا، فَأطَاعَـهَا قَوْمٌ وَعَصَاهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَاخْتَارُوا عَلَيْهَا رَجُلاً فَمَلَّكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَافْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ، كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ اسْتَوْلَتْ بمُلْكِهَا عَلَى طَرَفٍ مِنْ أرْضِ الْيَمَنِ.

ثُمَّ إنَّ هَذا الْمَلِكَ الَّذِي مَلَّكُوهُ أسَاءَ السِّيْرَةَ فِي أهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى كَانَ يَمُدُّ يَدَهُ إلَى حُرَمِ رَعِيَّتِهِ وَيَفْجُرُ بهِنَّ، فَأرَادَ أصْحَابُهُ أنْ يُخرجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَلَمَّا رَأتْ بَلْقِيسُ ذلِكَ أدْرَكَتْهَا الْغَيْرَةُ، فَأرْسَلَتْ إلَيْهِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، فَأجَابَهَا إلَى ذلِـكَ، وَقَـالَ: مَـا مَنَعَنِي أنْ أبْدَاكِ بالْخِطْبَةِ إلاَّ الْيَأسُ مِنْكِ، فَقَالَتْ: إنِّي رَاغِبَةٌ إلَيْكَ لأنَّكَ كُفْـؤٌ كَرِيْـمٌ، فَاجْمَعْ رِجَالَ قَوْمِي فَاخْطِبْنِي إلَيْهِمْ، فَجَمَعَهُمْ فَخَطَبَهَا إلَيْهِمْ فَقَـالُوا: لاَ نَرَاهَـا تَفْعَـلُ هَذا، قَالَ: إنَّهَا هِيَ الَّتِي ابْتَدَأتْنِي، فَذكَرُوا لَهَا ذلِكَ، فَقَالَتْ: نَعَمْ؛ لأجْلِ الْوَلَـدِ، وَلَـمْ أزَلْ كُنْتُ كَارِهَةً لِذلِكَ، فَالآنَ قَدْ رَضِيْتُ، فَزَوَّجُوهَا مِنْهُ.

فَلَمَّا زُفَّتْ إلَيْهِ خَرَجَتْ فِي نَاسٍ كَثِيْرٍ مِنْ خَدَمِهَا وَحَشَمِهَا، فَلَمَّا جَاءَتْـهُ سَـقَتْهُ الْخَمْرَ حَتَّى سَكِرَ، ثُمَّ حَزَّتْ رَأسَهُ وَانْصَرَفَتْ مِنَ اللَّيْلِ إلَى مَنْزِلِهَا، فَلَمَّا أصْبَـحَ رَأوا الْمَلِكَ قَتِيْلاً وَرَأسُهُ مَنْصُوباً عَلَى رَأسِ دَارِهَا، فَعَلِمُوا أنَّ تِلْكَ الْمُنَاكَحَةَ كَـانَتْ مَكْـراً وَخَدِيْعَةً مِنْهَا، فَاجْتَمَعُوا إلَيْهَا وَقَالُوا لَهَا: أنْتِ أحَقُّ بهَذا الْمُلْكِ مِـنْ غَـيْرِكِ، فَقَـالَتْ: لَوْلاَ الْعَارُ وَالشَّنَارُ مَا قَتَلْتُهُ، وَلَكِنْ عَمَّ فَسَادُهُ وَأخَذتْنِي الْحَمِيَّةُ حَتَّى فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ، فَمَلَّكُوهَا فَأسَّسَتْ أمْرَهَا[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ؛ قال عطاءُ:(مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيَا مِـنَ الْمَالِ وَالْجُنُودِ)، ﴿ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، أي سريرٌ من ذهَـبٍ طولـهُ ثمانونَ

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٧.
(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٥١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمـة وابـن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة). وفي في العظمة: ص٤٢١: الحديث (١٦٠٨/١٦).
(٣) ذكر مثله البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥٧-٩٥٨.

ذِراعاً وعَرْضُهُ أربعونَ ذِراعاً وارتفاعهُ في السَّماء ثلاثونَ ذِراعاً مضروبٌ بالذهب مُكَلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمر والزُّبُرْجُدُ الأخضرُ. قال مجاهدُ: (وَكَانَ تَحْتَهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ - وَالْقَيْلُ بلُغَةِ الْيَمَنِ - تَحْتَ يَدَي كُلِّ قَيْلٍ أَلْفُ مُقَاتِلٍ)(١). وَقِيلَ: كان سريرُها له أربعُ قوائمَ: قائمةٌ من ياقوتٍ أخضر، وقائمةٌ من ياقوتٍ أحمر، وقائمةٌ من زمُرُّد، وقائمةٌ من دُرٍّ، وصفائحُ السريرِ من ذهبٍ، وعليه سبعةُ أبياتٍ لكلِّ بيتٍ بابٌ مغلَقٌ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ قال الحسنُ: (كَانَ الْقَوْمُ مَجُوساً وَكَانُوا يَتَعَطَّفُونَ(٣) عَلَى وُجُوهِهِمْ مُوَاجِهِيْنَ لِلشَّمْسِ)، وقولهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي حَسَّنَ لهم قبيحَ أعمالِهم، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي عن الطريقِ، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾؛ إلى طريق الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوزُ أن يكون ابتداءُ خطابٍ من اللهِ، ويجوزُ أن يكون من قول الْهُدْهُدِ أو من قول سُليمان.

قرأ الكسائيُّ والأعرجُ ويعقوب وحميدُ وأبو جعفر: (ألاَ يَسْجُدُوا) بالتخفيف: ألاَ يا هؤلاءِ اسْجُدُوا، جعلوهُ من أمر الله مستأنفاً، وحذفُوا (هَؤُلاَءِ) اكتفاءً بدلالةِ (يَا) عليها، فعلى هذه القراءةِ (اسْجُدُوا) في موضع جزمٍ على الأمرِ والوقفُ عليه (ألاَ يَا)، ثُم يبتدئُ (اسْجُدُوا)، وفي قراءةِ عبدِالله (هَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ). وقرأ الباقونَ (ألاَّ يَسْجُدُوا) بالتشديدِ على معنى وزَيَّنَ لَهم الشيطانُ ألاَّ يَسْجُدُوا(٤).

وقولهُ تعالى: (يُخرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، الْخَبْأُ: كلُّ ما غابَ عن الإدراك، مصدرٌ وقد وقعَ موقع المفعولِ كالْخَلْقِ بمعنى المخلوقِ والعلمِ بمعنى المعلومِ،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٠٢ و٢٠٥٠٣) عن ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٢٦١).
(٣) عَطَفَ: مَالَ. وعطَفَ الوسادةَ ثَناها. ومنعطفُ الوادي مُنْعَرَجُهُ وَمُنْحَنَاهُ.
(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٣٤. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٤١-١٤٢.

وخَبْأُ السَّموات: الأمطارُ، وخبأُ الأرض: النباتُ، فعلى هذا تكون (فِي) بمعنى (مِن).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما يُخفون في قُلوبهم، وما يُعلِنون بألسنتِهم. وفي قراءةِ الكسائيِّ بالتاء، لأنَّ أولَ الآية خطابٌ على قراءته بتخفيف (ألاَ) يا اسجُدوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أراد بالعرشِ في هذه الآية سريرَ الْمُلْكِ الذي عظَّمَهُ اللهُ ورفعَهُ فوقَ سَموات سبعٍ وجعلَهُ أعظمَ من السَّمواتِ والأرض، ومِن أعظم كلِّ خلقٍ، وجعل الملائكة تَحُفُّ به وترفعُ أعمالَ العباد إليهِ؛ أي هو الذي يستحقُّ العبادةَ لا غيره، وهو ربُّ العرشِ لا ملكةَ سَبَأ؛ لأن عرشَها وإن كان عَظِيماً لا يبلغُ عرشَ الله في العِظَمِ.

فلمَّا فَرَغَ الهدهدُ من كلامه، ﴿ ۞ قَالَ ﴾ ؛ سليمانُ للهدهدِ: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ ؛ فيما أخبَرْتَنا به مِن هذه القصَّة، ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فنعذِّبُك.

ثُم كتبَ سليمانُ كِتاباً خَتَمَهُ بخَاتِم ودفعهُ إلى الهدهدِ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي إلى أهل سبأ. وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي انصرفْ عنهم، وهذا على التقديْمِ والتأخيرِ، تقديرهُ: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ؛ لأن التولِّي عنهم بعد الجواب، ومعنى (فَانْظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ) أي ماذا يردُّونَ من الجواب. وَقِيْلَ: معناهُ: (ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) أي انْصَرِفْ عنهم قَليلاً إلى حيث لا يَرَوْنَكَ (فَانْظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ) أي يقولُون ويردون ويحسبون.

وكان كتابُ سُليمانَ عليه السلام: مِنْ عَبْدِ اللهِ سُلَيْمَانَ بْن دَاوُدَ إلَى بَلْقِيْسَ مَلِكَةِ سَبَأ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أمَّا بَعْدُ: فَلاَ تَعْلُوا عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِيْنَ[1]. وقال ابنُ جريج: (لَمْ يَزِدْ سُلَيْمَانُ عَلَى نَصِّ اللهِ فِي كِتَابِهِ)[2]. فلمَّا كَتَبَ الكتابَ طَبَعَهُ بالْمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتَمهِ، وقال للهُدهدِ: اذهَبْ بهِ، فأخذ الكتابَ بمنقارهِ وذهبَ به.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٦).

فلما أغلقَتِ المرأةُ الأبوابَ دونَها ونامَتْ على سريرِها، ووضعت المفاتيحَ تحت وسادَتِها، فأتى بها الهدهدُ من الكُوَّةِ وهي نائمةٌ مستلقية على قَفَاهَا، فألقى الكتابَ على وجهِها ونبَّهَها بمنقارِهِ وصوتِهِ، فأخذتِ الكتابَ، وكانت كاتبةً قارئةً عربيَّةً من تُبَّع بنِ سراحيل الْحِمْيَرِيِّ، فقرأتِ الكتابَ وناخرَ الهدهدُ غيرَ بعيدٍ، فدعت بذوي الرَّأيِ من قومِها وهم اثنا عشرَ ألفَ قائدٍ مع كلِّ قائد مائة ألفِ مُقاتلٍ.

وقال قتادةُ: (كَانَ أَهْلُ مَشُورَتِهَا ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلاً)(١) فجَاؤُا إليها، و ﴿ قَالَتْ ﴾ لَهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي حَسَنٌ، وَقِيْلَ: شريفٌ، وَقِيْلَ: مَخْتُومٌ، قال ﷺ: [كَرَامَةُ الْكِتَابِ خَتْمُهُ](٢). وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾ ؛ أي الكتابُ مِن سليمانَ، ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ ؛ المكتوب، ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ ﴾ أي لا تَستكبِروا، ﴿ عَلَىَّ ﴾ ولا ترفَّعُوا عليَّ، ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ منقادِين طائعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ) بدلٌ من (كِتَابٌ) وموضعهُ على هذا القول رفعٌ، ويجوزُ أن يكون نَصباً على معنى بأن لاَ تَعْلُوا عَلَيَّ. وَقِيْلَ: معنى قوله (وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) أي مُؤمِنين باللهِ ورسولهِ مِن الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ. وَقِيْلَ: مُستَسْلِمين لأَمْرِي فيما أدعُوكُم إليه، فإنِّي لا أدعُوكُم إلاّ إلى حقٍّ، فأطيعُونِي قبلَ أن أُكرِهَكُم على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ ؛ أي قالت لأهلِ مشورَتِها: بَيِّنُوا لِي. ما أعملُ في أمرِي بما هو الصوابُ، وأشِيرُوا عليَّ، فإنِّي ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ ؛ من الأمور في ما مَضَى، ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ تحضُرونَ فتُشاوِرُونِي، فأشِيرُوا عليَّ في هذا الكتاب، ما أصنعُ فيهِ ؟

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٩٥)، بلفظ: (وكان أولو مشورتها ثلاث مائة واثني عشر).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٤ ص٥١٩: الحديث (٣٨٨٤)، وقال: (تفرد به يحيى بن طلحة). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمَّد ابن مروان السدي الصغير، وهو متروك). وفي المخطوط بلفظ: (كريم).

﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ مُجيبينَ لَها: ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ ؛ وعُدَّةٍ في القتال لَم يبلُغْنا عدوٌّ قط، وَ نحنُ ﴿ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ في الحرب، ذكَروا لها قوَّتَهم وشجاعَتَهم، وهذا تعريضٌ منهم بالقتالِ إن أمرَتْهُم بذلكَ.

ثُم قالُوا: ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ؛ أي في القتال وتَرْكِهِ إن أمَرْتِنا بالقتال قاتلناهُ، وإنْ أمَرْتِنا بغيرِ ذلك فعلناهُ، وذلك معنى قولِهِ: ﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ماذا تُشِيرينَ علينا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ ؛ أي قالَتْ مُجيبةً لَهم عن التعريضِ بالقتال: إنَّ الملوكَ إذا دخَلُوا قريةً عُنْوَةً عن غفلةٍ وقِتَالٍ أفْسَدُوها؛ أي خرَّبُوها وأهْلَكُوها، ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ ؛ أي وأهَانُوا أشرَافَها وكُبَراءَها كي يستقيمَ لَهم الأمرُ. وَقِيْلَ: معنى قولِهِ (وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلِهَا أذِلَّةً) أي بالقتْلِ والأسرِ والاستعباد وأخذِ المال، وانتهى الكلامُ ها هنا.

قال اللهُ تصديقاً لَها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي كما قالَتْ هُم يفعلُونَ. ومعنى الآية: أنَّها حذرَتْهُمْ مسيرَ سُليمانَ إليهم ودخولَ بلادِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّها لَمَّا تدبَّرَتْ في أمرها قوَّتِ الْمُلاطفةَ بالْهَدايَا، وكانت مِن أولادِ الملوكِ، تعرفُ عادتِهم وحُسْنَ مواقع الهدايا عندَهم، فإنَّ ذلك هو الأولى، وكانت بلقيسُ امرأةً لَبيْبَةً أدِيْبَةً، فقالَت بهذا القول اختِبَاراً لسليمانَ: أمَلِكٌ هو أم نَبِيٌّ؟ فإن كان مَلِكاً قَبِلَ الْهَدايا وتَرَكَ الوُصولَ إلى بلدِها، وإنْ كان نَبياً لَم يرضَ بالْهَدِيَّةِ، ولا يُرضِيه إلاَّ أن تَتْبعَهُ، فهيَّأتِ الْهَدايا من الْمِسْكِ والعَنْبَرِ والعُودِ وغيرِ ذلك، وأهدت له خَمسَمِائَةِ عبدٍ وخَمسَمِائَةِ جَاريةٍ، وأهدَتْ له أيضاً صِحَافَ الذهب وخَمسَمائة لَبِنَةٍ من ذهبٍ وخَمسَمائة لَبِنَةٍ من فِضَّةٍ، وتَاجاً مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي فلما جاءَ رسولُها إلى سُليمانَ يُهْدِيهُ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لهُ سُليمانُ: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ وأنا أكثرُ أهلِ الدُّنيا مالاً ولستُ مِمَّن يرغبُ في المالِ، ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

نَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي إذا أهْدَى بعضُكم إلى بعضٍ فَرِحُوا بذلكَ، وأما أنا فلا أفرحُ لأنَّكم أهلُ مفاخرة ومكاثرةٍ في الدُّنيا.

وفي الخبر: أنَّ سُليمانَ الْكِلِيْلا لَمَّا عَلِمَ بالْهَدايَا قَبْلَ أنْ تَصِلَ إليه أمَرَ أنْ يضربَ لَبنَاتٍ مِن الذهَب أحسنَ وأجودَ مما كانَ مع رسُولِها، وأمَرَ أن تُلْقَى تلك اللَّبنَاتُ بين قوائمِ الدَّواب حتى تَرُوثَ وتَبُولَ عليها، فلمَّا رأى ذلك الرسولُ استخَفَّ الهديَّةَ التي كانت معهُ، وكانت بلقيسُ قد قالت لرسُولِها: إذا دخلْتَ عليهِ، فإذا نَظَرَ إليكَ نَظرَ غَضَبٍ، فاعْلَمْ أنَّهُ مَلِكٌ فلا يَهُولَنَّكَ منظرُهُ، فأنا أعَزُّ منه، وإنْ نَظَرَ إليكَ بوجهٍ طَلِقٍ فإنه نَبِيٌّ مرسلٌ. فتَفَهَّمْ قولَهُ ورُدَّ الجوابَ. فانْطَلَقَ الرسولُ بالْهَدايا ومعهُ الْهُدهُدُ مُسرِعَين إلى سليمانَ.

فلمَّا وَصَلَ الرسولُ إلى سليمانَ وجَدَهُ قاعداً في مجلسهِ على سريره، وعلى يَمينه أربعةُ آلاف كرسِيٍّ من ذهبٍ، وعن يساره مثلُ ذلكَ، وقد اصطَفَّتِ الإنسُ صُفُوفاً وفراسِخَ، واصطَفَّتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوش والسِّباع والْهَوَامُّ والطيرُ كذلك صُفُوفاً وفراسخَ، عن يَمينهِ ويسارهِ.

فلما رَأوا الشياطينَ نظَرُوا إلى منظر فَضيعٍ ففَزِعُوا منهم، فقالت لَهم الشياطينُ: جُوزُوا فَلا بأسَ عليكم، فكانوا يَمرُّونَ على كلِّ كرُؤوسٍ من الجنِّ والإنس والطير والوحوش حتى وقَفُوا بين يدَي سليمانَ، فنظرَ إليهم نَظَراً حَسَناً بوجهٍ طَلِقٍ، وقال: ما وراءَكم؟

فأخبَرَهم رئيسُهم بما جَاءُوا به من الْهَدِيَّةِ، وأعطاهُ كِتَاباً من الملكةِ، فنظرَ فيه، ثُم قالَ لرسُولِها: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ ؛ أي بعَساكِرَ لا طاقةَ لَهم بها، ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا ﴾ ؛ من بلادهِم، ﴿ أَذِلَّةً ﴾ ؛ مغلولةً أيْدِيهم إلى أعناقِهم، ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي مُهَانُونَ.

فلمَّا أخبَرَها الرسولُ بذلكَ، قالت: قد عرفتُ ما هذا بمَلِكٍ، وما لَنا به من طاقةٍ ولا ينبغِي لنا مخالفتهُ، فتجهَّزَت للمسيرِ إليه، ثُم عمَدَتْ إلى سريرِها فوضعتْهُ في سبعةِ بيوت مقفلة الأبواب، بيتٌ فوقَ بيتٍ وجعلته في الطَّبقة السابعةِ، وجعلتِ الجيوشَ حولَهُ وخرجَتْ متوجِّهة إلى سليمانَ.

فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى سليمانَ وأخبرَهُ بمجيئها إليه، ﴿ قَالَ ﴾ سليمانُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ ؛ أي سرير مُلكِها، ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي مُؤمنينَ، وَقِيْلَ: صَاغِرين مُستَسلِمين منقادينَ.

وإنَّما خَصَّ العرشَ بالطلب؛ لأنه أعْجَبَهُ صِفَتُهُ، فأحبَّ أن يُعاتِبَها به، ويختبرَ عقلَها به إذا رأتْهُ، تعرفهُ أم تُنكِرهُ، وأحبَّ أن يُريَها قدرةَ اللهِ في معجزةٍ يأتي بها في عرشِها، وأحبَّ أن يأخذ عرشَها قَبْلَ أنْ تُسْلِمَ، فلا يحلُّ أخذُ مالِها بعدَ الإسلامِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ؛ يعرفُ بعَمْرو، والجِنِّيُّ والعفريتُ في كلِّ شيءٍ: الْمُبَالِغُ الْحَاذِقُ، يقالُ: رَجُلٌ عِفْرٌ وعِفرِيْتٌ وعِفْرِيَةٌ، بمعنى واحدٍ، والجمعُ عَفَارِيتُ وَعَفَارَى، وَقِيْلَ: العفريتُ من الجِنِّ الْمَارِدُ القويُّ الغليظ الشديدُ. وَقِيْلَ: اسمُ العفريتِ الدَّاهِيَةُ.

قِيْلَ: إنَّها سارَتْ إلَى سليمانَ في اثنَي عشرَ ألفَ قِيْلٍ، تحتَ كلِّ قِيْلٍ أُلوفٌ كثيرةٌ، فخرجَ سليمانُ ذات يومٍ وإذا هو يَرَى هَرَجاً قريباً منهُ، فقال: ما هَذا ؟ قالوا: بلقيسُ، قال: قد نزلَتْ منَّا بهذا المكان. قال ابنُ عبَّاس: (وَهُوَ مَكَانٌ بَيْنَ الْحِيْرَةِ وَالْكُوفَةِ بُعَيْدَ فَرْسَخٍ) فأقبلَ حينئذ سليمانُ على جنودِه، وقال: (أيُّكُمْ يَأْتِينِي بعَرْشِهَا قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟).

واختلفَ أهلُ العلمِ في السَّبب الذي لأجلِهِ أمرَ سليمانُ بإحضار عرشِها، قِيْلَ: أن يَحْرُمَ عليه أخذهُ بإسلامِها. وقال قتادةُ: (إنَّهُ أعْجَبَهُ صِفَتُهُ لَمَّا وَصَفَهُ لَهُ الْهُدْهُدُ، فَأَحَبَّ أنْ يَرَاهُ)(١)، وقال ابنُ زيدٍ: (أرَادَ أنْ يَخْتَبرَ عَقْلَهَا بتَنْكِيْرِ عَرْشِهَا وَلِيَنْظُرَ هَلْ تَعْرِفُهُ إذا رَأتْهُ أوْ تُنْكِرُهُ)(٢)، وَقِيْلَ: لِيُريَها قدرةَ اللهِ وعِلْمَ سُلطانِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ ؛ أي من مجلس قضَائِكَ، وكان سليمانُ يجلسُ للقضاء من الغَدَاةِ إلى انتصافِ النَّهار، وقال مقاتلُ:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٢٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٣٥٩).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٤١٥) عن ابن عباس بمعناه وإسناده ضعيف.

(قَالَ الْعِفْرِيْتُ: أنَا أضَعُ قَدَمِي عِنْدَ مُنْتَهَى بَصَرِي، فَلَيْسَ شَيْءٌ أسْرَعُ مِنِّي)(١) ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قَوِيٌّ على حملِهِ، أمينٌ على ما فيهِ مِن الذهبِ والجواهرِ. فقال سليمانُ: أريدُ أسرعَ مِن ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ ؛ وهو آصفُ بن بَرْخَيَا كان يعلَمُ الاسمَ الأعظمَ(٢) الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين. وقال بعضُهم: هو جبريلُ، وَقِيْلَ: هو مَلَكٌ من الملائكةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ؛ قال ابنُ جبير:(قَالَ لِسُلَيْمَانَ: انْظُرْ إلَى السَّمَاءِ، فَمَا طَرَفَ حَتَّى جَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ)(٣). والمعنى: حتى يعودَ إليك طَرْفُكَ بعد مَدِّهِ إلى السَّماء. وَقِيْلَ: معناهُ: بقدرِ ما تفتحُ عينَيْكَ، وهذا الكلامُ عبارةٌ عن المبالغةِ في السُّرعةِ.

قال محمَّدُ بن اسحق: (انْخَرَقَ مَكَانُ عَرْشِهَا حَيْثُ هُوَ، ثُمَّ نَبَعَ بَيْنَ يَدَي سُلَيْمَانَ)(٤) ومثلُ هذا رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس. وقال الكلبيُّ:(خَرَّ آصِفُ سَاجِداً وَدَعَا بالاسْمِ الأَعْظَمِ، فَغَارَ عَرْشُهَا تَحْتَ الأَرْضِ حَتَّى نَبَعَ عِنْدَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ)(٥).

قال أهلُ المعانِي: لا يُنْكَرُ من قدرةِ الله ((نقله)) من حيث كانَ، ثُم يوجدهُ حيث كانَ سليمانُ بالأفضلِ، لدعاءِ الذي عندَهُ علمٌ من الكتاب، ويكونُ ذلك كرامةً للولِيِّ ومعجزةً للنبيِّ.

واختلَفُوا في ذلكَ الدُّعاءِ الذي دعَا بهِ آصِفُ، فقال مقاتلُ ومجاهد: (يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإكْرَامِ)(٦)، وقال الكلبيُّ: (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ)، وَقِيْلَ: قالَ لهُ سليمانُ: قد رأيتُكَ تُرْجِعُ شفَتيكَ فَمَا قُلْتَ ؟ قالَ: قلتُ إلَهِي وإلَهَ كلِّ شيء واحدٌ لا إلهَ إلاّ أنتَ

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٨١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٨٨) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٣٩٠).
(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٢، وأصله كما في الأثر السابق عند ابن أبي حاتم.
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٤٣).

إئْتِ بهِ. وقال بعضُهم: هو يا إلَهَنَا وإلَهَ كلِّ شيء، يا ذا الجلال والإكرام لا إلهَ إلاّ أنتَ. وقال الحسنُ: (اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ: يَا رَحْمَنُ، وَذلِكَ أنَّهُ لاَ يُسَمَّي أحَدٌ بهَذيْنِ الاسْمَيْنِ عَلَى الإطْلاَقِ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا ﴾ ؛ أي فلمَّا رأى سليمانُ العرشَ مستقِراً، ﴿ عِندَهُۥ ﴾ ، ثابتاً بين يديه، ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي ﴾ ؛ أي هذا التمكينُ من حصولِ المراد من حصولُ فضْلِ اللهِ وعطائهِ، ﴿ لِيَبۡلُوَنِيٓ ﴾ ؛ أي ليَختَبرَني ويَمتحِنَني على هذه النعمةِ، ﴿ ءَأَشۡكُرُ ﴾ ؛ أأشكرهُ فيما أعطاني من نعمةٍ، ﴿ أَمۡ أَكۡفُرُۖ ﴾ ؛ أي أتركُ شُكرَها، ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾ ؛ أي مَن شَكَرَ نعمةَ ربهِ فإنَّما منفعةُ شُكْرِهِ راجعٌ إلى نفسهِ، يعني ثوابَ شُكرِهِ يعودُ إليه، ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ ؛ أي تَركَ شُكْرَ نعمتهِ، ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ ﴾ ؛ عنهُ وعن شُكرهِ، ﴿ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يقبلُ الشُّكْرَ؛ أي ويزيدُ عليه في النعمةِ في الدُّنيا ويثيبُ عليه في العُقبَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا ﴾ ؛ قال سليمانُ: غيِّرُوا سريرَها وزيدُوا فيه وأنقِصُوا منهُ حتى، ﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾ ؛ أي فلما جاءت بلقيسُ إلى سليمانَ، قِيْلَ: أهكذا سَريرُكِ ؟ فجعلت تعرفُ وتُنكِرُ، وعَجِبَتْ من حضورهِ عند سُليمانَ، و ﴿ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ ؛ وقال مقاتلُ: (عَرَفَتْهُ وَلَكِنَّهَا شَبَّهَتْ عَلَيْهِ كَمَا شَبَّهُوا عَلَيْهَا، وَلَوْ قِيْلَ لَهَا: أهَذا عَرْشُكِ؟ لَقَالَتْ: نَعَمْ. فقيلَ لَها: فإنه عرشُكِ، فما أغنَى عنكِ إغلاقُ الأبواب، وكانت قد خلَّفتْهُ وراءَ سبعةِ أبوابٍ لَمَّا خرجت والمفاتيحُ معَها، فلم تُقِرَّ ولَم تُنْكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلِها)[١] .

وقال عكرمةُ: (كَانَتْ حَكِيْمَةً، قَالَتْ: إنْ قُلْتُ هُوَ هُوَ خَشِيْتُ أنْ أكْذِبَ، وَإنْ قُلْتُ لاَ خَشِيْتُ أنْ أكْذِبَ)[٢] فلَم تقلْ نعَمْ، ولا قالت لاَ؛ لأنه كان يشبهُ سريرَها، وشكَّتْ في وصولهِ إلى سليمانَ بعد أن وضعتْهُ في أحصَنِ المواضعِ، وشكَّتْ أيضاً لِمَا أحدثُوا فيه من التغيُّر.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٧٨ .

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ هذا من قول سُليمانَ عليه السلام وقومهُ؛ أي قالُوا: وأعطينا العلمَ بها وبمُلكِها وسريرِها من قبلِ مَجيئِها، وهو ما أخبرَ به الهدهدُ من شأنِها وقصَّتِها، وقالوا: وَكُنَّا مُسْلِمِيْنَ بحمدِ الله عَزَّ وَجَلَّ من قبلِ مشاهدةِ المعجزات، وهذا قولُ مجاهدٍ.

وقال بعضُهم: هذا قولُ من بلقيسَ لَمَّا رأت عرشَها قالت: وَأُوتِينَا العلمَ بصحَّة نبوَّة سليمانَ عليه السلام من قَبْلِ الآيةِ في العرضِ وكنا مُسْلِمِيْنَ طائعينَ منقادين لأمرِ سُليمانَ عليه السلام قبلَ أن نجيءَ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي منعَها الإيْمَانَ باللهِ العبادةُ التي كانت عليها من عبادةِ الشَّمسِ. والمعنى: وَصَدَّهَا عَنِ الإيْمان والتوحيدِ الذي كانَتْ تعبدُ من دون اللهِ؛ وهو الشمسُ؛ لأنَّها نشأَتْ في قومٍ لَم يكونوا يَعْرِفُونَ إلاّ عبادةَ الشَّمسِ؛ لأنَّها كانت من الْمَجُوسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي إنَّها كانت من قومٍ يعبدونَ الشَّمسَ، فنشأَتْ في ما بينِهم. وقال بعضُهم معنى قولِهِ: (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ) أيْ صَدَّهَا سليمانُ؛ أي منعَها ذلك، وحالَ بينَهُ وبينَها، فعلى هذا يكون موضعُ (مَا) نصباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ بلقيسَ لَمَّا لَم تُسلِمْ بما رأتْ من الآياتِ، أرادَ سليمانُ عليه السلام أن يُرِيَها آيةً أخرَى لتُسْلِمَ، فأمرَ الجنَّ والشياطينَ أن يَبْنُوا لَها صَرْحاً؛ أي قَصْراً من زجاجٍ مُمَلَّسٍ، وأن يُجْرُوا تحتَهُ الماءَ، ويجعلُوا فيه الْمِسْكَ والزُّمُرُّدَ الأملسَ، وشجرةٌ مَرْدَاءُ؛ أي ملساءُ لا وَرَقَ لَها. ففعلُوا ذلكَ ثُم وضَعُوا لَهُ سريراً في صدر الصَّرحِ فجلسَ عليهِ، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجنُّ والإنس.

وَقِيْلَ: إنَّ سليمانَ عليه السلام إنَّما أمَرَ ببناءِ الصَّرحِ؛ لأن الجنَّ كانوا قد أخبَروهُ أن رجلَها رجْلُ حِمَار، وإنَّها شعراءُ الرِّجْلَين؛ لأن أمَّهَا كانت من الجنِّ، فخافُوا أن يتزوَّجَها فتُفشِي إليه أسرارُ الجنِّ، فأرادُوا أن يُزهِدُوهُ فيها بهذا الكلامِ، وقالوا لَهُ أيضاً: إنَّ في عقْلِها شيءٌ، فأرادَ أن يختبرَ حقيقةَ قولِهم أنَّ رجْلَها كحافِرِ الحمار،

ولينظُرَ إلى سَاقِها هل به شَعْرٌ كما قالوا (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ) أي القَصْرَ، وَقِيلَ: صَحْنُ القصرِ.

قال الزجَّاجُ: (والصَّرْحُ: الْقَصْرُ والصَّحْنُ، يُقَالُ: هَـذِهِ سَاحَةُ الـدَّار وصُرْحَـةُ الدار)[(١)]. والصَّرْحُ في اللغة: هو البَسْطُ المنكشفُ من غير سَقْفٍ، ومنهُ صَـرَّحَ بـالأمرِ إذا أفصحَ به ولَم يُكَنِّ عنهُ، والتصريحُ بخلافِ التَّضميرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ ؛ أي فلمَّا رأتْ بلقيسُ الصَّرْحَ على تلك الصِّفَةِ، ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ ؛ واللُّجَّةُ مُعْظَـمُ المـاءِ الكثـيرِ، ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ؛ أي رَفَعَتْ ثِيابَها عن ساقيها حتى لا تُبْتَلَّ ثيابُها على ما هو العادةُ من قصدِ الماء. قال ابـنُ عبَّاس: (لَمَّا كَشَفَتْ سَاقَهَا رَأى سُلَيْمَانُ قَدَماً لَطِيْفاً وَسَاقاً حَسَناً خَدْلَجـاً[(٢)]، إلاَّ أنَّـهَا كَثِيْرَةُ شَعْرِ السَّاقَيْنِ). فلَمَّا رأى سليمانُ ذلـك صَـرَفَ بصـرَهُ عنـها، وناداهـا: ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ ، ليس هذا بماءٍ، وإنَّما هو، ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ ؛ أي مُمَلَّسٌ من زُجاجٍ، فلا تخافِي وَاعبُري عليهِ، فلمَّا رأتِ السَّريرَ والصَّرْحَ عَلِمَتْ أنَّ مُلْكَ سليمانَ مِـن اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ، و﴿ قَـالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ ؛ بعبـادةِ الشَّـمسِ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أخْلَصْتُ التوحيدَ.

والمعنى: أنَّ بلقيسَ اسْتَدَلَّتْ بما شاهدَتْ على وحدانيَّة اللهِ وصِحَّةِ نُبوَّةِ سُليمانَ بما رَأتْ مِن شِدَّةِ قوَّتهِ وما كان مِن تَرَسُّلِ الطيرِ له، وإحضـارِ عَرشِـها في أسـرعِ مـدَّة على بُعْدِ المسافةِ، وَبناءِ الصَّرحِ من القَوَارِيْرِ على وجهِ الماءِ، فلذلـكَ قـالَتْ: (ظَلَمْـتُ نَفْسِي وَأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِينَ) فتزوَّجها سليمانُ عليه السلام.

وَقِيْلَ: لَمَّا أرادَ سليمانُ أن يتزوَّجَها كَرِهَ ذلكَ لِمَا رأى من كَثْرَةِ شَـعْرِ سـاقيها، فسألَ الإنسَ:ما يُذْهِبُ هذا؟ قالُوا: الْمُوسـى، فقـال: إنَّـها تقطـعُ سـاقَيها، فسـألَ الجِـنَّ فقالوا: لا نَدري، ثُم سألَ الشياطينَ فقال لَهم: كيفَ لِي أن أقلعَ هذا الشَّعْرَ مـن غـير

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٩٣، وقال: (وصحنةُ الدار، وباحةُ الدار، وقاعةُ الدار، هـذا كلُّه في معنى الصَّحن).

(٢) الْخَدْلَجَةُ من النساء: الريَّـاءُ، الممتلئة، وقيـل: هـي الضخمـة السـاقين. ينظـر: المحكـم والمحيط الأعظم: ج ٥ ص٣٢٢: (الخدلجة)

مضَرَّةٍ للجسدِ ؟ فدلُّوه على عَمَلِ النُّورةِ، وكانت النُّورةُ والحمَّامَاتُ من يومئذٍ، فاتَّخذُوا لَها النُّورةَ والحمَّامَ، وتزوَّجَها سليمانُ عليه السلام، فلما تزوَّجَها أحبَّها حُبّاً شديداً، وأقرَّها على مُلْكِهَا، وأمَرَ الجنَّ بأنْ يَبْنُوا لَها بأرضِ اليَمَنِ ثلاثةَ حُصُونٍ لَم يُرَ مِثلُها حُسْناً وارتفاعاً؛ وهي: سَيْلَحِيْنَ وَسُونَ وَغَمَدَانَ، ثُم كان سليمانُ يَزُورُهَا في كلِّ شهرٍ مرَّةً بعد أن رَدَّهَا إلى مُلكِها، ويقيمُ عندَها ثلاثةَ أيَّام، وولدت لَهُ أولاداً في ما ذُكِرَ.

ورُوِيَ أنَّ رَجُلاً جاءَ إلى عبدِالله بن عُتْبَةَ وسألَهُ: هل تَزَوَّجَ سليمانُ بلقيسَ؟ فقالَ:(عَهْدِي بهَا أنْ قَالَتْ: وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ)[1] يعني أنهُ لا يَعلَمُ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ يعني بأن اعْبُدُوا اللهَ وحده، فآمَنَ به فريقٌ وكَفَرَ به فريقٌ، فجعلَ الفريقان يختصِمُونَ كما قالَ تعالى في سُورةِ الأعرافِ ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبهِ قَالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[2]. وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي فإذا هُم مُؤْمِنٌ وكافرٌ، مُصَدِّقٌ ومُكَذِّبٌ، يختصمُونَ في الدِّين، كلُّ فريقٍ منهم يقولُ: الحقُّ معِي.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ؛ فيه ضميرٌ تقديرهُ: إنَّ المؤمنين أوْعَدُوا الكافرينَ على كُفرهم وتكذيبهم، فاستعجلَ الكافرون العذابَ، فقال صالحٌ عليه السلام للكافِرين المكذِّبين: (لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أي بالعذاب قبلَ الرَّحمةِ، ولا تستعجلونَ الثَّوابَ الموعود على الإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي هَلاَّ تَستغفِرُونَ اللهَ عن كُفرِكُمْ وتكذيبكم، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي فلاَ تعذبون في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ؛ أي تَشاءَمْنَا بكَ وبِمَن معكَ بما لَحِقَنَا من نُقصَانِ الزَّرعِ والثمار والمياهِ. والتَّطَيُّرُ: هو التَّشاؤُمُ، وأصلهُ: تَطَيَّرْنا بكَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٤٤٩).
(٢) الأعراف / ٧٥ .

وَبِمَنْ مَعَكَ، وذلكَ أنه قحط المطرِ عنهم وجَاءُوا فقالوا: أصَابَنَا هذا البلاءُ والضرُّ مِن شُؤمِكَ وشُؤْمِ أصحابكَ.

وإنَّما ذُكِرَ التطيُّرُ بلفظِ التَّشَائُمِ على عادةِ العَرَب في نِسْبَتِهِمُ الشُّؤْمَ إلى ما يَأْتِي من الطَّيرِ ناحيةَ اليَدِ الشُّؤمَى وهي اليُسْرَى، ويُسَمُّونَ الطَّيرَ الذي يأتِي من ناحية اليد اليُسْرَى البَارحُ، وأما الطَّيْرُ الذي يأتِي من ناحيةِ اليد اليُمْنَى فهو السَّانِحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي قال لَهم صالِحُ عليه السلام رَدّاً عليهم: (طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ) أي الشُّؤْمُ أتاكم من عندِ الله بكُفْرِكُمْ، وهذا الذي أصَابكم من الْجَدْب والخصب عندَ الله مكتوبٌ عليكم، لاَزمٌ لكم في أعناقِكم وليسَ ذلك إلَيَّ ولا علمهُ عندِي، وهذا كقولهِ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي تَخْسَرُونَ في الدُّنيا باختلافِ الأحوال من الخير والشرِّ. وَقِيْلَ: معناهُ: بَل أنتُمْ قومٌ تُعَذبُونَ بذُنُوبكُمْ. وَقِيْلَ: تُمتَحَنُونَ بإرسَالِي إليكُم لِتُثَابُوا على مُتَابَعَتِي، وتُعَاقَبُوا على مُخالَفَتِي. وَقِيْلَ: بمعنى (تُفْتَنُونَ) أي تُعاقَبون كما في قولهِ تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[(١)] أي عُقوبَتَكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كان في مدينةِ صَالِحِ عليه السلام وهي الْحِجْرُ تسعةُ رَهْطٍ من الفُسَّاق من أبناءِ رُؤَسَائِهِمْ وهم غُوَاةِ قَومِ صَالِحِ يُفسِدُونَ في الأرضِ بالمعاصِي ولا يُصلِحُونَ ولا يُطِيعُونَ اللهَ، ولا[(٢)] يَأتَمِرُونَ بالصَّلاحِ، وأسْمَاؤُهم قُدَارُ بن سَالِفُ؛ ومُصدع؛ وأسلم؛ ودهم؛ وذهيم؛ وذعما؛ ودغيم؛ وقتَّال؛ وضرَّاب[(٣)].

---

(١) الذاريات / ١٤.

(٢) (لا) سقطت من المخطوط.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢١٥-٢١٦ بعد ذكر أسمائهم واختلاف الروايات؛ قال القرطبي: (وذلك لا ينضبط برواية، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين). وفي التفسير الكبير: الأثر (١٦٤٦٦) أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال: [كانت أسَاميهم: رعمي، ورعيم، وداد، وصواب، ورياب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ ؛ أي قالُوا فيما بينَهم: احْلِفُوا باللهِ؛ أي تَحالَفُوا باللهِ لتَدْخُلُنَّ على صالحٍ وعلى أهلِهِ الذين آمَنُوا معه لَيْلاً فنَقتُلَهُمْ بَيَاتاً. قرأ يحيَى وحمزةُ والأعمش والكسائيُّ وخلف (لَتُبَيِّتُنَّهُ) بالتاءِ و(لَيَقُولُنَّ) بالياء وضمِّ التاء واللاَّمِ على الخطاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ؛ فيما نقولُ، وقرأ عاصمُ برواية أبي بكرٍ (مَهْلَكَ) بفتحِ الميم واللامِ، والْمَهْلَكُ: يجوز أن يكونَ مصدراً بمعنى الإهْلاَكِ، ويجوزُ أن يكون الموضعُ. ورَوَى حفصٌ عن عاصمٍ (مَهْلِكَ) بفتح الميم وكسرِ اللاَّم وهو اسمُ المكانِ على معنى: مَا شَهِدْنَا مَوْضِعَ هَلاكِهم[١].

قال الزجَّاجُ: (تَحَالَفَ هَؤُلاَءِ التِّسْعَةُ عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صَالِحاً وَأهْلَهُ، ثُمَّ يُنْكِرُوا عِنْدَ أوْلِيَائِهِ، وَكَانَ هَذا مُنْكَراً عَزَمُوا عَلَيْهِ)[٢]، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ؛ أي دَبَّرُوا في أمرِ صالحٍ عليه السلام وأهلَهُ من حيث لَم يَشْعُرْ بهم صالح ولاَ أهلُهُ، (وَمَكَرْنَا مَكْراً) أي دَبَّرْنَا نحنُ في هلاكِهم مجازاةً لَهم على مَكْرِهم بتعجيلِ عقوبتهم (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) بما أرَدْنا فيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ ؛ أي فانظُرْ يا مُحَمَّدُ (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ) أي كيفَ كان آخرُ مَكْرِهم، ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

قرأ الحسنُ وأهلُ مكَّة والأعمشُ (أنَّا دَمَّرْنَاهُمْ) بفتحِ الهمزة ولذلكَ وَجْهان في أحدِهما: أنْ تكون بدلاً في محلِّ الرفعِ تَبَعاً للعاقبةِ، كأنَّهُ قال: العاقبةُ أنَّا دمَّرْناهُمْ. والثانِي: أنَّ موضِعَها نُصِبَ على خبرِ كَانَ، تقديرهُ: كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ التَّدْمِيْرَ. وقرأ الباقونَ بالكسرِ على الابتداء وهو تفسيرُ ما كان قبلَهُ مثلَ قولهِ ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ إلَى طَعَامِهِ، أنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾[٣].

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٠.
(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص٩٤، وحكاه المصنف رحمه الله بتصرف ليس بالنص كما هو.
(٣) عبس/ ٤-٢٥. ينظر: معاني القرآن للفراء: ج٢ ص٢٩٦. وإعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص١٤٧-١٤٨.

والتدميرُ: هو الإهلاكُ على وجهٍ عظيم قطيعٍ. واختلَفُوا في كيفيَّةِ هلاكِهم، قال ابنُ عبَّاس: (أرْسَلَ اللهُ الْمَلائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إلَى دَار صَالِحٍ يَحْرُسُونَهَا، وَجَاءَتِ التِّسْعَةُ إلَى دَار صَالِحٍ شَاهِرِيْنَ سُيُوفَهُمْ، فَرَمَتْهُمُ الْمَلائِكَةُ بالْحِجَارَةِ مِنْ حَيْثُ كَانُوا يَرَوْنَ الْحِجَارَةَ وَلاَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ فَقَتَلَتْهُمْ)[1]. وقال مجاهدُ: (نَزَلُوا فِي سَفْحِ جَبَلٍ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَأْتُوا دَارَ صَالِحٍ، فَخَتَمَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلُ فَأَهْلَكَهُمْ وَأَهْلَكَ اللهُ قَوْمَهُمْ أجْمَعِيْنَ بصَيْحَةِ جِبْرِيْلَ عليه السلام).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ؛ أي خاويةً عن الأهلِ والخيرِ والنِّعمةِ بسبب ظُلمِهم لَم يبقَ فيها منهم ديَّارٌ، قرأ العامَّة (خَاوِيَةً) بالنصب على الحال، والمعنى: فانْظُرْ إلَى بيوتِهم خاويةً بما ظَلَمُوا؛ أي بظُلْمِهم وشِرْكِهم أهلَكْنَاهُم حتى جعلنَا بيوتَهم خاويةً؛ أي منازلَهم ساقطةً على عُروشِها.

وَقِيْلَ: (خَاوِيَةً) نُصِبَ على القطعِ، تقديرُهُ: فتِلْكَ بُيوتُهم الخاويةَ، فلما قُطِعَ منها الألفُ واللام نُصِبَ، كقولهِ ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾[2]. وقرأ عيسَى بن عمر (خَاوِيَةٌ) بالرفعِ على الخبر.

قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ ﴾ ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إيَّاهُم لَدلالَةٌ ظاهرةٌ وعِبرَةٌ لِمن عَلِمَ توحيدَ الله وقدرتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ أي أنْجَيْنَا الذين آمَنُوا بصالحٍ من العذاب ﴿ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣ ﴾ ؛ الشِّركَ والعقابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ ؛ أي واذكُرْ لُوطاً إذ قال لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ ؛ يعني اللِّواطَةَ، سَمَّاها فاحشةً لعِظَمِ قُبْحِها، ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ ﴾ ؛ أي وأنتم تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وَقِيْلَ: وأنْتُمْ تُبصِرُونَ بعضَكم بعضاً وكانوا لا يَسْتَتِرُونَ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٤.

(٢) النحل / ٥٢ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ؛ أي تجهَلونَ العذابَ الموعودَ على هذه الفَاحِشَةِ، وَقِيْلَ: تجهلونَ القيامةَ وعاقبةَ المعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ؛ أي عن أدْبَار الرِّجال يقولون استهزاءً بهم.

وقولُـهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ؛ أي قَدَّرْنَا عليها أن تكونَ مِنَ الغَابرِيْنَ؛ أي من المتخلِّفين فتهلَكُ فيمَن هلكَ، لا جُرمها مثلَ جُرمِهم لأنَّها كانت راضيةً بأفعَالِهم القبيحةِ فجرَتْ مجرَاهُم في العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ ؛ أي على مسافريهم، أي حجارةً؛ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ؛ فبئْسَ المطرَ مطرُ قومٍ أنذرَهم لوطٌ عليه السلام فلَم يؤمِنُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ ؛ أي قِيْلَ لِلُوطِ عليه السلام: قُلِ الْحَمْدُ للهِ على هلاكِ كُفَّار قَومِي. وَقِيْلَ: الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ: الحمدُ للهِ على هلاكِ كفَّار الأُمَمِ الخاليةِ. وَقِيْلَ: على جميعِ نِعَمِ اللهِ سُبحانَهُ.

وقولُهُ تعالى: (وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) قال يعني الانبياءَ الذي اختارَهم اللهُ لرسالَتِهِ، وقال ابنُ عبَّاس: (هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم)[1]، وقال الكلبيُّ: (هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالَّذِيْنَ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ)[2]، ومعنى السَّلاَمِ عليهم: أنَّهم سَلِمُوا مِمَّا عُذِّبَ به الكفارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ؛ أي قُلْ لأهلِ مكَّةَ: أعِبَادَةُ اللهِ أفضلُ أم عبادةُ مَن تُشرِكُونَ به مَن دُونَهُ من الأصنامِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٥٣٩). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٤٩٥).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٦.

إذا قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ، قَالَ: [اللهُ أبْقَى وَأجَلُّ وَأكْرَمُ مِمَّا تُشْرِكُونَ][1]. قرأ عاصمُ وأهلُ البصرةِ (أمَّا يُشْرِكُونَ) بالياءِ، وقرأ الباقون بالتَّاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ فيه إضمارٌ كأنه قال: آلِهتُكم أم مَن الذي خلَقَ السَّمواتِ والأرض بما فيها من العجائب والبدائعِ، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ ؛ أي بساتينَ، ﴿ ذَاتَ بَهۡجَةٍ ﴾ ؛ أي مَنْظَرٌ حسَنٌ وأنوارٌ، والحديقةُ: هي البُسْتَانُ التي يُحَاطُ عليه بما فيه مِن النَّخْلِ والشَّجَرِ، فإن لَم يكن عليه حائطٌ فليس بحديقةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ ﴾ ؛ هذا نَفْيٌ، يعني ما قَدرْتُمْ عليهِ، والمعنَى: ما ينبغِي لكم ذلكَ؛ لأنَّكم لا تقدرونَ عليها، ثُم قال اسْتِفْهَاماً مُنْكِراً عَلَيهم: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي هل معَهُ معبودٌ سِوَاهُ أعَانَهُ على صُنعهِ في خَلْقِ هذه الأشجار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ ﴾ ؛ يعني كُفَّارَ مكَّةَ قومٌ يَعْدِلُونَ الأصنامَ بخالِقِهم بجَهلِهم. وَقِيْلَ: (يَعْدِلُونَ) أي يُشركُونَ باللهِ غيرَهُ. وَقِيْلَ: يَمِيلُونَ عن الطريقِ وعن النَّظرِ في الدَّلائلِ المؤدِّيَة إلى العِلْمِ بوحدانيَّةِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا ﴾ ؛ أي مستقرَّةً لا تَميلُ بأهلِها، بل جعلَها مَسْكَناً يَسِيرُونَ فيها ويصرفون عليها، فلا هي تضطربُ بهم، ولا هي حَزْنَةٌ غليظةٌ مثلَ رُؤوسِ الجبالِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا ﴾ ؛ أي جَعَلَ وسَطَ الأرضِ أوديةً وعُيوناً من عَذْبٍ ومَالِحٍ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ ؛ أي جَعَلَ على الأرضِ جِبَالاً ثوابتَ وأوديةً أوتاداً لها، ﴿ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ ﴾ ؛ أي بين المِلْحِ والعَذْبِ مانِعاً بلُطفهِ وقدرتهِ فلا يَختلطُ أحدُهما بالآخر، ولا يبغِي أحدُهما على صاحبهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي مع اللهِ إلهٌ فعَلَ شيئاً من هذهِ الأشياء، ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ ﴾ ؛ توحيدَ ربهم وسلطانه وقدرتهِ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٢١ من غير إسناد.

وقولُهُ تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ؛ الْمُضْطَرُّ: الْمَكْرُوبُ الْمَجْهُودُ المدفوعُ إلى ضيقٍ من الأمُور من غرَقٍ أو مرضٍ أو بلاء أو حبسٍ أو كَرْبٍ إذا دعاهُ، ﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ، فيكشِفُ ضُرَّهُ ويفرجُ عنه فيبعدهُ مِن الغرَقِ وينجيهِ ويَشفيهِ من المرضِ، ويعافيهِ من البلاء. وقال السديُّ:(الْمُضْطَرُّ الَّذِي لاَ حَوْلَ لَهُ وَلاَ قُوَّةَ)، وقال ذُو النُّونِ: (هُوَ الَّذِي قَطَعَ الْعَلاَئِقَ عَمَّا دُونَ اللهِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي يأتي بقومٍ بعد قومٍ، ويخلقُ قَرْناً بعد قَرْنٍ، وكلَّما أهْلَكَ قَرْناً أنشأ آخَرينَ، فيكون كلٌّ خلفاءٌ لِمَنْ قبلَهم. وقولُهُ تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إلَهٌ سِوَى اللهِ فعَلَ ذلكَ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قَليلاً ما تتَّعِظُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ معناهُ: أمَّنْ يُرشِدُكم إلى الطريقِ في ظَلمَاءِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحر إذا سافرَ، ثُم بمَا خَلَقَ لكم من القمَرِ والنُّجومِ والمسالكِ، وهذا كقولهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(٢)، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالظُّلُماتِ الشَّدائِدُ، ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي قُدَّامَ المطرِ، والنَّشْرُ: جمعُ نُشُورٍ؛ وهي الرياحُ التي تأتِي بالسَّحاب، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي جَلَّ وَعَزَّ أن يكونَ له شريكٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: أمَّنْ يبدأ الخلقَ في الأرحام من النُّطفةِ ثُم يُميتُهُ ثُم يعيدهُ للبعثِ والنُّشور، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي يَرزُقُكم من السَّماءِ المطرَ، ومِن الأرض النباتَ والزَّرعَ، وقولهُ تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي حُجَّتَكُمْ فيما تدَّعونَهُ من إلهٍ سِواهُ، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي معَ اللهِ آلِهَةٌ أخرَى تصنعُ شيئاً من هذهِ الأشياءِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٢١٩، ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٢٣.
(٢) الأنعام / ٩٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: (لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) يعني الملائكة، (وَالأَرْضَ) يعني الناسَ، لا يعلمُ أحدٌ منهم شيئاً من الغَيْب من وقتَ نُزول العذاب وقيام السَّاعةِ وغير ذلك مما غابَ عن العبادِ، ولا يعلمُ ذلك إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي ولا يدرونَ متى يُبعثُونَ من القُبور، والأصلُ في (أَيَّانَ) (أيَّ) و(إنْ) ضُمِّنَا وجُعلا أداةً واحدة، قالت عائشةُ: (مَنْ زَعَمَ أنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَّ اللهُ)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ؛ فيه قِراءَتان، قرأ الحسنُ والأعمش وشَيبة ونافع وعاصمُ وحمزة والكسائي وخَلَفُ (بَلِ ادَّارَكَ) بكسر اللام وتشديد الدال؛ أي تَدارَكَ وتتابعَ عليهم في الآخرةِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إذا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾[(٢)]، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوب ومجاهد (بَلْ أدْرَكَ) مِن الإدراكِ؛ أي تَبعَ ولَحِقَ[(٣)]، كما يقالُ: أدْرَكَهُ عِلْمِي؛ أي بَلَغَهُ ولَحِقَهُ. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ مَا جَهِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَسَقَطَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ عَلِمُوهُ فِي الآخِرَةِ)[(٤)].

وقال السديُّ: (اجْتَمَعَ عِلْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَمْ يَشُكُّوا وَلَمْ يَخْتَلِفُوا). وقال مقاتلُ: (بَلْ عَلِمُوا فِي الآخِرَةِ حِيْنَمَا عَايَنُوهَا مَا شَكُّوا فِيْهِ وَعَمُوا عَنْهُ فِي الدُّنْيَا)[(٥)]. ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ ؛ أي بل هُم اليومَ في الدُّنيا في شَكٍّ من السَّاعةِ، ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ جمع عَمٍ، وهو عَمِيُّ القلب، وَقِيْلَ: معنى (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) مُتَحَيِّرُونَ بتَرْكِ التأمُّلِ، يقال: رجلٌ عَمِهٌ وَعَامِهٌ وعَمٍ، إذا كان مُتحيِّراً، وقومٌ

---

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب (٧٧): الحديث (٢٨٧/ ١٧٧).

(٢) الأعراف / ٣٨ .

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٠١). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٥٤١).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٢.

عَمُونَ؛ أي مُتَحَيِّرُونَ، ويجوزُ أن يكونَ معنى (ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ) أي لَحِقَ علمُـهم ذلكَ بما نُصِبَ لَهم من الأدلَّةِ، بل هم في شكٍّ منها بتركِ التأمُّلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ معناهُ: وقال كفَّارُ مكَّةَ: إذا صِرْنا تُراباً وآباؤُنا أإنَّا لَمُخرَجُونَ من القُبور أحياءً؟

وقولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ ؛ الذي تُخوِّفُنا بـه مـن البعثِ والنُّشـور، ووُعِدَ آباؤنا من قبلُ، فما وَجدْنـا لذلـكَ حقيقـةً، ومـا هـذا الـذي يعِدُنـا مُحَمَّـدُ إلاَّ أكاذيبَ الأوَّلين. وقِيْلَ: معناهُ: لقد وُعِدْنا هذا البعثَ، ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ قبـلِ مُحَمَّـدٍ وليـس ذلـكَ بشـيءٍ، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ؛ أي أحادِيثُهم وأكاذِيبُهم التي كذبُوها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي قُـلْ يـا مُحَمَّـدُ: (سِـيرُوا)؛ أي سَـافِرُوا وتـرَدَّدُوا في الأرضِ، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ ؛ آخِرُ أمْرِ المكذِّبين بالرُّسُلِ أهلَكَهم اللهُ بأنواعِ العقوبات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ؛ أي لا تَحْـزَنْ علـى تكذِيبـهم إيَّـاكَ ولا إهلاكِهم إن لَم يُؤمِنُوا، وذلك أنَّ النـبيَّ ﷺ كـان حَرِيْصـاً علـى إيمانِـهم ونجاتِـهم، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ؛ أي لاَ يَضِيْقُ صدرُكَ يا مُحَمَّـدُ بما يَمكُرونهُ، وسيُظهِرُكَ اللهُ عليهم، نزلَتْ هذه الآيةُ في المستَهزئين الذينَ اقتسموا أعقاب مكة، وقد مَضَتْ قصَّتُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ ؛ أي يقولُونَ على وجهِ التَّكذيب: (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) الذي يعِدُنا بـه في الدُّنيـا والآخـرةِ (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ) في أنهُ يكون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي قل يا مُحَمَّـدُ: (عَسَـى أنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُـمْ) أي دَنَـا لكـم وركِبَكُـم بعـضُ مـا تستعجلونَ به من العذاب، لا يجوزُ أن تكونَ (عَسَى) في هذا الموضـعِ بمعنـى الشَّـكِّ، إنَّما هو بمعنى الإيجاب على وجه التَّخويفِ، قال ابنُ عبَّاس: (رَدِفَ لَكُـمْ؛ أي قَـرُبَ

لَكُمْ)[١] وَقِيْلَ: حَضَرَ لَكُمْ.

والمعنى: أنَّ الله تعالى أمَرَ نَبيَّهُ ﷺ أن يقولَ للذين يَسْتَعْجِلُونَ بالعذاب: قد دَنَا لكم بعضُ ما تستعجِلُون، فكان بعضُ الذي دَنَا لَهم القتلُ ببَدْر، والقَحْطُ الذي سُلِّطَ عليهم عُقَيْبَ هذه الآيَةِ حتى أكَلُوا الْجِيَفَ. والمعنى في (رَدِفَ لَكُمْ) أي رَدِفَكُمْ، فأدخلَ اللاَّمَ فيه كما أدخلَها في قولِهِ تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٢] و﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٣]، قال الفرَّاءُ: (اللاَّمُ صِلَةٌ زَائِدَةٌ، كَمَا يَقُولُونَ نَقَدْتُهُ ونَقَدْتُ لَهُ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَذُو فَضْلٍ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ حَتَّى لاَ يُعْجِلَهُمْ بِالْعَذَابِ)[٥] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ؛ وَقِيْلَ: لَذُو فضلٍ عليهم بإمهالِهم والإنعامِ عليهم، ولكنَّهم لا يشكُرون فَضْلَهُ عليهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ؛ أي ما تُخفِي صدورُهم من البُغْضِ والعداوةِ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ؛ بألسِنَتِهم من الكُفْرِ والتكذيب وعدائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُجازيهم على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ ؛ أي وما مِن جُملةٍ غائبة خافيةٍ على أهْلِ السَّماء والأرضِ، إلاَّ وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ الْمَحفُوظِ بيِّنَ فيه.

قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ؛ أي بَيَّنَ لِبَنِي إسرائيلَ، ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ؛ كاختلافِ اليهود والنَّصارَى في المسيحِ وفِي غيرهِ من الأنبياءِ، وكاختلافِهم في صِفَةِ النبيِّ ﷺ والْمُبَشَّرِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٠٦).

(٢) الأعراف / ١٥٤ .

(٣) يوسف / ٤٣ .

(٤) في معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٢٩٩-٣٠٠ بلفظ قريب؛ قال: (كما قالَ بعضُ العربِ: نفذتُ لها مائةً، وهو يريد: نفذتُها مائة). ونقل البغوي قول الفراء كما حكاه الطبراني، ينظر: معالم التنزيل:ص٩٦٧. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٠.

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٥.

بـه في التَّـوراةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لَهُدًى من الضَّلالةِ ورحمةٌ من العذاب لِمن آمَنَ بهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾ ؛ أي يقضِي بين المؤمنـين والكـافرينَ يـومَ القيامــةِ بحكمــةٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي الْعَزِيْــزُ بالانتقامِ من الكُفَّار، الْعَلِيْمُ بهم وبعقوبَتِهم، ولا يُمكِنُ رَدُّ قضائهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ثِقْ باللهِ يا مُحَمَّدُ، وفَوِّضْ أمْرَكَ إليـهِ، ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي على طريق الإســلام، وهـذا تسـليةٌ للنبيِّ ﷺ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ هذا مَثَلٌ للكفَّار، شبَّهَ اللهُ كفَّارَ مكَّــةَ بالأمواتِ، تقولُ كما لا يَسْمَعُ الميِّتُ النداءَ، كذلك لا يسمعُ الكافرُ النداءَ، ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (إنَّ الأَصَمَّ لَوْ وَلَّى مُدْبراً وَنَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ، كَذلِكَ الْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ مَـا يُدْعَـى إلَيْـهِ مِـنَ الإيْمَـانِ)[1] ((والمعنـى: أنـهم لفرطِ))[2] إعراضُهم عن ما يُدْعَـوْنَ إليـه مـن التوحيـدِ كـالْمَيِّتِ الـذي لا سـبيلَ إلى إسْماعهِ، وكالأصَمِّ الذي لا يسمعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ ؛ أي وما أنتَ بمُرشِدِ من أعماهُ اللهُ عن الْهُدَى وأعْمَى عن قلبهِ الإيْمانَ، وَقِيْلَ: معناهُ: كما لا يُمكِنُ إرشادُ الأعمَى إلى قصدِ الطَّريق بالأَمَاراتِ الدالَّةِ على الطريق، كذلك لا يُمكِنُ هدايةُ القومِ الذين عُمِيَتْ بصائرُهم عن آياتِ الله، وليس على الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلاَّ الدعاءَ إلى اللهِ تعالى.

وقرأ حمزةُ والأعمش: (وَمَــا أنْـتَ تَـهْدِي الْعُمْـيَ) بالتَّـاء ونصـب اليـاء علـى الفعلِ[3] ها هنا وفي الرُّومِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٥٨١).

(٢) ما بين (( )) غير واضح في المخطوط، وضبطت علىعبارة البغوي في معالم التنزيل.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ؛ ما سَمِعَ سَماع إفـهامٍ إلاّ مَن يؤمنُ بآياتِنا ويطلبُ الحقَّ بالنظر في القُرْآن. وقال مقاتلُ: (إلاَّ مَنْ يُصدِّقُ بـالْقُرْآن أنَّهُ مِن اللهِ)[١] ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي مُخلِصُونَ بتوحيدِ الله، والمعنى مـا سَمِعَ دعوتَكَ سَماعَ القَبُولِ إلاّ مَن يطلبُ الحقَّ بالنظرِ في آياتِ الله، فلا بـدَّ أن يُسْلِمَ في ظهور الدَّلائل.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا وجبَ القولُ عليهم بالسُّخْطِ والعذاب عند قُرْب السَّاعة (أخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْضِ)، فقال قتادةُ: (إذا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَوْجَبَ أنْ يُـنْزِلَ بهِمْ مَا قَالَ اللهُ وَحَكَمَ بهِ مِنْ عَذابهِ وَسُخْطِهِ عَلَيْهِمْ)[٢] أي على الكُفَّار الذيـن تخرجُ عليهم الدَّابةُ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الأَرْض تُكَلِّمُهُمْ) وذلـك حين لا يُؤمَرُ بمعروفٍ ولا ينهَى عن منكرٍ. قال مُخلَّدُ بنُ الحسين[٣]: (لاَ تَخْرُجُ الدَّابَّةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى أحَدٌ يُرِيْدُ أنْ يُؤْمِنَ). قالوا: وتخرجُ الدَّابة من صَدْعٍ في الصَّفَا.

ورُوي أنه تخرجُ بين الصَّفَا والْمَرْوَةِ، ولا تُخْرِجُ إلاّ رأسَها وعنُقَها، فيبلغُ رأسُها السحابَ فيراها أهلُ المشرق والمغرب فيَسْمَعُونَ كلامَها باللِّسـان، فتقـولُ لـهم: أيُّها الكُفَّارُ مصيرُكم إلى النار، ثُم تُقبلُ على المؤمنينَ فتقـولُ: أيُّـها المؤمنـونَ مصـيرُكم إلى الجنَّةِ، فتُميِّزُ عند ذلك أهلَ الجنَّة مِن أهلِ النار.

ويجوزُ أن يكون قولهُ (تُكَلِّمُهُمْ) مِن الكَلْمِ وهو الْجَرَاحَةُ، كمـا رُوي في قـراءةِ ابنِ عبَّاس (تَكْلِمُهُمْ) بنصب التاء وكسرِ اللام؛ أي تَسِمُهُمْ، تكتبُ على وجهِ الكـافرِ: إنَّهُ كَافِرٌ، وعلى جَبينِ المؤمن: إنَّهُ مُؤْمِنٌ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٣-٢٠٦١٤).

(٣) مُخَلَّدُ بن الْحُسَين الأزديُّ المهَلَّبي البصريُّ، ترجم له ابن حجـر في التـهذيب: الرقـم (٦٧٩٨)؛ وقال: (قال العجلي: ثقة رجل صالح، كان من عقلاء الرجال). وقال أبو داود: (كان من أعقـل أهل زمانه) مات سنة احدى وتسعين. وله ترجمة في حلية الأولياء: ج ٨ ص٢٦٦.

قال أبو هريرةَ: (إنَّهَا تَخْرُجُ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ)[1]، وعن ابنِ عَمرو بن العاص أنه قالَ: (تَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْكَافِرِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، فَتَعْتُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَجْهُهُ، وَتَكْتُبُ عَلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِ نُكْتَةً بَيْضَاءَ، فَتَعْتُوا فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَبْيَضَّ وَجْهُهُ، فَتَعْرِفُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ عِنْدَ ذلِكَ)[2]. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ أنهُ قال: (إذا تَرَكَ النَّاسُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ ذلِكَ الْوَقْتُ وَقْتَ أشْرَاطِ السَّاعَةِ وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ ويعقوب (أنَّ النَّاسَ) بفتحِ الألفِ على وجه الحكايةِ من قول الدَّابة وعلى معنى: أخْرَجْنَا الدَّابَّةَ بأنَّ الناسَ ﴿ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ وقرأ الباقونَ بالكسرِ على الابتداء.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [بِئْسَ الشِّعْبُ جِيَادٌ - مرَّتين أو ثلاثاً -] قالُوا: وَلِمَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [تَخْرُجُ مِنْهُ الدَّابَّةُ، فَتَصْرُخُ ثَلاَثَ صَرَخَاتٍ يَسْمَعُهَا مِنْ بَيْنِ الْخَافِقَيْنِ][4].

وقال بعضُهم: كنتُ مع ابنِ عبَّاس بمكَّة، فبينما هو على الصَّفا إذْ قَرَعَ الصَّفا بعصاةٍ وهو مُحْرِمٌ وهو يقولُ: إنَّ الدابةَ تسمعُ قَرْعَ عَصَايَ هذهِ، قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ دَابَّةٌ ذاتُ زَغَبٍ وَرِيشٍ، ولَهَا أرْبَعَةُ قَوَائِمَ)[5].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٥ مرفوعاً إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع: أبواب تفسير القرآن: الحديث (٣١٨٧). وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٦) عن عطية العوفي عن ابن عمر. وذكره القرطبي من قول أبي سعيد وابن عمرو في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٤.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٠. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٣٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٧٨؛ قال السيوطي: أخرجه عبد بن حميد.

وعن أبي هريرةَ قَالَ: [تَخْرُجُ الدَّابَّـةُ وَمَعَـهَا عَصَـا مُوسَـى وَخَـاتَمُ سُـلَيْمَانَ، فَيَجْلُوا وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بالْعَصَا، وَتَخْطِمُ وَجْهَ الْكَافِرِ بالْخَاتَمِ][(١)] والْمَحَاطِمُ هي الأنُوفُ، واحِدُها مَخْطِمٌ بكسر الطَّاء، وعن حذيفةَ قالَ: قَـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [دَابَّـةُ الأَرْضِ طُولُهَا سِتُّونَ ذِرَاعاً لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلاَ يَفُوتُهَا هَارِبٌ][(٢)].

وعن ابنِ الزبير أنه وَصَفَ الدَّابةَ فقال: (رَأسُهَا رَأسُ ثَوْرٍ، وَعَيْنُهَا عَيْنُ خِنْزِيْرٍ، وَأذُنُهَا أذُنُ فِيْلٍ، وَصَدْرُهَا صَدْرُ أسَدٍ، وَلَوْنُهَا لَوْنُ نَمِرٍ، وَذنَبُهَا ذنَبُ كَبْشٍ، وَقَوَائِمُـهَا قَوَائِمُ بَعِيْرٍ، بَيْنَ كُلِّ مِفْصَلَيْنِ مِنْ مَفَاصِلِهَا اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً، مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَـاتَمُ سُلَيْمَانَ)[(٣)].

وقال ﷺ: [تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفَا، فَيَبْلُغُ صَدْرُهَا الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ، وَلَمْ يَخْرُجْ ذنَبُهَا بَعْدُ، وَهِيَ دَابَّةٌ ذاتُ قَوَائِمَ وَبَر][(٤)]. وعن ابن عمرَ أنه قال: (تَخْرُجُ الدَّابَّـةُ مِـنْ صَدْعٍ فِي الصَّفَا، تَجْرِي كَجَرْيِ الْفَرَسِ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، وَمَا خَرَجَ ثُلُثُهَا)[(٥)].

وقالَ ﷺ: [بَيْنَمَا عِيْسَى عليه السلام يَطُوفُ بالْبَيْتِ وَمَعَـهُ الْمُسْلِمُونَ، إذْ تَضْطَـرِبُ الأَرْضُ تَحْتَهُمْ حَتَّى يَتَحَرَّكَ الْقِنْدِيْلُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَنْشَقُّ الصَّفَا مِمَّا يَلِـي الْمَسْعَى، فَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ مِنْهَا رَأْسُهَا، ذاتَ وَبَرٍ وَرَأسٍ لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ وَلاَ يَفُوتُهَا هَارِبٌ، تُسَمِّي النَّاسَ مُؤْمِناً وَكَافِراً، أمَّـا الْمُؤْمِـنُ فَتَـتْرُكُ وَجْهَـهُ كَأنَّـهُ كَوْكَـبٌ دُرِّيٌّ، وَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: مُؤْمِنٌ، وَأمَّا الْكَافِرُ فَتَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْـهِ نُكْتَـةً سَـوْدَاءَ، وَتَكْتُـبُ بَيْـنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ][(٦)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٥ مرفوعاً إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع: أبـواب تفسـير القـرآن: الحديـث (٣١٨٧). وابـن ماجـة في السـنن: كتـاب الفـتن: الحديـث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٣٥؛ قال القرطبي: (ذكره أبـو داود الطيالسـي في مسـنده عن حذيفة، وحكاه بطوله). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديـث (٢٠٦٢٠) عـن حذيفـة ابن أسيد.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٩.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٣٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦١٨).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٢٣). والبغوي في معالم التنزيل: ص٩٦٩.

وعن الحسَن: (أنَّ موسَى سَألَ ربَّهُ أنْ يُريَهُ الدَّابَّةَ، فَخَرَجَتْ ثلاثَةَ أيَّامٍ وَلَيَالِيْهِنَّ تَذْهَبُ فِي السَّمَاءِ وَلَمْ تخْرُجْ رجْلاهَا، فَنَظَرَ مِنْـهَا مَنْظَـراً فَظِيْعـاً؛ فَقَـالَ: رَب رُدَّهَـا، فرَدَّهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كَانُوا بآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ) قال مقاتلُ: (تُكَلِّمُـهُمْ بالْعَرَبيَّةِ، فَتَقُولُ: إنَّ النَّاسَ كَانُواْ بآيَاتِنَـا لاَ يُوقِنُـونَ، تُخْـبرُ أنَّ أهْـلَ مَكَّـةَ لَـمْ يُؤْمِنُـواْ بالْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ وَالثَّوَاب وَالْعِقَاب)[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ؛ الْفَوْجُ: الْجَمَاعَةُ من الناسِ كـالزُّمْرَةِ والجماعـةِ، وإنَّمـا يُحْشَـرُ الرؤسـاءُ والمتبوعِـين، والمعنى: يومَ يُجْمَعُ مِن كلِّ أمَّةٍ جماعةٌ مِن المكذِّبـين بالرسـول، وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحبَسـون، يتَلاحقُـونَ فيُسَـاقُونَ إلى الموقـفِ لإقامـةِ الحجَّـة عليهم. وقِيْلَ: يحْشرُ أوَّلُهم على آخرِهم ليجتَمِعُـوا ثُـم يُسـاقُوا إلى النـار، وقـال ابـنُ عبَّاس: (يُوزَعُونَ أيْ يُدْفَعُونَ)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا ﴾ ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا إلى موقفِ الحساب، قال اللهُ لَهم:(أكَذبْتُم بآيَاتِي) اسـتفهامٌ بمعنـى الإنكار عليهم، والوعيدِ لَهم، قـال ابـنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: أكَذبْتُـمْ أنْبيَـائِي وَجَحَدْتُـمْ فَرَائِضِي وَحُدُودِي) وَلَمْ تُحِيْطُوا بهَا عِلْماً؛ أي ولَم تُخبَرُوا حتـى تَفْقَـهُوا وتسـمَعُوا. وَقِيْلَ: معناهُ: (وَلَمْ تُحِيْطُوا بهَا عِلْماً) أنَّها باطلٌ. والمعنى: أكَذبْتُمْ بآيَاتِي غـيرَ عـالِمين بها ولَم تتفكَّرُوا في صِحَّتها، بل كذبتم بها جَهْلاً بغيرِ عِلْـمٍ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ حين لَم تبحثُوا عنها، ولَم تَتفكَّرُوا فيها، وهذا توبيـخٌ لَـهم وإنْ كان بلفظِ السُّؤال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي وَجَبَ العذابُ عليهم بما أشـرَكُوا، ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ بحُجَّـةٍ عـن أنفسِـهم، بـل يُخْتَـمُ علـى أفواهِهم. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ، وَلاَ يُؤْذنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨٥. (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٣٢).
(٣) المرسلات / ٣٥-٣٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي مُضِيئاً لطلب المعاشِ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ فيما ذكَرْنا من اختلافِ اللَّيل والنَّهار لـدلالاتٍ للمؤمنـينَ والكـافرين، ولكنـه خَصَّ المؤمنينَ لأنَّهم همُ الذين ينتفعونَ بالذِّكْرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (يَعْنِـي النَّفْخَـةَ الأُولَى؛ وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ) ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مَـاتُوا من شدَّةِ الخوفِ كقولهِ تعـالى ﴿فَصَعِـقَ مَـنْ فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـنْ فِـي الأَرْضِ﴾(١)، والمعنى: بَلَغَ منهم الفزعُ إلى أنْ يَمُوتُوا.

وقولُهُ: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ الشُّهَدَاءَ وَهُمْ أحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبهمْ يُرْزَقُونَ)، وقال الكلبيُّ ومقاتل: (يَعْنِي جِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيْلَ وَإسْـرَافِيْلَ وَمَلَـكَ الْمَوْتِ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي كـلُّ الخلائـقِ يـأْتُونَ إلى موضعِ الْجَزَاءِ أذلاَّء صَاغِرِيْنَ.

وأمَّا النفخةُ الثانية فتسمَّى نفخةُ البَعْثِ، وبينَهما أربعون سَنة. ويقالُ: ينفـخُ في الصُّور ثلاثَ نفخاتٍ؛ الأُولَى: نفخةُ الفَـزَعِ، والثانيـة: نفخـةُ الصَّعْـقِ وهـو المـوتُ، والثالثةُ: نفخةُ الْقِيَامِ لرَب العالَمِين .

وعن عبدِالله بن عمرَ قال: جَاءَ أعْرَابيٌّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنِ الصُّور، فَقَالَ: [هُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ](٢). وقالَ مجاهدُ: (هُوَ كَهَيْئَةِ الْبُوق)(٣).

وعن أبـي هريـرةَ قـال: قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّـا فَـرَغَ اللهُ مِـنَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ، خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إسْرَافِيْلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيْهِ شَـاخِصٌ يُبْصِـرُ نَحْـوَ الْعَرْشِ، يَنْظُرُ مَتَى يُؤْمَرُ] قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الصُّورُ ؟ قَـالَ: [هُـوَ قَـرْنٌ]

---

(١) الزمر / ٦٨ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٦٢. وأبو داود في السنن: كتاب السـنة: الحديـث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع: أبواب صفة القيامة الحديث (٢٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٣٥).

قُلْتُ: كَيْفَ هُوَ ؟ قَالَ: [عَظِيْمٌ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إنَّ عِظَمَ دَائِرَةٍ فِيهِ كَعِظَمِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. فَيَنْفُخُ ثَلاَثَ نَفَخَاتٍ؛ النَّفْخَةُ الأُولَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَالنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَالنَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِ الْعَالَمِيْنَ.

فَيَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيْلَ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى، فَيَقُولُ لَهُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فَيَفْزَعُ مِنْهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَأْمُرُهُ أنْ يَمُدَّهَا وَيُطِيْلَهَا وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾(١)، وَيُسَيِّرُ اللهُ الْجِبَالَ فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَتَكُونُ سَرَاباً، وَتُرَجُّ الأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجّاً، فَتَكُونُ كَالسَّفِيْنَةِ الْمُوثَقَةِ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهَا الأَمْوَاجُ وَتُلْقِيْهَا الرِّيَاحُ، وَكَالْقِنْدِيْلِ الْمُعَلَّقِ تُرَجِّحُهُ الرِّيَاحُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾(٢) فَتَمِيْدُ الأَرْضُ بِالنَّاسِ عَلَى ظَهْرِهَا، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ؛ وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ؛ وَيَشِيْبُ الأَطْفَالُ، وَتَطِيْرُ الشَّيَاطِيْنُ هَارِبَةً مِنَ الْفَزَعِ، حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَارَ فَتَلْقَاهَا الْمَلاَئِكَةُ فَتَضْرِبُ وَجُوهَهَا فَتَرْجِعُ، وَتُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرِيْنَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾(٣). فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ؛ إذْ تَصَدَّعَتِ الأَرْضُ، وَتَصِيْرُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَنْثُرُ نُجُومَهَا وَتَكْسِفُ شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا. ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ إسْرَافِيْلَ أنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الصَّعْقِ، فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ](٤).

وَقَوْلُهُ تعالى: (وَكُلٌّ أتَوْهُ دَاخِرِينَ)، قرأ الأعمشُ وحمزة وخلَف (أتَوْهُ) مقصُوراً على الفعل بمعنى جاءوهُ. وقرأ الباقونَ بالمدِّ وضمِّ التاء(٥)، قَوْلُهُ تَعَالَى: (دَاخِرِيْنَ) أيْ صَاغِرِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ ؛ أي تحسبُها يا مُحَمَّدُ واقفةً مستقرَّةً فكأنَّها وتظنُّها ساكنةً لا تتحركُ في رَأيِ العينِ، وهي

(١) ص/ ١٥ . (٢) النازعات / ٦-٨ . (٣) غافر / ٣٢-٣٣ .

(٤) أخرجه الطبري بطوله في جامع البيان: مج ١١ ص٢٣-٢٤.

(٥) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٦.

تسيرُ في الْهَواءِ سَيراً سَريعاً، وترَى السفينةَ تحسَبُها واقفةً وهي سـائرةٌ، وقولـهُ تعـالى: (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب) تسيرُ سَير السَّحاب حتى تَقَعَ على الأرضِ فتستوي بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصدر؛ كأنه قالَ: صَنَعَ اللهُ ذلكَ صُنْعاً على الإتقان والإحْكَام. وَقِيْلَ: على الإغْـرَاء؛ أي أبْصِـرُوا صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ؛ أي أحْكَمَ وأبْرَمَ ما خلَـقَ. ومعنـى الإتْقَـانِ في اللُّغَـة: الإحْكَامُ للأشْيَاءِ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ ﴾ ؛ قـرأ نـافعُ وابـن عـامر والكوفيُّون بالتاءِ[١]، والباقونَ بالياء، والمعنى: إنَّهُ خَبيْرٌ بمَا يفعلهُ أعـداؤهُ مـن المعصيـةِ والكُفْرِ، وبما يفعلهُ أولياؤه من الطاعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ؛ معناهُ: مَن وَافَى عرصـاتِ القيامةِ بالحسَناتِ، فلهُ ثوابٌ آجَرُ وأنْفَعُ منها. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن جاء بالإيْمان. قال أبو معشَر: (كَانَ إبْرَاهِيْمُ يَحْلِفُ مَا يَنْثَنِي: أنَّ الْحَسَنَةَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[٢]. وقتادةُ: (الْحَسَـنَةُ هِيَ الإخْلاَصُ)[٣]. والمعنى: مَن جاءَ بكلمةِ الإخلاصِ بشَهَادَةِ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ يـومَ القيامةِ؛ أي مَن وافَى يومَ القيامة بالإيْمَان فله خيرٌ منها. قال ابنُ عبَّاس: (فَمِنْهَا يَصِلُ الْخَيْرُ إلَيْهِ)[٤] أي لهُ مِن تلك الحسَنةِ خـيرٌ يـومَ القيامـةِ، وهـو الثـوابُ والأمـنُ مِـن العذاب. و(خَيْرٌ) ها هنا اسمٌ مِن غير تفضيلٍ؛ لأنه ليسَ خيرٌ مِن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ولكنَّهُ منها خيرٌ.

وقال بعضُهم: دخلتُ على علِـيِّ بـنِ أبـي طـالبٍ ﷺ فقـالَ لِـي: (ألاَ أنبـؤُكَ بالْحَسَنَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَالسَّيِّئَةِ الَّتِي مَنْ جَاءَ بهَا أدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ عَمَلاً ؟) قلتُ: بَلَى، قالَ: (الْحَسَنَةُ حُبُّنَا، وَالسَّـيِّئَةُ بُغْضُنَـا)[٥]. ومعنـى (خَيْرٌ مِنْهَا): رضوانُ اللهِ. وَقِيْلَ: الأضعَافُ بعطيَّةِ اللهِ بالواحدة عَشْراً فصاعِداً.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٧؛ قال: (وقـرأ نـافع وعـاصم وحمـزة والكسـائي: بالتـاء) وقال: (فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٥١).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٥٥).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٦٦٠).
(٥) لم أقف عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفة (فَزَعٍ) منوناً بنصب الميم، وقرأ الباقونَ بالإضافةِ، واختارَهُ أبو عُبيدٍ لأنه أعَمُّ ويكون شَامِلاً لجميعِ فَزَعِ ذلك اليومِ، وإذا كان منَوَّناً كان الفزعُ دونَ فزعٍ.

وقال أبو عليٍّ الفارسي: (إذا نُوِّنَ يَجوزُ أنْ يَكُونَ الْفَزَعُ وَاحِداً، وَيَجُوزُ أنْ يَعْنِي بِهِ الْكَثْرَةَ لأنَّهُ مَصْدَرٌ، وَالْمَصَادِرُ تَدُلُّ عَلَى الْكَثْرَةِ وَإنْ كَانَتْ مُفْرَدَةَ الألْفَاظِ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إنَّ أنكرَ الأصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(1))(2). قال الكلبيُّ: (إذا أطْبَقَتِ النَّارُ عَلَى أهْلِهَا فَزِعُواْ فَزْعَةً لَمْ يُفْزَعُواْ مِثْلَهَا أبَداً، وَأهْلُ الْجَنَّةِ آمِنُونَ مِنْ ذلِكَ الْفَزَعِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي من وَافَى بالشِّرْكِ والكبائرِ (فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّار) أي أُلْقُوا على وجوهِهم في النار، ويقولُ لَهم خَزَنَةُ جهنَّمَ: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا مِن الشِّرك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ للمشركينَ: (إنَّمَا أمِرْتُ أنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ) يعني مكَّة (الَّذِي حَرَّمَهَا) أي الذي حَرَّمَ فيها ما أحلَّ في غيرِها من الاصطيادِ؛ والاختلاءِ؛ والقَتْلِ؛ والسَّبيِ؛ والظُّلم، وأن لا يهاج فيها أحدٌ حتى يخرجَ منها، فلا يصادُ صيدُها ولا يختَلَى خِلالَها.

وَقِيْلَ: معنى (حَرَّمَهَا) أي عظَّم حُرمَتها، فجعلَ لَها من الأمنِ ما لَم يجعل لغيرِها. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ ؛ لأنه خَالِقُهُ ومَالِكُهُ. وقرأ ابنُ عبَّاس (الَّتِي(3) حَرَّمَهَا) أشارَ إلى البلدةِ.

---

(1) لقمان / ١٩ .

(2) قاله في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٧-٢٤٨.

(3) (التي) سقطت من المخطوط، وضبطت كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٩٨.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي وأمِـرْتُ أنْ أكونَ مِن المسلمينَ الْمُخْلِصِيْـنَ للهِ بـالتَّوحيدِ، ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ ﴾ ؛ عليكُـم يـا أهلَ مكَّة، يريدُ تلاوةَ الدَّعوةِ إلى الإيْمـانِ. وفي الآيـة تعظيـمٌ لأمـرِ الإسـلامِ وتِـلاَوَةِ القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ ؛ أي مَـن اهتَـدَى فإنَّمـا منفعةُ اهتدائهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ ؛ أي ومَن ضَلَّ عن الإيْمان والقُرْآن وأخطأ طريقَ الْهُدَى، ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي مِـن الْمُخَوِّفِيْـنَ، فليس عَلَيَّ إلاَّ البلاغُ، فإنِّي لَم أؤْمَرْ بالإجْبَار على الْهُدَى، وليـسَ عَلَـيَّ إلاَّ الإنـذارُ، وكان هذا قَبْلَ الأمرِ بالقتالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي قُلِ الْحَمْدُ للهِ على نِعَمِهِ، ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ ؛ يعني العذابَ في الدُّنيا، والقَتْلَ ببدْرٍ، ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ؛ حين تُشاهِدُونَها، ثُم أراهُم ذلكَ، وضَرَبَتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم وعجَّلَـهم الله إلى النـار، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ من الْمُنْكَرِ والكُفْرِ والفسادِ، وهـذا وعيـدٌ لَـهم بالجزاءِ على أعمالِهم.

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّمْلِ كَـانَ لَـهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ كَذبَ وَصَدَّقَ بمُوسَى وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ يُنَـادِي: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ][١].

آخر تفسير سورة (**النمل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجـه الثعلـبي في الكشـف والبيـان: ج ٧ ص١٨٨. وذكـره الزمخشـري في الكشـاف: ج ٣ ص٣٧٧، وإسناده واه.

سُورَةُ الْقَصَص

سُورَةُ الْقَصَص مَكِّيَّةٌ إلاَّ آيَةً وَاحِدَةً ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآيَةُ، فَإنَّهَا نَزَلَتْ بالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةِ، وَعَدَدُ حُرُوفِ السُّورَةِ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَثَمَانُمِائَةِ حَرْفٍ، وَأَلْفٌ وَأَرْبَعْمِائَةٍ وَإحْدَى وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٍ وَثَمَانُونَ آيَةً.

وَعَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْقَصَص لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ شَهدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّهُ كَانَ صَادِقاً، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ؛ أي نقرأ عليكَ خَبَرَ موسَى وفِرعَوْنَ بالصِّدقِ بينَهما، ﴿ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي تَجبَّرَ وتكَبَّرَ في أرض مِصرَ ﴿ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا ﴾ ؛ أي فِرَقاً وأصْنَافاً في الخدمةِ والتَّسخيرِ؛ يُكرِمُ قَوماً ويُذِلُّ آخرين. وقولهُ تعالى: ﴿ يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ ﴾ ؛ يعني بني إسرائيلَ، ثُم فَسَّرَ ذلكَ فقال: ﴿ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ ﴾ ؛ يقتلُ الأبناءَ ويتركُ البناتِ فلا يقتُلُهنَّ. وَقِيْلَ: معناهُ: يذبحُ أبناءَهم صغاراً ويُبقِي نساءَهم للخِدْمَةِ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٣٢٣. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٢٣.

وسببُ ذلك: أنَّ بعضَ الكَهَنَةِ قالوا له: إنَّ مولُوداً يولَدُ في بني إسرائيلَ يكون سَبباً لذهاب مُلْكِكَ. قال الزجَّاج: (وَالْعَجَبُ مِنْ حُمْقِ فِرْعَوْنَ إنْ كَانَ ذلِكَ الكَاهِنُ عِنْدَهُ صَادِقاً فَمَا يَنْفَعُ القتلُ؟! وَإنْ كَانَ كَاذِباً فَمَا مَعْنَى الْقَتْلِ؟)[1]. وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني بالقَتْلِ والعملِ بالمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي نريدُ أن نُنْعِمَ عَلَىالَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وهم بنو إسرائيلَ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ ؛ يُقتَدَى بهم في الخير. قال قتادةُ: (وُلاَةً وَمُلُوكاً) ودليلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾[2] ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لِمُلْكِ فرعونَ، ولِمساكنِ قومه، يَرِثُونَ ديارَهم وأموالَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي يُمَكِّنُهم ما كان يَملكُ فرعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ما كانوا يَخافُونَهُ من هذا المولودِ الذي به يذهبُ مُلكُهم على يدَيهِ، وذلك أنَّهم أخبرُوا أنَّ هلاكَهم على يدَي رَجُلٍ من بني إسرائيلَ، فكانوا على وَجَلٍ منهم فأرَاهُم اللهُ تعالى (مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) أي ما كانوا يَخافُونَ من جهتِهم من ذهاب مُلكِهم على أيديهم.

وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (وَيَرَى فِرْعَوْنُ) بالياء وما بعدَهُ رفعاً على أنَّ الفعل لَهم، وقرأ الباقونَ بالنُّون مضمومة وما بعده نصبَ بوقوعِ الفعل عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ؛ لَم يُرِدْ بالوحي وحيَ الرِّسالة، وإنَّما أراد الإلْهَامَ كما في قولِهِ تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾[3]. ويقالُ: أرَاهَا اللهُ في المنامِ فعرفته بتفسير الرُّؤيا. وقال بعضُهم: أتاها ملائكةٌ خاطَبُوها بهذا الكلامِ. واسمُ أمِّ موسى نُوخَابدُ بنتُ لاَوي بنِ يعقوبَ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٩٩.

(٢) المائدة / ٢٠. (٣) النحل / ٦٨.

قال وهبُ بن منبه: (لَمَّا حملَتْ أمُّ موسَى بموسَى كتَمَتْ أمرَها عن[1] جميعِ النَّاسِ فلم يطَّلِعْ على حَملِها أحدٌ مِن خلقِ الله تعالى، فلما كانت السَّنَةُ التي ولِدَ فيها موسَى بَعَثَ فرعون القوابلَ يُفتِّشْنَ النساء، وحَمَلتْ أمُّ موسى ولَم يَنْتَأْ بطنُها، ولَم يتغيَّر لونُها، ولَم يظهر لبَنُها، وكانت القوابلُ لا تتعرضُ لَها، فلما كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها ولدَتْهُ أمُّهُ ولا رقيبَ عليها ولا قابلةَ، لَم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ إلاّ أختهُ)[2].

ثُم أوحَى اللهُ إليها: أنْ أرْضِعِيْهِ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾؛ قال: فكتمَتْهُ ثلاثةَ أشهرٍ ترضعهُ في حِجرها لا يبكِي ولا يتحرك، فلما خافَتْ عليه عمِلَتْ له تَابُوتاً مطبقاً ومهدت له فيه، ثُم ألقتْهُ في البحرِ ليلاً كما أمرَها اللهُ، فلما أصبحَ فرعونُ جلسَ في مجلسهِ على شاطئِ النِّيلِ، فبَصُرَ بالتابوتِ، فقالَ لِمن حولَهُ: ائْتُونِي بهذا التابوتِ، فأتَوا به، فلما وُضِعَ بين يديه فتحوهُ، فوجدوا فيه موسَى، فلما نَظَرَ إليه فرعونُ إغتاظَ وقالَ: كيف أخطأ هذا الغلامَ الذبحُ؟!

وكان لفرعونَ امرأةٌ يقال لَها آسيَةُ مِن خِيَار النِّساءِ من بنات الأنبياءِ، وكانت أمّاً للمسلمينَ ترحَمُهم وتتصدَّقُ عليهم، فقالت لفرعونَ وهي قاعدةٌ إلى جَنبِهِ: هذا الولدُ أكبرُ من ولد سنةٍ وأنتَ إنَّما أمَرتَ أن تذبحَ الوِلْدَانَ بهذه السَّنةِ، فدَعْهُ يكون قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ولكَ، لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذهُ وَلَداً، فقال فرعونُ لَها: عسَى أن ينفعَكِ، فأما أنا فلا أريدُ نفعَهُ.

قال وهبُ: (لو قالَ فرعون كما قالَتِ امرأتهُ: عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا؛ لنفعَهُ اللهُ بهِ، ولكنه أبَى أن يقولَ للشَّقاءِ الذي كتبَهُ الله عليهِ، فتركَهُ فرعونُ ولَم يَقتُلْهُ)[3].

---

(١) في المخطوط: (وكلمتهُ من)، والصحيح كما أثبتناه؛ لأنه تصحيف من الناسخ.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٣.

(٣) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز: ص٩٧٤ من قول ابن عباس. ونقل الطبري هذا التفسير في جامع البيان: الحديث (٢٠٦٩٧): عن السدي وقتادة وابن عباس، وقال: (فقال رسول الله: [وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أقَرَّ فِرْعَوْنُ أنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ كَمَا أقَرَّتْ، لَهَدَاهُ اللهُ بِهِ كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأتَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ حَرَمَهُ ذلِكَ]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أن أرضعِيه) أي أرْضِعِيْهِ ما لَم تَخَافِي عليه الطلبَ، فـإذا خِفْـتِ عليه الطلبَ (فَألقِيهِ فِي اليَم) أي في البحرِ، فقالت: يَا رَب؛ إنِّي أخـافُ عليـه حِيتَـانَ البحرِ، فأُمِرَتْ أن تجعلَهُ في تابوتٍ مُقَيَّر، فذهبت إلى النَّجَّار، فأمرَتْهُ أن يصنعَ لَها تابوتاً على قدرِهِ، فعرفَ ذلك فذهبَ إلى الْمُوَكَّلِيْنَ بذبحِ بني إسرائيل لِيُخبرَهم بذلك، فلما انتهَى إليهم أعْقِلُ لسانهُ فلم يُطِقِ الكلامَ، فجعلَ يشيرُ بيدِهِ فلم يفهَمُوا، فقال كبيرُهم: اضْرِبُوهُ؛ فضربوهُ وأخرَجوهُ، فلما انتهَى النجَّارُ إلى موضعهِ رَدَّ اللهُ عليه لسانَهُ، فرجعَ إليهم ليخبرَهم فاعتقلَ لسانهُ، فجعلَ يشيرُ إليهم بيدِهِ، فلـم يَفْـهَمُوهُ فضربـوهُ، ففعـلَ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فعرفَ أنه من عندِ الله تعالى، فَخَرَّ للهِ سـاجداً وأسـلَمَ، ثُـم صَنَـعَ التابوتَ وسَلَّمَهُ إلى أمِّ موسى فوضعتْهُ فيه والْقَتْهُ في النِّيلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ ؛ أي لاَ تَخافِي مـن الغـرقِ والْـهَلاكِ، ولا تحزَنِـــي لفراقـــهِ، ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ إلى فرعونَ وقومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا ألْقَتْهُ أمُّهُ فِـي الْبَحْرِ أقْبَلَ تَهْوِي بهِ الأَمْوَاجُ حَتَّىاختـار مَـنْزِلَ فِرْعَـوْنَ، فَخَرَجَـتْ جَـوَارِي فِرْعَـوْنَ تَسْقِيْنَ الْمَاءَ، فَأبْصَرَتِ التَّابُوتَ بَيْنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ فَأخْرَجْتَـهُ وَذهَبَـتْ بـهِ إلَـى امْـرَأةِ فِرْعَوْنَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَالْتَقطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ).

وقولهُ تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ؛ هذه (لام) العاقبةِ لأنَّ أحـداً لا يلتقطُ الولدَ ليكون له عدُوّاً، ونظيرُ هذا قولُـهم: لِـدُوا لِلْمَـوْتِ وَابْنُـوا لِلْخَـرَاب. وقولهُ تعالى (وَحَزَناً)، قرأ أهلُ الكوفةِ إلاّ عاصمـاً بضـمِّ الحـاءِ وجـزم الـزَّاي وهمـا لُغتان، مثل السَّقَمِ والسُّقْمِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي متعمِّدين في الإقامةِ على الكُفْرِ والمعصية، يقالُ: خطأَ فُلانٌ يُخْطِئُ خَطأً إذا تعمَّـدَ الذنبَ وأخطأ إذا وَقَعَ منهُ علـى غَـيرِ الصَّـواب، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إنَّ فِرْعَـوْنَ وَهَامَـانَ وَجُنُودَهُمَا كانُوا آثِمينَ عاصِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعون هَمَّ بقَتْلِهِ، فقالت له امرأتهُ: ليس من أولادِ بَنِي إسرائيلَ، وقد أتانا اللهُ به من أرضٍ أخرَى، ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ ، فلاَ تقتُلْهُ أيُّها الملكُ، فهو قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولكَ، وعسَى أن ينفعَنا في أمورنا، ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ ؛ أنَّ هلاكَهم على يديهِ، وَقِيْلَ: وهم لا يشعرونَ أنِّي أفعلُ ما أريدُ ولا أفعلُ ما يَهْوُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُرَّةُ عَيْنٍ) مشتقٌّ من القُرُور؛ وهو الماءُ الباردُ، ومعنى قولِهم: أقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ؛ أي أبردَهُ معكَ؛ لأن دمعةَ السُّرور باردةٌ، ودمعةَ الحزنِ حارَّةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ ؛ أي أصبحَ قلبُ أمِّ موسى وهي نُوخابذُ بنتُ لاوي بن يعقوبَ فارغاً من كلِّ شيءٍ إلاّ عن هَمِّ موسَى وذِكْرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ ؛ أي لولاَ أنْ شَدَدْنَا على قلبها بالصبرِ عن إظهار ذلكَ، ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ ﴾ ؛ أي مِن المصدِّقين بما سبقَ من الوعدِ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولو أظهرَتْ لكان ذلك سَبَباً لقتلهِ.

والرَّبْطُ على القلب: هو إلْهَامُ الصَّبرِ وتقويتهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: وأصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَارغاً من الصَّبرِ على فِرَاق موسَى لولاَ أنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبهَا لأَبْدَتْ بهِ. وَقِيْلَ: فَارغاً من الْحُزْنِ لعِلْمِهَا بأنه لَم يعرفْهُ. قرأ فُضَالَةُ بنُ عبيدٍ[1] (وَأصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَزِعاً) بالزَّاي والعينِ من غير ألِفٍ من الفَزَعِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ ؛ أي قالت أمُّ موسَى لأختهِ - واسْمُهَا مَرْيَمُ -: ابْتَغِي أثَرَهُ وانظُرِي أين وقعَ؛ لتَعْلَمِي خبرَهُ وإلى مَن صارَ، فذهبَتْ في إثْرِ التَّابوتِ، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ ﴾ ؛ بموسَى، ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ ؛ أي عن بُعْدٍ قد

---

(١) فضالة بن عبيد بن ناقد، أبو محمد الأنصاري، شهدَ أحداً وما بعدها ﷺ، روى عن النبي ﷺ وعن عمر، وأبي الدرداء وجماعة من الصحابة. مات سنة ثلاث وخمسين من الهجرة، وقيل، سنة سبع وستين، والأول أصح. ترجم له ابن حجر في التهذيب: الرقم (٥٥٨٣).

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج ٢٥ ص٤٦؛ قال: (وقد ذُكر ...) وذكره بلفظ (فَازِعاً). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٥.

أخذوهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ ؛ أنَّها قد جاءَتْ لتعرفَ عن خبرِه.

وقال ابنُ عبَّاس: (الْجُنُبُ أنْ يَسْمُو بَصَرُ الإنْسَانِ إلَى الشَّيْءِ الْبَعِيْدِ وَهُوَ إلَى جَنْبِهِ لاَ يَشْعُرُ بِهِ)[1] وكانت مُجانبةً لتحديقِ النَّظر إليه كَيلاَ يعلم بما قصدَتْ به. وقال قتادةُ: (كَانَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ كَأنَّهَا لاَ تُرِيْدُهُ)[2]، وكان يقرأ (عَنْ جَنْبٍ) بفتحِ الجيم وسُكون النُّون. وقرأ النُّعمان بن سالِم[3]: (عَنْ جَانِبٍ) أي عن ناحيَةٍ (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) أنَّها أختُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ ؛ الْمَرَاضِعُ جمعُ مُرْضِعَةٍ، وقولهُ تعالى: (مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ مَجِيء أمِّهِ، ومعنى: (حَرَّمْنَا عَلَيْهِ) أي مَنَعْنَاهُ، وقد يذكرُ التحريم بمعنى المنعِ. قال الشاعرُ:

جَاءَتْ لِسُرْعَتِي فَقُلْتُ لَهَا اصْبِري إنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ[4]

أي مُمْتَنِعٌ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى أرادَ أن يَرُدَّهُ إلى أمِّهِ، فَمَنَعَهُ من قَبول ثَدْيِ المراضع، فلما تَعذرَ عليهم رضَاعُهُ؛ ﴿فَقَالَتْ﴾ أختهُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ ؛ أي يَضْمَنُونَ لكم القيامَ به ورضَاعَهُ، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ ؛ أي يُشفِقُونَ عليه وينصَحُونه، قالوا لَها: مَنْ؟ قالت: أمِّي، قالوا: ولأمِّكِ لبَنٌ؟ قالت: نَعَمْ؛ لبنُ أخِي هارونَ، وكان هارونُ وُلِدَ في سَنَة لا يُقتَلُ فيها صبيٌّ، فقالوا: صَدَقْتِ. فدلَّتْهُم على أمِّ موسى، فدُفِعَ إليها لتُربيَهُ لَهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٧٢٦).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٧.

(٤) نقله القرطبي بلفظ:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ اقْصِري إنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ

يصف حال ناقته، وجالت: اضطربت وقلقت، فهو يقول: ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعني فلم تقدر على ذلك لحذقي بالركوب ومعرفتي به.

فلما وَجدَ الصبيُّ ريْحَ أمِّهِ قَبلَ ثديَيْها وأتمَّها اللهُ ما وعدَها وهو قوْلُـهُ تَعالَى: ﴿ فَرَدَدْنَهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ ؛ على فِراقِـهِ، ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بـردِّ ولدِها إليـها، ﴿ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ أنَّ اللهَ وعدَها بردِّ ولدِها إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (بَلَـغَ أشُـدَّهُ؛ أي ثلاثـاً وثلاثِيْنَ سَنَةً)، (وَاسْتَوَى) أي بَلَغَ أربعينَ سَنَةً[١]، وهو قولُ ابنِ عبَّاس وقتادةَ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعني الفِقْهَ والعقلَ والعِلْمَ في دينهِ ودِيـن آبائهِ، قد تعلَّمَ موسَى وحَكَمَ قبلَ أن يُبْعَثَ نبياً. وقال ابنُ عبَّـاس: (لَمَّـا بَلَـغَ مُوسَـى أرْبَعِيْنَ سَنَةً آتَاهُ اللهُ النُّبوَّةَ). وَقِيْلَ: الأَشُدُّ: منتهَى الشَّباب والقُوَّةِ، والاسـتواءُ: إتْمَامُ الْخَلْقِ واعتدالُ الجسمِ في الطُّول والعِظَمِ، وإنَّما يبلغُ المرء هذا الحدَّ في اثنين وعِشرين سنةً إلى أربعين سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ فيهِ بيانُ أنَّ إنشـاءَ العلـمِ والحكمة يجوزُ أن يكون علـى الإحْسَـانِ؛ لأنَّـهما يؤَدِّيـان إلى الجنَّـةِ الـتي هـي جـزاءُ الْمُحسِنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ ؛ أي دخلَ مُوسَى مدينةَ فرعون وهي مدينةٌ يقالُ لَها منف، وكانت مِن مِصْرَ على فرسَـخَيْنِ[٣]. وقولـهُ تعـالى: ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (فِي وَقْتِ الظَّهِيْرَةِ عِنْدَ الْمَقِيْلِ وَقَدْ خَلَتِ الطُّرُقُ)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢٠٧٤٠). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: ج ٩ ص٢٩٥١: الأثر (١٦٧٤٣-١٦٧٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (٢٠٧٤٠). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: ج ٩ ص٢٩٥١. الأثر (١٦٧٤٣ و١٦٧٤٤).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٩، نقله القرطبي عن مقاتل.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٤٩).

وَقِيلَ: دخلَها بين المغرب والعِشاء، وَقِيلَ: دخلَها يومَ عيدِهم وكانوا مشغولِين عن موضعِ مدينَتِهم باللَّهْوِ واللَّعب، ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي مِن بَنِي إسرائيلَ، ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ؛ أي من القِبْطِ، وكان القبطيُّ يُسَخِّرُ الإسرائيليَّ ليحمِلَ له حَطَباً إلى مَطبَخِ فرعون، والإسرائيليُّ يأبى ذلك، ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي استَنْصَرَهُ الإسرائيليُّ، ﴿ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ ، على القِبْطِيِّ، ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ ؛ أي ضَرَبَهُ بجمعِ كفِّهِ في صدرِه، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي قَتَلَهُ فوقعَ القبطيُّ مَيِّتاً. وكلُّ شيءٍ فَرَغْتَ منهُ وأتْمَمْتَهُ فقد قَضَيْتَ عليهِ وقَضَيْتَهُ، والوَكْزُ: الضَّرْبُ بجمعِ الكَفِّ.

وكان مُوسَى عليه السلام قد أُوتِيَ بَسْطَةً في الْخَلْقِ وشدَّةَ القوةِ والبطشِ، وكان مِن نِيَّةِ موسى أنه لا يريدُ قَتْلَهُ ولَم يتعمَّدْ هَلاكَهُ، بل قال له أوَّلاً: خَلِّ سَبِيْلَهُ، فقال: إنَّما أريدهُ ليحمِلَ الحطبَ إلى مطبخِ فرعونَ، (فوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) أي قَتَلَهُ وفرَغَ من أمرِه، والوَكْزُ واللَّكْزُ والْهَز بمعنى واحدٍ وهو الدَّفْعُ، ويقالُ: وَكَزَهُ بعَصَاهُ.

فَلَمَّا قَتَلَهُ موسَى عليه السلام نَدِمَ على قتلهِ وقال: لَمْ أدرِ بهذا، ثُم دفعَهُ في الرَّمْلِ، ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ لأنِّي كنتُ لا أريدُ قَتْلَهُ، ولكن هَيَّجَ الشيطانُ حَرْبي حتى ضربتهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي عَدُوٌّ لبَنِي آدمَ مُضِلٌّ له مُبَيِّنٌ عداوتَهُ لَهم.

ثُم استغفرَ مُوسَى رَبَّهُ فـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ ؛ بقتْلِ القبطيِّ قَبْلَ وُرودِ الأمرِ والإذنِ لِي فيه، ﴿ فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي بما أنعمتَ عليَّ بالمغفرةِ والحِلْمِ والعلم فلن أكونَ عَوْناً للكافرينَ، وهذا يدلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانهُ موسى كان كافِراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ؛ أي أصبحَ مِن عند ذلك اليوم في تلك المدينة التي فَعَلَ فيها ما فعلَ خائفاً على نفسهِ من فرعون وقومهِ (يَتَرَقَّبُ) أي ينظرُ عاقبةَ أمرِه، والتَّرَقُّبُ: انتظارُ المكروهِ؛ أي ينتظرُ سوءاً ينالهُ منهم، ﴿ فَإِذَا ﴾ ؛ ذلكَ الإسرائيليُّ، ﴿ ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ ؛ أي يستغيثُهُ

على رجلٍ آخر من القِبْطِ، ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ضَالٌّ عن طريقِ الحقِّ بَيِّنُ الجِدَالِ، يقاتِلُ مَن يقاومهُ، وقد قتلتَ أمس في سببك رجُلاً، وتدعونِي اليومَ إلى آخرَ.

ثُم أقبلَ موسى وهمَّ أن يبطُشَ الثانيةَ بالقبطيِّ، ظَنَّ الإسرائيليُّ أنه يريدُ أن يبطشَ به لقولهِ (إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِيْنٌ) فقال الإسرائيليُّ: يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس؟ ولَم يكن أحدٌ مِن قومِ فرعون عَلِمَ أنَّ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ حتى أفشَى عليه هذا الإسرائيليُّ، وسَمع القبطيُّ ذلك فأتَى فرعونَ فأخبرَهُ، وذلك معنى قولهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ؛ وكان أيضاً هذا القبطيُّ الثانِي سَخَّرَ الإسرائيليَّ يحمِلُ عليه حَطباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ما تريدُ إلاَّ أن تكون قَتَّالاً في أرضِ مصرَ بالظُّلم. قال الزجَّاجُ: (الْجَبَّارُ فِي اللُّغَةِ: الَّذِي لاَ يَتَوَاضَعُ لأَمْرِ اللهِ، وَالْقَاتِلِ بغَيْرِ حَقٍّ جَبَّارٌ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي مِن الذين يأمُرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المنكر. فلمَّا سَمع القبطيُّ مقالةَ الإسرائيليِّ عَلِمَ أنَّ موسى هو الذي قَتَلَ القبطيَّ بالأمسِ، ولَم يكن أحدٌ عَلِمَ ذلكَ قَبْلَ هذا فانطلقَ القبطيُّ فأخبرَ فرعون. فأرسلَ فرعونُ إلى أولياءِ المقتول أن اقتُلُوا موسَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ ؛ مِن شيعة موسى، ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي مِن آخرها إلى مُوسَى فأخبرَهُ بذلكَ، وقولهُ تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ ؛ أي يَمشي على رجلَيْهِ مُسرعاً وهو حزقيل بن صوريا مؤمنٌ من آل فرعون، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ ؛ أي أنَّ الْخَوَاصَّ مِن قوم فرعونَ يتشَاوَرُونَ في قتلِكَ، ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾ ؛ مِن المدينةِ، ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٣-١٠٤؛ قال الزجاج: (الجبَّارُ في اللغة: المتعظِّمُ الذي لا يتواضعُ لأمر اللهِ، فالقاتلُ مؤمناً جبَّار، وكلُّ قاتلٍ فهو جبَّارٌ، قتَلَ واحداً وجماعةً ظُلماً).

وقال الزجَّاج: (يأتمِرُونَ أيْ يأمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بقَتْلِكَ)(١). فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِيْنَ في أمرِي لكَ بالخروجِ، ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا ﴾ ؛ أي خرجَ موسى من المدينةِ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ؛ أي ينظرُ متى يُلْحَقُ فيُؤْخَذُ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ عندَ ذلكَ: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مِن فرعونَ وقومهِ أين يذهب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ؛ أي لَمَّا سارَ نحوَ مِدْيَنَ، وكان قد خرجَ بغيرِ زاد ولا حِذاءٍ ولا ركوبةٍ، بل خرجَ هَائِماً على وجههِ هارباً من فرعونَ وقومهِ لا يدري أينَ يذهبُ، فخافَ أن يُخطِئَ الطريقَ. ومَدْيَنُ اسمُ ماءٍ لقوم شُعيب، وبينَهُ وبين مصرَ ثمانيةُ أيَّامٍ، سُمي ذلكَ الماءُ باسم مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام.

فلمَّا لَم يكن لِموسى علمٌ بالطريق خَشِيَ أن يذهبَ يَميناً وشِمالاً فـ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي يُرشِدُنِي قصدَ الطريقِ إلى مَدْيَنَ، فلمَّا دَعَا موسى بهذا جاءَهُ مَلَكٌ على فَرَسٍ فانطلقَ به إلى مَدْيَنَ. قال المفسِّرون: خرجَ موسَى من مصرَ بلا زادٍ ولا درهَمٍ ولا رُكوبةٍ إلى مَديَنَ، وبينهما مسيرةُ ثمان ليالٍ، ولَم يكن له طعامٌ إلاّ ورقَ الشَّجرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ؛ أي بلغَ بئرَهُمْ التي كانوا يَسْقُونَ منها، قال ابنُ عبَّاس: (وَرَدَ مَاءَهُمْ وَأنَّهُ لَيَرَى خُضْرَةَ الشَّجَرَةِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ)(٢). وقولهُ: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ؛ أي وجدَ على ذلك الماءِ جماعةً من الناسِ يَسْقُونَ أغنامَهم مواشِيهم، ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ؛ أي تَحْبسَانِ غنمَهما عن الماءِ حتى تفرغَ الناسُ ويَخلو لَهما الماءُ، وهما بنْتَا شُعيب.

والذوْدُ في اللغة: الطَّرْدُ والدفعُ والكَفُّ، ومعنى(تَذُودَان) تَدْفَعَان وتكُفَّان الغنمَ مِن أن يَخلطَ بأغنامِ الناس، وحتى يقربَ الماءُ إلى أن يفرغَ القومُ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٤.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٨٠٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؛ أي قالَ موسَى لابنَتَي شُعيب: (مَا خَطْبُكُمَا) أي ما شَأْنُكُمَا لا تسقِيَان غنمَكُما مع الناسِ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ ؛ قرأ الحسنُ وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضَمِّ الدال، جعلُوا الفعلَ للرِّعَاءِ؛ أي حتى يرجعَ الرِّعَاءُ عنِ الماء، وقرأ الباقون (يُصْدِرُ) بضَمِّ الياءِ وضمِّ الدال؛ أي حتى يُصْدِرُوا مواشيهم من وردِهم، فيخْلُوا لنا الموضعَ فنَسقِي أغنامَنا فَضْلَ ما في الحوضِ. والرِّعَاءُ جمعُ رَاعٍ[1].

قال ابنُ اسحقَ: (قَالَتَا: نَحْنُ امْرَأتَانِ لاَ نَسْتَطِيْعُ أنْ نُزَاحِمَ الرِّجَالَ ﴾ ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ لا يقدرُ أن يسقِي ماشيتَهُ من الكِبَرِ والضَّعْفِ، وليس له أحدٌ غيرُنا، فلذلك احتَجْنا ونحنُ نساءٌ أن نسقي الغنمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ ؛ فلما سَمِعَ موسَى قولَهما رحِمَهُما، فقامَ ليسقِي لَهما غنمَهما، فوجدَ بقُربهما بئراً أخرى على رأسِها صخرةٌ عظيمة لا يطيقُ رفعَها إلاَّ جماعة من الناسِ، فاقتلَعَها وحدَهُ ثُم أخذ الدَّلو من القوم، فأدلاَها في البئرِ، ونزعَها وأفرغَها في الحوضِ، ثُم دعا بالبَرَكَةِ فشَرِبَ الغنمُ حتى رَوِي.

وَقِيْلَ: إنه زَاحَمَ القومَ على بئرهم وسقَى لَهما غنمَهما، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَقَى لَهُمَا) أي سقَى لَهما أغنامَهما قبلَ الوقتِ الذي كانا يسقِيَان فيه، ثُم رجعَ من الشَّمس إلى ظلِّ شجرةٍ فجلسَ تحتَها من شدَّةِ الحرِّ، وهو جائعٌ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي لَمُحْتَاجٌ فقيرٌ إلى ما قدَّرتَ لِي من الطعامِ، وكان خرجَ من مصر بغيرِ زادٍ وكان لا يأكلُ في الأيام الثمانيةِ إلاَّ الحشيشَ والشَّجرَ إلى أن بلغَ ماء مَدْيَنَ، فلما أدركَهُ الجوعُ الشديد؛ وكان لا يقدرُ على شيءٍ؛ سألَ الله أكلَهُ من الطعامِ.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٤٩-٢٥٠. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص١٠٥.

قال ابنُ عبَّاس: (سَأَلَ اللهَ فَلْقَ خُبْزٍ أنْ يُقِيْمَ بِهِ صُلْبَهُ)[١]، قال سعيدُ بن جبير: (لَقَدْ قَالَ مُوسَى: إنّي لِمَا أنْزَلْتَ إلَيَّ مِنْ خُبْزٍ فَقِيْرٌ، وَهُوَ أكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدِ افْتَقَرَ إلَى شِقِّ تَمرةٍ)[١]، وقال مُحمَّدٌ: (مَا سَأَلَ اللهَ إلاَّ الْخُبْزَ). واللامُ في قوله تعالى (إنّي لِمَا أنزَلْتَ) بمعنى: إلَيَّ، يقالُ: فقراءُ وفقيرٌ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ؛ وذلك أنَّ موسى عليه السلام لَمَّا سقى لَهما، رجعَا إلى أبيهما سَريعاً، فقالَ لَهما أبوهُما: مَا أعْجَلَكُمَا ؟ قالتا: وجَدْنا رجُلاً صالحاً رَحِمَنا، فسقَى لنا أغنامَنا، فقالَ لإحداهُما: اذهَبي فادعِيه لِي، فجاءَتْهُ تَمشي مُستحيةً مشيَ مَن لا يعتادُ الدُّخولَ والخروجَ، واضعةً كفَّها على وجهها، مُعرِضَةً من الحياءِ، وكانت التي أرسَلَها أبوها إلى موسَى هي الصُّغرَى منهما، واسْمُها صُورَا، قال عمرُ بن الخطَّاب في قولِهِ تعالى: (فَجَاءَتهُ إحدَاهُمَا تَمشِي عَلَى استِحيَاء): (وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا؛ أيْ مُسْتَتِرَةً بكُمِّ ذِرَاعِهَا)[٢]. قال أهلُ اللُّغة: السَّلْفَعُ: الجريئة التي هي غيرُ مُستحيَةٍ[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي ليعطيكَ ذلك، فلما قالت ذلكَ لِموسَى شَقَّ عليه قولُها، وهَمَّ أن لا يتبعَها وكان بينه وبين أبيها مقدارَ ثلاثةِ أميَالٍ، ثُم إنه لَم يجدْ بُدّاً من اتِّباعِها؛ لأجْلِ الْجُهْدِ والجوعِ الذي حَلَّ به ولأجلِ الخوف الذي خرجَ لأجلِهِ، فانطلقَ معها، وكانت الريحُ تضربُ ثوبَها فنَكَّرَتْهُ[٤] برِدْفِها فتصفُ له عجيزَتها، وكانت ذات عَجِزٍ، فجعل موسَى يَغُضُّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٣٤).

(٣) كأنه يوجد سقط من المخطوط، حيث ضرورة سياق كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ تقتضي ذكر أثر عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (لَمْ تَكُنْ سَلْفَعاً مِنَ النِّساءِ خَرَّاجَةً وَلاَّجَةً، قَائِلَةً بِيَدِهَا عَلَى وَجْهِهَا: ﴿إنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٣٧). من رواية عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب ﷺ. والسَّلْفَعُ من النساء: الجريئة. والصَّخَّابة، البذيئة، الفاحشة القليلة الحياء. والخرَّاجة والولاَّجة: الكثيرة الظرف والاحتيال.

(٤) نَكَّرَهُ فَتَنَكَّرَ: أي غيَّرَهُ فتغيَّرَ إلى مجهول، وهنا غيَّرت الريحُ صفةَ ثوبها إلى صفةِ ردفها مما يظهر شكل ما تحته.

بَصرَهُ ويُعرضُ عنها، ثُم قال لَها: (يَا أمَةَ اللهِ كُونِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِيَ الطَّرِيْقَ بقَوْلِكِ، وَدُلِّينِي عَلَيْهَا إنْ أنا أخطَأتُ، فَإنَّا بَنُوا يَعْقُوبَ لاَ نَسْتَطِيْعُ النَّظَرَ إلَى أعْجَازِ النِّسَاءِ)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي فلمَّا جاءَ مُوسَى إلى شُعيب إذ هو بالعَشَاءِ مُهَيَّأ، فقالَ له شُعيب: مَن أنتَ ؟ قال: أنا رجلٌ من بَنِي إسرائيلَ مِن أهلِ مصر، وحَدَّثَهُ بما كان منهُ من قَتْلِ القبطيِّ وفرارهِ من فرعون، فقال له شعيبُ: إجلِسْ (لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي نجوتَ من فرعونَ وقومهِ، فإنَّهم لا سلطانَ لَهم بأرضِنا، ولَسْنَا مملكتَهُ.

فجلسَ معه موسى عليه السلام فقالَ له شعيبُ: هَاكَ فَتَعَشَّ، فقال: أعوذُ باللهِ، فقال له شعيبُ: ولِمَ ذلك وأنتَ جائعٌ؟ قال: أخافُ أن يكون هذا عِوَضاً لِمَا سقيتُ لكم، وإنَّا أهلُ بيتٍ لا يَبْغ شيئاً من عَمَلِ الآخرةِ بِملْءِ الأرضِ ذهباً، فقال شعيبُ: لاَ وَاللهِ! ولكنَّها عادَتِي وعادةُ آبائي، نُقْرِي الضَّيفَ ونُطعِمُ الطعامَ، فجلسَ مُوسَى عليه السلام يتعشَّى حينئذٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي قالَتْ إحداهُما وهي التي تزوَّجَها موسى: يا أبَتِ اتَّخِذْهُ أجيراً يرعَى لنا غنمَنا، فإنَّ خيرَ منِ استأجرتَ الذي يقوَى على العملِ، ويؤدِّي الأمانةَ.

فقال لَها أبوهَا: وما عِلْمُكِ بقوَّتهِ وأمانتهِ ؟ فقالت: أمَّا قوَّتهُ فإنه لَمَّا رأى أغنامَنا محبوسةً عن الماءِ، قال لنا: هل بقُربكُما بئرٌ ؟ قلنا: نَعَمْ؛ لكن عليها صخرةٌ عظيمة لا يرفعُها إلاّ أربعونَ رجُلاً، قال: انطَلِقا بي إليها، فانطلَقا به إليها، فأخذ الصخرةَ بيدهِ ونحَّاهَا سَهْلاً من غيرِ كُلْفَةٍ. وأمَّا أمانتهُ فإنه قال لِي في بعضِ الطَّريقِ: إمْشِ خلفِي، فإنْ أخطأتُ الطريقَ فارْمِ قبلِي بحصاةٍ حتى أنْهجَ نَهْجاً، فإنَّا قومٌ لا ننظرُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٨٤٢) عن السدي، والاثر (٢٠٨٤٤) عن ابن اسحق.

إلى وراءِ النِّساء. ولِهذا المعنى قال عمرُ ﷺ: (لاَ يَصْلُحُ لأُمُـور الْمُسْـلِمِيْنَ إلاَّ الْقَـويُّ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ، وَالرَّقِيْقُ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ)[١].

قال فلمَّا ذكرَتِ المرأةُ من حال موسى ازدادَ أبوهَا رغبةً فيـهِ و﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾ ؛ أي على أن تَرْعَـى غنمِـي، ويكـون فيـها أجْـراً إلى ثمـان سِـنين، ﴿ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ ﴾ ؛ فـهو بفضْـلٍ منـكَ ليـس بواجـبٍ عليـكَ، ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ ﴾ ؛ في العشر، ولا أكلفُكَ إلاّ العملَ المشروط، والمرادُ بالحِجَجِ السِّنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ ﴾ ؛ مِمن وافقَ فِعْلَـهُ. وَقِيْلَ: ستجدُني إن شاءَ اللهُ من الوَافِيْنَ بالعهدِ، الْمُحسِنينَ الصُّحبةَ.

فـ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى لشـعيب: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الشـرط ﴿ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ ﴾ ؛ يعني الذي وصفتَ وشَرَطْتَ علىذلك، وما شرطتَ لِي مِـن تزويـج إحداهمـا علَـيَّ فلي، والأمر بيننا. وثـم السـلام. ثـم قـال: ﴿ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ ﴾ ؛ أيُّ الأجلَيـن مـن الثّمان أو العَشْر، ﴿ قَضَيۡتُ ﴾ ؛ أي أتْمَمْتَ وفَرغْتَ، ﴿ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ ﴾ ؛ أي لا ظُلْمَ ولا حرجَ ولا كُلفَةَ. قال الفرَّاء: (مَا) صِلَةٌ فِي قَوْلِهِ: (أيَّمَا الأَجَلَيْنِ)[٢].

وقولُهُ تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٢٨ ﴾ ؛ أي شـهيدٌ علـى مـا عَقَدَ بعضُنا على بعضٍ. قال ابنُ عبَّاس: (وَاللهُ شَهِيْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ).

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: أبواب القضـاء: بـاب كيـف ينبغـي للقـاضي أن يكـون: الأثـر (١٥٢٨٨). ولفظه: (لاَ يَنْبَغِي أنْ يَلِيَ هَذَا الأَمْرَ - يعني أمرَ الناس - إلاَّ رَجُلٌ فِيْهِ أرْبَعُ خِصَـالٍ: اللِّيْنُ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ، وَالشِّدَّةُ فِي غَيْرِ عُنْـفٍ، وَالإِمْسَـاكُ مِـنْ غَـيْرِ بُخْـلٍ، وَالسَّـمَاحَةُ فِـي غَـيْرِ سَرَفٍ. فَإِنْ سَقَطَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَسَدَتِ الثَّلاَثُ).

(٢) معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٠٥؛ قال: (فجعل (ما) وهي صلة من صلات الجزاء مـع (ايٍّ) وهي في قراءة عبدالله (أيَّ الأجَلَين ما قضيتُ فلا عُدوان عليَّ) وهذا أكثر في كلام العـرب مـن الأول).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أيُّ الأَجلَيْن قَضَى مُوسَى؟ فَقَالَ: [أوْفَاهُمَا وَأبْطَئُهُمَا][(١)]. وعن أبي ذرٍّ[(٢)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وَإذا سُئِلْتَ عَنْ أيِّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلْ: خَيْرُهُمَا أوْ أبَرُّهُمَا، وَإنْ سُئِلْتَ أيُّ الْمَرْأتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلِ الصُّغْرَى مِنْهُمَا وَالَّتِي جَاءَتْ فَقَالَتْ: يَا أبَتِ اسْتَأْجِرْهُ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي فلمَّا وفَّى موسى أتَمَّ الأجلَين وهو عشرُ سنين، وسارَ بأهلِه نحو مصرَ، قال مقاتلُ: (اسْتَأْذنَ مُوسَى صِهْرَهُ شُعَيْبَ فِي الْعَوْدِ إلَى مِصْرَ لِزِيَارَةِ وَالِدَيْهِ وَأخْتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَسَارَ بأهْلِهِ نَحْوَ مِصْرَ؛ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ فأبصرَ باللَّيْلِ الظَّلِيم عن يسار الطَّريق، أي الجبَلِ، ﴿ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ ؛ أي انزلُوا ها هُنا، ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ ﴾ ؛ أي أبصرتُ، ﴿ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ؛ أي مِن عند النار بخبرٍ، وأعلمُ لِمَ أوقِدَتْ تلك النارُ. ويقالُ: كان أخطأ الطريقَ فأرادَ أن يَسْألَ عن الطريقِ مَن يَجِدُهُ عندَ النار. وقولهُ تعالى: ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ معناهُ: أو آتيكُمْ بقطعةٍ من الحطَب في رأسِها شعلةٌ من النار لكي تَدفَئُوا من البردِ، وكانوا في شدَّةِ الشّتاء).

وفي قوله (جِذْوَةٍ) ثلاثُ قراءاتٍ: فتحُ الجيمِ وهي قراءةُ عاصم، وضمُّها وهي قراءةُ حمزةَ، وكسرُها وهي قراءة الباقين، وقولُهُ تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي تُدْفئُونَ بها عن البردِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: في الآثار (٢٠٨٧٣) بألفاظ عديدة؛ منها: [خَيْرُهُمَا وَأوْفَاهُمَا]، و[أتَمُّهُمَا وَأخْيَرُهُمَا] و [أكْثَرُهُمَا وَأطْيَبُهُمَا].

(٢) في المخطوط: (أبي) والصحيح كما أثبتناه من المعجم الصغير.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: ج ٢ ص٧٩: الحديث (٨١٥)، وفي المعجم الأوسط: الحديث (٥٤٢٦). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران، ضعفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني رجال ثقات). وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق الطبراني في تاريخ بغداد: ج ٢ ص١٢٦، وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٨، قاله الهيثمي.

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ ؛ أي فلمَّا أتَى موسى النارَ نُودِيَ من جانب الوادِي الأيْمَنِ أراد يَمينَ موسَى، وقولـهُ تعـالى (فِـي الْبُقْعَـةِ الْمُبَارَكَـةِ) أي الْمُقَدَّسَـةِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي من الشَّجرةِ وهي شجرةُ العُنَّاب في قول ابنِ عبَّاس، وقـال مقـاتلُ: (هِيَ عَوْسَجَةٌ)[١]، وسُمِّيت البقعةُ مباركةً؛ لأن الله كَلَّمَ مُوسَى فيها وبَعثَهُ نبيّاً. وقولـهُ تعالى: ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؛ أي نُـودِيَ بـأنْ ألْـقِ عصـاكَ مـن يـدِكَ، وموضعُ (أنْ ألْق) نصـب، ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ؛ أي فلمـا رَآهَـا بعـدَ مـا ألقاهَـا تتحـرَّك[٢] في غايـةِ الاضْطِـرَاب كأنَّـها جَـانٌّ في الْخِفَّـةِ مـع عِظَمِـهَا، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ ؛ أي هَارباً، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ؛ أي ولَم يَلْتَفِـتْ إلى مـا رآهُ، فقـال اللهُ لـه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ ﴾ ، إليها، ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾ منـها؛ ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ مِن أن ينالَكَ منها مكروهٌ، فأخذها موسى فإذا هي عصًا كما كـانت، ويقـال سُـميت جَانٌّ في هذهِ الآية؛ لأنَّها صارت جَانّاً في البقعةِ المباركة، وثُعباناً عند فرعونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ ؛ أي أدْخِلْـهَا في جيبِــكَ، ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ ؛ لَها شـعاعٌ كشُعَاعِ الشَّـمس، ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ؛ أي مـن غـيرِ بَـرَص، ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ ؛ أي ضَعْ يدكَ على صدركَ ليسْكُنَ ما بكَ من الفزعِ، فتصيرَ آمِناً مما كنتَ تخافهُ، وهذا لأنَّ من شَأنِ الْخَائِفِ أن يرتعدَ ويقلـقَ[٣] فيكون ضَمُّ يدهِ إلى نفسهِ في معنى السُّكون.

قال مجاهد: (كُلُّ مَنْ فَزِعَ فَضَـمَّ جَنَاحَيْـهِ إلَيْـهِ ذهَـبَ عَنْـهُ الْفَـزَعُ، وَقَـرَأ هَـذِهِ الآيَةَ)[٤]. وَجَنَاحُ الإنْسَانِ: عَضُدُهُ، ويقالُ: اليدُ كلُّها جَنَاحٌ. وقال بعضُهم: معنى قولهِ

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٦. (والعَوْسَجَةُ) باليمن. ومَعدِنٌ للفضة، وشوك. القـاموس المحيط: (عوس): والعوسَجُ إذا عظُمَ يقال: الغَرْقَدُ.

(٢) في المخطوط: (سحرت) والمناسب: تتحرك.

(٣) في المخطوط: (وتعلق) والمناسب كما أثبتناه.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨١.

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) أي سَكِّنْ رَوْعَكَ، وضَمُّ الجناحِ هو السُّكون، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ﴾(١) يريدُ الرِّفْقَ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) أي ارْفِقْ بهم، والِنْ جناحَكَ بهم. وقال الفرَّاء (أَرادَ بِالْجَنَاحِ الْعَصَا)(٣). وقولهُ تعالى (مِنْ الرَّهْب) وقُرِئ (مِنَ الرَّهَبِ) أيضاً وهما لُغتان مثل الرُّشْدِ والرَّشَدِ، ويقالُ: إنَّ قوله (مِنَ الرَّهْب) متَّصِلٌ بقولهِ (مِنَ الآمِنِيْنَ)(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ ؛ يعني اليدَ والعصا حُجَّتانِ مِن الله لِمُوسَى على صدقِهِ، والمعنى: هما حُجَّتَان من ربكَ أرسلناكَ بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ ؛ أي أشرافِ قومه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي خارجِين عن طاعةِ الله تعالى(٥)، ((وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون))(٦) وقرأ الباقونَ بالتخفيف. قال الزجَّاج: (التَّشْدِيْدُ تَثْنِيَةُ ذلِكَ، وَالتَّخْفِيْفُ تَثْنِيَةُ ذاكَ)(٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ ؛ يعني القبطِيَّ الذي قتلَهُ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ ، ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ ؛ أي أَبْيَنُ مِنِّي كَلاماً وأحسنُ بياناً، وكان في لسانِ موسى عقدةٌ من قِبَلِ الجمرةِ التي تناولَها،

---

(١) الاسراء / ٢٤ .

(٢) الشعراء / ٢١٥.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٠٦.

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٥٠.

(٥) أشار الناسخ إلى سقط، ولكنه لم يكتبه في الهامش كعادته، وكما هو واضح من سياق الكلام، وكأنه يريد (وقرأ ابن كثير وابن عمرو (فَذَانِّكَ) مشددة النون).

(٦) ليست في أصل المخطوط، وأضفناها لضرورة سياق الكلام وإتمام الفكرة.

(٧) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٠٨ . وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٨٥؛ قال القرطبي: (شدَّد النون ع.وَضاً عن الألف الساقطة في (ذانك) الذي هو تثنية (ذا) المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف (ذا) محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنه أصله (فذانك) محذوف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك).

ولذلك قال فرعونُ: وَلاَ يَكَادُ يُبِيْنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا ﴾ ؛ أي عَوْناً ومُصَدِّقاً لِي، يقالُ: فلانٌ رِدْءُ فلانٍ؛ إذا كان ينصرهُ ويشدُّ ظهرَهُ. وقرأ نافعُ (ردا) من غيرِ هَمْزٍ طلباً لِلْخِفَّةِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ ؛ قرأ عاصمُ وحمزة: (يُصَدِّقُنِي) بضمِّ القاف، وقرأ الباقونَ بالجزمِ على الجواب بالأمر، ومَن رفعَ كان صفةً لنكرةٍ، جواباً للمسالة تقديرهُ: رِدْءاً مُصَدِّقاً لِي، والتصديقُ هارون في قولِ الجمع. وقال مقاتلُ: (لِكَي يُصَدِّقَنِي فِرْعَوْنُ)[2] ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ تَعَالَى لِموسى: سنُعِينُكَ ونقوِّيكَ وننصرُكَ بأخيكَ، وشَدُّ العَضُدِ كنايةٌ عن التقويةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا ﴾ حجَّةً وبيِّنة تدلُّ على النبوَّة، ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا ﴾ بقتْلٍ ولا سُوءٍ ولا أذى، ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥ ﴾ ؛ لِمَن خالَفكما، وقولهُ تعالى: (بآيَاتِنَا) موضعهُ التقديمُ؛ والمعنى: ونجعلُ لكُمَا سُلطَاناً بآياتِنَا؛ أي بما نُعطِيكُما من المعجزاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ ؛ يعني المعجزاتِ فلم يقدِرُوا على دفعِ تلك الآياتِ، ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى ﴾ ، إلاّ أنْ قالوا هذا سِحْرٌ مُفْتَرَى؛ أي مُخْتَرَعٌ من قِبَلِ نفسِكَ ولَم تُبعَثْ بهِ، ﴿ وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا ﴾ ؛ الذي تَدْعُونا إليه، ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بالحقِّ مِنَّا وبمن يدعُو إلى الضَّلالةِ؛ أي أنا الذي جِئْتُ بالْهُدَى مِن عندِ الله. وقرأ ابنُ كثير: (قَالَ مُوسَى) بغير واوٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بمن تكونُ له الجنَّة، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾ ؛ أي لا يُسْعَدُ مَن أشْرَكَ باللهِ.

---

(١) الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٥٤.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ؛ أي قالَ فرعونُ لخَواصِّ قومِهِ: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي) وهــذه إحـدَى كَلِمَتَيْـهِ اللَّتين أخذهُ الله بهما، والأُخرى قولهُ (أنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى).

وقولــهُ تعــالى: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ ؛ أي اتَّخِـذْ لِـي آجُـرّاً، ﴿ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ ؛ أي قصْراً طويـلاً متَّسِعاً مرتفعـاً، ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ؛ أي أصعدُ إليه، ظَنَّ بجهلِهِ أنه يَتَهَيَّأُ له أنْ يبلُغَ بصرحهِ إلى السَّماءِ، وظَـنَّ أن إلهَ مُوسَى جِسْماً مشاهَداً كما تقولُ الْمُشبهَةُ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذلِكَ.

قال المفسِّرون: لَمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَهُ هامانَ ببناء الصَّرح، جَمَـعَ خمسِـين ألـفَ بَنَّاءٍ سِوَى الاتباعِ والأجْرَاءِ ممن يطبخُ الآجُرَّ والجِصَّ، وينحـتُ الخشـبَ والأبـوابَ، ويضربُ المسـاميرَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي في ادِّعاء (إلَهاً غَيْرِي) وأنه رسولهُ، وهذا اعترافٌ مِن فرعونَ بالشَّكِّ لأنه شَاكٌّ لا يـدري مَن في السَّماء، ولو كان إلَهاً لَمْ يجهَلْ ولَم يشُكَّ، والمبطلُ تظهرُ عليه الْمُنَاقَضَةُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ تعظَّمُـوا عن الإيْمانِ ولَم ينقَادُوا للحقِّ، وقولهُ تعالى (فِـي الأَرْضِ) أي في أرض مِصْـرَ (بغَيْرِ الْحَـقِّ) أي بالبـاطلِ والظُّلــم، ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي يُرَدُّونَ إلينا بالبعثِ للحساب والجزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ ؛ أي طَرَحْنَـاهُمْ في البحرِ. قال عطاءُ:(يُرِيْـدُ الْبَحْـرَ الْمَالِحَ بَحْـرَ الْقُلْـزُم) ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ حين صَارُوا إلى الْهَلاكِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي جعلنَـاهم في الدُّنيا أئِمَّةَ ضَلاَلَةٍ وقَادَةً في الكُفْرِ والشِّرك، يقــودُونَ النـاسَ إلى الشِّـركِ، وهـو قَوْلُـهُ تَعَالَى: (يَدْعُـونَ إلى النَّـار) لأن مَـن أطَاعَـهم ضَـلَّ ودخـلَ النـارَ، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُدْفَـعُ عنــهم عــذابُ اللهِ، ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ ؛ يعــني لَعْنَــةَ الملائكــةِ والمؤمنــين، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ

ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي مِن الْمُشَوَّهِينَ في النَّار، سَوَادُ وجُوهِهِم وزرقَةُ الأعيُنِ، فعلىهذا يكونُ المعنى: هُمُ الْمَقْبُوحِيْنَ. وَقِيْلَ: معناهُ: هم مِن الْمُبْعَدِيْنَ الملعونِينَ مِن القَبْحِ، وهو الإبعادُ. قال أبو يَزيدٍ: (يُقَالُ: قَبَّحَ اللهُ فُلاَناً قُبْحاً وَقُبُوحاً؛ أي أبْعَدَهُ مِن كُلِّ خَيْرٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾؛ يعني القُرُونَ الأُولَى قومَ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ وغيرَهم، كانوا قَبْلَ مُوسَى. وقولهُ تعالى (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) أي أعطَينا موسَى التَّوراةَ من بعدِ ما أهلكنا الأُمَمَ الماضيةَ عِظَةً وعِبْرَةً للناسِ لِيُبْصِرُوا بها أمرَ دِينِهم؛ أي لِيُبصِرُوا بالتوراةِ ويهتَدُوا بها، وهُو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُدًى ﴾؛ مِن الضَّلالةِ لِمن عَمِلَ بهِ؛ أي بالكتاب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾؛ لِمن آمَنَ به، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي يتذكَّرُوا بما فيه من المواعظ والبصائر.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [مَا أهْلَكَ اللهُ قَوْماً وَلاَ قَرْناً وَلاَ أمَّةً وَلاَ أهْلَ قَرْيَةٍ بعَذابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ غَيْرَ أهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِيْنَ مُسِخُوا قِرَدَةً، ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى)][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾؛ معناهُ: ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بجانب الوادِي الغربيِّ (إذْ قَضَيْنَا إلَى مُوسَى الأَمْرَ) أي إذ أوحَيْنَا الأمرَ بما ألزمناهُ وقومَهُ، ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ تلكَ الحالةِ، وإنَّما أخبرناكَ بذلك لتكونَ معجزةً لك.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾؛ أي خَلَقْنَا قَرْناً بعدَ قرن، ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾؛ أي طَالَتْ عليهم الْمُهَلُ فنسُوا عهدَ اللهِ، وتركُوا أمرَهُ، وكذبُوا الرُّسُلَ فأهلكناهم قَرْناً بعدَ قرنٍ، وهذا كلامٌ يدلُّ على أنه قد عَهِدَ إلى موسَى

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٨٧). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٨؛ قال الهيثمي: (رواه البزار مرفوعاً وموقوفاً... ورجالهما رجال الصحيح).

وقومه عهوداً في مُحَمَّد ﷺ والإيْمَانِ بهِ، فلما تَطَاوَلَ عليهِمُ الْعُمُرُ، وخُلِقَتِ القرونُ بعدَ القرون، وتركُوا الوفاءَ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا ﴾ ؛ أي مُقِيماً ﴿ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ كقِيَامِ مُوسَى وشُعيب فيهم، ﴿ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ ؛ أي تذكِّرُهم بالوعدِ والوعيد. قال مقاتلُ: (وَالْمَعْنَى: لَمْ تَشْهَدْ أهْلَ مَدْيَنَ فَتَقْرَأ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ خَبَرَهُمْ كَخَبَرِ مَنْ شَاهَدَهُمْ)[1] ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي أرسلناكَ إلى أهلِ مكَّةَ، وأنزلَ عليك هذهِ الأخبارَ، ولولاَ ذلك لَمَا علِمْتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ؛ أي وما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ بناحيةِ الْجَبَلِ الذي كَلَّمَ اللهُ عليه مُوسَى إذ نَادَيْنَا موسى: إنِّي أنَا اللهُ، ويَا مُوسَى أقْبلْ ولاَ تَخَفْ، ﴿ وَلَٰكِن ﴾ ؛ أوحيناها إليكَ وقصَصْناها عليكَ، ﴿ رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ لَم يأتِهم رسولٌ يُخَوِّفُ قبلَكَ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يَتَّعِظُونَ.

ومعنى (رَحْمَةً) أي رَحِمْنَاكَ رحمةً بإرسالِكَ والوَحْيِ إليكَ. وقولُهُ تعالى: (لِتُنذِرَ قَوماً ما أتَـهُم من نذيرٍ) يعنِي أهلَ مكَّة لعلَّهُم يتَّعظُونَ، واسمُ الجبلِ الذي نُودِي عليه موسى جَبَلُ رسمه[2]. قرأ عيسَى بن عمر: (وَلَكِـنْ رَحْمَـةٌ) بالرفعِ على معنى: ولكن هِيَ رحمةٌ مِن ربكَ إذ أطْلَعَكَ اللهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَلَوْلاَ أنْ يُصِيبَهُمُ الْعَذابُ فِي الدُّنْيَا بمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي)[3] يعني كفارَ مكَّةَ، ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ ؛ أي هلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً، ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ ، يعني القُرْآنَ، ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٩.

(٢) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط، ولم أقف على معناه.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٩٩.

والمعنى: لولا أنَّهم يحتجُّون بتركِ الإرسال إليهم لعجَّلناهم بالعقوبـةِ بكُفْرِهـم. وحقيقةُ كَشْفِ معنى الآية: لَولاَ أنّهُ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ؛ أي عقوبةٌ بما قدَّمَتْ أيْدِيْـهِمْ من الكُفْرِ فيقولُوا عندَ نُزول العذاب بهم: رَبَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رَسُولاً فنَتَّبِـعُ كتابَكَ ورسولكَ، ونكون مِن المؤمنينَ؛ لعجَّلْناهم العقوبـةَ. قِيْـلَ: معنـاهُ: لـولا إذا أصابَتْـهم عقوبةُ الآخرةِ فيقولُوا ربَّنا لولاَ أرسلتَ إلينا رسُولاً في الدُّنيا لَمَا أرسلناكَ. وفي الآيـة بيانُ أنَّ الله تعالى أرسَلَ النبيَّ ﷺ مبالغةً في الْحُجَّةِ وقطعِ الْمَعْذِرَةِ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ ؛ أي فلمـا جـاءَ أهـلَ مكـة الحقُّ مِن عِنْدِنا وهو مُحَمَّـدُ والقـرْآنُ، ﴿ قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ ؛ أي هلاَّ أُعطِيَ مثلَ ما أعطِيَ موسى، يعنونَ هَلاَّ أُنْزِلَ عليه القُـرْآنُ جُمْلَـةً كمـا أنـزلَ التوراة على موسى جُملة واحدةً، وهلاَّ أعطَى مُحَمَّداً اليدَ والعصـا والمـنَّ والسَّـلوى وغيرَ ذلك من الآيات.

فاحتجَّ اللهُ عليهم بقولـه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي فقد كفَرُوا بما أوتِيَ موسَى، كما كفَرُوا بآيـاتِ مُحَمَّـد و ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا ﴾ ؛ أي تَعَاوَنَا على السِّحرِ والضَّلال، يعنونَ موسى ومُحَمَّداً عليهمُ السَّـلاَمُ. وقـرأ أهـلُ الكوفة (سِـحْرَان) بغـيرِ ألـفِ التَّـوْرَاةُ والقـرْآنُ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ ، مِـنَ التَّـوراةِ والقُرْآنِ، ﴿ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

قـال اللهُ لِنبيِّـهِ ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لكُفَّـار مكَّـة: ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ ؛ أي مِـن التَّـوراةِ والقُـرْآن حتـى ﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أنَّهما كانا سِحرَان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ ؛ أي فإن لَم يأتُوا بمِثْـلِ التَّوراةِ والقُرْآن، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ وإنَّ مـا رَكِبُوهُ من الكُفرِ لا حُجَّةَ لَهم فيه، وإنَّما آثَرُوا فيه الْهَوَى.

ثُمَّ ذمَّـهم اللهُ فقـال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا أحدَ أضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هواهُ بغيرِ رَشَادٍ ولا بيان جاءَ مـن الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ ومعنى قولهِ (فَإِنْ لَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَـكَ) أي فـإنْ لَـم يُجِيبُوكَ إلى ما سألتَهم ولا يجيبون.

قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا ﴾ ؛ رسُلَنا، ﴿ لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي وصَّلنا لأهلِ مكَّة ذِكْرَ الأنبياءِ والأُمَمِ وأقاصيصِ بعضهم لبعض، وأخبَرْناهم أنَّا أهلكنا قومَ نوحٍ بكذا وقومَ صالحٍ بكذا لكي يتَّعِظُوا بالقُرْآنِ، ويخَافُوا أن يَنْزِلَ بهم مثلَ ما نزلَ بمن قبلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ ؛ أي من قَبلِ القُرْآن، ﴿ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي بمُحَمَّدٍ ﷺ. قال السديُّ: (يَعْنِي مُسْلِمِي الْيَهُودِ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلام وَأصْحَابُهُ)[1]. وقال مقاتلُ: (يَعْنِي مُسْلِمِي أهْلِ الإنْجِيلِ، وَهُمُ الَّذِيْنَ قَدِمُواْ مَعَ جَعْفَرَ بْنِ أبي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ)[2].

ثُم نَعَتَهم اللهُ تعالى فقالَ: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي صدَّقنا بالقُرْآنِ، ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ ؛لا ذِكْرَ النبيِّ ﷺ، وكان مَكتُوباً عندَهم في التَّوراةِ والإنجيلِ فلَمْ يعانِدُوا، وقالوا للقُرْآن: إنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبنَا، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ ﴾ ؛ قبلَ القُرْآنِ، ﴿ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مُخلِصِين للهِ بالتوحيد، مؤمِنين بمُحَمَّدٍ ﷺ أنَّهُ نبيٌّ.

ثُم أثنى اللهُ عليهم خيراً، فقالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ؛ مرَّةً بتمسُّكِهم بدِينهم حتى أدركُوا مُحَمَّداً ﷺ فآمَنُوا به، ومرَّةً بإيْمانِهم به. وقال قتادةُ: (كَمَا صَبَرُواْ عَلَى الْكِتَابِ الأوَّلِ وَالْكِتَابِ الثَّانِي)، وَقِيْلَ: مرَّةً لإيمانِهم بموسَى ومرَّةً لإيْمانِهم بمُحَمَّدٍ ﷺ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ؛ أي يدفعُون بشهادةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ الشِّرْكَ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال مقاتلُ: (يَدْفَعُونَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٦٩٧٩).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٠.

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٢٨؛ قال السيوطي: (وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ [مَنْ أسْلَمَ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ فَلَهُ أجْرُهُ مَرَّتَيْنِ]). وله شاهد من حديث بردة مخرج في الصحيحين: البخاري في الصحيح: الحديث (٩٧ و٣٠١١ و٣٤٤٦). ومسلم في الصحيح: الحديث (٢٤١/ ١٥٤).

أذيَّةِ الْكَافِرِيْنَ وَشَتْمِهِمْ لَهُمْ بالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالاحْتِمَالِ). ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ مِن الأموالِ في طاعة الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي وإذا خُوطِبُوا بالسَّفاهَةِ وشتَمَهم المشركونَ رَدُّوا عليهم جَميلاً، وأعْرَضُوا عن الكلامِ الذي لا فائدةَ فيه، ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا ﴾ أي دِينُنا، ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ أي دِينُكم.

وذلك أنَّهم عَيَّرُوهُمْ بتَرْكِ دِينهم. قال السديُّ: لَمَّا أسْلَمَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ جَعَلَ الْيَهُودُ يَشْتُمُونَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاج: (لَمْ يُريدُوا التَّحِيَّةَ، وَالْمَعْنَى أنَّهُمْ قَالُوا: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمُتَارَكَةُ والتَّسَلُّمُ، وَهَذا قَبْلَ أنْ يُؤْمَرَ الْمُسْلِمُون بالْقِتَال)[1]، فَكَأنَّهُمْ قَالُوا: سَلِمْتُمْ مِنَّا لاَ نَعْتَرِضَنَّكُمْ بالشَّتْمِ. ومعنى قولهِ تعالى (لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) أي لا نريدُ أن نكونَ مِن أهلِ الْجَهْلِ والسَّفَهِ. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ نُحِبُّ دِينَكُمُ الَّذِي أنْتُمْ عَلَيْهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ؛ ذهبَ أكثرُ المفسِّرين أنَّ هذهِ الآيَةَ نزلت في أبي طَالِبٍ، وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: [يَا عَمِّ؛ قُلْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ أشْهَدُ لَكَ بهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ] قَالَ: لَوْلاَ أنْ يُعَيِّرَنِي نِسَاءُ قُرَيْشٍ وَيَقُلْنَ: إنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذلِكَ الْجَزَعُ عِنْدَ الْمَوْتِ، لأَقْرَرْتُ بهَا عَيْنَكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى(إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ)[2] هِدايَتَهُ. وَقِيْلَ: إنَّكَ لا تَهدِي من أحبَبْتَهُ.

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ أبي طَالِبٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ، وَعِنْدَهُ أبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّةَ بْن الْمُغِيْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: [يَا عَمِّ؛ قُلْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ أحَاج لَكَ بهَا عِنْدَ اللهِ] فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّةَ: أتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ؟!

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٢.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٧٢).

فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَهُمَا يُعَاوِدَانِهِ عَلَى تِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ: أنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، وَأبَى أنْ يَقُولَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، فَأنْزَلَ اللهُ فِي أبِي طَالِبٍ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: (إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ)[1] ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ ؛ قال الزجَّاج: (ابْتِداءُ نُزولِها بسَبَب أبي طَالِبٍ، وَهِيَ عَامَّةٌ؛ لأنَّهُ لاَ يَهْدِي إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[2]. ﴿ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ ؛ أي قالت قُريش لِمُحَمَّدٍ ﷺ: إن اتَّبَعْنَاكَ على دِينِكَ يتخطَّفُنا العربُ على أنفُسِنا أن يخرجُوا من أرضِنا مكَّة إن تركْنا ما يَعبُدونَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أي ذا أمْنٍ يَأْمَنُ فيه الناسُ.

وذلك أن العربَ كانت يُغِيْرُ بعضُهم على بعضٍ، وأهلُ مكَّة آمِنُونَ في الْحَرَمِ مِن القَتْلِ والسَّيفِ والغَارَةِ؛ أي فكيفَ يخافون إذا أسْلَمُوا وهُم في حَرَمٍ آمِنُونَ. ومعنى (أوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً) أي أوَلَمْ نَجْعَلْهُ مكاناً لَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ؛ ومعنى (يُجْبَى) أي يحملُ إلى الْحَرَمِ (ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رزْقاً). قرأ نافعُ ويعقوب: (تُجْبَى) بالتاء لأجلِ الثَّمرات، وقرأ الباقونَ بالياء لقولهِ (كُلِّ شَيْءٍ رزْقاً) ومعنى (تُجْبَى) أي تُحْمَلُ إلى الحرمِ (ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) من مِصْرَ والشَّام واليمَنِ والعِراقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ؛ أي رزْقاً مِن عندِنا، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أنَّا فعَلْنا ذلك يعني أهلَ مكَّة، والمعنى: أوَلَمْ يجعل أهلَ مكَّة في أمَانٍ قبلَ الإيْمَان يُجْبَى إلى الحرمِ ثَمَراتُ كلِّ شيءٍ نعمةً من عندِنا، فكيفَ يخافون زوالَ الأمان، (وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) لأنَّهم لا يتدبَّرُون ولا يتفكَّرُون.

ثُم خوَّفَهم بمثلِ عذاب الأُمَمِ الخاليةِ، فقال: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ ﴾ ؛ أي وكم أهلَكْنا مِن أهلِ قَرْيَةٍ بَطَرَتْهَا معيشتَها، والبَطَرُ: الطُّغيانُ

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٩/ ٢٤).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٢.

عند النِّعمةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: بَطَرَتْ في معيشَتِها. قال عطاءُ: (عَاشُواْ فِي الْبَطَـرَةِ، فَـأَكَلُواْ رِزْقَ اللهِ وَعَبَدُواْ الأَصْنَامَ)[١].

وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ؛ أي منازلُهم التي كانوا يسكنُونها لَم يَسْكُنْهَا أحدٌ إلاّ المسافرونَ ومَارُّوا الطريق ينْزلون ببعضِها يوماً أو ساعةً ثُم يرحَلُون. والمعنى لَمْ تُسْكَنْ مِن بعدِهم إلاَّ سُكوناً قليـلاً، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ؛ أي لَم نجعَلْ لَهم أحداً بعدَ هلاكِهم في منازِلهم، فبقِيَـتْ خَراباً غيرَ مسكُونةٍ كقولهِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ؛ معناهُ: وما كان ربُّكَ يا مُحمَّدُ مُعَذِّبَ القُرَى الكـافرةُ أهلُـها حتى يبعثَ في أعظَمِها قريةً رَسُولاً يُنذِرُهم ويقرأ عليهم آيَاتِنا، وخصَّ الأَعْظَمَ من القُرى ببعثةِ الرَّسُولِ فيها؛ لأن الرَّسُولَ إنَّما يُبعَثُ إلى الأشرافِ، وأشرافُ القومِ وملوكُهم يســكنونَ المدائنَ والمواضعَ التي هي أمُّ ما حولِها.

وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ؛ أي ما نُهلِكُهم إلاَّ بظُلْمِهم وشِركِهم، وَقِيْلَ: المرادُ بـالقُرَى القـرى الـتي حَـوْلَ مكَّـة، والمرادُ بأُمِّها مكَّة سُميت أمُّ القُرى؛ لأن الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها.

وقولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ ؛ تتمتَّعون بـها أيَّامَ حيـاتِكم ثُـم تنقطـعُ وتفنـى وتنقضِـي، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ؛ مـن الثَّواب والجنـة، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ ؛ وأدومَ لأهلـهِ وأفضـلَ ممـا أعطِيتُـمْ في الدُّنيـا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ؛ أنَّ الباقي أفضلُ من الفَانِي الذاهب. وَقِيْلَ: (أفَلاَ تَعْقِلُـونَ) خـيرَ الأمرَين فتطلبوهُ وشرَّ الأمرَين فتتركوهُ. قرأ أبو عمرٍو (أفَلاَ يَعْقِلُونَ) بالياء.

وقولـــهُ تعــــالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ استفهامُ يعني التقرب، أي كيفَ يستوي حالُ مَـن وَعَدْنَـاهُ الثـوابَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٥.

(٢) مريم / ٤٠ .

والجنةَ في الآخرةِ فَهُوَ لاَقِيْهِ، وحالُ من متَّعناهُ بعَـرَضِ الدُّنيـا، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ ؛ العذابَ.

والمعنى: (أفمَنْ وَعَدْنَاهُ) على إيمانهِ وطاعته الجنةَ والثوابَ الجزيل (فَهُوَ لاَقِيْهِ) أي مُدركُهُ (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ) أي كمن هو مُمَتَّعٌ بشيءٍ يَفْنَى ويزول عن قريبٍ (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ) النارَ. قال قتادةُ: (يَعْنِـي الْمُؤْمِـنَ وَالْكَـافِرَ، فَـالْمُؤْمِنُ سَـمِعَ كِتَابَ اللهِ وَصَدَّقَهُ وَآمَنَ بمَوعُودِ اللهِ فِيْهِ، وَلَيْسَ كَالْكَافِرِ الَّذِي تَمَتَّعَ بالدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِيْنَ فِي عَذَاب اللهِ)[1]، قال مجاهدُ: (نَزَلَـتْ هَـذِهِ الآيَـةُ فِـي عَلِـيٍّ وَحَمْزَةَ وَأبي جَهْلٍ)[2]، وقال السديُّ: (نَزَلَتْ فِي عَمَّارٍ وَالْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ)[3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ؛ أي يُنـادي اللهُ المشركينَ يـومَ القيامـةِ، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ؛ في الدُّنيـا أنَّــهم كـانوا شُركَائِي، والمعنَى: واذكُرْ يومَ يُنادَى الكفارُ وهو يومُ القيامةِ فيقـولُ أيْـنَ شُـركَائِي في قولِكم، وليس للهِ شريكٌ، ولكن خرجَ هذا الكلامَ على ما كانوا يلفِظُون به، فيقولون: هؤلاءِ شركاءُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ؛ أي الذيـن حقَّـتْ عليـهم كلمـةُ العـذاب أو وَجَـبَ عليـهم العـذابُ وهـم الـرُّؤُوسُ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ ؛ يَعْنُـونَ سَـلَفَهُمْ وأتبَاعَـهم، ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ ؛ أي أضْلَلْنَـاهُمْ كمـا ضَلَلْنَـا، ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ ؛ منهم، وَقِيْلَ: تبرَّأنا بحمْلِنا إليك من الضَّـلال، ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ما كانوا يعبدُوننا بإكراهٍ مِن جِهَتِنَا، وَقِيْـلَ: مـا كـانوا يعبدُوننـا بحُجَّة ولا استحقاقٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثـر (٢٠٩٨٢). وابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبـير: الأثـر (١٧٠٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٩٨٦).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٥.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: لَستُمْ تُسألُونَ عن الإغواءِ والغِوايَةِ، ولكن ادعُوا آلِهتَكُمْ حتى يذُودوا عنكم العذابَ، ﴿ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ ؛ أي لَم يُجيبُوهم إلى نصرتهم ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ ﴾ ؛ أي رَأوا كلُّهم القادةُ والأتباعُ العذابَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ جوابُ (لَوْ) محذوفٌ تقديرهُ: لو أنَّهم كانوا يَهْتَدُونَ في الدُّنيا لَمَا رَأوُا العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ ﴾ ؛ أي فألبسَتْ عليهم الأجوبةُ يومئذٍ، ولَم يَدْرُوا ماذا يقولونَ من الفزَعِ والتَّحيُّرِ، ﴿ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لا يَسْألُ بعضُهم بعضاً في تلكَ السَّاعة لردِّ الجواب. وقِيْلَ: لا يسألُ أحدٌ عن حال أحدٍ لانشغال كلِّ واحدٍ منهم بنفسه. وقِيْلَ: لا يسألُ أحدٌ أحداً أن يَتْرُكَ طاعةً أو يتحمَّلَ عنهُ معصيةً، ومعنى قولهِ تعالى (فَعَمِيَتْ) أي خَفِيَتْ واشتَبهت عليهمُ الأنباءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ ؛ أي مَن تَابَ من الشِّركِ وآمَنَ وصدَّقَ بتوحيد اللهِ وبمُحَمَّدٍ ﷺ (وَعَمِلَ صَالِحاً) أي أدَّى الفرائضَ، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي مِن النَّاجِينَ الفائزين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ كان يقولُ: لَوْلاَ نُزِّلَ هَذا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٌ، يعني نفسَهُ وأبا مسعودٍ الثقفيُّ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) مَن يُنَبِّؤُ للرسالةِ والنُّبوةِ؛ أي فكما أن الخلقَ إليه يخلقُ ما يشاء، فكذلك الاختيارُ إليهِ في جميع الأمور، فيختارُ مِمَّنْ خَلَقَ ما يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ ﴾ ؛ ابتداءُ الكلامِ نفيُ الاختيار عن المشركين، وذلك أنَّهم اختارُوا الوليدَ بن المغيرةِ من مكَّة وأبو عُرْوَةَ بن مسعودٍ من الطَّائف، فقالَ اللهُ (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرَةُ) أي ليسَ لَهم الاختيارُ على اللهِ، ثُم نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ فقالَ: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ومن قرأ (وَنَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرَةُ) من غيرِ أنْ يَقِفَ على (وَنَخْتَارُ)، جعلَ (مَا) بمعنى الَّذي، كأنَّه قال:

ونَخْتَارُ الذي لَهم الْخِيَرَةُ فيصنعُ بهم ما صَلُحَ لَهم، وأنشدَ محمودُ الورَّاق[1]:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ أَرَدْتَ فَإنَّ اللهَ يَقْضِي وَيُقَدِّرُ
مَتَى مَا يُرِيدُ ذُو الْعَرْشِ أَمْراً بِعَبْدِهِ يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
فَقَدْ يَهْلَكُ الإنْسَانُ مِنْ حَيْثُ أَمْنُهُ وَيَنْجُو بِحَمْدِ اللهِ مِن حَيْثُ يَحْذَرُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ؛ أي ما تَسْتُرُ من الكفرِ والعداوة لله ولرسولهِ؛ أي يعلمُ ما تُضْمِرُ قلوبُهم من ذلك، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بألسِنَتِهم من الكفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ ؛ يستحقُّ الحمدَ في الدَّارين، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ ؛ أي الفصْلُ بينَ الخلائق؛ حَكَمَ لأهلِ طاعته بالمغفرةِ، ولأهلِ معصيته بالشَّقاءِ والوَيْلِ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ؛ أي موضع جزَائِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: أخبِرُوني إنْ جعلَ اللهُ عليكم الليلَ دائماً أبداً إلى يومِ القيامة، لا نهار معهُ، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ ؛ أي بنَهار مُضيءٍ تتصرَّفون فيه وتطلُبون فيه المعيشةَ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ ؛ سَماع قبُولٍ وتَفَهُّمٍ فتستدِلُّون بذلك على توحيدِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ؛ أي قُل: أخبِرُوني إنْ جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ دائماً، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ، تستريحُونَ فيه من الحركةِ ومن النَّصَبِ؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٠٦ مع بعض اختلاف. ومحمود الوراق هو محمود بن الحسن الوراق الشاعر، أكثر القول من الزهد والأدب. ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد: الرقم (٧٠٧٢) ومات في خلافة المعتصم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ؛ أي ومِن نِعْمَتِهِ عليكم أنْ خَلَقَ لكم الليلَ والنَّهار لتَستريحوا لَيلاً، ولتنصرفوا نهاراً، والمعنى:(لتَسْكُنُوا فِيْهِ) أي في اللَّيل، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ أي ولِتَلْتَمِسُوا في النهار من فضلِ الله، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ الذي أنْعَمَ عليكم بهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ فقد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ ؛ أي وأخرَجْنا من كلِّ أمَّةٍ رسُولَها الذي يشهدُ عليهم بالتبليغ وما كان منهم، ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ؛ أي فقُلْنا للمَشهُودِ عليهم:(هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أي حُجَّتَكُم بأنَّ معي شَريكاً، ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي أنَّ التوحيدَ للهِ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ؛ أي زالَ عنهم وبطَلَ في الآخرةِ، ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من قولِهم: إنَّ مع اللهِ شريكاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: كان قارونُ ابنَ عمِّ موسَى من بني إسرائيلَ، وكان مِن العلماءِ بالتَّوراةِ. وقال بعضُهم كان ابنَ خَالَتِهِ. وقولهُ تعالى (فَبَغَى عَلَيْهِمْ) أي بكَثْرَةِ مالهِ، والمعنى: أنه تَطَاوَلَ على موسَى وقومه وجاوزَ الحدَّ في التَّكبُّرِ عليهم. والبَغْيُ في اللغة: طَلَبُ الْعُلُوِّ بغيرِ حَقٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي أعطيناهُ من الأموالِ الْمَجموعةِ ما إنَّ مَفَاتِحَهُ، قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بالْمَفَاتِحِ الْخزَائِنَ، كَانَتْ خزَائِنُهُ لِتَثْقُلَ بالْجَمَاعَةِ ذوي الْقُوَّةِ إذا حَمَلُوهَا)(١).

قال بعضُهم: هو جمعُ مِفْتَاحٍ؛ وهو ما يُفْتَحُ به البابُ، وهذا قولُ قتادةَ ومجاهد. وَقِيْلَ: مفاتحُ جمع مِفْتَحٍ بكسر الميم وهي المفتاحُ، فجمعهُ مفاتيحُ. قال خَيْثَمَةُ: (كَانَتْ مَفَاتِيْحُ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الإصْبَعِ، مِفْتَاحُ كُلِّ خِزَانَةٍ عَلَى حِدَةٍ، فَإذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠١١).

رَكِبَ حَمَلَ الْمَفَاتِيحَ عَلَى سِتِّينَ بَغْلاً)[١]. وقال ابنُ عبَّاس: (كَانَ يَحْمِلُ مَفَاتِيْحَهُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الرِّجَالِ)[٢].

ومعنى قولهِ تعالى (لَتَنُوءُ بالْعُصْبَةِ) وإنَّما العُصْبَةُ تَنُوءُ بالمفاتيحِ؛ أي يثقُلُ في حَملِها، قِيْلَ: هذا شائعٌ في الكلامِ كما يقالُ: عَرَضْتِ الناقةُ على الحوضِ، وإنَّما يعرضُ الحوض عليها، ولا تعرضُ الناقةُ على الماءِ. والكَنْزُ في اللُّغة: اسمٌ لِلمَالِ الذي يُجْمَعُ بعضهُ على بعضٍ، وإذا أُطْلِقَ أُريدَ به ما يُخَبَّأُ تحتَ الأرضِ.

وقال خَيْثَمَةُ: (وَجَدْتُ فِي الإنْجِيْلِ: أنَّ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ قَارُونَ وقرُ سِتِّينَ بَغْلاً غُرّاً مُحَجَّلَةً)[٣]، وَقِيْلَ: إنَّها كانت من جُلودِ الإبلِ، وكانت من حديدٍ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعِلَتْ من خَشَبٍ، فلما ثَقُلَتْ عليه جُعلت من جُلودٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ﴾ ؛ قال له قومهُ مِن المؤمنين من بني إسرائيل: لا تَفْرَحْ بالكُنوز والمال ولا تأْشَرْ[٤] ولا تَبْطَرْ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي الأَشِرِيْنَ البَطِرِيْنَ الذين لا يشكُرونَ اللهَ على ما أعطاهم. والفَرَحُ إذا أُطلِقَ أُريدَ الْمَرْحُ الذي يخرجُ إلى البَطَرِ، ولذلكَ قالَ: (لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِيْنَ)، وقال ﴿إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٥]، وأما قولهُ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٦] فهو بهدايةِ النَّفسِ وهو حسنٌ جميل، قال الشاعرُ:

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إذا الدَّهْرُ سَرَّنِي ... وَلاَ جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٠٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: النص (١٧٠٨٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠١٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢١٠٠٧). والوقر: الحِمْلُ. والأغرُّ من الخيل والبغال: الذي في جبهته بياض أكبر من الدرهم، وقد وسط جبهته. والْمُحَجَّلُ: ما كان البياض منه في موضع الخلاخل والقيود وفوق ذلك.

(٤) أشَرَ: لَجَّ فِي البَطَرِ. والأشِرُ: الْمَرَحُ المتكبِّرُ. ينظر: الغريبين للهروي: ج ١ ص٧٨.

(٥) هود / ١٠ .

(٦) آل عمران / ١٧٠ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ؛ أي واطلُبْ فيما أعطاكَ اللهُ من الأموالِ والنِّعمةِ الجنَّةَ، وهو أن يقومَ بشُكْرِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ ويُنفِقَهُ في رضَا اللهِ، وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أي ولا تَنْسَ لتعمَلَ لآخرتِكَ، وقال الحسنُ: (أنْ يُقدِّمَ الْفَضْلَ وَأنْ يُمْسِكَ مَا يُغْنِيْهِ)[(١)].

وقولُهُ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ؛ أي أحْسِنْ إلى الفُقَراءِ والمساكين، كَمَا أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أطِعِ اللهَ واعْبُدْهُ كما أنعمَ عليكَ، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي ولا تَعْمَلْ في الأرضِ بالمعاصِي ومخالفةِ موسى عليه السلام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ، قال عطاءٌ: (فَكَفَرَ قَارُونُ لَمَّا رَأى أنَّ الْمَالَ حَصَلَ لَهُ بعِلْمِهِ وَلَمْ يَرَ ذلِكَ مِنْ عَطَاءِ اللهِ). والمعنى: قال قارونُ: إنَّما أعطيتُ هذا المالَ على عِلْمٍ عندي بوجوهِ الاكتساب والتِّجارات لا يعلمُها أحدٌ غيري.

وَقِيْلَ: معناهُ: على عِلْمٍ عندي يعني لفَضْلِ عِلمِي، فكنتُ أهلاً لِمَا أعطِيتهُ، وكان أقرأهم للتوراةِ، والمعنى: فضَّلَني اللهُ عليكم بهذا المالِ، لفَضْلِي عليكم بالعلمِ، يعني علمَ الكيمياءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ ؛ معناهُ: (أولَمْ يَعْلَمْ) هذا المسكينُ الذي قد أعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ وما مَلَكَ من الدُّنيا يعني قارونَ (أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ) بالعذاب (مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُون) حين كذبُوا رسولَهُ (مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّة) ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ؛ للمالِ والْخَدَمِ والْحَشَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ معناهُ: لا يُسْئَلُ الْمُجرمونَ عن ذُنوبهم في الآخرةِ، فإنَّهم يُعرَفُونَ بسِيمَاهُمْ. قال قتادةُ: (إنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ بغَيْرِ حِسَابٍ)[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ٩ ص٢٠١١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٣٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٢٦).

وأما قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] فإنَّهم يُسئَلُونَ سُؤالَ تَقْرِيعٍ وتَوْبِيْخٍ، كما قال الحسنُ في معنى هذه الآيةِ (أنَّهُمْ لاَ يُسْئَلُونَ سُؤَالَ الاخْتِيَار لِيَعْلَمَ ذلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، وإِنَّمَا يُسْئَلُونَ سُؤَالَ التَّوْبِيْخِ وَالْمُنَاقَشَةِ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ؛ قال السديُّ: (خَرَجَ فِي جَوَار بِيْضٍ؛ عَلَى سُرُوجٍ مِنْ ذهَبٍ؛ عَلَى قِطَفِ أرْجُوَان؛ "وَهُنَّ" عَلَى بغَالٍ بِيْضٍ عَلَيْهِنَّ ثِيَابٌ حُمْرٌ وَحُلِيٌّ مِن ذهَبٍ)[(٣)]. وقال مقاتلُ: (خَرَجَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ عَلَيْهَا سَرْجٌ مِنْ ذهَبٍ عَلَيْهِ الأُرْجُوَانُ، وَمَعَهُ أرْبَعَةُ آلاَفِ فَارسٍ عَلَى الْخَيْلِ، عَلَيْهِمْ وَعَلَىدَوَابهِمُ الأُرْجُوَانُ، وَمَعَهُ ألْفُ جَارِيَةٍ عَلَى بغَالٍ شُهْبٍ سُرُوجُهُنَّ الذهَبُ؛ وَلِبَاسُهُنَّ أرْجُوَانٌ أحْمَرُ، عَلَيْهِنَّ الْحِلِيُّ وَالْحُلَلَ)[(٤)].

وقال ابن زَيدٍ:(خَرَجَ فِي سَبْعِيْنَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الْمُعَصْفَرَاتُ)[(٥)]. وهذا معنى الْحَسَنِ في ثِيَابٍ صُفْرٍ. قال الزجَّاجُ: (الأُرْجُوَانُ فِي اللُّغَةِ صِبْغٌ أحْمَرُ، فرُوي أنه كان عليهم وعلى خُيولِهم الدِّيباجُ الأحمرُ)[(٦)]، قال:(وكَانَ ذلِكَ أوَّلَ يَوْمٍ رُؤيَتِ الْمُعَصْفَرَاتُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أي قال مُؤمِنُوا أهلِ ذلك الزَّمان لَمَّا رأوا تلكَ الزينةَ والجمالَ، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ؛ من المال، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ ؛ أي ذُو نَصيبٍ وافرٍ من الدُّنيا، وكَان الذين تَمَنَّوا هذه الأُمْنِيَةَ القومُ الذين يرغَبُون في الدُّنيا ويتمنَّونها.

---

(١) الحجر / ٩٢ .

(٢) بمعناه ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٤).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٦.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٤٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٨).

(٦) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٧.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ؛ أي قال العلماءُ العاملونَ الرَّاغبون في الآخرةِ للَّذينَ تَمنَّوا ما أُوتِيَ قارونُ: (وَيْلَكُمْ! ثَوَابُ الله خَيْرٌ) أي ارْتَدِعُوا عن مقالَتِكم؛ فإنَّ ثوابَ اللهِ في الآخرة خيرٌ لِمن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، وقامَ بالفرائضِ خيرٌ مما أُعطِي قارونُ في الدُّنيا، وخيرٌ مِن الدُّنيا وما فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ ؛ أي لاَ يؤتَى الأعمالَ الصالحة، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[1]، وقال الكلبيُّ: (وَلاَ يُعْطَاهَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ الصَّابِرُونَ عَلَى أمْرِ اللهِ)[2] أي الْجَنَّةَ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثَوَابُ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أي فخسَفْنَا بقارونَ وقَصْرِهِ الذي بَنَاهُ عقوبةً له على كُفرِهِ، وذلك أنَّهُ لَمَّا أضافَ النِّعَمَ التي أعطاهُ اللهُ إياها إلى فعلِ نفسه وعملِهِ، ولَم يَنْسِبْهَا بتَسهيلِ اللهِ ذلكَ عليهِ؛ صارَ كافراً بنِعَمِ اللهِ.

وَقِيْلَ في سَبَب خسفهِ: أنه لَمَّا حَسَدَ موسى وهارونَ دعَا امرأةً ذاتَ جمالٍ معروفةً بالفُجُور، وجعلَ لَها ألفَ دِرهَم- وَقِيْلَ: ألْفَ مِثْقَالٍ- وقالَ لَها: إنِّي أخلِطُكِ بنسائي على أن تَقذِفِي موسَى بنفسكِ غداً إذا حَضَرَ بنُو إسرائيلَ، وتذْكُري أنه راوَدَكِ عن نفسكِ! فأجابَتْ قارونَ إلى ذلك، فلمَّا كان مِن الغَدِ، جَمَعَ قارونُ بَني إسرائيلَ، ثُم أتَى مُوسَى فقال لهُ: إنَّ بَني إسرائيلَ قد اجتمَعُوا ينظرونَ خُروجَهم لتَأْمُرَهم وتَنْهَاهُمْ.

فخرجَ مُوسَى فقامَ فيهم يَعِظُهُمْ ويأمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن الْمُنْكَرِ، قالَ: يَا بَنِي إسْرَائِيْلَ؛ مَنْ سَرَقَ قَطَعْنَاهُ، وَمَن افْتَرَى جَلَدْنَاهُ ثَمَانِيْنَ، وَمَنْ زَنَى وَلَيْسَتْ لَهُ امْرَأةٌ جَلَدْنَاهُ مِائَةً، وَمَنْ زَنَى وَلَهُ امْرَأةٌ رَجَمْنَاهُ حَتَّى يَمُوتَ. قال قارونُ: وإنْ كُنْتَ أنْتَ ؟! قالَ: وإنْ كُنْتُ أنَا. قال: فإنَّ بني إسرائيلَ يَزعُمُونَ أنَّكَ فَجَرْتَ بفُلاَنَةٍ! فقال مُوسَى: ادْعُوهَا، فَدَعَوْهَا وقد ألْهَمَها اللهُ التوبةَ والتوفيقَ، فقالت في نفسِها: لإنْ أحْدِثَ الْيَوْمَ تَوْبَةً خَيْرٌ مِنْ أنْ يُؤْذَى رَسُولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) الفرقان / ٧١ .	(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٨٨.

فجَاءوا بها وقد عَقَدُوا مَجلِساً استَحْضَرَ فيه قارونُ الخاصَّ والعامَّ، فقال قارونُ للمرأةِ: ما تَقُولِيْنَ؟ قالت: يَا وَيْلاَهُ! قَدْ عَمِلْتُ كُلَّ فَاحِشَةٍ، وما بَقِيَ إلاَّ أنْ أفْتَرِي على نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وأنَا أبْرَأ إلى اللهِ مِن ذلكَ.

ثُم أخْرَجَتْ خَرِيطَتَين مَملُوءَتين دَرَاهِمَ وعليهما خاتَمُ قارونَ، فقالَتْ: يا أيُّها الْمَلأ، إنَّ قارونَ أعطانِي هَاتَين الخريطَتَين على أنْ آتِي جماعتَكم فأزْعُمَ أنَّ موسى رَاودَنِي عن نفسِي، ومَعَاذ اللهِ أنْ افْتَرِيَ على نبيِّ الله، وأنا أبْرَأ إلى اللهِ مِن ذلكَ، وهذهِ دراهِمهُ وعليها خاتَمهُ.

فعَرَفَ بنُو إسرائيلَ خاتَم قارونَ، فافْتُضِحَ قارونُ بين أولئكَ القومِ، وغَضِبَ مُوسَى عليه السلام فَخَرَّ ساجداً يَبْكِي وهو يقولُ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ رسُولَكَ فَاغْضَبْ لِي.

فأوحَى اللهُ إليه أنِّي قد أمَرْتُ الأرضَ تُطِيعُكَ فَمُرْهَا بما شِئْتَ، فقال مُوسَى عليه السلام: يا أرضُ خُذِيْهِ، فأخذتْهُ إلى كَعْبِهِ، ثُم قَالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتهُ إلى رُكبَتيهِ، فنَاشَدَهُ الرَّحِمَ، فقالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتْهُ حتى غَيَّبَتْ حِقْوَتَهُ، فتضرَّعَ إلى مُوسَى وناشَدَهُ الرَّحِمَ، فلَمْ يسمَعْ تَضرُّعَهُ، فقالَ: يا أرضُ خُذِيهِ، فأخذتْهُ حتى غَيَّبَتْهُ.

فرُوِي أنهُ استغاثَ بموسَى وناشَدَهُ سبعينَ مرَّة، فلَمْ يلتفِتْ موسَى إلى ذلكَ، فأوحَى اللهُ إلَى موسَى: ما أفظَّكَ وأغلَظَ قلبَكَ! استغاثَ بكَ قارونُ سبعين مرَّةً فلم ترحَمْهُ ولَم تُغِثْهُ، وعِزَّتِي وجَلاَلِي لوِ استغاثَ بي لأغثته، ولو دعانِي لوجدَنِي قريباً مُجيباً[1].

واختلَفُوا في أيِّ وقتٍ خُسِفَ بدارِهِ، قال بعضُهم: إنه خُسِفَ به معَهُ، وقال بعضُهم: لَمَّا خُسِفَ بقارونَ قالت بنو إسرائيلَ: إنَّ موسَى أرادَ أن يأخُذ دارَ قارون وأموالَهُ وكنوزَهُ، فدعَا اللهَ موسى فخَسَفَ بدارهِ وأموالهِ بعد ما خَسَفَ بقارون بثلاثةِ أيَّام. قال قتادةُ: (وَذُكِرَ لَنَا أنَّ قَارُونَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ هُوَ وَدَارُهُ وَمَالُهُ كُلَّ يَوْمٍ قَامَةً لاَ يَبْلُغُ قَعْرَهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٤١-٤٤٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن عبدالله بن الحرث).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما كانَ له من جُنْدٍ وجماعةٍ يَمنعونَهُ من عذاب الله، ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي وما كان من الْمُمْتَنِعِيْنَ مِمَّا نزلَ به من الخسفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي أصبحَ الذين تمنَّوا منْزلتَهُ ومالَهُ بالأمسِ حين رأوهُ في زينتهِ يندَمُون على ذلك التَّمنِّي، يقول بعضُهم لبعضٍ بعد ما خُسِفَ به (وَيْ) هذه كلمةُ تَنْبِيْهٍ ومعناها: أمَا تَرَوْنَ ؟.

قال مجاهدُ: (وَسَبِيْلُهَا سَبِيْلُ: أمَا تَعْلَمُ) وَيُحكَى أنَّ امْرَأةً مِنَ الْعَرَب قَالَ لَهَا زَوْجُهَا: أيْنَ أبُوكِ، قَالَتْ لَهُ: وَيْكَأنَّهُ وَرَاءَ هَذا الْبَيْتِ، يعني أما ترى أنه وراءَ هذا البيتِ.

وذهبَ بعض النَّحويِّين إلى أنَّ قولَ الرجُل: وَيْكَأنَّهُ، بمنْزلة: وَيْلَكَ إعْلَمْ. وقال الخليلُ ويونسُ: (وَيْ مَفْصُولَةٌ مِنْ كَأنَّ، وَ(وَيْ) كلمةُ تَنَدُّمٍ وَتَنْبِيْهٍ، وَ(كَأنَّ) فِي هَذا الْمَوْضِعِ بمَعْنَى الظَّنِّ وَالْعِلْمِ)[1] كأنَّهُم لَمَّا رأوا الخسفَ تكلَّمُوا على قدر عِلمِهم، وقالوا: كأنَّ اللهَ يبسطُ الرِّزقَ لِمن يشاءُ لا لكرامتهِ عليه، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ لا لِهوانهِ عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ ؛ أي لَولاَ أن مَنَّ اللهُ علينا بالعافيةِ والرَّحمةِ والإيْمان لَخُسِفَ بنا. وقرأ يعقوبُ وحفص: (لَخَسَفَ) بفتح الخاءِ والسِّين؛ أي لَخسَفَ اللهُ بنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي أمَا ترَى أنه لا يُسْعَدُ من كَفَرَ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ؛ المرادُ بالدَّار الْجَنَّةُ، (نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً) على خَلْقِي (فِي الأَرْضِ) ولَم يتكبَّروا كما تكبَّرَ قارونُ.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٦٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ فَسَاداً) أي ولا دُعاءً إلى عبادةِ غيرِ الله. وَقِيلَ: ولا فساداً ولا عملاً بالمعاصِي. وَقِيلَ: هو أخذُ المال بغيرِ الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ أي العاقبةُ الحميدة لِمَن اتَّقى عقابَ اللهِ بأداء فرائضهِ واجتناب معاصيهِ. وَقِيلَ: الذين يَتَّقُونَ الكفرَ والعُلُوَّ والفسادَ.

وعن كعبٍ ﷺ أنه قال: [يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالذرِّ فِي صُوَر الرِّجَال، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَان، يَسْلُكُونَ فِي النَّار وَيُسْقَوْنَ مِنْ طِيْنَةِ الْخَبَال] قِيْلَ: وَمَا طِيْنَةُ الْخَبَال؟ قَالَ: [عُصَارَةُ أهْلِ النَّار][1]. والمرادُ بالتَّكَبُّر: أنْ يكون التكبُّرُ لأمرٍ يرجعُ إلى الدُّنيا، فإمَّا يكون مِن ذلك لإزالةِ المنكَرِ وإقامةِ حَقٍّ من حقوق الله، فلا يكونُ ذلكَ من التَّكبُّرِ في شيءٍ، وإنَّما هو تَمسُّكٌ بالدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي ومَن جاءَ بالسَّيِّئةِ فلا يُزاد في عقوبتهِ أكثرَ مِما يستحقُّهُ. والمعنى: أنَّ الذين أشْرَكُوا يُجْزَوْنَ بما كانوا يعملونَ من الشِّركِ وجزاؤُهم النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾؛ معناهُ: إنَّ الذي فَرَضَ عليك العملَ بالقرآن لَرادُّكَ إلى بَلَدِكَ يعني مكَّة، فإنَّ مَعَادَ الرجلِ بَلَدُهُ. وَقِيلَ: معناهُ: (إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) أي أنْزَلَ عليكَ القُرْآنَ. وقال الزجَّاجُ: (فَرَضَ عَلَيْكَ الْعَمَلَ بِمَا يُوجِبُهُ الْقُرْآنُ)[2]. تقديرُ الكلامِ: فَرَضَ عليكَ أحكَامَ القُرْآنِ أو فرائضَ القُرْآنِ (لَرادُّكَ إلَى مَعَادٍ) يعني مكَّةَ.

قال مقاتلُ: (خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى الْغَار لَيْلاً، ثُمَّ هَاجَرَ مِنْ وَجْهِهِ ذلِكَ إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَسَافَرَ فِي غَيْرِ طَرِيْقٍ مَخَافَةَ الطَّلَب، فَلَمَّا أمِنَ رَجَعَ إلَى الطَّرِيْقِ، فَنَزَلَ بالْجُحْفَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِيْنَةِ، وَعَرَفَ الطَّرِيْقَ إلَى مَكَّةَ فَاشْتَاقَ إلَيْهَا، وَذكَرَ مَوْلِدَهُ وَمَوْلِدَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الشهادات: الحديث (٢٤٩٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١١٨.

آبائِهِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيْلُ فَقَالَ لَهُ: أتَشْتَاقُ إلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ جِبْرِيْلُ: فَإنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ) يَعْنِي إلَى مَكَّةَ ظَاهِراً عَلَيْهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بالْجُحْفَةِ، فَلَيْسَتْ بمَكِّيَّةٍ وَلاَ مَدَنِيَّةٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ ﴾ هذا جوابُ كُفار مكَّة لَمَّا قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّكَ في ضلال مُبين! فقال اللهُ تعالى: (رَبي أعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالْهُدَى) يعني النبيَّ ﷺ (وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ) يعني المشركينَ. والمعنى: إنَّ اللهَ قد عَلِمَ أنِّي جئتُ بالْهُدَى وإنَّكم لَفِي ضلالٍ مُبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ معناهُ: ما كنتَ يا مُحَمَّدُ تَرْجُو أنْ يُوحَى إليكَ القُرْآنُ وأنك تكونُ نَبيّاً تتلُو على أهلِ مكَّة قَصَصَ الأوَّلين، إلاَّ أنَّ ربَّكَ رحِمَكَ وأرادَ بكَ الخيرَ، فأوحَى إليكَ الكتابَ وأكرمَكَ بالنبوَّة نعمةً منهُ عليكَ، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا ﴾ ؛ أي عَوْناً ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ على دِينهم، وذلك حين دَعَوْهُ إلى دِينِ آبائهِ فذكَّرَهُ اللهُ النعمةَ، ونهاهُ عن مُظاهرَتِهم على ما كانوا عليه وأمَرَهُ بالتحذُّر منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ ﴾ ؛ أي لا يَصْرِفَنَّكَ عن العملِ بآيات الله بعدَ إذْ أُنْزِلَتْ إليكَ، ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ ؛ أي إلى طاعتِهِ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (الْخِطَابُ لِلنَّبيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ بِهِ أهْلُ دِيْنِهِ)[2] أي لا تُظاهِرُوا الكفَّارَ ولا توافِقُوهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ ﴾ ؛ أي لا تَعْبُدْ أحَداً سِوَى اللهِ ولا تَدْعُ الْخَلْقَ إلى أحدٍ دون اللهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ ؛ لا معبودَ سِواهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ ﴾ ؛ أي إلاَّ هو. وانتصبَ قولهُ (وَجْهَهُ) على الاستثناءِ كأنه قالَ: إلاّ إيَّاهُ، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ مَا أُرِيْدَ بهِ وَجْهُهُ، وَكُلُّ عَمَلٍ لِغَيْرِهِ فَهُوَ هَالِكٌ إلاَّ مَا كَانَ لَهُ).

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٩١.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ ؛ أي الفَصْلُ بين الخلائق دونَ غيرِهِ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ فيجزِيَكم بأعمالِكم، واللهُ أعلَمُ بالصَّواب وإليه المرجعُ والْمَآبُ.

آخر تفسير سورة (**القصص**) والحمد لله رب العالمين

تم هذا الجزء لمؤلفه الإمام الهمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير[1].

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله وسلم وشرف وعظم على أشرف الأنبياء والمرسلين وجميع الخلف أجمعين سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته وجميع المسلمين وسلَّم. إنهاء الواقف على هذا التفسير العظيم الذي قلَّ أن يوجد له نظير بين العالمين؛ حيث إن مؤلفه الفاضل الهمام الإمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير مشَّاء على طريق الحق القويم في تفسيره هذا للقرآن العظيم، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم، ونفع به النفع العظيم بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وهذا أول الجزء الرابع، آلم. أحسب الناس. سورة العنكبوت.

(١) كتب الناسخ أو الواقف على هامش التفسير: الورقة (٣٧٠) من المخطوط.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

((سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ إلاَّ عَشْرَ آيَاتٍ، مِنْ أوَّلِهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، قَالَ الشَّعْبِيُّ: (إنَّهَا مَدَنِيَّةٌ). وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وَمِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَألْفٌ وَإحْدَى وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَسِتُّونَ آيَةً))(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ (ألم). فمَن جعلَ هذه الحروفَ التي في أوائلِ السُّورة قَسَماً، احتملَ أن يكون جوابُ القَسَمِ في قوله: (وَلَقَد فَتَنا الذِينَ مِن قَبلِهِم)؛ واحتملَ أن يكون (فلَيَعْلَمَنَّ).

وقولهُ تعالى: (أحَسِبَ النَّاسُ) لفظةُ استخبارٍ، ومعناهُ التوبيخُ والتقرير، كأنه قالَ: أظَنُّوا أن نقنعَ منهم بأنْ يقولُوا آمَنَّا فقط ولا يُمتحَنُونَ بالأوامرِ والنَّواهي والتَّكليفِ، ولا يُختبَرُونَ بما يعلم أنه صِدْقُ إيْمانِهم.

قال الحسنُ ﷺ: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أنَّهُ لَمَّا أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانَتِ الْكَرَّةُ عَلَيْهِمْ، عَيَّرَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بذلِكَ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). قال السديُّ وقتادة ومجاهدُ: (مَعْنَاهُ: (أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) فِي أمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ بالْقَتْلِ وَالتَّعْذِيْب)(٢).

---

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط، وأضفناه جرياً على نسق المصنف في افتتاح تفسيره للسور، واقتبسناه من الكشف والبيان للثعلبي واللباب في علوم الكتاب، لمواكبة الامام الثعلبي وابن عادل ومسايرتهما للامام الطبراني في هذا التنسيق من الافتتاح لتفسير السورة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٧٩) عن قتادة ومجاهد. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧١٣٢) بمعناه.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَهْجَعِ بْنِ عَبْدِاللهِ مَوْلَى عُمَرَ بْـنِ الْخَطَّاب ﷺ وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ، رَمَاهُ عَامِرُ بْنُ الْحَضْرَمِـيِّ بِسَـهْمٍ فَقَتَلَـهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ مَهْجَعُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إلَى بَابِ الْجَنَّـةِ مِـنْ هَـذِهِ الأُمَّةِ][1] فَجَزِعَ عَلَيْهِ أَبَوَاهُ وَامْرَأتُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةَ وَأخْبَرَ أنَّهُ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْبَلاَءِ وَالْمَشَقَّةِ فِي ذاتِ اللهِ)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ فيـه تَسْلِيَةٌ للمؤمنِـينَ، معنـاهُ: ولقـد امْتَحَنَّـا الذيـن مِـن قَبْلِـهم، ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصادقَ بوقوعِ صِدْقِهِ منه بالصَّبرِ على مـا يُؤمَـرُ به، والكاذبَ بوقُوعِ كَذِبٍ منهُ وَالْجَزَعِ والمخالفةِ في القِتَالِ الذي يُؤمَرُ به، فـاللهُ تعـالى قد عَلِمَ الصادقَ مِن الكاذب قَبْلَ أن يخلُقَهم، ولكن القصـدَ مـن الآيـة قصدُ وُقُـوعِ العلم بما يُجازَى عليه؛ لأنَّ عِلْمَ الشَّهادةِ هو الذي يجبُ به الجزاء، فأمـا عِلْـمُ الغيـب قَبْلَ وقُوعهِ فلا يحلُّ به الجزاءُ.

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْهُمْ إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيـلُ ﷺ ابْتُلِـيَ بالنَّمْرُودِ، وَمِنْهُمْ قَوْمٌ بَعْدَهُ نُشِرُواْ بِالْمَنَاشِيْرِ عَلَى دِيْنِ اللهِ فَلَـمْ يَرْجِعُـواْ عَنْـهُ). وقـال بعضُهم: يعني بَنِي إسرائيلَ ابْتُلُوا بفرعونَ فكان يسُومُهم سوءَ العذاب.

قولــــــهُ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ معناهُ: أظَنُّوا (الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) يعني الشِّرْكَ، قـال ابـنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْوَلِيْدَ بْنَ الْمُغِيْرَةِ وَأبَا جَهْلٍ وَالأَسْوَدَ وَالْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ وَغَـيْرَهُمْ)[3]. (أنْ يَسْبقُونَا) أي أن يَفُوتُونـا ويُعجِزُونـا (سَـاءَ مَـا يَحْكُمُـونَ) أي بئْـسَ مـا حَكَمُـوا لأنفُسِهم حين ظَنُّوا ذلك.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول:ص٢٢٩. والزمخشري في الكشـاف: ج ٣ ص٤٢٥. والبغـوي في معالم التنزيل: ص٩٩١ كلهم عن مقاتل، وهو في تفسير مقـاتل: ج ٢ ص٥١٠. ومـهجع بـن عبدالله مولى عمر ﷺ؛ كان أول من قتل من المسلمين يومَ بدر.

(٢) نقله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٠.

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١١.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآية نزلت في عُتْبَةَ بن رَبِيْعَةَ وأخيهِ شَيْبَةَ، وفي الوليدِ بن عُتبةَ وغيرِ الذين بَارَزُوا عَلِيّاً وحمزةَ وعُبيدةَ بن الحارثِ يومَ بَدْرٍ، فقُتِلُوا على أيديهم يومئذٍ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن كان يطمعُ في الثواب ويخشَى العقابَ ويخافُ الحسابَ، فلْيُبادِرْ إلى طاعةِ الله قبلَ الموتِ،﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ ﴾ ؛ أي فإن أجلَ الموت لآتٍ لِمن يرجُو، ولِمن لا يرجو، وإنَّ ثوابَ العملِ الصالح لقريبٌ،﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمقالَةِ الكُفَّار والمؤمنين، ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥ ﴾ ؛ بما يستحقُّه كلُّ واحد منهم. وَقِيْلَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ: [يَا عَلِيُّ؛ يَا فَاطِمَةُ: إنَّ اللهَ قَدْ أنْزَلَ: مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ، وَإنَّ حَقِيْقَةَ رَجَاءِ لِقَاءِ اللهِ أنْ يَسْتَعِدَّ الإنْسَانُ لأَجَلِ اللهِ إذا كَانَ آتِياً باتِّبَاعِ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ ﴾ ؛ أي مَن يعملُ الخيرَ فإنَّما يعملُ لنفسِهِ،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ ؛ أي عن أعمالِهم وعبادتِهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ ؛ بالإيمان والتوبةِ، ومعنى (لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم) أي لنبطلنَّها حتى كأنَّها لَم تُعمَلْ، ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ ؛ أي نجزيهم بأحْسَنِ أعمالِهم وهي الطاعةُ، ولا نجزيهم بمساوئ أعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في سعدِ بن أبي وقَّاص، وكان باراً بأمه، فلما أسْلَمَ قَالَتْ لَهُ أمُّهُ حُمْنَةُ بنتُ أبي سُفيانَ بن أميَّة: يَا سَعْدُ؛ بَلَغَنِي أنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ! فَوَاللهِ لاَ يُظِلُّنِي سَقْفُ بَيْتٍ، وَإنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٢٦.
(٢) لم أقف عليه.

فَأبَى سَعْدٌ عَلَيْهَا، وَبَقِيَتْ هِيَ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَسْتَظِلُّ بشَيْءٍ، فَمَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً لاَ تَأْكُلُ، فَأَصْبَحَتْ قَدْ جَهِدَتْ ثُمَّ مَكَثَتْ يَوْماً وَلَيْلَةً أخْرَى لاَ تَأْكُلُ، وَقَالَتْ: يَا سَعْدُ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذِهِ أوْ لاَ آكُلَ وَلاَ أشْرَبَ حَتَّى أمُوتَ فَتُعَيَّرُ بي، فَيُقَالُ: يَا قَاتِلَ أمِّهِ! فَقَالَ سَعْدٌ: يَا أمَّاهُ لَوْ كَانَتْ لَكِ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجَتْ نَفْساً نَفْساً مَا تَرَكْتُ دِيْنِي هَذا لِشَيْءٍ، فَإنْ شِئْتِ أنْ تَأْكُلِي، وَإنْ شِئْتِ فَلاَ تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأتْ ذلِكَ أكَلَتْ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١).

ومعناها: ووصَّينا الإنسانَ بالبرِّ والإحسان إلى وَالِدَيهِ وقُلنا له: وإنْ طَلَبَا منكَ أن تُشْرِكَ بي ما ليسَ لك بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُمَا، فإنَّ طاعتَهما في الإشْرَاكِ والمعصيةِ ((ليس))(٢) من باب الحسن. بل هي قبيحةٌ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ](٣).

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ مُنْقَلَبُكُمْ في الآخرةِ، ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ ؛ فأُخبرُكم، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ والبرِّ والعُقوق.

واختلفَ النُّحاةُ في نصبِ قولِه (حُسْناً)، فقال البصريُّون: بنَزْعِ الخافضِ؛ تقديرُهُ: ووصَّينا الإنسانَ بالْحُسْنِ، كما يقالُ: وَصِّيهِ خَيْراً؛ أي بخَيْرٍ، وقال الكوفيُّون: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعلَ حُسناً، فحذفَهُ لدلالةِ الكلام عليه. وَقِيْلَ: هو مثلُ قولِهِ ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾(٤) أي يمَسَحُ مَسْحاً. وَقِيْلَ: معناهُ: أَلْزَمْنَاهُ حُسناً. وقرأ أبو رجاءٍ: (حَسَناً) بفتح الحاء والسين، وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ: (إحْسَاناً).

---

(١) القصةُ قصةُ سعد بن مالك، أبو إسحق الزهري، وأم سعد بن أبي وقاص (جميلةُ). ولكلا السعدين قصة مع أمه، فيها نزلت هذه الآية كما في أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) سقطت من المخطوط، والضرورة تقتضي وجودها.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: ج ١٨ ص١٥٣٥: الحديث (٤٣٧). وفي الأوسط: ج ٢ ص٢٠٩: الحديث (١٣٧٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٢٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح).

(٤) ص / ٣٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ أي في زُمرَةِ الأنبياءِ والأولياء، وقِيْلَ: خواصُّ أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ.

قولـهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ رُوي أنَّ هذه الآيةَ نزلت في عيَّاشِ بن أبـي ربيعـة، كَـانَ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أمِّهِ وَأخوَيْهِ لأُمِّهِ وَهُمَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثِ.

فَخَرَجَ عَيَّاشُ بَعْدَ مَا أعْلَنَ إسْلاَمَهُ هَارِباً إلَى الْمَدِيْنَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ، وَبَلَغَ أمَّهُ الْخَبَرَ فَجَزعَتْ جَزَعاً شَدِيْداً، وَامْتَنَعَـتْ عَـنِ الطَّعَـامِ وَالشَّـرَابِ، فَخَـرَجَ أخَـوَاهُ وَقَوْمَهُ فِي طَلَبِهِ، فَأَخَذُوهُ وَقَيَّدُوهُ، وَحَلَفَتْ أمُّهُ أسْـمَاءُ بنْـتُ مَخْـرَمِ بْـنِ أبـي جَنْـدَل باللهِ[1]: لاَ أحُلُّكَ مِنْ وثَاقِكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، ثُمَّ أقْبَلَـتْ تَجْلِـدُهُ بالسِّـيَاطِ وَتُعَذِّبُـهُ حَتَّى كَفَرَ جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

قال مقاتلُ والكلبيُّ: (لَمَّا هَاجَرَ عَيَّاشُ إلَـى الْمَدِيْنَـةِ خَوْفـاً مِـنْ أمِّـهِ وَأخَوَيْـهِ، حَلَفَتْ أمُّهُ أسْمَاءُ بنْتُ مَخْرَمِ بْنِ أبي جَنْدَلِ ألاَّ تَأْكُلَ وَلاَ تَشْـرَبَ وَلاَ تَغْسِـلَ رَأسَـهَا وَلاَ تَدْخُلَ بَيْتاً حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْهَا ابْنُهَا، فَلَمَّا رَأى ابْنَاهَا أبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثُ ابْنَـا هِشَـامٍ - وَهُمَا أخَوَا عَيَّاشٍ لأُمِّهِ- جَزَعَهَا، فرَكِبَا فِي طَلَبهِ حَتَّى أتَيَا الْمَدِيْنَةَ فَلَقِيَاهُ.

فَقَالَ لَهُ أبُو جَهْلٍ: قَدْ عَلِمْتَ أنَّكَ أحَبَّ إلَى أمِّكَ مِنْ جَمِيْعِ أوْلاَدِهَـا، وَكُنْـتَ بَارّاً بهَا، وَقَدْ حَلَفَتْ لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْرَبُ وَلاَ تَدْخُلُ كِنّاً حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهَا، وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّ فِي دِيْنِكَ برَّ الْوَالِدَيْنِ، فَارْجِعْ إلَيْهَا فَإنَّ رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ بالْمَدِيْنَةِ هُـوَ رَبُّـكَ بمَكَّـةَ فَاعْبُدْهُ بهَا. فَلَمْ يَزَالاَ بهِ حَتَّى أخَذ عَلَيْهِمَا الْمَوَاثِيْقَ أنْ لاَ يُحَرِّكَانِهِ وَلاَ يَصْرِفَانِـهِ عَـنْ دِيْنِهِ، فَأَعْطَيَاهُ الْمَوَاثِيْقَ فَتَبعَهُمَا، فَلَمَّا خَرَجُوا بهِ مِنَ الْمَدِيْنَةِ أخَذَاهُ وَأوْثَقَاهُ وَضَرَبَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ حَتَّى تَبَرَّأ مِنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ[2].

(١) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ١ ص٣٦٤: الرقم (٤٥٢).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٢. وابن هشام في السيرة النبوية: هجرة عمر وقصة عياش

وَكَانَ الْحَارِثُ أَشَدَّهُمَا عَلَيْهِ وَأَسْوَأَهُمَا قَوْلاً فِيهِ، فَحَلَفَ عَيَّاشُ بِاللهِ لَئِنْ قَدِرَ عَلَيْهِ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ مَكَثُوا حِيناً، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهَاجَرَ عَيَّاشُ وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَفَّقَ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يَحْضُرْ عَيَّاشُ، فَلَقِيَهُ عَيَّاشُ يَوْماً بِظَهْرِ قِبَاء وَلَمْ يَعْلَمْ بإِسْلاَمِهِ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ يَظُنُّ أَنَّهُ كَافِرٌ، فَقِيْلَ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ، فَنَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَبَكَى، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ (١).

ومعنَى الآيةِ: ومِن الناسِ مَن يقولُ آمَنَّا باللهِ، فإذا عُذِّبَ في طاعةِ الله جَعَلَ تعذيبَ الناسِ كتعذيب الله، فأطاعَ الناسَ خوفاً منهم، كما يطيعُ الله مَن خافَ عذابَهُ.

قولُهُ: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ؛ أي إذا جاء فَتْحٌ مِن ربكَ (لَيقولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) وهذه صفةُ المنافقين، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي بما في قلوب الْخَلْقِ من الطُّمأنينةِ بالإيمان والانشراح بالكُفر، ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ؛ أي لِيَجْزِيَ اللهُ المؤمنين، ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ ولَيُمَيِّزَنَّ المنافقينَ.

قولُهُ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ ؛ معناهُ: قال كفارُ مكَّةَ أبو جهلٍ وغيرُه، لِمَنْ آمَنَ مِن قريشٍ، واتَّبعَ مُحَمَّداً ﷺ: إتَّبعُوا دِينَنا ومِلَّةَ آبائِنا، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ ، ونحنُ الكفلاءُ بكُلِّ تَبعَةٍ تصيبُكم من اللهِ في ذلكَ،

ومن معه: ج ٢ ص١١٨.

(١) النساء / ٩٢. في الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ١ ص٣٦٧: ترجمة هشام بن يزيد: الرقم (٤٥٤)؛ قال ابن عبد البر: (هو الحارث بن يزيد القرشي العامري). وفي الإصابة في معرفة الصحابة: ج ١ ص٦٠٧؛ قال ابن حجر: (أسلم يوم فتح مكة، ثم حسن إسلامه، وقال: فلم يزل مجاهداً بالشام حتى ختم الله له بخير). وذكر في ترجمة الحارث بن يزيد بن أنيسة قصة عياش معه وقال: (وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل: الحارث بن يزيد هو الذي قتله عياش بن أبي ربيعة بالبقيع بعد قدومه المدينة، وذلك بعد أحد).

ونحملُ عنكم خطَايَاكم، إنْ كان عليكم فيهِ إثْـمٌ ووزرٌ، فنحـنُ نحملـهُ عنكـم[١]. قـال الفرَّاء: (قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلْنَحْمِلْ) لَفْظُـهُ لَفْـظُ الأَمْـرِ، وَمَعْنَـاهُ: الْجَـزَاءُ؛ أيْ إن اتَّبَعْتُـمْ سَبِيْلَنَا حَمَلْنَا خَطَايَاكُمْ)[٢]. قولهُ: ﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ ؛ فيما ضَمِنوا من حَمل خطاياهم، ولا يحفظُونَ العذابَ عنهم.

قولـهُ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ ؛ معنـاهُ: أوْزَاراً مـع أوزَارهم، وذلك أنَّهم يُعاقَبون على كُفرهم وعلى دُعاءِ غيرِهم إلى الكفرِ، وهذا موافقٌ لقولهِ ﷺ: [مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وزْرُهَا وَوزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ، لاَ يَنْقُصُ مِنْ أوْزَارهِمْ شَيْءٌ][٣].

ومعنى الآيةِ: وَلَيَحْمِلُنَّ أوزارَهُم التي حَملُوها، وأوْزَاراً مـع أوزارهـم لقولـهم للمؤمنـينَ: (اتَّبعُـوا سـبيلَنا ((وَلْنَحْمِـلْ خَطَايَـاكُمْ) وهـم كـاذبون فيمـا قـالوا لهـم ووعدوهم))[٤]، وليَحْمِلُوا أوزَارَهم كاملةً يومَ القيامةِ.

وقولـهُ: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ ؛ أرادَ بـه سؤالَ توبيخٍ لا سؤالَ استعلامٍ، يقالُ لَهم: هل كانَ عندَكم من الغيب شـيءٌ ؟ ومِـن أين قُلْتُمْ إنَّكم تحمِلُوا أوزَارَ غيرِكم ؟ .

---

(١) نقله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٣. وفي معالم التنزيل: ص٩٩٣؛ قال البغـوي: (قالـه مقـاتل والكلبي... وذكره).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج١٣ ص٣٣٠؛ قال القرطبي: (قال الفراء والزجَّاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم). وقالـه النحـاس في إعـراب القـرآن: ج٣ ص١٦٩. وينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص١٢٢ واللفظ له.

(٣) أخرجـه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ٢ ص٣٢٨-٣٣٠: الحديـث (٢٣٧٢-٢٣٧٥) شـطر حديث طويل عن جرير بن عبدالله البجلي من طريقين، وإسناده صحيح. وأخرجه الإمـام أحمـد في المسند: ج ٤ ص٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح: كتـاب الزكـاة: بـاب الحـث عـل الصدقة: الحديث (٧٠/ ١٠١٧).

(٤) على ما يبدو لي أن العبارة المقدرة ما بين ((   )) سقطت من المخطوط، وقابلناهـا علـى مـا في جامع البيان: ج ٢٠ ص١٦٤.

قولــــــهُ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ ؛ أي مَكَثَ بين أظهرهم يدعُوهم إلى الإيْمان ألفَ سَنَةٍ إلاّ خمسين عاماً، فلم يُجِبْهُ إلى الإيمان منهم إلاّ قليلٌ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ، فأهلَكَ اللهُ المكذِّبين بالطُّوفانِ وهو الغرقُ (وَهُمُ الظَّالِمُونَ) أي مُشرِكون.

وفي الحديث: [أنَّ نُوحاً عليه السلام أرْسَلَ إلَيْهِمْ بَعْدَ مَا أتَى عَلَيْهِ مِائَتَان وَخَمْسُونَ سَنَةً، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَان مِائَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ سَنَةً][1]. وسُمي الغرقُ طُوفَاناً لأنَّ الماءَ في ذلك اليومِ طَافَ في جميعِ الأرض.

قولهُ: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ ؛ أي أنْجَيْنا نُوحاً من الغَرَق ومَن كان معهُ من المؤمنين في السَّفينة، ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا السَّفينةَ عِبْرَةً لِمن بعدَهم من الناسِ إنْ عَصَوا رسولَهم فَعَلْنَا بهم مثلَ ذلك.

قوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ انتصبَ (إبْرَاهِيْمَ) عَطفاً على نُوحٍ، معناهُ: وأرسَلنا إبراهيمَ أيضاً، (إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ) أي وَحِّدُوا اللهَ وأطيعوهُ واخشَوهُ، ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي عبادةُ اللهِ خيرٌ لكم من عبادةِ الأوثان، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا ﴾ ؛ أي أصْنَاماً تتَّخِذونَها من الحجارةِ والخشب، ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ؛ أي وتَختَرِعُونَ على الله كَذِباً في قولِكم: إنَّها آلِهةٌ. ويجوزُ أن يكون معنى (وَتَخْلُقُونَ) أي تَنْحَتُونَ أصْنَاماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أي إنَّ الذين تعبدُونَ من الأصنامِ لا يَقْدِرُونَ أنْ يرزقُوكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱبْتَغُواْ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٤٥٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن جرير عن عون عن أبي شداد رضي الله عنه قال: (إن الله أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة)). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٠٩٧).

﴿عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي اطْلُبُوا الرِّزقَ مِنِّي، فأنا القادرُ على ذلكَ، (وَاعْبُدُوهُ) أي اعبدُوا مَن يَملِكُ أرزاقَكم، (وَاشْكُرُواْ مَنْ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في الآخرةِ فيَجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ ؛ يعني كذبُوا أنبياءَهم كما كذبتم نبيَّكم فأهلكَهم اللهُ تعالى، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ ؛ أي مَا عليهِ إلاّ تبليغُ الرسالةِ عن اللهِ بلُغَةِ الَّذين أرسَلَهم إليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ؛ أي أوَلَمْ يعلَمْ ويعتبرْ أهلُ مكَّة كيفَ يُبدِئُ اللهُ الْخَلْقَ في أرحامِ الأُمَّهاتِ مِن النُّطفةِ ثُم مِن العلقةِ ثُم مِن الْمُضْغَةِ إلى تَمامِ الخلقِ، ثُم يُميتُهُ ثُم يعيدهُ بعدَ الموتِ للبعثِ خَلْقاً جَديداً. وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ ؛ أي إنَّ بَدْأَ الخلقِ وإعادته هَيِّنٌ على اللهِ، فإنه القادرُ على الاختراعِ مِن غير ابتداء على مثالٍ، قادرٌ على الإعادةِ، وكانوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو الذي خلقَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ ؛ أي سَافِروا في الأرضِ وابحثوا وانظرُوا هل تَجِدُونَ خَالِقاً غيرَ اللهِ، واعتَبروا كيفَ خلَقَ اللهُ مَن قبلَكم ثُم أهلكَهم بعدَ ذلك.

وقولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ ؛ أي ثُم إنَّ اللهَ يبعثُ الخلقَ ثانيةً يومَ القيامةِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ؛ مِن الإحياءِ والإمَاتةِ قادرٌ. قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والحسنُ: (النَّشَاءَة) بالمدِّ، وقرأ الباقون: (النَّشْأَة) بإسكان الشِّين والقصْرِ وهما لُغتان[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ ؛ أي يُعذِّبُ مَنْ يَشاءُ مَن كان أهْلاً للتعذيبِ، ويَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ مَن كان أهلاً للرحمةِ، وقولهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي تُردُّون في الآخرةِ.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٥٧، قال: (فقرأ ابن كثير وابن عمرو ﴿النَّشَاءَة﴾ ممدودة في كل القرآن، وقرأ الباقون بالقصر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي ما أنتم يا أهلَ مكَّة بفَائِتِينَ من عذاب الله هَرباً، ولا في السَّماء، فلا تغتَرُّوا لطُول الإمهَال.

ولا يجوزُ أن يكون معناهُ: وَلاَ مَنْ فِي السَّمَاءِ بمُعْجِزِيْنَ؛ أي ما أنتم يا كفارَ مكَّة بفَائِتِي اللهِ في الأرضِ[1] كُنتم أو في السَّماء كنتم، أينَما تكونُوا يأتِ بكمُ الله فيجزيَكم بأعمالِكم السيِّئة. ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ ؛ يتولَّى أمرَكم وحِفظَكم، ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ يمنعُ العذابَ عنكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ ؛ أي الذين يَجحَدوا بآياتِ الله والقُرْآن والبعثِ بعد الموتِ، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ ؛ أي مِن جَنَّتي في الآخرةِ باعتقادِهم أنَّها لا يقعُ بهم، ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ؛ أي ما كان جوابُ قوم إبراهيمَ حيث دعَاهُم إلى اللهِ، إلاَّ أن قالوا: اقتلُوهُ أو حرِّقوهُ بالنار، ثُم ((اتفقوا على تحريقه))[2] فقذفوهُ في النار، ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ سَالِماً، وجعلَها عليه بَرْداً وسَلاماً ولَم تحرِقْ منه إلاَّ وثاقه، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ بالله ورسُلِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا ﴾ ؛ أي قال إبراهيمُ: إنَّ ما عبدتُم مِن دون اللهِ أوثاناً هي مودَّةٌ بينَكم، أو تلك مودَّةٌ بينكم، والمعنى: أي أُلْفَتُكم واجتماعُكم على الأصنام ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

---

(١) في معالم التنزيل: ص٩٩٤؛ قال البغوي: (قال قطرب: معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول الرجل للرجل: لا يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة ولو كان بها).

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط. وأضفناهُ لضرورة السياق. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٣٨.

﴿لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾؛ ثُم تنقطعُ عن قريبٍ، وتنقلبُ تلك المودَّةُ عداوةً بعد الموتِ، يَتَبَرَّأ بعضُكم من بعضٍ، ويلعنُ العابدُ المعبودَ، لذلك يلعَنُ العابدونَ بعضَهم بعضاً، ويكون مصيرُهم في الآخرةِ النار، وما لكم مِن مانعٍ يَمنعُكم من عذاب الله.

ويجوزُ أن تكون (مَا) في قوله تعالى (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ) بمعنى (الَّذِي) كأنه قالَ: إنَّ الذي اتَّخذتُموه من دون الله أوثاناً مودَّةُ بينِكم ما دُمتم في الحياةِ الدُّنيا، فيكون (مَوَدَّةُ) رفعاً لأنَّها خبرُ (إنَّ)، وقرأ حمزةُ وحفص (مَوَدَّةَ) بالنصب (بَيْنِكُمْ) بالخفضِ على الإضافة؛ بوقوعِ الاتِّحادِ عليه، وجعل (إِنَّمَا) حَرفاً واحداً، وقرأ الباقون نَصباً منوَّناً (بَيْنَكُمْ) بالنصب على أنه مفعولٌ أيضاً، ومعناه: اتَّخذتُم هذه الأوثانَ مَودَّةً بينكم تتوادُّون وتحابُّون على عبادتِها وتتواصَلون عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾؛ أي صَدَّقَ لوطُ بإبراهيمَ، وهو أوَّلُ مَن صدَّقَ به، ﴿وَقَالَ﴾؛ إبراهيم: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ أي إلى الموضعِ الذي أمرَني رَبي بالهجرةِ إليه، وكان مأموراً بالهجرةِ من كوثى وهو سوادُ العراقِ إلى الشَّام.

وَقِيلَ: إن كوثى من سوادِ الكوفة، فهاجرَ إبراهيمُ ومعه لوطُ وهو ابنُ أخيهِ ومعه سارَةُ. قال مقاتلُ: (هَاجَرَ إِبْرَاهِيْمُ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ سَنَةً)(١). وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٦﴾؛ أي الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصاهُ، الْحَكِيْمُ فيما حَكَمَ علينا من الهجرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ أي لإبراهيمَ، ﴿إِسْحَٰقَ﴾؛ من امرأتهِ سارَةَ، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾؛ ابنُ ابنهِ، وقولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ وذلك أنَّ الله لَم يَبْعَثْ نبياً مِن بعد إبراهيمَ إلاّ من صُلْبهِ، وقولهُ تعالى (وَالْكِتَابَ) أي وجعلنا التَّوراةَ والإنجيلَ والقُرْآنَ في وَلَدِهِ.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥١٦.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أرادَ به الثَّناءَ الحسنَ، وموالاةَ جميعِ الأُمَمِ إيَّاهُ؛ لأن جميعَ أهلِ الأديان يُحِبُّونَهُ. وقال السديُّ: (إنَّهُ أُرِيَ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ) ثُمَّ أعْلَمَهُ اللهُ أنَّ لَهُ مَعَ مَا أعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا الدَّرجَاتِ الْعُلَى لقولهِ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي إنهُ في الآخرةِ مع آبائه الْمُرسَلِين في الجنَّة مثل آدمَ ونوحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلُوطًا ﴾ ؛ أي وأرسَلْنا لُوطاً بالنبُوَّة، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ ؛ يعني عملَهم الخبيثَ الذي لَم يكن يَعْمَلُهُ أحدٌ قبلَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بمن يَمُرُّ بهم مِن المسافرين، فلما فعَلُوا ذلك شَاعَ الخبرُ، فتركَ الناسُ المرورَ بهم وانقطعَ السبيلُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ ؛ النادِي الْمَجْلِسُ وَالْمُتَحدَّثُ؛ أي تأتون في مجالسِكم الفسقَ، قِيْلَ: إنَّهم كانوا يفعلُ بعضُهم ببعضٍ الفاحشةَ في الْمَجَالِسِ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يصَفِّقون بأيديهم ويصَفِّرُونَ بأفواهِهم، وقال القاسمُ بن محمَّدٍ: (هُوَ أنَّهُمْ كَانُوا يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ)[1] وَيَضْرِبُونَ بِالْعُودِ وَالْمَزَامِيْرِ (وَيَلْعَبُونَ بالْحَمَامِ)[2]. وَقِيْلَ: في معنَى قولهِ تعالَى (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ) قال مجاهدُ: (كَانَ يُجَامِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِي الْمَجَالِسِ)[3].

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي كَانُواْ يَأْتُونَهُ قَوْمُ لُوطٍ، فَقَالَ: [كَانُواْ يَجْلِسُونَ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِصْعَةُ حَصَى، فَإذا مَرَّ بهِمْ عَابرُ سَبيْلٍ خَذفُوهُ، فَأَيُّهُمْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٣). ونقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١١٢٦) بإسناده عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) من قول مجاهد؛ أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٢٧٤). والطبري في جامع البيان: الآثار (٢١١٣١).

أَصَابَهُ كَانَ أَوْلَى بِهِ][(١)]، قال ﷺ: [إِيَّاكُمْ وَالْخَذْفَ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْكَأُ الْعَدُوَّ وَلاَ يُصِيبُ الصَّيْدَ، وَلَكِنْ يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴾ ؛ أي فلمَّا أنكرَ لوطُ على قومهِ ما كانوا يفعلون من القَبائح قالُوا استهزاءً: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أنَّ العذابَ نازلٌ، فعندَ ذلكَ؛ ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لوطُ عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي انْصُرْنِي بتحقيقِ قَولِي في العذاب على القومِ المفسدين العاصِين.

فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ، وبعثَ جبريلَ ومعه الملائكةُ لتعذيب قومه وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ؛ أي بالبُشْرَى بإسحق ومِن وراءِ اسحق يعقوبُ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ ؛ يعني سدوم قريةَ لوطٍ، ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ بالشِّركِ والعملِ الخبيثِ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ إبراهيمُ: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ ؛ فكيفَ تُهلِكُونَهم؟! ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ ؛ وأهلَ دِينه وابنَتَيْهِ زَعُورا وزَنْبا، ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ واعِلَةَ، ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن الباقينَ في الْمُهْلَكِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ ﴾ ؛ أي سَاءَ مَجيئُهم خوفاً عليهم مِن قومهِ؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئة الغِلْمَان، ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ؛ أي ضَاقَ عليهم بسَببهم، ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وَ مُنَجُّوا؛ قال المبرِّدُ: (الْكَافُ فِي

---

(١) أخرجه الطبري من حديث أم هانئ في جامع البيان: الحديث (٢١١٢٧) بأسانيد. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٩٠)، وقال: هذا حديث حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص٣٢٦: الحديث (١٠٠٠-١٠٠٢)، والزيادة [فَأَيُّهُمْ أَصَابَهُ كَانَ أَوْلَى بِهِ] لم أقف عليها إسناداً، وذكرها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٤٢، وقال: (ذكره الثعلبي).

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٠؛ قال الهيثمي: (قلت هو في الصحيح من حديث عبدالله بن مغفل، رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار، وهو ضعيف).

(مُنجُّوكَ) مَخْفُوضَةٌ وَلَمْ يَجُزْ عَطْفُ الظَّاهِرِ عَلَى الْمُضْمَرِ الْمَخْفُوضِ، فَمَا جُعِلَ الثَّانِي عَلَى الْمَعْنَى، فَصَارَ التَّقْدِيْرُ: وَنُنْجِي أَهْلَكَ، أو مُنجُونَ أَهْلَكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي عَذاباً بالحجارةِ، وَقِيْلَ: الخسفَ والحصَبَ، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي بسَبَب فِسقِهم، يروى أنَّ تلكَ القريةِ كانت مشتملةً على سبعمائةِ ألفِ رجُلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾؛ أي آثارُ منازِلِهم الْخَرِبَةِ وهي تركُ ديارهم منكوسةً عِظَةً وعبرةً، وأظهرَ اللهُ فيها ماء أسودا نتناً يتأذى الناسُ برائحتهِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي يتفكَّرُون فيما فَعَلَ اللهُ بهم فلا يفعلونَ مِثْلَ فعلِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ أي وأرسَلنا إلى أهل مدينَ أخاهم شُعيباً، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ أي وَاخْشَوا البعثَ الذي فيه جزاءُ الأعمال، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي لا تعْثَوا في الأرض بالفسادِ، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ بالرِّسالةِ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي الزَّلْزَلَةُ، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي مَيِّتِيْنَ باركِينَ على رُكَبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾؛ أي وأهلكنا عاداً وثمُوداً، ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ أي ظَهَرَ لكم يا أهلَ مكَّة مِن منازِلِهم الحجر واليمن في هلاكِهم حيث تمرُّون بها، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ القبيحةَ، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي فصرَفَهم عن طريق الحقِّ، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي عُقلاءَ يُمكِنُهم تمييزُ الحقِّ من الباطلِ، ويقالُ: كانوا مُعجَبين بضَلالِهم يَرونَ أنَّهم على الحقِّ، ولَم يكونوا كذلكَ، والمعنى: أنَّهم كانوا عندَ أنفُسِهم مستبْصِرين فيما عمِلُوا من الضَّلالةِ، يحسَبُون أنَّهم على هُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي وأهلَكْنا قارونَ وفرعون وهامانَ بعدَ ما جاءَهم

مُوسَى بالمعجزاتِ فتَعَظَّمُوا عن الإيْمانِ به، ﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكونوا فَائِتين من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ ؛ أي كلَّ هؤلاءِ القوم الذين ذكرناهم عاقَبْنَاهم بذنوبهم، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ؛ يعني الحجارةَ وهم قومُ لُوطٍ، وقِيْلَ: الحاصِبُ الرِّيحُ التي تأتي بالْحَصْبَاءِ، وهي الْحَصَى الصِّغَار، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ وهم قومُ صالح وشُعيب، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ يعني قارونَ وأصحابَهُ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ؛ يعني قومَ نوحٍ وفرعونَ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ؛ بإهلاكِهِ إيَّاهم، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ بالكفرِ والمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ يتَّخذونَها أولياءَ يَرْجُونَ نصرَها ونفعَها، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، وبيتُها لا يُغنيها عن الحرِّ والبردِ والمطر، كذلكَ آلِهتُهم لا تَرزُقهم شيئاً، ولا تَملِكُ لَهم ضرّاً ولا نفعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ أي لاَ بيت أضعفَ منهُ مما يتَّخذهُ الهوام، ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ إنَّ اتِّخاذهم الأولياءَ سِوَى اللهِ كاتِّخاذِ العنكبوتِ بيتاً في قلَّة النفعِ ما اتَّخذوهم أولياءَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو (يَدْعُونَ) بالياء لذِكْرِ الأُمم قبلَها، وقرأ الباقون بالتاء، ومعنى الآية: أنهُ عالِمٌ بما عبدتُموه من دونهِ فهو يُجازيكم على كُفرِكم، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ ؛ يعني أمْثالَ القُرآن، ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ ، نبيِّنُها، ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ . قال مقاتلُ: (يَعْنِي لِكُفَّارِ مَكَّةَ)[1] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ ؛ الأمثالَ، ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي العلماءُ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحَقِّ واظهرِ الحقِّ خلْقَها، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لدلالةً على قُدرةِ الله وتوحيدِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي إقْرَأ عليهم يا مُحَمَّدُ ما أنْزِلَ عليكَ مِن القُرْآنِ، وأقِمِ الصَّلَواتِ الخمسِ في مواقِيتِها بشرائطِها وسُنَنِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ في الصَّلاةِ تكبيراً وتَسْبيحاً وقراءةً ووُقوفاً للعبادةِ على وجهِ الذُّلِّ والخشُوعِ، وكلُّ ذلك يدعُو إلى شَكلِهِ ويصرفُ عن ضدِّهِ وهي الآمرُ والنَّاهي بالقول. والفَحْشَاءُ: ما قَبُحَ من العملِ، والْمُنْكَرُ: ما لا يعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (فِي الصَّلاَةِ مُنْتَهًى وَمُزْدَجَرٌ عَنْ مَعَاصِي اللهِ)[(١)] (فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْمَعَاصِي لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً)[(٢)]، وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً][(٣)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ أي ولَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم بالتوفيقِ والمغفرةِ والثواب أكْبَرُ من ذِكْرِكم إياهُ بالطاعةِ، وقِيْلَ: ذِكْرُ اللهِ في المنعِ من الفحشاءِ والمنكرِ أكبرُ مِن الصَّلاة، ويجوزُ أن يكون أكبر في معنى الكِبَرِ في الجزاءِ والثَّواب، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٤٠). والطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٤٦: الحديث (١١٠٢٥). والقضاعي في المسند: ج ١ ص٣٠٥: الحديث (٥٠٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة ولكنه يدلس).

(٣) لم أجده.

(٤) البقرة / ٤٥ .

قالتِ الحكماءُ: ذِكْرُ اللهِ للعبدِ أكبرُ من ذكرِ العبد للهِ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ للعبدِ على حدِّ الاستغناءِ، وذِكرُ العبدِ إياه على حدِّ الافتقار، ولأنَّ ذِكْرَ العبدِ بجَرِّ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ، وذِكرُ اللهِ للعبدِ للفضْلِ والكَرَم، ولأنَّ ذكرَ العبدِ مخلوقٌ، وذكرَ اللهِ غيرُ مخلوق.

وقال ﷺ في قولهِ تعالى (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ): [أَيْ ذِكْرُ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، وَالذِّكْرُ أَنْ تَذْكُرَهُ عِنْدَ مَا حَرَّمَ، فَتَدَعُ مَا حَرَّمَ، وَعِنْدَمَا أَحَلَّ فَتَأْخُذُ مَا أَحَلَّ][(١)]. وقال ﷺ: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ][(٢)].

وقال أبو الدَّرداءِ ﷺ: (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحَبِّهَا إِلَى مَلِيكِكُمْ وَأَتَمِّهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَغْزُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ ؟) قَالُوا: وَمَا هُوَ ؟! قَالَ: (ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)[(٣)].

وقال معاذُ بنُ جَبَلٍ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ: [أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطِبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ][(٤)]. وقال ﷺ: [مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا فِي مَجْلِسٍ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ؛ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ؛ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ؛ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ][(٥)].

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٥٩: الحديث (٢٩٤٤٨) عن معاذ بن جبل، وفي ج ٧ ص١٨٠: الحديث (٣٥٠٤٩) أيضاً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١١٦٧) عن أبي الدرداء.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٩٣: الحديث (١٨١)، وص١٠٧: الحديث (٢١٢)، وص١٠٨: الحديث (٢١٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٧٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بأسانيد، وفي بعضها خالد بن يزيد، ضعفه جماعة، ووثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله ثقات).

(٥) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين، وهو في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين في الرقم (٨٧٣) بلفظه، وقال العراقي: (رواه مسلم من حديث أبي هريرة) ولفظه عند مسلم: [مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ].

ورُوِيَ أنَّ رجُلاً أعتقَ أربعَ رقابٍ، وآخرَ قالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، ثُم إنَّ الذي لَم يعتِقْ سألَ حبيبَ[1] سـراً وفي أصحابه فقـالَ: ما تقولونَ فيمَن أعتقَ أربعَ رقابٍ وأنا قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْـدُ للهِ؛ وَلاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فنظرُوا هُنَيْهَةً وقالوا: ما نعلمُ شيئاً أفضلَ مِن ذكرِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي ما تعملونَ من الخيرِ والشرِّ، لا يخفَى عليه شيءٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾؛ أي لا تُخاصِمُوا أهلَ الكتاب إلاّ بالطريقةِ التي هي أحسنُ، وهي أن تَعِظُوهم بـالقُرْآنِ على وجهِ النُّصحِ لَهم والاستمالةِ إلى دِين الإسلامِ وتعظيمِ الله تعـالى وطلـب ثوابـه، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾؛ أي إلاَّ مَن ظَلَمَ من أهـلِ الكتـاب فمَنَـعَ الجزيـةَ أو نَقَضَ العهدَ، وعادَ حَرْباً لكم، فجادِلُوهم باللِّسـان والسِّنَان، وأغْلِظُـوا عليـهم حتى يُسلِمُوا، ﴿ وَقُولُوٓاْ ﴾؛ لِمـن قَبـلَ الجزيـةَ منـهم إذا أخـبَرُوكم بشـيءٍ مـن كتُبـهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾؛ أي آمنَّـا بـالقُرْآنِ والتـوراةِ والإنجيـل والزبـور، ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي مُخلِصُونَ بالعبادةِ والتوحيد، وهذه صفةُ الْمُجادَلةِ الحسَنةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ ﴾؛ أنزلنـا إليـكَ يـا مُحَمَّدُ القُرْآنَ كما أنزَلْنا إليهم الكُتبَ، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ ﴾ أي الذين أكْرَمْنَاهم بعلمِ التَّوراة وهم عبدُاللهِ بـن سـلام وأصحابـهُ يؤمنـونَ بـالقُرْآنِ بدلالةِ التَّوراةِ. وقولهُ: ﴿ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ ﴾؛ أرادَ به مـن كُفَّـارِ مكَّـةَ مَن يؤمنُ به، يعني يُسْلِمُ منهم.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي مَـا يجحدُ بمُحَمَّدٍ ﷺ وبالقُرْآنِ بعدَ المعرفةِ إلاَّ الكافرونَ من اليهودِ، وذلك أنَّهم عَرَفُوا أنَّ مُحَمَّداً نَبيٌّ والقُرْآنَ حَقٌّ فجَحَدوا وأنكرُوا.

---

(١) هكذا أبهم الاسم (حبيب) ولم يعرِّفه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ ؛ أي ما كُنْتَ يا مُحَمَّدُ تقرأ مِن قبلِ القُرْآنِ (مِنْ كِتَابٍ) أي ما كُنْتَ قَارئاً قبلَ الوحي ولا كَاتِباً، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ ولا تكتبهُ بيمينِكَ، ولو كُنْتَ تقرأهُ وتكتبُ لوجدَ الْمُبْطِلُونَ طريقاً إلى التَّشكيكِ في أمرِكَ والارتياب في نُبوَّتكَ، ويقولون إنهُ يقرأهُ من الكُتُب الماضيةِ، فلمَّا كان مَعْلُوماً عندَهم أنه عليه السَّلامُ كان لا يقرأ ولا يكتبُ، ثُم أتى بالقُرْآنِ الذي عَجَزُوا عنِ الإتيان بسورةٍ مثله، دلَّهُم ذلك على أنه مِن عند اللهِ، ولأنَّهُ كانت صفتهُ في التَّوراةِ والإنجيل: أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ، ولو كُنْتَ قارئاً كاتباً لشَكَّ اليهودُ فيكَ، وقالوا: إنَّ الذي نجدهُ في التوراةِ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ؛ قال الحسنُ: (يَعْنِي الْقُرْآنَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْعِلْمَ يَعْنِي الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ حَمَلُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَمَلُوهُ بَعْدُ)[١].

وقال مقاتلُ: (بَلْ هُوَ) يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ (آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) أي ذُو آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ أهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ؛ لأَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ). ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ، يعني كفار اليهود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ؛ أي قَالَ كُفَّارُ مكَّةَ: هَلاَّ أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ آيةٌ من ربهِ كما كانت الأنبياءُ تَجيءُ بها إلى قومِهم، أرادوا بها الآياتِ التي كانوا يقترِحُونَها عليهِ مِن قولِهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾الآية[٢].

قرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (آيَةٌ) على التوحيدِ، وقرأ الباقون بالجمعِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٣٧٥). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١١٩٩).

(٢) الإسراء / ٩٠ .

وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي في حُكْمِ اللهِ إنْ شاءَ أنزلَها، ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي رسولٌ مُخَوِّفٌ لكم بلُغَةٍ تعرفونَها، وليس إنزالُ الآياتِ بيدِهِ.

وقولُهُ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَمْ يكن لَهم كفايةً في معرفةِ نبوءَتِكَ أنَّا أنْزَلْنا عليْكَ القُرْآنَ الذي تقرأهُ عليهم بلُغَتِهم مما فيه أخبارُ الأُممِ الماضيةِ مع عجزهم عن الإتيانِ بحديثٍ مثلهِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي في إنْزالِ القُرْآنِ لَرَحْمَةٌ لِمن آمَنَ به وعَمِلَ بما فيهِ، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ، أي وذكرى وموعظة لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: كَفَى اللهُ شَهيداً بأنِّي رسولٌ إليكم، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي صدَّقُوا بالأصنامِ وجَحَدوا وحدَانيَّةَ اللهِ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ بالعقوبةِ وفَوْتِ الْمَثُوبَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ أي يستعجِلُكَ كفارُ مكَّة بالعذاب قبلَ وقتهِ استهزاءً وتكذيباً منهم بذلك، ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي لَولاَ أنَّ اللهَ جعلَ لعذابهِ أجَلاً مسمًّى قد سَمَّاهُ وهو يومُ القيامةِ. وقيل يعني مدَّة أعمارهم؛ لأنَّهم إذا ماتُوا صارُوا إلى العذاب لعَجَّلَ لَهم العذابَ في الحالِ، ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ بإتيانهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ فيه تَعْجِيْبٌ باستعجالِهم مع أنَّ جهنَّمَ محيطةٌ بهم في الآخرةِ، جامعةٌ لَهم، ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ؛ فلاَ يبقَى جزءٌ منهم إلاَّ وهو مُعَذبٌ في النار جزاءً، ويقالُ لَهم: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

قرأ الكوفيُّون ونافع: (وَيَقُولُ) بالياء، يعني الموَكَّلُ بعذابهم يقولُ لَهم ذلكَ، وقرأ الباقون بالنُّونِ؛ لأنه لَمَّا كان بأمرهِ سُبْحَانَهُ جازَ أن يُنسَبَ إليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ قال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي ضُعَفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ، تَقُولُ: إنْ كُنْتُمْ فِي ضِيْقٍ بِمَكَّةَ مِنْ إظْهَارِ الإيْمَانِ)(١) فَاخْرُجُوا مِنْهَا وَأُمِرُوا بِالْهِجْرَةِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي لاَ يُمْكِنُهُمْ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَكَذلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ، مَنْ كَانَ فِي بَلَدٍ فَعَمِلَ فِيْهَا بِالْمَعَاصِي، وَلاَ يُمْكِنُهُ تَغْيِيرُ ذلِكَ أنْ يُهَاجِرَ إلَى حَيْثُ يَتَهَيَّأُ لَهُ أنْ يَعْبُدَ اللهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ.

ثُم خوَّفَهم بالموتِ لتَهُونَ عليهم الهجرةُ؛ فقالَ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾؛ أي كلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أينما كانَ، فلا تُقِيمُوا بدار الشِّرك خوفاً من الموتِ، ﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾، بعدَ الموتِ فيجزيكم بأعمالِكم. وقال سعيدُ بن جبير: (مَعْنَى الآيَةِ: إذا عُمِلَ فِي أرْضٍ بِالْمَعَاصِي فَاخْرُجُوا مِنْهَا، فَإنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ)(٢)، وقال عطاءُ: (إذا أُمِرْتُمْ بِالْمَعَاصِي فَاهْرُبُوا مِنْهَا، فَإنَّ أرْضَ اللهِ وَاسِعَةٌ)(٣)، وقال مجاهدُ: (إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا)(٤).

وقال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ فِي الْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا بِمَكَّةَ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى إظْهَارِ الإيْمَانِ وَعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، فَحَثَّهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِيْنَةِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ حَالُنَا إذا انْتَقَلْنَا إلَى دَارِ الْغُرْبَةِ وَلَيْسَ بِهَا أحَدٌ يَعْرِفُنَا فَيُوَاسِيْنَا، وَلاَ نَعْرِفُ وُجُوهَ الاكْتِسَابِ فِيْهَا، فَقَطَعَ اللهُ عُذْرَهُمْ بِهَذِهِ الآيَاتِ).

ومعناها: إنَّ أرضِي واسعةٌ آمِنَةٌ، وَقِيْلَ: (وَاسِعَةٌ) أي رزْقِي لكم واسعٌ، فاخرجُوا من هذه الأرضِ التي أنتم فيها. وعن الحسنِ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ فَرَّ بدِيْنِهِ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ وَإنْ كَانَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ، وَكَانَ رَفِيْقَ إبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ](٥).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٣.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٦).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٠٧).
(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٤٦، وقد تقدم في النساء، وهو من مراسيل الحسن.

ثُم ذكرَ ثوابَ مَن هاجرَ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ؛ يعني الْمُهاجِرِيْنَ، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَنُسْكِنَنَّهُمْ غُرَفَ الدُّرَّةِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ، وَلَنُنْزِلَنَّهُمْ قُصُورَ الْجَنَّةِ)، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (لَنُثْوِيَنَّهُمْ) يقالُ: ثَوَى الرجلُ إذا أقامَ، وأثْوَيْتُهُ إذا أنزلتهُ منْزِلاً يقيمُ فيهِ، والمعنى: والذينَ آمَنُوا لنُنْزِلَنَّهُمْ من الجنَّة غُرَفاً عَوالِي تَجري من تحتَ قصورِها وأشجارِها الأنهارَ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ؛ للهِ.

ثُم وصَفَهم فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ؛ أي على دِينِهم فلم يتركوهُ لشدَّةٍ لَحِقَتْهُمْ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(وَذلِكَ أنَّ الْمُهَاجِرِيْنَ تَوَكَّلُوا عَلَى اللهِ وَتَرَكُوا دُورَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ). وَقِيْلَ: معناهُ: (وَعَلَى رَبـهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) في أرزاقِهم وجهادِ أعدائهم ومهمَّات أمورهم.

قال مقاتلُ: (إنَّ أحَدَهُمْ كَانَ يَقُولُ بمَكَّةَ: كَيْفَ أهَاجِرُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَلَيْسَ لِي بهَا مَالٌ وَلاَ مَعِيْشَةٌ)[1]. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ؛ أي وَكَمْ من دابَّةٍ في الأرضِ؛ وهي كلُّ حيوان يدبُّ على الأرضِ مما يعقل ومما لا يعقلُ.

والمعنى: كَم مِن نفسٍ دابَّةٍ لا تحملُ رزقَها؛ أي لا ترفعُ رزقَها معها ولا تَدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ، ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ ؛ حيثُ توجَّهت،﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ ؛ يرزقُكم إن أخرجتُم إلى المدينةِ، وإنْ لَم يكن لكم زادٌ ولا نفقةٌ. قال سفيانُ: (وَلَيْسَ شَيْءٌ مِمَّا يُخَبِئُ وَيَدَّخِرُ إلاَّ الإنْسَانُ وَالْفَأرُ وَالنَّمْلَةُ وَالْغُرَابُ عَلَى مَا قِيْلَ)[2].

وَقِيْلَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا بمَكَّةَ وَقَدْ آذاهُمُ الْمُشْرِكُونَ: [اخْرُجُوا إلَى الْمَدِيْنَةِ وَهَاجِرُوا، وَلاَ تُجَاوِرُوا الظَّلَمَةَ فِيْهَا] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ نَخْرُجُ إلَى الْمَدِيْنَةِ وَلَيْسَ لَنَا بهَا عَقَارٌ وَلاَ مَالٌ، فَمَنْ يُطْعِمُنَا

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٥٢٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٦٠.

وَيَسْقِيْنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّـاكُمْ)[1] يُوماً بيوم؛ أي يرزقُ مَن يحملُ ومَن لا يحملُ، فكم مِن دابَّةٍ لا تجمعُ رزقَـها لغـدٍ، ولا يقدرُ على حملِ رزقِها لضَعْفِها، اللهُ يرزقها وإيَّاكم، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ؛ أي السَّميعُ لأقوالِهم: نَخشَى إنْ فارَقْنا أوطَانَنا العِيْلَةَ، الْعَلِيْمُ بما في قُلوبهم ونُفوسِهم، فلا يتركُوا عبادةَ الله بسببِ الرِّزقِ، ولا يهتَمُّوا لأجلِ ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ يعـني لَئِـنْ سألتَ مُشـركي مكَّـة: مَـنْ خلَـقَ السَّـمَواتِ، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ؛ أي يُصْرَفُـونَ عـن عبـادةِ الله الـذي هـذه صفتـهُ إلى عبـادةِ جَماداتٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ ؛ أي يبسطُ الرِّزقَ على قومٍ، ويُضيِّقُ على قومٍ، يفعلُ ذلك عن عِلْـمٍ وحكمـةٍ، لا عـن غلَطٍ وخطأ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ؛ يعـني كفَّـارَ مكَّـة أيضـاً، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ؛ أي الحمدُ للهِ على إقرارهم؛ لأن ذلـكَ يُلْزِمُـهُمُ الْحُجَّـةَ، ويوجـبُ عليـهم التوحيـدَ. وَقِيلَ: معناهُ: الحمدُ للهِ على هذه النِّعَمِ، وعلى ما تَفَضَّلَ به جَلَّ ذِكْرُهُ من الإنعَامِ على العبادِ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ؛ بتوحيدِ ربهم مع إقرارهم بأنه خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزلَ المطرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي باطلٌ وغُـرُورٌ وعَبَثٌ تنقضِي عن قريبٍ بسرعةٍ، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ ؛ يعـني الْجَنَّةَ هي الْحَيَوَانُ؛ أي الحياةُ والدَّوامُ والبقاءُ الـذي لا نَفَـادَ لـه، والْحَيَـوَانُ والحيـاةُ واحدٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ؛ أي لـو كانـوا يَعْلَمُـونَ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٣٦٠.

الفرقَ بين الحياةِ الدَّائمةِ والحياة الفَانِيَةِ لرَغِبُوا في البـاقِي الدائـمِ عـن الفـانِي الزَّائـلِ، ولكنَّهم لا يعلمونَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ يعني المشركينَ إذا رَكِبُوا في السَّفينةِ وهَـاجَتِ الريـاحُ واضطربَـتِ الأمـواجُ، وخَـافُوا الغرقَ والهلاكَ، (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّيـنَ) أي دَعَـوُا اللهَ مُفْردِيْـنَ لـه بالدُّعـاءِ، وتَركُوا شُركاءَهم وأصنامَهم فلا يدعُونَهم لإنجائِهم، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ﴾ ؛ أي فلمَّا خَلَّصَهُمْ من تلك الأهـوال، وأخرجَـهم إلى الـبرِّ؛ ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ ؛ أي عَـادُوا إلى شُـركائِهم لكـي يَكْفُـرُوا بمـا أعطينَـاهُم، ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ ؛ فِي كُفرهم، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ جزاءَ فِعْلَتِهمْ. قـال عكرمةُ: (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إذا رَكِبُوا فِي الْبَحْرِ حَمَلُوا مَعَهُمُ الأَصْنَامَ، فَـإذا اشْـتَدَّتْ بهِمُ الرِّيْحُ ألْقَوا تِلْكَ الأَصْنَامَ فِي الْبَحْرِ، وَصَاحُوا: يَا اللهَ يَا اللهَ).

وَقِيْلَ: إنَّ (اللام) في قوله (لِيَكْفُرُوا) لامُ الأمـرِ، ومعناهـا: التـهديدُ والوعيـدُ، كقولِهِ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[١] ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْـهُمْ بِصَوْتِـكَ﴾[٢]، وكذلـك عَقَّبَهُ بقولِهِ: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ أي ألَـم يَـرَ كفـارُ مكَّـة (أنَّـا جَعَلْنَـا حَرَمـاً آمِنـاً) يعـني مكَّـة، ويُسْـلَبُ النـاسُ مـن حولِـهم فيقتلـونَ ويُؤسَـرُونَ وتؤخـذُ أموالُـهم، وأهـلُ مكَّــة آمِنُـونَ مـن ذلــك، ﴿ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي فيقرُّون ويصدِّقون بالباطلِ وهي الأصنامُ بعـد قيـامِ الْحُجَّـةِ، ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي بمُحَمَّـدٍ والإسـلام يَجْحَـدُونَ. والتَّخطُّفُ: هو تناولُ الشيءِ بسُرعَةٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي لا أجـدُ أظْلَـمَ مِمَّـن زعـمَ أنَّ للهِ شـريكاً، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ ؛ يعـني

---

(١) فصلت / ٤٠ .

(٢) الإسراء / ٦٤. وفي المخطوط: (واستفززه من استطعت).

مُحَمَّداً والقُرآن، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي أمَا لِهذا الكافرِ المكذِّب مأوًى في جهنَّم، وهو استفهامٌ، ومعناهُ: التقريرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ ﴾ ؛ أي الذين جاهَدُوا الكفارَ لابتغاءِ مَرْضَاتِنا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا إلَى الجنَّة؛ أي لنُوَفِّقَنَّهُمْ لإصابةِ الطريق المستقيمة. وَقِيْلَ: معناهُ: والذين قاتَلُوا لأَجْلِنا أعداءَنا لنَهْدِيَنَّهُمْ سبيلَ الشَّهادةِ والمغفرةِ.

وقال الفُضَيْلُ: (مَعْنَاهُ: وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِيْنَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بالْعَمَلِ بهِ)، وقال أبو سُليمان الدَّارَانِيُّ: (مَعْنَاهُ: الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ بمَا يَعْلَمُونَ يَهْدِيهِمُ اللهُ إلَى مَا لاَ يَعْلَمُونَ). وعن ابنِ عبَّاس: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِي طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ ثَوَابنَا).

وَقِيْلَ: معناهُ: والذينَ جاهَدُوا بالصَّبرِ على المصائب والنَّوائب لنهدينهم سُبُلَ الوصُولِ للمواهب. وَقِيْلَ: والذين جَاهَدُوا بالثَّباتِ على الإيْمَان لنَهْدِيَنَّهُمْ دُخولَ الجنان. وقال سَهْلُ بن عبدِالله: (وَالَّذِيْنَ جَاهَدُواْ فِي إقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي مَنٌّ بالنَّصرِ على أعدائِهم، والمعونةِ في دُنياهم والثواب والمغفرة في عُقبَاهم.

وعن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ](١).

آخر تفسير سورة (**العنكبوت**) والحمد لله وحده

(١) من أحاديث فضائل السور، يذكره أهل التفسير عن أبي أمامة وأبي بن كعب، في إسناده نظر، وعدَّهُ البعض من الموضوعات. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص ٣٨٠.

سُورَةُ الـرُّومِ

سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلاَثُون حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَتِسْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَسِتُّونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرُّومِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بعَدَدِ كُلِّ مَلَكٍ يسَبحُ للهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي غلَبَتْ فارسُ الرومَ، ففرحَ بذلك كفارُ مكَّة وقالوا: الذين ليس لَهم كتابٌ غلبوا الذين لهم كتابٌ، وافتخَروا بذلكَ على المسلمين وقالوا لَهم: نحنُ أيضاً نغلبُكم كما غلبَتْ فارسُ الرومَ.

وقصَّة ذلكَ: أن كِسرَى ملكَ فارس أرسلَ شهريار إلى الرُّومِ، فسارَ إليهم بأهلِ فارسَ ليغزُوَهم، فظهرَ على الرومِ فقتلَهم وخرَّبَ مدائنَهم، وكان قيصرُ ملكُ الرومِ قد بعثَ بجيشٍ لَمَّا سَمِعَ بقدوم شهريارَ، فالتقيا بأذْرُعَاتٍ وَبُصْرَى وهي أدنى الشَّام إلى أرضِ العرب والعجم، فغلبَت فارسُ الرومَ حتى انتزعوا بيتَ المقدسِ من الرومِ، وكان ذلك موضعُ عبادتِهم.

فبلغ ذلكَ النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ بمكَّة فشُقَّ ذلك عليهم، وكان ﷺ يكرهُ أن يظهرَ الأُمِّيُّونَ من الْمَجُوسِ علىأهلِ الكتاب من الرُّوم، وفَرِحَ بذلك كفارُ مكَّة وشَمَتُوا، فلَقُوا أصحابَ النبيِّ ﷺ وقالوا: إنَّكم أهلُ كتابٍ والنصَارَى أهلُ كتابٍ، وقد ظهرَ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٤٧٣، وهو من مرويات الثعلبي في تفسيره عن أبي أمامة وأبي بن كعب بإسناد واه ضعيف.

إخوانُنا من أهلِ فارس على إخوانِكم من أهلِ الـرُّوم، وإنَّكـم إن قاتَلتُمونـا لنظـهرنَّ عليكم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ هذه الآياتِ (الم، غُلِبَتْ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بضْعِ سِنِينَ)[1].

فخرجَ أبو بكرٍ ﷺ إلى الكفَّار وقال: (أفرِحْتُمْ بظُهُور إخْوَانِكُمْ عَلَى إخْوَانِنَـا؟! فَلاَ تَفْرَحُواْ وَلاَ يُقِرُّ اللهُ أعْيُنَكُمْ، فَوَاللهِ لَيَظْهَرَنَّ الرُّومُ عَلَى فَارس، أخْبَرَنَا بذلِكَ نَبيُّنَا) فَقَامَ إلَيْهِ أبَيُّ بْنُ خَلَفِ الْجُمَحِيُّ وَقَالَ لَهُ: كَذبْتَ! فَقَالَ لَهُ أبُو بَكْرٍ: أنْـتَ أكْـذَبُ يَـا عَدُوَّ اللهِ) فقَالَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ: كَمَا غَلَبَتْ عَبَدَةُ النِّيْرَان أهْلَ الْكِتَـاب، فَكَذلِـكَ نَحْـنُ نَغْلِبُكُمْ) وَاسْتَبْعَدَ الْمُشْرِكُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَى فَارسَ لِشِدَّةِ شَوْكَةِ أهْلِ فَارسَ.

فَقَالَ أبُو بَكْرٍ لأُبَيِّ بْن خَلَفٍ: (أنَا أرَاهِنُكَ عَلَـى أنَّ الـرُّومَ تَغْلِـبُ إلَـى ثَـلاَثِ سِنِيْنَ) فَرَاهَنَهُ أبَيُّ عَلَى خَمْسٍ مِنَ الإبلِ، وَقِيْلَ: عَلَى عَشْرٍ مِنَ الإبلِ، (فَـإنْ ظَـهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارسَ غَرِمْتَ، وإنْ ظَهَرَتْ فَارسُ غَرِمْتُ أنَا) ثُمَّ جَاءَ أبُو بَكْـرٍ إلَـى النَّبيِّ ﷺ فَأخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ ﷺ: [زدْ فِي الْخَطَـر[2] وَأبْعِـدْ فِـي الأَجَـلِ] فَفَعَـلَ ذلِـكَ، وَجَعَلَ الأَجَلَ تِسْعَ سِنِيْنَ، وَكَانَ ذلِكَ قَبْلَ تَحْرِيْم الْقِمَار.

رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لأبي بَكْرٍ: [إنَّمَا الْبضْعُ مَا بَيْنَ الثَّـلاَثِ إلَـى التِّسْـعِ]. قَرَأ: [زدْهُ فِي الْخَطَرِ وَمَادَّهُ فِي الأَجَلِ] فَخَـرَجَ أبُـو بَكْـرٍ فَلَقِـيَ أبَيّـاً فَقَـالَ: لَعَلَّـكَ نَدِمْتَ! فَقَالَ: أزيدُكَ فِي الْخَطَرِ وَأمَادُّكَ فِي الأَجَلِ، فَاجْعَلْهَا مِائَةَ قُلُـوصٍ إلَـى تِسْـعِ سِنِيْنَ، قَالَ: قَدْ أخَافُ فَعَلْتُ.

فَلَمَّا خَشِيَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ أبُو بَكْرٍ مِنْ مَكَّةَ، أتَاهُ فَلَزمَهُ وَقَالَ أبَـيُّ: إنْ تَخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ فَأقِرَّ لِي كَفِيْلاً، فَكَفَلَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي بَكْـرٍ، فَلَمَّـا أرَادَ أبَـيُّ بْـنُ خَلَفٍ أنْ يَخْرُجَ إلَى أحُدٍ، أتَاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أبـي بَكْـرٍ فَلَزمَـهُ وَقَـالَ: لاَ وَاللهِ لاَ أدَعُـكَ حَتَّى تُعْطِيَنِي كَفِيْلاً، فَأعْطَاهُ كَفِيْلاً وَمَضَى إلَى أحُدٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَمَاتَ بمَكَّةَ مِنْ جِرَاحَتِهِ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣١-٢٣٢.

(٢) الخطر: الرِّهانُ والعِوَضُ.

الَّتِي جَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِيْنَ بَارَزَهُ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارسَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَذلِكَ عَلَى رَأسِ تِسْعِ سِنِيْنَ مِنْ مُرَاهَنَتِهِمْ، وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين[١].

وقال أبو سَعيد الخدريُّ ومقاتلُ: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَتَلَتِ الْمُسْلِمُونَ كُفَّارَ مَكَّةَ، وَأتَاهُمُ الْخَبَرُ أنَّ الرُّومَ قَدْ غَلَبَتْ فَارسَ، فَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بذلِكَ، وَغَلَبَ أبُو بَكْرٍ ﷺ أبَيّاً وَأخَذ مَالَ الْخَطَرِ مِنْ وَرَثَتِهِ، وَجَاءَ بهِ إلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: [تَصَدَّقْ بهِ][٢].

ومعنى الآيةِ: (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أدْنَى الأَرْضِ) يعني الْجَزيْرَةَ؛ وهي أقربُ أرضِ الرُّوم إلى فارسَ، وقال عكرمةُ: (يَعْنِي أذْرُعَاتٍ وَكُسْكُرُ). وقولهُ (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبهِم) يعني الرومَ مِن بعد غَلَبَةِ فارسَ إيَّاهم سيغلبونَ فارس ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ ؛ وهو ما بينَ الثلاثِ إلى العشرِ، فالتقَى الرومُ وفارس في السَّنة السابعة من غَلَبَةِ فارسَ إيَّاهم، فغلبتهم الرومُ، فجاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ بهزيْمة فارسَ وظهور الرُّوم عليهم، ووافقَ ذلك يومَ بدر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ ؛ أي قبلَ أنْ غلبت الرومُ ومِن بعدِ ما غُلبت، يعني أنَّ غلبةَ أحدِ الفريقين الآخرَ، أيُّهما كان الغالبُ والمغلوب؛ فإنَّ ذلك كان بأمرِ الله تعالى وإرادته وقضائهِ وقدره.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني بغلب الرومَ فارس، يفرحُ المؤمنون، ﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ الرومَ على فارسَ، ويكون فرحُ المؤمنين يومئذٍ لظهور معجزة النبيِّ ﷺ وإهلاكِ بعضِ الكفَّار بعضاً كما يفرحُ الصَّالحون بقتلِ الظَّالِمين بعضَهم بعضاً.

---

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (٢١٢٢٩ و٢١٢٢٣). وتفسير مقاتل: ج ٣ ص٣-٥.

(٢) حديث أبي سعيد أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٢٣٣). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦ بلفظ: [هَذَا سُحْتٌ، تَصَدَّقْ بهِ]. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٤٥٨) عن البراء بن عازب ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي ينصرُ مُحمداً ﷺ علـى أعدائـهِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي هـو العزيـزُ بالنَّقمـةِ ممـن عصـاهُ، الرَّحِيْـمُ بأوليائهِ وهم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ ؛ نصـبَ علـى المصـدرِ؛ أي وَعْدَ اللهِ ذلِكَ وَعْداً وهو راجعٌ إلى قولهِ (سَيَغْلِبُونَ) أي وعدَ اللهِ ذلـكَ لا يخلـفُ اللهُ وَعْدَهُ بظهور الـروم علـى فـارسَ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ إنَّ اللهَ لا يخلفُ وعدَهُ؛ لأن أكثرَهم كفَّارٌ.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ يعـني معايشَـهم ومـا يُصلِحهم[١]. قال الحسنُ: (يَعْلَمُونَ مَتَى زَرْعُهُمْ وَمَتَـى حَصَـادُهُمْ، وَيَعْلَمُـونَ وُجُـوهَ الاكْتِسَابِ مِنَ التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالْحِرَاثَةِ وَالْغِرَاسَةِ، وَمَا يَحْتَـاجُونَ إلَيْـهِ فِـي الشِّـتَاءِ وَالصَّيْفِ) قال الحسنُ: (بَلَغَ وَاللهِ مِنْ عِلْمِ أحَدِهِمْ فِي الدُّنْيَا أنَّـهُ يَنْقُـرُ الدَّرَاهِـمَ بيَـدِهِ فَيُخْبرُكَ بوَزْنِهِ وَلاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي!)[٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي هُـم مـع علمِـهم بأمُور الدُّنيا لا يعلمونَ ما طريقةُ الدليلِ من أمرِ الآخرة، وما يكونُ فيـها مِـن البعـثِ والثواب والعقاب. فهم غافِلُونَ عمَّا هو أوْلَـى بـهم، وعمـا يلزَمُـهم مـن الاسـتعدادِ لذلك.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ ، أي في خلْـقِ اللهِ إيَّـاهم، ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ، فتعلَمُون أنَّ اللهَ لَم يخلُقِ السَّـموات والأرضَ، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ إلاّ بالحقِّ؛ أي إلاّ الحـقَّ، ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، ومعنـى الآيـة: أوَلَمْ يتفكَّرْ أهلُ مكَّة بقلوبهم فيعلَمُون أنَّ اللهَ مَا خلقَ السَّموات والأرضَ، وما فيهما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٣٩) عن إبراهيم، و(٢١٢٤١) عن عكرمـة. وابـن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٦٦).

(٢) ذكره البغوي في معالم التـنـزيل: ص١٠٠٣. وفي الـدر المنثـور: ج ٦ ص٤٨٤؛ قـال السـيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﷺ وأوله (ليبلغ من جـذق أحدهـم...). أخرجـه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٦٧).

من العجائب والبدائع إلاّ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ، ويجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ عند انقضاءِ الأجَلِ المسمَّى الذي جعلَهُ اللهُ لانقضاء أمرِ السَّموات والأرضِ وهو يومُ القيامةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّةَ، ﴿بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي أولَمْ يُسافِروا في الأرضِ، ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ ؛ صارَ أمرُ، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ؛ من الأممِ السالفةِ حين كذبوا الرُّسلَ إلى الهلاكِ بتكذيبهم فيَعْتَبِرُوا. ثُم وصفَ تلك الأممَ فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أي حَرَثُوها وقلَبُوها للزراعةِ والغرس، ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ ؛ كفارُ مكَّةَ لأنَّهم كانوا أطولَ عُمراً وأكثرَ عدداً، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ، فلم يَبْقَ منهم ولا مِن عمارَتِهم أثرٌ، فكذلكَ يكونُ حال هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ؛ بإهلاكِهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ ؛ بالكفرِ والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ ؛ أي ثم صارَ آخرُ أمرِ الذين أساءُوا بالكفرِ والمعاصي السُّوء، يعني العذابَ والنار بسبب تكذيبهم واستهزائِهم بآيات اللهِ. قال الفرَّاء والزجَّاج: (السُّوْءَى ضِدُّ الْحُسْنَى وَهِيَ الْجَنَّةُ، وَضِدُّهَا النَّارُ)، وقال ابنُ قتيبةَ: (السُّوءُ جَهَنَّمُ، وَالْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَإنَّمَا سُمِّيَتْ سُوْءَى؛ لأَنَّهَا تَسُوءُ صَاحِبَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ؛ أي يخلقه من النطفة ثم يحييه بعد ما أماته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ ؛ ثُم إلى موضعِ حسابه وجزائهِ يرجعُون فيجزيهم بأعمالِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ ؛ أي يَيْأَسُ الْمُجرِمُونَ من رحمةِ الله، ومِن كلِّ خيرٍ حين عَايَنُوا العذابَ.

وقال الفرَّاء: (يَنْقَطِعُ كَلاَمُهُم وَحُجَّتُهُمْ)، وَقِيلَ: معنى (يُبْلِسُ) أي يُفتَضَحُ، وَقِيلَ: معناهُ: يندَمُون، وَقِيْلَ: الْمُبْلِسُ الساكتُ المنقطع عن حجَّته الآيسُ مِن أن يهتدِي إليها، قال الشاعرُ[1]:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسَا قَالَ: نَعَمْ أعْرِفُهُ وأبْلَسَا

والْمُجرمون هم الْمُشركُونَ. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ ﴾ ؛ أي لَم يكن للكفار مِمَّنْ أشركُوه في العبادةِ شفعاء يَشْفَعُوا لَهم إلى اللهِ، ﴿ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يَتَبرَّؤُنَ منها ويتبرَّؤُنَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وَاذْكُرْ (يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتفرَّقُون) الخلائقُ في طريقِ الجنَّة، وطريقِ النَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار فلا يَجتمِعُونَ أبَداً.

وقال الحسنُ: (إنْ كَانُواْ اجْتَمَعُواْ فِي الدُّنْيَا لَيَفْتَرِقُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ هَؤُلاَءِ فِي عِلِّيِّينَ، وَهَؤُلاَءِ فِي أسْفَلِ سَافِلِيْنَ)[2]، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي في الجنَّة ينعَّمُون ويُكرَمُونَ بالتحف ويُسَرُّونَ.

والْحَبْرَةُ السُّرُورُ. وَقِيْلَ: الْحَبْرَةُ كلُّ نِعْمَةٍ حسنةٍ، والتَّحبيرُ التحسينُ. وسُمِّيَ العَالِمُ حَبْراً لتَخَلُّقِهِ بأحسَنِ أخلاق المؤمنين، ويسمَّى الْمِدَادُ حِبْراً لأنه تُحْسَنُ به الأوراقُ، وَقِيلَ: معنى الآيةِ: فَهُمْ فِي رِيَاضِ الجنَّةِ يَتلَذذُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ، وكذبوا بالبعث بعد الموت،﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يُحضَرون في العذاب، ويُحبَسُونَ.

---

(١) الشاعر هو العجاج، ومعنى الْمُكْرَس: الذي صار فيه الكرس، وهو الأبوال والأبعار المكان الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت، فركب بعضُهُ بعضاً. وينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٤٧٥) بأسانيد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي فصَلُّوا للهِ، علَى تأويل: فَسبحُوا للهِ، قال ابنُ عبَّاس: (جَمعَتْ هَذِهِ الآيَةُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَمَوَاقِيْتِهَا، فَوَقْتُ الْمَسَاءِ يُصَلَّى فِيْهِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، (وَحِيْنَ تُصْبحُونَ): صَلاَةُ الْفَجْرِ، (وَعَشِيّاً): الْعَصْرُ، (وَحِيْنَ تُظْهِرُونَ) الظُّهْرُ)[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) أي يحمدُه أهلُ السَّموات وأهلِ الأرضِ، ويصلُّون له ويسجُدون. وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَالَ: (سُبْحَانَ اللهِ حِيْنَ تُمْسُونَ وَحِيْنَ تُصْبحُونَ...) إلى قوله تعالى: (وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ) وآخِرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ، كَتَبَ اللهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ عَدَدَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَقَطْرِ الْمَطَرِ، وَعَدَدَ وَرَق الشَّجَرِ، وَعَدَدَ نَبَاتِ الأَرْضِ. وَإذا مَاتَ أجْرَى اللهُ لَهُ بكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ فِي قَبْرِهِ][2].

وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَكْتَالَ لَهُ بالْقَفِيْزِ الأَوْفَى فَلْيَقُلْ: (فَسُبْحَانَ اللهِ حِيْنَ تُمْسُونَ وَحِيْنَ تُصْبحُونَ...) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ، سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...) إلَى آخِرِ السُّورَةِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ؛ أي الإنسانَ الحيَّ من النُّطفة الميتةِ، ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ، ويخرجُ النطفةَ وهي ميتةٌ من الإنسان الحيِّ، ويقالُ: يخرجُ الفرخَ من البيضةِ، والبيضةَ من الفرخِ ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، بإخراجِ الزُّروعِ منها، ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ؛ أي بعدَ أن كانت لا تُنبتُ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ، مِن قبورِكم يومَ القيامةِ إلى الْمَحْشَرِ، فإنَّ بعثَكم بمنْزِلة ابتداءِ خَلْقِكم، وهما في قدرةِ اللهِ تستويان. قرأ حمزةُ: (تَخْرُجُونَ) بفتحِ التَّاءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٢٦١).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٢٩٨ بإسناد ضعيف.

(٣)أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٢٩٨، عن أنس، وفي إسناده بشر بن الحسين، وهو ساقط).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي من دلائل قُدرتهِ وعلاماتِ توحيده أنْ خلقَ أصلكم من ترابٍ، يعني آدمَ، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ثُم إذا أنتم من لَحم ودم تنتشرونَ؛ أي تتفرَّقون في حوائجِكم، وتنبسطونَ في الأرضِ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ ؛ أي من علاماتِ توحيده وقُدرته أنْ خلقَ لكم من جنسِكم نساءً لتطمئنُّوا إليها، ولَم يجعلهنَّ من الجنِّ، ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ؛ أي جعلَ بين الزَّوجين مودَّةً ورحمةً، فيما يتراحَمان ويتوادَّان، وما مِن شيءٍ[1] أحبُّ إلى أحدِهما من الآخرِ من غيرِ رَحِمٍ بينهما، حتى أنَّ كثيراً مِن الناس يهجرُ عشيرتَهُ بسبب زوجتهِ، وكذلك مِن النِّساءِ من تَهجرُ عشيرتَها بسبب زوجِها.

والمعنَى: من دلالةِ توحيدِ الله وقدرته أنْ خلقَ من نُطفةِ الرِّجال ذُكوراً وإناثاً؛ ليسكُنَ الذكورُ إلى الإناثِ، والنُّطَفُ عن صفةٍ واحدة، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ في عظمةِ الله وقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، أي ومن علاماتِ توحيده خَلْقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من العجائب، ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ ، أي لُغاتِكمْ وأصواتِكم وصُوَرِكم والوانِكم، لأنَّ الخلقَ بين عربيٌّ وعجميٌّ وأسود وأحمر وأبيض، وهم وَلَدُ رجلٍ واحد وامرأةٍ واحدة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي للبرِّ والفاجرِ والإنسِ والجنِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي ومِن آياته كيفيَّةُ نومِكم، وكيفَ يغلبُ عليكم، وأين يأتِيكم، وكيف يزولُ عنكم فتطلبونَ معيشَتكم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ تقديرُ (وَابْتِغاؤُكمْ مِنْ فَضْلِهِ بالنَّهار) يعني تصرُّفكم في طلب المعيشة بالنَّهار، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ القُرآنَ؛ سَماعَ الاستدلالِ، والاعتبار، والتدبُّر.

---

(١) في المخطوط: (شرع) بدل (شيء) وهو تصحيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ؛ أي خوفاً للمسافر من الصَّواعق، وطَمَعاً للمُقيم في المطر وسقي الزَّرع، ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ؛ أي في البَرْق، وإنزال المطر وإحياءِ الأرض بعد قحطِها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ؛ يعني من غيرِ عَمَدٍ تحتَهُما، ولا علاقةَ فوقَهما بقدرةِ الله وتسكِينه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي ثُم إذا دعاكُم من القُبور عند النفخةِ الثَّانيةِ يدعُو إسرافيلَ بأمرهِ من صخرَةِ بيت المقدس: أيَّتُهَا الأجسادُ الباليةُ والعروق المتمزِّقة والشُّعورُ المتمرِّطة، ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ ؛ مِن قبوركم مُهْطِعِيْنَ إلى الدَّاعي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي هم عبيداً ومُلكاً، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦)﴾ ، أي كلٌّ له مُطيعون في الحياةِ والبقاء والموتِ والبعث، وإنَّ عَصَوْا في العبادةِ فَهُمْ منقادونَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يقْدِرون على الامتناعِ مِن شيءٍ يرادُ بهم من صحَّة ومرضٍ وغِنًى وفقرٍ وحياة وموتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ؛ أي هو الذي يبدأ الخلقَ مِن النطفةِ ثُم يُميتهُ فيصير تُراباً كما كانَ، ثُم يبعثهُ في الآخرةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ؛ أي الإعادةُ هَيِّنَةٌ عليه، وما شيءٌ عليه بعسيرٍ، وقد يذكر لفظ (يَفْعَلُ) بمعنى (فَعِيْلٌ) كقولهِ (اللهُ أكْبَرُ) بمعنى كبيرٍ، وكذلك أهوَنُ عليه أو هيِّنٌ عليه. قال الفرزدقُ(١):

لَعَمْـرُكَ مَـا أَدْري وَإِنِّـي لأَوْجَـلُ ... عَلَـى أَيِّنَـا تَعْـدُو الْمَنِيَّـةُ أَوَّلُ

---

(١) هكذا في المخطوط، ولعل الوهم من الناسخ، وإلاّ فالقائل: هو معن بن أوس المزني. كما في ذيل الأمالي لأبي علي القالي:ص٢١٨. وشرح البيت وإعرابه في خزانة الأدب الكبرى للبغدادي: ج ٣ ص٥٠٥-٥٠٦. وينظر: جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص٤٤.

يريدُ بقولهِ: لأَوْجَلُ؛ أي وَجِلٌ، وقالَ أيضاً[1]:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً قَوَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أي عزيزةٌ طويلةٌ. وإنَّما قِيْلَ على هذا التأويلِ؛ لأنه لا يجوزُ أن يكون بعضُ الأشياءِ على الله أهْوَنُ من بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له الصِّفَةُ العُليا وهي القدرةُ التي لا يجري عليها العجزُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي القاهرُ لكلِّ شيء، الْحَكِيْمُ في جميعِ أفعاله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي وَصَفَ لكم أيُّها المشركونَ مَثَلاً مِن أنفسِكم، وبيَّن لكم ذلك الْمَثَلَ من أنفسِكم، ثُم بَيَّنَهُ فقال: ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ، أي هل لكم من عبيدِكم وإمائكم مِن شركاءِ فيما رزقناكم من الأموالِ؛ أي هل يُشاركونكم في أموالِكم فتكونوا أنتم مع عبيدِكم سواءٌ فيما أعطيناكم، ﴿ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، أي تخافُونَ عبيدَكم أنْ يُقاسِموكم في مالِكم كما تخافونَ نساءكم وأقاربكم أن يورثوكم بعدَكم، أو تخافُوا لائمةَ عبيدِكم إذا لَم تعطُوهم حقَّهم، كما تخافون لأَئِمَةَ بعضِكم بعضاً من الأقارب والشُّركاء إذا لَم يؤدُّوا حقَّهم إليهم.

قالوا: لاَ! فقال: أفَتَرْضَوْنَ للهِ تعالى ما لا ترضَونَ لأنفُسِكم، تُشركون عبيدَ الله في مُلكهِ، وقد خلقَهم، ولا تشركون عبيدَكم فيما رزقَكم اللهُ وأنتم لَم تخلقُوهم، وتجعلونَ الْخَوْفَ من عبيدِ الله كالخوفِ من الله إذ تعبدُونَهم كعبادةِ الله تعالى، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يبيِّنُ الآياتِ واحدةً بعد واحدةٍ ليكون ذلك أقربَ إلى الفهمِ وواقع في القلب.

ومعنى (أنْفُسَكُمْ) ها هنا: أمثالَكُمْ من الأحرار، كقوله ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ﴾[2]. ومعنى الآيةِ: كيفَ رضِيتم أن تكون آلِهتُكم التي تعبدونَها لِي شركاءَ

---

(١) البيت للفرزدق كما في جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص٤٥. وينظر: الديوان، طبعة القاهرة: ص٧١٤.
(٢) الحجرات / ١١ .

وأنتُم عبيدي وأنا مَالِكُهم جميعاً، فكما لا يجوزُ استواءُ المملوكِ مع سيِّده، كذلك لا يجوزُ استواءُ المخلوق مع خالقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي ليس لَهم في الإشراكِ شبهةٌ من حيث الحجةُ، ولكنَّهم يُشركون باللهِ بناءً على الجهل وهوَى النفس، ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ ؛ أي لا هاديَ لِمن أضلَّهُ اللهُ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾ ؛ أي ما لَهم من مَانِعين من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ أي فأقِمْ يا مُحَمَّدُ على دِين الإسلامِ، وقوله (حَنيفاً) أي مائِلاً عن كلِّ دينٍ إلاَّ الإسلام، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي اتَّبعْ دِينَ اللهِ، والفطرةُ: الْمِلَّةُ؛ وهي الإسلامُ والتوحيدُ، ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي خَلَقَ اللهُ المؤمنين عليها، وقد وَرَدَ في الحديثِ: [كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ] إلى آخرِ الحديث(١).

وانتصبَ قولهُ (فِطْرَةَ اللهِ) على الإغراءِ، وَقِيْلَ: على معنى: اتَّبِعْ فطرةَ اللهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي لا تغييرَ لِدينِ اللهِ الذي أمرَ الناسَ بالثَّباتِ عليهِ، وهو نفيٌ معناه النهيُ؛ أي لا تُبدِّلُوا دينَ اللهِ الذي هو التوحيدُ بالشِّركِ. وقولهُ تعالى: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ يعني التوحيدَ هو الدينُ المستقيم، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّةَ، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ ؛ توحيدَ اللهِ ودِينَ الإسلامِ هو الحقُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ﴾ ؛ أي أقِيمُوا وجُوهَكم راجعينَ إلى اللهِ في كلِّ ما أمَرَكم به، لا تَخرجُون عن شيءٍ من أوامرهِ، وهذا لأنَّ الخطابَ في أوَّل هذه الآياتِ للنبيِّ ﷺ بقولهِ (فَأَقِمْ وَجْهَكَ)، والمرادُ به أمتَهُ، كما في قولهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ﴾(٢) فكأنَّهُ قالَ: أقِيمُوا وجُوهَكم مُنِيْبِيْنَ؛ أي رَاجِعين إلى أوامرِهِ، وقولهُ تعالى (وَاتَّقُوهُ) أي اتَّقُوا مُخالَفتَهُ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١ ص٢٨٤: الحديث (٨٢٦-٨٣٥) بأسانيد وألفاظ.
(٢) الطلاق / ١ .

﴿الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ ؛ أي زَايَلُوا دِينَهم الذي أمِرُوا بالثبات عليه.

ومَن قرأ (فَرَّقُوا دِينَهُمْ) فمعناهُ: صَارُوا فِرَقاً، وذلكَ معنى قولِهِ: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾، أي صارُوا جماعةً، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي كلُّ جماعةٍ اختارَتْ دِيناً مثل اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الْمِلَلِ، كلُّ أهلِ دِينٍ يفرحون بما عندَهم من الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم﴾ ؛ أي إذا أصابَ الناسَ شدَّةٌ وبَلِيَّةٌ وقحطٌ وغلاءٌ يعني كفَّارَ مكَّة، دَعَوا ربَّهم لدفعِ الشِّدة، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ؛ أي رَاجِعين إليه، مُنقَطِعين من الْخَلْقِ، لا يَلجَأُونَ في شَدائدِهم إلى أوثانِهم، ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ ؛ أذهبَ عنهُم تلكَ الشدَّةَ و﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ ؛ أي أعطَاهم من عندِهِ المطَرَ، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي يَعُودُونَ إلى الشِّركِ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ؛ فيبدِّلُوا الشُّكرَ كُفراً، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ ؛ أي تلَذذُوا في الدُّنيا، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾، مَاذا ينْزِلُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾، أي أمْ أنزَلنا على هؤلاءِ حُجَّةً وبرهاناً وكِتاباً من السَّماء، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾، يشهدُ وينطقُ بأنَّ اللهَ أمَرَهم بما يفعلون. وهنا استفهامُ إنكار؛ أي ليسَ الأمرُ على هذا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ ؛ أي إذا أذقْناهم نعمةً استَبشَرُوا بها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ؛ شِدَّةٌ ومِحنَةٌ وبليَّةٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ في الشِّركِ من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ أي إذا هم يَيْأسُونَ من رحمةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ؛ أي ويُضيِّقُ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ ؛ أي في البَسْطِ والتَّقتيرِ، ﴿لَآيَاتٍ﴾ ؛ دالَّةٍ على التوحيدِ، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ؛ أي أعْطِ ذا القُربى في الرَّحِم حقَّهُ من الصِّلةِ والبرِّ، وَ أعْطِ ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ ؛ الذي يطوفُ على الأبواب حقَّهُ أيضاً، وهو التَّصدُّقُ عليهِ، وَ أعطِ ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ النازل بكَ حَقَّهُ؛ أي ضيافتَهُ، يعني أكْرِم الضَّيْفَ النازلَ بك، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ ؛ أي الذي ذكرتُ مِن الصِّلةِ والإعطاء والضِّيافة خيرٌ، ﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني رضَا اللهِ؛ أي إعطاءُ الْحُرِّ أفضلُ من الإمسَاكِ ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي الفائزونَ السُّعداءُ الباقون في الجنَّة، ومَن أعطَى أحَداً لا يريدُ به وجهَ اللهِ ذهبَ مالهُ مِن غير أن يحصلَ على شيءٍ، فلذلك قالَ: (يُرِيْدُونَ وَجْهَ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما تعاطيتُم مِن عقدِ الرِّبَا رجاءَ أن تزيدُوا أموالَكم فلا يزيدُ في حُكْمِ اللهِ، وعلى الآخذِ أن يَرُدَّهُ على المأخوذِ منهُ، قالَ اللهُ تَعَالَى:﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾[1].

قرأ ابنُ كثيرٍ (أَتَيْتُمْ) مقصوراً غيرَ ممدودٍ. وقولهُ تعالى (لِيَرْبُوَا)، قرأ الحسنُ ونافع: (لِتُرْبُو) بتاءٍ مضمومةٍ وجزمِ الواو على الخطاب؛ أي لِتُرْبُو أنتُم، وقرأ الباقونَ (لِيَرْبُوَا) بياءٍ مفتوحة ونصب الواو، وجعلوا الفعلَ للرِّبَا[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما أعطيتُم من صدقةٍ تريدون بها رضَا اللهِ، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ الذين يُضَاعَفُ لَهم في العاجلِ والآجلِ، يقالُ: رجلٌ مُضْعِفٌ؛ أي ذُو أضْعَافٍ كما يقالُ: رجلٌ مُقَوِّي ذو قوَّةٍ، وموسِرٌ؛ أي صاحبُ يَسَارٍ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً): (الرِّبَا هَا هُنَا هُوَ هِبَةُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ يُرِيْدُ أنْ يُثَابَ أفْضَلَ مِنْهُ)[3]. وقال السديُّ: (هُوَ الْهَدِيَّةُ يُهْدِيْهَا الرَّجُلُ لأَخِيْهِ يَطْلُبُ الْمُجَازَاةَ[4]، فَإنَّ ذلكَ لاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ، وَلاَ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ

(١) البقرة / ٢٧٦ . (٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٣٢٠).

(٤) في المخطوط: (المساقاة) والمناسب ما أثبتناه.

صَاحِبُهُ وَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ)، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ دَفْعُ الإنْسَانِ الشَّيْءَ لِيُعَوَّضَ مَا هُوَ أكْبَرُ مِنْهُ، وَذلِكَ لَيْسَ بحَرَامٍ وَلَكِنَّهُ لاَ ثَوَابَ فِيْهِ؛ لأنَّ الَّذِي يُهْدِيْهِ يَسْتَدْعِي مَا هُوَ أكْثَرُ مِنْهُ، وَإنَّمَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ هُوَ الْعَطِيَّةُ الَّتِي لاَ يُطْلَبُ بهَا الْمُكَافَأةُ، وَلاَ يُرَادُ بهَا إلاَّ رضَا وَجْهِ اللهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾؛ أي خلقَكم في بُطون أمَّهاتكم ثُم أخرجَكم، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾؛ بعد انقضاءِ آجالِكم، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾؛ بعدَ الموتِ، ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾؛ أي قُحِطَ المطرُ ونقُصَتِ الغلاَّتُ وذهبَتِ البركةُ في البرِّ والبحرِ؛ أي أجدبَ الْبَرُّ وانقطعت مادَّةُ البحرِ، ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾؛ أي بشُؤْمِ ذُنوبهم ومعاصيهم، النَّاسُ كفَّارُ مكَّةَ، ﴿ لِيُذِيقَهُمْ ﴾؛ اللهُ بالجوعِ في السِّنين السبعِ، يعني ﴿ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ ﴾؛ أي جزاؤهُ ليكونَ عقوبةً معجَّلةً، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ من الكفرِ إلى الإيْمانِ، ومن المعصيةِ إلى الطاعة، فيكشفُ الله عنهم الشدَّةَ. وفي هذا تَنْبيهٌ على أنَّ الله تعالى إنَّما يقضي بالْجُدُوبَةِ ونقصِ الثَّمراتِ والنباتِ لُطفاً منه في رجوعِ الخلقِ عن المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾؛ أي قُلْ لأهلِ مكَّةَ سافِرُوا في الأرضِ، ﴿ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾، أي كيفَ صارَ إجرامُ، ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي انظرُوا إلى ديار عادٍ وثَمُودَ وقومِ لُوطٍ لِيَدُلَّكُمْ ذلك على أنهُ لاَ ينبغِي لأحدٍ أن يَكْفُرَ باللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾؛ أي أقِمْ قَصْدَكَ وعملَكَ، واجعل جِهتَكَ اتِّباعَ الدِّين القيِّمِ وهو الإسلامُ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه، واعمَلْ به أنتَ ومَن تبعَكَ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾؛ يعني يومَ القيامةِ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي يومَ القيامةِ يتفرَّقون بعدَ الحساب إلى الجنَّة والنار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾؛ أي ضَرَرُ كُفْرِهِ، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي يُطأُونَ لأنفسهم منازلَهم في الجنةِ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ ثوابَهم، ثم يزيدَهم ﴿ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي يُثِيبَهُمْ أكثرَ مِن أعمالِهم، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يُكرِمُهم ولا يُثيبهم ولا يرضَى عنهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ ؛ أي مِـن علامـاتِ توحيده إرسالهُ الرياحَ للبشارةِ بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ يعني الغيثَ والخِصْبَ، ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾ ؛ أي السفنُ تجري في البحرِ بتلكَ الرِّيـاحِ، ﴿ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ أي ولتَسْلُكوا في البحرِ على السُّفنِ للتجارةِ وطلب الرزقِ بهذه الرياح ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدُونه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالدَّلالاتِ الواضحاتِ فكذبُوا بها، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ ؛ أي عذبنا الذيـن كذبُوهم، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي كان واجِباً علينا إنْجاءُ المؤمنين مع الرُّسُلِ من عذاب الأُمَمِ، وفي هذا تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بالظَّفَرِ والنصرِ على مَن كذبَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ؛ أي تُزْعِجُهُ مِن حيث هـو، وذلـك أنَّ اللهَ يُحْدِثُ السَّحابَ عُقيبَ الرياح فترفعـهُ الريـاحُ في الهـواءِ، ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ أي قِطَعاً بعضُـها فـوق بعـضٍ، ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ يعـني المطـرَ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ ؛ أي مِـن وَسَـطِهِ إلى قـومٍ دونَ قـومٍ ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ ﴾ ؛ بذلـك المطـر، ﴿ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ يفرحُـون بـالمطر، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ ؛ المطرُ ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي يائسين مـن ذلـك، كـرَّرَهُ للتـأكيدِ[1]، والمُبْلِسُ هو الآيسُ القانِطُ.

---

(١) أي أعاد قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيداً. وفي معالم التنزيل: ص١٠٠٩؛ قـال البغـوي: (وقيـل: الأولى ترجع إلى إنزال المطر، والثانية إلى إنشاء السحاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، الخطابُ للنبيِّ ﷺ وغيرِهِ. وآثارُ الرحمةِ هي أنواعُ النَّباتِ الذي ينبتُ من المطرِ من بين أخضرِ وأحمرِ وغيرِ ذلك من الألوان.

وقولُهُ (كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، كيف يجعلُ الأرضَ مُخْضَرَّةً بعد يُبْسِهَا، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾، أي الذي فعَلَ ذلك هو الذي يُحيي الموتى للنُّشور، فإنه كما يعيدُ الشجرَ الذي ظَهَرَ يُبْسُهُ، ويعيدُ فيه الْخُضْرَةَ والنورَ والثمرةَ، كذلك يُحيي الموتى، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ من الموتِ والبعثِ قديرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾، ولئِنْ أرسلْنا ريحاً حارَّةً أو باردةً فأيبَسَتْ زُروعَهم، ورأوُا الزرعَ مُصْفَرّاً بعد خُضرتِهِ، ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾، لصَارُوا بعد اصفرار النَّبتِ يَجْحَدُونَ ما سَلَفَ من النعمةِ، يعني أنَّهم يفرحون عند الخصب، وإذا استبطأُوا الخصبَ والرزق جَزِعُوا فكَفَرُوا بالنِّعَم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؛ يعني الكفارَ لا يُسمِعُ، والأعمالُ الذي لا يُبصِرون، ولذلك قال: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ ﴾؛ أي لا تقدرُ أن تُجْبِرَهم على الْهُدَى، وإنَّما بُعِثْتَ داعياً ومُبَلِّغاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾؛ أي إلاَّ من يُصَدِّقُ بكِتَابنَا، ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ أي هم الذين يَسْتَبْدِلُونَ به فهم مُخلِصُونَ مُنقَادُونَ لأمرِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾؛ أي مِن نطفةٍ ضَعيفةٍ في بُطون الأمَّهَاتِ، ثُم أطْفَالاً لا يَملكون لأنفسِهم نَفْعاً ولا ضرّاً، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾، ثُم جعلَكم أقوياءَ بما أعطاكم مِن العقلِ والاستطاعة والهدايةِ والتصرُّف في اختلاف المنافعِ ودفعِ المضارِّ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾؛ قُوَّةِ الشَّباب، ﴿ ضَعْفًا ﴾؛ عند الكبر والهرم، ﴿ وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾؛ مِن ضعفٍ وقوة وشَيبةٍ وشَبابٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ أي العَلِيْمُ بخلقهِ القادرُ على تَحويلِهم من حالٍ إلى حال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ؛ أي تقومُ السَّاعة، يحلِفُ المشركون ما لَبثُوا في القبور غيرَ ساعةٍ واحدة. وَقِيْلَ: ما لَبثُوا في الدُّنيا غيرَ ساعةٍ يَستَقِلُّون في جنب أيَّام الآخرةِ، ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ ﴾ ؛ أي هكذا كانوا يَكْذِبُونَ في الدُّنيا بجهلهم وغفلتِهم كما كذبُوا في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ أرادَ بالذينَ أُوتوا العلمَ: الملائكة والأنبياء والمؤمنونَ، يقولون للكفَّار بعدَ ما أقْسَمُوا: لقد لَبثْتُمْ فيما كَتَبَ اللهُ لكم من اللُّبثِ إلى يوم البعث، وَقِيْلَ: في حُكْمِ اللهِ، وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ تقديرهُ: وقال الذين أوتُوا العلمَ في كتاب الله، وهم الذين يعلمونَ كتابَ اللهِ. وقولهُ: ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ أي يوم الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدُّنيا، وتكذِّبون بهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ ﴾ ؛ وقوعَهُ في الدُّنيا فلا ينفعُكم العلمُ به الآنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ؛ أي اعتذارُهم من الذُّنوب إن اعتذروا، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧ ﴾ ؛ أي لا يُجَابُونَ إلى ما يطلُبون من الرَّجعةِ إلى الدُّنيا، فإنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[1]. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لاَ يُقْبَلُ مِنَ الَّذِيْنَ أشْرَكُوا عُذْرٌ وَلاَ عِتَابٌ وَلاَ تَوْبَةٌ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ؛ أي بَيَّنَّا لَهم في القُرْآنِ من كلِّ صفةٍ، ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ ؛ مثلَ العصَا واليدِ وبكلِّ حُجَّةٍ، ﴿ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ ﴾ ؛ أي ما أنتم إلاّ على الباطلِ يا مُحَمَّدُ وأصحابُكَ!.

---

(١) السجدة / ١٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ أي يَخْتِمُ على قلوب الذين لا يعلمُون توحيدَ اللهِ، فكلُّ مَن لا يعلمُ توحيدَ الله فذلك لأجلِ ما طَبَعَ اللهُ على قلبهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾؛ أي اصْبِرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الرِّسالة والوحي، وعلى مَا يلحقُكَ من أذِيَّةِ الكفَّار، فإنَّ ما وَعَدَ اللهُ من النَّصر وإظهار دِينِ الإسلام صدقٌ كائن يأتيكَ في حينهِ. والمعنى: (فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) بنصر دِينِكَ وإظهاركَ على عَدُوِّكَ حقٌّ فلا يَحْمِلَنَّكَ تكذيبُ الكفار الذين لا يَسْتَيْقِنُونَ بأمرِ الله على الحقِّ، وكُنْ حَلِيماً صَبُوراً.

وقولُه: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، لا تَعْجَلْ بالدُّعاءِ عليهم فيما يستعجِلون مِن العذاب لقولِهم: ﴿إئْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ﴾[1]، و﴿مَتَى هَذا الْوَعْدُ﴾[2]، و﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[3]. ومعنى الآيةِ: (وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّ) رأيَكَ وحِلمَكَ يا مُحَمَّدُ (الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ)؛ بالبعثِ والحساب.

آخر تفسير سورة (**الروم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) العنكبوت / ٢٩.
(٢) سبأ / ٢٩، وغيرها.
(٣) ص / ١٦.

سُورَةُ لُقْمَان

سُورَةُ لُقْمَان مَكِّيَّةٌ أَلْفَانِ وَمِائَةٌ وَعَشْرَةُ أَحْرُفٍ، وَخَمْسُمِائَةٍ وَثَمَانٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي هذه السورةُ آياتُ الكتابِ الحكيم الذي وعدَكَ اللهُ أن يُنْزِلَهُ عليكَ.

وانتصبَ (هُدًى وَرَحْمَةً) على الحال. وقرأ حمزةُ بالرفعِ على الابتداء، وَقِيْلَ: على إضمار هُوَ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَعْنَى الآيَةِ: هُدًى مِنَ الضَّلاَلَةِ وَرَحْمَةً مِنَ الْعَذَابِ لِلْمُوَحِّدِيْنَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ) وما بعدَ هذا قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾؛ نزلت هذه الآيةُ وما بعدَها في النَّضرِ بن الحارثِ[1]، كان اشترَى كُتُباً فيها أخبارُ الأعاجمِ، ويحدِّثُ بها أهلَ مكَّة، ويتملَّقُ بها في المجالسِ، ويقولُ: إنَّ مُحَمَّداً يحدِّثُكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ، وأنا أحدِّثُكم أحاديثَ فارس والروم، وأقرأُ عليكم كما مُحَمَّدٌ يقرأُ عليكم أساطيرَ الأوَّلين، هو يأتيكم بكتابٍ فيه قصصُ الأممِ الماضيةِ، وأنا أتيتُ بمثلِهِ! وكانوا يستَمْلِحُون حديثَهُ، وكان إذا سَمِعَ شيئاً من القُرْآنِ يهزأُ به ويُعرِضُ

---

(١) قاله البيهقي في شعب الإيمان: باب في حفظ اللسان: فصل في ترك قراءة كتب الأعاجم: ج ٤ ص٣٠٥، وذكر الحديث، وفيه عن الكلبي عن أبي صالح، إسناده ضعيف. وذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٢.

عنهُ. فذلكَ قولهُ: ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ليصرفَ الناسَ عن دِين الله بلا علم، ومن قرأ (لِيَضِلَّ) بفتحِ الياء، فمعناهُ: ليتشاغَلَ بما يُلهيهِ، وليصير أمرهُ إلى الضَّلال والباطلِ.

ومعنى قولهِ تعالى (لَهْوَ الْحَدِيثِ) أي باطلُ الحديثِ، هذا قولُ الكلبيِّ ومقاتل، وَقِيلَ: المرادُ بلَهْو الحديثِ الغناءُ، وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: [لاَ يَحِلُّ تَعْلِيمُ الْمُغَنِّيَاتِ وَلاَ بَيْعُهُنَّ وَلاَ شِرَاؤُهُنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ مَا رَفَعَ رَجُلٌ قَطُّ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى إلاَّ ارْتَدَفَهُ شَيْطَانَانِ يَضْرِبَانِ بَأَرْجُلِهِمَا عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ حَتَّى يَسْكُتَ][١]، وهذا قولُ سعيدِ بن جُبير ومجاهد وابنِ مسعودٍ، قالوا: (هُوَ وَاللهِ الْغِنَاءُ، وَاشْتِرَاءُ الْمُغَنِّيَةِ وَالْمُغَنِّي بِالْمَالِ).

وقال ﷺ: [مَنْ مَلأَ مَسَامِعَهُ مِنْ غِنَاءٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ أنْ يَسْمَعَ أصْوَاتَ الرُّوحَانِيِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] قِيلَ: وَمَا الرُّوحَانِيُّونَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [أهْلُ الْجَنَّةِ][٢]، وعن إبراهيمَ النخعيِّ أنه قالَ: (الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ)[٣] وقال مكحولُ: (مَنِ اشْتَرَى جَارِيَةً ضَرَّابَةً لِيُمْسِكَهَا لِغِنَائِهَا وَضَرْبِها مُقِيماً عَلَيْهِ حَتَّى يَمُوتَ لَمْ أُصَلِّ عَلَيْهِ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بغَيْرِ عِلْمٍ) أي أنه جاهلٌ فيما يفعلُ، لا يفعلهُ عن عِلْمٍ، (وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً) بالرفعِ عطفاً على (مَنْ يَشْتَرِي)، وبالنصب عطفاً على (لِيُضِلَّ)،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢١٣٥٨) بأسانيد وألفاظ عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ ... وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١١٩-١٢٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها وثقوا وضعفوا). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص١٩٨: الحديث (٧٨٠٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٢٢ قال: (فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف). وفي ج ٨ ص٢١٢: الحديث (٧٨٥٥ و٧٨٦٢)، وفيه علي هذا أيضاً.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٥٤؛ قال القرطبي: (أخرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول).

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٠٥؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا عن إبراهيم النخعي).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١١.

والكتابةُ المذكورة تعودُ إمَّا إلى الآياتِ المذكورةِ في أوَّل السورةِ، وإما الى (سَـبيْلِ اللهِ)، والسبيلُ يُؤنَّثُ لقولهِ ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ ؛ أي أعرَضَ عن قَبولِها متعظّماً عن الإيْمان بها، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ؛ أي ثُقْلاً يمنعهُ عـن السَّماعِ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ ؛ وَجيْعٍ في الدُّنيا قبل أن يَصِلَ إلى الآخرةِ، وهو ما رُوي: (أنَّهُ أخِذَ أسيْرا يَوْمَ بَدْرٍ فَقُتِلَ صَبْرا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ ؛ ظاهرُ المعنَى.

وقولهُ تعـالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ؛ أي جِبَـالاً ثُـم أرْسِيَتِ أوتـادٌ لَـها لِئَـلاَّ تَميـدَ بأهلِـها، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ؛ أي فرَّقَ الـدوابَّ الكثيرةَ في الأرض، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ؛ يعـني المطرَ، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ ؛ أي مِن كلِّ نوعٍ حسَنٍ.

وقولهُ تعالَى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي هذا الذي ذكـرتُ لكـم مما تُعـاينُون خَلْقُ اللهِ، ﴿فَأَرُونِى﴾ ؛ أيُّها الكفارُ، ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ ؛ أيُّ شيءٍ خَلَقَهُ الذي تعبدونَ مِن دونهِ، فلم تَجِدُوا شَيئاً يشـيرونَ إليـهِ مـن خَلْـق غـيرِهِ، ولَـم يقدِرُوا علـى جـواب هـذا الكـلامِ، فقِيْـلَ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ؛ أي الكـافِرون، ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ؛ يعني العقلَ والعلم والعمـلَ بـه، والإصابةَ في الأمور. واتَّفقَ العلماءُ على أن لُقْمَانَ حكيماً[2]، ولَم يكن نَبيّاً إلاّ عكرمةُ

---

(١) يوسف / ١٠٨.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان الآثار عن مجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب في الآثـار: (٢١٣٨٥-٢١٣٩٤) بأن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً.

وحدَهُ فإنه قال: (كَانَ لُقْمَانُ نَبِيّاً)(١)، وقال بعضُهم: خُيِّرَ لقمانُ بين النبوَّة والحكمةِ فاختارَ الحكمةَ!(٢)

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: [حَقّاً أقُولُهُ: لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيّاً، وَلَكِنْ عَبْداً صَمْصَامَةً، كَثِيْرَ التَّفَكُّرِ، حَسَنَ الْيَقِيْنِ، أحَبَّ اللهَ فَأحَبَّهُ، فَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ](٣). ورويَ أنه كان تَتَلْمَذَ لألفِ نبيٍّ عليهم السَّلام.

واختلفُوا في حِرفتهِ، فقالَ الأكثرُون: كان نَجَّاراً، ويقالُ: كان خيَّاطاً، ويقالُ: كان رَاعياً، ويروى: كان عَبْداً حَبَشِيّاً غليظَ الشَّفتين مشقوقَ الرِّجلين.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (مَرَّ رَجُلٌ بِلُقْمَانَ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ وَهُوَ يَعِظُهُمْ، فَقَالَ: ألَسْتَ الْعَبْدَ الأَسْوَدَ الَّذِي كُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ؟! قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا بَلَغَ بِكَ إلَى مَا أرَى؟ قَالَ: صِدْقُ الْحَدِيْثِ؛ وَأدَاءُ الأَمَانَةِ؛ وَتَرْكُ مَا لاَ يَعْنِيْنِي)(٤).

وعن أنسٍ: (أنَّ لُقْمَانَ كَانَ عَبْدَ دَاوُدَ عليه السلام وَهُوَ يَسْرُدُ دِرْعاً، فَجَعَلَ لُقْمَانَ يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَرَى، وَيُرِيْدُ أنْ يَسْألَهُ فَمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ مِنَ السُّؤَالِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا، جَعَلَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذَا وَنِعْمَ حَامِلُهُ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيْلٌ فَاعِلُهُ)(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٥). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٣٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٣) عن قتادة.

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٣٨٤). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٠، وقال: (ذكره ابن عطية). وهو كما قال: في المحرر الوجيز: ص١٤٨٥. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني كما في الدر المنثور: ج٦ ص٥١٠ عن أبي الدرداء. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٣٧).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير عن عمر بن قيس ﷺ ... وذكره).

(٥) في الدر المنثور: ج٦ ص٥١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه العسكري في الأمثال، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في حفظ اللسان: الحديث (٥٠٢٦).

وقال عكرمةُ: (كَانَ لُقْمَانُ مِنْ أهْوَنِ مَمَالِيْكِ سَيِّدِهِ، فَبَعَثَ مَوْلاَهُ مَعَ عَبِيْدٍ لَهُ إلَى بُسْتَانٍ لِمَوْلاَهُمْ يَأْتُونَهُ مِنْ ثَمرِهِ، فَجَاءُوا وَلَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، وَقَدْ أكَلُوا الثَّمَرَةَ، وَأحَالُوا عَلَى لُقْمَانَ بذَلِكَ! فَقَالَ لُقْمَانُ لِمَوْلاَهُ: إنَّ ذا الْوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ عِنْدَ اللهِ أمِيْناً، فَاسْقِنِي وَإيَّاهُمْ مَاءً حَمِيْماً، فَسَقَاهُمْ فَجَعَلُوا يَتَقَيَّؤُوْنَ الْفَاكِهَةَ، وَجَعَلَ لُقْمَانُ يَتَقَيَّأُ مَاءً بَحْتاً، فَعَرَفَ صِدْقَهُ وَكَذِبَهُمْ).

قال: (وَأوَّلُ مَا رُوِيَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنَّهُ جَاءَ مَعَ مَوْلاَهُ فَدَخَلَ الْمَخْدَعَ، فَأطَالَ الْجُلُوسَ فِيْهِ، فَنَادَاهُ لُقْمَانُ: إنَّ طُولَ الْجُلُوسِ عَلَى الْحَاجَةِ يَتَجَمَّعُ مِنْهُ الْكَدَرُ، وَيُورِثُ الْبَاسُورَ، وَتَصْعَدُ الْحَرَارَةُ إلَى الرَّأسِ، فَاجْلُسْ هُوَيْناً وَقُمْ هُوَيْناً، قَالَ: فَخَرَجَ وَكَتَبَ حِكْمَتَهُ عَلَى بَابِ الْحَشِّ[(١)]).

ومعنى الآيةِ (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ) عِلْمَ التوحيدِ والمواعظِ والفقهِ والعقلِ والإصابة في القولِ، وألْهَمناهُ أن يشكرَ اللهَ على ما أعطاهُ من الحكمةِ.

ومعنى قولهِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ؛ أي قُلنا لـه: اشْكُرِ اللهَ فيما أعطاكَ من الحكمةِ، ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ؛ أي مَن يشكرُ نِعمَ اللهِ فإن منفعةَ شُكرهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ؛ فلم يُوحِّدْ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ ؛ عن شُكرهِ، ﴿حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ ؛ يحمَدهُ الشاكرُ ويثيبه على شُكرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ؛ أي واذكُرْ: إذْ قالَ لُقمانُ لابْنِهِ وهُوَ يعِظُهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ؛ أحَداً في العبادةِ، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ؛ عندَ اللهِ؛ أي ليس مِن الذُّنوب شيءٌ أعظمُ من الشِّركِ باللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الحيُّ المميتُ الخالقُ الرازقُ، فإذا أشركتَ به أحداً غيرَهُ فقد جعلتَ النعمةَ لغيرِ ربها، وذلك من أعظمِ الظُّلمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ؛ نزل في سَعدِ بن أبي وقَّاص؛ لَمَّا آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ حلَفَتْ أمُّهُ لا تَذوقُ طَعاماً ولاَ شَراباً ولاَ يُظِلُّها شيءٌ حتَّى يَرْجِعَ سَعدُ

---

(١) الْحَشُّ بفتح الحاء وضمها: البستان، وهو أيضاً الْمَخْرَجُ؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البستان. مختار الصحاح: ص١٣٧ (ح ش ش).

إلَى دِيْنِهِ، فَمَضَتْ عَلَى هَذَا أيَّاماً، فَبَلَغَ مِنْ أمْرِهَا إلَى أنْ تَدَاخَلَ بَعْضُ أسْنَانِهَا فِي بَعْضٍ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ سَعْدٌ: (لَوْ كَانَ لَهَا سَبْعُونَ نَفْساً فَخَرَجَتْ مَا ارْتَدَدْتُ عَنِ الإسْلاَمِ) فَفَتَحَ فَاهَا وَصَبَّ فِيهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ[(١)]. ومعنى (وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ) أي أمرناهُ ببرِّ والدَيه عطفاً عليهما.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ؛ أي ضَعْفاً على ضعفٍ، ومشقَّةً على مشقةٍ، كلَّما ازدادَ الولدُ في الرَّحمِ كِبَراً، ازدادت الأمُّ ضَعفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ؛ أي وفِطَامُهُ في انقضاءِ عامَين، وقدَّرَهُ بعامين بناءً على الأغلب، ولأنَّ الرَّضاع لا يستحقُّ بعد هذه المدَّة. والفِصَالُ هو الفِطَامُ، وهو أن يُفْصَلَ الولدُ عن الأمِّ كي لا يرضع. والمعنى بهذا ذكرُ مشقَّة الوالدةِ بإرضاعِ الولد عامَين. ورُوي عن يعقوب: (وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ) بغير ألفٍ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ؛ أي قُلنا له اشكُرْ لِي على خلْقِي إياكَ، وعلى إنعامِي عليكَ، واشكُرْ لوالديكَ على تربيَتِهما إياكَ. وقال مقاتلُ: (اشْكُرْ لِي إذْ هَدَيْتُكَ للإسْلاَمِ، وَلِوَالِدَيْكَ بمَا أوْلَيَاكَ مِنَ النِّعَمِ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي مصيرُكَ ومصيرُ والدَيك، وعن سُفيان بن عُيينةَ في قولِهِ: (أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) قال: (مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَقَدْ شَكَرَ اللهَ، وَمَنْ دَعَا لِلْوَالِدَيْنِ فِي إدْبَارِ الصَّلَوَاتِ فَقَدْ شَكَرَ لِلْوَالِدَيْنِ)[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٤٠٠-٢١٤٠٣). واختلفوا في سعد، هل هو سعد ابن مالك أم سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟ وفي الدر المنثور: ج٦ ص٥٢١؛ قال السيوطي: (أخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال: إن سعد بن أبي وقاص قال: ...) وذكر الحديث بطوله، وقد تقدم في العنكبوت.

(٢) في المحرر الوجيز: ص١٤٨٦؛ قال ابن عطية: (وقرأ الجمهور (وَفِصَالُهُ) وقرأ الحسن وأبو رجاء والجحدري ويعقوب: (وَفَصْلُهُ)). ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٤. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٤٤٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: ص١٤٨٦. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٦٥. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٤٤٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ ؛ أي أجْهَدَا عليكَ لتُشرِكَ بي جهلاً بغيرِ علمٍ فلاَ تُطِعْـهُمَا، فـإنَّ حقَّـهما وإنْ عَظُمَ فليس بأعظمَ من حقِّي.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ؛ قـال ﷺ: [حُسْـنُ الْمُصَاحَبَةِ أنْ تُطْعِمْهُمَا إذَا جَاعَا، وَتَكْسُوهُمَا إذَا عَرِيَا، وَعَاشِرْهُمَا عِشْرَةً جَمِيْلَةً][1]. ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ ؛ أي واتَّبع طريقَ مَن رجعَ إلَيَّ؛ أي مَنْ سَـلَكَ طريـقَ مُحَمَّدٍ ﷺ وأصحابهِ. والمعنى: واتَّبع دِينَ من أقبل إلى طَاعَتِي وهو النبيُّ ﷺ.

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: (يَعْنِي أبَـا بَكْـرٍ الصِّدِّيْـقَ ﷺ أنَّـهُ حِينَ أتَاهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ وَسَعِيْدُ بْنُ زَيْدٍ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَقَالُوا: يَا أبَا بَكْرٍ آمَنْتَ وَصَدَّقْتَ مُحَمَّداً ؟ قَالَ: نَعَـمْ، فَـأتَوا رَسُـولَ اللهِ ﷺ فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوا، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ لِسَعْدٍ: (وَاتَّبعْ سَبِيْلَ مَنْ أنَابَ إلَيَّ) يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيْقَ ﷺ)[2].

ويستدلُّ مِن قولهِ تعـالى (وَصَاحِبْـهُمَا فِـي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً) علـى أنَّ الابـنَ لا يستحقُّ القَوَدَ على أبيهِ، ولا يُحَدُّ الأبُ بقَذفَةِ الابنِ، ولا يحبـسُ الأبُ بديـنِ الابـنِ، لأن في إيجاب القَوَدِ والحدِّ والحبسِ له عليه ما يُنافِي مُصَاحبَتَهما.

وعن أبي يوسفَ: (أنَّ الْقَاضِي يَأْمُرُ الأَبَ بقَضَاءِ دَيْنِ الابْنِ، فَإنْ تَمَـرَّدَ حَبَسَـهُ لاسْتِخْفَافِ أمْرِهِ). وقال محمَّدُ بن الحسن: (يُحْبَسُ الأَبُ فِي نَفَقَةِ الابْنِ الصَّغِـيْرِ، وَلاَ يُحْبَسُ بالدَّيْنِ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِ؛ لأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُحْبَسْ فِي نَفَقَةِ الصَّغِيْرِ لَتَضَرَّرَ الْوَلَدُ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ ؛ أي مرجِعُكـم ومرجـعُ آبـائِكم، ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ. وقد تضمَّنـت هـذه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره البغوي في معـالم التـنزيل: ص١٠١٣. وفي المحرر الوجيز: ص١٤٨٦؛ قـال ابـن عطيـة: (وحكى النقاش...) وذكره. وينظر: أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٣.

الآيةُ النَّهيَ عن صُحبة الكفَّار والفُسَّاقِ، والترغيبَ في صُحبةِ الصالِحين لقولـهِ تعـالى (واتَّبعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ ابنَ لُقمان سألَ أباهُ فقال: أرأيـتَ الحبَّةَ التي تكونُ في قَعْرِ البحار؛ أيعلَمُها اللهُ؟ فأعلَمَهُ أنَّ اللهَ يعلمُ الحبَّةَ أينما كانت.

وَقِيْلَ: إنَّ ابنَ لُقمان قال لأبيهِ: يا أبَتِ! إنْ عَمِلْـتُ بالْخَطِيْئَـةِ حيـثُ لا يرانِـي أحدٌ، كيف يعلَمُها اللهُ؟ فقال لُقمان لابنهِ: (إنَّـها إنْ تَـكُ) يعـني إنَّ المعصيـةَ إن تَـكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فتكون في صَخرَةٍ التي تحتَ الأرضين السَّبع أو في السَّـموات أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ للجزاءِ عليها[1].

ومَن قرأ برفعِ (مِثْقَالُ) فتقديرُهُ: أن تَقَعَ مثقالُ حبَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾ ؛ أي قَـادِرٌ علـى الإتيـانِ بـها، خَبيرٌ بموضِعها، يُوصِلُها إلى صاحبها حيث كانَ. واللَّطِيْفُ: العالِمُ بكلِّ دقيقٍ وجَليل. ومعنى الآيةِ: أن اللهَ تعالى ضَرَبَ هذا مَثلاً لأعمال العبادِ، يعني أنه يأتِي بأعمالِهم يومَ القيامةِ، وإنْ كان العملُ الصالح في الصِّغَر بوزن حبَّة مِن خردل، فـاللهُ تعـالى يحفظـهُ ولا يخفَى عليه مكانهُ حتى يجازيه عليهِ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ ؛ أي أقِـمِ الصَّلاةَ التي افترضَها اللهُ عليكَ، وأمُـرْ بالطاعـةِ وانْـهَ عـن المعصيـةِ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ ؛ من الأذيَّةِ في الأمرِ بالمعروف والنَّهيِ عن المنكرِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾ ؛ أي الصَّبْرُ على ما أصابَكَ في ذات اللهِ مِن الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر مِن عِظَامِ الأمور. وَقِيْلَ: مِن حقِّ الأمور التي أمرَ اللهُ بها.

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١٣.

(٢) الزلزلة / ٧ و٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وأبو عمرو[1] وحمزةُ والكسائي وخلف (تُصَاعِرْ) بالألفِ، وقرأ الباقونَ (تُصَعِّرْ) بغيرِ ألف. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: لاَ تَتَكَبَّرْ فَتَحْقِرُكَ النَّاسُ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنْهُمْ بوَجْهِكَ إذَا كَلَّمُوكَ)، يقالُ: صَعَّرَ خَدُّكَ وَصَاعَرَ، إذا مَالَ وأعرضَ تكبُّراً. والمعنى: لا تَتَعَظَّمْ على خلق الله، ولا تُعرِضْ عنِ الناسِ تكبُّراً عليهم، بل يكونُ الفقيرُ والغنيُّ عندَكَ سواءٌ، ولا تَعْبَسْ في وجهِ أحدٍ مِن الناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ؛ أي ولا تَمْشِ في الأرضِ بالإعجَاب والبَطَرِ وَازْدِرَاءِ الناسِ، قال الحسنُ: (أنَّى لاَبْنِ آدَمَ الْكِبَرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَخْرَجِ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ ؟!).

وروي: أنَّ الْمُهَلَّبَ بْنَ أبي صُفْرَةَ مَرَّ عَلَى مُطَّرِفِ بْن عَبْدِاللهِ[2] وَهُوَ يَتَبَخْتَرُ فِي جُبَّةِ خَزٍّ، فَقَالَ:(هَذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغَضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ) فَقَالَ لَهُ الْمُهَلَّبُ: مَا تَعْرِفُنِي ؟! قَالَ: (بَلَى؛ أعْرِفُكَ، أوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَتُحْمَلُ بَيْنَ الْعُذْرَةِ) فَمَضَى الْمُهَلَّبُ وَتَرَكَ مِشْيَتَهُ تِلْكَ.

وروي: أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ مُحَمَّدِ[3] بْنِ وَاسِعٍ خَرَجَ يَوْماً يَتَمَشَّى، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: (مَنْ هَذَا ؟!) قَالُوا: هَذَا وَلَدُكَ عَبْدُاللهِ، قَالَ: ادْعُوهُ، فَجَاؤُا بهِ إلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ:(يَا

---

(١) في المخطوط: (أبو عمر) والصحيح ما أثبتناه.

(٢) هو مُطَّرفُ بنُ عبدالله بن الشخير. ينظر ترجمته في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ج ٢ ص١٩٨. قال أبو نعيم:(ومنهم المتعبد الشكير، مطرف بن عبدالله بن الشخير، كان لنفسه مذلاً ولذكر الله مجلاً). وقال في ص٢١٠:(أسند مطرف عن غير واحد من الصحابة).

(٣) مُحَمَّد بن واسع، ينظر: حلية الأولياء: ج ٢ ص٣٤٥؛ قال أبو نعيم: (ومنهم العامل الخاشع، والخامل الخاضع، أبو عبدالله مُحَمَّد بن واسع. كان لله عاملاً، وفي نفسه خاملاً) وأسند عن مالك بن دينار قال: (للأمراء قراء، وللأغنياء قراء، وإن مُحَمَّد بن واسع من قراء الرحمن). وفي ص٣٥٤؛ قال: (كان مُحَمَّد بن واسع عالماً واعياً، لا ناقلاً راوياً، وعى فأوعى، قليل الكلام والرواية، طويل الصيام والسعاية، روى عن أنس بن مالك ومطرف والحسن وابن سيرين وسالم وعبدالله بن الصامت وأبي بردة رضي الله تعالى عنهم).

بُنَيَّ! أتَدْري بكَم اشْتَرَيْتُ أمَّكَ؟ اشْتَرَيْتُهَا بثَلاثِمائةِ دِرْهَم، وأَبُوكَ لاَ كَثَّرَ اللهُ مِنْ مِثْلِهِ فِي النَّاسِ، أتَمْشِي هَذِهِ المِشْيَةَ ؟!)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ الاخْتِيَالُ: هو التَّبَخْتُرُ في المشي، والفَخُورُ: هو المُتَطَاولُ بذِكْرِ المناقب على السَّامعِ والافتخار عليه، وذلك مذمومٌ لأن المستحقَّ على نِعَمِ اللهِ شُكراً لا الْفَخْرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ ؛ أي تَوَاضَع(٢)ولا تتبختَر، وليكن مشيُكَ قَصْداً لا تبختُراً ولا إسراعاً. قال ﷺ: [سُرْعَةُ الْمَشْيِ تَذْهَبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ](٣) يقالُ: قَصَدَ فلانٌ في مشيتهِ إذا مشَى مُستوياً، وقال مقاتلُ: (لاَ تَخْتَلْ فِي مِشْيَتِكَ)، وقال عطاءُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أيْ امْشِ بالْوَقَار وَالسَّكِيْنَةِ) كقولهِ تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾(٤)، والمعنى: اقصِدْ في الْمَشْيِ، لا تعجَلْ ولا تَمشِ بالْهُوَيْنَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ؛ أي اخفِضْ صوتَكَ ولا ترفعْهُ على وجهِ انتهار النَّاس وإظهار الاستخفافِ بهم، وقال عطاءُ:(مَعْنَاهُ: اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إذَا دَعَوْتَ وَنَاجَيْتَ رَبَّكَ)، وكذلك وصيَّةُ الله تعالى في الإنجيلِ لعيسَى عليه السلام: مُرْ عِبَادِي يَخْفِضُوا أصْوَاتَهُم إذا دَعَونِي، فإنِّي أسمعُ وأعلَمُ ما في قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي أقبحُ الأصواتِ صوتُ الحمير؛ لأن أوَّلَهُ زفيرٌ وآخرهُ شهيقٌ. قال ابن زيدٍ: (لَوْ كَانَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ خَيْراً مَا جَعَلَهُ اللهُ لِلْحَمِيْرِ)(٥)، وعن أمِّ سعدٍ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص٣٥٠.

(٢) عن مجاهد، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٤٩). والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٢٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٢٩٠. ومن طريق أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١ ص٤٣٥: ترجمة (٤٢٠) محمَّد بن إبراهيم.

(٤) الفرقان / ٦٣ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٣٣). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٥٤).

اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ ثلاثَـةَ أصْـوَاتٍ: نَـهيْقُ الْحِمَـار، وَنُبَـاحُ الْكَلْـب، وَالدَّاعِيَـةُ بـالْوَيْل وَالْحَرْب]. وقال سُفيان: (صِيَاحُ كُلِّ شَيْءٍ تَسْـبيحُهُ اللهَ إلاَّ الْحِمَـارُ فَإنَّـهُ يَنْـهَقُ بـلاَ فَائِدَةٍ)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ألَمْ ترَوا أنَّ اللهَ خَلَقَ وذَلَّلَ لِمنافعِكم ولِمصَالحِكم ما في السَّـمواتِ مِـن الشَّـمسِ والقمر والنجـومِ والسَّحاب والمطَـرِ، وفي الأرضِ مِـن الأشـجار والأنـهَار والبحـار والدَّواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ ؛ أي أتَمَّ عليكم ووسَّـعَ لكم نِعَمَهُ (ظَاهِرَةً) من الْخَلْقِ الحسنِ وسلامةِ الأعضاء الظاهرة، (وبَاطِنَةً) من العقـلِ والفهمِ والفطنة والمعرفةِ بالله.

وَقِيْلَ: النعمةُ الظاهرة هي الإسلامُ، والباطنةُ ما يخفَى من الذُّنوب ويُسْـتَرُ مِـن العوراتِ[٢]. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ما يعلمُ الناس من حسنَاتِكَ، والباطنةُ ما لا يعلمون مِـن السيِّئات.

وقال الضحَّاك: (الظَّاهِرَةُ: حُسْنُ الصُّورَةِ وَامْتِـدَادُ الْقَامَـةِ وَتَسْـوِيَةُ الأَعْضَـاءِ، وَالْبَاطِنَةُ الْمَعْرِفَةُ). وَقِيْلَ: الظاهرةُ الإسلامُ وما أفْضَلَ عليكَ من الرِّزق، والباطنةُ مـا سَتَرَ من سوءِ عمَلِكَ.

وَقِيْلَ: الظاهرةُ نِعَمُ الدُّنيا، والباطنـةُ نِعَـمُ العُقبَـى[٣]. وَقِيْـلَ: الظـاهرةُ تسـويةُ الظواهرِ، والباطنةُ تصفيةُ السرائر. وَقِيْلَ: الظـاهرةُ الـرِّزْقُ الـذي يكتسـبُ، والباطنـةُ الرزقُ مِن حيث لا تحتسبُ. وَقِيْلَ: الظاهرةُ المدخل للغداءِ، والباطنة المخرجُ للأذى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٥٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٢٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابـن عبـاس رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا)، وقال: (أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الضحاك ﷺ).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤٨٨ من قول المحاسبي.

وَقِيْلَ: الظاهرةُ نِعْمَةٌ عليكَ بعد ما خرجتَ من بطنِ أمِّكَ، والباطنةُ نعمةٌ عليكَ وأنتَ في بطنِ أمِّكَ. وَقِيلَ: الظاهرةُ ألوانُ العطَايَا، والباطنـةُ غفـرانُ الخطايـا. وَقِيْـلَ: الظاهرةُ المالُ والأولاد، والباطنة الْهُدَى والإرشادُ. وَقِيْلَ: الظاهرة التوفيق للعبـادات، والباطنةُ الإخلاصُ من الْمُرَاءَاتِ. وَقِيلَ: الظاهرةُ ما أعطى من النَّعماءِ، والباطنـة مـا زوى من أنواعِ البلاء. وَقِيلَ: الظاهرةُ إنزالُ القَطْرِ والأمطار، والباطنةُ إحيـاءُ الأقطـار والأنصار. وَقِيْلَ: الظاهرةُ ذِكْرُ اللسان، والباطنةُ ذكر الجِنَـانِ. وَقِيْـلَ: الظـاهرةُ ضيـاءُ النَّهار، والباطنةُ ظلمة الليلِ للسُّكون والقرار.

ومَن قرأ (نِعْمَةً) على التوحيدِ فهي واحدةُ تُبنَـى علـى الجميـعِ، كمـا في قولـهِ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ ؛ يعني النَّضْرَ بن الحارثِ يخاصمُ في آياتِ الله وفي صفاتهِ جَهْلاً بغير علم ولا حجَّـة، ﴿ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٢٠) ﴾ ؛ وقد تقدَّم تفسيرهُ في سُورةِ الحجِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي اعْمَلُوا بما أنزلَ اللهُ، ﴿ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾ ، قالوا بل نعملُ بما وجدنا عليه آباءَنا، وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في سُورة البقـرةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) ﴾ ؛ فيتَّبعونَهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ ﴾ ؛ أي مَـن يُخْلِـصُ طاعتَـهُ للهِ وهـو محسـنٌ فيـها فيفعلُــها علـى موجب الشَّريعة فقد أخـذَ بـالأمر الأوثـق، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ﴾ ؛ ترْجِـعُ خواتِـمُ ﴿ ٱلۡأُمُورِ (٢٢) ﴾ ؛ كلِّها، فيجزي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قرأ السُّلَمِيُّ: (وَمَنْ يُسَلِّمْ) بالتَّشديدِ. ومعنى قولهِ تعالى (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) أي اعْتَصَمَ بالطَّرَفِ الأوثقِ الذي لا يخافُ انقطاعَهُ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ

---

(١) ابراهيم / ٣٤.

عَنْهُمَا: (هُوَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحْزِنُهُ كفرُهم مخافةَ أن يكون ذلك لتقصيرٍ من جهتهِ، فأمَّنَهُ اللهُ مِن ذلكَ. والمعنى: مَن كَفَرَ فلا تهتَمَّ لكُفرهِ، فإنَّ رجوعَهم إلينا وحِسابُهم علينا، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ ؛ أي نُخبرُهم بقبائحِ أعمالِهم في الدُّنيا، ونجزيهم عليها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بما في القلوب من خيرٍ وشرٍّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ ؛ أي نُمهلُهم في الدُّنيا يَسِيراً، ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ثُم نُجلِّيهِمْ في الآخرةِ إلى عذابٍ شديدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (وَذلِكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أتَتْهُ أحْبَارُ الْيَهُودِ فَقَالُواْ: بَلَغَنَا أنَّكَ قُلْتَ: (وَمَا أوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيْلاً) أعَنَيْتَنَا أمْ عَنَيْتَ قَوْمَكَ ؟ فَقَالَ: [بَلْ عَنَيْتُ الْجَمِيعَ] فَقَالُوا: ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى وَفِيهَا أنْبَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَدْ خَلَّفَهَا[٢] فِيْنَا فَهِيَ مَعَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: [التَّوْرَاةُ وَمَا فِيهَا مِنَ الأَنْبَاءِ قَلِيْلٌ فِي عِلْمِ اللهِ] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٣].

والمعنى: لو جُعِلَ ما في الدُّنيا من الأشجار أقلاماً يكتبُ بها، وصارَتِ الجنُّ والإنسُ كُتَّاباً، والبحارَ مِداداً يمدُّها من بعدِها سبعةَ أبْحُرٍ؛ أي سبعةَ أمثالِ بحرِ الدُّنيا،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٣٨).

(٢) في المخطوط: (خلقها فيها) وهو غير مناسب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٤٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٥٩) مختصراً.

وكتبَ بها كلماتِ اللهِ وحِكَمَهُ، لانكسرَتِ الأقلامُ، وأعيَتِ الإنسُ والجنُّ، وفنِيَتِ البحارُ قبلَ أن ينقطعَ كلامُ اللهِ وحِكَمُهُ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي عَزيزٌ في سُلطانهِ ذُو حكمةٍ في قولهِ وأفعالهِ.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ معنى (كَلِمَاتُ اللهِ) تعالى في هذه الآيـةِ: مَعانِي القُرْآن وفوائدهِ، وقال بعضُهم: وهي نِعَمُ اللهِ في الدُّنيا والآخـرةِ، وإن نِعَمَهُ في الآخرةِ غيرُ متناهيةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (قَالَتْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: إنَّ اللهَ خَلَقَنَا أطْوَاراً نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ لَحْماً، فَكَيْفَ يَبْعَثُنَا خَلْقاً جَدِيْداً فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (مَا خَلْقُكُمْ) ((أيها الناسُ على اللهِ سُبحَانَه))[١] في القدرة إلاّ كخلقِ نفسٍ واحدةٍ، وبعثِ نفسٍ واحدةٍ؛ (وَلاَ بَعْثُكُمْ) في قدرةِ اللهِ على بعثِ الْخَلْق كلِّهم (إلاّ) كقدرتهِ على بعثِ نفس واحدةٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لِما قالوا من أمرِ الخلقِ والبعثِ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ به[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ألَمْ تعلَمْ أنَّ اللهَ يزيدُ من ساعاتِ اللَّيلِ في ساعاتِ النهار صَيفاً، ويزيدُ في ساعاتِ النَّهار في ساعاتِ الليل شتاءً، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي ذلَّلهما لِمنافعِ بني آدم يَجريان إلى يومِ القيامة، ثُم يسقُطان، وينقطعُ جَريُهما، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي خبيرٌ بأعمالِكم في الدُّنيا ويُجازيكم عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أو لِتَعلَمُوا أنَّ عبادةَ الله حقٌّ، ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ ؛ من عباده، ﴿ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ ؛ بصفاتهِ، ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الذي لا شَيءَ مثلهُ في كِبريائهِ وعظَمتهِ.

---

(١) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي أَلَمْ تعلَمْ أنَّ السُّفنَ تجري في البحرِ بإنعَامِ اللهِ تعالى، لو لَم يخلُق الرِّياح والماءَ على الهيئةِ التي خلقَها الله عليها لَما جَرَتِ السُّفن على ظهر الماءِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ أي لدلالات على توحيد الله، ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي كثيرِ الصَّبر على الطاعات والمِحَنِ، شَكُوراً أي كثيرَ الشُّكر على نِعَم الله تعالى، قال ﷺ: [إنَّ أحَبَّ الْعِبَادِ إلَى اللهِ مَنْ إذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي إذا أصابَهم في البحرِ مَوْجٌ كالجبال في الارتفاع دعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ له الدُّعاءَ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ ﴾ ؛ من البحرِ وأهوالهِ، ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ ؛ أي منهم مَن يثبتُ على ذلكَ، ومنهم مَن يجحدُ. ثُم قال: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي لاَ ينكرُ دلائلَ توحيدِنا، ﴿ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ ؛ أي غدَّار، ﴿ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أكثرَ الكفرَ بآياتِ الله ونعَمِهِ. والْخَتْرُ في اللُّغة: أقبحُ الغَدْر. والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ وهي السَّحابةُ التي ترتفعُ فتغطِّي ما تحتَها.

وإنَّ هذه الآيَة كانت سببَ إسلام عِكْرِمَةَ بن أبي جهلٍ، وذلك أنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، أمَّنَ النَّبيُّ ﷺ النَّاسَ إلاَّ أرْبَعَةَ نفَرٍ، فَإنَّهُ قَالَ: [اقْتُلُوهُمْ، وَلَوْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِيْنَ بأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ: عِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الأَخْطَلِ، وَمَقِيسُ بْنُ صَبَابَةَ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بنِ أبي سَرْحٍ][2].

فأمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ، فَأَصَابَهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ، فَقَالَ أهْلُ السَّفِيْنَةِ: أخْلِصُوا فَإنَّ آلِهَتَكُمْ لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً هَا هُنَا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: (لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إلاَّ الإخْلاَصُ مَا يُنَجِيْنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ) ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ إنَّ لَكَ عَهْداً إنْ أنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أنَا فِيْهِ أنْ آتِيَ مُحَمَّداً حَتَّى أضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ) فَجَاءَ فَأَسْلَمَ[3].

---

(١) أخرجه الطبري عن قتادة قال: (كان مطرف يقول...)، ينظر الأثر (٢١٤٤٩). وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٢ ص٢٠٠ من قول مطرف بن عبدالله أيضاً.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٥١-٥٣.
(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠١٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا مخافةَ ربكُم، واخشَوا عذابَ يومٍ لا يُغنِي والدٌ عن ولدِهِ، ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ؛ لاشتغالِ كلٍّ منهُم لنفسهِ.

وَقِيْلَ: معنى (لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ) أي لا يَحمِلُ شيئاً من سيِّئاتهِ ولا يُعطيهِ شيئاً من طاعتهِ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ في البعث والجزاء أي صدق كائن، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ فلاَ تغترُّوا بالحياة الدُّنيا وما فيها من زينتِها وزهرتِها، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ الشَّيطانُ، فإنه هو الغَرُورُ، وهو الذي مَن يشاءُ أن يُغرَّ، وغُرُورُ الشَّيطانِ تَمْنِيَتُهُ العبدَ: فإنَّ اللهَ تعالى غفُورٌ، فَهَوَّنَ عليه رُكوبَ المعاصِي وما يَهواهُ.

ومَن قرأ (الْغُرُورُ) بضمِّ الغَينِ فهي مصدرٌ، ومعناهُ: الأبَاطِيلُ. وعن سعيدِ بنِ جُبير: (إنَّ الْغُرُورَ تَمَنِّي الْمَغْفِرَةِ مَعَ الإصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ؛ نزلت هذهِ الآيَةُ في الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ، أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّ أرْضَنَا أجْدَبَتْ، فَمَتَى الْغَيْثُ ؟ وَقَدْ تَرَكْتُ امْرَأتِي حُبْلَى، فَمَاذَا تَلِدُ ؟ وَقَدْ عَلِمْتُ بأَيِّ أرْضٍ وُلِدْتُ - أيْ عَلِمْتُ أيْنَ وُلِدْتُ - فَبأَيِّ أرْضٍ أمُوتُ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا عَمِلْتُ الْيَوْمَ، فَمَا أعْمَلُ غَداً ؟ وَمَتَى السَّاعَةُ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ.

وقال ﷺ: [مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسَةٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إلاَّ اللهُ، لاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا كَسْبُهُ فِي غَدٍ إلاَّ اللهُ، وَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ بأَيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَنْزِلُ الْغَيْثُ إلاَّ اللهُ][٢].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٦٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٤٦٥) عن مجاهد مرسلاً بلفظ قريب من هذا. والبخاري في الصحيح: في كتاب التفسير عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والإمام الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٢ ص٥٤٦: الحديث (١٩٣٨) عن ابن عمر بلفظ قريب منه. =

يقالُ: إنَّ هذه الخمسة الأشياءِ التي ذكَرَها اللهُ في هذه الآيةِ هي مفاتيحُ الغَيْب لا يعلمُها إلاَّ اللهُ، استأثرَ اللهُ بهنَّ، فلم يُطْلِعْ عليهنَّ مَلَكاً مُقرَّباً ولا نَبيّاً مُرسَلاً.

ومعنى الآيةِ: (إنَّ اللهَ عندَهُ عِلْمُ) قيامِ (السَّاعَةِ)، فلا يدري أحدٌ سواهُ متى تقومُ، في أيِّ سَنةٍ أو في أيِّ شهرٍ، ليلاً أو نهاراً. وقولُه (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) معناهُ: هو المختصُّ بإنزالِ الغيثِ، وهو العالِمُ بوقتِ إنزالهِ، (ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْضِ) أي لا يعلمُ أحدٌ ما في الأرحامِ أذكرٌ أم أنثى، أحمرٌ أم أسودٌ، وإنَّما يعلمهُ الله عَزَّ وَجَلَّ نطفةً وعلقة ومُضغةً، وذكراً أم أنثى، وشقِيّاً وسَعيداً، ومتى ينفصلُ عن أمِّهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً) يعنِي: ماذا تكسبُ من الخيرِ والشرِّ، أي مَا تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً خيراً أو شرّاً، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أي في برٍّ أو بحرٍ أو سَهلٍ أو جبلٍ. قال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الْخَمْسَةُ لاَ يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُصْطَفَى، فَمَنِ ادَّعَى أنَّهُ يَعْلَمُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ فَقَدْ كَفَرَ بالْقُرْآنِ لأَنَّهُ خَالَفَهُ)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي عَلِيمٌ بخلقهِ، خَبيرٌ بأعمالِهم وبما يصيبُهم في مستقبلِ عُمرِهم.

ورُوي أن يهودياً كان في المدينة يحسب حساب النجوم، فقال اليهوديُّ لابن عباس: إن شئت أنبأتك عن ولدك وعن نفسك، إنك ترجع الى منزلك فتلقى إبناً لك محموماً، ولا يمكث عشرة أيام حتى يموت الولد، وأنت لا تخرج من الدنيا حتى تعمى، فقال ابن عباس: وأنت يا يهودي، قال: لا يحول عليَّ الحول حتى أموت؟ قال: فأين

=ولم أقف على رواية المصنف رَحِمَهُ اللهُ كما ذكرها هنا. وذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣: (الرجل اسمه: الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب)، قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥.

ولعل في المخطوط تصحيف من الناسخ، ولكن لا أستطيع الجزم؛ لأن الخط واضح برسم اسم البراء بن مالك. لأن البراء ﷺ ليس من البادية، فهو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري، أخو أنس بن مالك لأبيه وأمه. مما يرجح أن هناك وهم أو تصحيف. والله أعلم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٦٦) عن قتادة ﷺ.

موتك يا يهودي؟ قال ما أدري، قال ابن عباس: صدق الله (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) قال فرجع ابن عباس فلقي إبناً له محموماً، فلما بلغ عشراً مات الصبي، ويقال عن اليهودي ((أنه ماتَ قبل الحول))[١]، وما خرج ابن عباس من الدنيا حتى كُفَّ بصره[٢].

آخر تفسير سورة (**لقمان**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) تصحيف في أصل المخطوط: (قبل فقالوا مات)، وضبطت كما في تفسير الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٨٣. ثم قال: (قال الحسين بن علي راوي هذا الحديث: هذا أعجب الأحاديث).

سُورَةُ الْجُرُزِ

سُورَةُ الْجُرُزِ؛ يَعْنِي السَّجْدَةَ؛ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وثلاثُمِائَةٍ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ][1]. وَكَانَ ﷺ لاَ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَهَا وَسُورَةَ تَبَارَكَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي الم هو تنْزيلُ الكتاب، لا شكَّ فيه أنه تَنَزَّلَ من رب العالمين، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ؛ معناهُ: يقول أهلُ مكَّة: اختَلَقَهُ مُحَمَّد من تلقاءِ نفسه، وليس كما يقولون، ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ ؛ أي لتخوِّفَ بالقرآن قوماً؛ ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ لم يشاهدوا قبلكَ في زمانِهم الذي هم فيه رسُولاً مُخوِّفاً؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لكي يهتَدُوا إلى الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ أي في مقدار ستَّة أيام من أيامِ الدنيا، أوَّلُها يوم الأحدِ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ أي استولَى عليه، وقد تقدَّم في ذلك في سورة الأعرافِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ ﴾ ؛ أي قريبٍ ينفعُكم، ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ؛ يشفعُ لكم، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي أفلاَ تعتبرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي يدبرُ اللهُ أمرَ الدنيا مدَّة أيامها، فيُنْزِلُ القضاءَ والقدرَ من السَّماء إلى الأرضِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٣٢٥. ذكره الزمخشري في الكشاف: ج٣ ص٥٠٢.

يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ؛ قال ابن عباس: مَعْنَاهُ: يَعُودُ إِلَيْهِ الأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ حِينَ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الأُمَرَاءِ وَأَحْكَامُ الْحُكَّامِ، وَيَنْفَرِدُ اللهُ تَعَالَى بِالأَمْرِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) يَعْنِي أَنَّ يَوْماً مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ مِثْلَ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَأَرَادَ بِهَذَا الْيَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: يقطع المَلَكُ من المسافةِ نازلاً وصاعداً في يومٍ واحد وهو مسيرة ألفِ عام مما يعدُّه أهل الدنيا بمسيرِهم، وذلك أنَّ بين السماءِ والأرض مسيرةَ خمسمائة عامٍ لبني آدمَ، وصعودهُ من الأرضِ إلى السماء كذلكَ؛ والمَلَكُ يقطعهُ في يومٍ واحد. ولو أرادَ الله من المَلك الصعودَ والنُّزول بدون مقدارهِ (اليومَ) لفعلَهُ المَلَك.

وأما قولهُ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١] فإنْ كان أرادَ مدَّةَ المسافةِ من الأرض إلى سِدْرَةِ[٢] المنتهَى التي فيها مقامُ جبريل، فالمعنى يسيرُ جبريلُ والملائكة الذين معه من أهلِ مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يوم واحدٍ من أيامِ الدنيا، فيكون معنى قوله تعالى: (إلَيْهِ) على هذا التأويل؛ أي إلى مكان المَلَك الذي أمرَهُ الله أن يعرجَ إليه، كقول إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾[٣] أي حيث أمرَني ربي بالذهاب إليه، وهو الشَّام. وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[٤] أي إلى المدينةِ. ولم يكن الله عَزَّ وَجَلَّ بالمدينةِ ولا بالشام.

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَتَانِي مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الأَرْضِ قَبْلَهَا قَطُّ بِرِسَالَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ رَفَعَ رِجْلَهُ فَوَضَعَهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالأُخْرَى فِي الأَرْضِ لَمْ يَرْفَعْهَا][٥].

---

(١) المعارج / ٤.

(٢) في أصل المخطوط: (مدة) والصحيح: سدرة.

(٣) الصافات / ٩٩.

(٤) النساء / ١٠٠.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٣٥٥: الحديث (٦٦٨٥). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٨٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صدقة بن عبدالله التنيسي، والأكثر=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي صَنَعَ ما ذكرناهُ من خلقِ السموات والأرض، هو عالِمُ ما غابَ عن الخلق وعالِمُ ما خفِيَ، لا يقدرُ عليه سواهُ كما لا يعلم الغيبَ غيرهُ. وقوله تعالى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي القادرُ الذي لا يُقاوَم، المنيعُ في مُلكهِ، المنعِمُ على عبادهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ ؛ قرأ نافع وأهل الكوفة: (خَلَقَهُ) بفتحِ اللام على الفعل؛ أي أحكمَ كلَّ شيء مما خلَقهُ. وقرأ الباقون: (خَلْقَهُ) بسكون اللام؛ أي أحسنَ خلقَ كلِّ شيء، فيكون نصبُ قولِه:(خَلْقَهُ) على البدل. وقال مقاتلُ: ((مَعْنَاهُ: الَّذِي عَلِمَ كَيْفَ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُعَلِّمَهُ أحَدٌ))[1]. وقال السديُّ: ((أحْسَنَهُ: لَمْ يُعَلِّمْهُ مِنْ أحَدٍ)).

قِيْلَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا طوَّل رجل البهيمةِ والطير، طوَّل عُنقَهُ لئلا يتعذرَ عليه تناولُ قُوتِه من الأرض، ولو لم يطوِّل عنُقه لما نالَ معيشته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ يعني آدمَ عليه السلام كان أول طيناً، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ﴾ ؛ أي ذريَّته، ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي من قليلٍ من الماء ينسَلُّ من صُلب الرجل وترائب المرأة، وهي النطفةُ، ووصفَها بالـ (مُهين) لأنه لا خطرَ له عند الناسِ. وسُميت سُلالةً لأنَّها تَنسَلُّ من الإنسانِ؛ أي تخرجُ. والمَهِيْنُ هو الضعيفُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ ؛ رجعَ إلى ذكر آدم، يعني سوَّى خلقَهُ ونفخَ فيه من روحهِ؛ ثم عادَ إلى ذُريَّته فقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ ؛ بعد أنْ كنتم نُطَفاً. والأفئدةُ هي القلوبُ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هذه النِّعَمَ فتوحِّدونَهُ. والمعنى: خلقَ لكم السمعَ فاستمِعُوا إلى الحقِّ، والأبصارَ فأبصِرُوا الحقَّ، والأفئدةَ؛ أي القلوبَ؛ فاعقِلُوا الحقَّ.

=على تضعيفه، وقد وثقه يحيى بن معين ووحيم). ويوجد اضطراب في ترتيب ألفاظ الحديث في أصل المخطوط. وضبط النص على أصله في المعجم.

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧.

وَقِيْلَ: معنى (ثُمَّ سَوَّاهُ) يعني الماءَ المهينَ جَمَعَهُ وخلقَهُ وصوَّرَهُ ونفَخَ فيه من روحهِ؛ أي نفخَ فيه الروحَ الذي يحيا به الناسُ. أضافَ الله ذلك إلى نفسهِ لأنه هو الخالقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ ؛ أي قال الكفارُ: إئذا هلَكنا وانقطعت أوصالُنا وذهبت آثارُنا وصِرنا تُراباً، فلم يتبيَّن شيءٌ من خلقِنا، أنُبعَثُ بعد ذلك؟! هذا لا يكونُ أبداً. ومعنى الضَّلالة في اللغة: الغيبوبةُ، يقال: ضلَّ متاعُ فلان وضاعَ، بمعنى واحد.

وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي ليس كما يقولون أنَّهم لا يُبعثون، بل هم بلقاءِ ربهم كافِرُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ؛ أي يقبضُ أرواحَكم أجمعين ملكُ الموتِ، ﴿ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ؛ قال مجاهد: ((حُوِيَتْ لَهُ الأَرْضُ فَجُعِلَتْ لَهُ مِثْلَ طِسْتٍ، يَتَنَاوَلُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ))[1]. وقال الكلبيُّ: ((اسْمُ مَلَكِ الْمَوْتِ عِزْرَائِيلُ، وَلَهُ أرْبَعَةُ أجْنِحَةٍ: جَنَاحٌ مِنْهَا بالْمَشْرِق، وَجَنَاحٌ بالْمَغْرِب، وَالْخَلْقُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَرَأسِهِ وَجَسَدِهِ، وَجُعِلَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِثْلَ رَاحَةِ الْيَدِ لِصَاحِبِهَا، يَأْخُذُ مِنْهَا مَا أمِرَ بقَبْضِهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلاَ عَنَاءٍ، وَلَهُ أعْوَانٌ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ وَمِنْ مَلاَئِكَةِ الْعَذاب))[2].

وعن أنسِ بن مالك قال: [لقِيَ جِبْريلُ مَلَكَ الْمَوْتِ بنَهْرِ فَارسَ، فَقَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ قَبْضَ الأَنْفُس، هَا هُنَا عَشْرَةُ آلاَفٍ، وَهَا هُنَا كَذا وَكَذا؟ قَالَ عِزْرَائِيلُ[3]: تُزْوَى لِيَ الأَرْضُ حَتَّى كَأنَّهَا بَيْنَ فَخِذَيَّ فَألْتَقِطُهُمْ بيَدَيَّ].

وقالَ ﷺ: [إذا حَانَ أجَلُ الرَّجُلِ، أتَاهُ مَلَكٌ فَقَالَ: أيُّهَا الْعَبْدُ كَمْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَكَمْ رَسُولٌ بَعْدَ رَسُولٍ؟ أنَا الْخَبَرُ لَيْسَ بَعْدِي خَبَرٌ، وَأنَا الرَّسُولُ لَيْسَ بَعْدِي

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٠٠).
(٢) ذكر مقاتل بعضه في التفسير: ج ٣ ص٢٨.
(٣) في المخطوط: (جبرائيل) وهو تصحيف.

رَسُولٌ، أجِبْ رَبَّكَ طَائِعاً أوْ مَكْرُوهاً. فَإذا قُبضَتْ رُوحُهُ وَتَصَارَخُوا عَلَيْهِ، قَالَ: عَلَى مَنْ تَصْرُخُونَ وَعَلَى مَنْ تَبْكُونَ؟ وَاللهِ مَا ظَلَمْتُ لَكُمْ أجَلاً وَلاَ أكَلْتُ لَكُمْ رِزْقاً، بَلْ دَعَاهُ رَبُّهُ، فَلْيَبْكِ الْبَاكِي عَلَى نَفْسِهِ، فَإنَّ لِي فِيكُمْ عَوْدَاتٍ وَعَوْدَاتٍ حَتَّى لاَ أُبْقِي مِنْكُمْ أحَداً](1).

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي تصيرون إليه أحياءً فيجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة ناكِسُوا رؤوسهم حياءً وندماً، والمعنى: ولو ترى يا مُحَمَّدُ إذِ المجرمون مُطرِقوا رؤوسهم من الخزْيِ وشدة الندمِ في يومِ القيامة عند علمِهم بأن الحجَّةَ قد قامت عليهم من كلِّ جهةٍ، وأنَّهم لا مهربَ لهم من العذاب، وذلك هو الغايةُ في الوجَلِ والخجلِ، يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ ؛ أي لكَ الحجَّة علينا لأنا أبصَرْنا رسُلكَ وسمعنا كلامَهم، ﴿ فَٱرْجِعْنَا ﴾ ؛ أي ولكن نسألُكَ أن تُرجِعَنا إلى الدُّنيا حتى، ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ بكَ وبكتابك وبرسُلك. وهذه الآية محذوفةُ الجواب؛ أي لو رأيتَ يا مُحَمَّد، لرأيتَ غايةَ ما تعتبرُ به.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٣٢) عن أبي جعفر مُحَمَّد بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٣٢٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير، وفيه عمر ابن شمر الجعفي والحارث بن خزرج ولم أجد من ترجمهما، وبقية رجاله رجال الصحيح) وأوله: [ونظر إلى ملك الموت]. عن الحارث بن خزرج قال: سمعت رسول الله ﷺ ... وذكره.

وأما الحارث بن خزرج، فهو الحارث بن خزمة بن عدي بن أبي بن غنم بن سالم بن عوف ابن خزرج الأنصاري. من الصحابة المقلّين. قال القرطبي: كان من القواقلة. ترجم سيرته ابن عبد البر في الاستيعاب: ج ١ ص٣٥٢: الرقم (٤١٢). وابن حجر في الإصابة: الرقم (١٤٠١).

وأما عمر بن شمر الجعفي، فهو عمرو بن شمر الجعفي، ترجم سيرته ابن عدي في الكامل: ج ٦ ص٢٢٦: الرقم (٣٢٥/ ١٢٩٢)، وذكر عن حسين الجعفي قال: (أؤذن وكان عمرُو بن شمر يَؤمُّهم، فمكثت ثلاثين سنة أجتهد أن أسبقه إلى المسجد أو أخرج بعده فلم أقدر) وقال: سمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: عمرو بن شمر زائغ كذاب. ونقل عن النسائي قال: عمرو بن شمر كوفي متروك الحديث.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ؛ قال الحسنُ: ((أرَادَ بِهِ مَشِيئَةَ الْقَدَرِ مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لأَنَّهُ لَمْ يَعْجزْ عَنْ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ لاَ يُجْبرُ الْعِبَادَ عَلَى ذلِكَ لِكَيْ لاَ يُبْطِلَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ)). والمعنَى: ولو شِئنا لآتَينا كلَّ نفسٍ رُشدَها وثباتَها، ومثلُ ذلك ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ؛ معناه: ولكن وجب قولي عليهم بالعذاب، ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ ؛ بكفرهم وذنوبهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ؛ معناهُ: يقال لأهلِ النار إذا دخَلوها: ذُوقوا العذابَ بما نسيتُم لقاءَ يومِكم هذا؛ أي بما تركتُم الإيمانَ بيومكم هذا. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ ؛ أي تركناكم في العذاب وأحلَلناكم محلَّ المنسيِّ، ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ ؛ أي الذي لا ينقطعُ، ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ ؛ من الكفرِ والتكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ معناه: إنما يُقِرُّ ويصدِّقُ بدلائلنا، ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ ؛ أي وُعِظُوا بها، ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ ؛ للهِ مُصلِّين مع الإمامِ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي عظَّموا اللهَ ونزَّهوهُ في صلاتِهم حامِدين لربهم، ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) ۩ ﴾ ؛ أي يُعفِّروا وجوهَهم صاغرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ ؛ أي ترفعُ لأجلِ الصلاة، قال مجاهد: ((هُمُ الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ حَتَّى يُصَلُّوا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ)). والمضاجعُ: هي الفُرُشُ التي يضطَجِعون عليها للنومِ، واحدُها مَضْجِعٌ.

وعن أنسٍ ﷺ قال: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعَاشِرَ الأَنْصَار، حَتَّى كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ فَلاَ نَرْجِعُ حَتَّى نُصَلِّي الْعِشَاءَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ))(٣). ورُوي: أنَّ امرأةً

---

(١) يونس / ٩٩. (٢) الأنعام / ٣٥.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث=

جاءت إلى أنس بن مالك فقالت: إنّي أنامُ قبلَ العشاءِ، فقال: ((لاَ تَنَامِي؛ فَإنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ لاَ يَنَامُونَ قَبْلَ الْعِشَاءِ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ))(١).

وقال الحسنُ: ((الْمُرَادُ بالآيَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَالتَّهَجُّدُ))(٢)، وكان يقولُ: ((هُمْ قَوْمٌ أخفَوا للهِ تَعَالَى عَمَلاً، وَأخْفَى لَهُمْ ثَوَاباً))(٣).

وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: [عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإنَّهُ دَأبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلَى اللهِ تَعَالَى، وَمُنْهَاةٌ عَنِ الإثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ للدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ](٤). وقال الضحَّاك: ((هُوَ أنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ))(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي خوفاً من عذاب الله وطَمعاً في رحمةِ الله. وانتصبَ (خَوْفاً) و(طَمَعاً) لأنه مفعولٌ له. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ومما أعطيناهم من المالِ يتصدَّقون واجباً وتطوُّعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ؛ أي لا يعلمُ أحدٌ ما أخفَى اللهُ لهم مما تُقرُّ به أعينُهم وتطيبُ به أنفسهم، ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحة.

=(٢١٥٠٥) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٨٣٦-١٧٨٣٩).

(١) أخرجه عن أنس كثيرون، في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٤٥-٥٤٦ عزاه السيوطي إلى الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه ومحمد بن نصر وعبدالرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد بن حنبل في وزائد الزهد وابن عدي والبزار والبيهقي.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٤٨؛ قال السيوطي: (وأخرجه ابن نصر وابن جرير عن الحسن) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٧٨٤٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٦١٥٤) من طريق سلمان الفارسي. وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٥١؛ قال الهيثمي: (وفيه عبدالرحمن بن سليمان، وثقه وحيم وابن حبان وابن عدي، وضعفه أبو داود وأبو حاتم). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص١٥٩: الحديث (٣٢٧٧) من طريق أبي أمامة الباهلي وإسناده حسن.

(٥) أصل هذا الفهم حديث عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٥٨ و٦٨. وأبو داود في السنن: الحديث (٥٥٥). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٢١).

قال ابنُ مسعود: ((إنَّ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبٌ: لَقَدْ أعَدَّ اللهُ لِلَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أذُنٌ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَمَا لَمْ يَحْمِلْهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَإنَّهُ فِي الْقُرْآنِ: (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).))[١].

قرأ حمزةُ (مَا أخْفِيْ لَهُمْ) بإسكان الياء؛ أي ما أخفِي لهم أنا، وحجَّتهُ (قُرَّة). وقرأ عبدُالله: (نُخْفِي لَهُمْ) بالنون. وقرأ مُحمَّد بن كعبٍ: (مَا أخْفَى لَهُمْ) بفتح الألف والفاء، يعني أخفَى اللهُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيْطٍ، جَرَى بَيْنَهُمَا تَنَازُعٌ وَتَسَابٌّ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: اسْكُتْ فَإنَّكَ صَبِيٌّ وَأنَا وَاللهِ أحَدُّ مِنْكَ لِسَاناً وَأبْسَطُ مِنْكَ فِي الْقَوْلِ، وَأمْلأُ مِنْكَ فِي الْكَتِيبَةِ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: أسْكُتْ فَإنَّكَ فَاسِقٌ تَقُولُ الْكَذِبَ. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ))[٢]. والمرادُ بالمؤمن: عليَّ بن أبي طالبٍ ﷺ، وبالفاسق: الوليدَ بن عُقبة.

وقال الزجاجُ: ((إنَّهُ لَمْ يُرِدْ بالْمُؤْمِنِ مُؤْمِناً، وَلِذلِكَ قَالَ: (لاَ يَسْتَوُونَ) وَلَمْ يَقُلْ: لاَ يَسْتَوِيَان)). وقال قتادةُ في معنى الآيةِ: ((وَاللهِ مَا اسْتَوَواْ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلاَ فِي الآخِرَةِ))[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾؛ التي يأوي إليها المؤمنون، وقوله: ﴿ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي مُعدَّة لهم بأعمالِهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩ ص٢١٣: الحديث (٩٠٣٩) عن عبدالله بن مسعود ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمَّد ابن سعيد وهو ضعيف). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٠٣)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٣٢) عن عطاء مرسلاً. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٥-٢٣٦. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٨٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٥٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ أي وأما الذين خرَجُوا من طاعةِ الله بكُفرِهم، فمأواهُم النارُ، ﴿ كُلَّمَآ ﴾ ؛ رفعَهم لَهبُ النار إلى أعلاها، فظنُّوا أنَّهم يخرُجون منها فـ ﴿ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، ردَّتْهم ملائكةُ العذاب إلى أسفلِها بمقامعَ من حديدٍ، ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ ؛ قِيلَ: إن المرادَ بالعذاب الأدنى هو القحطُ والجوع الذي أصابَ أهل مكَّة سبعَ سنين حتى أكَلُوا الجيفَ والعظامَ والكلاب. وَقِيلَ: هو القتلُ يومَ بدرٍ. وَقِيلَ: العذابُ الأدنى هو مصائبُ الدنيا وأسقامها وبلاؤها. وَقِيلَ: العذابُ الأدنى هو عذابُ القبرِ، والعذابُ الأكبر هو عذابُ يومِ القيامة. وقولهُ تعالى: ﴿ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ ؛ يعني بالعذاب الأكبر عذابَ الآخرة. وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي أخبَرناهم ليرجِعُوا عن الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. قولهُ: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ يعني الذين قُتلوا ببدرٍ، وعجَّلنا أرواحَهم إلى النار. وأرادَ بالْمُجرمين المشركين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ اجْرَمَ: مَنْ عَقَدَ لِوَاءً فِي غَيْرِ حَقٍّ، أوْ عَقَّ وَالِدَيْهِ، أوْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَنْصُرَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)](1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ أعطيناهُ التوراةَ جُملةً واحدةً، ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ ؛ وعدَ النبيَّ ﷺ أن سيلقى موسَى قبل أن يموتَ، ثم لَقِيَهُ في السَّماء ليلةَ المعراجِ أو في بيت المقدس حين أسريَ به، والمعنى: فلا تكن في شكٍّ من لقاءِ موسى. قال ابنِ عباس: ((يَعْنِي لَيْلَةَ الإسْرَاءِ))(2). ويقال: أرادَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٨٥٧) عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول... وذكره. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٥٨) واللفظ لابن أبي حاتم كما في التفسير.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٥٥٩) مطولاً.

به لقاؤهما في الجنَّة. ويقال: أرادَ به لقاءَ الله. ويقال: أرادَ به أن يلقَى مُحَمَّدٌ ﷺ من قومهِ الأذى مثلَ ما لَقِيَ موسى من قومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي جعَلنا التوراةَ هُدًى لبني إسرائيلَ من الضَّلالة، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾؛ أي جعَلنا من بني إسرائيل أئمَّة، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾؛ يدُلُّون الناسَ على ديننا فيُقتدَى بهم، فهم أنبياؤهُم ومَنِ استقامَ منهم على الدِّين. وقوله تعالى: ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾؛ أي لما صبَرُوا جعلناهم أئمَّة، كأنه قال: إنْ صبَرتُم على طاعتنا وصبرتُم على معصيتنا جعلناكم أئمَّة.

قرأ حمزةُ والكسائي: (لِمَا صَبَرُوا) بكسرِ اللام وتخفيف الميم؛ أي لِصَبْرِهِمْ. ومعنى القراءةِ الأُولى: حين صَبَروا. والمعنى: لَمَّا صبَروا على دينهم وعلى البلاءِ من عدوِّهم بمصر، ﴿ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي ولكونهم موقنين بآياتِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي هو الذي يقضِي بين المؤمنين والكفار يومَ القيامة، ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ من الدِّين.

ثم خوَّفَ كفارَ مكة فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾؛ أي أوَلَم يتبيَّن لهم آثارُ عذاب الاستئصال فيمَن أهلكَ قبلَهم من الأمم الماضية المكذِّبة ما يكون عبرةً لهم، يَمشُونَ في مساكنِ المهلَكين على منازلهم وقُراهم، مثل آثار عادٍ وثمود وقومِ لوط وغيرهم، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم بالتكذيب، ﴿ لَأَيَٰتٍ ﴾؛ لدلالاتٍ واضحة لِمَن بعدَهم، ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ سماعَ القبول والطاعةِ. ومن قرأ (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنون، فالمعنى بإضافةِ الفعلِ إلى الله عزَّ وَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾؛ معناه: أولَمْ يعلَمُوا أنا نسوقُ المطرَ بالسَّحاب والرياح إلى الأرضِ اليابسة التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ، ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِۦ ﴾؛ بذلك المطر، ﴿ زَرْعًا ﴾؛ رزقاً، ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ ﴾؛ أي تأكلُ أنعامهم من ساقِها، ﴿ وَأَنفُسُهُمْ ﴾؛ وهم يأكلون من حبها، ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أفلا يعقِلون.

والأرض الْجُرُزُ: هي التي تأكلُ نباتَها، يقال: ناقة جَرُوزٌ إذا كانت أكُولاً، وسيفٌ جِرَازٌ إذا كان مُستأصِلاً، ورجلٌ جُرُزٌ إذا كان أكُولاً. قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((هِيَ أَرْضٌ بالْيَمَنِ))[1]. وقال مجاهدُ: ((هِيَ أَبْيَنُ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ ؛ وذلك أن كفارَ مكة كانوا يُؤذون أصحابَ رسول الله ﷺ، وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يقولون: يوشِكُ أن يكون لنا يومٌ نستريحُ فيه من شِركهم، فكان الكفارُ يهزَءون بهم ويقولون: متى هذا الفتحُ؛ أي الحكمُ الذي بيننا وبينكم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ فيما تقولُون[3].

والمعنى: أنَّ كفارَ مكة يقولون: متى هذا الفتحُ؛ أي القضاءُ وهو يوم البعثِ، يقضي فيه اللهُ بين المؤمنين والكافرين.

فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامة ويومَ القضاءِ والفصل، ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ ؛ لو آمَنُوا يومئذٍ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ولا هم يُمهَلون، ولا يؤخَّرون لمعذرةٍ أو توبة، ولا تؤخَّرُ عنهم عقوبتُهم.

وعن ابن عبَّاس في هذه الآيةِ: ((الْمُرَادُ بالْفَتْحِ فَتْحُ مَكَّةَ، وَأنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي خُزَيْمَةَ، كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بأَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ حِينَ كَانَ أصْحَابُ النَّبيِّ ﷺ يَتَذاكَرُونَ وَهُمْ بمَكَّةَ فَتْحَ مَكَّةَ لَهُمْ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ تَكَلَّمَتْ بَنُو خُزَيْمَةَ بكَلِمَةِ الإسْلاَمِ، فَقَتَلَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ إسْلاَمَهُمْ)) وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُولُ: [اللَّهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ][4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٦٥).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٦٦).
(٣) نقله ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٨٦٦) عن قتادة. والطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٧١).
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٥٠-١٥١. والبخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب بعث النبي ﷺ خالد: الحديث (٤٣٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي عن جوابهم، ﴿ وَانتَظِرْ ﴾ ، الفريضةَ فيهم، ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الفرصةَ فيك. قال ابنُ عبَّاس: ((قَوْلُهُ تَعَالَى: (فأعْرِضْ عَنْهُمْ) نَسَخَتْهُ آيَةُ السَّيْفِ))[١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ) أيْ مُنْتَظِرُونَ لَكَ حَوَادِثَ الأَزْمَانِ مِنْ مَوْتٍ أوْ قَتْلٍ فَيَسْتَرِيحُونَ مِنْكَ.

آخر تفسير سورة (**السجدة**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٤٩٨.

سُورَةُ الأحْـزَاب

سُورَةُ الأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَلاَثٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا وَعَلَّمَهَا أَهْلَهُ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنُهُ؛ أُعْطِيَ الأَمَانَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ][1] وبهِ التَّوفيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (وَذلِكَ أنَّ أبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ؛ وَعِكْرِمَةَ بْنَ أبي جَهْلٍ؛ وَأبَا الأَعْوَرِ السُّلَمِيِّ قَدِمُوا فَنَزَلُوا عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَأسِ الْمُنَافِقِيْنَ؛ وَجَدِّ ابْنِ قَيْسٍ؛ وَمُعْتِبِ ابْنِ قَسْرِ الْمُنَافِقَيْنِ.

وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مَعَ الْمُشْرِكِيْنَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أبي سَرْحٍ، فَطَلَبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ كَانُوا طَلَبُوا مِنْهُ الأَمَانَ عَلَى أنْ يُكَلِّمُوهُ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاتَ، وَقُلْ: إنَّ لَهَا شَفَاعَةً فِي الآخِرَةِ وَمَنْفَعَةً لِمَنْ عَبَدَهَا، وَنَدَعُكَ أنْتَ وَرَبُّكَ! فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: ائْذنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ فِي قَتْلِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: [إنِّي قَدْ أعْطَيْتُهُمُ الأَمَانَ]. فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَدِيْنَةِ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ ﷺ: أخْرُجُوا فِي لَعْنَةِ اللهِ وَغَضَبِهِ، وَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[2].

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٥ عن أبي بن كعب وإسناده ضعيف. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٥٤٨.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١١٤؛=

ومعناهَا: يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ اللهَ في نقضِ العهد الـذي بينَـكَ وبـين أهـلِ مكَّـة لا تَنْقِضْهُ قبلَ أجَلِهِ (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) فيما دعَوكَ إليه، ولا تَمِلْ إليهم، ولا تَرْفِقْ بهم ظَنّاً منكَ أن ذلك أقربُ إلى استِمَالَتِهم إلى الإيْمان، فإن ذلـك يـؤدِّي إلى أن يُظَنَّ بك مقارنة القومِ على كُفرهم، فمعنى قولهِ (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ) يعني أبَا سُفيان وأبا الأعور وعِكرمةَ، والمنافقين عبدَاللهِ بنِ أبَي وجَدِّ بنِ قَيْسٍ وغيرهما.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾ ؛ أي عَليمـاً بأحوَالِهم، حَكِيماً فيما أوجبه عليك في أمرِهم وفيما يخلقهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي اعمَلْ بما أمـرَكَ اللهُ في القُرْآن من مُجانَبَةِ الكفَّار والمنافقينَ وتَرْكِ مُوافقَتِـهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ ﴾ ؛ قرأ بالياءِ أبو عمرو، وقرأ الباقونَ بالتَّاء أي خَبيرٌ بكَ وبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمركَ إلى اللهِ واعتمِدْ عليـه في مُعاملتِـهم بمـا أمِـرْتَ بـه في شـأنهم، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾ ؛ أي حَافِظـاً وناصِراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:(نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي مُعَمَّرٍ جَمِيْلِ بْنِ أبـي رَاشِـدٍ الْفِـهْرِيِّ، وَكَانَ رَجُلاً حَافِظاً لَبيباً لِمَا يَسْمَعُ، وَكَانَ يَقُولُ: إنَّ فِـي جَوْفِـي لَقَلْبَيْـنِ، أعْقِـلُ بكُـلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ! وَكَانَتْ قُرَيْشُ تُسَـمِّيْهِ ذا الْقَلْبَيْـنِ لِدَهَائِـهِ وَكَـثْرَةِ حِفْظِهِ لِلْحَدِيْثِ، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الآيَةَ تَكْذِيْباً لَهُمْ، فَأخْبَرَ أنَّهُ مَا خَلَـقَ لأحَـدٍ قَلْبَيْنِ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَهُزِمَ الْمُشْرِكُونَ وَفِيْهِمْ أبُو مُعَمَّـرٍ، تَلَقَّـاهُ أبُـو سُـفْيَانَ وَهُـوَ يَعْدُو وَإحْدَى نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ وَالأُخْرَى فِي رِجْلِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أبَا مُعَمَّرٍ مَا فَعَلَ النَّاسُ ؟ قَالَ: انْهَزَمُوا. فَقَالَ لَهُ: مَا بَالُ إحْدَى نَعْلَيْكَ فِي يَدِكَ وَالأُخْرَى فِي رِجْلِكَ ؟! فَقَالَ:

=قال القرطبي: (وقيل: إنها نزلت فيما قال الواحدي والقُشَيري والثعلبي والمـاوردي وغـيرهم). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٢.

مَا شَعَرْتُ إلاَّ أنَّهُمَا فِي رِجْلِيَّ. فَعَرَفُوا يَوْمَئِذٍ أنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبَانِ مَا نَسِيَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ)[(١)].

وقال الزهريُّ ومقاتلُ: (هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُظَاهِرِ امْرَأتَهُ وَالْمُتَبَنِّي وَلَدَ غَيْرِهِ، يَقُولُ: فَكَمَا لاَ يَكُونُ لِلرَّجُلِ قَلْبَان، لاَ تَكُونُ امْرَأةُ الْمُظَاهِرِ أمَّهُ حَتَّى لاَ يَكُونَ لَهُ أمَّان، وَلاَ يَكُونُ وَلَدٌ ابْنَ رَجُلَيْنِ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ ؛ أي ما جَعَلَ نساءَكم اللاَّئي تقولونَ لَهُن: أنتُنَّ علينا كظُهور أمَّهاتِنا، لَم نجعلَهن كأُمَّهاتِكم في الْحُرْمَةِ. وكانت العربُ تُطَلِّقُ نساءَها في الجاهلية بهذا اللفظِ، فلما جاءَ الإسلامُ نُهُوا عنه، وأوجِبَتِ الكفارةُ في سورةِ الْمُجادلَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ ؛ أي ما جعلَ مَن تدَّعونَهُ ابناً من أبناءِ غيرِكم كأبنائكم الذين مِن أصْلاَبكم في الانتساب والْحُرمَةِ والْحُكْمِ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بَعْدَ أنْ أعْتَقَهُ، فَكَانَ يُقَالُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ أمِرَ أنْ تُلْحَقَ الأدْعِيَاءُ بآبَائِهم، وَكَانَ يَوْمَ تَبَنَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ[(٣)].

قرأ نافعُ وأبو عمرو (وَتَظَّهَّرُونَ) بفتح التاءِ وتشديد الظَّاء والهاءِ من غير ألِف، وقرأ الشَّاميُّ كذلك إلاَّ أنَّه بألف، وقرأ حمزةُ والكسائي مثلَ قراءةِ شامي إلاَّ أنه بالتخفيفِ، وقرأ عاصمُ والحسن بضمِّ التاء وتخفيف الظَّاء وبألف وكسرِ الهاء، قال أبو عمروِ: (وَهَذا مُنْكَرٌ؛ لأنَّ التَّظَاهُرَ مِنَ التَّعَاوُنِ)[(٤)].

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٤. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٦-٢٣٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٢٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١١٦.

(٢) ذكره مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٣ ص٣٤.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٣٧.

(٤) ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ ؛ أي الذي تقولونَهُ من إضافةِ القَلْبَينِ إلى الرجُلِ الواحدِ، وقولِ الرجُلِ لامرأتِهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي، وقولِ الرجُلِ لغيرِ ابنه: هذا ابْنِي، قولهُ: تقولونَ بأفواهِكم من غيرِ أن يكونَ لهُ حقيقةٌ ولا عليه دلالَةٌ ولا حُجَّةٌ، ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ ؛ تعالَى، ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ أي يُبَيِّنُ أنَّ الذين يقولونه قولٌ باطل، ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي يَدُلُّ على طريقِ وإلى الدِّينِ المستقيمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ ؛ أي نَسِّبُوا هؤلاءِ الأدعياء إلى الآباءِ الذين قد وُلِدُوا على فِراشِهم وقولوا: زيدُ بنُ حارثةَ، ولا تقولوا: زيدُ بن مُحمَّدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي أعدَلُ في حُكمِ الله من نِسبَتِكم إياهم إلى الذين تبنَّوهُم. وعن ابن عمرَ ﷺ أنه كان يقولُ: (مَا كُنَّا نَدْعُوا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إلاَّ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أقْسَطُ عِنْدَ اللهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ؛ فهم إخوانُكم في الدِّين؛ أي مَن أسلَمَ منهم، ﴿ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ ؛ أي وبنُو أعمامِكم، فقولوا: يا أخِي ويا ابنَ عَمِّي. في الآيةِ إباحةُ إطلاق اسم الأُخُوَّةِ وحظْرُ اطلاق اسم الأبوَّةِ، وفي ذلك دليلٌ على أن مَن قال لعبدِهِ: هذا أخِي؛ لَم يُعْتَقْ لأنه يحتملُ الأُخُوَّة في الدِّين، وإن قال: هذا ابنِي؛ عُتِقَ لأن ذلك ممنوعٌ في غيرِ النَّسب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي ليس عليكم إثْمٌ في نِسبَةِ الرجُلِ إلى غيرِ أبيه على وجهِ الخطأ. قال قتادةُ: (وَلَوْ دَعَوْتَ رَجُلاً

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر) وذكره. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٨٢). ومسلم في الصحيح: الحديث (٦٢/ ٢٤٢٥). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٢٣٠: الحديث (١٣١٧٠).

لِغَيْر أبيْهِ وَأنْتَ تَحْسَبُ أنَّهُ أبُوهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ بَأسٌ)[١]، ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ؛ أي ولكن الإثمُ عليكم فيما تعمَّدونَهُ من ادعائهم إلى غير آبائهم، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ ؛ أي لِمَن تعمَّدَ ثم تابَ، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ به بعدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) موضع قوله (مَا) خُفِضَ عطفاً على قولهِ (فِيمَا أخْطَأْتُم) تقديرُهُ: ولكن فيما تعمَّدت قلوبُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي هو أشْفَقُ وأبَرُّ وأحقُّ بالمؤمنين مِن بعضهم ببعضٍ، وهو أولَى بكلِّ إنسانٍ منه بنفسهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إذا حَكَمَ فيهم بشيءٍ نَفَذ حكمهُ فيهم، ووجبَتْ طاعتهُ عليهم.

وقال ابنُ عبَّاس: (إذا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إلَى شَيْءٍ، وَدَعَتْهُمْ أنْفُسُهُمْ إلَى شَيْءٍ، كَانَتْ طَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ أنْفُسِهِمْ)[٢]. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ طَاعَتُهُ النَّبِيَّ ﷺ أوْلَى بهِمْ مِنْ طَاعَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ)[٣].

وقالت الحكماء: النبيُّ أولَى بالمؤمنينَ مِن أنفسِهم لأنفُسِهم، تدعُوهم إلى ما فيه هلاكُهم، والنبيُّ ﷺ يدعوهم إلى ما فيهِ نَجاتُهم. وقال أبو بكرِ الورَّاق: (لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إلَى الْعَقْلِ، وَأنْفُسَهُمْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهَوَى). وقال بَسَّامُ بنُ عبدِالله[٤]: (لأنَّ أنْفُسَهُمْ تُحْرَسُ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا، وَالنَّبيَّ ﷺ يَحْرِسُهُمْ مِنْ نَارِ الآخِرَةِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٥٩١). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٥٨٢).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٢٣.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٥٠.

(٤) بسام بن عبدالله الصيرفي، أبو الحسن الكوفي. روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر، وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة وغيرهم. وروى عنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم. ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٧٠٦): ج ١ ص٤٥٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ ؛ أي كأُمَّهَاتِهم في تَعْظِيْم حقِّهِنَّ وفي تحريم نكَاحِهن، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يتزوَّجَ بهنَّ، كما لا يجوزُ التزويجُ بالأُمِّ. ولَم يُرِدْ إثباتَ الأُميَّة من جميعِ الوُجُوه، ألاَ ترَى أنه لا تحلُّ رؤيَتُهن ولا يَرَيْنَ المؤمنين بخلافِ الأُمَّهات، وكذلك لا يَخلُو بهنَّ، ولا يسافرُ بهن، ولا يرثُهن ولا يرثونَهُ، ولو كُنَّ كالأُمَّهات من جميعِ الوجوه لكان النبيُّ ﷺ لا يزوِّجُ بناتَهُ من أحدٍ مِن الناسِ؛ لأن البناتَ يكُنَّ أخَواتِ المؤمنينَ.

ومِن هذا المعنى ما رُوي: أنَّ امْرَأةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ: يَا أُمِّ، قَالَتْ: (لَسْتُ لَكِ بِأُمٍّ، إنَّمَا أنَا أُمُّ رجَالِكُمْ)(١) فبَانَ بهذا أنَّ معنى الأُمومَةِ تحريمَ نكاحِهن فقط. ولِهذا لا يجوزُ أن يقالَ لبنَاتِهن أنَّهن أخواتُ المؤمنينَ.

وفائدةُ تحريمِ نكاح أزواجِ النبيِّ ﷺ على المؤمنين في حياتهِ وبعد وفاتِهِ تعظيمُ أمرهِ وتفخيمُ شأنِه، ولذلكَ حَرُمَ على الابنِ نكاحُ امرأةِ أبيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي وذوُ القرابةِ بعضُهم أحقُّ بميراث بعضٍ في حُكمِ اللهِ، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ؛ إذا لَم يكونوا قرابةً، وذلك أنَّهم كانوا يتوارَثُونَ في ابتداءِ الإسلامِ بالهجرةِ والمُوآخاةِ.

قال الكلبيُّ: (آخَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ النَّاس، فكَانَ يُوآخِي بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَإذا مَاتَ أحَدُهُمْ وَرِثَهُ الثَّانِي دُونَ عُصْبَتِهِ وَأهْلِهِ، فَمَكَثُوا كَذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّى نَزَلَتْ الآيَةُ (وَأوْلُو الأرْحَام بَعْضُهُمْ أوْلَى ببَعْضٍ فِي كِتَاب اللهِ) مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ آخَا رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمْ وَالْمُهَاجِرِيْنَ، فَنَسَخَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْمُوَارَثَةَ بالْمُوآخَاةِ وَالْهِجْرَةِ، وَصَارَتْ لِلأدْنَى فَالأدْنَى مِنَ الْقَرَابَاتِ)(٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عائشة...) وذكره.

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٠) بتفصيل عن ابن زيد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ ﴾ ؛ (مَعْرُوفاً) استثناءٌ ليس مِن الأول، ومعناهُ: لكن فِعْلُكم إلى أوليائكم جائزٌ، يريدُ أن يُوصِي الرجلُ لِمَن يتوَلاَّهُ ممن لا يرثهُ بما أحبَّ من ثُلُثِ مالهِ، فيكونُ الموصَى له أولَى بقدر الوصيَّة من القريب الوارث، وقال ابنُ زيدٍ: (مَعْنَاهُ إلاَّ أنْ تُوصُوا لأَوْلِيَاءِكم مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي كانَ الميزانُ للأقرباءِ، والوصيةُ للأصدقاءِ، ونُسِخَ الميراثُ بالهجرةِ وردُّهُ إلى ذوي الأرحامِ مَكتوباً في اللَّوح المحفوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ ﴾ ؛ أي واذكُرْ إذ أخَذْنا مِن النَّبيِّينَ عُهودَهم؛ أي يصدِّقُ بعضُهم بعضاً، ويبَشِّرُ الأولُ بالآخرِ، ويأخذُ كلُّ رسول منهم على قولهِ بما أمرَ اللهُ به، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الواو مقحمةٌ؛ وتقديره: منكَ ومِن نوحٍ، فيكونوا (مِنْكَ) ما بعدَهُ تفسيرُ (النَّبيِّيْنَ).

والفائدةُ في تخصيصِ هؤلاء الأنبياءِ الخمسة بالذِّكر؛ لأنَّهم أهلُ الشرائع والكتب، وأُوْلُو العزْمِ من الرُّسُلِ، ولَهم الأُمَمُ والتَّبَعُ. وقَدَّمَ ذِكْرَ النبيِّ ﷺ لأن الخطابَ معه. وجاء في التفسيرِ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: [إنِّي خُلِقْتُ قَبْلَ الأَنْبيَاءِ وَبُعِثْتُ بَعْدَهُمْ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي عَهْداً وَثِيقاً بأن يَعبدونِي ولا يُشركون بي شيئاً. وَقِيْلَ: وأخَذْنا منهم عَهْداً شديداً على الوفَاءِ بما حُمِّلُوا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ ﴾ ؛ أي لكَي يسألَ الْمُبَلِّغِيْنَ عن تبليغِهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَاذا أجَبْتُمْ﴾[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٠٩) عن قتادة مرسلاً. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٥٩٤ و١٧٥٩٥) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ وذكره.

(٣) القصص / ٦٥ .

وفائدةُ سؤال الرُّسُلِ وهم صادِقُون؛ لتكذيب الذينَ كفَـرُوا بـهم فيكـون هـذا السؤالُ احْتِجَاجاً علَى الكـاذِبين، وإذا سُئِلَ الصَّـادِقُونَ، فكيـفَ يُظَـنُّ بالكـاذِبين ؟! وقَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي أعَـدَّ للَّذيـــن كفَــرُوا بالرُّسُلِ عذاباً شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ يُذكِّرُهــم اللهُ إنْعَامَهُ عليهم في دفعِ الأحزاب عنهم من غيرِ قتال، وذلك: أنَّ الْكُفَّارَ جاءُوا بأجْمَعِهِمْ فِي وَقْعَـةِ الْخَنْـدَق، وَأحَـاطُوا بالْمَدِيْنَـةِ مِـنْ أعْلاَهَـا وَأسْـفَلِهَا، طُلَيحَـةُ بْـنُ خُوَيْلِـدِ الأَسَدِي[1] وَأصْحَابُهُ مِنْ فَوْق الْوَادِي، وَكَانَ أبُو الأَعْوَر السُّلَمِيُّ وَأصْحَابُهُ مِنْ أسْفَلِ الْوَادِي، وَكَانَ أبُو سُفْيَان وَأصْحَابُهُ وَيَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُؤْمِنِيْنَ[2]، فَاشْـتَدَّ الْخَوْفُ بالْمُؤْمِنِيْنَ وَزَاغَتْ أبْصارُهُمْ؛ أيْ مَالَتْ مِنَ الْخَـوْفِ، وَيُقَـالُ: مَـالَتْ أبْصَـارُ الْمُنَافِقِيْنَ خَوْفاً مِنَ النَّظَرِ إلَيْـهِمْ. وكـانَ الكُفَّـارُ خَمْسَـةَ عَشَـرَ ألْفـاً، وبَلَغَـتْ قُلُـوبُ الْمُسْلِمِيْنَ الْحَنَاجِرَ؛ أيْ كَادَتْ تَبْلُغُ الْحُلُوق، وَذلِـكَ أنَّ شِـدَّةَ الْخَـوْفِ تَرْفَـعُ الرِّئَـةَ، فترفعُ الرِّئَةُ القلبَ.

كما رُوي: أنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، فَـهَلْ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ ﷺ: [قُولُوا: اللَّـهُمَّ اسْـتُرْ عَوْرَاتِنَـا وَآمِـنْ رَوْعَاتِنَـا، يَكْفِيْكُـهُمُ اللهُ تَعَالَى][3] فَأرْسَلَ اللهُ عَلَى الْكُفَّار رِيْحاً بَاردَةً مُنْكَرَةً شَغَلَتْهُمْ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلحَرْب، وَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْمَكَان، وَقَلَعَتْ خِيَامَهُمْ وَأكْفَأتْ أوَانِيَهِمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْهَا فِي سَلاَمَةٍ، وَلَيْسَ بَيْنَـهُمْ إلاَّ مَسَـافَةُ الْخَنْـدَق، وَكَـانَ ذلِـكَ إحْـدَى مُعْجِزَاتِهِ عليه السلام كَمَا قَالَ ﷺ: [نُصِرْتُ بالصَّبَا، وَأهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور][4].

---

(١) في المخطوط: (الأزدي). ترجم له ابن عبدالبر في الاستيعاب: ج ٢ ص٣٢٤: الرقم (١٣٠٠).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٤٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٥٩٩). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦١٤). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٥٧٣؛ قال السيوطي: (أخرجـه أحمد وابـن جريـر وابـن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد...) وذكره.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٧٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن أبي حـاتم والحـاكم في=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ ، يعني الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ يومَ الخندق، وهم عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وأبو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وبَنُو قُرَيْظَةَ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ ، وهي الصَّبَا، أرسِلَتْ عليهم حتى أكفَأتْ قدورَهم ونزعت فَسَاطِيْطَهُمْ[(١)] ، وقوله: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ، يعني الملائكة ؛ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ .

وروي: أنَّ شَابّاً مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أبَا عَبْدِاللهِ هَلْ رَأيْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ: (إيْ وَاللهِ لَقَدْ رَأيْتُهُ) قَالَ: وَاللهِ لَوْ رَأيْنَاهُ لَحَمَلْنَاهُ عَلَى رقَابنَا، وَمَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: (يَا ابْنَ أخِي أفَلاَ أحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْهُ ؟) قَالَ: بَلَى. قَالَ: (وَاللهِ لَوْ رَأيْتَنَا يَوْمَ الْخَنْدَق، وَبنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ مَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ. قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: [ألاَ رَجُلٌ يَأْتِي بخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ ؟] فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْجَهْدِ. ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ:[ألاَ رَجُلٌ يَأْتِيْنِي بخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيْقِي فِي الْجَنَّةِ؟] فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أحَدٌ مِمَّا بنَا مِنَ الْجَهْدِ وَالْخَوْفِ وَالْجُوعِ. فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أحَدٌ، دَعَانِي فَلَمْ أجِدْ بُدّاً مِنْ إجَابَتِهِ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [اذْهَبْ فَجِئْ بخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ].

قَالَ حُذَيْفَةُ: قُمْتُ وَجَنْبَيَّ يَضْطَرِبَان، فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأسِي وَوَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: [اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِيْنِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ]. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ أمْشِي حَتَّى أتَيْتُ الْقَوْمَ، وَإذا رِيحُ اللهِ وَجُنُودُهُ يَفْعَلُ بهِمْ مَا يَفْعَلُ، مَا يَسْتَمْسِكُ لَهُمْ بنَاءٌ، وَلاَ تَثْبُتُ لَهُمْ نَارٌ، وَلاَ يَطْمَئِنُّ لَهُمْ قِدْرٌ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ، إذْ خَرَجَ أبُو سُفْيَانَ مِنْ رَحْلِهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ مَا أنْتُم بدَار مُقَامٍ، لَقَدْ

=الكنى وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه أبو الشيخ في العظمة: الحديث (٦٠/ ٨٦٠).

(١) الفسطاط فيه لغات: فِسْطَاطٌ وَفُسْطَاطٌ وَفُسَّاطٌ وَفَسَّاطٌ وَفِسَّاطٌ وَفُسْتَاطٌ. وهو: بيت من شعر، ويطلق ويراد به أيضاً المدينة التي فيها مجتمع الناس، وكل مدينة فسطاط. والمراد هنا الأول. ينظر: كتاب الغريبين: ج٥ ص١٤٤٧. ومختار الصحاح:ص٥٠٣.

هَلَكَتِ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ[١] وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَهَـذِهِ الرِّيحُ لاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا مَعَهَا شَيْءٌ، وَلاَ تَثْبُتُ لَنَا نَارٌ وَلاَ تَطْمَئِنُّ قِدْرٌ. ثُمَّ عَجَّلَ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنَّهَا لَمَعْقُولَةٌ مَا حَلَّ عِقَالَهَا إلاَّ بَعْدَمَا رَكِبَهَا .

فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ رَمَيْتُ عَدُوَّ اللهِ فَكُنْتُ قَدْ صَنَعْتُ شَيْئاً، فَأَوْتَرْتُ قَوْسِي وَأَنَا أُرِيْدُ أنْ أَرْمِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُول اللهِ ﷺ: [وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ]. فَحَطَطْتُ الْقَوْسَ ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: [مَا الْخَبَرُ ؟] فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ، فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ أنْيَابُهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ. ثُمَّ أدْنَانِي مِنْهُ وَبي مِنَ الْبَرْدِ مَا أجِدُهُ، فَأَلْقَى عَلَيَّ طَرَفَ ثَوْبهِ، وَأَلْزَقَ صَدْرِي ببَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مَالَتْ عن كلِّ شيء، فلم تَنْظُرْ إلاَّ إلى عدُوِّها مُقبلاً مِن كلِّ جانب، ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ ، وَالْحَنْجَرَةُ جَوْفُ الْحَلْقِ. قال قتادةُ: (شَخَصَتِ الْقُلُوبُ مِنْ مَكَانِهَا، فَلَوْلاَ أنَّهُ ضَاقَ الْحُلْقُومُ عَنْهَا أنْ تَخْرُجَ لَخَرَجَتْ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) يعني الملائكةَ، بَعَثَ اللهُ ملائكةً على المشركين فقَلَعَتْ أوتادَ الخيلِ وأطْنَابَ الْفَسَاطِيْطِ، وأطفأتِ النيرانَ وجالَتِ الخيلُ بعضُها في بعضٍ، وكَثُرَ تكبيرُ الملائكةِ في جوانب عسكَرِهم حتى وقعَ بهم الرعبُ فانْهَزَمُوا من غيرِ قتال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذ جَاءوكُم من فَوقِكُم ومِن أسفَلَ مِنكُم﴾، أي مِن فوق الوادِي مِن قِبَلِ المشرق عليهم مالكُ بن عوفٍ البَصْرِيّ، وعُيَينَةُ بن حِصْنِ الفَزَّاري في ألْفٍ مِنْ غطَفَانَ، (وَمِن أسفَلَ مِنكُم)، يعني مِن قِبَلِ المغرب فيهم أبو سفيانَ في قُريشٍ ومَن تَبعَهُ، وأبو الأعْوَر السُّلمي من قِبَلِ الخندقِ.

---

(١) الْخُفُّ: واحد أخفاف البعير. والحافر حافر الفرس. والمراد هنا الإبل والخيل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦١٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة الأحزاب: الحديث (٩٩/ ١٧٨٨).

وكانَ مِن حديثِ الخندق: أنَّ نفراً مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيْعِ وَهَوْذَةُ بْنِ قَيْسٍ وَأَبو عُمَارَةَ الْوَائِلِيُّ، وَجَماعَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيْرِ خَرَجُواْ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْب رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجَابُوهُمْ فَاجْتَمَعُواْ مَعَ قُرَيْشٍ. فَسَارَتْ وَقَائِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الْفَزَّارِيُّ، وَسَارَتْ بَنُو مُرَّةَ وَقَائِدُهَا الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَسَارَتْ بَنُو أشْجَعَ وَقَائِدُهَا مُسْعِرُ بْنُ رَخَيْلَةَ الأشْجَعِيُّ، وَسَارَتْ قُرَيْشُ وَقَائِدُهَا أبُو سُفْيَانَ.

فَلَمَّا سَمِعَ بهمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِيْنَةِ، وَكَانَ الَّذِي أشَارَ بِالْخَنْدَقِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَلْمَانُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا بفَارسَ إذا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا. فَحَفَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى أحْكَمُوهُ.

فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، أقْبَلَتْ قُرَيْشُ حَتَّى نَزَلَتْ بمَجْمَعِ الأسْيَالِ مِنْ رُومَةَ[1]، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَهُمْ ثَلاثَةُ آلافٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، فَكَانَ الْخَنْدَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِيْنَ، وَعَظُمَ عِنْدَ ذلِكَ الْبَلاءُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأتَاهُمُ الْعَدُوُّ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أسْفَلَ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ فِي الْمُنَافِقِيْنَ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبُ بْنُ بَشِيْرٍ الْمُنَافِقُ: كَانَ مُحَمَّدُ وَعَدَنَا أنْ نَأكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَأحَدُنَا لاَ يَقْدِرُ أنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ، مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً[2]. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأقَامَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بضْعاً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً قَرِيْباً مِنْ شَهْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقَوْمِ إلاَّ الرَّمْيَ بالنَّبْلِ وَالْحَصَى وَالْحِصَار[3].

---

(١) اضطربت العبارة في المخطوط: (وأقبلت قريش حتى أقبلت بالمدينة). وضبطت كما في السيرة النبوية: ج ٣ ص٢٣٠.

(٢) اختصر الطبراني قصة الخندق من السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٢٢٤- ٢٣٣. وينظر: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية بن هشام: ج ٣ ص٤١٦-٤٢٥.

(٣) الْحِصَارُ: (حَصَرَهُ) ضيَّقَ عليهِ وأحاطَ بهِ، وكلُّ مَن امتنعَ عن شيءٍ فقد حَصِرَ عنه، وأحْصَرَهُ حبَسَهُ. ينظر: مختار الصحاح: ص١٣٩: (حصر)

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلاَءُ عَلَى النَّاسِ وَاسْتَطَالَ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حُصَيْنٍ وَإِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، وَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ حَتَّى وَقَعَ الْكِتَابُ وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَاسْتَشَارَهُمَا فِي ذَلِكَ، فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَهَذَا شَيْءٌ أَمَرَكَ اللهُ بِهِ أَمْ أَمْرٌ تُحِبُّهُ أَنْتَ أَمْ أَمْرٌ تَصْنَعُهُ لَنَا؟ فَإِنْ كَانَ أَمْراً مِنَ اللهِ لَكَ فَلاَ بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ أَمْراً تُحِبُّهُ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ، وَإِنْ كَانَ شَيْئاً تَصْنَعُهُ لَنَا فَعَرِّفْنَا بِهِ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ وَاللهِ مَا صَنَعْتُ ذَلِكَ إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ بِقَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ شَوْكَتَهُمْ].

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ لَقَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ لاَ نَعْبُدُ اللهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثِمَارِنَا تَمْرَةً إِلاَّ قِرَاءً أَوْ شِرَاءً، فَكَيْفَ وَقَدْ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلاَمِ وَأَعَزَّنَا بِكَ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ! مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لاَ نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [فَأَنْتَ وَذَاكَ]. فَتَنَاوَلَ سَعْدٌ الصَّحِيفَةَ الَّتِي كَتَبُوا فِيهَا صُلْحَهُمْ فَمَحَاهَا(١).

ثُمَّ إِنَّهُمْ تَرَامَوْا بِالنَّبْلِ، فَوَقَعَتْ رَمْيَةٌ فِي أَكْحَلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَطَعَتْهُ، رَمَاهُ ابْنُ الْعُرْقَةِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَمَا زَالَ أَكْحَلُهُ يَسِيلُ دَماً حَتَّى خِيفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ سَعْدٌ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جِهَادِ قَوْمٍ آذَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَكَذبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لَنَا شَهَادَةً وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

ثُمَّ أَتَى نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْغَطَفَانِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّ قَوْمِي مِنْ غَطَفَانَ لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي، فَمُرْنِي فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ عليه السلام: [إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ]. فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق: هم الرسول بعقد صلح بينه وبين غطفان ثم عدل: ج ٣ ص٢٣٤.

أتى بَنِي قُرَيْظَةَ، وكَانَ لَهُمْ نَدِيماً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ؛ لَقَدْ عَلِمْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَمَا بَيْنِي وبَيْنَكُمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ. قَالُوا: صَدَقْتَ؛ لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ.

فقَالَ لَهُمْ: إنَّ قُرَيْشاً وَغطفَانَ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ، وَإنَّ قُرَيْشاً وَغطفَانَ لَيْسُوا كَهَيْئَتِكُمْ؛ لأنَّ هَذِهِ بَلَدُكُمْ وبِهَا أموَالُكُمْ وَأبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى أنْ تَحَوَّلُوا إلَى غَيْرِكُمْ، وَإنَّ قُرَيْشاً وَغطفَانَ أمْوالُهُمْ وَأوْلاَدهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بَعِيدُونَ، إنْ رَأوْا لَهُمْ هَا هُنَا صَوْلَةً وَغَنِيمَةً أخَذُوهَا، وَإنْ كَانَ غَيْرَ ذلِكَ لَحِقُوا ببلاَدِهِمْ، وَخَلَّوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ هَذا الرَّجُلِ وَهُوَ رَجُلٌ بِبَلَدِكُمْ لاَ طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ، فَلاَ تُقَاتِلُوهُ حَتَّى تَأْخُذُوا رَهْناً مِنْ أشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغطفَانَ يَكُونُونَ بِأيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَى أنْ يُقَاتِلُوا مَعَكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أشَرْتَ بِرَأيٍ وَنَصِيحَةٍ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أتَى قُرَيْشاً، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إيَّاكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّداً، وَقَدْ بَلَغَنِي أمْراً رَأيْتُ حَقّاً عَلَيَّ أنْ أبْلِغَكُمُوهُ نُصْحاً لَكُمْ، فَاكْتُمُوا عَلَيَّ. قَالُوا: نَفْعَلُ! قَالَ: اعْلَمُوا أنَّ مَعْشَرَ الْيَهُودِ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أرْسَلُوا إلَيْهِ: أنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى فِعْلِنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ عَنَّا أنْ نَأخُذ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ قُرَيْشٍ وَغطفَانَ رجَالاً مِنْ أشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبُ رِقَابَهُمْ، ثُمَّ نَكُونُ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: نَعَمْ. وَأنْتُمْ إذا بَعَثَتِ الْيَهُودُ إلَيْكُمْ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْناً مِنْ رجَالِكُمْ فَلاَ تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ رَجُلاً وَاحِداً.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أتَى غطفَانَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ غطفَانَ؛ أنْتُمْ أصْلِي وَعَشِيرَتِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، وَلاَ أرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي. قَالُوا: صَدَقْتَ! قَالَ: فَاكْتُمُوا عَلَيَّ، قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذرَهُمْ مَا حَذرَهُمْ.

فَأرْسَلَ أبُو سُفْيَانَ وَرُؤُوسُ غطفَانَ إلَى يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ نَفَراً مِنْ قُرَيْشٍ وَغطفَانَ، فَأتَوْهُمْ وَقَالُوا لَهُمْ: قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَأعِدُّوا لِلْقِتَالِ حَتَّى يَفْرَغَ مَا بَيْنَنَا وبَيْنَ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ بَنُو قُرَيْظَةَ: لَسْنَا بِالَّذِي نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رَهْناً مِنْ رجَالِكُمْ تَكُونُ ثِقَةً بِأيْدِينَا، فَإنَّا نَخَافُ أنَّكُمْ إذا اشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْحَرْبُ وَالْقِتَالُ أنْ تَسِيرُوا إلَى بلاَدِكُمْ وَتَتْرُكُونَا، وَهَذا الرَّجُلُ قَرِيبٌ مِنْ بلاَدِنَا، وَلاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

فَرَجَعَتِ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ وَغَطَفَانُ: وَاللهِ إنَّ الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ. وَأَرْسَلُوا إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: وَاللهِ لاَ نَدْفَعُ إلَيْكُمْ رَجُلاً وَاحِداً مِنْ رِجَالِنَا، وَلَكِنَّكُمْ إنْ كُنْتُمْ تُرِيْدُونَ الْحَرْبَ فَاخْرُجُوا مَعَنَا فَقَاتِلُوا وَنَحْنُ مَعَكُمْ. قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ: لاَ نُقَاتِلُ إلاَّ إذا أعْطَيْتُمُونَا رَهْناً مِنْ رِجَالِكُمْ. فَقَالُوا لَهُمْ: حَدَّثَنَا نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ بذلِكَ فَلَمْ نُصَدِّقْهُ، فَقَالُوا لَهُمْ: إنَّ الَّذِي ذَكَرَهُ لَكُمْ حَقٌّ. وَخَذلَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ الرِّيْحَ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شَدِيْدَةِ الْبَرْدِ حَتَّى انْصَرَفُوا رَاجِعِيْنَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِيْنَ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونَا)، فأمَّا المنافقونَ فظَنُّوا أنَّ مُحَمَّداً وأصحابَهُ سيُغلبون ويُستأصَلون، وأما المؤمنونَ فأيقنُوا أنَّ ما وعدَهم اللهُ تعالى حقٌّ، وأنه سيُظْهِرُ دِيْنَهُ على الدِّين كلِّه ولو كَرِهَ المشركونَ. قال الحسنُ في معنى: (وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا): (يَعْنِي ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ خَيْراً، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أنَّ الْكَافِرِيْنَ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ)[(٢)].

قرأ نافعُ وعاصم وابنُ عامر: (الظُّنُونَا) و(الرَّسُولاَ) و(السَّبِيْلاَ) بإثباتِ الألفِ فيها وَقْفاً ووَصْلاً لأنه من أواخرِ الآي، وقرأ أبو عمرٍو بغير ألفٍ وقفاً ووَصْلاً، وقرأ الباقون بالألفِ في الوقفِ دون الوصلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في تلكَ الحالِ اخْتُبِرَ المؤمنونَ بالقتالِ ليتبيَّن المخلصُ من المنافقِ. وَقِيْلَ: معناهُ: امْتُحِنَ المؤمنونَ بالخوفِ الشَّديد الذي عندَهُ يظهرُ المؤمنُ القويُّ من المؤمنِ الضعيفِ، وذوُوا العزمِ الصحيحِ من غيرِهم. وقوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أزْعِجُوا وحُرِّكُوا تَحريكاً شديداً، وذلك أن الخائفَ يكون قَلِقاً مُضطرباً لا يستقرُّ على مكانِه.

---

(١) قصة نعيم بن مسعود الغطفاني أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٢٤٠-٢٤٤.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢١٦٢٧). وفي التفسير الكبير لابن أبي حاتم: الأثر(١٧٦٠٨) عن الحسن قال: (ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ معناهُ: وإذ يقول الذين يستبطنون الكفرَ والذيـن في قُلوبهم شَكٌّ وضَعْفُ اعتقادٍ: ما وَعَدَنا مُحَمَّدٌ أنَّ فارسَ والرومَ يُفتحان علينا ونحنُ في مكانِنا هذا الذي لا يقدرُ أحدٌ أن يَبْرُزَ لحاجتِهِ إلاَّ باطلاً. قال قتـادةُ: (قَـالَ نَـاسٌ مِـنَ الْمُنَافِقِيْنَ: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أنْ نَفْتَحَ قُصُورَ الشَّامِ وَفَارسَ، وَأحَدُنَا لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يُجَاوزَ رَحْلَهُ، هَذا وَاللهِ الْغُرُورُ)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (هُـمْ بَنُـو سَـالِمٍ مِـنَ الْمُنَـافِقِيْنَ)[٢]، وقـال السـديُّ: (عبـدُاللهِ بْـنُ أُبَـيٍّ وَأصْحَابُهُ). (يَا أهْلَ يَثْرِبَ) أي يا أهلَ المدينةِ، قال أبـو عُبيـدة: (يَـثْرِبُ اسْـمُ أرْضٍ، ومَدِيْنَةُ الرَّسُولِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا)[٣]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ مُقَامَ لَكُمْ) أي لاَ مَوْقِفَ لكم في هذا الموضعِ، فارجعُوا إلى المدينةِ.

وقرأ عاصمُ (لاَ مُقَامَ) بضمِّ الميمِ؛ أي لا إقامةَ لكم ها هُنا؛ لكثرةِ العدُوِّ وغلبةِ الخرَاب، فارجعُوا إلى منازلِكم، أمَرُوهم بالهرب من عسكرِ رسُولِ اللهِ ﷺ[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ ؛ معناهُ: ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ ﷺ في الرُّجوعِ إلى منازلِهم بالمدينةِ؛ وهم: بنُو حَارثةَ وبَنُو سَلَمَةَ، وكانوا يعتَلُّون في الاستئذانِ بقولِهم: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ؛ أي بيوتُنا خاليةٌ من الرِّجَـال نخافُ عليها، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ بيوتَنا ليست بحَديـدةٍ. وقـال مقـاتلُ والحسـنُ: (مَعْنَـاهُ: قَالُواْ بُيُوتُنَا ضَائِعَةٌ نَخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقَ)[٥]. وقال قتادةُ: (قَالُواْ بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي الْعَـدُوَّ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٣١).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٨.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٤ ص١٤٨.

(٤) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١١ ج ٢٠ ص١٦٤.

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٩.

وَلاَ نَأْمَنُ عَلَىٰ أَهْلِنَا)[١]. فكذبَهم اللهُ تعالى وَأعْلَمَ أنَّ قصدَهم الهربُ، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ مِن القتالِ ونُصرةِ المؤمنينَ.

وقرأ ابنُ عبَّاس وأبو رجاءٍ: (إنَّ بُيُوتَنَا عَوِرَةٌ) بكسر الواو؛ أي قصيرةُ الجدران، فيها خلَلٌ وفُرجَةٌ. قال الزجَّاجُ: (يُقَالُ: عَوِرَ الْمَكَانُ يَعْوَرُ عَوَراً وَعَوْرَةً، وَبُيُوتٌ عَوْرَةٌ وَعَورَةٌ، وَهِيَ مَصْدَرٌ). والعَوْرَةُ في اللغة: ما ذهَبَ عنه السَّتْرُ والحِفظُ، تقولُ العربُ: اعْوَرَّ الفارسُ إذا كان فيه موضعُ خللٍ للضَّرب، وعَوِرَ المكانُ إذا بَدَتْ منه عورةٌ. قال الشاعرُ:

مَتَى تَلْقَهُمْ، لاَ تَلْقَ لِلْبَيْتِ عَوْرَةً ... وَلاَ الضَّيْفَ مَحْرُوماً وَلاَ الْجَارَ مُرْمِلا[٢]

يقال: أرْمَلَ القومُ إذا فرغ زادُهم[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ ؛ أي لو دُخلَتِ المدينةُ على هؤلاءِ المنافقين مِن أطرافِها، يعني: لو دَخَلَ عليهم هؤلاءِ الأحزابُ من نواحِيها، ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ﴾ ؛ أي ثُم دُعوا إلى الشِّركِ لأجَابُوها سَريعاً وأعطَوها من أنفُسِهم. والمعنى: لو أنَّ الأحزابَ دخلُوا المدينةَ، ثُم أمَرُوهم بالشِّركِ لأشْرَكُوا.

وقرأ أهلُ المدينةِ (لأتَوْهَا) بالقصرِ؛ أي لفعَلُوها بأنفسِهم، ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وما يلبثُون بإجابتِها إلاَّ قليلاً حتى يَقْبَلُوا. قال قتادةُ: (وَمَا احْتَبَسُوا عَنِ الإجَابَةِ إلَى الْكُفْرِ إلاَّ قَلِيْلاً)، ويقالُ: ما يتَلَبَّثُونَ بالمدينةِ بعدَ إجابَتِهم إلاَّ يَسِيراً حتى يَهْلَكُوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٣).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٤٨:

مَتَى تَلْقَهُمْ، لاَ تَلْقَ لِلْبَيْتِ مُعْوِراً ... وَلاَ الضَّيْفَ مفجوعاً وَلاَالْجَارَ مُرْمِلاَ

(٣) الْمُرْمِلُ: الذي نَفِدَ زَادُه؛ ومنه حديث أبي هريرة: كنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في غَزَاةٍ، فَأَرْمَلْنَا وَأَنْفَضْنَا. وحديثُ أمِّ معبَدٍ: [وَكَانَ الْقَوْمُ مُرمِلِينَ] أي نفدَ زادُهم. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري: ج ١٠ ص١٤٩. ولسان العرب لابن منظور: ج ٥ ص٣٢١. والروض الأنف: ج ٢ ص٣٢٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ ؛ قِيلَ: إنَّهم بنُو حارثةَ هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أن يَفْشَلُوا مع بني سَلَمَةَ، فلمَّا نزلَ فيهم ما نزلَ، عاهَدُوا اللهَ أن لا يعُودُوا لِمثلِها. وقال قتادةُ: (هُمْ قَوْمٌ كَانُوا غَابُوا عَنْ وَقْعَةِ بَدْر، وَرَأوا مَا أعْطَى اللهُ أهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيْلَةِ، فَقَالُوا: لَئِنْ أشْهَدَنَا اللهُ قِتَالاً لَنُقَاتِلَنَّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ لَمْ يَفُوا بذلِكَ الْعَهْدِ)[1].

ومعنى الآيةِ: ولقد كانوا عاهَدُوا اللهَ من قَبْلِ غزوةِ الخندق (لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ) أي لا ينهَزمون ولا يُوَلُّونَ العدوَّ ظُهورَهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي مُطَالَباً مَسْؤُولاً عنه مُحَاسَباً عليهِ، يُسأَلُونَ عنه في الآخرةِ.

ثُم أخبرَ اللهُ أنَّ الفرارَ لا يزيدُهم في آجالِهم؛ فقالَ: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ ؛ أي مِن حضَرَ أجلهُ ماتَ أو قُتِلَ، فكلاهُما مكتوبٌ عليكم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي إنْ فرَرْتُمْ من الموتِ أو القَتْلِ في هذه الوقعةِ لَمْ يُمَتَّعُوا إلاَّ قليلاً حتى يلحَقَكُم أحدُ الأمرين. والمعنى: لا تُمَتَّعُونَ بعدَ الفرار في الدُّنيا إلاَّ مدَّةَ أجَلِكُم.

ثُم أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ ما قَدَّرَهُ عليهم وأرادَهُ بهم لا يُدْفَعُ عنهم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن الذي يُجيرُكم ويَمنعُكم من اللهِ، ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ ؛ أي هَلاَكاً وهزيمةً، ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ ؛ أي خيراً وهو النصرُ. وهذا كُلُّهُ أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يُخاطِبَهم بهذه الأشياءِ.

ثُم أخبرَ اللهُ أنه لا ينفعُهم قريبٌ ولا ناصِرٌ ينصرُهم من اللهِ، فقال تعالَى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ؛ قال المفسِّرون: هؤُلاءِ قومٌ مِن المنافقين، كانوا يبطئُون الْمُجَاهِدِيْنَ ويَمْنَعُونَهُمْ عن الجهاد. يقال: عَاقَ يَعُوقُ؛ إذا مَنَعَ، وَعَوَّقَ إذا اعتادَ المنعَ، وعَوَّقَهُ إذا صَرَفَهُ عنِ الوجهِ الذي يريدهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٤٢).

قال قتادةُ: (هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ، كَانُواْ يَقُولُونَ: مَا مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ إلاَّ أكَلَةُ رَأس، وَلَوْ كَانُوا لَحْماً لاَلْتَهمَهُمْ أبو سُفْيَانَ وَحِزْبُهُ، دَعُوا هَذا الرَّجُلَ فَإنَّهُ هَالِكٌ، فَخَلُّوهُمْ وَتَعَالُواْ إلَيْنَا)[١].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقَائِلِينَ لإخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا) أي ويعلمُ القائلينَ لإخوانِهم تعالَوْا إلينا ودَعُوا مُحَمَّداً فلا تشهَدُوا معه الحربَ، فإنَّا نخافُ عليكم الهلاكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يحضُرونَ القتالَ في سبيلِ الله إلاَّ قَلِيْلاً؛ أي لا يُقاتِلُونَ إلاَّ رياءً وسُمعةً من غيرِ احتسابٍ، ولو كان ذلك القليلُ للهِ لكانَ كثيراً.

قَوْلُهُ: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي بُخلاءَ عليكُم بأنفسِهم وأموالِهم، لا ينفقون شيئاً منها في سبيلِ الله ونُصرةِ المؤمنين. ثُم أخبرَ عن جُبْنِهِمْ فقالَ تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، من الخوفِ والفَزَعِ كما تدورُ أعيُنُ الذي يحضرهُ الموت فيُغشَى عليهِ، ويذهبُ عقله ويَشخَصُ بصرهُ فلا يطرفُ، كذلك هؤلاءِ تَشْخَصُ أبصارُهم وتُحَارُ أعينُهم لِما يلحقُهم من الخوفِ، ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ؛ أي بَسَطُوا ألسِنَتَهم وأرسَلُوها، طاغِينَ عليكم. قال الفرَّاء: (مَعْنَاهُ: آذوْكُمْ بالْكَلاَمِ وَعَضُوكُمْ بألْسِنَةٍ سَلِيْطَةٍ ذربَةٍ)[٢] يُقَالُ: خَطِيْبٌ مِسْلاَقٌ إذا كَانَ بَلِيْغاً فِي خِطَابِهِ[٣].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي بُخلاءَ بالغَنيمةِ، يخاصِمُون فيها ويُشَاحُّونَ المؤمنينَ عليها عند القِسْمَةِ، فيقولونَ: أعْطُونا فلَسْتُمْ أحقَّ مِنَّا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ ؛ أي هُم وإنْ أظهَرُوا الإيْمانَ ونافَقُوا فليسوا بمؤمنينَ، ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ؛ أي أبْطَلَ جهادَهم وثوابَ أعمالِهم؛ لأنه لَم يكن في إيْمانٍ، ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإحباطُ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قال

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٤٧). ومعنى (ما هم إلا أكَلَةُ رأس) أي قليل، يشبعهم رأس واحد. وهو جمع آكل.

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٣٩.

(٣) ينظر: إعراب القرآن لابن النحاس: ج ٣ ص٢١١.

مقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: فَإذا ذهَبَ الْخوْفُ وَجاءَ الأَمْنُ وَالْغَنِيمَةُ، سَلَقُوكُمْ بأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ؛ أيْ بَسطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ وقْتَ قِسمَةِ الْغَنِيمَةِ، وَسَيَقُولُونَ: أَعْطُونَا فَلَسْتُمْ أَحَقَّ بِهَا مِنَّا! فَأَمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ وَالْقِتَالِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذلُهُمْ، وَأَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ أي يَظُنُّ المنافقونَ مِن جُبْنِهم وخُبْثِهم أنَّ الأحزابَ لَم يذهَبُوا إلى مكَّة وقد ذهبُوا، ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ ؛ في المرَّة الثانيةِ؛ أي يرجعُون إلى القتَال، ﴿ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ؛ داخلونَ في الباديةِ معَ الأعراب، ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ ؛ أي يَتمَنَّوْنَ لو كانوا في باديةٍ بالبُعْدِ منكُم، يسألونَ عن أخبارِكم يقولونَ: مَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ وأصْحَابُهُ؟! فيعرفُون حالَكم بالاستخبار لا بالمشاهدةِ. والمعنى بسُؤالِهم: أنه إذا كانَ الظَّفَرُ لكم شارَكُوكم، وإنْ كان للمشركين شارَكُوهم، كلٌّ هذا مِن الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ. قرأ يعقوبُ (يَسَّاءَلُونَ) بالتشديد والمدِّ، بمعنى يَتَساءَلُونَ؛ أي يَسألُ بعضُهم بعضاً عَن أخبارِكم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ لو كانَ هؤلاءِ المنافقونَ فيكم ما قَاتَلُوا إلاَّ رَمْياً بالحجارةِ من غيرِ احتسابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ؛ أي لقد كان لكُم في رسولِ اللهِ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ في الصَّبر على القتال والثَّبَاتِ عليه واحتمال الشَّدائد في ذاتِ اللهِ، ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ يرجو ثَوابَ اللهِ، ﴿ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ ، وثواب الدنيا والآخرة، ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ ، وذلكَ: أنَّ كل من زادَ أو ذكَرَ اللهَ في لسانهِ ازدَادت رغبتهُ في الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ.

ومعنى الآيةِ: لقد كان لكُم في رسول الله اقتداءٌ لو اقتديتُم به، والصبرُ معه في مواطنِ القتال كما فَعَلَ هو يومَ أُحُد إذ كُسِرَتْ رباعيَّتهُ وشُجَّ حاجبهُ وقُتِلَ عمُّه، فواسَاكم مع ذلك بنفسهِ، فهلاَّ فعلتم مثلَ ما فعلَ هو. وقوله تعالى: (لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ) يدلٌّ من قوله (لَكُمْ) وهو تخصيصٌ بعد التعميمِ للمؤمنين.

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن حيان: ج ٣ ص٤١، بلفظ قريب من هذا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى كان قد وَعَدَهم في سُورةِ البقرةِ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾... إلى قولهِ﴿أَلا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[1] وقولهِ تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي ما زادَهم ما رأوهُ إلاَّ إيْماناً وتصديقاً بوعدِ الله وتَسليماً لآخره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي مِن جُملة المؤمنينَ رجالٌ وَافوا ما عاهدُوا اللهَ عليه بالثَّباتِ على الدِّين والعملِ بموجبهِ من الصَّبر على القتال وغيرِ ذلك، ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ ؛ أي مَن وَفَّى بنذرهِ، ومنهم مَن أقامَ على ذلك العهدِ حتى قُتِلَ شَهيداً في سبيلِ الله. قِيْلَ: إنَّ المرادَ به حَمْزَةَ ابن عبدِ المطَّلب وأصحابهُ الذين قُتِلُوا يومَ أحُدٍ.

والنَّحْبُ في اللُّغة: النَّذْرُ، وَقِيْلَ: النَّحْبُ هو النَّفَسُ، ومنه النَّحِيْبُ: وهو التَّنَفُّسُ الشديدُ والنَّشْجُ في البكاءِ[3]. والمعنى على هذا القول:(مِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ ؛ الموتَ على ذلك العهدِ. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) أي ماتَ أو قُتِلَ في سبيلِ الله فأدركَ ما تَمنَّى، فذلك قضاءُ النَّحْب. وَقِيْلَ: فَرَغَ من عملِه، ورجعَ إلى اللهِ. وقال الحسنُ: (قَضَى أجَلَهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَالصِّدْقِ)[4]، قال ابنُ قُتيبةَ: (قَضَى نَحْبَهُ: قُتِلَ).

وأصلُ النَّحْب: النَّذْرُ، كان قومٌ نذرُوا أنَّهم إنْ لَقُوا العدوَّ قاتلُوا حتى يُقْتَلُوا أو يَفتحَ اللهُ تعالى فَقُتِلُوا. يقال: فلانٌ قَضَى نَحْبَهُ، إذا قُتِلَ. وقال مُحمَّد بنُ اسحق: (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، مَن اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأحُدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ مَا وَعَدَ اللهُ مِنْ نَصْرٍ أوْ شَهَادَةٍ عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ أصْحَابُهُ)[5].

---

(١) الآية / ٢١٤ . (٢) الفتح / ٢٨ .

(٣) النَّشْجُ: صوتٌ معه يردِّدُ الصبي بكاءً في صدرهِ، فيحزنُ ببكائهِ مَن يسمعهُ. ينظر: الغريبين في القرآن والحديث: ج ٦ ص١٨٣٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٧١).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٦٦٧)؛ قال: (حدثني يزيد بن رومان) وذكره. وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣٤.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالَتْ: طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِاللهِ مِمَّـنْ قَضَـى نَحْبَـهُ، ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى أُصِيبَتْ يَـدُهُ، فَقَـالَ ﷺ: [أوْجَـبَ طَلْحَـةُ الْجَنَّـةَ][1]. وعن أبي نَجيحٍ: أنَّ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ كَانَ يَوْمَ أحُدٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَبَلِ، فَجَـاءَ سَهْمٌ مُتَوَجِّهٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فاتَّقَاهُ طَلْحَةُ بيَدِهِ فَأَصَاب خِنْصِرَهُ.

وعن عائشةَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى رَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ، فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ][2]. وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُـرَ إلَـى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللهِ][3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي مـا غـيَّرُوا عـهدَ اللهِ الـذي عـاهَدُوه عليــهِ كمــا غـيَّرَهُ المنـافقون. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ ؛ أي صِدْقَ المؤمنونَ في عـهدِهم ليجزيَـهم اللهُ بصدقِـهم، ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ؛ بنقضِ العهدِ، ﴿ إِن شَآءَ ﴾ ؛ قال السـديُّ: (يُمِيتُـهُمُ اللهُ عَلَى نِفَاقِهِمْ إنْ شَاءَ فَيُوجِبُ لَهُمُ الْعَـذابَ)[4]. فمعنـى شَـرْطِ المشيئةِ في عـذاب المنـافقين إمَاتَتُهُمْ على النفاق إنْ شاءَ ثُم يعذِّبُهم، ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ فيغفرُ لَهم، ليس أنه يجوزُ أن لا يُعذِّبَـهم إذا مَـاتُوا علـى النِّفـاقِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ ؛ لِمَـن تـاب ﴿ رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التَّوبةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ﴾ ؛ معنــاهُ: وصَرَفَ اللهُ الكفَّارَ عن المؤمنينَ مُغتاظِين لَم يكن فيهم مَن شَفَا غَيْظَهُ، ولَم ينالوا منهم مَـالاً ولا غنيمـةً، ولَـم يَـرَوا سُـروراً، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ ؛ بـالرِّيحِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٧-٥٨٨؛ قال السيوطي (أخرجه الحاكم). ومـن طريـق الزبـير ﷺ أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الجهاد: باب ما جاء في الدرع: الحديث (١٦٩٢).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وأبو يعلى وابن المنذر وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة).

(٣) عن جابر بن عبدالله، أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب المناقب: الحديث (٣٧٣٩)، وقال: هذا حديث غريب.

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٨٩، ذكره السيوطي من تفسير قتادة، وقال: أخرجه الطبري.

والملائكةِ التي أرسِلَتْ عليهم، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا ﴾ ؛ أي لَم يَـزَلْ قويّاً في مُلكِـهِ، ﴿ عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ، في قدرته مَنيعاً بالنِّقمةِ من أعدائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: وأنزلَ الذين عَاوَنُوا المشركينَ من أهلِ الكتاب وهم بنُو قريظة، نقضُـوا العـهدَ وأعَانُوا الأحزابَ على رسول الله ﷺ، فأنزلَهم اللهُ من حُصونِهم مع شدَّةِ شـوكتِهم، وألقَى في قلوبهم الرُّعبَ. وذلك أنَّ بنِي قريظةَ كانوا قد عاهَدُوا رسولَ الله ﷺ أن لاَ ينصرُوا أعداءَهُ عليهِ، فلما رَأوا الأحزابَ وكثرَتَهم ظنُّـوا أنَّـهم يستأصِلُون المؤمنِـينَ، فنقَضُوا العهدَ ولَحقوا بهم.

فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى بَيْتِهِ، أرَادَ أنْ يَنْزِعَ لاَمَتَـهُ، فَسَـمِعَ هَسِيْساً، فَنظَرَ فَإذا جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي دِرْعِهِ وَسِلاَحِهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ: أتَنْزِعُ لاَمَتَـكَ يَـا رَسُولَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةُ لَمْ يَنْزِعُوا حَتَّى يُقَاتِلُوا بَنِي قُرَيْظَةَ وَيُصَلَّى فِيهِمُ الْعَصْرُ ؟! فَقَالَ ﷺ: [وَكَيْفَ لِي بقِتَالِهِمْ وَهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ؟!] فَقَالَ جِبْرِيْلُ: لأُلْهِمَنَّكَ ذلِكَ، فَوَاللهِ لأَدُقَّنَّهُمُ الْيَوْمَ كَمَا يُدَقُّ الْبَيْضُ عَلَى الصَّفَا. فَنَـادَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِـي الأَصْحَـاب، فَخَرَجُوا إلَى حُصُون بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأُلْقِي الرُّعْبُ فِي قُلُوب الْقَوْمِ حَتَّى طَلَبُوا الصُّلْـحَ، وَأبَوا إلاَّ أنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ أصَابَهُ سَهْمٌ فِي أكْحَلِهِ فِي حَرْب الْخَنْدَق، فَسَألَ اللهَ أنْ يُؤَخِّـرَهُ إلَى أنْ يَرَى قُرَّةَ عَيْنِ النَّبيِّ ﷺ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ. فَلَمَّا طَلَبَتْ بَنُو قُرَيْظَـةَ الـنُّزُولَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، رَضِيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، فَحُمِـلَ سَـعْدٌ إلَـى النَّـبيِّ ﷺ وَقَـدِ احْتَبَسَ أكْحَلُهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: [احْكُمْ فِيْهِمْ]. فَقَالَ: حَكَمْتُ فِيْهِمْ بـأنْ يُقْتَـلَ مُقَاتِلَتُـهُمْ وَيُسْبَى ذرَارِيهِمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأمْوَالُهُمْ. فَقَالَ ﷺ: [حَكَمْتَ فِيْـهِمْ مِثْـلَ مَـا حَكَـمَ اللهُ فِيْهِمْ]. فَلَمَّا قُتِلَتْ مُقَاتِلَتُهُمْ وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذرَارِيهُمْ، انْفَجَرَ أكْحَـلُ سَـعْدٍ فَمَـاتَ رَحِمَهُ اللهُ[1].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٨٨-٢١٦٩١) مطولاً وفيه قصة.

والصَّيَاصِيُّ: جمعُ صيصَةٍ، وصِيصَةُ الثَّور قَرْنُه، سُمِّي بذلكَ؛ لأنَّ قَرْنَهُ حِصْنُهُ الَّذِي يَتَحَصَّنُ بِهِ.

وَرُوِي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي انْصَرَفَ فِيهَا الأَحْزَابُ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ إلَى الْمَدِيْنَةِ، وَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ السِّلاحَ، أتَى جِبْرِيْلُ عليه السلام إلَى النَّبِيِّ ﷺ مُعْتَجِراً بعِمَامَةٍ مِنْ اسْتَبْرَقَ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيْفَةٌ مِنْ دِيْبَاجٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ يَغْسِلُ رَاسَهُ وَقَدْ مَشَّطَتْ عِقْصَتَهُ[1]، فَقَالَ جِبْرِيْلُ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: عَفَا اللهُ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَوَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلائِكَةُ السِّلاحَ مُنْذُ أرْبَعِيْنَ لَيْلَةٍ، إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ بالسَّيْرِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَكَانَ هَذا فِي وَقْتِ الظُّهْرِ، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ مُنَادِياً يُنَادِي: [مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيْعاً فَلاَ يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ]. وَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ برَايَتِهِ إلَيْهِمْ، فَسَارَ إلَيْهِمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى إذا دَنَا مِنَ الْحُصُون سَمِعَ مِنْهُمْ مَقَالَةً قَبِيْحَةً فِي رَسُول اللهِ ﷺ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ رضي الله عنه حَتَّى لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ بالطَّرِيْقِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ عَلَيْكَ أنْ تَدْنُو مِنْ هَؤُلاَءِ الْخَبَائِثِ، قَالَ: [أظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ أذى ؟] قَالَ: نَعَمْ. فَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُمْ حَتَّى دَنَا مِنْ حُصُونِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: [يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ أخْزَاكُمُ اللهُ، وَأنْزَلَ فِيْكُمْ نِقْمَتَهُ] قَالُواْ: يَا أبَا الْقَاسِمِ! مَا كُنْتَ جَهُولاً[2].

فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْساً وَعِشْرِيْنَ لَيْلَةً حَتَّى جَهَدَهُمُ الْحِصَارُ، وَقَذفَ فِي قُلُوبهِمُ الرُّعْبَ. فَلَمَّا أيْقَنُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيْرُ رَاجِعٍ عَنْهُمْ، قَالَ لَهُمْ كَعْبُ بْنُ أسَدٍ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ؛ إنَّهُ قَدْ نَزَلَ بكُمْ مِنَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإنِّي سَأعْرِضُ عَلَيْكُمْ ثَلاَثَ خِصَالٍ، فَخُذُواْ بأيِّهَا شِئْتُمْ. قَالُواْ: وَمَا هِيَ ؟

قَالَ: أمَّا الأُوْلَى فَنُبَايعُ هَذا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأنَّهُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابكُمْ، فَتَأْمَنُوا عَلَى دِمَائِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ. قَالُواْ: لاَ نُفَارِقُ دِيْنَنَا أبَداً، وَلاَ نَسْتَبْدِلُ بهِ غَيْرَهُ.

---

(١) العَقِيصَةُ: الضَّفِيرَةُ، وعَقْصُ الشَّعر: ضَفْرُ ولَيُّهُ على الرأسِ.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٨٩).

قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ هَذِهِ عَلَيَّ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجَ إِلَى مُحَمَّدٍ رِجَالاً مُصَلِّتِينَ بِالسُّيُوفِ، وَلَمْ يَكُنْ وَرَاءَنَا ثِقْلٌ يَهُمُّنَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. قَالُوا: نَقْتُلُ هَؤُلاَءِ الْمَسَاكِيْن ! فَلاَ خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ.

قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ هَذِهِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُوا فِيهَا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً. قَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ أَحْدَثَ فِيهِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِينَ أَحْدَثُوا فِيه الأَحْدَاثَ مُسِخُوا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ مَنْ هُمْ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الأَوْسِ، نَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ. فَسَأَلُوهُ إِنْ نَنزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ: أَنَّهُ الذبحُ. قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ أَعْمِدَتِهِ، وَقَالَ: لاَ أَبْرَحُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَعَاهَدَ اللهَ تَعَالَى أَنْ لاَ يَطَأَ أَرْضَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَداً، وَقَالَ: لاَ يَرَانِي اللهُ فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيْهِ. فَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ قَالَ: [أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لاَسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ تَوْبَتَهُ، فَقَالَ ﷺ: [تُبْتُ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ] فَثَارَ النَّاسُ إِلَى أَبِي لُبَابَةَ لِيُطْلِقُوهُ، فَقَالَ: وَاللهِ لاَ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَطْلَقَهُ.

قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ بَنُو قُرَيْظَةَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَوَاثَبَتِ الأَوْسُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّهُمْ مَوَالِيْنَا - أَيْ حُلَفَاؤُنَا - دُونَ الْخَزْرَجِ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِي الْخَزْرَجِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ حَاصَرَ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَسَأَلَهُمْ إِيَّاهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أَبِى سَلُولٍ فَوَهَبَهُمْ لَهُ. فَلَمَّا كَلَّمَهُ الأَوْسُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ؛ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ أُحَكِّمَ فِيْهِم رَجُلاً مِنْكُمْ ؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ:[فَذَاكَ] إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَدْ جَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَيْمَةِ امْرَأَةٍ مِنَ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهَا رُفَيْدَةُ، تُدَاوِي الْجَرْحَى وَتَخْدِمُ الْمَرْضَى.

فَلَمَّا حَكَّمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، أَتَاهُ قَوْمٌ فَاحْتَمَلُوهُ عَلَى حِمَارٍ، وَقَدْ وَطَّأُوا لَهُ وِسَادَةً مِنْ أدَمٍ، وَكَانَ رَجُلاً جَسِيماً. ثُمَّ أقْبَلُوا بِهِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا أبَا عَمْرٍو! أحْسِنْ فِي مَوَالِيْكَ، فَإنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا وَلاَّكَ ذلِكَ لِتُحْسِنَ فِيْهِمْ. فَلَمَّا أكْثَرُوا عَلَيْهِ؛ قَالَ: لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أنْ لاَ تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ. فَعَرَفُوا أنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ مَقْتُولُونَ.

فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:[قُومُوا إلَى سَيِّدِكُمْ، فَأنْزِلُوهُ] فَقَامُوا إلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أبَا عَمْرٍو؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ وَلاَّكَ مَوَالِيكَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ سَعْدٌ: عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيْثَاقُهُ أنَّ الْحُكْمَ فِيْهِمْ مَا حَكَمْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أحْكُمُ فِيْهِمْ أنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ وَتُسْبَى الذرَارِي وَالنِّسَاءُ. فَقَالَ ﷺ: [لَقَدْ حَكَمْتَ فِيْهِمْ يَا سَعْدُ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أرْقِعَةٍ]. ثُمَّ اسْتُنْزِلُوا، فَحَبَسَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دَارِ ((ابْنَةِ الْحَارِثِ))(١) امْرَأةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِمْ مَنْ يُخْرِجُهُمْ إلَيْهِ إرْسَالاً، وَأمَرَ بِضَرْبِ أعْنَاقِهِمْ.

وَكَانَ فِيْهِمْ يَوْمَئِذٍ عَدُوُّ اللهِ حَيِيُّ بْنُ أخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ أسَدٍ رَأسُ الْقَوْمِ فِي سَبْعِمِائَةٍ. وَقِيْلَ: مِنْ ثَمَانِمائَةٍ إلَى تِسْعِمِائَةٍ، فَقَالُوا لِكَعْبٍ وَهُوَ يَذْهَبُ بِهِمْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ أرْسَالاً: يَا كَعْبُ مَا تَرَى مَا يُصْنَعُ بِنَا؟ قَالَ: مَا لَكُمْ لاَ تَعْقِلُونَ! ألاَ تَرَوْنَ مَنْ ذهَبَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُ، هُوَ وَاللهِ الْقَتْلُ، فَلَمْ يَزَلْ ذلِكَ دَأْبُهُمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أُتِيَ بِحُيَيِّ بْنِ أخْطَبَ عَدُوِّ اللهِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ لَهُ فقَّاحِيَّةٌ(٢) وَيَدَاهُ مَغْلُولَتَانِ إلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ، ثُمَّ أجْلِسَ فَضُرِبَ عُنُقُهُ(٣).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كَانَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَضْرِبَانِ أعْنَاقَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ هُنَاكَ)، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْ نِسَاءِ بَنِي قُرَيْظَةَ إلاَّ امْرَأةٌ وَاحِدَةٌ، كَانَتْ وَاللهِ عِنْدِي تَتَحَدَّثُ مَعِي وَتَضْحَكُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْتُلُ رِجَالَهَا،

---

(١) ما بين ((   )) سقطت من المخطوط.

(٢) أي لونها كلون الورد حين يتفتح.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٩٠-٢١٦٩١).

فَبَيْنَا هِيَ كَذلِكَ إذ هَاتِفٌ يَهْتِفُ باسْمِهَا: أَيْنَ فُلاَنَةُ. قَالَتْ: هِيَ أَنَا وَاللهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: وَيْلَكِ وَمَا تِلْكَ؟ قَالَتْ: طُلِبْتُ لأُقْتَل، قُلْتُ: وَلِمَ ؟ قَالَتْ: حَدَثاً أَحْدَثْتُهُ، قَالَتْ: فَانْطُلِقَ بهَا فَضُرِبَ عُنُقُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا أَنْسَى عَجَباً مِنْهَا، طِيبَ نَفْسٍ وكَثْرَةَ ضَحِكٍ، وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ)[1] . قال الواقديُّ: (وَاسْمُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ نُبَاتَةُ)[2] امْرَأَةُ الْحَكَمِ الْقُرَظِيِّ، وكَانَتْ قَتَلَتْ خَلاَّدَ بْنَ سُوَيْدٍ، رَمَتْ عَلَيْهِ رَحًى فقَتَلَهُ، فقَتَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بخَلاَّدِ بْنِ سُوَيْدٍ.

وعن الزهريِّ ﷺ قالَ: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْظَةَ يُقَالُ لَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطَا وَيُكَنَّى أبا عبدِالرَّحْمَنِ، مَرَّ يَوْماً عَلَى ثَابتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَابتِ بْنِ شَمَّاسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بُعَاثٍ، أَخَذَهُ وَحَزَّ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ خَلَّى سَبيْلَهُ. فَجَاءَ ثَابت بْنَ قَيْسٍ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ فَوَجَدَهُ قَدْ صَارَ شَيْخاً كَبيْراً، فَقَالَ لَهُ ثَابتُ: يَا زُبَيْرُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ؛ وَهَلْ يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ؟ قَالَ: فَإنِّي أُرِيْدُ أنْ أُجَازِيَكَ بمَا لَكَ عِنْدِي مِنَ الْيَدِ، قَالَ: افْعَلْ، فَإنَّ الْكَرِيْمَ يَجزِي الْكَرِيْمَ.

قَالَ ثَابتُ: فَأَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ كَانَ لِلزُّبَيْر عِنْدِي يَدٌ وَصَنِيْعَةٌ وَلَهُ عَلَيَّ مِنَّةٌ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أنْ أجزيَهُ، فَهَبْ لِي دَمَهُ، فَقَالَ ﷺ:[هُوَ لَكَ] فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ. فَقَالَ: إنِّي شَيْخٌ كَبيْرٌ، فَإنْ ذهَبَ أَهْلِي وَأَوْلاَدِي فَمَا أَصْنَعُ بالْحَيَاةِ ؟ قَالَ ثَابتُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، فَقَالَ: [هُمْ لَكَ] فَقُلْتُ: يَا شَيْخُ؛ قَدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ اللهِ امْرَأَتَكَ وَأَوْلاَدَكَ. فَقَالَ: يَا ثَابتُ؛ كَيْفَ يَكُونُ أَهْلُ بَيْتٍ بالْحِجَاز لاَ مَالَ لَهُمْ، فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذلِكَ ؟ قَالَ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ مَالَهُ، فَقَالَ: [هُوَ لَكَ] فَأَعْلَمْتُهُ بذلِكَ.

فَقَالَ لِي: يَا ثَابتُ؛ مَا فَعَلَ الَّذِي وَجْهُهُ مِرْآةٌ مُضِيئَةٌ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ ؟ قُلْتُ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي حَيِيُّ بْنُ أَخْطَبَ؟ قُلْتُ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٦٩٢).

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: غزوة بني قريظة: ج ٢ ص١٨.

مُقدَّمُنا إذا شَدَدْنا وحَامِيْنَا إذا كَرَرْنا غَزَالُ بْنُ شَمْوَال؟ قُلْتُ: قُتِلَ. قَالَ: فَمَا فُعِلَ بِبَنِي كَعْب بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ ؟ قُلْتُ: قُتِلوا كُلُّهُمْ.

قَالَ: فَإنِّي أسْأَلُكَ يَا ثَابتُ بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّنِيْعَةِ وَالْيَدِ إلاَّ مَا أَلْحَقْتَنِي بِالْقَوْمِ، فَوَاللهِ مَا لِي فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلاَءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أنَا بِصَائِرٍ حَتَّىٰألْقَى الأَحِبَّةَ. فَضَرَبَ ثَابتُ عُنُقَهُ)[١] . فَلَمَّا بَلَغَ أبَا بَكْرِ الصِّدِّيْقَ ﷺ قَوْلَهُ: ألْقَى الأحبَّة، قَالَ: تَلْقَاهُمْ وَاللهِ فِي نَار جَهَنَّمَ خَالِداً فِيْهَا أبَداً[٢] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ ؛ أي ألْقَى في قلوبهم الخوفَ، ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ؛ يعني المقَاتِلَةَ، ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ يعني الذراري، ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ ؛ يعني عقَارَهم ونخيلَهم ومنازلَهم وأموالَهم من الذهب والفضَّةِ والْحِلِيِّ والعبيدِ والإماء، ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ ؛ يعني أرضَ بني النَّضِير، وَقِيْلَ: أرض خيبرَ.

والمعنى: سيفتحُ الله لكم أرضاً لَم تطأُوها الآنَ بأقدامِكم يعني خيبرَ، ففتحَها اللهُ عليهم بعد بنِي قُريظةَ. وقال الحسنُ: (هِيَ فَارسُ وَالرُّومُ)[٣]، وقَالَ قتادةُ: (هِيَ مَكَّةُ)[٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ اللهَ قادرٌ على إظهار الإسلام بغيرِ القتال، وإنَّما أمرَ المؤمنين بالقتالِ ليعرِضَهم لجزيلِ الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: كان بعضُ أزواج النبيِّ ﷺ سَألْنَهُ شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا وآذينَهُ بزيادةِ النَّفقة، فهَجَرَهُنَّ رسولُ اللهِ ﷺ وآلَى منهنَّ شهراً أنْ لا يقربَهن ولَم يخرج إلى أصحابهِ للصَّلوات.

---

(١) القصة بكاملها ذكرها الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٢٠-٢١.

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٢١، بلفظ: (قال أبو بكر وهو يسمع قوله: ويحكَ يا ابن باطا، إنه ليس إفراغ دَلو، ولكنه عذابٌ أبدي).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٦٥٠).

فقالتِ الصحابةُ: مَا شَأْنُ رَسُول اللهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إنْ شِئْتُمْ ذهَبْتُ إلَيْهِ لأعْلِمَكُمْ مَا شَأْنُهُ ؟ فَذهَبَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذنَ فَأذِنَ لَهُ. قَالَ عُمَرُ: فَجَعَلْتُ أقُولُ فِي نَفْسِي: أيُّ شَيْءٍ أكَلِّمُ بهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَلَّهُ يَنْبَسِطُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لَوْ رَأيْتَ فُلاَنَةَ وَهِيَ تَسْألُنِي النَّفَقَةَ فَصَكَكْتُهَا صَكَّةً ؟ فقَالَ ﷺ:[فَذلِكَ الَّذِي أجْلَسَنِي عَنْكُمْ]. فَأتَى عُمَرُ حَفْصَةَ فقَالَ لَهَا: لاَ تَسْألِي رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئاً فَمَا كَانَ مِنْ حَاجَتِهِ لَكَ فَأوْلَى.

ثُمَّ جَعَلَ يَتَتَبَّعُ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ يُكَلِّمُهُنَّ، حَتَّى قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَغُرُّكَ أنَّكِ امْرَأةٌ حَسْنَاءُ وَإنَّ زَوْجَكِ يُحِبُّكِ، لَتَنْتَهِينَّ أوْ لَيُنْزِلَنَّ اللهُ فِيكُنَّ الْقُرآن. فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: يَا ابْنَ الْخَطَّاب؛ أوَمَا بَقِيَ لَكَ إلاَّ أنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُول اللهِ وَنِسَائِهِ ! فَمَنْ تَسْألَ الْمَرْأةُ إلاَّ زَوْجَهَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَا أيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ) إلى آخرها[١].

وكان يومئذٍ مع رسول الله ﷺ تسعُ نِسوَةٍ؛ خمسٌ من قُريش: عائشةُ بنت أبي بكر، وحفصةُ بنت عُمر، وأمُّ حبيبةَ بنت أبي سُفيان، وسَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ، وأمُّ سَلَمَةَ بنت أبي أميَّة، فهؤلاءِ من قريشٍ. وصفيَّة بنتُ حَيِيٍّ بن أخطب الخيبريَّة، وميمونةُ بنت الحارثِ الهلالية، وزينبُ بنت جحشٍ، وجُوَيْرِيَّةُ بنت الحارثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ[٢].

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِساً مَعَ حَفْصَةَ، فَتَشَاجَرَا فِيمَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكِ أنْ أجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ رَجُلاً؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَأبُوكِ إذاً، فَأرْسَلَ إلَى عُمَرَ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَ: تَكَلَّمِي، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ تَكَلَّمْ وَلاَ تَقُلْ إلاَّ حَقّاً! فَرَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ فَوَجَّى وَجْهَهَا ثُمَّ رَفَعَ فَوَجَّى وَجْهَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [كُفَّ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٠٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً: الحديث (٢٩/ ١٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٤) عن الحسن وقتادة.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَّةِ اللهِ! أَوَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ إلاَّ حَقّاً، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلاَ مَجْلِسُهُ مَا رَفَعْتُ يَدِي حَتَّى تَمُوتِي. فَقَامَ ﷺ فَصَعَدَ إلَى غُرْفَةٍ، فَمَكَثَ فِيهَا شَهْراً لاَ يَقْرَبُ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ، يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى فِيهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) الآيَةَ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَعَرَضَ ذلِكَ عَلَيْهِنَّ كُلِّهِنَّ، فَلَمْ يَخْتَرْنَ إلاَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ عَرَضَ عَلَيْهَا حَفْصَةَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي فِي مَكَانِ الْعَائِذَةِ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَاللهِ لاَ أَعُودُ لِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ أَبَداً، بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَرَضِيَ عَنْهَا.

وَقِيْلَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةُ التَّخْيِيرِ بَدَأَ بِعَائِشَةَ أَحَبُّهُنَّ إلَيْهِ، فَخَيَّرَهَا فَاخْتَارَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، فَرُؤِيَ الْفَرَحُ فِي وَجْهِهِ عليه السلام، وَتَابَعَهَا جَمِيعُ نِسَائِهِ عَلَى ذلِكَ، فَشَكَرَهُنَّ اللهُ وَقَصَرَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَيْهِنَّ، فَقَالَ (لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ)[(١)].

قِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [يَا عَائِشَةُ؛ إنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْراً فَلاَ تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي فِيهِ أَبُوكِ] ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ: : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) إلَى قَوْلِهِ: (وَإن كُنتُن تُردنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدارَ الآخِرَةَ)؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قَدْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِنِي بِفِرَاقِكَ، وَهَلْ أَسْتَأْمِرُ فِي هَذَا ؟! إنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لاَ تُخبرْ أَزْوَاجَكَ أَنِّي اخْتَرْتُكَ. ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا فَعَلَتْ[(٢)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٨٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة والحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) وذكره بمعناه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٠٦ و٢١٧٠٧) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٦٥٢-١٧٦٥٥). والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٨٥)، وكتاب الطلاق: باب من خيَّر أزواجه: الحديث (٥٢٦٢).

وَقِيلَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَخَيَّرَهُنَّ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ: [أَمَّا أَنْتِ فَلاَ تُحْدِثِي مِنْ أَمْرِكِ شَيْئاً حَتَّى تُشَاوِرِي أَبَوَيْكِ] فَقَالَتْ: أَفِيكَ أُشَاوِرُهُمَا؟! أَنَا أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، مَا لَنَا وَالدُّنْيَا؟! فَتَبِعَهَا سَائِرُ أَزْوَاجِهِ، وَلَمْ تَخْتَرْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ نَفْسَهَا إِلاَّ الْمَرْأَةُ الْحِمْيَرِيَّةُ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ) أي أعطيكن مهركُنَّ (وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) أي أُطَلِّقْكُنَّ على وجه السُّنة. وَقِيلَ: معناهُ: أُخرجْكُنَّ من البُيوتِ، لأنه ذكرَ المتعةَ قبل التَّسريح. قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ثوابَ اللهِ ورضَى رسولهِ ﴿ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أي الجنَّة، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ ﴾ ؛ باختيَار ثواب الله ورضَى رسولِه، ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ، في الآخرة.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ؛ قَالَ ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (يَعْنِي النُّشُوزَ وَسُوءَ الْخُلُقِ)[٢] ﴿ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ؛ أي يُجعَلُ عذابُ جُرمِها في الآخرةِ كعذاب جُرمَيْن. والمعنى: يزيدُ في عذابها ضِعْفاً، كما زيدَ في ثوابها ضِعفاً في قولهِ (نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ).

وإنَّما ضُوعِفَ عذابُهن على الفاحشة لأنَّهن يُشَاهِدْنَ من الزَّواجرِ ما يَرْدَعُ عن مواقعةِ الذُّنوب ما لا يشاهدُ غيرُهن، فإذا لَم يَمتَنِعْنَ اسْتَحْقَقْنَ تضعيفَ العذاب. وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي وكان عذابُها على الله هيِّناً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)، قرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر (نُضَعِّفُ) بالنون وكسرِ العين مشدَّدة من غير ألِف (العذابَ) بالنصب[٣]، وقرأ أبو

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٧؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﷺ) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٥٧).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٣٩.

(٣) في المخطوط: (العذاب بالنصف) وهو تصحيف، والصحيح ما أثبتناه. ينظر: الحجة للقراءات السبعة: ج ٣ ص٢٨٣.

عمرو (يُضَعَّفُ) بالياءِ وفتحِ العينِ والتشديد، ورفعِ (الْعَذابُ)، قال أبو عمرو: (وإنَّما قَرأتُ هكذا مُشدَّداً مِنْ غَيرِ ألِفٍ لِقَوْلِهِ (ضِعْفَيْنِ)، يُقَالُ: ضَعَّفْتُ الشَّيْءَ إذا جَعَلْتُهُ مِثْلَهُ وضَاعَفْتُهُ إذا جَعَلْتُهُ أمْثالَهُ)[1]. وقرأ الباقونَ (يُضاعَفُ) بالألفِ ورفع (الْعَذابُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي ومَن يُطِعْ منكن للهِ ورسولِهِ. وَقِيلَ: ومَن تُقِمْ منكنَّ على طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه، ﴿ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ ؛ فيما بينَها وبين ربها، ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي نُعطيها مكانَ كلِّ حَسَنةٍ عشرين حَسَنَةً، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي حَسَناً؛ يعني الجنَّة. والرِّزقُ الكريمُ: ما سَلِمَ من كلِّ آفةٍ، ولا يكونُ ذلك إلاَّ في الجنَّة.

قرأ يعقوب (تَقْنُتْ) بالتاءِ ومثلهُ رُوي عن ابنِ عامر، وقوله (وَتَعْمَلْ صَالِحاً)، قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلف (وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُؤْتِهَا) بالياءِ فيهما. وقرأ غيرُهم (وَتَعْمَلْ) بالتاءِ (وَنُؤْتِهَا) بالنُّون. قال الفرَّاء: (وإنَّما قُرِئَ (يَقْنُتْ) بالياءِ لأن (مَنْ) أداةٌ تَقُومُ مَقَامَ الاسْمِ، يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْمُذكَّرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ﴾[2] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ﴾[3]، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ﴾).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ معناهُ: ليس قَدْرُكُنَّ عندي مثل قَدْر غيركن من النِّساء الصالحات، أنْتُنَّ أكرمُ عَلَيَّ، وأنا بكُنَّ أرحمُ وثوابُكن أعظمُ، ﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ ؛ اللهِ. وشَرَطَ عليهنَّ التقوى بياناً أنَّ فضيلتَهُنَّ إنَّما تكون بالتَّقوى لا باتِّصالِهن بالنبيِّ ﷺ. وَقِيلَ: معناهُ: ليست حالتُكن كحالةِ النِّساء غيركن في الطاعةِ والمعصية والثواب والعقاب إنْ كنتن مُتَّقِياتٍ عن المعاصي مُطيعاتٍ لله تعالى.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان:مج ١١ ج ٢٠ ص١٩١-١٩٢ وضعَّفه. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٧٥؛ قال القرطبي: (وضعفه الطبري وهو كذلك غير صحيح).

(٢) يونس / ٤٣ .

(٣) يونس / ٤٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أي فلا تُلِنَّ القولَ للرِّجال على وجهٍ يُورثُ ذلك الطمعَ فيكن، فيطمعُ المنافقون في مواقعتِكُن، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ ؛ يعني زنًى وفجورٌ ونفاقٌ. والمرأةُ مَنْدُوبَةٌ إذا خاطبَتِ الأجانبَ إلى الْغِلْظَةِ في المقالةِ؛ لأن ذلك أبعدُ مِن الطَّمعِ من الزِّينة.

وإنَّما قال (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ) ولَم يقل كواحدةٍ؛ لأن أحَداً عامٌّ يصلحُ للواحدِ والاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث، قال تعالى ﴿لا نُفرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[١] وقال تعالى ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٢] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي قُلْنَ قولاً حَسَناً لا يؤدِّي إلى الزينةِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وقُلْنَ ما يوجبهُ الدِّين والإسلامُ بغيرِ خضوعٍ فيه، بل بتصريحٍ وبيان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ ؛ أي إلْزَمْنَ بيوتَكُن ولا تخرُجْن إلاّ في ضَرورةٍ.

قرأ نافعُ وعاصم (وَقَرْنَ) بفتح القافِ، وهو مِن قَرَرْتَ في المكان أقَرَّ، وكان الأصلُ اقْرَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، فحُذفت الرَّاء الأولى التي هي عينُ الفعلِ لأجل ثقلِ التَّضعيفِ، وألقِيَتْ حركتُها على القافِ كقوله ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٣] و﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾[٤]، والأصلُ ظَلَلْتَ وظَلَلْتُم. وقرأ الباقون (وَقِرْنَ) بكسرِ القاف مِن الوَقَار؛ أي كنَّ أهلَ سَكينةٍ ووَقَار، والأمرُ منه للرَّجُلِ قِرَّ، وللمرأة قِرِّي، ولجماعة النساء قِرْنَ، كما يقالُ من الوعدِ: عِدْنَ، ومن الوَصْلِ: صِلْنَ.

وعن محمَّد بن سيرين قال: (قِيلَ لِسَوْدَةِ بنْتِ زَمْعَةَ: ألاَ تَحُجِّيْنَ؛ ألاَ تَعْتَمِرِيْنَ كَمَا يَفْعَلُ أخَوَاتُكِ؟ فَقَالَتْ: قَدْ حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ، ثُمَّ أمَرَنِي اللهُ أنْ أقِرَّ فِي بَيْتِي، فَوَاللهِ لاَ أخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى أمُوتَ. فَوَاللهِ مَا أخْرِجَتْ مِنْ بَاب بَيْتِهَا حَتَّى أخْرَجُوا جَنَازَتَهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)[٥] .

---

(١) البقرة / ٢٨٥ . (٢) الحاقة / ٤٧ . (٣) الواقعة / ٦٥ . (٤) طه / ٩٧ .

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٩٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ التَّبرُّجُ: التَّبَخْتُرُ وَإظْهَارُ الزِّيْنَةِ، وما يستدعِي به من شَهوَةِ الرِّجال وإبراز الْمَحاسِنِ للناس. والجاهليةُ الأُولَى: هي ما بينَ عِيسَى عليه السلام ومُحَمَّدٍ ﷺ[1]، كانتِ المرأةُ من أهلِ ذلك الزمان تَتَّخِذُ الدِّرْعَ من اللُّؤلُؤِ فتلبسهُ ثم تَمشِي وسطَ الطريقِ ليس عليها غيرهُ، وتعرضُ نفسَها للرِّجال. وقال بعضُهم: الجاهليةُ الأُولَى ما بين آدمَ ونوحٍ، كان نساؤُهم أقبحَ ما يكون من النِّساءِ، ورجالُهم حِسَانٌ، وكانت المرأةُ تُراودُ الرجُلَ عن نفسهِ. فنهَى اللهُ تعالى هؤلاءِ عن فِعْلِ أهلِ الجاهليَّة وأمَرَهُنَّ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة وطاعةِ الله ورسولهِ في باقِي الآيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي إنَّما أمرَكُنَّ اللهُ بما أمركُنَّ من الطاعةِ ولُزوم البيوتِ ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ ، يعني رجْسَ الذُّنوب والعُيوب، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ . وقال ابنُ عبَّاس: (عَمَلَ الشَّيْطَانِ وَمَا لَيْسَ فِيْهِ رضَى). ومعنى الرِّجْسِ: السُّوءُ وما يوجبُ العقوبةَ. والمرادُ بأهلِ البيتِ ها هنا نساءَ النَّبيِّ ﷺ لأنَّهنَّ في بيتهِ. وَقِيْلَ: أهلُ البيتِ كلُّ مَن اتَّصلَ بالنبيِّ ﷺ من جهة نسب عليٍّ أو نسبٍ على العُمومِ[2]. وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ: (أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمَعِيْنَ)[3].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٠٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس) وذكره.

(٢) في المخطوط: (من جهة نسب أو نسب علي العموم).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٢٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٧٧). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عطية ابن سعد، وهو ضعيف). وفي تهذيب التهذيب: ترجمة عطية: الرقم (٤٧٥٥)؛ قال ابن حجر: (قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبي سعيد أحاديث عدة، ومن غير أبي سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدُّ مع شيعة أهل الكوفة). وينظر: الكامل في الضعفاء لابن عدي: ج ٧ ص٨٥: الرقم (٥٦٢/ ١٥٣٠).

وعن أمِّ سَلمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَجَمَعَهُمْ وَأتَى بقَطِيْفَةٍ خَيْبَرِيَّةٍ فَلَفَّهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ ألْوَى بيَدِهِ إلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: [اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أهْلِي أذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيْراً] فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: أوَلَسْتُ مِنْ أهْلِكَ ؟ قَالَ: [نَعَمْ][1] فَدَخَلْتُ الْكِسَاءَ بَعْدَمَا دَعَا وَانْقَضَى دُعَاؤُهُ.

وعن عِكْرِمَةَ ﷺ أنهُ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي تَذْهَبُونَ إلَيْهِ)[2]، وكان عكرمةُ يُنادِي بهذا في السُّوق[3]، واحتجَّ بقولِهِ في الخطاب (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) وكِلاَ الخِطَابَيْنِ لأزواجِ النبيِّ ﷺ، يعني الخطابَ الأول (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)، وهذا الخطابُ الثاني. وإنه ذكَّرَ الخطابَ في قولهِ (عَنْكُمْ) و(يُطَهِّرَكُمْ) لأنَّ النبيَّ ﷺ كان فيهنَّ فغلَبَ المذكَّرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ؛ أي وَاحفَظْنَ ما يُقرَأ عليكُن في بُيوتِكن منَ القُرآنِ والمواعظِ. وهذا حَثٌّ لَهن على حِفظِ القُرآنِ والأخبار ومذاكرتِهن بهما للإحاطةِ بحدودِ الشَّريعةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي لَطِيفاً بأوليائه، خَبيراً بجميعِ خَلْقِهِ وبجميعِ مصالحِهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ الآيَةُ، قال قتادةُ: (لَمَّا ذكَرَ اللهُ أزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ نِسَاءٌ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ عَلَيْهِنَّ؛ فَقُلْنَ: ذُكِرْتُنَّ وَلَمْ نُذْكَرْ! فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٣٢-٢١٧٣٩). وفيها قال: [إنَّكِ مِنْ أهْلِي] و[أنا مَعَهُمْ مَكَانَكِ وَأنْتِ عَلَى خَيْرٍ] مرتين. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٦٧٩).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٠٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة) وذكره.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٤٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٦٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٤٢).

وقال مقاتلُ: (لَمَّا رَجَعَتْ أسْمَاءُ بنْتُ عُمَيْسٍ مِنَ الْحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا جعْفَر بْن أبي طَالِبٍ، دَخَلَتْ عَلَى نِسَاءِ رَسُول اللهِ ﷺ؛ فَقَالَتْ: هَلْ نَزَلَ فِيْنَا شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآن ؟ قُلْنَ: لاَ. فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ النِّسَاءَ لَفِي خَيْبَةٍ وَخَسَارَةٍ! قَالَ: [وَمِمَّ ذلِكَ ؟] قَالَتْ: لأنَّهُنَّ لاَ يُذْكَرْنَ بخَيْرٍ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَةَ)[١].

وقال مقاتلُ: (قَالَتْ أمُّ سَلَمَةَ بنْتُ أبي أمَيَّةَ وَنُسَيْبَةُ بنْتُ كَعْبِ الأنْصَاريَّةُ لِلنَّبيِّ ﷺ: مَا بَالُ ربنَا يَذْكُرُ الرِّجَالَ وَلاَ يَذْكُرُ النِّسَاءَ فِي شَيْءٍ مِنْ كِتَابهِ، فَعَسَى أنْ لاَ يَكُونَ فِيْهِنَّ خَيْرٌ، وَلاَ للهِ فِيْهِنَّ حَاجَةٌ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢].

وَقِيْلَ: إنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ قُلْنَ: (يَا رَسُولَ اللهِ! ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّجَالَ فِي الْقُرْآن، وَلَمْ يَذْكُر النِّسَاءَ بخَيْر، فَمَا فِيْنَا خَيْرٌ نُذْكَرُ بهِ، إنَّا نَخَافُ أنْ لاَ يَتَقَبَّلَ مِنَّا طَاعَةً). فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[٣].

وَاعْلَمْ: أنَّ الرجالَ والنساء يُجَازَوْنَ بأعمالِهم الصالحة مغفرةً لِذنوبهم وأجْراً عظيماً.

ومعنى الآيةِ: (إنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) يعني الْمُخْلِصِيْنَ بالتَّوحيدِ والمخلِصاتِ (وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أي المصدِّقين بالتوحيدِ والْمُصدِّقَاتِ. والإسلامُ في اللغةِ: هو الانْقِيَادُ وَالاسْتِسْلاَمُ. والإيْمَانُ في اللغة: هو التَّصْدِيْقُ، غيرَ أنَّ معنى الإسلامِ والإيمان في هذه الآية واحدٌ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤١. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٤٠. والسيوطي في أسباب النزول: ص١٣٩.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج٣ ص٤٦، ولكنه في المطبوع (نسيبة بن كعب) وليس أنيسة كما في المخطوط. والصحيح نُسَيْبَةُ بنتُ كعب الأنصارية، وكما (أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وحسنه، والطبراني وابن مردويه عن أم عمارة الأنصارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ج٦ ص٦٠٨ وعزاه إليهم. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢١١). والطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٥ ص٢٧: الحديث (٥١ و٥٢) وأخرجه الطبراني مرسلاً في الحديث (٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٧٤٧) عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ ؛ أي الْمُطيعِينَ للهِ في أوامرِهِ ونواهيه والْمُطِيْعَاتِ. والقَانِتُ: هو الْمُوَاظِبُ على الطاعةِ، والقُنُوتُ: طُولُ القيامِ في الصَّلواتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ ؛ يعني الصَّادِقِينَ في إيْمانِهم والصَّادِقاتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ ؛ الصَّابرُ: هو الذي يَحْبسُ نفسَهُ عن جميعِ ما يجبُ الصَّبْرُ عنهُ، ويصبرُ على جميعِ ما يجبُ الصبر عليهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ ؛ يعني بالْمُتَصَدِّقِيْنَ الذين يُؤدُّونَ ما عليهم مِن الصَّدقة المفروضةِ. ويقالُ: أرادَ به جميعَ الصَّدقاتِ. وأما الخاشِعُ: فهو الْمُتَواضِعُ للهِ تعالى وللناسِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ ؛ يعني الصَّائمين صومَ الفرضِ بنيَّةٍ صادقةٍ، ولكن فِطْرُهُمْ على حَلال. قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَثَلاَثَةَ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ الْغُرِّ الْبِيْضِ، كَانَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ، وَيُؤْتَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بمَائِدَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ، وَيُظِلُّهُمُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ وَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ، وَيَنْفَحُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ رِيْحُ الْمِسْكِ)(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ ؛ أي عمَّا لا يحلُّ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ به الذِّكْرَ في الصَّلواتِ الخمسِ. وَقِيْلَ: أرادَ به الذِّكْرَ باللِّسانِ والقلب في جميعِ الأحوالِ. قال ابنُ عبَّاس:(يُرِيْدُ فِي أدْبَارِ الصَّلَوَاتِ غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَفِي الْمَضَاجِعِ، وَكُلَّمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ، وَكُلَّمَا غَدَا وَرَاحَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذكَرَ اللهَ). وقال مجاهدُ: (لاَ يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الذاكِرِيْنَ كَثِيْراً حَتَّى يَذْكُرَ اللهَ قَائِماً وَقَاعِداً وَمُضْطَجِعاً)(٢). وعن أبي هريرة؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأيْقَظَ امْرَأتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا

---

(١) في مجمع الزوائد: ج٣ ص١٩٦؛ قال الهيثمي: (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٧٦٨٥).

مِنَ الذاكِرِيْنَ اللهَ كَثِيْراً وَالذاكِرَاتِ][١]. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ وهو الجنَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيـةُ في عبدِالله بـن جَحْـشٍ وأختـهِ زينـبُ، وكانت أمُّهما أمَيْمَةُ بنتُ عبدِ المطَّلب عمَّةُ النـبيِّ ﷺ، خَطَـبَ النَّبيُّ ﷺ زَيْنَبَ بنْتَ جَحْشٍ لِزَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ مَوْلاَهُ، فَكَرِهَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ أنْ يُزَوِّجَهَا مِنْ زَيْـدٍ، وكَـانَ زَيْـدٌ عَرَبِيّاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْلاَهُ فِي الإِسْلاَمِ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أصَابَهُ مِنْ سَـبْيِ الْجَاهِلِيَّـةِ فَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ.

فَقَالَتْ زَيْنَبُ: لاَ أرْضَاهُ لِنَفْسِي، ثُمَّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أنَا أتَـمُّ نِسَـاءِ قُرَيْـشٍ مِنِ ابْنَةِ عَمِّكَ، فَلَمْ أكُنْ لأَفْعَلَ وَلاَ أرْضَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَالَ أخُوهَا عَبْدُاللهِ كَذلِـكَ أيْضاً، وَكَانَتْ زَيْنَبُ بَيْضَاءَ جَمِيْلَةً، وَكَانَ فِيْهَا حِدَّةٌ، فَقَـالَ ﷺ: [لَقَـدْ رَضِيْتُـهُ لَـكِ] فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[٢].

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) أي مَا ينبغِي لِمؤمنٍ (وَلاَ مُؤْمِنَةٍ) يعني عبـدَاللهِ بـن جَحـش وأختَهُ زينبُ إذا اختارَ اللهُ تعالى ورسولهُ أمْراً (أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) بخلافِ ما اختارَ اللهُ ورسولهُ.

قرأ أهلُ الكوفةِ (أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) بالياءِ للحـائلِ بـين التـأنيثِ والفعـلِ، وقرأ الباقونَ بالتاء[٣]. وقَوْلُهُ تَعَالَى (الْخِيَرَةُ) قراءَةُ العامَّة بفتـحِ اليـاءِ؛ أي الاختيـارُ،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب قيام الليل: الحديث (١٣٠٩)، وباب الحث على قيام الليـل: الحديـث (١٤٥١). وابـن حبـان في الإحسـان: كتـاب الصـلاة: الحديـث (٢٥٦٩) وإسناده صحيح.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦. وأخرجه الطـبري في جـامع البيـان: الحديـث (٢١٧٤٩-٢١٧٥٣). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جريـر وعبـد بـن حميـد وعبدالرزاق وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره بألفاظ.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٨٧؛ قال القرطبي: (قـرأ الكوفيـون: (أنْ يَكُـونَ) باليـاء، وهو اختيار أبو عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبـين فعلـه. البـاقون بالتـاء؛ لأن اللفـظ مؤنـث، فتأنيث فعله حسن).

وقرأ ابنُ السَّمَيْقِعِ (الْخِيْرَةُ) بسُكون الياءِ، وهُما لُغتان. وإنَّما جُمِعَ الضميرُ في قولِهِ (لَهُمُ الْخِيرَةُ) لأن المرادَ بقولِهِ (لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ) كلَّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي فيما أمَرتَهُ، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي فقد أخطأ خطأً، وذهبَ عن الحقِّ والصواب ذهاباً بَيِّناً.

فلما نزلت الآية قَالَتْ: قَدْ رَضِيْتُ يَا رَسُولَ اللهِ. وَكَذلِكَ رَضِيَ أَخُوهَا، فَجَعَلَتْ أَمْرَهَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَزَوَّجهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ زَيْدٍ وَسَاقَ إلَيْهِمَا عليه السلام عَشْرَةَ مَثَاقِيْلَ وَسِتِّيْنَ دِرْهَماً؛ وَخِمَاراً وَمِلْحَفَةً وَدِرْعاً وَإزَاراً؛ وَخَمْسِيْنَ مُدّاً مِنْ طَعَامٍ وَثَلاَثِيْنَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي واذْكُرْ يا مُحَمَّدُ قولَكَ (لِلَّذِي أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ) بالإسلامِ وغيرِهِ، ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ بالإعْتَاق؛ وهو زيدُ ابنُ حارثةَ؛ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأتِهِ زَيْنَبُ تَشَاجُرٌ، فَجَاءَ زَيْدٌ إلَى النَّبيِّ ﷺ يَشْكُوهَا بمَا كَانَتْ تَسْتَطِيْلُ عَلَيْهِ بشَرَفِهَا.

فَقَالَ ﷺ لِزَيْدٍ عَلَى سَبيْلِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ ؛ امْرَأتَكَ ولا تُطلِّقْهَا، ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ؛ فيها ولا تَفْعَلْ في أمرِها ما تَأْثَمُ بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ؛ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، وذلكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أنَّهُ إنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ، تَزَوَّجَهَا هُوَ وَضَمَّهَا إلَى نَفْسِهِ صِلَةً لِرَحِمِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا، فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ وإخفائه؛ لكي لا يكون ظاهرُ الأنبياء عليهم السلام إلاّ كباطنهم.

وكان النبيُّ ﷺ يعلمُ أنَّهما لا يتَّفِقان لكثرةِ ما كان يجري بينَهما من الخصومةِ، فجعل يُخْفِيْهِ عن زيدٍ، وكان الأَوْلَى بالنبيِّ ﷺ أن يدعُوهُما إلى الْخُلْعِ فلم يفعَلْ، وقالَ لهُ: (أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) خشيةَ أنه لو خالَعَها ثُم تزوَّجَها النبيُّ عليه السلام أن يطعنَ الناسُ عليهِ فيُقالُ: تزوَّجَ بحليلةِ ابنه بعد ما بيَّنَ للناسِ أنَّ حليلةَ الابنِ حرامٌ على الأب، فهذا معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ أي تخافُ لائِمَتَهُم أنْ يقولُوا:

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٢.

أَمَرَ رَجُلاً بطَلاَقِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ نَكَحَهَا. قال ابنُ عبَّاس في هذه الآيةِ: (أرَادَ بالنَّاسِ الْيَهُودَ، خَشِيَ أنْ يَقُولَ الْيَهُودُ: تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأَةَ ابْنِهِ). وقوْلُهُ تعالَى: ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ ؛ أي هو أوْلَى بأنْ تخشاهُ في كلِّ الأحوال.

وعن عليِّ بن الحسن: أنْ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: (كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أعْلَمَ نَبِيَّهُ عليه السلام أنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أزْوَاجِهِ، وَأنَّ زَيْداً سَيُطَلِّقُهَا، فعلى هذا يكون النبي عليه السلام مُعَاتَباً عَلَى قَوْلِهِ: (أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) مَعَ عِلْمِهِ بأنَّها ستكونُ زوجتَهُ، وكِتْمَانِهِ مَا أخْبَرَهُ اللهُ بِهِ، وَإنَّمَا كَتَمَ النَّبِيُّ ﷺ لأنَّهُ اسْتَحْيَا أنْ يَقُولَ لِزَيْدٍ: إنَّ زَوْجَتَكَ سَتَكُونُ امْرَأتِي)[1].

وَقِيْلَ: إنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ لَمَّا أرَادَ فِرَاقَهَا، جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي أُرِيدُ أنْ أُفَارِقَ صَاحِبَتِي، فَقَالَ: [مَا لَكَ؟ أرَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟] قَالَ: لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأيْتُ مِنْهَا إلاَّ خَيْراً، وَلَكِنَّهَا تَتَعَظَّمُ عَلَيَّ لِشَرَفِهَا وَتُؤْذِيْنِي بِلِسَانِهَا، فَقَالَ ﷺ: [أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ].

ثُمَّ إنَّ زَيْداً طَلَّقَهَا، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ ﷺ لِزَيْدٍ: [مَا أجِدُ فِي نَفْسِي أحَداً أوْثَقَ مِنْكَ، إذْهَبْ إلَى زَيْنَبَ فَاخْطُبْهَا لِي] قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبْتُ فَإذا هِيَ تُخَمِّرُ عَجِيْنَهَا، فَلَمَّا رَأيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أنْظُرَ إلَيْهَا حِيْنَ عَلِمْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذكَرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ أبْشِرِي؛ إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُكِ؛ فَفَرِحَتْ بذلِكَ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ (زَوَّجْنَاكَهَا) فَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَخَلَ بِهَا، وَمَا أوْلَمَ عَلَى امْرَأةٍ مِنْ نِسَائِهِ مَا أوْلَمَ عَلَيْهَا، أطْعَمَ النَّاسَ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ حَتَّى امْتَدَّ النَّهَارُ[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٧٦٩٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أنس (رض)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٩٢؛ قال القرطبي: (معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح. وترجم له النسائي: صلاة المرأة إذا خطبت واستخارت ربها).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ ؛ قضاءُ الوَطْرِ في اللُّغة: بُلُوغُ مُنْتَهى مَا فِي النَّفسِ مِنَ الشَّيْءِ، يقالُ: قَضَى وَطْراً منها؛ إذا بَلَغَ ما أرادَ مِن حاجتِهِ فيها، ثم صارَ عبارةً عن الطَّلاقِ؛ لأنَّ الرجُلَ إنَّما يطلِّقُ امرأتَهُ إذا لَم يبقَ له فيها حاجةٌ.

وعن أنسٍ ﷺ أنَّهُ قَالَ: (لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (زَوَّجْنَاكَهَا) فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا بغَيْرِ إذْنٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (زَوَّجْنَاكَهَا). وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُفَاخِرُ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أهْلُوكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)(١).

ومعنَى الآيةِ: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً) وطلَّقَها (زَوَّجْنَاكَهَا). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ؛ أي زوَّجنَاكَ زينبَ لكَيلاَ يُظَنَّ أن امرأةَ المتبَنَّى لا تحلُّ. والأدْعِيَاءُ: جمعُ دَعِيٍّ؛ وهو الذي يُدْعَى ابْناً من غيرِ ولادةٍ.

قال الحسنُ: (كَانَتِ الْعَرَبُ تَظُنُّ أنَّ حُرْمَةَ الْمُتَبَنَّى كَحُرْمَةِ الابْنِ، فَبَيَّنَ اللهُ ((أنَّ نساءَ))(٢) الأدْعِيَاءِ غَيْرُ مُحرَّمَةٍ عَلَى الْمُتَبَنَّى وَإنْ أصَابُوهُنَّ، وَهُوَ قَوْلُهُ (إذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً) بِخِلاَفِ ابْنِ الصُّلْب، فَإنَّ امْرَأتَهُ تَحرُمُ بنَفْسِ الْعَقْدِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وكان تزويجُ النبيِّ ﷺ لزينبَ قضاءً كائناً مكتوباً في اللوحِ الْمَحفُوظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ أي مَا كان عليه من ضيقٍ وإثْمٍ فيما شرَّعَهُ اللهُ تعالى وأحلَّهُ له كسُنَّةِ اللهِ، ﴿ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ ، أي سائرِ الأنبياءِ الماضِين في التَّوسعَةِ عليهم في النِّكاحِ،

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٩٣؛ قال القرطبي: (وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ) وذكره، ثم قال: (أخرجه النسائي عن أنس بن مالك) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني من طرق، رجال بعضها رجال الصحيح). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٣.
(٢) ما بين (( )) ليس في الأصل، ويبدو أنه سقط من الأصل؛ لأنه من مقتضى إكمال المعنى.

فقَوْلُهُ: (سُنَّةَ اللهِ) منصوبٌ بنزعِ الخافضِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي قضاءً مَقْضِياً، أخبرَ اللهُ تعالى أن أمرَ زينبَ كان من حُكمِ اللهِ وقَدَرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ ؛ موضعُ (الَّذِيْـنَ) الخفضُ؛ لأنه نعتُ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذينَ خَلَوا من قبلُ، كانوا يبلِّغُون الرسالةَ، ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، ويخشَون اللهَ ولا يخشَونَ أحداً سواهُ، أي لا يخشون مقالةَ الناسِ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مُجازياً لِمن يخشاهُ، وَقِيْلَ: حَفِيظاً لأعمالِ العبادِ، مُجازياً لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا تَزوَّجَ زَيْنَبَ، قَالَ النَّاسُ: إنَّ مُحَمَّداً تَزوَّجَ امْرَأةَ ابْنِهِ! فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبَا أحَدٍ مِنْ رجَالِكُمْ)، يعنِي أنَّهُ ليس بأبي زَيْدٍ حتى تحرُمَ عليه زوجتُهُ، ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ؛ فعظِّموهُ واقِرُّوا به[1].

قرأ الحسنُ وعاصم (وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ) بفتحِ التاء؛ أي آخِرَ النَّبيِّين، وقرأ الباقونَ بكسرِ التَّاء على الفاعلِ؛ أي إنه خَتَمَ النَّبيينَ بالنبوَّة، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَزَلْ عالِماً بكلِّ شيء من أقوالِكم وأفعالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ اختلفُوا في المرادِ بالذِّكر الكثيرِ في هذه الآية. قال الكلبيُّ: (الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ أذْكَاراً كَثِيْرَةً، وَأرَادَ بالتَّسْبيْحِ التَّنْزِيْهَ فِي الصَّلاَةِ). وقال مجاهدُ: (هُوَ أنْ لاَ يَنْسَاهُ أبَداً). وقال مقاتلُ: (هُوَ التَّسْبيْحُ وَالتَّحْمِيْدُ وَالتَّهْلِيْلُ وَالتَّكْبيْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَهُوَ أنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ. وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ يَتَكَلَّمُ بهِنَّ صَاحِبُ الْجَنَابَةِ وَالْغَائِطِ وَالْحَدَثِ)[2].

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص١٩٦.

(٢) قال بعضه مقاتل كما في التفسير: ج ٣ ص٤٩، ونقل عنه ابن أبي حاتم بعضه كما في التفسير الكبير: ج ٩ ص٣١٣٨: الأثر (١٧٧٠٢).

قَالَ ﷺ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شِفَاهُهُ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) بالغَدَاةِ والعَشِيِّ، قال الكلبيُّ: (أَمَّا بُكْرَةً فَصَلاَةُ الْفَجْرِ، وَأَمَّا أَصِيْلاً فَصَلاَةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِب وَالْعِشَاءِ). وقال بعضُهم: أرادَ بذلك صلاةَ الصُّبح وصلاةَ العصرِ على قول قتادةَ، وصلاةَ المغرب على قول غيرِهِ. وخَصَّ طَرَفَي النهار بالذِّكر؛ لأنه يجتمعُ عندَهُما ملائكةُ اللَّيل والنهار، فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّونَ، وتركنَاهُم وهم يُصَلُّونَ. وَقِيْلَ: خُصَّ التسبيحُ بطرَفَي النهار؛ لأن صحيفةَ العبدِ إذا كان في أوَّلِها وآخرِها ذكرٌ وتسبيحٌ يرجَى أن يُغْفَرَ له ما بين طَرَفَي الصحيفةِ.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَا جَلَسَ قَوْمٌ قَطُّ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى، إلاَّ نَادَى مُنَادِي السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ، وَبُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ](٢). وَقِيْلَ: معنَى قولِهِ (اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيْراً) أي باللَّيلِ والنهار، وفي البَرِّ والبحرِ، والسَّفر والحضر، والغِنَى والفقر، والصِّحة والسَّقم، والسِّر والعلانيةِ، وعلى كلِّ حالٍ. وقال مجاهدُ: (الْكَثِيْرُ هُوَ الَّذِي لاَ يَتَنَاهَى أَبَداً)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ؛ أي يَرْحَمُكُمْ ويغفرُ لكم، وقوله (وَمَلاَئِكَتُهُ) أي يَدْعُونَ لكم. وَقِيْلَ: يأمرُ الملائكةَ بالاستغفار لكم. والصَّلاةُ مِن اللهِ الرحمةُ بالثواب، ومِن المؤمنين الدُّعاءُ، ومِن الملائكةِ الاستغفارُ للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٧ ص٣٢٦: الحديث (٦٦١٧) عن أبي هريرة (رض)، وقال: (لم يرو هذا الحديث عن محمد بن المهاجر إلا أبو توبة). في تهذيب التهذيب: ج ١٠ ص٥٠٠: ترجمة كريمة بنت الحَسْحَاس المزنية (٨٩٦٥)؛ قال: (علق البخاري حديثها هذا في كتاب التوحيد، وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع)، وقال: (رواه إسماعيل أيضاً عن أم الدرداء عن أبي هريرة. وكلاهما صحيح).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (١٥٧٩) عن أنس بن مالك ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج١٠ ص٧٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه ميمون المرئي وثقه جماعة وفيه ضعف وبقية رجال أحمد رجال الصحيح).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٥.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ؛ أي مِن ظُلُماتِ المعاصِي والجهلِ ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ العِلْمِ والطاعةِ، وَقِيْلَ: مِن ظُلماتِ الكُفرِ إلى نورِ الإيْمان. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَزَلْ رَحِيْماً بهم إذ رَضِيَ عنهُم وأمَرَ الملائكةَ بالاستغفارِ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ ؛ أي تحيةُ المؤمنينَ مِن اللهِ تعالى (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) أنْ يُسَلِّمَ عليهم، يقولُ لَهم الملائكةُ بأمرِ الله: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ مَرْحَباً بعِبَادِي الْمُؤمِنِينَ الَّذِينَ أرْضَوْنِي فِي دار الدُّنيا باتِّباعِ أمْرِي. ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾(١). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي رزْقاً حَسَناً في الجنَّةِ، وَقِيْلَ: الأجرُ الكريمُ هو الذي يكون عظيمَ القَدْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ ؛ على أُمَّتِكَ وعلى جميعِ الأُمَمِ بتبليغِ الرِّسالةِ، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ ؛ للخَلْقِ بالجنَّةِ والثوابِ لِمَن أطاعَ اللهَ وصدَّقَكَ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي ومُخَوِّفاً بالنارِ والعقابِ لِمَن عصَى اللهَ تعالى وكذبَكَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ؛ أي وأرسلناكَ للناسِ دَاعِياً للخَلْقِ إلى دِينِ اللهِ تعالى بأمرهِ، يعني إنَّهُ أمرَكَ بهذا. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي وأرسلناكَ سِراجاً مُضِيئاً لِمَن تَبعَكَ واهتدَى بكَ، كالسِّراجِ في الظُّلْمَةِ يُستَضَاءُ بهِ.

وإنَّما سُمِّيَ النبيُّ ﷺ سِراجاً؛ لأنه بُعِثَ والأرضُ في ظُلْمَةِ الشِّرْكِ، فكان حين بُعِثَ كالسِّراجِ في الظُّلمةِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالفَضْلِ الكبيرِ مغفرةَ اللهِ لَهم، وما أعدَّ لَهم في الجنَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ؛ فيما يطلبونَهُ منكَ، فقد ذكرنَا تفسيرَهُ في أوَّلِ السُّورة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي اصْبرْ على أذاهُم واحتَمِلْ منهم، ولا تَشْتَغِلْ بمجَازَاتِهم إلى أن تُؤْمَرَ فيهم بأمرٍ، وهذا منسوخٌ بآية

---

(١) الزمر / ٧٣ .

السَّيفِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمُورَكَ إليهِ، فإنه سَيَكْفِيْكَ أمرَهُم إذا تَوَكَّلْتَ عليهِ؛ أي تَوكَّلْ عليه في كِفَايَةِ شرِّهم وأذاهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ ؛ إذا وَكَّلْتَ أمْرَكَ إليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ؛ أي إذا تَزوَّجتُموهُنَّ من قَبْلِ أن تُجامِعُوهن، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ ، تَسْتَوْفُونَهَا بالعَدَدِ لا بالحيضِ ولا بالشُّهور. والاعْتِدَادُ هو استيفاءُ العَدَدِ، أسقطَ اللهُ العِدَّةَ من الْمُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخول لبَراءَةِ رحِمِها، فلو شاءَتْ تزوَّجت مِن يومِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ ؛ أي أعطُوهُنَّ مُتْعَةَ الطلاقِ، وهذا على سبيلِ الوجُوب فيمَن يدخلُ بها ولَم يُسَمِّ لَها مهراً، وعلى النَّدب في مَن سَمَّى لَها مهراً ثُم طلَّقها قبلَ الدُّخول.

وقال سعيدُ بن المسيَّب: (نُسِخَ حُكْمُ هَذِهِ الآيَةِ بقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[(١)]). وقال الحسنُ: (الْمُتْعَةُ وَاجِبَةٌ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ وَمُخْتَلَعَةٍ وَمُلْتَعَنَةٍ، وَلَكِنْ لاَ يُجْبَرُ عَلَيْهَا الزَّوْجُ)[(٢)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَسَرِّحُوهُنَّ) أرادَ له التسريحُ عن المنْزِلِ لا عن النكاحِ؛ لأن حقَّ الحبسِ لا يثبتُ إلاّ بأحدِ الأمرين: إما النكاحُ؛ وإما العدَّةُ، وقد عُدَّ ما جميع في هذا الموضعِ بعددِ الطَّلاق المذكور.

والسَّراحُ الجميلُ: هو الذي لا يكونُ فيه جَفْوَةٌ ولا أذًى ولا منعُ حقٍّ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولهِ (فَمَتِّعُوهُنَّ): (أيْ أعْطُوهُنَّ الْمُتْعَةَ، قَالَ: وَهَذَا إذا لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقاً، فَأَمَّا إذا فَرَضَ لَهَا صَدَاقاً فَلَهَا نِصْفُ)[(٣)].

---

(١) الآية ٢٣٧ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٢٦؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد) وذكره بمعناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٧٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٧٧١٧). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦٢٥؛ عزاه السيوطي لابن المنذر أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أبَحْنَا لكَ نساءَكَ اللاّتِي تزوَّجْتَهن بمُهُور مُسمَّاةٍ، وأعطيتَ مُهورَهُنَّ، وسَمَّى المهرَ أجْرًا لأنه يجبُ بَدَلاً عن منافعِ البُضْعِ، كما أنَّ الأجرَ يجبُ بَدَلاً عن منافعِ الدَّار والعبدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ ؛ أي وأبَحْنَا لكَ ما ملكَتْ يمينُكَ؛ يعني الْجَوَاري التي يَملِكُها. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ ؛ أي مِمَّا أعطاكَ اللهُ من الغنيمةِ مثل جُوَيْرِيَّةَ بنتِ الحارثِ، وصَفِيَّةَ بنتِ حَيِيٍّ بن أخْطَبَ. ويدخلُ في هذه اللفظةِ الشِّراءُ والتزوُّجُ، كما رُوي فِي صَفِيَّةَ [أنَّهُ ﷺ أعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ ﴾ ؛ أرادَ به إباحةَ تزويجِ بناتِ عمِّه وبناتِ عمَّاتهِ من[2] بني عبدِ المطَّلب، ﴿ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ ، وبناتِ خالهِ وبنات خالاتهِ؛ يعني نساءَ بني زُهرَةَ من بنِي عبدِ منافٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ؛ أي هَاجَرْنَ معكَ من مكَّة إلى المدينةِ، وهذا إنَّما كان قَبْلَ تَحليلِ غيرِ الْمُهاجِرَات، ثُم نُسِخَ شرطُ الهجرةِ في التحليلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ؛ بلا مَهرٍ إن أرادَ النبيُّ أن يتزوَّجَها، ومَن قرأ (وَهَبَتْ) بالفتحِ، فمعناهُ: أحللناهَا أنْ وهَبَت، وهي قراءةُ الحسنِ، فالفتحُ على الماضِي والكسرُ على الاستئنافِ[3]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ؛ أي إنْ أرادَ النبيُّ أن يتزوَّجَها فلَهُ ذلكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص٥٤: الحديث(١٨٠-١٨٢). والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب من جعل عتق الأمة صدقَها: الحديث (٥٠٨٦).

(٢) في المخطوط: (عن).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٠٩؛ قال القرطبي: (وقرأ الحسن البصري وأبي بن كعب والشعبي (أنْ) بفتح الألف، وقرأ الأعمش: (وَامْرَأةٌ مُؤْمِنَةٌ وَهَبَتْ). قال النحاس: (وكسر (إنْ) أجمع للمعاني؛ لأنه قيل: إنهن نساء، وإذا تفح كان على واحدة بعينها؛ لأن الفتح على البدل من المرأة، أو بمعنى (لأنْ). ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢١٩.

﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ ؛ أي خاصَّةً لكَ، ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فليسَ لامرأةٍ أن تَهَبَ نفسَها لرجلٍ بغيرِ شُهودٍ ولا وَلِيٍّ ولا مَهْرٍ إلاّ للنبيِّ ﷺ، وهذا مِن خَصَائِصِهِ في النِّكاحِ، كالتَّخْييرِ والعددِ في النِّساء.

ولو تزوَّجَها بلفظِ الهبة وقبلَها بشهودٍ ومَهْرٍ انعقدَ النكاحُ ولَزمَ المهرُ، وهذا مذهبُ أبي حنيفةَ. وقال الشافعيُّ ومالكٌ: (لاَ يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ بلَفْظِ الْهِبَةِ إلاَّ للنَّبيِّ ﷺ خَاصَّةً؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ (إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) وَلَمْ يَقُلْ لَكَ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ: إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ، كَانَ يَجُوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ أنَّهُ يَجُوزُ ذلِكَ لِغَيْرِهِ عليه السلام كَمَا جَازَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ)، لأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ).

وحُجَّةُ أبي حنيفةَ وأصحابهِ: أنَّ إضافةَ الهبةِ إلى المرأةِ دليلاً أنَّ النبيَّ لَم يكن مَخْصُوصاً بالنكاحِ بلفظةِ الهبةِ. وإنَّما كانت خُصوصيَّة في جواز النِّكاحِ بغير بدل، ولو لَم يكن بلفظِ الهبةِ نكاحاً لِمَا قالَ تَعَالَى (إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أنْ يَسْتَنكِحَهَا)، فلمَّا جعلَ اللهُ الهبةَ جواباً للاسْتِنْكَاحِ، عُلِمَ أنَّ لفظَ الهبة نِكَاحٌ.

وقَوْلُهُ (خَالِصَةً) نعتُ مصدرٍ؛ تقديرُهُ: إنْ وَهَبَتْ نفسَها هبةً خالصةً لكَ بغيرِ عِوَضٍ، أحْلَلْنَا لكَ ذلك مِن دونِ المؤمنين، فأمَّا المؤمنونَ إذا قبلُوا هذه الهبةَ على وجهِ النِّكاحِ لزمَهم المهرُ.

ويقالُ: إن الخالصَةَ نعتٌ للمرأةِ؛ أي جعلنَاها خالصةً لكَ فلا تحلُّ لغيركَ مِن بعدِكَ.

وقد اختلَفُوا في هذهِ المرأةِ التي وَهَبَتْ نفسَها للنبيِّ مَن هِيَ ؟ فقال قتادةُ: (هِيَ مَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ)[(١)]. وقال الشافعيُّ: (زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ، امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَكَانَتْ تُسَمَّى أُمَّ الْمَسَاكِيْنِ)[(٢)]. وقال الضحَّاكُ ومقاتلُ: (هِيَ أُمُّ شُرَيْكِ بِنِ جَابرٍ مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٩١) عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٤ ص٢٩ من غير أن ينسبه إلى أحد.

بَنِي أسَدٍ)[١]. وقال عروةُ بن الزُّبيرِ: (هِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ الأَوْقَصِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾، أي قد علِمنا المصلحةَ للمؤمنين في أنْ لا يتزوجَّوا أكثر من الأربع، ولا يتزوجوا بغيرِ مهر ولا وليٌ ولا شهود. والمعنى: أوجَبنا عليهم أن لا يتزوجوا أكثر من أربع بمهر وولي وشهود. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾، أي وقد علِمنا ما فَرضنا عليهم فيما ملكت أيمانُهم حتى لا يجوزُ لهم التزويج بالمعتَقة من غيرِ مهر، وحتى لا يباحَ لهم بملك اليمين كما أبيح للنبيِّ ﷺ، فإنه كان له الصفيُّ من الغنيمة ولم يكن لغيرِهِ. وقيل: معناه وما ملكت أيمانهم ممن يجوز سَبْيُه وحربُه، فأما ما كان له عهدٌ فلا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾، أي ضَيقٌ في أمرِ النكاح ومنعٍ من شيء تريدهُ، وهذا فيه تقديمٌ؛ تقديرهُ: خالصةٌ لك من دون المؤمنين لكيلا يكون عليك حرجٌ، أي أحلَلنا لكَ ما ذكرنا؛ ليرتفعَ عنك الحرجُ والضيق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾، أي غفوراً للنبي ﷺ في التزويجِ بغير مهرٍ، ﴿ رَّحِيمًا ۝٥٠ ﴾، به في تحليلِ ذلك له. وقيل: غفورٌ لمن يستحقُّ المغفرةَ، رحيمٌ بالعبادِ فيما يتَّصلُ بالدِّين والدنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾، معناه: تؤخِّرُ مَن تشاءُ من فراشِكَ من نسائك، وتضمُّ إلى فراشِكَ مَن تشاءُ منهن من غير حرجٍ عليك. وهذا من خصائصِ النبيِّ ﷺ تفضيلاً له، أبيح له أن يجعلَ لِمَن أحبَّ منهن يوماً أو أكثرَ، ويعطِّلُ مَن شاء منهنَّ فلا يأتيها. وكان القَسْمُ واجباً على النبيِّ ﷺ والتسويةُ بينهن، فلما ((نزلت))[٣] هذه الآيةُ سقطَ الوجوبُ، وصار الاختيار إليه فيهن. قال منصورُ عن أبي رزين: (وَكَانَ مِمَّنْ آوَى عَائِشَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَزَيْنَبُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٩٥). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٧٩٤).

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

وَحَفْصَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ، وَكَانَ يُسَوِّي بَيْنَهُنَّ فِي الْقَسْمِ، وَكَانَ مِمَّنْ أَرْجَى سَوْدَةُ وَجُوَيْرِيَّةُ وَصَفِيَّةُ وَأُمُّ حَبِيبَةَ وَمَيْمُونَةَ، وَكَانَ يَقْسِمُ لَهُنَّ مَا شَاءَ، وَكَانَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ، فَقُلْنَ لَهُ: اقْسِمْ لَنَا مَا شِئْتَ مِنْ نَفْسِكَ، وَدَعْنَا عَلَى حَالِنَا)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ ، معناهُ: إنْ أردتَ أن تُؤوي إليك امرأةً ممن عزلتهُنَّ من القسمةِ وتضمَّها إليه، فلا عتبَ عليك ولا لَوْمَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ، أي ذلك التخييرُ الذي خيَّرتك في صُحبَتهنَّ أدنى إلى رضاهن إذا كان ذلك مُنَزَّلاً مِن الله عليك، ويرضيهنَّ كلُّهن بما أعطيتهن من تقريبٍ وإرجاء وإيواءٍ. قال قتادةُ: (إذا عَلِمْنَ أنَّ هَذا جَاءَ مِنَ اللهِ لِرُخْصَةٍ، كَانَ أَطْيَبَ لأَنْفُسِهِنَّ وَأَقَلَّ لِحُزْنِهِنَّ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ، واللهُ يعلَمُ ما في قلوبكم من أمر النساء والميلِ إلى بعضِهنَّ، ويعلمُ ما في قلوبكم من الرِّضا والسُّخط وغير ذلك، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ ، بمصالحِ العباد، ﴿حَلِيمًا ۝٥١﴾ ، على جهلِهم ولا يعاقبُهم بكلِّ ذنبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ، قال قتادةُ: (وَذلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَيَّرَ نِسَاءَهُ فَاخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ، شَكَرَ اللهُ لَهُنَّ فَقَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ سِوَاهُنَّ)[٣]. وكُن يومئذ تِسعاً: عائشةُ، وحفصةُ، وزينب، وأم سَلَمة، وأمُّ حَبيبة، وصفيَّة، وميمونةُ، وجويريَّة، وسَوْدَةُ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٠٢ و٢١٨٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨١٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨١٥).

(٤) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٤٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢١٥. وابن عادل في اللباب: ج ١٥ ص٥٧٣.

ومعنى الآية: لا يحلُّ لكَ من النساءِ سوى هؤلاء اللاَّتي اخترنكَ، ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ ، وليس لكَ أن تُطلِّقَ واحدةً منهن وتزوَّج بدَلها. وقولهُ: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ ﴾ ، يعني ماريَّة القِبطية وغيرها من السَّبايا. وقولهُ تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ ، أي حفيظاً. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: [مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى حَلَّتْ لَهُ النِّسَاءُ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ، نزلت هذه الآيةُ في شأن وليمَةِ زينب، قال أنسُ ابن مالكٍ: (لَمَّا بَنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بزَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ، أوْلَمَ عَلَيْهَا بتَمْرٍ وَسَوِيقٍ وَذَبحَ شَاةً، وَبَعَثَتْ إلَيْهِ أمِّي أمُّ سُلَيمٍ بحَيْسٍ في تُورٍ مِنْ حِجَارَةٍ، فَأمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ أدْعُوَ أصْحَابَهُ إلَى الطَّعَامِ فَدَعَوْتُهُمْ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَدْخُلُونَ فَيَأكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ آخَرُونَ فَيَأكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَوَضَعَ النَّبيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى الطَّعَامِ وَدَعَا فِيهِ، فَأكَلُوا حَتَّى شَبعُوا وَخَرَجُوا، وَبَقِيَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا.

فَقَالَ ﷺ: [ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ] فَرَفَعُوا وَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ وَبَقِيَ أوْلَئِكَ الْقَوْمُ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَأطَالُوا الْمُكْثَ. وَإنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِكَيْ يَخْرُجُوا، فَمَشَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى جَمِيعِ بُيُوتِ أزْوَاجِهِ، ثُمَّ رَجَعَ فَإذا الْقَوْمُ جُلُوسٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِهِ، وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٢٥) بأسانيد عن عائشة وألفاظ. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٤١ و١٨٠ و٢٠١. والترمذي في الجامع: التفسير: باب ومن سورة الأحزاب: الحديث (٣٢١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب ما افترض الله عز وجل على رسوله: ج ٦ ص٥٦. وابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: باب صفته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واخباره: الحديث (٦٣٦٦)، وقال: (أرادت بذلك إباحةَ بعد حظرٍ).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٦٣. ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: باب زواج زينب بنت جحش: الحديث (٩٤/ ١٤٢٨). والترمذي في الجامع: التفسير: الحديث (٣٢١٨).

قال أنسٌ: (فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب جِئْتُ لأَدْخُلَ كَمَا كُنْتُ، فَقَالَ ﷺ: [وَرَاءَكَ يَا أَنَسُ])(١).

ومعنى الآية: (لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) ﷺ (إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) أي إلا أن يُدعَوا إلى الضيافةِ أو يُؤذن لكم في الدخول، من غير أن يجتنبوا وقتَ الطعام فيستأذنوا في ذلك الوقت، ثم تقعُدوا انتظاراً لبُلوغ الطعامِ ونُضجهِ.

ومعنى: (غَيْرَ نَاظِرِينَ) أي مُنتظرين نُضجَهُ وإدراكَهُ، يقال: أنى يأنِي إناهُ، إذا حانَ وأدركَ، وكانوا يدخلون بَيتَهُ فيجلسون منتظرين إدراكَ الطعام، فنُهوا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾ ، أي فتفرَّقوا، ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، ولا تجلسوا مُستأنسين لحديثٍ بعدَ أن تأكلوا، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ ، إنَّ طُولَ مقامكم بعدُ في منزل النبي عليه السلام، ﴿ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ ، ﷺ، ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ ، أن يأمركم بالخروج، ﴿ وَاللَّهُ ﴾ ، عزَّوجَلَّ، ﴿ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، أي لا يمنعه عن بيان ما هو الحقُّ استحياءً منكم، وإن كان رسولهُ يفعل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ، أي إذا سألتُم أزواجَ النبيِّ ﷺ من متاع البيت، فخاطبُوهم من وراء الباب والسِّتر، قال مقاتلُ: (أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لاَ يُكَلِّمُوا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)(٢). وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ عُمر: (يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ بالْحِجَاب، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَاب)(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ احْجِبْ نِسَاءَكَ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)(٤). وعن عامرٍ رضي الله عنه قال: (مَرَّ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٣؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وفيه سلم العلوي وهو ضعيف).
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٢-٥٣.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٨٣٧).
(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الوضوء: باب خروج النساء إلى البراز: الحديث (١٤٦).

نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُنَّ: احْتَجِبْنَ؛ فَإنَّ لَكُنَّ عَلَى النِّسَاءِ فَضْلاً كَمَا أنَّ لِزَوْجِكُنَّ عَلَى الرِّجَالِ فَضْلاً. فَلَمْ يَلْبَثُواْ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: (أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الْحِجَابُ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إنَّكَ لَتَغَارُ عَلَيْنَا وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِنَا؟!)[1]. وقال أنس: (كُنْتُ أدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بغَيْرِ إذْنٍ، فَجِئْتُ يَوْماً لأَدْخُلَ فَقَالَ: [مَكَانَكَ يَا بُنَيَّ، قَدْ حَدَثَ بَعْدُ أنْ لاَ يُدْخَلَ عَلَيْنَا إلاَّ بإذْنٍ][2].

وعن اسماعيل بن أبي حكيم[3] في قوله تعالى: (فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) قال: (هَذا أدَبٌ أدَّبَ اللهُ بِهِ الثُّقَلاءَ)[4]. وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم فقال: (فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا)[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ، أي سؤالكم إياهن المتاعَ من وراء حجاب أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن من الرِّيبة. وهذا الحكمُ في الحجاب وإن نزلَ في أزواجِ النبي ﷺ، فالمعنى عامٌّ فيه وفي غيره، ونحن مأمورون باتباعهِ والاقتداء به، إلا فيما خصَّه الله به دون أمَّتِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ، أي ليس لكم أنْ تُؤذوه بالدخولِ في منزله بغير إذنه، ولا بالحديثِ مع أزواجه ولا بشيءٍ من الأشياء، ولا يحلُّ لكم ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٣١٨٣٣) وإسناده ضعيف، قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٤.

(٢) تقدم.

(٣) في المخطوط: (اسماعيل بن حكيم) والصحيح: اسماعيل بن أبي حكيم، وكما في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٤ ص٢٢٤.

(٤) اسماعيل بن أبي حكيم القُرَشيُّ، كان عاملاً لعمر بن عبدالعزيز، توفي سنة (١٣٠) من الهجرة، وكان قليل الحديث؛ قال ابن عبدالبر في التمهيد: (كان فاضلاً ثقة، وهو حجة فيما روى عنه جماعة من أهل العلم). ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٤٧٠).

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٤؛ قال القرطبي: (وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي) وذكره. وعلى ما يبدو أنه تحريف من ناسخ المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ، نزلَ في طلحةَ بن عُبيد الله، قال: (يَنهانا مُحمَّد ﷺ أن ندخُلَ على بناتِ أعمامنا – يعني عائشةَ وهما من بني تَيم بن مُرَّة – فلأنْ ماتَ رسولُ الله ﷺ وأنا حيٌّ لأتزوجنَّ عائشةَ)[(١)]. فحرَّمَ اللهُ أزواجَ النبي ﷺ على عامَّة الناس، وجعلهنَّ كأُمَّهاتهم في الإكرامِ والتحريم. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣ ﴾ ، أي إنَّ الذي قُلتم وتمنَّيتم من تزويج أزواجِهِ بعد موته كان عندَ الله عظيماً في الوزْر والعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ ، أي إنْ تُظهروا قَولاً أو تُضمِرُوهُ، فإنَّ الله عالِمٌ بالظواهرِ والبواطنِ والضمائر. وقيل: معناهُ إنْ تُظهروا أشياءَ من أمرهنَّ، يعني طلحةَ، قوله تعالى: (أوْ تُخفُوهُ) أي تسِرُّونَهُ في أنفسكم، وذلك أنَّ نفسَهُ حدَّثته بتزويج عائشة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤ ﴾ ، أي عليمٌ بكل شيءٍ من السرِّ والعلانية.

فلمَّا نزَلت آيةُ الحجاب قال الأباءُ والأبناء والأقاربُ: يا رسولَ الله ونحنُ أيضاً نُكلِّمُهنَّ من وراء حجاب؟ فأنزلَ اللهُ:

قولهُ تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ ، الآية. أي لا حرجَ عليهن في إذنِ آبائهن بالدخول عليهن، ولا في إذن الأبناءِ والإخوان وأبناء الإخوانِ وأبناء الأخوات.

فإن قيلَ: فهلاً ذكَر الأعمامَ والأخوال؟ قيل: إنَّ العمَّ والخالَ يجريان مجرَى الوالدين في الرُّؤية، وكان ذِكرُ الأباء يتضمَّن ثباتَ حُكم الأعمام والأخوال. وقيل: إنما لم يذكُر الأعمامَ والأخوال لكي لا يدخلَ أبناؤهما، ولا يطمَعا فيهن.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٣. ونسبة هذا القول لـ (طلحة بن عبيد الله) فيه نظر، وكنى ابن عباس رضي الله عنهما ولم يصرح بالاسم بـ (بعض الصحابة)، وفي رواية القشيري أبو نصر عبدالرحمن: (قال رجل من سادات قريش). قال ابن عطية: (لله درُّ ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله)، ينظر: الوجيز: ص١٥٢١. ونقل القرطبي قال: (قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض الفضلاء من الصحابة، وحاشاهم عن مثله! والكذب في نقله، وإنما يليق هذا القول بالمنافقين الجهال). الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٢٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ ، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (يَعْنِـي نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، لاَ نِسَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَصِفْنَ لأَزْوَاجِهِنَّ نِسَـاءَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إنْ رَأَيْنَهُنَّ). وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ ، يعني العبيـدَ والإمـاءَ، قيـل: حَمْلُهُ على الإماءِ أوْلَى؛ لأن الْحُرَّ والعبيدَ يختلفان فيما يُباح لهما من النَّظَر، فلا يجـوزُ للبالغين من العبيدِ أن يَنظُروا إلى شيءٍ منهن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ﴾ ، أي واتَّقـين اللهَ أن يراكُــنَّ غـيرُ هـؤلاء، وقيل: اتَّقين اللهَ في الإذن لغـير المحـارمِ في الدخـول عليكـن، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، من أعمالِ العباد، ﴿ شَهِيدًا ۝٥٥ ﴾ ، لم يغب عنه شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ ، معنـاه: أنَّ اللهَ يترَحَّمُ على النبيِّ ويُثني عليه، وقوله: (وَمَلاَئِكَتَـهُ) أي والملائكـة يدعـونَ لـه بالرَّحمـة، وقوله تعالى: (يُصَلُّونَ) الضميرُ فيه يعودُ على الملائكة دون اسم الله تعالى؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُفردُ ذِكرَهُ عن ذِكر غيره إعظاماً كمـا تقـدم في قولـه: ﴿واللهُ وَرَسُـولُهُ أحَـقُّ أنْ يُرْضُوهُ﴾. وقرأ ابن عباس: (وَمَلاَئِكَتُهُ) بالرفع عطفاً على محل قوله تعالى قبل دخـول (إنَّ)، ونظيره قوله تعالى: ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابئُونَ﴾[1] وقـد مضـى ذلك.

وقيل: معنى قوله: (وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ) أي يُثْنُونَ ويترحَّمون ويَدْعُون له. وقال مقاتلُ: (أمَّا صَلاَةُ اللهِ فَالْمَغْفِرَةُ، وَأمَّا صَلاَةُ الْمَلاَئِكَةِ فَالاسْتِغْفَارُ لَـهُ). وقولـهُ تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ ﴾ ، أي قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّد، تَعظِيماً وإجْلاَلاً وتَفضِيلاً.

وعن كعب بن عُجرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ، قِيـلَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ كَيْـفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَـا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ، وَبَـارِكْ عَلَـى مُحَمَّـدٍ وَعَلَـى آلِ

---

(١) المائدة / ٦٩.

مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ](١).

وعن عبدِالله بن مَسعُود أنه قال: (إذا صَلَّيْتُم عَلَى النَّبيِّ ﷺ فَأَحْسِنُوا الصَّلاَةَ عَلَيْهِ؛ فَإنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ لَعَلَّ ذلِكَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ. قَالُوا: فَعَلِّمْنَا ذلِكَ. قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإمَامِ الْمُتَّقِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، إمَامِ الْخَيْرِ وَقَائِدِ الْخَيْرِ وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ. اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغْبِطُهُ فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، يجوزُ أن يكون معناه: واخْضَعُوا لأمرِهِ خُضوعاً، ويجوز أن يكون معناه: الدُّعاء بالسلامِ، يقول: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ. وعن الحسن قال: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَرَفْنَا السَّلاَمَ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ](٣). والأفضلُ في هذا الباب أن تصَلِّي على مُحَمَّد وعلى آلِهِ، فتقولَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّد. فإنْ اقتُصِرَ على أحدهما جازَ.

واختلفوا في كيفيَّة وجُوب الصلاةِ على النبي ﷺ، فقال بعضُهم: تجبُ في العُمرِ مرَّة واحدةً بمنزلة الشهادَتين، وإلى هذا ذهبَ الكرخيُّ قال: (إذا صَلَّى عَلَيْهِ فِي عُمُرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَدْ أدَّى فَرْضَهُ، إلاَّ أنَّ الْمُسْتَحَبَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُكْثِرَ مِنَ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ فِي مُقَابَلَةِ حَقِّهِ فِي الدِّينِ عَلَيْنَا، كَمَا يَلْزَمُ الْمَرْءَ الدُّعَاءُ لأَبَوَيْهِ الْمُؤْمِنَيْنِ لِيَقْضِيَ بذلِكَ الدُّعَاءِ حَقَّهُمَا عَلَيْهِ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بأسانيد: الحديث(٢٦٦-٢٨١): ج١٩ ص١١١-١١٦. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٩٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الصلاة على النبي ﷺ: الحديث (٤٠٦/ ٤٧).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٣٤؛ قال القرطبي: (وروى المسعودي...) وذكره بإسناده. وفي كنز العمال: الحديث (٢١٩٣) عزاه للديلمي عن ابن مسعود. وقال الحافظ ابن حجر: (المعروف أنه رواه موقوف عليه، كذا رواه).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان من غير إسناد: ينظر: الأثر (٢١٨٥٣).

وقال بعضُهم: تجبُ عليه في كلّ مجلسٍ مرَّة بمنزلة سَجدَةِ التِّلاوة. وقال الطحَّاويُّ: (تَجِبُ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ) واستدلَّ بما رُوي أنَّ جبريلَ عليه السلام قالَ للنبيِّ ﷺ: [مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَلاَ غَفَرَ اللهُ لَهُ][1]. وقال الشافعيُّ رضي الله عنه: (الصَّلاَةُ عَلَيْهِ فَرْضٌ فِي كُلِّ صَلاَةٍ) وهذا قولٌ لم يقل به أحدٌ غيرهُ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾، قال المفسِّرون: هم المشركون واليهودُ والنصارى، وصَفُوا اللهَ بالولدِ فقالوا: عُزيرٌ ابن الله، والمسيحُ ابن الله، والملائكةُ بناتُ الله، وكذبوا رسولَهُ وشجُّوا وجهَهُ وكسَرُوا رُباعيته، وقالوا: مجنونٌ، وشاعر، وساحرٌ كذاب. قال ﷺ: [مَا مِنْ أحَدٍ أصْبَرُ عَلَى أذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، جَعَلُوا لَهُ نِدّاً وَجَعَلُوا لَهُ وَلَداً، وَهُوَ مَعَ ذلِكَ يُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ][3] وكذلك قالتِ اليهودُ: يدُ الله مغلولةٌ، وقالوا: إن الله فقيرٌ.

ومعنى: يُؤذون اللهَ، أي يُخالفون أمرَ اللهِ ويعصونه ويصفونَهُ بما هو مُنَزَّهٌ عنه، والله تعالى لا يلحقهُ أذًى. وقوله تعالى: (لَعَنَهُمُ اللهُ) أي باعدَهم اللهُ يعني بالقتل والجلاء في الدُّنيا، والعذاب بالنار في الآخرة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾، أي ذي هوان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾، أي يَرمُونهم بما ليس فيهم، قال قتادةُ والحسن: (إيَّاكُمْ وَإيْذاءَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإنَّ اللهَ يَغْضَبُ لَهُ وَيُؤْذِي مَنْ آذاهُ)[4]. وعن عبدالرحمن بن سَمُرة[5] قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الرقائق: باب الأدعية: الحديث (٩٠٧).

(٢) أدرج الناسخ كعادته عبارة: (كذا في تفسير عبدالصمد). وقد تقدم ذكره.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٦٠) عن قتادة. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٦٣ عنهما. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٦٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(٥) عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه أسلم يوم الفتح، يقال: اسمه عبد كلال، وقيل غير ذلك، فسماهُ=

خرَجَ النبيُّ ﷺ على أصحابـهِ فقـالَ: [رَأيـتُ اللَّيْلَـةَ عَجَباً، رَأيـتُ رجَـالاً مُعَلَّقُـونَ بألْسِنَتِهِمْ، فَقُلْـتُ: مَـنْ هَـؤُلاَءِ يَـا جِـبْرِيلُ؟ فَقَـالَ: هَـؤُلاَءِ الَّذِيـنَ يَرْمُـونَ الْمُؤْمِنِـينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ ، أي فقـد قـالُوا كَذِباً وجَنَوا على أنفُسهم وزْراً وعقوبةً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ ، أي قُل لنسائك وبناتِكَ والحرائـرِ مـن النسـاءِ يُلقِينَ علـى رُؤوسهن ووجوههنَّ من جلابيبهن، والجلبابُ: هو المقنعةُ التي تسـترُ بـها المـرأة مـا يَظهَرُ من العنُق والصدر، وهي الملاءةُ التي تشتمل بها المرأةُ.

قال المفسِّرون: يُغطِّين رؤُوسَـهن ووجوهـهن إلا عَيناً واحـدة. وظـاهرُ الآيـة يقتضي أنْ يكُنَّ مأمورات بالسَّتر التام عند الخروجِ إلى الطُّرق، فعليهن أن يَستَتِرْنَ إلا بمقدار ما يعرفنَ به الطريق.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ، معناه: ذلك أقربُ أنْ يعرفن الحرائرَ من الإماءِ فلا يُؤذِي الحرائر؛ لأن الناسَ كانوا يومئذٍ يُمازحون الإماءَ ولا يمازحون الحرائرَ، وكان المنافقون يمازحون الحرائرَ، فإذا قيلَ لهم في ذلك، قالوا: حسبنا أنَّهن إماءٌ. فأمرَ اللهُ الحرائرَ بهذا النوعِ من السَّتر قطعاً لأعذار المنافقين.

وعن عُمر رضي الله عنه : أنَّهُ كَانَ يَضْربُ الإمَاءَ وَيَقُولُ: (اكْشِفْنَ رُؤُوسَكُنَّ وَلاَ تَتَشَبَّهْنَ بالْحَرَائِرِ)[1]. ومرَّت جاريـةٌ بعُمـر رضي الله عنه متقنِّعـة، فعَلاَهـا بـالدرَّة وقـال: (يَـا لُكَـاعُ، أتَتَشَبَّهِينَ بالْحَرَائِرِ، الْقِي الْقِنَاعَ)[2].

=النبي ﷺ عبدالرحمن، سكن البصرة، وهو الذي افتتح سجستان وكابل وغيرهـا، وشـهد غـزوة مؤتة، توفي سنة خمسين من الهجرة. ينظر: تهذيب التهذيب: الرقم (٣٩٩٥): ج ٥ ص١٠٢.

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي قُلابة رضي الله عنه) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه) وذكره.

ويقالُ في معنى ذلك: (أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ) أي أقربُ إلى أن يُعرفن بالسَّتر والصلاح؛ فييئَس منهن فُسَّاق الرِّجال، فلا يطمَعُون فيهن كطمَعِهم فيمن تتبرَّج وتتكشَّف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾ ، أي لإنْ لم ينْتَهِ المنافقون عن نِفاقهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، يعني الفُجور وهم الزُّناة وضعفاء الدِّين عن أذى المؤمنين، ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، وهم قومٌ كانوا يُوقعون الأخبارَ بما يكرهُ المؤمنون، ويقولون: قد أتاكُم العدوُّ، ويقولون لسَرَاياهم: أنهم قُتِلوا وهُزموا، يُخيفون المؤمنين بذلك. لئن لم ينتَهُوا عن هذه الأفعال القبيحة، ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ ، أي لنسلطنَّكَ عليهم، ونأمرك بقتلِهم حتى تقتُلَهم وتَخلو منهم المدينة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ، أي في المدينةِ، والمعنى: لا يُساكِنُونك في المدينة إلا يَسيراً حتى يهلكُوا، ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ ، مطرودين مُبعَدين عن الرَّحمة، ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ ، أي أينما وُجدوا وأُدركوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَلْعُونِينَ) نصبٌ على الحال، وقيل: على الذمِّ، وتقديرُ النصب على الحال: لا يُجاورونك إلا وهم مَلعُونون مطرودون مخذولون.

وقولهُ تعالى: ﴿ أُخِذُوٓاْ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ ، أي أخذوا وقُتلوا مرَّة بعد مرَّة؛ لأنه إذا ظهرَ أمرُ المنافقين كانوا بمنزلة الكفَّار، ومن حقِّ الكفار أن يُقتلوا حيث يوجدون. قال قتادة: (أَرَادَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يُظْهِرُوا مَا فِي قُلُوبهم مِنَ النِّفَاقِ، فَلَمَّا وَعَدَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ فَكَتَمُوهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ ، أراد بالسُّنة الطريقةَ التي أمرَ اللهُ بلزومها واتباعها، وقد كانت هذه السُّنة في الأُممِ الماضية، لَمَّا آذى المنافقون أنبياءَهم، أمرَ الله أنبياءَهُ بقتالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٧٢).

قال الزجّاجُ: (سَنَّ اللهُ فِي الَّذِيـنَ يُنَـافِقُونَ الأَنْبِيَـاءَ وَيُرْجِفُـونَ بِـهِمْ أَنْ يُقْتَلُـوا حَيْثُمَا ثُقِفُوا)[١] ولا يبدِّلُ الله سُنَّتَهُ فيهم، وهو قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، أي هكذا سُنة الله فيهم إذا أظهرُوا النفاقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ، قال الكلبيُّ: (سَأَلَ أهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ قِيَامِهَا) فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي قُل لهم يا مُحَمَّد: إنَّما العلمُ بوقتِ قيامها عند اللهِ، لا يُطلعُ أحـدا عليـها. وقولـهُ تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ، أيْ أيُّ شيءٍ يُعلمُـكَ أمرَ الساعة ومتى يكون قيامُها، أي أنتَ لا تعرفهُ، ثم قال: (لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا).

ومـا بعـدَ هـذه الآيـة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، أي تُقلَّبُ وجوهُ الكفار ظهرَ البطنِ، وقيل: تُقلَّبُ إلى سوادٍ، وقيل: تُقلَّبُ إلى الأقفيةِ.

وقرأ أبو جعفر: (تَقَلَّبُ) بفتح التاء بمعنى تَتَقلَّب. وقرأ عيسى بن عمر: (نُقَلِّبُ) بالنون وكسر اللام (وُجُوهَهُمْ) بالنصب. وقولهُ تعـالى: ﴿ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ ، في الدُّنيا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي صرفُونا عن الدِّين وعن سَبيلِ الهدى. قرأ الحسنُ وابـن عـامرٍ ويعقوب: (سَادَاتِنَا) بالألفِ وكسر التاء على جمعِ الجمع.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، أي عذِّبْـهم مِثْلَـي عذابنا، فيكون ضعفٌ على كُفرهم وضِعفٌ علـى دُعائـهم لنـا إلى الضـلال. وقولـه: ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ، قـرأ عـاصم (كَبيراً) بالباء؛ أي عظيمـاً، وقــرأ الباقون بالثاء مِن الكثرة، وإنما اختاروا الكثرة لقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُـونَ﴾[٢] وقولـهِ

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص١٧٩.

(٢) البقرة / ١٥٩.

تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[١] فهذا يشهدُ للكثرة.

حدثنا مُحَمَّد بن الحسنِ العسقلاني، قال: (سمعتُ مُحَمَّدَ بن السري يقولُ: رأيتُ في المنام كأنّي في مسجدِ عَسقلان، وكأنَّ رجُلاً يُناظِرُني ويقول: (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبيرًا) وأنا أقولُ: (كثِيرًا). وإذا بالنبيِّ ﷺ فدخلَ علينا المسجدَ، وكان في وسطِ المسجد منارةٌ لها بابٌ، وكان النبيُّ ﷺ يقصدُها.

فقلتُ: هذا النبيُّ ﷺ، فقلتُ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله استَغفِرْ لي. فأمسكَ عنّي، فجِئتهُ عن يمينهِ فقلتُ: يا رسولَ الله استغفِرْ لي، فأعرضَ عني، فقمتُ من تلقاءِ صدره، حدَّثنا سُفيان بن عُيينة عن مُحَمَّد بن المنكدر وعن جابر بن عبدالله: [أنَّكَ مَا سُئِلْتَ شَيْئاً قَطْ فَقُلْتَ لاَ] فتبسَّم ﷺ وقال: [اللّهم اغفِرْ له]. فقلتُ: يا رسولَ الله إني وهذا نتكلَّمُ في قولهِ تعالى: (وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا)، فأنا أقولُ: (كثِيرا) وهذا يقولُ: (كَبيرا)، قال: فدخلَ النبيُّ ﷺ المنارةَ وهو يقولُ: كثِيرا، كثِيرا، بالثاءِ إلى أن غابَ عني صوتهُ)[٢].

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ ، أي لا تكونُوا في أذى مُحَمَّد ﷺ كبني إسرائيلَ، الذين آذوا موسَى بعيبٍ أضافوهُ إليه. فبرَّأهُ الله مما قالوا عليه،﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ، أي رفيعَ القدر والمنزلةِ.

واختلفوا في العيب الذي أضافَهُ بنوا إسرائيلَ إلى موسى، قال بعضُهم: كان هارونُ أحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى لزيادةِ رفقه بهم، فلما ماتَ هارونُ في حالِ غيبتهما عنهم، قالوا: إنَّ موسى قتلَهُ لتخلصَ له النُّبوة، فأحياهُ الله تعالى حتى كذبَهم.

وقال بعضُهم:كان أذاهُم له أنهم رَمَوه بالأَدَرَةِ لكثرةِ حيائه واستتارهِ عن الناس، وكانت بنوا إسرائيلَ يغتَسلون عُراةً ينظرُ بعضهم إلى سَوءَةِ بعضٍ، وكان

---

(١) البقرة / ١٦١.

(٢) ذكر القصة أيضاً بإسناده الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٦٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٥٠ مختصره.

موسى يغتسلُ وحدَهُ، فقالوا: واللهِ ما يمنعُ موسَى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَر[١].

قال: فذهبَ يغتسلُ مرَّة، فوضعَ ثوبَهُ على حجرٍ، فذهبَ الحجرُ بثوبـهِ، فخـرجَ موسى من الماءِ في إثْرِ الحجرِ، يقول: ثوبي يا حجرُ، حتى نظَرت بنوا إسرائيل إلى سَـوأته عليه السلام، فقالوا: واللهِ ما به من بأسٍ. فقامَ الحجرُ بعدما نظروا إليه وأخـذ ثوبـه، فطَفِـقَ بالحجرِ ضَرباً. قال أبو هُريـرة: [وَاللهِ إنَّ بـالْحَجَرِ نُـدَبٌ سِتَّةٌ أوْ سَبْعَةٌ مِـنْ ضَـرْبِ مُوسَى][٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا) أي حَظِيّاً لا يسألهُ شيئاً إلا أعطاهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، أي اتَّقُـوا عـذابَ الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ ، قال ابـنُ عبـاس: (صَوَاباً)، وقال الحسنُ: (صَادِقاً) يعني كلمةَ التوحيدِ: لا إلهَ إلاّ اللهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ ، قـال ابـنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: يَتَقبَّـلْ حَسَنَاتِكُمْ) ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ ، بسَدَادِ قولِكـم، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ ، أي فقد نالَ الخير كلَّهُ وظَفِرَ به، والفوزُ العظيم هـو الظَّفَرُ بالكرامةِ والرضوان من اللهِ تعالى.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ ﴾ ، معناه: إنا عرَضنا الأمانةَ الـتي هـي الشـرائعُ والفرائـض الـتي يتعلَّـقُ بأدائـها الثـوابُ وبتركها العقاب. قال ابنُ عباس:(عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ الَّتِـي زُيِّنَـتْ بالنُّجُومِ وَحَمَلَتِ الْعَرْشَ الْعَظِيمَ، فَقِيلَ لَهُنَّ بأَخْذِ الأَمَانَةِ بمَا فِيهَا، قُلْنَ: وَمَا فِيـهَا، قِيـلَ: إنْ أحْسَنْتُنَّ جُزِيتُنَّ، وَإنْ أسَأْتُنَّ عُوقِبْتُنَّ، قُلْنَ: لاَ. ثُمَّ عُرِضَـتِ الأَمَانَـةُ عَلَـى الْجِبَـالِ الصُّمِّ الشَّوَامِخِ الصِّلاَبِ الْبَوَاذِحِ)[٣]، ﴿ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا ﴾ . قـال

---

(١) قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: (آدَر: هو بهمزة ممدودة ثم دال مهملـة مفتوحـة ثـم راء مخففتين، قال أهل اللغة: هو عظيم الخصيتين). المجلد الثاني: ص٢٧٢.

(٢) أصل هذا القول حديث أبي هريرة كما في الصحيحين، أخرجه البخاري في الصحيح: كتـاب الغسل: باب من اغتسل عرياناً وحده: الحديث (٢٧٨). ومسـلم في الصحيـح: كتـاب الحيـض: باب جواز الاغتسال عرياناً: الحديث (٧٥/ ٣٣٩).

(٣) البَذحُ: الشَّقُّ، وفي رجل فُلان بذُوحٌ؛ أي شُقُوق. ينظر: لسان العرب: (بذح): ج ١ ص٣٥٠.

ابنُ جريج:(قَالَتِ السَّمَاءُ: يَا رَب خَلَقْتَنِي وَجَعَلْتَنِي سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَأجْرَيتَ فِيَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، لاَ أعْمَلُ فَرِيضَةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً. وَقَالَتِ الأَرْضُ: يَا رَب جَعَلْتَنِي بِسَاطاً وَمِهَاداً، وَشَقَقْتَ فِيَّ الأَنْهَارَ، وَأنْبَتَّ فِيَّ الأَشْجَارَ، لاَ أتَحَمَّلُ فَرِيضَةً وَلاَ أبْتَغِي ثَوَاباً وَلاَ عِقَاباً)[١].

ومعنى قولِه: (فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا) أي مخافةً وخشيةً لا معصيةً ولا مخالفة، والعرضُ كان تخييراً لا إلزاماً، قولُهُ: (وَأشْفَقْنَ مِنْهَا) أي خِفْنَ من الأمانةِ أن لا توفِّيها، فيلحقهُنَّ العقابُ، فأبَوا ذلك تعظيماً لدِين الله وخَوفاً أن لا يقوموا به، وقالوا: نحنُ مسخَّرات لأمركَ لا نريدُ ثواباً ولا عقاباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾، يعني: وحَملَها آدمُ عليه السلام قال الله له: يا آدمُ إني عرضتُ الأمانةَ على السَّموات والأرض والجبالَ فأبَين أن يحملنَها ولم يُطِقْنَها، فهل أنتَ آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إنْ أحسنتَ جُزيتَ، وإنْ أساتَ عُوقِبْتَ. فتحمَّلها آدمُ، وقال: حَملتُها بين أذُنَيَّ وعاتِقي.

قال ابنُ عباس: (عَرَضَ اللهُ عَلَى آدَمَ أدَاءَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي مَوَاقِيتِهَا، وَأدَاءَ الزَّكَاةِ عِنْدَ مَحِلِّهَا، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحِجِّ الْبَيْتِ، عَلَى أنَّ لَهُ الثَّوَابَ وَعَلَيْهِ الْعِقَابَ، فَقَالَ: بَيْنَ أذُنَيَّ وَعَاتِقِي)[٢].

وقال مقاتل: (قَالَ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ: أتَحْمِلُ هَذِهِ الأَمَانَةَ وَتَرْعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا؟ فَقَالَ آدَمُ: وَمَا لِي عِنْدَكَ؟ قَالَ: إنْ أحْسَنْتَ وَأطَعْتَ وَرَعَيْتَ الأَمَانَةَ، فَلَكَ الْكَرَامَةُ وَحُسْنُ الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ، وَإنْ عَصَيْتَ وَأسَأْتَ مُعَذِّبُكَ وَمُعَاقِبُكَ. قَالَ: قَدْ رَضِيتُ يَا رَب، وَتَحَمَّلَهَا. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ حَمَّلْتُكَهَا. فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٥٩: الرقم (١٧٨١٣).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بأسانيد: الرقم (٢١٨٩٥).

قال الكلبيُّ: (ظُلْمُهُ حَيْثُ عَصَى رَبَّهُ وَأخرجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَجَهْلُهُ حَيْثُ تَحَمَّلَهَا). وقال مقاتلُ: (ظَلُوماً لِنَفْسِهِ، جَهُولاً بِعَاقِبَةِ مَا حُمِّلَ)[١]. وقال مجاهدُ: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَالْجِبَالَ، عُرِضَتِ الأَمَانَةُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَقْبَلْهَا، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَرَضَهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ تَحَمَّلْتُهَا يَا رَب. قال مجاهدُ: فَمَا كَانَ بَيْنَ أنْ تَحَمَّلَهَا وَبَيْنَ أنْ أخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ إلاَّ قَدْرَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ وَالظُّهْرِ)[٢].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (إنَّ اللهَ قَالَ لآدَمَ: إنِّي عَرَضْتُ الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِقْنَهَا، فَهَلْ أنْتَ حَامِلُهَا بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: يَا رَب وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إنْ حَفِظْتَهَا أجِرْتَ، وَإنْ ضَيَّعْتَهَا عُوقِبْتَ، قَالَ: قَدْ تَحَمَّلْتُهَا. فَمَا بَقِيَ فِي الْجَنَّةِ إلاَّ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا)[٣].

وقال زيدُ بن أسلَمْ: (الأَمَانَةُ هِيَ الصَّوْمُ وَالْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ)، وقال بعضُهم: (هِيَ أمَانَاتُ النَّاسِ وَالْوَفَاءُ بالْعُهُودِ، فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أنْ لاَ يَغُشَّ مُسْلِماً فِي شَيْءٍ لاَ قَلِيلٍ وَلاَ كَثِيرٍ).

وقال السديُّ: (هِيَ ائْتِمَانُ آدَمَ ابْنَهُ قَابيلَ عَلَى أهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَذلِكَ أنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أرَادَ أنْ يَحُجَّ إلَى مَكَّةَ، قَالَ: يَا سَمَاءُ احْفَظِي أوْلاَدِي بالأَمَانَةِ، فَأَبَتْ. وَقَالَ لِلأَرْضِ كَذلِكَ، فَأَبَتْ. وَقَالَ لِلجِبَالِ كَذلِكَ، فَأَبَتْ. ثُمَّ قَالَ لابْنِهِ قَابيلَ: أتَحْفَظُهُمْ بالأَمَانَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَذْهَبُ وَتَرْجِعُ فَتَجِدُ أهْلَكَ كَمَا يَسُرُّكَ. فَانْطَلَقَ آدَمُ وَرَجَعَ وَقَدْ قَتَلَ قَابيلُ هَابيلَ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا) يَعْنِي قَابيلَ حِينَ حَمَلَ أمَانَةَ أبيهِ ثُمَّ لَمْ يَحْفَظْهَا)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾، أي ليعذبَهم اللهُ بما خانُوا الأمانةَ وكذبوا الرُّسُلَ، ونقضِ الميثاق

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٥٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٦٠: الرقم (١٧٨١٥).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٨٩٥).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٠٥) مطولاً، والأثر (٢١٩٠٦) مختصراً.

الذي أقَرُّوا به حين أخرِجُوا من ظهرِ آدم. قال الحسنُ: (هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَانُوهَا، وَهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾، لأنَّهم أدَّوا الأمانةَ، وهي الفرائضُ. وقيل: معنى الآية: إنَّا عرَضنا الأمانةَ ليَظهَرَ نِفاقُ المنافق، وشِرْكُ المشركِ فيعذِّبُهم اللهُ، ويُظهِرَ إيمانَ المؤمنين فيتوبَ اللهُ عليهم، أي يعودُ عليهم بالمغفرةِ والرَّحمة إنْ حصلَ منهم تقصيرٌ في بعضِ الطاعات، وكذلك ذكرَ بلفظِ التوبة، فدلَّ على أن المؤمنَ العاصي خارجٌ من العذاب، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾، للمؤمنين إذا تابُوا، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾، بمن ماتَ على التوبةِ.

آخر تفسير سورة (**الأحزاب**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ سَبَـأ

سُورَةُ سَبَأ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَاثْنَى عَشَرَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَثَلاَثُـونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ سَبَأ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ وَلاَ رَسُولٌ إلاَّ كَـانَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ لَـهُ رَفِيْقاً وَمُصَافِحاً][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ الحمـدُ: الوصـفُ بالجميلِ على جهةِ التَّعظيمِ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَـهُ مَـا فِـي السَّـمَوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ) المعنى: له ما في السـموات والأرض مُلكـاً وخَلْقـاً، ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ؛ أي يَحمدُهُ أهلُ الآخرةِ على دَوَامِ نِعَمِهِ عليهم كما يَحمدُهُ أهلُ الدُّنيا، ولكنَّ الحمدَ في الدُّنيا تَعَبُّدٌ، وفي الآخرة شُكْرٌ على سبيلِ السُّرور؛ لأنـه لا يُكلَّـفُ في الآخـرةِ، يقـولُ أهلُ الآخرةِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَـا لِـهَذا، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ وَالنِّقَـمَ فِـي الدَّارَيْـنِ كُلِّـهَا مِنْـهُ. قَوْلُـهُ: ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١ ﴾ ؛ أي الْحَكِيْمُ في أفعالِهِ، الْخَبِيْرُ بأحوالِ عبادِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ ؛ أي مـا يدخـلُ في الأرضِ ويَغِيبُ فيها مِن المطرِ والحيوانـاتِ مـن الْمَيْتَـةِ، ويعلـمُ مـا يخرجُ منـها مـن أنواعِ النَّباتِ والزُّروعِ وغيرِ ذلـك ممـا لا يعلمـهُ إلاّ هُـوَ، وَ يعلـمُ ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ؛ مِن الأمطارِ التي هي سببُ أرزاقِ العبـادِ، وَ يعلـمُ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ ﴾ ؛

(١) ذكره الزمخشري في الكشـاف: ج ٣ ص٥٧٦. وأخرجـه الثعلـبي وابـن مردويـه والواحـدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب.

في السَّماء؛ أي مَن يصعدُ، ﴿ فِيهَا ﴾ ؛ مِـن الملائكـةِ الْحَفَظَـةِ لديـوان العبـاد، ومـا يرتفعُ فيها من الرِّياح والحرِّ والبردِ، ويعلمُ ما يصعدُ فيها مـن أعمـالِ العبـاد. يقـالُ: عَرَجَ يَعْرُجُ؛ إذا صَعَدَ، وعَرِجَ يَعْرِجُ إذا صَارَ أعْرَجاً.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾ ؛ أي الرَّحِيْـمُ بعبـادهِ، الغَفُورُ لِمَنِ استحقَّ المغفرةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ ؛ أي قالَ الكفَّـارُ: لا تأتِينا القيامةُ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّد: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ؛ علـى مـا أخبرَ اللهُ تعالى، ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ .

قرأ حمزةُ والكسائيُّ (عَالِمِ الْغَيْب) بخفضِ الميمِ على وزن فِعَـالٍ علـى المبالغـةِ، كقولهِ: عَلاَّمِ الْغُيُوب، وقرأ نافعُ وابنُ عامرٍ: (عَالِمُ) برفعِ الميمِ على تقدير: هو عالِمٌ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمر وعاصمُ (عَالِمِ) بالكسر نعتٌ لقولهِ (وَرَبي)[1] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ ؛ أي لا يغيبُ عنـه ولا يبعـدُ عليه معرفةُ وزنِ ذرَّةٍ، ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ وخصَّ الـذرَّةَ بـالذِّكر لأنَّها أصغرُ شيءٍ يدخلُ في أوهامِ البَشَرِ، وهذا مَثَلٌ؛ لأنه سُبْحَانَهُ لا يخفَى عليه ما هو دُونَ الذرةِ، والمعنى: اللهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ دَقَّ أو جَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ ؛ الكتـابُ الْمُبِيْـنُ في هـذه الآيةِ هو اللَّوحُ الْمَحفوظُ.

وَقَوْلُـهُ: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ ؛ معناهُ: لتَأتِيَنَّكم الساعةُ لِيَجْـزِيَ الَّذِيـنَ آمَنـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ عَلَى أعمالِهم بالمغفرةِ والرِّزقِ الكريم؛ أي الثواب الحسَنِ في الجنَّة.

وَقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ؛ أي سَـعَوا فيـها بعـدَ ظُهورِها ووضُوحِها بالتكذيب لَها والجحودِ بها، مقدِّرينَ أنَّهم سيفُوتُوننا، ويُعـاجِزُونَ

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٥١.

الرسولَ ﷺ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ من عذابٍ مُؤلِم، والرِّجْزُ: أسْوَأ الْعَذاب.

قرأ ابنُ كثيرٍ (أليْمٌ) بالرفعِ على نعتِ العذاب، وقرأ الباقونَ بالخفضِ على نعتِ الرِّجْزِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ عطفٌ على قولهِ (لِيَجْزِيَ) أي ولكي يعلمَ الَّذينَ أوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْـزِلَ إلَيْـكَ مِـنْ رَبـكَ وهـو القُرْآنُ وآيهِ يهدِي إلى صِراط العزيزِ بالنِّقمةِ لِمَن لا يؤمنُ به، الْحَمِيْدِ لِمَن وحَّدَهُ، أي يهدِي إلى دِينِ اللهِ.

وقوله تعالى (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يعني مؤمنِي أهلِ الكتاب. وقال قتادةُ: (يَعْنِـي أصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[1]. وقولهُ (هُوَ الْحَقُّ) إنَّمـا دَخلـت (هُـوَ) في هـذا الموضـعِ للفصلِ عند البصريِّين، ويُسمَّى ذلك عِمَاداً، ولا يدخـلُ العِمَـادُ إلاّ في المعرفـةِ، قـال الشاعرُ:

لَيْـتَ الشَّـبَابُ هُـوَ الرَّجِيْـعُ عَلَـى الْفَتَـى وَالشَّـيْبُ كَـانَ هُــوَ الْبَـدِئُ الأَوَّلُ[2]

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي قال الكُفَّارُ على وجـهِ التَّعَجُّبِ والإنكار؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ يَعْنُـونَ مُحَمَّـداً ﷺ يَزْعُـمُ أنَّكُمْ تُبْعَثُونَ بَعْدَ أنْ تَكُونُوا عِظَاماً وَرُفَاتاً! وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) أي يقولُ لكم إذا بَلِيتُمْ وتقطَّعَتْ أجسامُكم وانْدَرَسَـتْ آثارُكم تعودونَ. وقولُه تعالى (كُلَّ مُمَزَّق) أي إذا تفرَّقتُم في الأرضِ وتفرَّقَـت العظامُ والجلودُ كلَّ تفريقٍ، (إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيْدٍ) أي نجدِّدُ خلْقَكم بأنْ تُبعَثُوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩١٩).

(٢) ذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٥٢.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ هذا مِن قـول الكُفَّار بعضُـهم لبعضٍ؛ قالوا: افْتَرَى مُحَمَّدٌ على اللهِ كَذِباً حين زَعَمَ أنَّا نُبْعَثُ بعدَ المَـوتِ! ﴿ أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ ؛ أي جنونٌ، يقولون: زَعَمَ كَذِباً أمْ بهِ جنونٌ.

فـردَّ اللهُ عليـهم مقالَتَـهم بقولــه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ الأمرُ على ما قالوا مـن افـتراءٍ وجنـون، كأنـه قالَ: لا هذا ولا ذاكَ، ولكنَّ الذين لا يؤمنونَ بـالبعثِ في الآخـرةِ، والخطأ البعيـدِ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ سماءَنا محيطةٌ بهم والأرضَ حاملةٌ لَهم، ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ﴾ ؛ هذهِ، ﴿ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ ﴾ تلـكَ، ﴿ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ فما يحذرُونَ هذا فيرتَدِعونَ عنِ التكذيب بآياتِنا.

والمعنى: أنَّ الإنسانَ حيث ما نظرَ رأى السماءَ فوقَهُ، والأرضَ قُدَّامَـهُ وخلفَـهُ وعـن يَمينهِ وعن شِمالهِ، فكأنهُ تعالى قال: إنَّ أرضِي وسَمائِي محيطةٌ بهم، وأنا القـادرُ عليـهم، إنْ شِئْتُ خسفْتُ بهم، وإنْ شئتُ أسقِطْ عليهم قطعةً من السماءِ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف: (إنْ يَشَأْ) و(يَخْسِفْ) و(يُسْقِطْ) في ثلاثتِـها باليـاءِ لذكرِ اللهِ تعالى قبلَهُ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (أفْتَرَى) ألفُ استفهامٍ دخلَتْ علـى ألـفِ الوَصلِ فلذلك سَقطَتْ.

وقولهُ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ فيما ذُكِرَ من مَنيعهِ وقدرتهِ وفيما تَرونَ من السَّماءِ والأرضِ لعلامةٌ تدلُّ على قُـدرةِ اللهِ تعـالى على البعثِ، وعلى مَن يشاءُ من الخسـفِ بـهم، لِكـلِّ عبـدٍ أنـابَ إلى اللهِ ورجعَ إلى طاعتهِ وتأمَّلَ ما خلقَ. قال الحسنُ: (الْمُنِيْـبُ: الرَّاجِـعُ إلَـى اللهِ تَعَـالَى بقَلْبِـهِ وَقَوْلِـهِ وَفِعْلِهِ، فَإذا نَوَى نَوَى للهِ، وَإذا قَالَ قَالَ للهِ، وَإذا عَمِلَ عَمِلَ للهِ)[1].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٦٤؛ قال القرطبي: (أي تائب رجَّاع إلى الله بقلبه، وخص المنيب بالذكر؛ لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ ؛ يعني النبوةَ والكتابَ والْمُلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي سَبحِي معهُ إذا سَبَّحَ، فكان داودُ عليه السلام إذا سَبَّحَ سَبَّحَتِ الجبالُ معه حتى يُسمَعَ صوتُ تسبيحِها. وقُرِئَ (أُوبِي مَعَهُ) أي عُودِي في التَّسبيحِ معه كلَّما عادَ فيهِ.

وقال القُتَيْبِيُّ: (أصلُهُ مِنَ التَّأْوِيب، وَهُوَ السَّيْرُ باللَّيْلِ كُلِّهِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ ادْئِبِي النَّهَارَ كُلَّهُ بالتَّسْبِيحِ مَعَهُ). وَقِيْلَ: تسيرُ معه كيفَ شاءَ.

وقوله (وَالطَّيْرَ)، قرأ العامةُ بالنصب، وله وجوهٌ؛ أحدُها: بالفعلِ؛ تقديرُهُ: وسخَّرنا له الطيرَ، تقول: أطعَمتهُ طَعَاماً ومَاءً أي وسَقيتهُ ماءً. والثاني: بالنِّداءِ، يعني بالعطفِ على موضعِ النداء، لأنَّ موضعَ كلِّ مُنادَى النصبُ. والثالث: بنَزعِ الخافضِ، كأنه قالَ: أوِّبي مَعَهُ الطَّيرَ، كما يقالُ: لو تركتَ الناقةَ وفصيلَها لرَضَعَها؛ أي مع فصيلِها. وقرأ يعقوبُ (والطَّيْرُ) بالرفعِ عَطفاً على الجبالِ. وَقِيْلَ: على الابتداءِ، قال الشاعرُ:

ألاَ يَا زَيْدُ وَالضَّحَّاكُ سِيرَا فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيْقِ

يُروى هذا البيتُ بنصب (الضَّحَّاكَ) ورفعهِ[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا له الحديدَ لَيِّناً يضربهُ كيفَ شاءَ من غيرِ نارٍ ولا مِطرَقَةٍ، وكان عندَهُ مثلُ الشَّمعِ والطينِ المسلول والعَجِينِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ ؛ أي قُلنا له اعْمَلْ دُرُوعاً واسعاتٍ تامَّاتٍ يجرُّها لابسُها على الأرضِ، فكان داودُ عليه السلام أوَّلَ مَن عَمِلَ الدُّروعَ، والسَّابغُ: هو الذي يغطِّي كلَّ ما على الرجُلِ حتى يفضُلَ، فكان داودُ يبيعُ كلَّ درعٍ بأربعةِ آلافٍ، فيأكلُ ويُطعِمُ عيالَهُ ويتصدَّقُ على الفُقَرَاءِ والمساكينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ ؛ أي اجْعَلْ حِلَقَ الدِّرعِ متتابعةً مُتناسقةً بعضُها إلى بعضٍ على مقدارٍ مَعلُومٍ لا يتفاوتُ على وجهٍ، ولا تنفذُ فيه السِّهامُ ولا

---

(١) الْخَمَر: بالتحريكِ: ما يَسترُكَ من شجرٍ وغيرِها. قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٥.

السِّنانُ. يقال: سَرَدَ الكلامَ يسردُهُ إذا ذكَرَهُ بالتأليفِ على وجه تحصلُ به الفائدةُ، ومِن هذا يقالُ لصانعِ الدُّروعِ: سَرَّادٌ وزَرَّادٌ. والسُّرُودُ والزُّرُدُ للوَصْلِ.

وقال بعضُهم: السَّرْدُ سَمْرُكَ طَرَفَي الْحلَقِ؛ أي لا تَجعَلِ المساميرَ دِقَاقاً فتنغلقَ، ولا غِلاَظاً فتكسرَ الحلَقُ، واجعَلْ ذلك على قَـدْرِ الحاجـةِ. والقَـولُ الأولُ أقـربُ إلى الآيةِ، لأن الدروعَ التي عمِلَها داودُ كانت بغيرِ المساميرِ؛ لأنه كانت معجزةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾ ؛ أي قـالَ اللهُ لآل داودَ: اعمَلـوا صَالِحـاً فيما بينَكم وبينَ ربكُم، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ من شُكرٍ وطاعةٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ ﴾ ؛ أي وسَخَّرنَا لسليمانَ الرِّيحَ كانت تحملُ سَريرَهُ فتذهبُ في الغُدُوِّ مسيرةَ شَهرٍ، وترجِـعُ في الرَّواحِ مسيرةَ شَهرٍ.

قال الفرَّاءُ: (نُصِبَ (الرِّيحَ) عَلَى الْمَفْعُولِ؛ أيْ وَسَـخَّرْنَا لِسُـلَيْمَانَ الرِّيْـحَ)[1]. وقرأ عاصمُ (الرِّيْحُ) بالرفعِ على معنى: ولَهُ تسخيرُ الرِّيحُ، والمعنـى أنَّ الريـحَ كـانت تسيرُ في اليومِ مسيرةَ شَهرَينِ للرَّاكبِ الْمُسرعِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ ﴾ ؛ أي أذبْنَـا لـه عَـينَ النُّحـاس، فسَالَتْ له ثلاثةَ أيَّام كما يسيلُ الماءُ، وإنَّما انتفعَ الناسُ بما أخرجَ اللهُ لسُليمانَ، وكـانَ قبلَ سُليمان لا يذوبُ. والقِطْرُ هو الرَّصَاصُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا لـه مـن الجنِّ (مَنْ يَعمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ) مِنَ القُصُور والبُنيـانِ، ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا ﴾ ؛ أي مَن يَمِلْ من الشَّياطين عن أمرنا الَّـذي أمَرْنـاهُ مـن الطاعـةِ لسُـليمانَ، ﴿ نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن عذاب النَّار الموقَـدَةِ. وَقِيْـلَ: إنَّ اللهَ تعالى وَكَّلَ مَلَكاً بيدِهِ سوطٌ من نار، فمَن زَاغَ منهم مِن طاعـةِ سُليمانَ ضَرَبَـهُ ضربـةً أحرقَتْهُ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ ؛ أي يعملون لسُليمانَ ما يشاءُ (مِنْ مَحاريبَ) أي مَساجِدَ، كان هو والمؤمنونَ يُصَلُّونَ فيها. ويقالُ: أراد بالْمَحَاريب الغُرَفَ والمواضعَ الشريفةَ، يقالُ لأشرفِ موضعٍ في الدار مِحْرَابٌ، والْمِحْرَابُ مُقَدَّمُ كلِّ مسجدٍ ومجلس وبيتٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (وَتَمَاثِيلَ) أي تَماثيلَ كلِّ شيءٍ، يعني صُوَراً من نُحاسٍ وزُجاجٍ ورُخامٍ، كانت الجنُّ تعمَلُها، وكانوا يصوِّرُون له الأنبياءَ والملائكةَ في المسجدِ ليَرَاهَا الناسُ فيزدادوا عبادةً، وهذا يدلُّ على أن التصويرَ كان مُباحاً في ذلكَ الزمان، ثُم صارَ حَرَاماً في شَريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ كما رُوي في الحديثِ: [إنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتاً فِيْهِ صُورَةٌ][1]. ورُوِيَ: [لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِيْنَ بمَا صَوَّرُوا][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ ؛ الْجِفَانُ جمع جُفْنَةٍ وهي القَصْعَةُ الكبيرةُ من الصُّفْر. وقَوْلُهُ (كَالْجَوَاب) أي كالحِيَاضِ العِظَامِ، فهي كحِيَاضِ الإبلِ، والْجَوَابُ جمعُ الْجَابيَةِ، وسُمِّيَ الحوضُ جابيَةً؛ لأنه يَجْبي الماءَ؛ أي يَجمعهُ، والجِبَايَةُ جمعُ الماءِ. يقالُ: إنه كان يجتمعُ على جَفْنَةٍ واحدةٍ ألفُ رجُلٍ يأكلون بين يديهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ ؛ أي ثابتاتٌ عِظَامٍ من الْحَجَرِ كالجبالِ لا تُرْفَعُ مِن أماكِنِها، ولكن يوقدُ تحتَها حتى ينطَبخَ ما فيها من الأطعمةِ فيأكلُ منها الألُوفُ، وكانت هذه الأعمالُ التي يعملونَها معجزةً لسُليمانَ عليه السلام.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ ؛ أي قُلنا لَهم: اعمَلُوا بطاعةِ اللهِ شُكْراً لَهُ على هذه النِّعَمِ التي مَنَّ بها عليكُم. وَقِيْلَ: انتصبَ قوله (شُكْراً) على المصدريَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي قليلٌ من عبادِي مَن يَشْكُرُ لِي؛ لأن الشَّاكِرِينَ وَإنْ كَثُرُوا فقَليلٌ في جَنْب مَن لَم يشكُرْ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب اللباس: باب من كره القعود عند الصور: الحديث (٥٩٥٨). ومسلم في الصحيح: كتاب اللباس: باب تحريم تصوير صورة الحيوان: الحديث (٨٥/ ٢١٠٦). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب في الصور: الحديث (٤١٥٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٩٥: الحديث (٢٩٦، وص٩٦: الحديث (٢٩٨) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ ؛ وذلك أنَّ سُليمانَ عليه السلام كان يعتادُ طُولَ القيامِ في الصَّلاة، وكان إذا أعْيَا اتَّكأَ على عَصاهُ، فاتَّكأ ذاتَ يومٍ على عصاهُ، فقَبَضَ اللهُ رُوحَهُ، فبَقِيَ على تلكَ الحالةِ سَنَةً، والعَمَلَةُ في أعمالِهم يعملونَ كما هم ولَم يَجتَرِئ أحدٌ أن يَدْنُو منه هيبةً لَهُ.

وقوله (مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) دابَّةُ الأرض هي الأَرْضَةُ التي تأكلُ الخشبَ، وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنسَأَتَهُ) أي عصاهُ التي كان يَتَّكِئُ عليها.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا سَقَطَ سليمانُ لتَأكُلِ الْمِنْسَأةِ، تَبيَّنَ الجِنُّ للإنسِ؛ أي ظَهَرُوا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ، فلو عَلِمُوا ما عَمِلُوا له سَنةً وهو ميِّتٌ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا لَبِثُوا فِي الْعَذاب الْمُهِينِ) أي في العذاب مِن أعمالِهم الشاقَّة التي كانوا يعملونَها في بناءِ بيتِ المقدس وغيرِه، فلمَّا عَلِمُوا بموتهِ لسُقوطِ العصَا ترَكُوا الأعمالَ.

ثُم أن الشياطينَ قالوا للأَرْضَةِ: لو كُنْتِ تأكلينَ الطَّعامَ لآتيناكِ بأطيب الطعام، ولو كُنْتِ تشرَبينَ الشرابَ لآتيناكِ بأطيب الشراب، ولكِنَّا سننقلُ إليكِ الطينَ والماءَ، فهُمْ ينقلونَ إليها ذلك حيث كانتْ، فما رأيتموهُ من الطِّينِ في جَوفِ الخشب فهو مما ينقلهُ الشياطينُ إليها شُكراً لها!

وسُميتِ العصا مِنْسَأةً لأنه يَنْسَأُ بها الغنمُ وغيرهُ؛ أي يؤخِّرُ ويطردُ، يقال: أنْسَأَ اللهُ في أجَلِه؛ أي أخَّرَ اللهُ في أجَلِهِ. وأكثرُ القرَّاء يقرأون (مِنْسَأتَهُ) بالهمزةِ، وقرأ أبو عمرٍو ونافع بتركِ الهمزةِ، وهما لُغتَان.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ) أي ظَهَرَ أمرُهم. وَقِيْلَ: في موضع النصب تقديرهُ: عَلِمَتْ وأيْقَنَتِ الجنُّ (أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ)، وكان الإنسُ قَبْلَ هذا يظنُّونَ أن الشَّياطينَ يعلمونَ السِّرَّ يكون بين اثنَينِ، فظَهَرَ لَهم يومئذٍ أنَّهم لا يعلمونَ ذلكَ.

قال أهلُ التَّاريخِ: كان عُمْرُ سليمانَ ثلاثاً وخمسينَ سَنةً، ومدَّة مُلكهِ أربعون سَنةً، ومَلَكَ يومَ مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سَنةً، وابتدأ في بناءِ بيت المقدسِ لأربعِ سِنين مَضَينَ من مُلكهِ، وكان عُمْرُ داودَ مائة وأربعون سنة[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ؛ قال فروةُ بن مُسَيكٍ: أتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَأ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ: [رَجُلٌ مِنَ الْعَرَب أوْلَدَ عَشْرَةَ أوْلاَدٍ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَامَّ مِنْهُمْ أرْبَعَةٌ. فَأمَّا الَّذِيْنَ تَيَامَنُوا فَالأزْدُ وَكِنْدَةُ وَحِمْيَرُ وَمُذْحَجُ وَالأشْعَرِيُّونَ وَإنْمَارُ وَمِنْهُمْ بَجِيْلَةُ. وَأمَّا الَّذِيْنَ شَامُوا فَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ وَلَخْمٌ وَجُذامُ][2]. والمرادُ بسَبَأ القبيلةُ الذين هُم مِن أولادِ سَبَأ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بن قَحطَانَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فِي مَسْكَنِهِمْ) أنه كانت مساكِنُهم بمَأرَبَ مِن اليَمَن (آيَةٌ) أي علامةً يدلُّ على قُدرةِ اللهِ وأنَّ الْمُنْعِمَ عليهم هو اللهُ تعالى. ثُم فسَّر تلكَ الآيةِ فقال: ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ؛ أي عَن يَمين وَادِيهم وشِمالهِ قد أحاطَتا بذلك الوادِي الذي بين مسَاكِنهم.

والمعنى: لقد كان لأهلِ سَبَأ في مواضِعِهم علامةٌ، وهي جَنَّتَان؛ أي بُستَانَان؛ إحدَاهُما عن يَمينِ الطريقِ، وأخرَى عن يسار الطَّريقِ، ويقالُ: كان بُستَائين عن يَمين الطريقِ وبُستائين عن شِمالِ الطريقِ، إلاّ أنَّ البَساتينَ كلَّ واحدٍ مِن الجانبين سُمي جَنَّةً لاتِّصالِ بعضِها ببعضٍ، وكانوا في النِّعمةِ بحيثُ كانتِ المرأةُ تَمشِي في تلك الطريقِ بين البساتينِ وعلى رأسِها الزَّنبيلُ فيمتلئُ من ألوانِ الفاكهةِ مِن غيرِ أن تَمَسَّ شيئاً بيدِها.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٨ ص٢٧٢: الحديث (٨٣٤ و٨٣٥ و٨٣٦) وإسناده حسن. وأبو داود في السنن: كتاب الحروف والقراءات: الحديث (٣٩٨٨) مختصراً. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٢٢)، وقال: حسن غريب. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢١٩٨١).

قرأ حمزةُ والنخعيُّ وحفص (فِي مَسْكَنِهِمْ) بفتحِ الكاف على الواحدِ، وقرأ الأعمشُ والكسائي وخلَف: (مَسْكِنِهِمْ) بكسر الكاف على الواحد أيضاً، وقرأ الباقون: (مَسَاكِنِهِمْ) على الجمعِ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قيلَ لَهم: (كُلُوا مِنْ رزْق رَبكُمْ) يعني هذه النِّعَمَ، ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ﴾ ؛ أي للهِ على نعمةِ هذه، وهذا حدُّ الكلامِ، ثُم ابتدأ فقال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ ؛ أي هذه بلدةٌ طيبة أو لكُم بلدةٌ طيبة، يعني ليست بسَبْخَةٍ، ولَم يكن يُرَى بعوضةٌ قَطُّ، ولا ذُبابٌ ولا بَرغُوثٌ ولا حيَّةٌ ولا عقربٌ، وأنَّ الرجلَ الغريبَ ليأتِيَها وفي ثوبهِ القملُ والدوابُّ، فحين يرَى بُيوتَهم تَموتُ الدوابُ والقملُ. والمعنى: بلدةٌ طيِّبةُ الهواءِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي غفورُ الخطَايَا، كثيرُ العطايَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ ؛ أي فأعرَضُوا عن الحقِّ وكفَرُوا وكذبُوا أنبياءَهم، ولَم يشكرُوا نِعَمَ اللهِ، وقالوا: لا نعرفُ لله تعالى نِعْمَةً علينا! وقالوا لأنبياءهم: قولُوا لربكم الذي يَزعمُونَ أنه مُنْعِمٌ فليحبسْ عنَّا نِعمَتَهُ إن استطاعَ!

قال وهبُ: (بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إلَى سَبَأ ثَلاَثَةَ عَشَرَ نَبيّاً، فَدَعَوْهُمْ إلَى اللهِ وَذكَّرُوهُمْ نِعَمَهُ، وَخَوَّفُوهُمْ عِقَابَهُ، فَكَذبُوهُمْ وَقَالُوا: مَا نَعْرِفُ للهِ عَلَيْنَا نِعْمَةً)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ)، قال ابنُ الأعرابيِّ: (الْعَرِمُ: السَّيْلُ الَّذِي لاَ يُطَاقُ)[٣]، وقال مقاتلُ: (الْعَرِمُ وَادِي سَبَأ)[٤]. وَقِيْلَ: العَرِمُ: المطرُ الشديدُ الذي يأتِي منه سَيْلٌ لا يطاقُ دَفْعُهُ، وعَرْمَةُ الماءِ ذهَابُهُ في كلِّ مذهبٍ.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٥٧. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص١٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٨٥).

(٣) نقله عنه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٦٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٨٥-٢٨٦.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦٢.

وَقِيْلَ: العَرِمُ هو الفَأرُ الذي نَقَبَ السدَّ عليهم، وصِفَةُ ذلكَ: أن الماءَ كان يـأتِي أرضَ سَبَأ مِنَ الشَّجر وأوديةِ اليَمَنِ، فرَدَمُوا رَدْماً بين جبلَين وحبَسُوا المـاءَ في ذلـك الرَّدْمِ، وجعَلُوا لذلكَ الرَّدمِ ثلاثةَ أبوابٍ بعضُها فوق بعضٍ، وكانوا يَسْقُونَ مِن الباب الأعلى، ثُم مِن الباب الثانِي، ثم مِن الباب الأسفَلِ، فلا ينفدُ الماءُ حتى يأتِي ماءُ السَّنة الثانيةِ، فأخصَبُوا وكثُرَتْ أموالُهم. فلمَّا كذبُوا الرُّسُلَ بعثَ اللهُ عليهم جِرْذاً نقبَ ذلك الرَّدْمَ، فاندفعَ الماءُ عليهم وعلى جنَّتَيهِم، فدَفَنَ السَّيلُ بُيوتَهم وأغرقَ جنَّتَيهِم وخـرَّبَ أراضَيهم[١].

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ وَبَدَّلْنَهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي بدَّلْنـاهم بـالجنَّتَين اللَّتـين أهلكنَاهما جنَّتين، ﴿ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ ؛ الأُكُلُ: اسـمٌ لِمَا يؤكَـلُ. والْخَمْـطُ: شَجَرُ الأرَاكِ، ويقالُ: الْخَمْطُ كلُّ نَبْتٍ قد أخذ طَعْماً مِن مرارةٍ حتى لا يُمكـنُ أكلُـهُ. وَقِيْلَ: هو شجرٌ ذاتُ شَوكٍ.

قرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ (أُكُلِ خَمْطٍ) بالإضافةِ، وقرأ الباقون (أُكُـلٍ) بـالتَّنوينِ، وهما مُتقاربان في المعنى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ ؛ الأثْلُ: ما عَظُمَ من شَجَرِ الطَّرْفَاءِ[٢]، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيـلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ والسِّدْرُ إذا كان بَرِّيّاً لا يُنتفَعُ به ولا يصلـحُ ورَقُهُ للغُسُولِ، كما يكونُ ورَقُ السِّدر الـذي نَبَـتَ علـى المـاءِ. ومعنـى قَوْلِـهِ تَعـالَى (وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) يعني أن الْخَمْطَ والأثْلَ كـان أكثَرَ في الجنَّتـين المبدَّلَتـين مـن السِّدر. قال قتادةُ: (كَانَ شَجَرُ الْقَوْمِ مِـنْ خَـيْرِ الشَّـجَرِ، فَبَدَّلَـهُ اللهُ مِـنْ شَـرِّ الشَّـجَرِ بأعْمَالِهِمْ)[٣]، والسِّدْرُ: هو شجرُ النَّبْقِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢١٩٩٣) عن وهب بن منبه.

(٢) في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٩؛ قال الفراء: (وأما الأثل فهو الذي يُعرف، شـبيه بالطرفـاء، إلا أنه أعظم طولاً).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٠٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي جَزَيناهُمْ ذلك التَّبديلِ والتَّخريب بكُفرِهم بنِعَم اللهِ تعالَى، ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ ﴾ ؛ بمثل هذه العقوبةِ وتعجيلِ سَلْب النِّعمةِ، ﴿ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي الكافِرَ المعَانِدَ، وَقِيلَ: معناهُ: إنَّ المؤمنَ نُكَفِّرُ عنه ذُنوبَهُ بطاعاتِهِ، والكافرُ يُجازَى على كلِّ سوءٍ يعملهُ. وقال الفرَّاءُ: (الْمُؤْمِنُ يُجْزَى وَلاَ يُجَازَى)[1] أيْ يُجْزَى الثَّوَابَ بعَمَلِهِ، ولاَ يُكَافَؤُ بسَيِّئَاتِهِ.

قرأ أهلُ الكوفةِ: (نُجَازِي) بالنُّونِ وكسرِ الزَّاي. ونُصِبَ (الكَفُورَ) لقولِهِ (جَزَيْنَاهُمْ) ولَم يقل جُوزُوا، وقرأ الآخرونَ (يُجَازَيُ) بياءٍ مضمومة ورفعِ (الْكَفُورُ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ) مَن قرأ بالنصب فهو اسمُ قبيلةٍ، فلِهَذا لَم ينصرِفْ، ومَن نوَّنَهُ وخفضَهُ فهو اسمٌ لرَجُلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي جعَلنا بين أهلِ سَبَأ وبين قُرَى الأرضِ التي بارَكْنا فيها وهي الأرضُ المقدَّسة باركنا فيها بالماءِ والشَّجرِ، يعني قُرَى الشَّامِ ومصر، وقوله (قُرًى ظَاهِرَةً) أي قرى متقاربةً متَّصِلةً، إذا خرجَ الرجلُ من واحدةٍ من القُرَى ظهرَتْ له الأُخرى، فكانوا لا يحتاجُونَ في سَيْرهم إلى الشَّامِ إلى زادٍ، وكانت المرأةُ تخرجُ ومعَها مِغْزَلُهَا، وعلى رأسِها مِكْتَلُهَا، ثُم تَغْزِلُ ساعةً فلا ترجعُ بيتَها حتى يَمتَلِئ مكْتَلُها من الثِّمارِ، وكان ما بين الشَّام وأرضِ سبأ على تلكَ الصفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ ؛ أي جعلنا القُرَى مُواصَلةً بقدر السَّير المتَّصلِ على قدر الْمَقِيْلِ والمبيتِ مِن قريةٍ إلى قريةٍ، أنعَمْنا عليهم في مَسِيرِهم كما أنعَمْنا عليهم في مسَاكنِهم، فقُلنا لَهم: ﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ ؛ إنْ شِئْتُم باللَّيالِي وإنْ شِئتُم بالأيَّامِ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ مِن الظُّلمِ والجوعِ والعطشِ وعن جميع ما يُخافُ في الطريقِ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٥٩ بلفظ: (وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يُجْزَى؛ لأَنَّهُ يُزَادُ وَيُتَفَضَّلُ عَلَيْهِ وَلاَ يُجَازَى).

ومعنَى الآيةِ: (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) من القريةِ إلى القريةِ مِقْدَاراً واحداً، نِصْفَ يَوْمٍ، وقُلنا لَهم: (سِيرُوا فِيهَا) في تِلكَ القُرَى، (لَيَالِيَ وَأياماً)؛ لِيلاً شِئتُمْ السيرَ أو نَهاراً (ءامِنِينَ) من الجوعِ والعطَشِ والسِّباعِ والتَّعب ومِن كلِّ خوفٍ.

ثم إنَّهم بطَرُوا النعمةَ، وسألُوا أن تكونَ القُرَى والمنازلَ بعضُها أبعدَ من بعضٍ، ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ ؛ أي اجعَلْ بيننا وبين الشَّامِ فَلَواتٍ ومَفَاوزَ لنَركَبَ عليها الرَّواحِلَ ونَتزَوَّدَ الأَزْوَادَ[1]، ذلك أنَّهم قالوا لو كانَتْ ثِمارُنا أبعدَ مما هي لكان أجدرَ أن نشتَهِيَها، فاجعَلْ بين منازلنا وبين مقصَدِنا الْمَفَاوزَ. ويقالُ: كانت هذه المسألةُ من تُجَّارِهم ليربَحُوا في أموالِهم .

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمروٍ (بَعِّدْ) على وجهِ الدُّعاء. وقرأ ابنُ الحنفيَّة ويعقوب (رَبُّنَا) برفعِ الباء (بَاعَدَ) بألفٍ وفتح العينِ والدلالةِ على الخبر، استبعَدُوا أسفارَهم بَطَراً منهم وأشَراً. وقرأ الباقونَ (رَبَّنَا) بفتح الباء و(بَاعِدْ) بالألفِ وكسر العين وجزمِ الدَّال على الدُّعاء. وقد قُرِئَ (بَعُدَ) بضمِّ العين و(بَيْنُ) بالرفع؛ أي بَعُدَ مَا يتَّصِلُ بسفَرِنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ يعني بتَرْكِ الشُّكرِ والطاعةِ، وَقِيْلَ: بالكُفرِ، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ؛ لِمَن بعدَهم يتحدَّثون بأمرهم وشأنِهم، ولَم يبقَ منهم ولا مِن ديارهم أثرٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ؛ أي فرَّقناهم في البلادِ المختلفة كلَّ تفريقٍ، وذلك أنَّهم شُرِّدُوا في البلادِ، وصَارُوا بحيث يتمثَّلُ بهم العربُ يقولون: تفرَّقَ القومُ أيدِي سَبَا وأيَادِي سَبَا.

قال الشعبيُّ: (أمَّا غسَّانُ فَلَحِقُوا بالشَّام، وَأمَّا الأَنْصَارُ فَلَحِقُوا بيَثْرِبَ، وَأمَّا خُزَاعَةُ فَلَحِقُوا بتُهَامَةَ، وَأمَّا الأَزْدُ فَلَحِقُوا بعُمَانَ)[2] وكَانَتْ غسَّانُ مُلُوكَ الشَّامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي فيما فُعِلَ بسَبَا ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ ؛ لَعِبَرٍ ودلالاتٍ ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ ، عن معاصي اللهِ، ﴿ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ لأنعُمِهِ.

---

(١) في المخطوط صحف العبارة، فكتب الناسخ: (وتزود الآن واد ذلك).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٢٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفةِ (صدَّقَ) بالتشديدِ؛ أي ظنَّ فيهم ظنّاً حيث قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١] ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٢] فصدَّقَ ظنَّهُ وحقَّقهُ بفعلهِ ذلك واتِّباعِهم إيَّاه. وقرأ الآخرونَ (صَدَقَ) بالتخفيفِ؛ أي صَدَقَ عليهم في ظَنِّهِ بهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (عَلَيْهِم) أي على أهلِ سَبأ، وقال مجاهدُ: عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ إلاَّ مَنْ أطَاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ (فَاتَّبَعُوهُ إلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وهمُ الَّذين قالَ اللهُ تَعالَى فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٣].

وَقِيْلَ: إن إبليسَ لَمَّا وَسْوَسَ إلى آدمَ وعمِلتْ فيه وَسْوَسَتُهُ، طَمِعَ في ذرِّيته؛ فقال: إنَّهُ مع فضلهِ وعقْلهِ، وعَمِلَتْ فيه وسْوَسَتِي؛ فكيفَ لا تعملُ في ذرِّيتهِ ؟ فأخبرَ اللهُ في هذه الآيةِ: أنَّ القومَ اتبعُوهُ فصدَّقُوا ظَنَّهُ، إلاَّ طائفةً مِن المؤمنينَ لَم يتَّبعوهُ في شيءٍ.

وَقِيلَ: إنَّ ابليسَ لَمَّا سألَ النَّظِرَةَ فأنْظَرَهُ اللهُ تعالى قال: لأَضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلأُمَوِّهَنَّهُمْ[٤]، ولَم يكن في وقتِ هذه المقالةِ مُستيقِناً، وإنَّما قالَ ظَنّاً منهُ، فلما اتَّبعُوهُ وأطاعوهُ صَدَقَ عليهم ما ظَنَّهُ فيهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ ؛ أي ما كانَ لإبليسَ عليهم من حُجَّةٍ ولا نفاذِ أمرٍ إلاّ بالتَّزيين والوَسْوَسَةِ. وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ ؛ أي ما كان تُسْلِيْطُنا إياه عليهم إلاّ لنعلمَ المؤمنينَ من الشاكرين.

والمعنى: ما سَلَّطْنَاهُ عليهم إلاّ لنعلمَ إيمانَ المؤمنِ ظاهراً وكُفْرَ الكافرِ ظَاهِراً، وقد يذكرُ العلمُ ويراد به الإظهارُ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي عالِمٌ بكلِّ شيءٍ مِن الإيْمانِ وشَكٍّ وغيرِ ذلك.

---

(١) ص / ٨٢ . (٢) الأعراف / ١٧ . (٣) الاسراء / ٦٥ .

(٤) ربما (ولآمُرَنَّهُمْ) رسم الكلمة في المخطوط قريب بين الكلمتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قُل لكُفَّار مكَّة: أدعُوا الَّذينَ زعمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دون اللهِ، قال مقاتلُ: (أيِ ادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُواْ عَنْكُمُ الضَّرَرَ الَّذِي نَزَلَ بكُمْ فِي سِنِيْنِ الْجُوعِ).

وَقِيْلَ: معناهُ: ادْعُوا الذين زَعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم لكي يرزُقوكم ويدفعُوا عنكم الشدائدَ، ثُم إنَّهم لا يَملكون مِثْقَالَ ذرَّةٍ؛ أي لَم يَخلقُوا زنَةَ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرضِ، فمِن أينَ يستَحقُّون العبادةَ؟!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ ؛ أي ما لَهم في السَّموات والأرض مِنْ شِرْكٍ في خَلْقِهما، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وما اللهُ تعالى منهم من مُعِينٍ فيما خَلَقَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي ولا تنفعُ شفاعةُ مَلَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ ولا أحدٍ حتى يأذنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ. وهذا تكذيبٌ مِن الله لَهم حيثُ قالُوا: هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.

قرأ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكسائي وخلف (أُذِنَ) بضمِّ الألفِ، وقرأ غيرُهم بالفتحِ، فمَن فَتحَ كان المعنى لِمَن أذِنَ اللهُ له في الشَّفاعةِ، وكذلك مَن قرأ بالضمِّ لأنَّ الآذِنَ هو اللهُ تعالى في القِراءَتين جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ عامرٍ ويعقوب: (فَزَّعَ) بفتحِ الفاء والزاي، وقرأ غيرُهما بضمِّ الفاءِ وكسرِ الزاي. والمعنى: حتى إذا كُشِفَ الفزعُ والجزعُ عن قلوبهم. ومَن قرأ بالفتحِ فالمعنى: حتَّى إذا كَشَفَ اللهُ الفزعَ عن قلوبهم.

واختلَفُوا في هذه الكتابةِ والموصُوفِين بهذه الصِّفةِ، مَن هم؟ ومَن النَّصَب الذي مِن أجلهِ فَزَّعَ عن قلوبهم؟ فقال قومٌ: همُ الملائكةُ. واختلَفُوا في سبب ذلك، فقال بعضُهم: إنَّما فَزَّعَ عن قلوبهم مِن غَشْيَةٍ تصيبُهم عند سَماعِ كلامِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال عبدُالله بنُ مسعودٍ: (إذا تكلَّمَ اللهُ تَعالَى بالْوَحْيِ، سَمِعَ أهْلُ السَّماءِ صَلْصَلَةً مِثْلَ صَلْصَلَةِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَان، فَيُصْعَقُونَ لِذلكَ وَيَخُرُّونَ سُجَّداً، فإذا عَلِمُوا أنَّهُ وَحْيٌ فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَتَرُدُّ إلَيهِمْ، فَيُنادِي أهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً: (ماذا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(١).

وعن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنهُ قال: [إنَّ اللهَ تَعالَى إذا تَكَلَّمَ بالْوَحْيِ، سَمِعَ أهْلُ السَّماءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ فَلاَ يَزالُونَ كَذلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، فَيَقُولُونَ لَهُ: مَاذا قَالَ رَبُّكَ ؟ قَالَ: يَقُولُ الْحَقَّ](٢).

وعن أبي هريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّماءِ، ضَرَبَتِ الْمَلائِكَةُ بأجْنِحَتِها خُضُوعاً لِقَوْلِهِ، كَأنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإذا فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا: الْحَقَّ](٣).

وقال ﷺ: [إذا تَكَلَّمَ اللهُ بالْوَحْيِ، أخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً أوْ رَعْدَةً شَدِيْدَةً خَوْفاً مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَإذا سَمِعَ ذلِكَ أهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّداً، فَيَكُونُ أوَّلُ مَنْ رَفَعَ رَأسَهُ جِبْرِيلُ ﷺ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ بالْمَلائِكَةِ، فَكُلَّمَا مَرَّ بسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذا قَالَ رَبُّنَا يا جِبْرِيْلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيْلُ: قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بالْوَحْيِ حَيْثُ أمَرَ اللهُ](٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢٢٠٣٥ و٢٢٠٣٦) بأسانيد عديدة وألفاظ.

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٩٩؛ قال السيوطي: (وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر عن ابن مسعود...) وذكره.

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٦٩٧؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة...) وذكره.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٠٤٠).

وقال مقاتلُ والكلبيُّ:(لَمَّا كَانَتِ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ خَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ عاماً، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ بالرِّسَالَةِ إلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ الصَّوْتَ بالْوَحْيِ، فَظَنُّوا أنَّهَا الْقِيَامَةُ قَامَتْ، فَصُعِقُوا مِمَّا سَمِعُوا، فَلَمَّا انْحَدَرَ جِبْرِيْلُ بالرِّسَالَةِ، جَعَلَ أهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ يَسْأَلُونَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعَرُّفِ بَعْدَ مَا انْكَشَفَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبهِمْ، قَالُوا: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالَ جِبْرِيْلُ وَمَنْ مَعَهُ: قَالَ الْحَقَّ)[1].

وَقِيْلَ: لَمَّا سَمعَتِ الملائكةُ الوحيَ صُعِقُوا فخَرُّوا سُجَّداً ظَانِّينَ أنَّها القيامةُ، فلما نَزَلَ جبريلُ بالوحي انكشَفَ فزَعُهم فرفَعُوا رُؤُوسَهم، وقال بعضُهم لبعضٍ: (مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُواْ الْحَقَّ) يعنِي الوحيَ (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيْرُ) أي الغالبُ القاهر السيِّدُ المطاعُ الكبيرُ العظيم، فلا شيءَ أعظمَ منهُ.

وقرأ الحسنُ (حَتَّى إذا فَرِغَ عَنْ قُلُوبهِمْ) بالعَين المعجمةِ والزَّاي بمعنى فَرِغَتْ قلوبُهم من الفزَعِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَهُ (حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهِمْ) راجعٌ إلى المشركينَ، فإنَّهم إذا شاهَدُوا أهوالَ يوم القيامةِ غَشِيَ عليهم، فيُزيلُ اللهُ ذلك عن قلوبهم، ثُم تقولُ لَهم الملائكةُ: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ في الدُّنيا والآخرةِ ؟ فيقولونَ: الْحَقَّ، فأقَرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّد لكُفَّار مكَّةَ: مَن يرزُقكم من السَّموات المطرَ، ومِن الأرض النباتَ والثمرَ؟ وإنَّما أمرَ بهذا السُّؤال احتِجَاجاً عليهم؛ لأنَّ الذي يرزقُ هو المستحقُّ للعبادةِ لا غيره، وذلك أنه إذا استفهَمَهم عن الرِّزقِ لَم يُمكِنُهم أن يُبَيِّنُوا رَازقاً غيرَ اللهِ، فيتحيَّرُوا في الجواب فيُؤمَرُ النبيُّ ﷺ بالجواب، فيقولُ لَهم: إنَّ الذي يرزقُكم هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وتَمَّ الكلامُ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٦٤. ونقله القرطبي عن الكلبي أيضاً كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٢٩٧.

ثم أمَرَ بأنْ يُخبرَهم أنَّهم على الضَّلال بعبادةِ غيرِ الله تعالى بقولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ وهذا على وجهِ الإنصَافِ في الحجَّة لاستمالةِ قُلوبهم، كما يقولُ القائلُ من المسَارِعِين: أحَدُنا كاذبٌ؛ وهو يعلمُ أنَّهُ صادقٌ وصاحبهُ كاذبٌ.

والمعنى: مَا نحنُ وأنتم إلاَّ على أمرٍ واحدٍ؛ أحدُ الفريقَين مهتَدٍ والآخرُ ضَالٌّ، فالنبيُّ ﷺ ومَنِ اتَّبعَهُ على الْهُدَى، ومَن خالفَهُ في ضَلالٍ مُبين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي قُل يا مُحَمَّدُ للكفَّار لا تُؤاخذُون بجُرمِنا، ولا نؤاخَذُ بجُرمِكُم، فانظُرُوا لأنفسِكم واعلَمُوا أنَّ حِرصَنا على إيْمانِكم لا ينفعُكم، وهذا على وجهِ التَّبرُّؤ منهُم ومِن كُفرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ ؛ يعني بَعْدَ البَعْثِ في الآخرةِ في الْمَحشَرِ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ثُم يقضِي بيننا ويحكُمُ بيننا بالعدلِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي وهو القاضِي العليم بما يقضِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ﴾ ؛ أي قُل لَهم أرُونِي الَّذينَ الْحَقْتُمُوهُمْ بالله تعالَى وجعلتمُوهم شركاءَ اللهِ في العبادةِ؛ هل لَهم قدرةٌ على الْخَلْقِ والأمرِ، وهل يرزُقون ويخلُقون ؟ وقَوْلُهُ تَعَالَى (كلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ؛ أي ارتَدِعُوا عن مقالَتِكم وانْزَجِرُوا؛ فإنَّكم لا تَقدِرُونَ أن تجعَلُوا للهِ شُركاءَ، ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي المنيعُ الغالِبُ لكلِّ شيءٍ[1]، الْحَكِيْمُ في تدبيرِهِ لخلقِهِ، فأنَّى يكونُ له شريكٌ في مُلكِهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: قل أرُونِي الذين ألحقتُموهم باللهِ في العبادة شُركاءَ هل يَرزُقونَ ويَخلُقون ؟ كلاَّ؛ لا يرزُقون ولا يخلُقون، بل الذي يخلُقُ ويرزقُ هو اللهُ العزيز في مُلكهِ، الحكيمُ في أمرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ؛ أي ما أرسلنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاّ للناس كافَّة أي كلِّهم، أحمرِهم وأسوَدِهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إلاَّ

(١) في المخطوط: (أي المنيع الغالب الذي لكل شيء) ولا يستقيم المعنى.

مَانِعاً للناسِ من الكُفرِ والضَّلالِ، والكفُّ على هذا هو المنعُ. وأدخِلَتِ الهاءُ ها هُنا للمبالغةِ كالرِّوايةِ والعلامةِ، (بَشِيرًا) بالخيرِ لِمَن أطاعَ اللهَ، (وَنَذِيرًا) أي ومُخَوِّفاً بالنار لِمَن كفَرَ باللهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني كُفَّارَ مكَّة لا يتدبَّرُون القُرْآنَ، فلو تدبَّرُوا لعَلِمُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ؛ أي يقولُ الكفَّارُ: مَتى هَذا الوَعْدُ الذي تُخوِّفُونا به مِن البعثِ والعذاب، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ فِي مَقالَتِكم، ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي قُل لِبَعثِكُم وعَذابكم ميقاتُ يَوْمٍ لا يؤخَّرُ عن وقتِ الوَعْدِ ولا يُقَدَّمُ وهو يومُ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ؛ أي قالَ الكفارُ: لن نؤمِنَ بصِدْقِ هذا القُرْآنِ ولا بالَّذي بينَ يديهِ من أمرِ الآخرةِ، والنشأةُ الثانية.

وَقِيلَ: معنَى (وَلاَ بالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) يعنُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ، وذلك: أنَّهُ لَمَّا قالَ مؤمِنُوا أهلِ الكتاب: إنَّ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في كِتَابنا وهو نبيٌّ مبعوثٌ، كَفَرَ أهلُ مكَّةَ بكِتَابهم.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي ولو ترَى يا مُحَمَّدُ مُشركي مكَّة مَحبُوسُونَ في الْمَحْشَرِ للحِسَاب يومَ القيامةِ، يتجَاوَبونَ فيما بينِهم يرُدُّ بعضُهم على بعضِ القولَ في الجدال، ويحمِلُ كلُّ واحدٍ منهُم الذنبَ على صاحبه، فيقولُ الأتباعُ لرُؤسَائِهم: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ ﴾ ؛ ودعَاؤُكم إيَّانا إلى الكُفرِ، ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ كغيرِنا، بل أنتُم منعتُمونا وصدَدتُمونا عنِ الإيْمان.

فأجَابَهم رؤسَاؤُهم على وجهِ الإنكار: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ باختيارِكم الكُفرَ على الإيْمانِ.

فقالَ الأتباعُ للرُّؤساءِ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ ؛ قالَ الأخفشُ: (اللَّيْلُ وَالنَّهارُ لاَ يَمْكُرَان بأحَدٍ، ولَكِنْ يُمْكَرُ فِيْهِمَا، وَهَذا كَقَوْلِهِ ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾(١) وَهَذا مِنْ سَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ)(٢).

والمعنى: بل مَكْرُكم بنَا في الليلِ والنهار إذ تأمُروننا، وكذلك يقالُ: فلانٌ نهارُ صائمٍ وليلهُ قائمٌ، وقال الشَّاعرُ: (مَا لَيْلُ الْمَطِي بنَائِم)(٣). ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذا عَزَمَ الأَمْرُ﴾(٤). وَقِيْلَ: مكرُ اللَّيلِ والنهار بهم طولُ السَّلامةِ فيهما، كقولهِ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي أضمَرُوها في أنفسِهم؛ لأن موضعَ النَّدامَةِ القلبُ. وَقِيْلَ: أظهَرُوها فيما بينهم، أقبلَ بعضُهم يلُومُ بَعْضاً، ويعرضُ بعضُهم بعضاً الندامةَ، وهذا مِن ألفاظِ الأضدَادِ، يقالُ: أسَرَّ إذا كتَمَ، وأسَرَّ إذا أظهَرَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي غُلَّتْ أيْمَانُهم إلى أعناقِهم، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ من الشِّركِ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ ؛ أي ما أرسَلنَا في أهلِ قريةٍ مِن رسولٍ إلاَّ قال رؤَساؤُها وأعيَانُها وأولُو النِّعمَةِ فيها: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ ؛ مِن الإيْمانِ والتَّوحيدِ، ﴿ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ ﴾ ؛ للرُّسُلِ:

---

(١) مُحَمَّد / ١٣ .

(٢) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٤٥، تحقيق د. فائز فارس.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٠٣؛ نقل القرطبي قال: وأنشد جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى   وَنِمْتِ وَمَا نَوْمُ الْمَطِي بِنَائِمِ

(٤) مُحَمَّد / ٢١ .

(٥) الحديد / ١٦ .

﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ ؛ فكما فُضِّلْنا عليكم في الدُّنيا لن نُعَذبَ بذنوبنا في الآخرةِ! افتخَرَ مُشركُوا مكَّة على رسول الله والمؤمنينَ بأموالِهم وأولادِهم، وظنُّوا أنَّ اللهَ إنَّما خوَّلَهم المالَ والولدَ كرامةً لَهم عندَهُ، فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ اللهَ أحسَنَ إلينا بالمالِ والولدِ فلا يعذِّبُنا!

فقَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ يعني أنَّ بَسْطَ الرزقِ وتضييقه مِن الله تعالى بفعلهِ إبتلاءً وامتحاناً، ولا يدلُّ البسطُ على رضَا اللهِ تعالى، ولا التضييقُ على سَخَطِهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة لا يعلمونَ حين ظَنُّوا أنَّ أموالَهم وأولادَهم دليلٌ على كرامةِ اللهِ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم ﴾ ؛ أي ليست كَثْرَةُ أموالِكم ولا أولادِكم بـ الخصلةِ ﴿ بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أي بالتي تُقرِّبُكم إلى الثواب والكرامة قُرْبَةً. وَقِيْلَ: معناهُ: بالَّتي تقرِّبُكم عندَنا قُربَى. قال الأخفشُ: (زُلْفَى: اسْمُ الْمَصْدَرِ؛ كَأَنَّهُ أرَادَ: بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تَقْرِيباً)(١). ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ بصرفِ المالِ في وُجوهِ الخيرِ، وبصرفِ الأولاد في طاعةِ الله تعالى. وَقِيْلَ: معناهُ: إلاَّ مَن آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً فإنَّ إيْمَانَهُ وعملَهُ يقرِّبُه منِّي.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي لَهم الجزاءُ الْمُضَاعَفُ على حسَنَاتِهم بالحسَنةِ الواحدةِ عشراً، ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ﴾ ؛ الجنَّة، ﴿ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ مِن كلِّ آفةٍ ومَكروهٍ. والغُرْفَةُ: هي البيوتُ فوقَ الأبنية.

قرأ حمزةُ (وَهُمْ فِي الْغُرْفَةِ) على الواحدةِ، لقوله ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾(٢)، وقرأ الباقون (فِي الْغُرُفَاتِ) على الجمعِ، لقوله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾(٣)، وقرأ

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٩٥؛ وفيه: (تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا أزْلاَفاً). و ج٢ ص٦٦٣. تحقيق د. عبدالأمير محمد أمين الورد.

(٢) الفرقان / ٧٥ .

(٣) العنكبوت / ٥٨ .

يعقوبُ (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ) بالنصب مُنوَّناً (الضِّعْفُ) بالرفع تقديرهُ: فأولئك لهم الضعفُ جزاءً على التقديرِ والتأخيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ؛ أي يَسْعَوْنَ في دَلائلِ التوحيدِ والنبوَّة مُعَانِدِيْنَ، يحسَبُون أنَّهم يَفُوتُونَنَا ويُعجِزُونَنا، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) ﴾ ؛ أي مَحبُوسُونَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ؛ أي ما أنفقتُم من مالٍ في غيرِ إسْرافٍ ولا تَقتِيرٍ فهو يُخلِفُهُ في الدُّنيا بالعِوَضِ، وفي الآخرةِ بالحسَناتِ والدَّرجَاتِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) لكم أو عليكم، يقالُ: أخلَفَ اللهُ لَهُ وعليهِ؛ إذا أبدلَ اللهُ لَهُ ما ذهبَ عنهُ. وعن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ فِقهِ الْمُرَادَ فِقهِ فِي مَعِيْشَتِهِ][(١)].

وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَمَا أنْفَقْتُمْ فِي الْخَيْرِ وَالْبرِّ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، إمَّا أنْ يُعَجِّلَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإمَّا أنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ)[(٢)]. وعن سعيدِ بن بشَّار قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبحُ الْعِبَادُ فِيْهِ إلاَّ وَمَلَكَانِ أحَدُهُمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً][(٣)]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩) ﴾ ؛ أي وهو خيرُ الْمُخْلِفِيْنَ، وإنَّما خيْرُ الرَّازِقِينَ لأنه قَدْ يُقَالُ: رزَقَ السُّلطانُ الْجُنْدَ.

---

(١) عن أبي الدرداء؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٩٥. وأبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١ ص٢١١ موقوفاً. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٢ ص٢١١ بلفظ: [مِنْ فِقْهِكَ نَفَقَتُكَ فِي مَعِيشَتِكَ]. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٧٤؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط).

(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٧٧.

(٣) تقدم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ ؛ يعني المشركين، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ؛ هذا استفهامُ توبيخٍ للعَابدين كقوله تعالَى لعيسَى: ﴿أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[1]. فنزَّهَتِ الملائكةُ ربَّهُم عن الشِّرك و ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ ؛ تنْزِيهاً لكَ مما أضافُوا إليكَ مِن الشُّركاء، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ ؛ أي ما اتَّخذنَاهم عَابدين، ولا توليْنَاهم ولسْنَا نريدُ غيرَكَ وليّاً، وأنتَ العالِمُ بأمورنا وافترائهم علينا، كنَّا نُواليكَ ولا نُواليهم، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ ، أي أطاعُوا الشَّياطينَ في عِبادَتِهم إيَّانا؛ لأن الشياطينَ كانت دعوتُهم إلى ذلكَ، فكان أكثرُهم بالشَّياطين مؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ؛ أي يقالُ لَهم: اليومُ لا يَقْدِرُ بعضُكم لبعضٍ جرَّ نفعٍ ولا دَفْعَ ضُرٍّ، ﴿وَنَقُولُ﴾ ، خزنَةُ النار بأمرِ الله، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ ؛ معناهُ: إذا يُقرَأ على أهلِ مكَّة آياتِنا وهي القُرْآنُ واضحات الْحُجَج، ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ ؛ يعنون مُحمَّداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ، وقالُوا: ما هَذا الذي أتانا به إلاّ كذبٌ مُفترَى؟ يعنُونَ القُرآنَ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ؛ وهو القُرْآنُ: مَا هَذا القُرْآنُ؟ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ أي ما آتينا أهلَ مكَّة مِن كُتُبٍ يقرؤُنها. والمعنى: مِن أين كذبُوكَ، ولَم يأتِهم كتابٌ ولا نذير بهذا الذي فعلوهُ، وما أرسلنا إليهم قبْلَكَ يا مُحمَّد مِن رسولٍ.

---

(١) المائدة / ١١٦ .

ثُم خوَّفَهم وأخبرَ عن عاقبةِ مَن كذبَ قبلَهم فقال: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ يعني أمم كافرة، ﴿ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة، ﴿ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي ما بَلَغَ هؤلاءِ الذين أرسِلْتَ إليهم عُشْرَ ما أوتِيَ الأمَمُ قبلَهم من القوَّة والعُدَّة، ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ فانْظُرْ كيفَ كان إنْكَاري عليهم وتَعذِيبي لَهم، ألَيسُوا مُهلَكِين بالعذاب إذ لَم يُؤمِنُوا به مِعْشَارَ. والعُشْرُ والعَشِيرُ جزءٌ من عشرةٍ. قال ابنُ عبَّاس: (الْمَعْنَى: وَمَا بَلَغَ قَوْمُكَ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ وَطُولِ الْعُمرِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ ﴾ ؛ أي آمُرُكم وأوصِيكم بخصْلَةٍ واحدةٍ وهي: ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ ؛ أي تقُومُوا للهِ اثنَين اثنَين وواحداً واحداً، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ ، فيُناظِرُوا ويذكرُوا في أمرِ النبيِّ ﷺ(٢)، هَل تَرَوْنَ في فعلِه وقولِه ودُعائهِ إلى توحيدِ الله ما يكونُ مِن كلامِ الْمَجانِين وأفعَالِهم، وهُو كَلامُ عالِمٍ حازمٍ؟ قال مقاتلُ: (وَالْمَعْنَى: ألاَ يَتَفكَّرُ مِنْكُمْ وَاحِدٌ وَمَعَ صَاحِبِهِ يَنْظُرُوا أنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ دَلِيْلٌ عَلَى أنَّ خَالِقَهَا وَاحِدٌ لاَ شَرِيْكَ لَهُ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ المشركِينَ قالُوا: إنَّ مُحَمَّداً ﷺ ساحرٌ مجنونٌ! فقال اللهُ تعالى: (مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) وما صَاحِبُكم بِمجنُونٍ، فعلَى هذا المعنى يكونُ قولهُ (مَا بصاحِبكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ تعالى، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثُم تتفكَّرُوا فتعلَمُوا بُطلاَن قولِكم في نِسبَتِهِ إلى الجنون. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم ﴾ ؛ أي ما هُو إلاَّ رسولٌ مُخوِّفٌ، ﴿ بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٦٨ و٢٢٠٦٩) مختصراً.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١١؛ قال القرطبي: (لأن الذهنَ حُجَّةُ اللهِ على العبادِ وهو العقلُ، فأوفرُهم عقلاً أوفرُهم حظّاً من الله، فإذا كانوا فُرَادى كانت فكرةٌ واحدة، وإذا كانوا اثنان تقابَلَ الذهنان فتراءَى من العلم لهما أضعف على الانفراد، والله أعلم).

(٣) في تفسير مقاتل بن حيان: ج ٣ ص٦٩؛ قال مقاتل: (ألاَ يتفكرُ الرجلُ وحده، ومع صاحبهِ فيعلمُ ويتفكَّرُ في خلقِ السموات والأرض وما بينهما أن عزَّ وجلَ خلقَ هذه الأشياءَ وحده، وأن محمَّداً صادقٌ وما بهِ من جنون).

يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي بينَ يدَي القيامةِ لكي تُخلِّصُوا أنفُسَكم من عذاب اللهِ بالتَّلافِي والتَّوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: قُل لَهم يا مُحمَّد: ما سألْتُكم على تبليغِ الرِّسالة أجْراً فتتَّهمُوني، وقوْلُهُ تَعالَى (فَهُوَ لَكُمْ) هذا الرجلُ يقول لغيرِهِ: ما أعطيتَنِي فخُذْهُ، يريدُ بذلكَ لَم يُعْطِهِ شيئاً، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما ثوابي إلاَّ على اللهِ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ مِن أعمالِ العِبَادِ ﴿ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ القَذْفُ: هو الرَّمْيُ بألْسِنَتِهم والحصَى والكلام، قال الكلبيُّ: (فَمَعْنَى الآيَةِ: قُلْ إنَّهُ يَأْتِي بالْحَقِّ؛ أيْ يَتَكَلَّمُ بالْوَحْيِ وَهُوَ الْقُرْآنُ يُلْقِيهِ إلَى نَبيِّهِ ﷺ). والمعنى: قُل إنَّ رَبي يُنْزِلُ الوحيَ مِن السَّماء فيَقْذِفُهُ ويُلقيهِ إلى الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وقَوْلُهُ تَعالَى (عَلاَّمُ الْغُيُوب) ظاهرُ المعنَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ يعني الإيْمانَ والقُرآنَ؛ أي ظَهرَ الإسلامُ والقُرْآنُ، ﴿ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ذهبَ الباطلُ وزَهقَ، فلم يَبْقَ له بَقِيَّةٌ يُبدِئُ بها ولا يعيدُ. قال الحسنُ: (الْبَاطِلُ: كُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ، فَإنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ لاَ يُبْدِئُ لأَهْلِهِ خَيْراً فِي الدُّنْيَا، وَلاَ يُعِيْدُ بخَيْرِهِ فِي الآخِرَةِ). فقال قتادةُ: (الْبَاطِلُ إبْلِيْسُ؛ أيْ مَا يَخْلُقُ إبْلِيْسُ أحَداً وَلاَ يَبْعَثُهُ)[(١)].

ويجوزُ أن يكون هذا استِفْهَاماً، كأنَّهُ قالَ: وأيُّ شيءٍ يُبدِئُ الباطلُ ؟ وأيُّ شيء يعيدُهُ ؟ وعن ابنِ مسعودٍ قال: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بعُودٍ مَعَهُ وَيَقُولُ: [جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ][(٢)] أيْ ذهبَ الباطلُ بحيثُ لا يبقَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٩١: الحديث (١٠٤٢٧)، وص٢٠٠: الحديث (١٠٥٣٥) من طريق أخرى. والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٧٧. والبخاري في الصحيح:=

له بقيَّة، لا إقبالٌ ولا إدبارٌ ولا إبداءٌ ولا إعادة كما قَالَ تَعَالَى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[1]. ويقالُ: فلانٌ ظهرَتْ عليه الحجَّة، فما يُبدِئُ وما يعيدُ، ومَا يحل وما يَمرُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا للنبيِّ ﷺ: لقد ضَلَلْتَ حين تركتَ دِين آبائِكَ! فَقَالَ اللهُ تَعَالَى (قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّمَا أضِلُّ عَلَى نَفْسِي) أي ضَرَرُ ذلكَ راجعٌ إلى نفسِي، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ ؛ إلى الحقِّ، ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ ؛ من القرْآن والبَيان، ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ ؛ لكلِّ ما يقولهُ الْخَلْقُ من حقٍّ وباطلٍ، ﴿قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ ؛ مِنِّي، لا تخفَى عليه خافيةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ ؛ ولو ترى يا مُحَمَّدُ الكفَّار، يعنِي عندَ البعثِ، فلا يُمكِنُهم الغَوْثُ ولا الْهَرَبُ مِن ما هو نازلٌ بهم، لرأيتَ ما يُعْتَبَرُ به غايةَ الاعتبار. ومعنى الآيةِ: (وَلَوْ تَرَى إذْ فَزِعُوا) عند البعثِ فلا يَفُوتُونَنِي؛ أي لا يَفُوتُنِي أحدٌ ولا ينجُوا منِّي ظالِمٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ ؛ يعنِي من القُبور حيثُ كانوا، فَهُمْ مِن اللهِ قريبٌ لا يبعُدونَ عنه ولا يَفُوتُونَهُ. تعني هذه الآيةِ؛ قَالَ بعضُهم: أرادَ بقولِهِ (إذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ) مما أصابَهم يومَ بدرٍ عند القتال. وقال بعضُهم: أرادَ به يومَ القيامةِ إذ فَزِعُوا مِن مُشاهدَةِ عذاب جهنَّم، وعلِمُوا أنَّهم لا يَفُوتُونَ للهَ، وأخِذُوا بالعذاب مِن مكانٍ قريبٍ إلى جهنَّم فقُذِفُوا فيها.

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ ، عندَ رُؤيَةِ العذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ، أي آمَنَّا باللهِ تعالى وبرسُولِه، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ ؛ أي أين لَهم تَنَاوُلُ ما أرادُوا بُلُوغَهُ مِن مكانٍ بعيد، يعني مِن الآخرةِ وقد تركوهُ في الدُّنيا ؟ يعني أنَّهم قد تَعَذرَ عليهم تناولُ الإيْمانِ كما يتعذرُ على الإنسانِ تناوُلُ النُّجومِ.

=كتاب المظالم: باب هل تكسر الدنان التي فيها خمر: الحديث (٢٤٧٨)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٧٢٠).

(١) الأنبياء / ١٨ .

والتَّناوُشُ هو التَّناوُلُ، نِشْتُهُ أنوشُهُ نَوْشاً، إذا تَناوَلَهُ، كأنَّهُ قالَ: وأنَّى لَهُمُ التوبةُ. وَقِيلَ: ما يتمَنَّوْنَ. قال ابنُ عبَّاس: (يَتمَنَّوْنَ الرَّدَّ حِيْنَ لاَ رَدَّ)[١].

قرأ أبو عمرو والأعمشُ وحمزة والكسائيُّ وخلف: (التَّنَاؤُشُ) بالمدِّ والهمزةِ، وهو الإبطاءُ والبُعْدُ؛ أي مِن أينَ لَهم أن يتحرَّكُوا فيما لا حيلةَ لَهم فيهِ. يقالُ: أنَشْتُ الشَّيءَ؛ إذا أخذتهُ مِن بعيدٍ، والنَّيْشُ: الشيءُ البطيءُ. وقرأ الباقونَ بغيرِ همزةٍ من التَّناوُل، يقالُ: نِشْتُهُ إذا تناوَلتهُ، وتَنَاوَشَ القومُ في الحرب إذا تدانَوا وتناوَلَ بعضُهم بعضاً.

واختارَ أبو عُبيد تركَ الهمزِ؛ لأنه قالَ: (مَعْنَاهُ مِنَ التَّناوُل، فَإذا هُمِزَ كَانَ مَعْنَاهُ الْبُعْدُ فكيف يقول: ﴿أَنَّى لَهُمْ﴾ الْبُعْدُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) يعني أنَّهم يريدونَ أنْ يتناوَلُوا التوبةَ، وقد صَارُوا في الآخرةِ، وإنَّما تُقبَلُ التوبةُ ((في الدنيا))[٣] وقد ذهبَتِ الدُّنيا فصارت بعيداً مِن الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي كانوا كَافِرينَ بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ في الدُّنيا قبلَ ما عايَنُوا مِن العذاب وأهوال[٤] القيامةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ أي يَنسِبُونَ مُحَمَّداً ﷺ إلى السِّحرِ والجنونِ والكَهَانَةِ رَجْماً منهم بالغَيْب والقَذفِ. والرَّجْمُ بالغَيْب: أن يَلْفِظَ الإنسانُ شَيئاً لاَ يَتحَقَّقُ، ومنه سُمِّي الرميُ بالفاحشةِ قَذْفاً.

ومعنى قَوْلِهِ تَعَالَى (بِالْغَيْب) أنْ يقذِفُون مُحَمَّداً ﷺ بالظَّنِّ لا باليقين، والغيبُ على هذا الظَّنُّ، وهو ما غابَ عِلمُه عنهم[٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) يعني

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٠٩٢).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١٦؛ قال القرطبي: (وأبو عبيد يستبعد هذه القراءة؛ لأن (التَّنَاؤُشَ) بالهمز البُعد، فكيف يكون البعد، وأنى لهم البعد من مكان بعيد) نقله عن النحاس، وهو في إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٤٢.

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط.

(٤) في المخطوط تحريف العبارة، رسم الناسخ: (قبل ما عاينوا من أهل الـ اليوم القيامة).

(٥) في المخطوط تحريف العبارة، رسم الناسخ: (ما غاب عليه عنهم).

بُعْدَهم عن الحقِّ. وقال قتادةُ: (مَعْنَى (وَيَقْذِفُونَ بالْغَيْب) يَقُولُـونَ: لاَ بَعْـثَ وَلاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾: أي حِيْلَ بين هؤلاءِ الكفَّار وبين الرَّجعةِ إلى الدُّنيا، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: حِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْـنَ الإيْمَـانِ وَالتَّوْبَـةِ)(٢)، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ أي كما فُعِلَ بنُظَرَائِهم أو أشيَاعِهم، ومَن كان على مِثْلِ حالِهم من الكفَّـار. ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي قَبْلَ هـؤلاءِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ﴾؛ مِن البعثِ ونُزولِ العذاب بهم، ﴿مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾، أي ظاهرِ الشَّكِّ.

وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ سَبَأ لَمْ يَبْـقَ رَسُـولٌ وَلاَ نَـبِيٌّ إلاَّ كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفِيْقاً وَمُصَافِحاً](٣).

آخر تفسير سورة (**سبأ**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢١٠٠) وأوله: (أي يرجمون بالظن...).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢١٠٢) بأسانيد، وفيه: (حِيلَ بينهم وبين الإيمان بالله).

(٣) تقدم أول السورة.

سُورَةُ الْمَلاَئِكَةِ (فاطــــر)

سُورَةُ الْمَلاَئِكَةِ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَةٌ وَثَلاَثُونَ حَرْفاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا دَعَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّ الأَبْوَابِ شِئْتَ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي خالِقُهما، مُبتَدِئاً من غيرِ مثالٍ سبقَ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَا كُنْتُ أعْرِفُ مَا مَعْنَى فَاطِرِ حَتَّى اخْتَصَمَ إلَيَّ أعْرَابيَّانِ فِي بئْرٍ، فَقَالَ أحَدُهُمَا: أنَا فَطَرْتُهَا؛ أيْ بَدَأتُهَا)(2).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ ؛ قال بعضُهم: أرادَ به الملائكةَ كلَّهم، فإنَّهم كلُّهم رسُلُ اللهِ بعضُهم إلى بعضٍ وبعضُهم إلى الإنسِ، وقالَ بعضُهم: أرادَ بذلك جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَكُ الموتِ والحفَظَةَ، يرسلُهم إلى النبيِّين وإلى ما شاءَ من الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ ؛ صفةُ الملائكةِ أي ذوي أجنحةٍ، ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ، منهم مَن له جَناحَان، ومنهم مَن له ثلاثةٌ، ومنهم من له أربعةٌ، اختارَهم اللهُ تعالى لرِسالَتِهِ من حيث عَلِمَ أنَّهم لا يُبدِّلون.

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٦٠١.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٧٠: الرقم (١٧٩١٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣١٩. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الإيمان) وذكره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في طلب العلم: الحديث (١٦٨٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يزيدُ في أجنحةِ الملائكة ما يشاءُ، فمِنهُم من له مائةُ ألفِ جَناحٍ، ومنهم من له أكثرُ، وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: [رَأى النَّبيُّ ﷺ جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ](١).

وعن ابنِ شِهَابٍ قال: (سَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَتَرَاءَى لَهُ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: إنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ:[إنِّي أحِبُّ أنْ تَفْعَلَ] فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى الْمُصَلَّى فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ، فَغَشِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ رَآهُ، ثُمَّ أفَاقَ وَجِبْرِيلُ مُسْنِدُهُ(٢) إلَيْهِ وَاضِعٌ إحْدَى يَدَيْهِ عَلَى صَدْرِهِ وَالأُخْرَى بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [سُبْحَانَ اللهِ مَا كُنْتُ أرَى شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ هَكَذا] فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: كَيْفَ لَوْ رَأيْتَ إسْرَافِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! لَهُ اثْنَا عَشَرَ جَنَاحاً، جَنَاحٌ بِالْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ بِالْمَغْرِبِ وَالْعَرْشُ عَلَى كَاهِلِهِ)(٣).

وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنه قالَ: (إنَّ للهِ تَعَالَى مَلَكاً يَسَعُ الْبِحَارَ كُلَّهَا فِي نُقْرَةِ إبْهَامِهِ)(٤). وَقِيْلَ: معنى قولهِ (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) يعني حُسنَ الصَّوتِ، كذلك قال الزهريُّ(٥)، وقال قتادةُ: (هِيَ الْمَلاَحَةُ فِي الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعْرِ الْحَسَنِ وَالْوَجْهِ الْحَسَنِ وَالْخَطِّ الْحَسَنِ)(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب (٧): الحديث (٣٢٣٢)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٨٥٦ و٤٨٥٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب في ذكر سدرة المنتهى: الحديث (٢٨٠/ ١٧٤).

(٢) في المخطوط: (مستنده).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد: باب تعظيم ذكر الله: ص٧٤: الحديث (٢٢١). وذكره القرطبي مختصراً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٣٠.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٧٠. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري) وذكره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالله: الأثر (١١٥).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل:ص١٠٦٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٠. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص١٣٥: الأثر (١١٦) مختصراً.

وقولهُ تعالى (وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ) في موضعِ خفضٍ؛ لأنه لا يتصرَّفُ. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾؛ أي قادرٌ على ما يزيدُ على الزيادةِ والنُّقصان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾؛ أي ما يُرسِلِ اللهُ إلى الناسِ من رسُول فلا مانعَ له، وذلك لأن إرسالَ الرسُول من اللهِ تعالى رحمةٌ لعبادهِ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

وَقِيْلَ: أرادَ بالرحمةِ ها هنا المطرَ والرزقَ والعافية وجميعَ النِّعَم، ما يفتحِ اللهُ من ذلك فلا مانعَ له، ولا يستطيعُ أحدٌ من الخلقِ حبسَهُ ولا إمساكَهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾؛ أي وما يُمسِكِ اللهُ من ذلك فلا يقدِرُ أحدٌ على إرسالهِ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي العزيزُ فيما أمسكَ، الحكيمُ فيما أرسلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾؛ يعني أهلَ مكَّة اذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ أسكنَكم الحرَمَ ومنعَكم من الغاراتِ، ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؛ هذا استفهامٌ، ومعناهُ التوبيخ؛ أي لا خالقَ سواهُ. وقولهُ تعالى: ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي مِن السَّماءِ بإنزال المطر ومِن الأرض بإخراجِ النبات، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي فأنَّى تُصرَفون عن الإلهِ الذي هذه صفتهُ إلى معبودٍ لا يقدرُ على شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾؛ في هذه الآيةِ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ لئَلاَّ يجزعَ على تكذيب قومه، ويصبرَ كما صَبَرَ على تكذيب الأُمَمِ الرسلُ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ﴾؛ عواقبُ ﴿ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾؛ في مجازاةِ المكذِّبين ونُصرةِ المسلمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾؛ معناهُ إن الذي وعدَهُ اللهُ المجازاةَ والبعثَ بعد الموتِ حقٌّ كائن، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ بزينتِها

---

(١) الأنبياء / ١٧٠.

وزهرتِها حتى تشتَغِلوا بها عن أمرِ دينكم، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ولا يستزلَّكم عن طاعةِ الله الشيطانُ الذي مِن عادته الغرورُ. وقرأ ابنُ سماك العدويّ: (الْغُرُور) بضمِّ الغينِ، وهو أباطيلُ الدنيا، وأما (الْغَرُور) بفتحِ الغينِ فيه، الشَّيطانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ؛ أي احترزُوا[1] من كَيدِه، ولا تقبلُوا منه وتطيعوهُ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ ﴾ ؛ أي أهلَ طاعتهِ ليكون معه، ﴿ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي لِيَسُوقَهم إلى النار، ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ ؛ نَزَلْنَ في أبي جهلٍ ومُشركي مكَّة. وَقِيْلَ: نزلت في أصحاب الأهواءِ والمِلَلِ التي خالَفت الْهُدَى، والمعنى: أفمَن زُيِّنَ له سوءُ عملهِ فرآهُ حسناً كمَن هداهُ الله، ويدلُّ على هذا المحذوفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

قولهُ: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ ؛ أي لا تَغتَمَّ، ولا تُهلِكْ نفسَكَ عليهم حَسَراتٍ على تركِهم الإسلامَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في كُفرِهم فيجازيهم بما هو أولى بهم، قرأ أبو جعفر (فَلاَ تُذْهِبْ) بضم التاء وكسر الهاء، نصب السِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ الذي أرسلَ الرياحَ لإثارةِ السَّحاب، ﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ ، فأجريناه الى بلد ميت ليس فيه نبات ولا شجر، ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، فأحيَا ((الله))[2] بالمطرِ الأرضَ بإخراجِ الزَّرعِ والأشجار منها بعدَ يُبسِها وذهابِ النباتِ منها ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ كذلك البعثُ في القيامةِ.

---

(١) في المخطوط: (احترَزْ).

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

وهذا احتجاجٌ على مُنكري البعثِ، فإن موتَهم كموتِ الأرض، وذهابَ أثرهم كذهاب أثرِ الأشجار والزُّروعِ، والقادرُ على إخراجِ الأشجار والزروعِ من الأرض قادرٌ على إخراجِ الموتى من الأرضِ.

ومعنى الآية: (وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً) أي تُزعِجهُ من حيث هو (فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) أي مكان ليس فيه نباتٌ (فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) أي أنبَتنا فيها الزرعَ والكلأَ بعدَ أن لَم يكن، (كَذلِكَ النُّشُورُ) أي الإحياءُ والبعث.

وعن أبي رُزَينٍ العقيليِّ قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحيي اللهُ الْمَوْتَى؟ [أَوَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمَحَّلاً ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِراً؟] قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: [فَكَذلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى] وَقَالَ: [كَذلِكَ النُّشُورُ])(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ ؛ أي مَن كان يطلبُ العزَّةَ بعبادةِ الأصنام فليطلُبْها بطاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله ﷺ، العزيزُ مَن أعزَّهُ اللهُ. وذلك أنَّ الكفارَ كانوا يعبُدونَ الأصنامَ طَمَعاً في العزَّةِ كما قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾(٢). أو قِيْلَ: معناهُ: مَن كان يريدُ أن يعلمَ العزَّةَ لِمَن هي فليعلَمْ أنَّها للهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ؛ إلى اللهِ تصعدُ كلمةُ التوحيدِ وهو قولهُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ومعنى(إلَيْهِ يَصْعَدُ) أي يعلمُ ذلك كما يقالُ: ارتفعَ الأمرُ إلى القاضِي والسُّلطان أي عَلِمَهُ. وَقِيْلَ: صعودُ الكَلِمِ الطيِّب أن يُرفَعَ ذلك مَكتُوباً أو مَقبُولاً إلى حيث لا مالكُ إلاَّ اللهُ؛ أي إلى سَمائهِ يصعدُ الكَلِمُ الطيِّبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: ذُو الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُرْفَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ إلَى اللهِ تَعَالَى بعَرْضِ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ، فَإنْ وَافَقَ الْقَوْلُ الْفِعْلَ قُبلَ، وَإنْ خَالَفَ رُدَّ، لأنَّ الْعَبْدَ إذا وَحَّدَ اللهَ وَأخْلَصَ فِي عَمَلِهِ ارْتَفَعَ الْعَمَلُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١١ و١٢. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٧٩٣٦). والطبراني في الكبير: باب ٢: الحديث (٢٨١) ورجاله موثقون.

(٢) مريم / ٨١ .

إلَى اللهِ تَعَالَى)[١]. قال: (لَيْسَ الإيْمَانُ بالتَّحَلِّي وَلاَ بالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْب وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ، مَنْ قَالَ حُسْناً وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً رَفَعَهُ الْعَمَلُ)[٢].

وقرأ أبو عبدالرحمن (الْكَلاَمُ الطَّيِّبُ)[٣]. وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في قولهِ (إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ): [هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، إذا قَالَهَا الْعَبْدُ عَرَجَ بهَا مَلَكٌ إلَى السَّمَاءِ][٤].

وَقِيْلَ: الكلامُ الطيب: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، والعملُ الصالِحُ: أداءُ فرائضهِ، ومَن لا يؤدِّي فرضَهُ رُدَّ كلامهُ. وجاءَ في الخبر: [طَلَبُ الْجَنَّةِ بلاَ عَمَلٍ ذنْبٌ مِنَ الذُّنُوب][٥]، وقال النبيُّ ﷺ: [لاَ يَقْبَلُ اللهُ قَوْلاً بلاَ عَمَلٍ][٦]، وعلى هذا المعنَى قولُ الشاعر:

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ ... حَتَّى يُصَدِّقَ[٧] مَا يَقُولُ فَعَالُ
فَإذا وَزَنْتَ فَعَالَهُ بمَقَالِهِ ... فَتَوَازَنَا فإخَاءُ ذاكَ جَمَالُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر) وذكره. وأخرجه ابن المبارك في الزهد: باب ما جاء في تخويف عواقب الذنوب: الأثر (٩١): ص٣٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن) وذكره.

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٦٧. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٤٧.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩: الحديث (٩١٤٤) عن ابن مسعود. والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٤٢).

(٥) في موسوعة الأطراف: ج ٥ ص٤٠٨؛قال البسيوني: (ذكره ابن عراف في تنزيه الشريعة).

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٢ ص٣٣٥ من قول قتادة والحسن بلفظ: (لاَ يُقْبَلُ قَوْلٌ بلاَ عَمَلٍ، فَمَنْ أحْسَنَ الْعَمَلَ قَبلَ اللهُ قَوْلَهُ). وفي ج ٧ ص٣٢ أخرجه عن سفيان يقول: (لاَ يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ إلاَّ بعَمَلٍ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إلاَّ بنِيَّةٍ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إلاَّ بمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ). وذكره القرطبي على أنه حديث في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٣٠.

(٧) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٩؛ قال القرطبي: (حَتَّى يُزَيِّنَ).

وقال ابنُ المقفَّع: (قَولٌ بلاَ عَمَلٍ كَثَرِيدٍ بلاَ دَسَمٍ، وَسَحَابٍ بلاَ مَطَرٍ، وَقَوْسٍ بلاَ وَتَرٍ)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: والعملُ الصالِحُ يرفعهُ اللهُ؛ أي يَقبلُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾؛ أي يَفعلُونَها على وجهِ المخادَعة كما كان الكفارُ يمكُرون بالنبيِّ ﷺ في دار النَّدوةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: الذين يُشركون باللهِ وبعملِ السيِّئات لَهم عذابٌ شديد في الآخرةِ. وَقِيْلَ: أرادَ بقولهِ (يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ) يعمَلون عملاً على وجهِ الرِّياءِ.

كما رُوي أنَّ رجُلاً قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ فِيمَ النَّجَاةُ غَداً؟ فَقَالَ: [لاَ تُخَادِعِ اللهَ، فَإنَّهُ مَنْ يُخَادِعِ اللهَ يَخْدَعُهُ وَيَخْلَعُهُ مِنَ الإيْمَانِ]. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ يُخَادَعُ اللهُ؟ فَقَالَ: [أنْ تَعْمَلَ بِمَا أمَرَكَ اللهُ، لاَ يُقْبَلُ مَعَ الرِّيَاءِ عَمَلٌ، فَإنَّ الْمُرَائِي يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ بأَرْبَعَةِ أسْمَاءٍ: يَا كَافِرُ؛ يَا فَاجِرُ؛ يَا غَادِرُ؛ يَا خَاسِرُ؛ ضَلَّ عَمَلُكَ][2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي يفسَدُ ويهلَكُ ويكسَرُ ولا يكون شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾؛ أي خلَقَ أصلكم وأباكم آدم من تراب، ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾؛ أي ثم خلقَ نسلَ آدم من نُطفةٍ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾؛ يعني ذُكراناً وإناثاً، ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ ﴾؛ أو تَلِدُ لتمامٍ وغيرِ تمامٍ، ﴿ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾؛ أي ما يَطولُ عمرُ أحدٍ، ولا يَنقصُ من عمرِ أحدٍ إلاَّ وهو مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي كتابةُ الآجالِ والأعمالِ وحِفظُها من غيرِ كتابةٍ على الله هيِّنٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾؛ قِيْلَ: هذه مثلٌ ضربَهُ اللهُ، يقولُ: كما لا يستوي البحرَان أحدُهما عذبٌ في غايةِ العذُوبَةِ هنِيءٌ شرابهُ مَريءٌ، والآخَرُ مرٌّ زُعَاقٌ لا يستطاعُ شرابه، فكذلك لا

---

(١) ذكره عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٤ ص٣٢٩.

(٢) ذكره ابن حجر في المطالب العالية: ج ٣ ص١٨٤: الحديث (٣٢٠٢) وسكت عنه البوصيري.

يستوي المؤمنُ والكافر، والتقيُّ والفاسقُ. والسائغُ: هو السالكُ في الحلْقِ. والأُجَاجُ: شديدُ الْمُلُوحَةِ. وقرأ عيسى (سَيِّغٌ شَرَابُهُ) مثل ميِّتٍ وسيِّد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ؛ أي ومِن كلِّ البحرَين تأكلون السمكَ لا يختلفُ طَعْمُ السَّمكِ لاختلاف ماءِ البحرَين، فكذلك قد يولَدُ للكافرِ ولدٌ مسلم مثلَ خالدِ بن الوليد وعكرمةَ بن أبي جهلٍ وغيرِهما.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ به إخراجَ اللُّؤلُؤِ والمرجان من أحدِهما خاصَّة وهو الملحُ. والمعنى: تَستَخرجُونَ من الملحِ دون العَذْب. قِيْلَ: إن اللؤلؤَ قطرُ المطرِ يقعُ في جوفِ الصَّدَفِ فيكون منه اللؤلؤُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ؛ أي ترَى السفُنَ جواري في البحر، قال مقاتلُ: (هُوَ أنْ تَرَى سَفِينَتَيْنِ، أحَدُهُمَا مُقْبلَةً وَالأُخْرَى مُدْبرَةً، وَهَذِهِ تَسْتَقْبلُ تِلْكَ، وَتِلْكَ تَسْتَدْبرُ هَذِهِ، تَجْرِيَانِ بريحٍ وَاحِدَةٍ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ لتطلبُوا من رزقهِ التجارةَ، فتحملُ النِّعَمُ فيها من بلدٍ إلى بلدٍ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي فعَلَ ذلك لتعلَمُوا أنَّ هذه النعَمَ من اللهِ، ولكي تشكرونَهُ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي الذي يفعلُ هذه الأشياءَ هو اللهُ ربُّكم، و: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ ؛ الدائمُ الذي لا يزولُ، ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ لا يقدِرون على أنْ ينفعُوكم بقدر قِطْمِيرٍ، وهو القشرةُ الدَّقيقة الملتزقَةُ بنواةِ الثَّمرة كاللفَّافَةِ عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَاءَكُمْ ﴾ ؛ ولو كانُوا سَامِعين ما أجَابُوكم بإغاثةٍ ولا نُصرةٍ، والمعنى: إنْ تدعُوهم لكشفِ ضُرٍّ لا يَسمعُوا دعاءَكم لأنَّها

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٤.

جمادٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ ؛ بأنَّ الله خلَقَ فيهم السمعَ، ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ؛ أي يتبرَّؤُن منكم ومن عبادتِكم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[1] والمعنى بقولهِ: (يَكْفُرُونَ بشِرْكِكُمْ) أي يتبرَّؤُن من عبادتِكم، يقولون: ما كُنتم إيَّانا تعبُدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ ؛ معناهُ: لا يُخبرُكَ بحقائقِ الأمُور وعواقبها إلاَّ اللهُ؛ لأنه عالِمٌ بكلِّ الأشياءِ، لا يخفَى عليه منها شيءٌ، ولا تلحقهُ المضارُّ والمنافعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ ؛ أي المُحتاجُونَ إليه وإلى نِعَمِهِ ومغفرتهِ حالاً بعد حالٍ، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ ؛ عن إيمانِكم وطاعتكم، ﴿الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ ؛ أي المحمودُ في أفعالهِ عند خلقهِ. وإنَّما أمركم بطاعتهِ لتنتفِعوا بها لا حاجةَ به إليها، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ؛ أي إنْ يشأ يهلككم، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ ، ويأتِ بخلقٍ أطوعَ منكم، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي ليس إهلاكُكم وإتيانهِ بمثلِكم على اللهِ ممتنعٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ؛ أي لا تحملُ يومَ القيامةِ حملَ حاملةٍ أخرى؛ أي لا تؤخذُ نفسٌ بذنب غيرِها، ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ ؛ بالذُّنوب، ﴿إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ، إلى أن يُحمَلَ عنها شيءٌ من ذنوبها لا تُحملُ مِن ذنوبها شيءٌ، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ، ولو كانت المدعوَّةُ ذاتَ قرابةٍ من الداعيةِ لِمَا في ذلك مِن غِلَظِ حملِ الآثام، ولو تحمَّلتْهُ لا يُقبلُ حملُها؛ لأن كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ، فلا يؤخَذُ أحدٌ بذنب غيرِه.

وسُئل الحسنُ بن الفضلِ عن الجمعِ بين هذه الآيةِ وبين قولهِ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أثْقَالَهُمْ وَأثْقَالاً مَعَ أثْقَالِهِمْ﴾ فقالَ (قَوْلُهُ (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) يَعْنِي طَوْعاً، وَقَوْلُهُ ﴿وَلَيَحملُنَّ أثْقَالَهُمْ وَأثْقَالاً مَعَ أثْقَالِهِمْ﴾[2] يَعْنِي كَرْهاً). قال ابنُ عبَّاس: في

(١) البقرة / ١٦٦ .
(٢) العنكبوت / ١٣ .

قولهِ (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ) قال: (يَقُولُ الأَبُ وَالأُمُّ: يَا بُنَيَّ احْمِلْ عَنِّي، فَيَقُولُ: حَسْبِي مَا عَلَيَّ)[١].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ يقولُ: إنما ينتفعُ بإنذاركَ ووَعْظِكَ الذين يُطيعون ربَّهم في السرِّ، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ولأن مَن خَشِيَ اللهَ واجتنبَ المعاصي في السرِّ مِن خشيةِ الله تعالى، اجتنبَها لا محالةَ في العَلانيةِ.

ويقال: إنَّ الخشيةَ في السرِّ، والإقدامَ على الطاعةِ في السرِّ، واجتنابَ المعصيةِ في السرِّ، أعظمُ عندَ الله ثواباً، كما قالَ النبيُّ ﷺ: [مَا تَقَرَّبَ امْرِئٌ بشَيْءٍ أفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ][٢]. وأما عطفُ الماضِي في قولهِ تعالى (وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ) علىالمستقبَلِ في قولهِ (يَخْشَوْنَ)، ففائدةُ ذلك أنَّ وجوبَ خشيةِ الله لا تختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ ولا بمكانٍ دون مكانٍ، ووجوبُ إقامةِ الصَّلاة يختصُّ ببعضِ الأوقاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي ومَن تطَهَّرَ من دَنَسِ الذُّنوب والشِّركِ ليكون عند ربه زكيّاً، فإن منفعةَ تطَهُّرِهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إليه يرجعُ الخلق كلُّهم في الآخرةِ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُشركَ والمؤمنُ، ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ولا الشِّركُ ولا الضَّلالُ كالنور والهدى والإيمان.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ ولا الجنَّةُ ولا النارُ. وقال عطاءُ: (يَعْنِي ظِلَّ اللَّيْلِ وَسَمُومَ النَّهَارِ)، ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ ؛ يعني المؤمنين والكافرينَ، وهذه أمثالٌ ضربَهَا اللهُ تعالى، كما لا تستوِي هذه الأشياءُ، كذلك لا يستوِي الكافرُ والمؤمن.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٠.

(٢) في تخريج أحاديث الإحياء: ج ١ ص٣٣٤؛ قال العراقي: (أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن أبي مريم عن حمزة بن حبيب مرسلاً). وأخرجه ابن المبارك في الزهد: باب العمل والذكر الخفي: الحديث (١٥٤).

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يسمعُ كلامَهُ مَن يشاءُ؛ أي يتَّعِظُ ويهتدِي، قال عطاءُ: (يَعْنِي أوْلِيَاءَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِجَنَّتِهِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي كمَا لا تقدرُ تسمعُ مَن في القبور، فكذلكَ لا تقدرُ أن تُسمِعَ الكفارَ، شبَّهَهم بالموتَى لأنَّهم لا ينتفعُون كالموتَى.

وقرأ أبو رُزَين العقيليّ[(١)] (مَا أنْتَ بمُسْمِع مَنْ فِي الْقُبُور) بلا تنوينٍ بالإضافة، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ما أنتَ إلاَّ رسولٌ تُنذِرُهم النارَ وتخوِّفُهم، وليس عليك غيرُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ما مِن أمَّة إلاَّ سَلَفَ فيها نبيٌّ، ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ ؛ فلستَ بأوَّلِ رسولٍ كُذِّبَ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ الواضحاتِ، ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ ؛ وهي الكتُب، وقولهُ تعالى: ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ يعني التوراةَ. وقِيْلَ: إنَّما كرَّرَ الزبورَ هي الكتب أيضاً لاختلافِ صفاتِ الكتابِ؛ لأن الزبورَ هو الكتابةُ الثابتةُ كالنَّقرةِ في الصخرةِ، ثم قالَ (وَبِالْكِتَابِ الْمُنِير) الموصوف واحدٌ والصفاتُ مختلفةٌ. وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي أخذتُهم بالعقوبةِ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي إنكاري عليهم وتعذيبي لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ ؛ وطعمُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي وخلقنا من الجبال (جُدَدٌ بيضٌ) أي طرُق يكون في الجبال كالعرُوق بيضٌ وسود وحُمْرٌ، واحدها جُدَّة، قال المبرِّد: (جُدَدٌ: طُرُقٌ وَخُطُوطٌ وَنَحْوُ هَذا، وَالْجُدَدُ الْجُدَّةُ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ كَالْمُدَّةِ وَالْمُدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْعُدَدِ، وَأمَّا الْجُدُدُ بضَمَّتَيْنِ فَهِيَ جَمْعُ الْجَدِيدِ مِثْلُ سَرِيرٍ وَسُرُر).

---

(١) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر: ج ٣ ص٣٩٧: الرقم (٢٢٦٦): لقيط بن عامر العقيلي، وهو وافد بني المنتفق إلى رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى (وَغَرَابِيبُ سُودٌ) يجوز أن يكون الغرَابيبُ هي الجبالُ السُّود، كأنَّه قال: ومن الجبال غرابيبُ، والغَرَابيبُ الذي لَونهُ كلَون الغُراب، ولذلك حَسُنَ أن يقال سُودٌ، وقال الفرَّاء:(هَذا عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، تَقْدِيرُهُ: وَسُودٌ غَرَابِيبُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ كاختلافِ الثِّمار والجبالِ، وتَمَّ الكلامُ على، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إنَّمَا يَخَافُونَ مِنْ خَلْقِي مَنْ عَلِمَ جَبَرُوتِي وَعِزَّتِي وَسُلْطَانِي)[٢]، وقال مقاتلُ: (أشَدُّ الناس للهِ خِشْيَةً أعْلَمُهُمْ بِهِ)[٣]، وقال مسروقٌ: (كَفَى بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْماً، وَكَفَى بالاغْتِرَارِ باللهِ جَهْلاً)[٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ؛ أي عزيزٌ قاهر وغالبٌ في مُلكِهِ، ﴿ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ لذنوب المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني القرآنَ في الصَّلاةِ وغيرِها، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ؛ أي وأنفقُوا مما أعطَيناهم من الأموال تطوُّعاً سِرّاً فيسلَمُوا بذلك عن تُهمَةِ الرِّياءِ، وفريضةً جَهْراً فيسلَمُون بذلك عن تُهمةِ المنعِ، ويقال: أرادَ بذلك النفقةَ في الجهادِ، ﴿ يَرْجُونَ ﴾ ؛ بذلك، ﴿ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لن تَكْسَدَ ولا يَرِدُ عليها الفسادُ والبُطلان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ؛ ليُعطِيَهم أجرَ أعمالِهم كاملةً، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ فوق ما يستحقُّوهُ، قال ابنُ عبَّاس:(يَعْنِي سِوَى

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٣٦٩.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٠.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٦.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١. وأدرج الناسخ في المتن سهواً عبارة الكشاف: ((وفي الكشَّاف: مَن قرأ (يَخْشَى اللهُ) بالرفعِ ونصبِ (الْعُلَمَاءَ) فَمَعْنَى يَخْشَى اللهَ الْعُلَمَاءُ). قالهُ الزمخشريُّ)).

الثَّوَاب)[١]، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ إنه غفورٌ لذنوبهم، شكورٌ يعامِلُ بالأحسنِ معاملةَ الشاكرِ، قال ابنُ عبَّاس: (غَفَرَ الْعَظِيمَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَشَكَرَ الْيَسِيرَ مِنْ أعْمَالِهِمْ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾؛ أي مُوافِقاً لِمَا قبلَهُ من الكتُب، لأن كتبَ اللهِ تعالى كلُّها دالَّة على توحيدهِ وإن اختلفتْ بالشرائعِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي خبيرٌ بأقوالِهم وأفعالِهم ونيَّاتِهم فيَجزيهم بما يستحقُّون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾؛ قال مقاتلُ:(يَعْنِي الْقُرْآنَ)[٣]، وقوله تعالى(الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) يريد أمَّة مُحمَّدٍ ﷺ.

ثم قسَّمَهم ورتَّبهم فقالَ تعالى: ﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾؛ وهو الذي ماتَ على كِبْره ولم يَتُبْ عنها، ﴿ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ ﴾؛ وهو الذي لَمْ يُصِبْ كبيرةً، ﴿ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾؛ يعني المقرَّبين الذين سبقُوا إلى أعمالٍ، وقال الحسنُ: (الظَّالِمُ: الَّذِي تَرَجَّحَ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتُهُ، وَالسَّابقُ: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ).

وعن عُمر بن الخطَّاب ﷺ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [سَابِقُنَا سَابِقٌ][٤] أي إلى الجنَّة أو إلى رحمةِ الله تعالى بالخيراتِ؛ أي بالأعمال الصالحة، ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾؛ أي بإرادةِ الله، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ معناهُ: إيراثُهم الكتابَ هو الفضلُ الكبير، وسُمي إعطاءُ الكتاب إيْراثاً لأنَّهم أعْطُوهُ بغيرِ مسألةٍ ولا اكتساب.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٧٧.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٥؛ قال السيوطي: (أخرجه العقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقي).

وعن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُمْ قَالُوا: [السَّابقُونَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُونَ يُحَاسَبُونَ حِسَاباً يَسِيراً ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَالظَّالِمُونَ يُحَاسَبُو مَا شَاءَ اللهُ أنْ يُحَاسَبُوا، ثُمَّ يَرْحَمُهُمُ اللهُ تَعَالَى فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ...] إلى آخرِ الآيتَينِ[1].

وعن الحسنِ أنه قالَ: (السَّابقُ الَّذِي تَرَكَ الدُّنْيَا، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي أخَذَ الْحَلاَلَ، وَالظَّالِمُ الَّذِي لاَ يُبَالِي مِنْ أيْنَ أخَذ). ويقالُ: الظالِمُ صاحبُ الكبائرِ، والمقتصدُ صاحبُ الصَّغائرِ، والسَّابقُ الذي اتقى سيئاته.

فإنْ قيلَ ما الحكمةُ في تقديمِ الظالِم وتأخيرِ السابق ؟ قِيلَ: الواوُ لا توجِبُ الترتيبَ كما قالَ تعالى ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[2]. وَقِيْلَ: قدَّمَ الظالِمَ لئَلاَّ ييأسَ من رحمتهِ، وأخَّرَ السابقَ لئلا يُعجبَ بنفسهِ. وَقِيْلَ: قدَّمَ الظالِمَ فإذا لَم يكن لـه شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ الله تعالى، وثنَّى بالمقتصدِ لِحُسنِ ظنِّهِ بربه. وَقِيْلَ: لأنه بين الخوفِ والرَّجاءِ، وأخَّرَ السابقَ لأنه اتَّكَلَ على حسَناتهِ. وَقِيْلَ: لئلا يأمَنَ أحدٌ مَكْرَهُ، وكلُّهم في الجنَّة بُحرمَةِ كلمةِ الإخلاصِ.

وعن عُقبة بن صَهبان قال: (سَألْتُ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِهِ: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَاتِ) فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأمَّا السَّابقُ فَمَنْ مَضَى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَهدَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ بالْجَنَّةِ، وَأمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنْ تَبعَ أثَرَهُ مِنْ أصْحَابهِ حَتَّى لَحِقَ بهِ، وَأمَّا الظَّالِمُ فَمِثْلِي وَمِثْلُكَ)[3]. وقال سهلُ بن عبدِالله: (السَّابقُ الْعَالِمُ، وَالْمُقْتَصِدُ الْمُتَعَلِّمُ، وَالظَّالِمُ الْجَاهِلُ)[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢١٧٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٨٢. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٧؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح... ورواه الطبراني باختصار).

(٢) التغابن / ٢ .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٧ : الحديث (٦٠٩٠). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٤٦).

(٤) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٢.

وَقِيْلَ: السابقُ الذي اشتغلَ بمَعادِهِ، والمقتصدُ بمَعَـادِهِ ومعاشِـهِ، والظـالِمُ الـذي اشتغلَ بمعاشهِ عن معـادِهِ. وَقِيْـلَ: الظـالِمُ طـالِبُ الدُّنيـا، والمقتصـدُ طـالبُ العُقبَـى، والسابقُ طالب المولَى. وَقِيْلَ: الظالِمُ الْمُرائِي في جميعِ أفعالِهِ، والمقتصدُ المرائِـي في بعـضِ أفعالِهِ دون بعضٍ، والسابقُ المخلِصُ في أفعالِهِ كلِّها. وَقِيْلَ: الظـالِمُ مَـن كـان ظـاهرُهُ خيراً من باطنِهِ، والمقتصدُ من استوَى ظاهرُهُ وباطنه، والسابقُ الـذي باطنُـهُ خيرٌ مـن ظاهرِهِ. وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يجزَعُ عنـد البـلاءِ، والمقتصـدُ الـذي يصـبرُ عنـد البـلاءِ، والسابقُ الذي يتلَذذُ بالبلاءِ!

وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يَعبدُ اللهَ خَوفاً من النار، والمقتصـدُ الـذي يعبـدُهُ طَمعـاً في الجنَّة، والسابقُ الذي يعبدُهُ لا لسببٍ من الأسباب إلاَّ لرحمتِهِ الكريم! وَقِيْــلَ: الظـالِمُ الذي يعبدُ اللهَ على الغفلةِ، والمقتصدُ الذي يعبدُهُ على الرَّغبةِ، والسابقُ الـذي يعبـدُهُ على الهيبةِ. وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي أُعطِيَ فمنعَ، والمقتصدُ الذي أُعطِـيَ فبـذلَ، والسـابقُ الذي أُعطِيَ فشَكرَ.

وَقِيْلَ: الظالِمُ غافلٌ، والمقتصدُ طـالبٌ، والسـابقُ واصـلٌ. وَقِيْـلَ: الظـالِم مَـن استغنَى بمالِهِ، والمقتصدُ من استغنَى بدينِهِ، والسابقُ مَن استغنَى بربـه. وَقِيْـلَ: السـابقُ الذي يدخلُ المسجدَ قبلَ الأذان، والمقتصدُ الذي يدخلُ وقتَ الأذان، والظـالِمُ الـذي يدخلُ وقتَ أُقيمَتِ الصلاة! وَقِيْلَ: الظالِمُ الذي يحبُّ نفسَـهُ، والمقتصـدُ الـذي يحب دِينَهُ، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّهُ. وَقِيْلَ: الظالِمُ مدعوٌّ، والمقتصـد مـأذونٌ لـه، والسـابق مقرَّبٌ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ ؛ يعـني الأصنـافَ الثلاثـةَ: الظـالِمُ؛ والمقتصـدُ؛ والسـابقُ. ومعنـى الآيـةِ: (جَنَّـاتُ عَـدْن) أي بسـاتينُ إقامــةٍ لا تــزول، ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ ؛ أي يُلبَسُونَ أَقْلُبَةً من ذهبٍ وسِوَارُ القُلْبِ(١). وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ بالكسرِ فالمعنى مِـن ذهبٍ ومن لؤلؤٍ، ومَن قرأ بالنصب فمعناهُ: ويحلَّونَ لُؤلُؤاً.

---

(١) القُلْبُ من السِّوار: ما كان قَلْباً واحد؛ ما كان قَلْداً واحداً، أي ما كان مَفْتُولاً مِن طاقٍ واحـدٍ لا مِن طاقين. مختار الصحاح: ص٥٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ ؛ أي يقولون بعدَ دُخولِهم الجنَّةَ: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) أي حَزَنَ الموتِ وأهوالَ يوم القيامة، وَقِيْلَ: حَزَنَ المعاشِ وهمومَ الدُّنيا، فإنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ. وقال عكرمةُ: (حَزَنَ الذُّنوب وَالسَّيِّئَاتِ).

وعن ابنِ عُمر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لَيْسَ عَلَى أهْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ، وَلاَ فِي مَحْشَرِهِمْ، كَأَنِّي بأهْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَهُمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ عن الذنوب، يقبَلُ اليسيرَ من العملِ، ويعطِي الجزيلَ من الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ ؛ أي دارَ المقامِ وهي الجنةُ، ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، بتفضُّلِهِ لا بالأعمال. وسُمي دارَ المقامةِ لأن مَن دخلَها يخلدُ لا يموت، ويقيمُ فيها لا يحوَّلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ ؛ أي لا يمسُّنا فيها تعبٌ؛ ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي مشقَّةٌ وتعبٌ وإعياء وفتور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي الذين كفَروا بمُحمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ لَهم في الآخرةِ نارُ جهنم، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ ﴾ ؛ فلا يُقضى عليهم بموتٍ فيستريحون من العذاب، ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ؛ من عذاب النار طَرفةَ عَينٍ. قرأ الحسنُ: (فَيَمُوتُونَ) بالنُّون ولا يكون حينئذٍ جَواباً للنفيِ، والمعنى: لا يُقضَى عليهم ولا يَموتُونَ كقولِهِ ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يُجزَى في الآخرةِ كلُّ كفورٍ بنِعَمِ الله تعالى. قرأ العامَّة (نَجْزِي) بالنون ونصب اللام، وقرأ أبو

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج ١٠: الحديث (٩٤٧٤). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٣٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم).

(٢) المرسلات / ٣٦ .

عمرٍو وحده بضم الياءِ وفتح الزاي على ما لَم يسمَّ فاعلهُ ورفعَ اللامَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ ؛ أي يستَغِيثُونَ في النار وهو افتعالٌ من الصُّراخِ يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ ؛ من النار، ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ ؛ أي بقولُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ؛ أي غيرَ الشِّركِ. فوبَّخهم اللهُ تعالى فقال: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، معناهُ: أولَمْ نُعمِّركُم مقدارَ ما يتَّعِظُ فيه مَن كان يريدُ أن يتَّعظَ ويؤمِنَ. قال عطاءُ: (يُريدُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَنَةً)، وقال الحسنُ: (أرْبَعِينَ سَنَةً)، وقال ابنُ عبَّاس: (سِتِّينَ سَنَةً)[2].

قالَ: (هُوَ الْعُمُرُ الَّذِي أعْذرَ اللهُ إلَى ابْنِ آدَمَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أعْذرَ اللهُ إلَيْهِ فِي الْعُمُرِ])[3]. وعن أبي هُريرةَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلَى السَّبْعِينَ، وَأقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلِكَ][4]. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مُنْزِلُ مَنَايَا أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلَى السَّبْعِينَ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ ؛ قال جمهورُ المفسِّرين: يريدُ النبيَّ ﷺ. ورُوي عن عكرمةَ وسُفيان بن عُيينة: (الْمُرَادُ مِنَ النَّذِيرِ الشَّيْبُ) وَمَعْنَاهُ: أوَلَمْ نُعمِّركُم حتى شِبتُم ؟. وعن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: [مَنْ أنَافَ سِنُّهُ عَلَى أرْبَعِينَ سَنَةً وَلَمْ تَغْلِبْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إلَى النَّار][6].

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٠٠-٣٠١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: الحديث (٦٤١٩).

(٤) رواه الترمذي في السنن: كتاب الدعوات: الحديث (٣٥٥٠). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٢٣٦). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٥١).

(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٤٢٦٩٦).

(٦) في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٢ ص١٧١؛ قال الطبري: (وأشبه الأقوال بتأويل الآية، إذا كان الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ خبراً في إسناده بعض من يجب التثبت في نقله، قول قال ذلك، أربعون سنة؛ لأن في الأربعين يتناهى عقل الانسان وفهمه، وما قبل ذلك وبعده منتقص عن كماله في حال الأربعين).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي فذُوقُـوا العذابَ فما للمُشركين من مانعٍ يَمنعُهم من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي عالِمُ سِرِّ أهلِ السمواتِ والأرض، إنه عليمٌ بما في القُلوب من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ؛ أي جعلَكـم خُلفـاءَ عن مَن كان قبلَكم أمَّةً بعد أمـةٍ، وقَرناً بعـد قـرن، ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي إلاَّ نَقصـاً، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ ﴾ ؛ أي خَبرُوني عن شُركائِكم الذين أشرَكتُموهم مع اللهِ في العبادةِ؛ بأيِّ شـيءٍ أوجَبْتُـهم لَـهم شركاءَ مع اللهِ تعالى؟ بخلقٍ خلَقوهُ من الأرضِ؛ أم لَهم نصيـبٌ في خلـق السَّمواتِ؛ أم أعطينَـاهم كِتَابـاً فيـه مـا يدَّعُونَـهُ فـهُم علـى بيِّنةٍ منـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾(1)؛ ولكن مـا يَعِـدُ الظـالمون بعضَـهم بعضاً إلاّ خِدَاعاً وأباطيلَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ ﴾ ؛ أي مَنَعهما من الزَّوال والذهاب، ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ ﴾ ؛ أي ولَو زالَتا عن أماكنِها لَـمْ يُمسِكْهُما أحـدٌ غـيرُ اللهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي حَليماً عن مقالةِ الكفَّار، غفُوراً لِمَن تابَ منهم، والحكيـمُ هـو القادرُ الذي لا يعجِّلُ بالعقوبةِ، والغفورُ كثيرُ الغُفران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي حَلَفَ كفارُ مكَّة باللهِ غايةَ أيْمانِـهم قبـلَ أنْ يأتيـهم مُحمَّـداً ﷺ، ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ؛ أي رسـولٌ، ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ ﴾ ؛ أي ليكونُنَّ أسرعَ إجابةً وأصـوبَ دِينـاً مـن

(١) في المخطوط كلمة غير مفهومة: (أي الآولاذاك).

إحدَى الأُمم، اليهودُ والنصارَى والصَّـابئين وغـيرهم، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ؛ يعـني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ عن الحقِّ وتباعداً عن الهدى، وقولـهُ تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ منصوبٌ على أنه مفعولٌ لـه (أيْ مَـا زَادَهُـمْ إلاَّ نُفُوراً). الاستكبارُ في الأرضِ عُتُوّاً على اللهِ وتكبُّراً عن الإيمان، وَقِيْلَ: على البدلِ مِن قوله (نُفُوراً). وَقِيْلَ: على المصدر.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ ؛ أي القصدَ أي الإضرارَ بالنبيِّ ﷺ وأصحابـهِ من حيث لا يشعُرون. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ؛ أي لا يحيقُ ضررُ المكر السيِّء إلاَّ بفاعلهِ، فقُتِلُوا يومَ بدر، والمكرُ السيِّء هو العمـلُ القبيـح، وقولهُ تعالى (وَلاَ يَحِيقُ) أي ولا يحِلُّ ولا ينْزلُ إلاَّ بأهله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ؛ أي ما ينظرُ أهـل مكَّـة إلاَّ أن ينْزلَ بهم العذابُ مثلِ ما نزلَ بمَن قبلَهم من الأُمَم السَّالفة المكذِّبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يقـدرُ أحـدٌ أن يُحوِّلَ العذابَ عنهم إلى غيرهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ معناهُ: أوَلَمْ يُسافِروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ صارَ آخرُ أمرِ الَّذين من قبلِـهم عند تكذيبِهم الرسُلَ كيف فعلَ اللهُ بهم؟ ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ ؛ مـن أهـلِ مكَّـة، ﴿ قُوَّةً ﴾ ؛ ومكَّن لَهم ما لَم يُمكِّن لهؤلاء. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لن يُعجزَهُ أحدٌ من الخلق في السَّموات ولا في الأرض، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي عَليماً بخلقهِ، قادراً عليهم.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ؛ أي لو يُؤاخِذُهم بما كسَبوا من المعاصِي ما تـركَ علـى ظهـر الأرض من دابَّة، ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ ؛ بفضلهِ، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ إلى وقتٍ معلـوم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ ؛ فـإذا جـاءَ ذلـك الوقـتُ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ يفعلُ به ما يستحقُّونَهُ من ثوابٍ وعقابٍ.

آخر تفسير سورة (**فاطـــر**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ يَس

سُورَةُ يس مَكِيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافِ حَرْفٍ، وَسَبْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثَةٌ وَثَمَانُونَ آيَةً. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس، فَمَنْ قَرَأَهَا كَانَ كَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ](١).

وَقَالَ ﷺ: [وَهِيَ تَشْفَعُ لِقَارِئِهَا وَتَسْتَغْفِرُ لِمُسْتَمِعِهَا، يس تُدْعَى الْمُعِمَّةُ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُعِمَّةُ ؟ قَالَ: [تَعُمُّ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَتُدْعَى الدَّافِعَةُ وَالْقَاضِيَةُ، تَدْفَعُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَتَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا عَدَلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حَجَّةً، وَمَنْ قَرَأَهَا كَانَ كَمَنْ لَهُ أَلْفُ مِثْقَالٍ يُنْفِقُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ كَتَبَهَا وَشَرِبَهَا دَخَلَ جَوْفَهُ أَلْفُ دَوَاءٍ وَأَلْفُ يَقِينٍ وَأَلْفُ زُلْفَةٍ وَأَلْفُ رَحْمَةٍ! وَنُزِعَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَغِلٍّ](٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ يس يُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأُعْطِيَ مِنَ الآخِرَةِ كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنَى عَشْرَةَ مَرَّةً. وَأَيُّمَا مَرِيضٍ قُرِئَ عِنْدَهُ سُورَةُ يس نَزَلَ عَلَيْهِ بِعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ أَمْلاكٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفاً، فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب فضائل القرآن: الحديث (٢٨٨٧)، وقال: (هذا حديث غريب وفي إسناده هرون أبو محمد، شيخ جهول، وفي الباب عن أبي بكر ولا يصح من قبل إسناده، وإسناده ضعيف).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي من حديث عائشة، الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ مسنداً). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٣؛ قال السيوطي: (وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال...) وذكره. وقال البيهقي: (تفرَّد به محمد بن عبدالرحمن عن سليمان بن رفاع الجندي، وهو منكر). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن: الحديث (٢٤٦٥).

وَيَشْهَدُونَ قَبْضَهُ وَغَسْلَهُ، وَيُشَيِّعُونَ جَنَازَتَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَشْهَدُوا دَفْنَهُ، وَأَيُّمَا مَرِيضٍ قَرَأَ سُورَةَ يس وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَوْ قَرِيبٍ عِنْدَهُ، لَمْ تُقْبَضْ رُوحُهُ حَتَّى يَجِيئَهُ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ بِشَرْبَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُهَا فَيَمُوتُ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيُبْعَثُ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيُحَاسَبُ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّانُ، وَيَرِدُ[(١)] إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ﴿١﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ: يَا إِنْسَان)[(٢)]، يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ، وقال أبو العاليةِ: (يَا رَجُلُ)، وقال سعيدُ بن جبير: (يَا مُحَمَّدُ ﷺ)[(٣)]، قرأ أبو عمرو وحمزةُ وعاصم بإظهار النُّون[(٤)]، وقرأ عيسَى بن عمر (يس) بالنصب تشبيهاً بأَيْنَ وكيفَ، وقرأ ابن أبي إسحق (يس) بكسر النُّون تشبيهاً بأمسِ وحذامِ وقِطَامِ، وقرأ هَارون الأعور بضمِّ النون تشبيهاً بمُنذُ وحيثُ وقطُّ، وقرأ الآخَرون بإخفاءِ النُّونِ[(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي الْمُحْكَم من الباطل، وَقِيْلَ: أحكِمَ بالحلال والحرام والأمر والنهي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ وذلك أنَّ كفارَ مكَّة قالوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ: لَسْتَ مُرْسَلاً، فأقسمَ اللهُ تعالى بالقرآن الحكيم إنَّكَ مُرسَلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾؛ يعني دينِ الإسلامِ وطريقِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذين مَضَوا قبلَكَ.

---

(١) في المخطوط كلمة: (ويرد) غير واضحة.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٢٢١ و٢٢٢٢٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٠٢٤).

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٧٥.

(٤) إظهار النون: (يسن)

(٥) ذكر القرطبي أيضاً هذه القراءات مختصرة في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي هـو تـنْزيلُ العزيــز في مُلكهِ، الرحيمِ بخلقهِ، قال مقاتلُ:(مَعْنَاهُ: هَذا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)[1]. وقولُ ابنِ عامر وأهلِ الكوفة(تَنْزِيلَ) بالنصب علىالمصدر، كأنَّهُ قالَ: ونزَّلَ تَنْزِيلاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ ؛ مُتَّصلٌ بقولـهِ (إنَّـكَ لَمِـنْ الْمُرْسَلِينَ) لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أنْذِرَ آبَاؤُهُمْ؛ أي لتُنذِرَ قوماً لم يأتِهم نذيـرٌ قبلَـك[2]؛ لأنَّـهم كانوا في الفَتْرَةِ وهو معنى قولهِ: ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي عن حُجَجِ التَّوحيدِ وأدلَّةِ البعثِ، وَقِيْلَ: (فَهُمْ غَافِلُونَ) عن أمرِ الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لقد حقَّتْ كلمةُ العذاب على أهلِ مكَّة لكثرة كفرهم[3] فهم لا يُصدِّقون، وهذا إخبارٌ عن علمِ الله فيهم أنَّهم لا يُؤمنون، فقُتِلوا يومَ بدرٍ على الكُفرِ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ ؛ أي في أعناقِـهم وأيمانِــهم أغْلالاً. ولَم يذكُرِ الأيمانَ في الآيةِ لأنَّ الكلامَ دليلٌ عليهِ؛ لأن الغُلَّةَ لا يكون في العنُقِ دون اليدِ، ولا في اليدِ دون العنُق، وإنمـا تُغَـلُّ الأيـدي إلَـى الأعنـاق. وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ ؛ كنايةٌ عن الأيدِي دون الأغلال، وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي رَافِعُوا رؤوسِهم، والْمُقْمَحُ: الرافعُ رأسَهُ الغاضُ بصرَهُ.

واختلَفُوا فيمَنْ نزلت هذه الآيةُ، فرُوي عن ابن عبَّـاس: (أنَّ الآيَـةَ نَزَلَـتْ فِـي قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّار فِيْهِمْ أبُو جَـهْلٍ، تَوَاطَـؤا عَلَـى أنْ يَقْتُلُـوا النَّـبيَّ ﷺ إذا رَآوْهُ يُصَلِّـي، وَحَلَفَ أبُو جَهْلٍ أنَّهُ إذا رَآهُ يُصَلِّي لَيَدْمَغَنَّهُ بالْحَجَرِ، فَأتَوْهُ يَوْماً وَهُـوَ يُصَلِّـي، فَجَـاءَهُ أبُو جَهْلٍ وَمَعَهُ الْحَجَرُ، فَرَفَعَ الْحَجَرَ لِيَدْمَغَـنَّ بـهِ النَّـبيَّ ﷺ فَيَبسَـتْ يَـدُهُ إلَـى عُنُقِـهِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨١.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٥٩؛ قال النحاس: (﴿مَا﴾ لا موضع لها مـن الإعـراب عند أكثر أهل التفسير؛ لأنها نافيـة) ورجـح هـذا الوجـه الزجـاج كمـا في معـاني القـرآن وإعرابـه: ج ٤ ص٢١٠.

(٣) في المخطوط: (لكثرة بكفرهم).

وَالْتَزَقَ الْحَجَرُ إلَى يَدِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلَى أصْحَابِهِ خَلَّصُوا الْحَجَرَ، فَأخْبَرَهُمْ بِأمْرِ الْحَجَرِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُغِيرَةَ: أنَا أقْتُلُهُ! وَأخَذَ الْحَجَرَ وَدَنَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَطَمَسَ اللهُ عَلَى بَصَرِهِ فَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَكَانَ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ).

فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي جعَلنا من بين أيديهم غطاءً وسَدّاً ومِن خلفِهم كذلكَ فأغشَينا أبصارَهم حتى لم يَرَوا.

قال الفرَّاءُ: (مَعْنَى أغْشَيْنَا: ألْبَسْنَا أبْصَارَهُمْ غِشْوَةً أيْ عَمًى)[1]، وعن ابنِ خُثَيم قالَ: (سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقْرَأ (فَأعْشَيْنَاهُمْ) بالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ)[2]، ورُوي ذلك عن ابن عبَّاس أيضاً[3]، وقال الحسنُ: (هَذا عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ) وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ أرَادُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا كَمَنْ غُلَّتْ يَدُهُ إلَى عُنُقِهِ لاَ يُمْكِنُهُ أنْ يَبْسُطَهَا إلَى شَيْءٍ، وَهُوَ طَافِحٌ رَأسُهُ لاَ يُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ، قَدْ سُدَّ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ فِي الذهَاب وَالرُّجُوعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن أضَلَّهُ اللهُ هذا الضلالَ لم ينفعْهُ الإنذارُ، ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ معناهُ: إنما ينفع الإنذارُ مَن اتَّبعَ القرآنَ، ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ أي وخافَ من اللهِ بحيث لا يراهُ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ ؛ لذنوبه، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ وثوابٍ حسَنٍ في الجنَّة.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٧٣.

(٢)ذكره الثعلبي عن عكرمة بإسناد آخر، كما في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٢٢. وفي المخطوط: (خضيمة) والصحيح هو ابن خثيم، عبدالله بن خثيم القارئ المكي. ينظر: لسان الميزان: ج ٧ ص٤٩٣: الرقم (٥٧٤٧). وتهذيب التهذيب: ج ٤ ص٣٩٣: الرقم (٣٥٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان معلقاً، وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٠؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر (فَأعْشَيْنَاهُمْ) بالعين غير المعجمة من العَشاء، وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ ؛ أي ما أسلَفُوا من الخيرِ والشرِّ، وقولُه تعالى: ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ ؛ أي خُطَاهُم، فإنَّ كلَّ خُطوةٍ في الطاعةِ طاعةٌ، وكلَّ خطوةٍ في المعصيةِ معصيةٌ. وَقِيْلَ: معنى (وَآثَارَهُمْ) أي ما استَنَّ به مَن بعدَهم، قال النبيُّ ﷺ: [مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أجْرُهَا وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) ﴾ ؛ أي وكلَّ شيءٍ من الأعمالِ أثبتناهُ في اللوحِ المحفوظِ. وَقِيْلَ: أرادَ بالإمامِ المبين: الصحائفَ التي يكتبُها الملائكةُ، وسُمي الإمامُ مُبيناً لأنه لاَ يَنْدَرِسُ أثرُ مكتوبه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ ؛ أي مثل لأهلِ مكَّة مثل، ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ ؛ يعني إنطاكيَّةَ؛ ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) ﴾ ، رسُل اللهِ تعالى، ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) ﴾ .

وذلك أنَّ عيسى عليه السلام أرسَلَ إلى أهلِ إنطاكيَّةَ رسُولَين من الحواريِّين ليدعُوهم إلى عبادةِ الله تعالى. وإنَّما أُضيفَ الإرسالُ في الآيةِ إلى اللهِ تعالى لأنَّ إرسالَهُ كان بأمرِ الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) ﴾

والقصَّةُ: أنَّ عيسى عليه السلام لَمَّا بعثَ الرسولَين إلى أنطاكيَّة وقرُبَا من المدينةِ، وجَدَا شَيخاً كَبيراً يرعَى غُنَيمَاتٍ له وهو حبيبُ النجَّار فسلَّما عليه، فقالَ لهما: مَن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص٣٣٠: الحديث (٢٣٧٢-٢٣٧٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب الحث على الصدقة: الحديث (٦٩/ ١٠١٧).

أنتُما ؟ قالاَ: رسُولاَ عيسَى ﷺ ندعُوكم إلى عبادةِ الله تعالى، قالَ: هل معَكُما آيــةٌ ؟ قالاَ: نَعَمْ؛ نَشفِي المريضَ ونُبرئُ الأكْمَهَ والأبرصَ بإذنِ الله تعالى. فقالَ الشيخُ: إنَّ لِي إبناً مَريضاً صاحبَ فِراشٍ منذُ سِنِينَ، قالاَ: فَانطَلِقْ بنا إليهِ.

فانطلقَ بهما إليه، فمَسَحا ابنَهُ فقامَ من ساعتهِ صَحيحاً بــإذنِ الله تعــالى. ففشَــا الخبرُ في المدينةِ، وشفَى اللهُ على أيدِيهما كثـيراً مـن المرضَـى، وآمَـنَ حبيـبُ النجَّـار، وجعلَ يعبدُ اللهَ تعالى في غارِ جَبَلٍ في أبعدِ أطرافِ المدينة.

فسمعَ المَلِكُ بخبرِ هذين الرَّسولَين، وكان يعبدُ الأصنامَ، فدعَا لَهما فأتياه، فقالَ لَهما: مَن أنتُما؟ قالاَ: رسولاَ عيسَــى ﷺ ندعُـوكَ إلى عبـادةِ الله تعـالى، قــال: ومـا آيَتُكما؟ فقالاَ: نُبرئُ الأكمَهَ والأبرصَ، فغَضِبَ الملِكُ وأمرَ بهما فحُبسَـا، وجُلِـدَ كـلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ.

فلمَّا كُذِّبَ الرسُولاَن، بعثَ عيسى رسُولاً ثالثاً يقالُ له: شَمعون المصفِّي علـى إثرهما لينصُرَهما، فدخلَ شَمعونُ البلدَ متنكِّراً، وجعلَ يعاشِرُ حاشيتَهُ حتى أفشَوا به، فرُفِعَ خبرُهُ الى الملِكِ فدعاهُ فأكرمَهُ وأنِسَ بهِ. فقالَ له ذاتَ يومٍ: أيُّها الملِكُ؛ بلَغَني أنَّكَ حبستَ رجُلَين في السِّجن وضَربتَهُما حين دعَياكَ الى دينٍ غيرِ دِينـكَ، فـهل كلَّمْتَـهما وسمعتَ قولَهما؟ قالَ: لاَ، قالَ: فإنْ رأى الملِكُ أن يدعوَهُمَــا ويسـمعَ قولهمـا حتـى يطَّلِعَ على ما عندهما.

فدعاهُما الملِكُ، فقالَ لهما شمعونُ: مَن أرسلَكُما ؟ قالاَ: اللهُ الـذي خلـقَ كـلَّ شيءٍ وليس له شريكٌ. فقالَ لهما شمعون: صِفَاهُ وأوجِزَا، فقالاَ: إنه يفعــلُ مـا يشـاءُ ويحكمُ ما يريد، قال شمعونُ: وما آيَتُكما ؟ قالاَ: ما تَتمَنَّاهُ.

فأمرَ الملِكُ حتى جَاؤُا بغُلامٍ مطمُوسِ العَينَين، موضعُ العينين كـلٌّ لجِهَـةٍ، فمَـا زالاَ يدعُوَان اللهَ حتى انشقَّ موضعُ البصر، ثم أخذاَ بَندُوقَتَيْنِ فوُضِعَتـا في الحدَقَتَـين، فصارَتا مُقْلَتَيْنِ يبصرُ بهما، فعَجِبَ الملِكُ من ذلك.

فقال شمعونُ للملِك: إنْ سألتَ إلَهكَ أن يصنعَ مثل هــذا، فصَنَعَـهُ كـان لـكَ ولآلهتكَ الشرفُ. فقالَ الملِكُ: ليس لِي عَنْكَ سِرٌّ أُسِرُّه إليك: إنَّ إلَهنا الذي نعبــده لا يسمعُ ولا يبصر ولا ينفعُ.

ثم قالَ للمرسُولِين: إنَّ هنا مَيِّتاً ماتَ منذ سبعةِ أيَّام، فلم أدفِنْهُ وأخَّرتُه حتى يرجعَ أبوهُ، وكان أبوهُ غائباً، فإن قَدِرَ إلَهُكما على إحيائهِ آمنتُ بهِ. قالاَ: إنَّ إلَهنا قادرٌ على كلِّ شيء، ثم جعَلاَ يدعُوان اللهَ علانيةً، وجعلَ شمعون يدعُو ربَّهُ سِرّاً، فقامَ الميِّتُ حيّاً بإذنِ اللهِ تعالى، وقد تغيَّرَ وانتنَّ وهو يقولُ: أيُّها الملِكُ إنِّي متُّ منذ سبعةِ أيَّام، ووجدتُ مُشْرِكاً فأُدخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ من النار، فأنا أحذِّرُكم ما أنتم عليه، فآمِنُوا باللهِ واتَّبِعُوا هؤلاءِ الثلاثةَ.

فقال الملِكُ: ومَن الثلاثةُ ؟ قالَ: شمعونُ وهذان، وأشارَ الى الرَّسُولَين. فتعجَّبَ الملِكُ من ذلك، وأجمعَ هو وقومهُ على قتلِ الرُّسُلِ. فبلَغَ ذلك حَبيباً النجَّار وهو على باب المدينة الأقصى(١).

وَقِيْلَ: إنَّ الملِكَ قالَ لَهم: إنَّكم توافقتُم على هذا الكلامِ، ثم أمرَ بهم فأُخِذُوا ونُتِفَتْ حَواجِبُهم وشُعورُ أعْيُنِهِمْ، وطِيفَ بهم، فلمَّا سمعَ حبيبُ النجَّار ذلك أقبلَ مِن أبعدِ أطرافِ المدينة يسعَى؛ أي يَعْدُو ليَنصرَ الرسُلَ ويذكرهم ويدعو إلى طاعةِ المرسَلين، وذلكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ وقال حبيبُ للرُّسُل: أتريدُونَ أجْراً على ما جئتم بهِ؟ قالوا: لاَ، فقالَ لقومهِ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مُصيبُونَ في مقالَتِهم، فقالوا له: صَبَوْتَ إليهم يا حبيبُ ودخلتَ في دِينهم؟ فقالَ: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ؛ أي أيُّ شيء لِي إذا لم أعبُدْ خالِقِي، ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، أي إليه تُرجَعُونَ عندَ البعثِ فيجزيكم بكُفرِكم.

ثم إنَّ أهلَ المدينةِ قالوا: ليس الرُّسل بأولى بالنبوَّة منا فيما تقولون، قالوا: ربُّنا يعلمُ إنَّا إليكم لَمُرسَلون وما علينا إلا البلاغُ المبين، أي ليس علينا إلاَّ التبليغُ البيِّن.

(١) القصة أخرجها البغوي أيضاً كاملة في تفسيره: ص١٠٧٦-١٠٧٧.

فقال القومُ للرسل: إنا تطيَّرنا بكم، أي تشاءمنا منكم، وقد كان حُبس عنهم المطرُ، فقالوا ما أصابنا هذا الشر إلاّ من قبلكم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لئن لم تنتهوا من مقالتكم هذه لنقتلنَّكم رَجْماً وليمَسَّنكم منا عذاب، يعنون القتلَ والضربَ.

فقالت لهم الرسُل: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شُؤْمُكم معكم وهو كُفركم بالله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَئِنْ ذُكِّرْتُمْ) معناه لئن وُعِظتم بمواعظ اللهِ تشاءَمتُم بنا بما لا يوجبُ التشاؤمَ ولكن أنتم قومٌ مسرفون، متجاوزون عن الحدِّ في الذنب والمعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) يعني حَبيباً النجَّار (قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أي مَن لا يسألُكم أموالَكُم على ما جاءَكم به مِن الْهُدَى، فقالُوا له: أتَّبَعْتَهُمْ أنتَ يا حبيبُ؟ قالَ: نعَمْ (وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في الآخرةِ.

ثم أنكرَ عليهم اتخاذ الأصنامِ وعبادتَها، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، كما اتَّخذتُم، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، في جسَدِي أو في معيشَتِي، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾، لا تنفعُ عنِّي، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، يعني لا شفاعةَ لها، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ أي ولا يُخلِّصُون من ذلك المكروهِ ولا من عذاب الله، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، إنْ عبدتُ غير الله كنت إذاً في الخاطئين، ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ ؛ مقالَتِي.

وَقِيلَ: إنَّ قولَهُ (إنِّي آمَنتُ بربكُم) خطابُ المرسَلِ، قالَ لهم اسمعُوا كلاَمِي لتشهدوا لي به في الآخرةِ، فلمَّا قال هَذا وثبَ عليه قومهُ وثبةَ رجُلٍ واحد فقتلوهُ، قال ابنُ مسعودٍ: (وَوَطَؤُهُ بأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَتْ أَمْعَاؤُهُ مِنْ دُبُرِهِ، فَأَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ فَهُوَ حَيٌّ فِيهَا يُرْزَقُ)[1]، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ ؛ فلما دخلَها، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ؛

---

(١) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٢٦ بلفظ: (حتى خرجَ قُصْبُهُ – أي أمعاؤهُ – من دبره). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٩.

تَمنَّى أن يعلَمُوا أنَّ اللهَ غفَرَ له ليرغَبُوا في دينِ الرُّسلِ، والمعنى: يا ليتَ قَومِي يعلمون بغُفرانِ ربي لي وإكرامِه إيَّاي بإدخالِه لِي الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ وذلكَ أنَّهم لَمَّا قتلوهُ وغضِبَ اللهُ عليهم وعجَّلَ لهم العذابَ، ومعنَى الآيةِ: وما أنزَلنا على قومِ حبيب بإهلاكِهم من جُندٍ من السَّماء يعني الملائكةَ؛ أي لَم تنتَصِرْ منهم بجُندٍ من السَّماء، (وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) ولا كُنَّا نُنَزِّلُ ذلك بمَن قبلَهم من الأُمَمِ إذا أهلكنَاهم.

ثم بيَّن اللهُ تعالى كيف كانت عقوبتُهم وعذابُهم فقالَ تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي ميِّتون لا يتحرَّكُ منهم أحدٌ. قال المفسِّرون: أخذ جبريلُ بعضادتي باب المدينةِ وصاحَ بهم صيحةً واحدةً، فتطايرَت قلوبُهم فإذا هم ميِّتون، ولم يُسمَعْ لهم حِسٌّ، كالنار إذا طُفِئَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ قال مقاتلُ: (يَا نَدَامَةً عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ باسْتِهْزَائِهِمْ بالرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا)(١). والْحَسْرَةُ: أن يركبَ الإنسانُ مِن شدَّةِ اللَّومِ ما لا نِهايةَ بعدَهُ حتى يبقى قلبُه حَسِيراً، والعربُ إذا دعَتْ نكرةً موصولةً بشيء آثَرَتِ النصبَ، تقولُ: يا رجلاً كريماً أقْبل(٢). ثُم بيَّن اللهُ تعالى سببَ الحسرةِ فقالَ: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ معناهُ: ألَمْ يرَ أهلُ مكَّة كم أهلكنا قبلَهم من الأُمَمِ الماضيةِ فخَافُوا أن يُعجَّلَ لهم في الدُّنيا مثلُ ما عُجِّلَ لغيرِهم وهم يعلمون أنَّهم لا يُعادون إلى الدُّنيا أبداً.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٧٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي وما كـلٌّ منهم إلاَّ لدينا مُحضَرُونَ في أرضِ الْمَحشَرِ للحساب والجزاء، هذا على قراءةُ مَن قرأ (لَمَّا جَمِيعاً) بالتشديدِ، وهي قراءةُ ابنِ عامر وعاصمٍ وحمزة، وأما على قراءةِ مَن قـرأ بالتخفيفِ فإن (مَا) صلةٌ مؤكّدة، فإن (إنْ) للإثباتِ كأنه قال: وإنْ كلٌّ لَجميـعٌ لدَينا مُحضَرون[١].

ثـم وعـظَ اللهُ كفـارَ مكَّـة ليعتَـبروا فقـالَ تعـالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾ ؛ أي وعلامةٌ لَهم تدلُّهم على التوحيدِ والبعث، الأرضُ الْمَيْتَـةُ اليابسةُ التي لا نباتَ فيها ولا شجرَ (أحْيَيْنَاهَا) بإخراجِ الأشـجار والـزُّروعِ، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، مـا يُقْتَـاتُ مـن الحبـوب جمـعِ الحَــب، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ ﴾ ؛ أي في الأرضِ بسـاتين، ﴿ مِّن نَّخِيـلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي من عُيونِ الماءِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ ؛ أي من ثمر النخيلِ والأعناب على اختلاف طُعومِها وألوانِها، فيستدِلُّوا بذلك على قُدرةِ اللهِ تعالى. قرأ الأعمشُ (ثُمْـرِهِ) بضمِّ الثاء وسُكونِ الميمِ، وقرأ طلحةُ ويحيى وحمزة والكسـائي وخلـف (ثُمُـرِهِ) بضـمِّ الثاء والميمِ، وقرأ الباقون بفتحِهما[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي ومـا عملَـتْ أيديـهم شَـيئاً ممـا ذكرناهُ، وإنما هو مِــن فعلِنـا، ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ نِعَـمَ اللهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ليأكلُوا من ثَمرِهِ ومِن ثَمرِ ما عملَتْ أيديهم، يعني الغرُوسَ والحرْثَ.

قرأ أهلُ الكوفة (وَمَا عَمِلَتْ) بغيرِ هاءٍ، ويجوزُ في (مَا) ثلاثةُ أوجهٍ: النفيُ بمعنى ولَمْ تعمَلْ أيديهم؛ أي وجدُوهـا معمولـةً فـلا صُنْـعَ لَـهم فيـها، وهـذا قـولُ الضَّحـاك ومقاتل[٣]. والثاني: أن يكون بمعنى المصدر؛ أي ومِنْ عَمَلِ أيديهم. والثـالث: بمعنـى

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٧٥. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٥.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٦.

(الَّذِي) أي ومِن الذي عمِلت أيديهم من الغَرْسِ والحرثِ. ومَن قرأ (عَمِلَتْهُ) بالهـاءِ، فالهاءُ عائدةٌ على (مَا) التي بمعنى الذي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي سُبحان الذي خلقَ الأصنـافَ كلَّـها مـن أجناسِ الفواكهِ والحبوب، وأصنافِ ما تُنبتُ الأرضُ من الحلو والحـامض والأبيـضِ والأحمر وغيرِ ذلك من الطُّعوم والألوانِ. وقولهُ تعالى: (وَمِنْ أَنفُسِهِمْ) أي وخلَقَ مـن أنفُسِهم الذُّكرَانَ والإناثَ. وقوله تعالى: (وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ) أي وخلَقَ في الـبرِّ والبحـرِ وأجوافِ السَّموات والأرضِ من جميع الأنواعِ والأشياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي وعلامةٌ لَهم أخرى تدلُّ على قُدرَتِنا، الليلُ المظلم يُنْزَعُ منه النهارُ فإذا هم داخِلون في الظَّلام، وذلك أنَّ الأصلَ هو الظُّلمةُ، والنهارُ داخـلٌ عليـها لأنَّ الله خلـقَ الدُّنيـا مظلمةً، فإذا طلَعتِ الشمسُ صارت الدُّنيا مضيئةً تشبهُ ضـوءَ النـهار باللِّبـاس، فـإذا ذهبَ الضوءُ بغُروب الشمسِ كان ذهابُ ذلك بمنْزلة سَـلْخِ جلـدِ الشَّـاة عـن الشـاةِ، وسلخِ الثوب الرجُل عن الرجلِ، والمعنى: إذا غربَتِ الشمسُ سُلِخَ النهارُ مـن الليـلِ أن كشفَها فأُزيلَ فتظهرُ الظُّلمة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: وآيـةٌ لهـم (الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) أي إلى مُستَقَرٍّ لها وهو آخرُ مدَّة الدنيا ثم تجري بعدهـا، ويقالُ: مستقرُّها منازلُها إذا انتهت الى أقصَى منازلها التي لا تجاوزُها في الصيفِ رجَعـت، ويقالُ: سمعت منازلَها مستقرَّها، كما يقالُ في منْزل الرجلِ: هو مُستَقَرُّهُ، وإن تصرَّفَ فيه وتحرَّكَ.

وعن أبي ذرٍّ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَى (وَالشَّمْسُ تَجْـرِي لِمُستَقَرٍّ لَهَا) قال: [مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ][1]. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣١٩٩). ومسـلم في الصحيـح: كتـاب الإيمان: الحديث (٢٥٠/ ١٢٩).

﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي ذلك الذي سبَقَ ذِكرهُ تقديرُ العزيز في مُلكهِ، العليمُ الـذي لا يخفَى عليه شيءٌ. وفي قراءةِ ابن عبَّاس: (تَجْرِي لاَ مُسْتَقرَّ لَـهَا) أي لا قـرارَ لها فـهي جاريةٌ أبداً ما دامت الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؛ قرأ نافعُ وابـن كثير وأبـو عمـرو ويعقوب (وَالْقَمَرُ) بالرفعِ عطفاً على قولهِ (وَالشَّمْسُ تَجْرِي)، وَقِيْلَ: على الابتـداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى وقدَّرنـاهُ القمـرَ وقدَّرنـا منـازلَ، كمـا تقـولُ: زيـداً ضربتهُ.

والمعنـى: قدَّرنـا لـه منـازلَ يـنْزِلُ في كـلِّ ليلـة منْزلَـةً، وجملـةُ منـازل ثمانيـةٌ وعشرون، فإذا صارَ إلى آخر منْزله وهي ليلـةُ ثمـان وعشـرين،﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾؛ وهو عذقُ النخلةِ الذي فيه الشَّمَاريخُ إذا يَبِـسَ، ولأن العُـذْقَ إذا مضَت عليه الأيامُ جفَّ وتقوَّسَ ويَبِسَ ودقَّ واصفرَّ وصار شبهَ الأشياءِ بالقمر في أوَّل الشهرِ وآخره، لا يقدرُ على ذلك إلاَّ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾؛ يعني أنَّ الشـمسَ أبطأُ مَسِيراً من القمرِ فلا تدركهُ، وذلك أنَّ الشمسَ تقطـعُ منازلَـها في سنةٍ، والقمـرَ يقطعُ منازلَهُ في شهرٍ، وهما مسخَّران مقهوران على ما ذكرَهُما اللهُ تعالى.

ويقالُ معنى قوله: (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أنْ تُدركَ الْقَمَرَ) أي لا يدخلُ النَّـهارُ على الليلِ قبلَ انقضائهِ، ولا يدخلُ الليلُ على النهار قبلَ انقضائـهِ، كلاهُمـا يَسِيران دائِبَين، ولكلٍّ حدٌّ لا يعدوهُ ولا يقصرُ دونَهُ، فإذا جاءَ سُلطان هذا ذهـبَ ذلـك، فـإذا جاءَ سلطانُ ذلك ذهبَ هذا، فذلك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي لا تتأخَّرُ الشمسُ عن مجرَاها، فتسبقُ ظلمةُ الليلِ في وقتِ النَّهار.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي كـلٌّ مِـن الشمسِ والقمرِ والنُّجومِ الغَاربَةِ والطَّالعةِ في فَلَكٍ يَسِيرُونَ ويَجْرُونَ بالأَبْسَاطِ. والفلَـكُ: هـو مواضعُ النجومِ من الهواءِ؛ أي الذي يجري فيه، سُمِّي بهذا الاسمِ لأنه يدورُ بالنجومِ، ومنه فُلْكَةُ الْمِغْزَلِ لأنَّها تدورُ بالمغزلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وآيةٌ لَهم أخرى يعني أهلَ مكَّة تدلُّهم على توحيدِ الله تعالى: أنَّا حَمَلنا ذُرِّيَّتَـهُمْ في السَّفينةِ المملوءةِ، وهي سفينةُ نُوحٍ ، وذريَّتهُ في كلامِ العـرب: الآبـاءُ والأبنـاء والأجدادُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي وخلقنـا لهم مثلَ سفينةِ نُوحٍ ما يركبُون فيه على البحرِ، يعـني السُّـفنَ الـتي عُملـت بعـدَ سفينةِ نوحٍ على هيأتِها وصُورَتِها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي أنَّ اللهَ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَرَ تفضُّلَهُ أنَّهُ يحفظُهم، ولو شاءَ أغرقَهم فلـم يُغنِـهم أحـدٌ ولم يُنقِذْهُـم مـن الغـرق، ومعنـى قولـهِ تعـالى: (فَـلاَ صَرِيـخَ لَـهُمْ) أي فـلا مُغيـثَ لَـهم، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ من المكروهِ والغرَق.

والصَّريـخُ: بمعنـى الصَّارخِ لهـم بالاسـتغاثةِ. وَقِيـلَ: الصَّريـخُ الْمُعِـينُ علـى الصُّراخ، كأنه قالَ: فلا مُعينَ لَهم (وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ) أي ولا هم يُخلَّصُون من الغرق، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ، إلاّ أنْ تداركَهم رحمةُ اللهِ فتنقذهم إلى حين آجالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ ؛ أي وإذا قِيلَ لهؤلاءِ الكفار اتَّقُوا ما بين أيدِيكم من أمر الآخرة فاعملُوا لها، وما خلفكـم مـن أمـرِ الدُّنيا، فاحذرُوهم ولا تغـترُّوا بـها، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لتكونُـوا علـى رَجَاءِ الرحمةِ من اللهِ تعالى، وجوابُ (إذا) محذوفٌ تقديرهُ: إذا قيلَ لهم هـذا أعرضُـوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ من عِبرَةٍ ودلالـةٍ تـدلُّ على صدقِ النبيِّ ﷺ ﴿ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ؛ قال مقـاتلُ: (وَذلِـكَ أنَّ الْمُؤْمِنِـينَ قَـالُوا لِكُفَّار قُرَيشٍ: أنْفِقُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين مَا زَعَمْتُمْ مِنْ أمْوَالِكُمْ أنَّهُ للهِ، وَهُوَ مَـا

جَعَلُوهُ مِنَ حُرُوثِهِم وَأَنْعَامِـهِمْ للهِ، فَقَـالَ الْكُفَّـارُ: أَنُطْعِـمُ مَـنْ لَـوْ يَشَـاءُ اللهُ أَطْعَمَـهُ وَرَزَقَهُ)[١].

قال الحسنُ: (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ أَهْلَ إِجْبَار، فَقَالُوا: لَـمْ يَشَـأ اللهُ أَنْ نُطْعِمَـهُ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَطْعَمْنَاهُ). ويقال لهم: ظَنُّوا بجهلِهم أنه تعـالَى إذا كـان قـادراً علـى أن يُطعِمَهم فيُغنِيَهُم عن إنفاقِ الناسِ، وهذا القولُ منهم خطأً؛ لأنَّ الله تعالى أغنَى بعضَ الخلقِ وأفقرَ بعضَهم لِيَبلِيَ الغنيَّ بالفقيرِ فيما فرضَ لـه في مالـهِ مـن الزَّكـاة، والمؤمـنُ لا يَعترضُ على المشيئةِ، وإنما يوافقُ الأمرَ. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ هذا من قولِ الكفَّار للمؤمنين، يقولـون لَـهم: إنْ أنتـم في اتِّبـاعِكم مُحَمَّداً ﷺ وتركِ دِيننا إلاَّ في خطأ بيِّن.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي يقولُ كفار مكَّة: متى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنا يا مُحَمَّدُ ﷺ من القيامِ إنْ كنتم صادقِين أنتَ وأصحابُكَ أنَّا نُبعَثُ بعدَ الموتِ فأرُوني ذلكَ.

يقولُ الله تعـالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ قالَ ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي النَّفْخَةَ الَّتِي تَفْجُرُهُـمْ وَهُـمْ يَخِصِّمُـونَ فِـي أَمْـرِ الدُّنْيَـا وَفِـي مُصْرِفَاتِهِمْ)، والمعنى: تأخذُهم الصيحةُ وهم يختصِمون في البيعِ والشِّراء ويتكلَّمون في الأسواقِ والمجالسِ، وهي نفخةُ إسرافيلَ.

قِيْلَ: قرأ ابنُ كثيرٍ وورش (يَخَصِّمُونَ) بفتح الخاء وتشديد الصـاد، وقـرأ نـافعُ غيرَ ورشٍ ساكنة الخاء مشدَّدة الصادِ، وقرأ أبو عمرٍو بالإخفاءِ، وقرأ حمزةُ ساكنةَ الخاء مخفَّفة؛ أي فغلبَ بعضُهم بعضاً بالخِصَامِ، وأجودُ القراءةِ فتـحُ الخـاءِ مـع تشـديد الصـادِ، ولأن الأصلَ يختصِمون فأُلقِيَت حركةُ ألِفِ المدغَمِ على الساكنِ الذي قبلَهُ وهـو الخـاءُ، وقرأ الباقون بكسرِ الخاء وتشديدِ الصاد[٢].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٨.

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٦٨. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٠٨.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ ؛ أي فلا يستطيعُ أحدٌ أن يوصِيَ في شيءٍ من أمرِه، ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي ولا يلبثُ أحدٌ أن يصيرَ إلى منْزله وأهلهِ؛ لأنَّها تأخذُهم بغتةً فيمُوتون في مكانِهم وفي أسواقِهم.

قال النبيُّ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْباً جَدِيداً يُرِيدُ أحَدُهُمَا أنْ يَدْفَعَهُ إلَى صَاحِبِه فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَسْلِيمِهِ إلَى صَاحِبِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أهْوَى الرَّجُلُ بلُقْمَةٍ لِيَضَعَهَا فِي فِيْهِ فَيَحُولُ قِيَامُ السَّاعَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وُصُولِهَا إلَى فِيْهِ][(١)].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي ونُفِخَ في الصور نفخةَ البعثِ، فإذا هُم من القبور الى عرَصَاتِ القيامةِ يخرُجون مُسرعين، والنَّسَلاَنُ مقاربةُ الخطوِ مع الإسراعِ، ومنه نَسَلاَنُ الذِّئب وهو هَروَلَتُهُ وخببه، والأجداثُ هو القبورُ.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: إنَّما يقولُون هذا؛ لأنَّ اللهَ يرفعُ عنهم العذابَ فيما بين النَّفخَتين فيرقُدون، فلما بُعِثُوا في النفخةِ الآخرةِ وعايَنُوا القيامةَ ودعَوا بالويلِ والثُّبور، فقالوا: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ فيقولُ الملائكة: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ على ألْسِنَةِ الرُّسل أنه يبعثُكم بعد الموتِ في موعدِ البعثِ.

وقال قتادةُ: (أوَّلُ الآيَةِ لِلْكَافِرِينَ وَآخِرُهَا لِلمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ الْكَافِرُ: يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا، وَقَالَ الْمُسْلِمُ: هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)[(٢)]. ويجوزُ أن يكون قولهُ هذا من نعتِ الْمَرْقَدِ، كأنَّهم يقولون: مَن بعثَنا من مرقدِنا هذا الذي كنَّا راقدين فيهِ ؟ فيقالُ لَهم: ما وعدَ الرحمنُ الذي بعثَكم. ويجوزُ أن يكون ما وعدَ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: الحديث (٦٥٦٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة: الحديث (١٤٠/ ٢٩٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٣٤٧).

الرحمنُ على هذا القولِ خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرهُ: حقٌّ ما وعدَ الرحمنُ، وهذا ما وعدَ الرحمنُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ هذا في النفخةِ الثانيةِ؛ أي ما كانت نفخةُ البعثِ إلاّ صيحةً واحدةً لا تُثنّى، فإذا هم الأوَّلون والآخرون في عرَصَاتِ القيامةِ مُحضَرون، فإهلاكُهم كان صيحةً واحدة، وبعثُ الخلائقِ كلّهم كان صيحةً واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ ؛ أي لا ينقَصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يُزادُ على سيِّئات أحدٍ، ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، ولا يُجزَى كلُّ عاملٍ إلاّ ما عَمِلَ من خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن أصحابَ الجنَّة في الآخرةِ في شُغْلٍ فاكِهُونَ. قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرو بجزمِ الغَينِ، وقرأ الباقون (فِي شُغُلٍ) بضمِّ الغينِ، وهما لُغتان مثلُ: السُّحْتِ وَالسُّحُتِ[(١)].

واختلفَ المفسِّرون في شُغلِهم، قال مقاتلُ: (شُغِلُوا بافْتِضَاضِ الْعَذارَى عَنْ أهْلِ النَّار فَلاَ يَذْكُرُونَهُمْ وَلاَ يَهْتَمُّونَ بهِمْ)[(٢)]. وقال الحسنُ: (شُغِلُوا بمَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النِّعَمِ عَنْ مَا فِيْهِ أهْلُ النَّار مِنَ الْعَذاب)[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أبْكَاراً][(٤)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاكِهُونَ) أي أصحابُ فاكهةٍ، كما يقالُ: شَاحِمٍ لاَحِمٍ[(٥)]؛ أي ذُو شحمٍ ولحمٍ، وعاسِلٍ ذو عَسلٍ، وقرأ أبو جعفر

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٧١.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٣٥٣).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤١٧؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الصغير، وفيه معلى ابن عبدالرحمن الواسطي، وهو كذاب).

(٥) في المخطوط تحريف: (شاخ لاخ).

(فَكِهُونَ) بغيرِ ألفٍ، والفَكِهُ: الفرِحُ الضَّحُوكُ، الطيِّبُ النفسِ، ويقالُ: فَاكِهٌ وفَكِهٌ كحَاذِرٍ وحَذِرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ ﴾ ؛ أي هُم وحَلائِلُهم في ظِلاَلِ أشجار الجنَّة، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، على السُّرُرِ في الحجَالِ جالسُون بالاتِّكَاءِ جلسة المُلوكِ. والأرائِكُ: هي السُّرُرُ عليها الحجَالُ، وقولهُ تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ ؛ أي لَهم في الجنَّة ألوانُ الفواكهِ، ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ولَهم ما يتمنُّون ويسألُون، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَلَهُمْ مَا يُرِيدُونَ)[1]. وَقِيلَ: معناهُ: مَن ادَّعى شيئاً فهو لهُ يحكمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لأنَّهم ما يدَّعون إلاَّ ما يحسنُ.

وقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي لهم سَلامٌ يسمعونهُ من اللهِ، ويُعلِمُهم بدوامِ الأمنِ والسلامة مع سُبوغ النعمة والكرامةِ. ويقالُ: تُحَيِّيهم الملائكةُ عن اللهِ تعالى، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾[2].

وعن جابر بن عبدِالله قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بَيْنَمَا أهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إذا سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَيَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فإذا الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ الْجَنَّةِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) فَيَنْظُرُ إلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إلَيْهِ، فَلاَ يَلْتَفِتُوا إلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إلَيْهِ حَتَّى يُحْجَبَ عَنْهُمْ، فَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ عناهُ: تفرَّقُوا، وقال السديُّ: معناهُ: (كُونُوا عَلَى حِدَةٍ)[4]، ومقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اعْتَزِلُوا الْيَوْمَ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٨٩.

(٢) الرعد / ٢٣-٢٤.

(٣) رواه ابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (١٨٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٣.

مِنَ الصَّالِحِينَ)[(١)]. وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: تَفَرَّدُواْ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)[(٢)]. ومعنى الآيةِ: أنه يقالُ للمُجرمين: تَمَيَّزُوا عنِ المؤمنين، وذلك أنَّ الخلقَ كلَّهم يُحشَرون مختلطِين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ ؛ أي ألَمْ آمُرْكُم وأوصِ إليكم، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: أَلَمْ أُقَدِّمْ لَكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ يَا بَنِي آدَمَ أنْ لاَ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ، أيْ لاَ تُطِيعُواْ الشَّيْطَانَ، وَمَنْ أطَاعَ شَيْئاً فَقَدْ عَبَدَهُ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي عدوٌّ ظاهرُ العداوةِ، أخرجَ أبويكم من الجنَّةِ، ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ﴾ ؛ أي أطِيعُونِي ووحِّدونِي، ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي طريقٌ مستقيم قائمٌ، يعني دينَ الإسلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ ؛ أي ولقد أضَلَّ الشيطانُ منكم أُمَماً كثيرةً، وَقِيْلَ: خَلْقاً كثيرا.

قرأ عليٌّ ﷺ (جِبْلاً كَثِيرا) بسكون الباءِ مخفَّفاً، وقرأ عاصمُ ونافع وأيوب: (جِبِلاًّ) بكسرِ الجيم والباءِ وتشديد اللامِ. وقرأ يعقوبُ بضمِّ الجيمِ والباء وتشديدِ اللام، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو: (جُبْلاً) بضمِّ الجيمِ وسكون الباء مخفَّفاً، وقرأ الباقون بضمِّ الجيمِ والباء وتخفيفِ اللام، وكلُّها لغاتٌ، ومعناها الخلقُ والجماعةُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي أفلَم تعقِلُوا ما رأيتُم من الأُمَمِ إذ أطَاعُوا إبليسَ وعَصَوا الرَّسُولَ فأهلكُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ لهم حين دَنَوا من النار: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) بها في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٠.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢٠، ولفظه: (انفردوا).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢٠؛ قال الزجاج: (ومعناه: ألم أتقدم إليكم بعهدِ الإيمان وترك عبادة الشيطان).

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي إلزَمُوها اليومَ بكُفرِكم، وقَاسُوا حرَّها، وقولهُ تعالى (الْيَوْمَ) يعني يومَ القيامةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم يُنكِرُون الشِّركَ فيقولون: واللهِ ربنا ما كُنَّا مُشركين، فيختِمُ اللهُ على أفواهِهم، ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ ؛ وتكلَّمت جوارحُهم فشَهِدَتْ عليهم بما عَمِلوا، وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ قال عقبةُ بن عامرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [أوَّلُ عَظْمٍ يَنْطِقُ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ مِنْ رجْلِهِ الشِّمَالِ](١). ورُوي عن النبيِّ ﷺ قال: [أوَّلُ مَا تَكلَّمَ مِنَ الإنْسَانِ فَخِذُهُ وكَفُّهُ](٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ ﴾ ؛ أي ولو نشاءُ ذهَبنا أعيُنَهم وجعلنَاها بحيث لا يبدُو لها شِقّاً ولا جِفْناً، والمعنى: ولو نشاءُ لأعمَيناهُم في أسواقِهم ومجالسِهم بتكذيبهم إيَّاكَ يا مُحَمَّدُ كما فعَلنا بقومِ لُوطٍ حين رَاوَدُوهُ عن ضَيفِهِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ؛ فغَلَبُوا السَّبقَ وتبادَرُوا إلى الطريقِ إلى منازلهم، ﴿ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لو فعَلنا ذلك بهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ ﴾ ؛ أي في منازلِهم فصيَّرناهم قردةً وخنازيرَ وحجارةً ليس فيها روحٌ، ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يقدِرُون على ذهابٍ ومجيءٍ، والْمَسْخُ في اللغة نِهايَةُ التبديل.

قولهُ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ ﴾ ؛ أي ومَن نُطوِّلُ عُمرَهُ في الدُّنيا نردهُ إلى الحالةِ الأُولى من الضَّعفِ، قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: مَنْ أطَلْنَا عُمْرَهُ نَكَّسْنَا خَلْقَهُ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٥١. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣١٩٨. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٥١؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني وإسنادهما جيد).

(٢) رواه الطبراني في كتاب الأوائل: ص٧٩. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٥١؛ قال الهيثمي: (رجاله ثقات). وفي المخطوط تحريف، قال: [وكَتِفهُ] والصحيح ما أثبتناه.

فَصَارَ بَدَلُ الْقُوَّةِ ضَعْفاً، وَبَدَلُ الشَّبَاب هَرَماً)(١) ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ؛ أن القادرَ على ردِّ البشرِ من حالة القوَّة والكمال؛ أي حالِ الضَّعفِ وزوالِ العقل، قادرٌ على إعادةِ الخلقِ بعد الموت.

ومَن قرأ (تَعْقِلُونَ) بالتاءِ فهو على مُخاطَبة الكفار. قرأ عاصمٌ وحمزة والأعمش: (نُنَكِّسْهُ) بالتشديدِ، وقرأ غيرُهم بالتخفيفِ وفتح النونِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ ؛ إن كفارَ مكَّة قالُوا للنبيِّ ﷺ: إنه شاعرٌ، وإنَّ القرآنَ شِعرٌ، فأكذبَهم اللهُ بقولهِ تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) أي وما يتسهلُ له ذلك، وما كان يتَّزِنُ له بيتُ شِعرٍ جرَى على لسانهِ مُنكِراً.

قال الحكيمُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَمَثَّلُ بقَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسَ:

أَتَجْعَلُ نَهْبي وَنَهْبَ الْعُبَـ ... ـدِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وعُيَيْنَة

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا هُوَ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ، فَقَامَ إلَيْهِ أبُو بَكْرٍ وَقَبَّلَ رَأسَهُ وَقَالَ: صَدَقَ اللهُ ﴿وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾(٢).

وعن الحسنِ ﷺ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذا الْبَيْتِ: [كَفَى بالإسْلاَمِ وَالشَّيْب لِلْمَرْءِ نَاهِياً] فَقَالَ أبو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ إنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ (كَفَى الشَّيْبُ وَالإسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِياً)(٣) فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٢١.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد عن عبدالرحمن بن أبي الزناد). والبيت للعباس بن مرداس:

فَأَصْبَحَ نَهْبي وَنَهْبُ الْعُبَـ ... ـيْدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

(٣) للشاعر سحيم، وهو عبد حبشي

عُمَيرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا ... كَفَى الشَّيْبُ وَالإسْلاَمُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أنَّهَا سُئِلَتْ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتمَثَّلُ بشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ الشِّعْرُ أبْغَضَ الْحَدِيثِ إلَيْهِ، وَلَمْ يَتمَثَّلْ بَيْتاً مِنَ الشِّعْرِ إلاَّ بَيْتَ طُرْفَةَ: [سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّد بالأَخْبَار]. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: لَيْسَ هَذا هَكَذا يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّمَا هُوَ: وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[١]، فَقَالَ: [إنِّي لَسْتُ بشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِيَ الشِّعْرُ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي ما القرآنُ إلاَّ ذكرٌ وموعظة، فيه الفرائضُ والحدود والأحكامُ، ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ ؛ قرأ نافعُ وابن عامر بالتاءِ، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، وقرأ الباقون بالياءِ، يعني لِيُنذِرَ القرآنُ مَن كان حيّاً، يعني مُؤمِناً حيَّ القلب، لأن الكافرَ كالميِّتِ في أنه لا يتدبَّرُ ولا يتفكَّرُ، ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي وتجبُ الحجَّةُ بالقرآنِ على الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَم يُشاهِدوا أنَّا خلَقْنا لهم مما توَلَّينا خلقَهُ بإيداعِنا وإنشائنا؟ لم يُشاركنا في خلقِ ذلك شريكٌ ولا مُعِينٌ. وذكرُ الأيدِي هَهُنا يدلُّ على انفرادِهِ بما خلقَ، والمعنى أوَلَم يروا أنَّا خلَقْنا لَهم مما عمِلناهُ بقدرَتِنا ؟ لا مما عملتْهُ أيدي مالكِيها أنعاماً وهو الإبلُ والبقر والغنم لها مالِكون وضابطون، قاهرون لها يصرِّفونها كيف يشاؤون، واليدُ تُذكَرُ ويرادُ بها القدرةُ وإظهار صُنعهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ﴾ ؛ أي لَم يخلُقِ الأنعامَ نافرةً من بني آدمَ ولا يقدِرون على ضَبطِها، بل هي مسخَّرةٌ لهم، والمعنى: وسخَّرناها لهم مع قوَّتِها

---

(١) طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بالأَخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣١. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٣٨٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٠. وفي الدر المنثور: ج ١٠ ص٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم)، وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد).

وضعفِهم، ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي مَركوبُهم، ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ من لحومِها، فقولهُ (فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ) يعني الإبلَ، قال عروةُ: (فِي مُصْحَفِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (رُكُوبَتُهُمْ))(١) والركُوبُ والركُوبةُ واحدٌ، مثل الحمُول والحمولَةِ، يقالُ: هذه الجِمَالُ ركوبةُ القومِ وركوبتهم، وهذه النُّوقُ حلوبةُ القومِ وحَلوبُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ ؛ أي مِن أصوافِها وأوبارها وأشعارها ونسلِها ومشارب من ألبانِها، ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ ربَّ هذه النعمةِ فيُوحِّدونَهُ جميعهم وأفرادهم.

فقالَ: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي عَبَدوا من دون الله أصناماً رجاءَ أن يَنصرُونَهم ويشفَعُوا لهم، كما قالُوا: ما نعبدُهم إلاَّ ليُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلفَى، فنفَى اللهُ نصرَهم بقولهِ: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ ؛ أي لا تقدرُ آلِهتُهم أن تَمنعَهم من العذاب، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي لهم الأصنامُ كالعبيدِ للأرباب قيامٌ بين أيدِيهم ينتصرون بهم، والأصنامُ لا تقدرُ على نصرهم ولا نصرِ أنفسهم. ويجوزُ أن يكون معناهُ: والمشركون مُحضَرون من الأصنامِ في النار توبيخاً لَهم وتعذيباً للذين كانوا يَعبُدونَهم. وَقِيْلَ: معناهُ: إن المشركين ينصُرون الأصنامَ وهي لا تستطيع نصرَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يُحزنُكَ يا مُحَمَّدُ قولَ كفَّار مكَّة في تكذيبهم إياكَ وقولِهم إنكَ شاعرٌ، ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ ؛ في نُفوسِهم من تكذيبهم ومَكرهم وخيانتِهم، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ لكَ من العداوةِ بألسِنَتهم. والمعنى: إنا نُثبِّتُكَ ونُجازيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ يعني أبيَّ بن خلَفٍ الجمحيٌ خاصمَ النبيَّ ﷺ في إنكار البعث، وأتاهُ بعظمٍ قد بَلِيَ وجعلَ يُفتِّتهُ ويُذرِّيهِ في الرِّياحِ، ويقولُ في أصحابهِ: أيُحيي اللهُ هذا العظمَ بعد ما رمَّ؟! وبقولِهم: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ إذا مِتْنا وصِرْنا تُراباً نُعادُ، وتُنفَخُ فينا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد وابن المنذر) وذكره.

الروحُ؛ إنَّ هذا الشيءَ عجيبٌ! مَن يقدرُ أن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟!، فقالَ النبيُّ ﷺ: [يُحيي اللهُ هَذا وَيُمِيتُكَ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ] فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[1].

والمعنى: أوَلَم يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ مع الحياةِ والعقلِ والحواسِّ من نطفةٍ فبلَّغناهُ؛ أي أن صارَ خَصْماً جَدِلاً ظاهرَ الخصومةِ، وهذا تعجيبٌ من جهلهِ وإنكارٌ عليه خصومتَهُ؛ أي لا يتفكَّرُ بدءَ خلقهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ ؛ أي ضربَ المثلَ في إنكار البعث بالعظمِ البالِي يفته بيدهِ، ونسِيَ خَلقَنا إياهُ وبعدَ أن لَم يكن شيئاً حتى صارَ مُخاصِماً فـ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي شيءٌ بالٍ قاسٍ، قدَّرَ اللهُ تعالى بقُدرةِ الخلقِ، فأنكرَ إحياءَ العظم البالِي ما لم يكن ذلك في مقدورِ البشرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد: الذي خلقَ من العدمِ إلى الوجودِ قادرٌ على الإعادةِ بعد المماتِ، وهو عليمٌ بالخلقِ بعد أنْ خلَقَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ في هذه الآيةِ زيادةُ بيانٍ عن عجيبِ صُنعهِ، ومعنى ذلك الزُّنُودُ التي كانت العربُ يُورُّونَ منها النارَ، كانوا إذا احتَاجُوا إلى النار أخَذُوا غُصناً من شجرِ الْمَرْخِ وغُصناً من شجرِ العَفَار وهو الأدينُ، فضَرَبُوا أحدَهما بالآخرِ فخرجت النارُ، فقيلَ لَهم: إنَّ الذي جمعَ بين الماءِ والنار في الشَّجرِ الأخضرِ قادرٌ على تضادِّهما، لا يطفئُ الماءُ النارَ، ولا تحرقُ النارُ الشجرَ، قادرٌ على أن يبعثَكم ويرُدَّ أرواحَكم إلى أجسادِكم[2]. ويقالُ: ما مِن شجرةٍ إلاَّ وفيها نارٌ غيرَ شجرة العِنَّاب، ولذلك يختارُها

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٣٩٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٣. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٧٤-٧٥؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي مالك، وأخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٦٠؛ قال القرطبي: (ويعني بالآية ما في صفاتِ الْمَرْخِ=

القصَّارون لدقِّ الثياب عليها.

ثُم ذكرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ، ما هو أعظمُ خَلقاً من الإنسانِ فقال: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ؛ معناهُ: إن الذي قَدِرَ على خلقِ السَّموات والأرضِ في عِظَمِهما وعجائبِهما يقدرُ على إعادةِ خلقِ البشرِ؛ لأن خلقَ السَّموات والأرضِ وما فيهما أبلغُ في القدرةِ من إحياءِ الموتى، أفليسَ القادرُ عليهما قادرٌ على الإعادةِ ؟ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ ، يخلقُ خلقاً بعد خلقٍ، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ، بجميعِ ما خلقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ ؛ معناهُ: إنما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً من البعثِ وغيرِه أن يقولَ له: كُنْ بغيرِ واسطةٍ. فإن قِيْلَ: لِمَ لا ينصبُ قوله تعالى (فَيَكُونُ) على جواب الأمر كما يقالُ: آتِني فأُكرمَكَ، قُلنا: ذاك مستقبلٌ مستحبٌّ، الثاني: بوجوب الأدنى، وهذا كائنٌ مع إرادةِ الله تعالى، فالفعلُ واجبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ؛ نَزَّهَ اللهُ تعالى أنْ يوصفَ بغيرِ القدرةِ؛ أي تنْزيهاً للَّذي له القدرةُ على كلِّ شيءٍ مِن أن يوصفَ بغيرِ القدرة، (وَمَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) أي مَلِكُ كلِّ شيءٍ، والقدرةُ على كلِّ شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ؛ في الآخرةِ بعدَ الموتِ فيجزيَكم بأعمالِكم.

آخر تفسير سورة (يس) والحمد لله رب العالمين.

=والعَفَار، وهي زنادَةُ العربِ، ومنهُ قولهم: في كلِّ شجرةٍ نارٌ واستمجد الْمَرْخُ والعَفَار، فالعَفَارُ الزَّنْدُ وهو الأعلى، والْمَرْخُ الزَّنْدَةُ وهي الأسفلُ، ويُؤخذ منهما غُصنان مثل السِّوَاكين يقطُران ماءً، فيُحَكُّ بعضُهما إلى بعضٍ فتخرجُ منهما النارُ).

سُورَةُ الصَّافَّات

سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَاثْنَانِ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ وَالصَّافَّاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وَشَيْطَانٍ، وَتَبَاعَدَتْ مِنْهُ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَشَهِدَ لَهُ حَافِظَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِناً بِالْمُرْسَلِينَ][2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ ﴾؛ يعني صُفوفَ الملائكةِ في السَّماءِ كصُفوفِ الخلقِ في الدُّنيا للصَّلاةِ، وهذا قَسَمٌ أقسمَ اللهُ تعالى بالملائكةِ التي تَصُفُّ أنفُسَها في السَّماء، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ الْمَلائِكَةَ صُفُوفاً لاَ يُعْرَفُ كُلُّ مَلَكٍ مِنْهُمْ مِنْ إلى جَانِبِه، لَمْ يَلْتَفِتْ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[3]. وَقِيلَ: أقسمَ اللهُ بصُفوفِ الملائكةِ تَصُفُّ أجنحتَها في الهواءِ واقفةً فيه حتى يأمُرَ اللهُ بما يريدُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾؛ أرادَ به الملائكةَ الذين يَزجُرون السَّحابَ فيسُوقُونَهُ إلى الموضعِ الذي أُمِرُوا به ويُؤَلِّفُونَهُ، وقال قتادةُ: (يَعْنِي زَوَاجِرَ الْقُرْآنِ)[4] وَهُوَ كُلُّ مَا يَنْهَى وَيَزْجُرُ عَنِ الْقَبِيحِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٦١؛ قرَّرَ القرطبيُّ قال: (مكيَّة في قول الجميع).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٦٦.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٠٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨١٢٨) عن أنس ﷺ ولفظه: (مَا زَجَرَ اللهُ عنه في القرآنِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ يعني جبريلَ والملائكةَ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وذكره، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ جوابُ القسمِ، وإنما وقعَ القسَمُ بهذه الملائكةِ؛ لأن في تعظيمِها تَعظِيماً للهِ، وَقِيْلَ: هذا أقسمَ باللهِ تعالى على تقدير: وربِ الصافَّات، إلاَّ أنه حُذفَ لما يقتضِي من التعظيمِ، وكذلك ﴿وَالذارِيَاتِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ وغيرِ ذلكَ.

وقد تضمَّنت الآيةُ تشريفَ الملائكةِ وتعظيمَ الاصطفافِ في الصَّلاة، وفي الحديثِ: [إنَّهُمْ يَصْطَفُّونَ فِي صَلاَتِهمْ فِي السَّمَاءِ وَيُسَبحُونَ اللهَ تَعَالَى وَيَذْكُرُونَهُ، وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ بقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلاَةِ كَمَا يَصْطَفُّ النَّاسُ فِي صَلاَتِهِمْ][1]. قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا: أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً وَاحِداً، فَأَقْسَمَ اللهُ بهَؤُلاَءِ أنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ ؛ أي خالقهما ومشيِّتِهما وتدبُّرِ ما بينهما، ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾ ، مالِكُ المشارق، وإنما قالَ هَهُنا: (رَبُّ الْمَشَارِق) لأن للشمسِ ثلاثمائة وستِّين مَشرقاً، تطلعُ كلَّ يومٍ من مشرقٍ، وتغربُ في مغربٍ، فإذا تحوَّلت السَّنةُ عادت إلى المشرقِ والمغرب، فإنما أرادَ جانبَ المشرقِ وجانبَ المغرب. وَقِيْلَ: أرادَ به الجنسَ، وَقِيْلَ: أرادَ به مشرقَها ومغربَها في يومٍ واحد. وأما قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[3] فقيل: إنما أرادَ به مشرقَ الشمسِ ومشرقَ القمرِ. وَقِيْلَ: أرادَ بذلك مشرقَ الشتاءِ والصيفِ ومغربَها. وشروقُ الشمسِ: طلُوعُها، يقال: شَرَقَتْ إذا طَلَعَتْ، وأشرَقَت اذا أضاءَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي زيَّنَّا السماءَ التي هي أدنَى إليكم مِن سائرِ السَّموات بضوءِ الكواكب ونُورِها، قرأ أبو بكر (بزِينَةٍ) بالتنوينِ ونصبَ (الْكَوَاكِبَ) عمل الزِّينة في الكواكب؛ أي بأنْ زيَّنا الكواكبَ

---

(١) بمعناه: أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: الحديث (١١٩/ ٤٣٠).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٤.

(٣) الرحمن / ١٧.

فيها، وقرأ حمزةُ وحفص (بزينَةٍ) بالتنوينِ وخفضِ (الْكَوَاكِبِ) على البـدلِ؛ أي بزينـةٍ بالكواكب، وقرأ الباقون بالإضافة[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي جعَلَ الكواكـبَ حِفْظاً من كلِّ شيطان متجرِّدٍ للشرِّ، يُقذفون بها إذا استَرَقوا السمعَ، والمـاردُ: الخبيـثُ الْخَالِي من الخيرِ، والْمَاردُ: هو الْمُتَمَرِّدُ، قال الحسـنُ: (وَهَـذا دَلِيـلٌ أنَّـهُ إنَّمَـا يُرْجَـمُ بالْكَوَاكِب بَعْضُ الشَّيَاطِينِ وَهُمُ الْمَرَدَةُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾؛ كأنَّهُ قـال: (لاَ يَسْـمَعُونَ) أي لا يسمعُ مَرَدَةُ الشياطين إلى الملائكةِ ولا إلى كلامِهم، قال الكلـبيُّ: (مَعْنَـى الآيَـةِ: لِكَيْلاَ يَسْمَعُوا إلَى الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ). والملأُ الأعلى: همُ الملائكةُ؛ لأنَّهم في السَّماءِ، قرأ أهلُ الكوفةِ (يَسَّمَّعُونَ) بالتشديدِ أي يسمعُون.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي يُرمَون من كلِّ جانبٍ بالشُّهُب، يعني أنَّ الشياطين يُرمَون بالشُّهب عندَ دُنُوِّهِمْ مـن السَّماء لاستماعِ كـلامِ الملائكة في تدبُّر أمُور الدُّنيا، يُرمَون بالشُّهب من نواحِي السَّماء وأطرافِها.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي طَرْداً وإبْعَـاداً، يقال: دَحَرَهُ دَحْراً ودُحُوراً؛ إذا طَرَدَهُ وأبعدَهُ، ولهم مع ذلك في الآخرةِ عذابٌ وَاصِبٌ أي دائمٌ لا ينقطعُ، وَقِيْلَ: معنى الواصِب الموجِع، من الوَصَب وهـو الوجَـعُ، وَقِيْـلَ: الوجَعُ. معنى الآية: أنَّهم يُدحَرُونَ ويُبعَدُون عن تلك المجالسِ الـتي يسترِقُون السمعَ (وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ) أي دائمٌ إلى النفخةِ الأُولى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾؛ أي إلاَّ مـن اختلـسَ الكلمـةَ من كـلامِ الملائكـة مُسـارَقةً، ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي لَحِقَـهُ وأصابَـهُ نارٌ مضيئة تُحرِقهُ، والثاقبُ: النَّيِّرُ المضيءُ، وهذا قولهُ إلاَّ مَن استرقَ السمعَ مُختَلِساً.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص٢٧٨؛ قال:(وهي المعروفة من قراءة عاصم). وفي معـالم التنزيل: ص١٠٨٧؛ قال البغوي: (قرأ عاصم، برواية أبي بكر) وذكرها.

والْخَطْفُ: أخذُ الشيءِ بسرعة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) أي نجمٌ وهَّاجٌ متوقِّد مضيءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ ؛ قبلَهم من الأُمم الماضيةِ، كانت الأُمم الماضية أشدُّ منهم قوَّةً وآثاراً في الأرضِ، فأهلكناهم بكُفرِهم وتكذيبهم، فكيف يأمَنُ هؤلاءِ الهلاكَ مع إصرارهم على الكفر وهم أضعفُ مِمَّن قبلَهم.

ثم ذكرَ خلقَ الإنسان فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي خلقَنا أصلَهم وهو أبو البشر آدمَ من طينٍ لازبٍ لاصِقٍ ثابت، يقالُ: له ضربَةُ لازبٍ، وضربَةُ لازمٍ، وإذا خلَقَ أصلَهم من طينٍ لازمٍ فكيف لا يُقِرُّونَ بقدرةِ الله تعالى على البَعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي بل عَجِبتَ يا مُحَمَّد من إنكارهم للبعث مع ظُهور ما وَجَبَ من الحجَّة والأدلة، ويقال: بل عَجِبَ من جهلِهم حيث اختارُوا ما تجبُ به النارُ لهم وتركوا ما يجب لهم به الجنَّة، وهم يسخَرون من بعثَتِكَ، ويستهزِئون بكلامِكَ بالقرآن.

وقرأ حمزةُ والكسائي وخلف بضمِّ التاء، وهي قراءةُ ابن مسعود على معنى أنَّهم قد حَلُّوا محلَّ مَن تعجَّبَ منهم، وقال الحسنُ بن الفضل: (الْعَجَبُ مِنَ اللهِ عَلَى خِلاَفِ الْعَجَب مِنَ الآدَمِيِّينَ، وَإنَّمَا مَعْنَى الْعَجَب هَهُنَا هُوَ الإنْكَارُ وَالتَّعْظِيمُ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ: [أنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّاب لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ][(1)])[(2)].

وَقِيْلَ: إن الجنيدَ سُئِلَ عن هذه الآيةِ فقال: (اللهُ لاَ يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ اللهَ وَافَقَ رَسُولَهُ لَمَّا عَجِبَ رَسُولُهُ فَقَالَ: ﴿وَإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾[(3)] أيْ هُوَ كَمَا

---

(١) الصَّبْوَةُ: ميلٌ إلى الهوى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٥١. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٧٠؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وإسناده حسن). وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٥ ص٢٤٣؛ وقال: (هذا حديث لا أعلم يرويه غير ابن لهيعة).

(٣) الرعد / ٥.

تَقُولُه)[١]. قال شُرَيحُ: (إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ لاَ يُعْلَمُ، وَاللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ)[٢].

وقرأ الباقونَ (بَلْ عَجِبْتَ) بفتحِ التاء على خطاب النبيِّ ﷺ. و(بَلْ) معناه: تركُ الكلامِ الأوَّلِ والآخرِ في كلامٍ آخر، كأنَّهُ قال: دَعْ يا مُحمَّد ما مضَى عجيبٌ من كفار مكَّة حين أوحيَ إليك القرآنُ ولَم يؤمنوا بهِ.

وقولهُ تعالى (وَيَسْخَرُونَ) لأنَّ سُخريَتَهم بالقرآن تركُ الإيمان به، قال قتادةُ: (عَجِبَ نَبِيُّ اللهِ مِنْ هَذا الْقُرْآنِ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ، وَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَهُ آمَنَ بِهِ، فَلَمَّا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ وَسَخِرُواْ مِنْهُ، عَجِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذلِكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ وَتَرْكِهِمُ الإِيْمَانَ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ ؛ وإذا وُعِظُوا بالقرآن لا يتَّعظون، ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ ؛ إذا رأوا معجزةً مثلَ انشقاق القمَر وغيره اتَّخذوهُ سُخريَةً، ونسَبُوا ما دلَّهم على توحيدِ الله تعالى إلى السِّحر، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ . وقالوا أيضاً على وجهِ الإنكار: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ ؛ صِرْنا؛ ﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ ؛ باليَة، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾ ؛ أي أنُبعثُ بعدَ الموتِ، ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ ؛ الذين مضَوا قبلَنا، ﴿قُلْ﴾ ؛ لَهم يا مُحمَّد: ﴿نَعَمْ﴾ ؛ تُبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨﴾ ؛ أنتم وآباؤُكم؛ أي وأنتم أذلاَّءُ صاغِرُون، والدُّخُورُ أشدُّ الذُّلِّ.

ثم ذكرَ أنَّ بعثَهم يقعُ بزَجرَةٍ واحدةٍ؛ أي بصَيحَةٍ واحدةٍ، فإذا هم قيامٌ ينظُرون ماذا يُؤمَرون به، وقولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ؛ أي فإنَّما قضيةُ البعثِ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٦. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٤٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٧.

صيحةٌ واحدة من إسرافيلَ، يعني نفخةَ البعثِ، ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ ؛ أي بُعِثَ الذي كذبوا به.

فلما عايَنُوا البعثَ ذكَرُوا قولَ الرسُلِ في الدُّنيا أنَّ البعثَ حقٌّ، فدَعَوا بالويلِ، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ ؛ من العذاب، ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠﴾ ؛ أي هذا يومُ الحساب والجزاء نُجازَى فيه بأعمالِنا. فقالت الملائكةُ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ؛ يومُ القضاءِ، ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ ؛ يُفْصَلُ به بين الْمُسِيءِ والْمُحسِنِ، والْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، وهو اليومُ الذي كنتم به تكذِّبون في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ ؛ أي فيقالُ لِخزَنَةِ جهنَّم: اجْمَعُوا الذين ظلَمُوا وقُرناءَهم من الشَّياطين الذين قبَضُوا لضَلالَتِهم، ويقالُ: أرادَ بالأزواجِ نُظَراءَهُمْ وأشكالَهم من الأتباعِ. والزَّوجُ في اللغة: النظيرُ، ومن ذلك: زوجَانِ من الْخُفِّ. ويقالُ: أرادَ بالأزواجِ نِساءَهُم، سواءاً أكانت امرأةُ الكافرِ كافرةً أو منافقةً، والمعنى: اجمعوا الذين ظلَمُوا من حيث هم إلى الوقفِ للجزاء والحساب، والمرادُ بالذين ظلَمُوا المشركينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ؛ يعني اجْمَعُوا المشركين وأتباعَهم وأوثانَهم وطواغيتَهم وأصنامهم التي كانوا يعبُدونَها من دون اللهِ، قال مقاتلُ: (يَعْنِي إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ)[١] فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُون اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ ؛ أي سُوقُوهم واذهَبُوا بهم إلى فريقِ الجحيم.

فلما انطُلِقَ بهم إلى جهنَّم أرسلَ مَلَكٌ يقولُ لِخزَنَةِ جهنَّم: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾ ؛ أي اسألُهم في موضعِ الحساب، يُسألُوا ويعرفوا أعمالَهم، وهذا سؤالُ توبيخٍ لا سؤالُ استفهامٍ، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (إنَّهُمْ مَسْؤُولُون عَنْ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٧.

(٢) يس~ / ٦٠.

أعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأقَاوِيلِهِمْ)[١]، وقال مقاتلُ: (تَسْألُهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: ألَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)[٢].

ويجوزُ أن يكون هذا السؤالُ ما ذُكِرَ بعدُ، وهو قولُهُ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي يقالُ لَهم على سبيلِ التوبيخِ: ما لكم لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم في الدُّنيا.

وذلك أنَّ أبا جهلٍ لَعَنَهُ اللهُ قالَ يومَ بدرٍ: نحنُ جميعٌ منتصر، فقيلَ لهم ذلكَ اليوم: ما لَكم غير متناصرين، وأنتم زعَمتُم في الدُّنيا أنكم تَناصَرون، فاللهُ تعالى قال: ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي مُنقَادُون خاضِعون لِمَا يرادُ بهم، والمعنى: هم اليومَ أذِلاَّءُ منقادون، لا حيلةَ لهم، فالعابدُ منهم والمعبودُ لا يحمِلُ عن أحدِهم أحداً ولا يمنعُ أحدٌ عن أحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي أقبلَ الشياطين والمشركون يسألُ بعضهم بعضاً سؤالَ توبيخٍ، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾، فيقولُ المشركون للشياطين: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ فتزَيِّنوا لنا الضَّلالةَ، وترُدُّوننا عن الخيرِ، ﴿ قَالُواْ ﴾، فيقولُ لهم الشياطين: ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ إنَّما كان الكفرُ مِن قِبَلِكم، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾؛ أي من قوَّةٍ فنُجبرَكم على الكفرِ، ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي مُتجاوزين ضَالِّين.

وقال الحسنُ فِي مَعْنَى الآيَةِ: (وَأقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ أيْ أقْبَلَ التَّابعُونَ عَلَى الْمَتْبُوعِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَيَقُولُونَ: لَوْلاَ أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الرُّؤَسَاءُ: مَا أجْبَرْنَاكُمْ عَلَى الْكُفْرِ بَلْ كَفَرْتُمْ بسُوءِ اخْتِيَارِكُمْ، فَيَقُولُ لَهُمُ التَّابعُونَ: إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ؛ أيْ مِنْ أقْوَى الْجِهَاتِ، وَذلِكَ أنَّ جِهَةَ الْيَمِينِ أقْوَى مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ، كَمَا أنَّ الْيَمِينَ أقْوَى مِنَ الشِّمَالِ)[٣] وتقديرُهُ: خدَعتُمونا بأقوى الوجُوهِ،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٨.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٠٩ مختصراً.

واليمينُ هي القوَّة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بالْيَمِينِ﴾[1] أي بالقوَّة.

وقال قتادةُ: (مَعْنَى: إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ؛ أَيْ تَمْنَعُونَنَا عَـنْ طَاعَـةِ اللهِ تَعَالَى)[2] فَيَقُولُ الرُّؤَسَاءُ: لَمْ تَكُونُوا مُؤمِنِينَ فِـي الأَصْلِ، إذا لَـمْ تَكُونُـوا تُرِيدُونَـهُ، فَكَيْفَ إجْبَارُكُمْ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سَـلْطَنَةِ الإِجْبَـار عَلَـى الْكُفْـرِ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ؛ أي فوجبَ علينا جميعاً كلمةُ ربنا بالعذاب والسُّخط، وهي قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[3].

وقوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ ؛ أي لذائِقُوا العذاب، فالضَّـالُّ والْمُضِـلُّ في النار، وقولهُ تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ ؛ أي أضْلَلْنَاكم عن الهدَى ودعوناكم إلى الغِوَايَةِ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ، بأنفسنا.

يقولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ؛ أي لا ينفعُهم التنـازعُ والتخـاصمُ، وكِـلاَ الفريقــين مشــتركون في العــذاب، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي هكذا نُعاقِبُ المشركين.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ؛ أي إنَّهم كـانوا يستكبرون عـن كلمـةِ التوحيـد، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا﴾ ؛ أنترك آلِهَتنا وعبادتَها، ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ يعنُونَ النبيَّ ﷺ نَسبوهُ إلى الشِّعرِ والجنون.

فأكذبَهم اللهُ تعالى بقولـهِ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ أي ما هو بقول شاعر وما صَاحِبُكم بمجنون (بَـلْ جَـاءَ بـالْحَقِّ) أي بـالقُرآن والتوحيـدِ، (وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) الذين كانوا قبلَهُ؛ أي أتَى بما أتَوا بهِ من الإيمان وقول الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ ؛ أي يقـالُ لَـهم: إنَّكـم أيها المشركون لذائِقُوا العذاب الأليـمِ علـى شِرْكِكُم ونِسـبَتِكُم النبيَّ ﷺ إلى الشِّـعر

(١) الصافات / ٩٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٤٧٤).

(٣) الأعراف / ١٨ .

والجنـون، ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ ﴾ ؛ في الآخـرةِ، ﴿ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الشِّرك.

ثُم استثنى فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لكـن عبـاد الله الموحِّدين، فإنَّهم لا يُعذبون، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي يُجزَون بالبرِّ ما يستحقُّون، وَقِيْلَ: لَهم رزقُهم فيها بُكرةً وعَشيّاً.

وَقِيْلَ: الـرزقُ المعلـوم هـو مـا ذكـرَهُ بعـدَ هـذا في قولـهِ تعـالى: ﴿ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ والفَوَاكِـهُ جَمعُ فَاكِهَـةٍ، وعلـى الثِّمـار كُلِّـها رَطِبـها ويابسِـها، وهم مُكرَمـون بثـواب الله تعـالى علـى السُّـرُر، ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ لا يـرَى بعضُـهم قفَـا بعـضٍ، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي بآنيَةٍ مملوءة من الشَّراب، ولا تُسمَّى الآنيةُ كأسـاً إلاَّ إذا كـان فيها الشرابُ، والْمَعِينُ ههنا الخمرُ، سُمِّيت مَعِيناً لأنَّها تجري هناكَ على وجهِ الأرضِ من العيُون كما يجري الماءُ فيها في غيرِ الأُخدُودِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (خَمْرُ الْجَنَّـةِ أشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، لَيْسَتْ هِيَ عَلَى لَوْنِ خَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهَا بَيْضَاءُ لِرِقَّتِـهَا وَنُورِهَـا وَرَوْنَقِهَا وَصَفَائِهَا)[١]. وقولهُ تعالى (لَذةٍ لِلشَّاربينَ) أي لذيذةٌ أو ذاتُ لذةٍ، يقالُ شَرب لذ ولذيذٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ ؛ أي ليس في شُربها صُـدَاعٌ ولا وجـعُ بطـنٍ ولا أذى، ولا تَغتَالُ عقولَهم فتذهبُ بها. ويقالُ للوجَعِ غَوْلٌ لأنه يـؤدِّي إلى الهـلاكِ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي ولا هُـم يَسكَرُونَ، يقـالُ: نُزفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزيفٌ إذا سَكِرَ، وقال الكلبيُّ: (يَعْنِي لاَ فِيهَا غَوْلٌ أيْ إثْـمٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾[٢])[٣]. وقال ابنُ كَيسَان: (الْغَوْلُ الْمَعْصِرُ).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٩.

(٢) الطور / ٢٣ .

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٨٩.

وقال أهلُ المعانِي: الغَوْلُ فسادٌ يلحَقُ في خفاءٍ، يقالُ: اغتالَـهُ اغْتِيـالاً إذا فَسَـدَ عليه أمرٌ فَسَدَ في خِفيَةٍ. وقولهُ تعالى (وَلاَ هُـمْ عَنْـهَا يُـنْزَفُونَ)، قـرأ حمـزةُ والكسـائيُّ وخلف بكسرِ الزاي ههنا، وفي الواقعةِ، ومعناهُ: لاَ ينفَدُ شرابُهم بل هو دائمٌ لَهم أبداً، يقالُ: نَزَفَ الرجلُ إذا نَفَدَ شرابهُ، ومَن قرأ بفتـحِ الـزاي فمعنـاهُ: لا يَسـكَرُونَ منـها، يقالُ: نَزَفَ الرجلُ فهو مَنْزُوفٌ ونَزيفٌ؛ إذا سَكِرَ وزالَ عقلهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي يُعقَدُ لَهم مجلسُ الشَّراب، ويُسقَوْنَ هذه الكؤوسَ اللَّذيذةَ، وتحضرُهم حُـورٌ عِـينٌ قاصِراتُ الطَّرْفِ، قصرت أطرافُهن على أزواجهنَّ لا يبتغين بهم بَدَلاً، لا ينظُرون إلى غيرِ أزواجهن، والعِينُ جمعُ العين وهُنَّ كبارُ الأعيُن وحِسَانُها، وقال الحسـنُ: (اللاَّتِـي بَيَاضُ عَيْنِهِنَّ فِي غَايَةْ الْبَيَاضِ، وَسَوَادُهَا فِي غَايَةِ السَّوَادِ).

ومعنى الآيةِ: وعندَهم حَابسَاتُ أعيُنِهن الأعين غاضَّات الجفُونِ قصرنَ أعيُنهن عن غيرِ أزواجهن، فلا ينظُرن إلاَّ إلى أزواجهنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (عِينٌ) أي كبارُ الأعيُن حسانُها، واحدتُها عَينَاءُ يقال: رجلٌ أعيَنُ، وامرأةٌ عَيْنَاءُ، ونساءٌ عِيْنٌ. وقولهُ تعالى: (عِينٌ) وامرأةٌ عَيْنَاءُ ونساءٌ عِينٌ.

وقولهُ تعالى (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) أي مستورٌ مَصُونٌ، والبيضُ مُحُّ البيضةِ، قال الحسنُ: (يُشْبِهْنَ بَيْضَ النَّعَامِ يَكِنُّهَا الرِّيشُ مِنَ الرِّيحِ)[2] وهذا مِن تشبيهات العرب في وَصفِ النِّساء بالبيضِ، فشَبَّهَ الأبيـاض أبدائـهن ببيـاضِ البَيـض المكنـون، ويقـالُ: أراد بالبيضِ المكنون ههنا البياضَ الذي في داخلِ القشرِ الخارج.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي يتحدَّثـون في الجنةِ عن أمُور الدُّنيا، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾؛ في جواب ما يسألُ عنه: ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾؛ أي كان لِي صاحبٌ في الدُّنيـا يقـولُ لِـي حـين صدَّقـتُ وهـو منكِـرٌ للبعـثِ، ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ بـالبعثِ، ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٢٨٤. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣١٥-٣١٦.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.

تُرَابًا وَعِظَمًا ﴾ ؛ باليةً، ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي لَمَجزيُّون محاسَبون؟ وهذا استفهامُ إنكار، والدِّينُ: الحسابُ والجزاء، كأنه يقول: إنَّ هذا الأمر ليس بكائنٍ. ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ، قال قائل من أهل الجنة لأصحابه: هل تطَّلِعون على النار وعلى أهلِها فتنظُرون إلى هذا الذي كان قَريناً لِي وتعرفُون حالَهُ، فاطَّلَعَ هو بنفسهِ على النار وأهلِها فرأى قَرينَهُ في وسَطِ الجحيم يُعذبُ بألوان العذاب. قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوَّةً يُنْظَرُ مِنْهَا إلَى أهْلِ النَّار)[1] ، ﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ ، هذا المؤمنُ، ﴿ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي في وسطِ النار يُعذب.

فـ ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي أردتَ أنْ تُهلِكَني كهلاكِ الْمُتَرَدِّ من الشَّاهق، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَقَدْ كِدْتَ أنْ تُغْوِيَنِي فَأنْزلَ مَنْزِلَكَ)[2]، والإِرْدَاءُ الإهْلاَكُ، ومَن أغوَى إنساناً فقد أهلكَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى ﴾ ؛ أي لولاَ إنعامهُ عليَّ بالإسلامِ، ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ معكَ في النار.

وقال الكلبيُّ: (ثُمَّ يُؤْتَى بالْمَوْتِ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار، وَيُنَادِي مُنَادٍ بأَهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَبأَهْلِ النَّار: خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ) فيقولُ هذا القائلُ لأصحابهِ على جهة السُّرور: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ في هذه الجنَّة أبداً، ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ التي كانت في الدُّنيا، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أبداً. فيقالُ لَهم: لاَ، فيقولون: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ فُزْنا بالجنَّة ونعيمها، ونَجونا من النار وجحيمِها. فهذه قصةُ الأخوَين ذكرَهما اللهُ في سورةِ الكهف بقوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لمثلِ هذا النَّعيمِ الْمُقيمِ، والْمُلكِ العظيمِ فليعملِ العاملون في الدُّنيا، يعني بالنعيمِ ما ذكرَهُ اللهُ من قوله

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٩٩.
(٣) الآية / ٣٢.

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ...) إلى قولِهِ (بَيْضٌ مَكْنُونٌ).

وقولُهُ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؛ معناهُ: أذلكَ الفوزُ الذي سبقَ ذِكرهُ لأهلِ الجنَّة خيرٌ مما يُهَيَّأُ من الإنزال أم نُزُلُ أهلِ النارِ؟ وقولهُ تعالى: (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) لأهلِ النار في النار، والزَّقُّومُ: هو ما يُكرَهُ تناولهُ، والذي أرادَهُ اللهُ شيءٌ مُرٌّ كريهٌ تناولهُ، وأهل النار يُكرَهُون على تناوُلِهِ، فهم يتَزَقُّونَهُ على أشدِّ كراهةٍ، تقولُ: تَزَقَّمْ هذا العظامَ؛ أي تناولْهُ على نَكَدٍ ومشقَّةٍ شديدةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾؛ رُوي سببُ نزولِ هذه الآيةِ: أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) كانوا يقولونَ لا ندري ما الزقومُ ؟ فكانوا يتذاكَرون هذا الحديثَ إذ جاءَهم عبدُالله بن الزبعرَى السهمي فذكرُوا له، فقالَ: أكثرَ اللهُ في بيوتِكم منها، إن أهلَ اليمنِ يدعُوا الزُّبدَ والتمرَ الزقُّوم، فقالَ أبو جهلٍ لجاريتهِ: زَقِّمِينَا يا جاريةُ، فأتَتْهُ بزُبدٍ وتَمرٍ، فقال: تَزَقَّمُوا فإنَّ هذا الذي يُخوِّفُكم به مُحَمَّدٌ، فشاعَ في أهلِ مكَّة أن مُحَمَّداً يُخوِّفُ أصحابَهُ بالزُّبد والتمرِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)[1] أي عذاباً بالكافرين، والفتنةُ: هي العذابُ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[2] أي عذابَكم فأنزلَ الله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[3].

ويجوزُ أن يكون معنى الفتنةِ في هذه الْمِحْنَةَ والبليَّةَ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: هذه الشجرةُ افتتنَ بها الظَّلَمةُ، قالوا:كيف يكون في النار شجرةٌ وهي تأكلُها؛ لأن النارَ تأكلُ الشجرَ، فأنزل اللهُ تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) أي خِبرةٌ لهم افتتَنوا بها وكذبوا بكونها[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (٢٢٥٣٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢١٦.

(٢) الذاريات / ١٣-١٤ .

(٣) الدخان / ٤٣-٤٤ .

(٤) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٣١٤؛ قال ابن عادل: (أو يكون المراد بالفتنة الامتحان=

وبيَّـنَ اللهُ تعـالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي تنبتُ في قعرِ الجحيم، قال الحسنُ: (أَصْلُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَأَصْلُهَا فِي دَرَكَاتِهَا، بِالنَّارِ غُذِّيَتْ وَمِنْهَا خُلِقَتْ بِلَهَبِ النَّارِ، كَمَا يَنْمُو شَجَرٌ بِالْمَـاءِ، كُلَّمَـا ازْدَادَتِ النَّـارُ الْتِـهَاباً ازْدَادَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ نُمُوّاً وَارْتِفَاعاً، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ النَّارَ، وَيَتَقَلَّبُونَ فِي النَّارِ، وَإِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً رَجُلٌ يَكُونُ لَهُ نَعْلاَنِ يَغْلِي مِنْ حَرِّهِمَـا دِمَاغُهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي ثَمرُها كريهٌ مرٌّ هائلُ المنظرِ كأنه حيَّاتٌ هائلاتُ الرُّؤوسِ تكون في طريقِ اليمَنِ، تسمِّي العـربُ تلـك الحيَّات رؤوسَ الشَّياطينِ لقُبحِها. وقال بعضُهم: أريـدَ بـه الشـياطينَ المعروفـةَ، وقـد اعتقدَ الناسُ قُبحَهم وقبحَ رُؤوسِـهم، وإن لم يُشاهِدُوهم، ولذلـك يشـبهون الشـيءَ القبيحَ بالشياطينِ، يقولُ الرجل: رأيتُ فلاناً كأنَّهُ شياطينُ، ورؤوسـهُ رأسُ الشـيطانِ، فالشياطينُ موصوفةٌ بالقُبحِ وإنْ كانت لا تُرَى.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا ﴾ ؛ أي مـن ثمرهـا، ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي مـن أهـلِ النـار مـن شـدَّة الجـوعِ مـا يُلجِؤُهم الى أكلِها بما هي عليه من الحرارةِ والمرَارةِ والخشونة، فيبتَلِعُونَـها علـى جـهدٍ حتى يختَنِقوا بها وتَمتلِيءَ بطونُهم منها، ويكون حالُهم في الأكلِ منها أضرَّ كحالهم في الأكلِ منها أولاً.

وقولهُ تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ اللهَ تعالى يُلقِي عليهم عطشاً بعد ذلك حتى يشرَبُوا من الحميمِ، وهو الماءُ الحارُّ الـذي قـد انتهَى حرُّه، والشَّوبُ كما هو خلطُ الشيءِ بما ليس منه، بما هو شرٌّ منه، يقالُ له شَـابَهُ الشيءُ إذا خالطَهُ، فشَوبُ الجحيمِ في بطونِهم الزقومُ فيصير شَوباً له.

=والاختبار، فإن هذا الشيء بعيد عن العُرف والعادة، وإذا ورد على سمع المؤمن فـوَّض علمَـهُ إلى الله، وإذا ورد على الزنديق توسَّل به إلى الطعن في القرآن والنبوَّة).

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ معناه: إن مَرجِعَهم بعد شُرب الجحيم وأكلِ الزقوم الى الجحيم، وذلك أنَّهم يورَدُون الحميمَ من شُربهِ وهو خارجٌ من الجحيمِ كما تُوردُ الإبلُ الماءَ، ثم يُردُّون إلى الجحيمِ، فيتجرَّعونَهُ ويُصَبُّ على رُؤوسِهم، ومرَّةً يُردُّون إلى النار الموقَدة، وهذا عذابُهم أبداً. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ اللهَ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَوْ أنَّ قَطْرَةً قَطَرَتْ مِنَ الزَّقُّومِ مِنَ الأَرْضِ لأَمَرَّتْ عَلَى أهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ طَعَامُهُ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ غَيْرُهُ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّهم وجَدُوا آباءَهم في الدُّنيا ضالِّين عن الحقِّ والدِّين، فـ، كانوا، ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي يَمضُوا مُسرِعين كأنَّهم يُزعَجون من الإسراعِ الى اتِّباع آبائِهم، يقالُ: هَرَعَ وأهْرَعَ إذا أسرعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي ولقد ضلَّ قبلَ هؤلاء المشركين أكثرُ الأوَّلين من الأُمم الخاليةِ، كما ضَلَّ قومُكَ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي رُسلاً يُنذِرونَهم العذابَ؛ أي يُخوِّفونَهم بالعذاب على تركِ الإيمان، ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ الذي أُنذِرُوا فكذبوا الرسُلَ، كيف أهلكَهم اللهُ تعالى، وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ يعني إلاّ عبادَ الله الموحِّدين الذين لم يكذِّبوا، فإنَّهم نَجَوا من العذاب ولم يهلَكُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي ولقد دعَانا نوحُ على قومهِ بالإهلاكِ حين يَئِسَ من إيمانِهم، وأذِنَ له في الدُّعاء، وقال ﴿أَنِّي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١: الحديث (١١٠٦٨). والترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٨٥). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: الحديث (٤٣٢٥). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٠٠. وابن حبان في الإحسان: كتاب إخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مناقب الصحابة: الحديث (٧٤٧٠).

مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[1]، وقال ﴿رَب لاَ تَذرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِين دَيَّاراً﴾[2]، وقوله (فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) أي نِعْمَ الْمُجِيبُونَ فأجَبناهُ وأهلكنا قومَهُ الكافرين، ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ ؛ ومَن آمنَ به، ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ وهو الغرقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ ﴾ ؛ وذلك مَن كان معه من المؤمنين في السَّفينة انقرَضُوا من غير عَقِبٍ، وكان نسلُ نوحٍ عليه السلام من أولادهِ الثلاثة: سام وحامُ ويافث، فأما سامُ فأبو العرب وفارسَ والرُّوم، وحامُ أبو الحبَشِ وجميع السُّودان والسِّند والهند والبربَر، ويافثُ أبو التُّرك ويأجُوجَ ومأجُوجَ وما هنالك من باقِي الناس[3]. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا خَرَجَ نُوحُ عليه السلام مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إلاَّ وَلَدَهُ الثَّلاثَةَ وَنِسَاءَهُمْ)[4] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

وقولهُ تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي تركنا على نوحٍ الذِّكرَ الجميلَ في الباقين بعده، وذلك الذكرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة، قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ) أيْ وَأبْقَيْنَاهُ ذِكْراً حَسَناً وَثَنَاءً جَمِيلاً فِيمَنْ بَعْدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[5] ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي كما جزَينا نُوحاً وأنعَمْنا عليه، فكذلكَ نجزي الْمُحسِنين في القولِ والعملِ، ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: (معناهُ: تَركنا على نوحٍ في الآخِرين أن يُصَلَّى عليه إلى يومِ القيامة)[6]، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

---

(١) القمر / ١٠. (٢) نوح / ٢٦.

(٣) أصله كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٩٩ حديث سمرة رضي الله عنه، قال السيوطي:(أخرجه ابن سعد وأحمد والترمذي وحسَّنه، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه) وحديث أبي هريرة، قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٨٩. وابن عادل في اللباب: ج ١٦ ص٣١٩.

(٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٢٣٢.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٣٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾؛ معناهُ: وإنَّ مِن أهلِ ملَّةِ نوحٍ عليه السلام والمتمسِّكين بدينه لإبراهيم، ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي إذ أقبَلَ إلى طاعةِ ربهِ بقلبٍ سَليم من الكُفرِ والمعاصِي ومن كلِّ عيبٍ. والشِّيعَةُ: هي الجماعةُ التَّابعةُ لِذي رأي لَهم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾؛ هذا إنكارٌ من إبراهيمَ على قولهِ، كالرجُل ينظرُ غيرَهُ على قبيحٍ من الأمر، فيقولُ له: ما هذا الذي تفعلُ ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ معناهُ: أتَتَّخذُ آلهةً تريدون عبادتَها على وجهِ الكذب. وَقِيْلَ: معناهُ: أتأفِكُونَ إفْكاً هو أسوأُ الكذبُ، وتعبدون آلهةً سوَى اللهِ، ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ إذا لقيتموهُ وقد عبدتُّم غيرَهُ، أي فما ظنُّكم أنه يصنعُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ قال بعضُهم: إنَّما نظرَ إلى النُّجوم نظرَ تدبُّر واعتبار، وليستدلَّ بها على وقتِ الحمَّى كانت تأتيهِ، فلما عرفَ بذلك وقت حمَاه قال إنِّي سقيمٌ؛ أي جاءَ وقتُ سقَمي ومرَضي.

ويقال: أوهَمهم بهذا القول أن به مرضاً فتركوهُ، وكان يريدُ بهذا القول في نفسه: إنِّي سقيمُ القلب بما أرَى من أحوالِكم القبيحة في عبادةِ غيرِ الله، وذلك أنه أرادَ أن يُكايدَهم في أصنامِهم لِيُلزمَهم الحجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ، وكان لَهم عيدٌ يخرجون إليه، فكلَّفوهُ الخروجَ معهم إلى عيدِهم؛ فنظرَ في النُّجوم يُريَهم أنه مستدلٌّ بها على حالهِ، فقالَ: إنِّي سقيمٌ، ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾؛ فتركوهُ وذهبوا إلى عِيدهم.

---

(١) في الكليات: ص٥٢٣؛ قال الكفوي: (كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شِيَع، وغالب ما يستعمل في الذم).

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ أي مَالَ إلى أصنامِهم مَيلةً في خِفيةٍ سِرّاً لَمَّا أدبَرُوا عنه فوجدَ بين أيديهم طَعاماً كانوا قد وضعوهُ قبلَ خروجِهم إلى عيدِهم، وزعَمُوا بجهلِهم أن أصنامَهم تباركُ لهم فيه، فإذا رجعُوا من عيدِهم أكلوهُ. قال مقاتلُ: (كَانَتْ أصْنَامُهُمْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صَنَماً مِنْ خَشَبٍ وَحَدِيدٍ وَرَصَاصٍ وَذهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَكَانَ أكْبَرُهُمْ مِنْ ذهَبٍ وَعَيْنَاهُ يَاقُوتَتَان، فَلَمَّا رَآهُمْ إبْرَاهِيمُ كَذلِكَ وَبَيْنَ أيْدِيهِمُ الطَّعَامُ، قَالَ: ألاَ تَأْكُلُونَ مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الأَطْعِمَةِ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ أكْلٌ وَلاَ جَوَابٌ قَالَ لَهُمْ: ألاَ تَنْطِقُونَ إنْ كُنْتُمْ آلِهَةً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾؛ أي مَالَ عليهم بالضَّرب بيدهِ اليُمنَى وبالقوَّة، ويقال: برَّ يَمِينَهُ التي كان حلفَ باللهِ لأَكِيدَنَّ أصنامَكم، فجعلَ يضربُهم بالفأسِ حتى جعلَهم جُذاذاً، ثم جعلَ الفأسَ على عاتقِ كبيرِ الأصنام، والرَّوَغَانُ في اللغة: هو المَيْلُ على وجهِ الاضطراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾؛ أي أقبلَ المشركون إليه بعدَ رجُوعِهم من عيدِهم يُسرعون في المشيِ، كأنَّهم أخبرُوا بصُنعهِ فقصدوهُ. والزَّفِيفُ: هو المَشْيُ السَّريعُ، ومن ذلكَ زَفِيفُ النَّعَامِ وهو خَبَبُهُ الذي يكون بين المشيِ والعَدْو، ومنه الآزِفَةُ لسُرعةِ مجيئها وهو القيامةُ.

وقرأ حمزةُ (يُزفُّونَ) بضمِّ الياءِ؛ أي يَحمِلُونَ دوابَّهم وظُهورَهم على الإسراعِ في المشي، وذلك أنَّهم أخبرُوا بصُنعِ إبراهيمَ بآلهتِهم، وأسرَعُوا إليه ليأخذوهُ، فلما انتهَى إليه؛ ﴿ قَالَ ﴾ لهم محتجّاً عليهم: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾؛ بأيدِيكم من الأصنامِ، أي تعبدُون ما تَنحِتُونَهُ من الخشب والحجرِ أمواتاً لا تنطقُ ولا تسمعُ ولا تَنصُر ولا تعقلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾؛ تَنحِتُونَ بأيديكم؛ أي خلَقَكم ومعمُولكم وهو منحوتُهم الذي نَحتوهُ، والمعنى: خلَقَكم وعمَلَكم، وهذا

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٢.

مذهبُ أهلِ السُّنة؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ اللهَ خلقَهم وعملَهم، والقدريَّةُ تُنكِرُ خلقَ الأعمال.

فلمَّا ألزمَهم إبراهيمُ عليه السلام الحجَّةَ، ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي قالوا: ابنُوا له حائطاً من حجارةٍ طولُهُ في السَّماء ثلاثون ذِرَاعاً، وعرضهُ عشرون ذراعاً، ومَلَؤُوهُ ناراً، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ) وهي النارُ العظيمة، فبَنَوا له ذلك وجَمعُوا فيه الحطبَ، وأرسَلُوا فيه النارَ حتى صارَ جَحيماً، ثم رمَوهُ بالمنجنيقِ.

فنجَّاهُ اللهُ تعالى، وجعل النارَ عليه بَرْداً وسَلاماً لم يُؤذِهِ منها شيءٌ ولا أحرقَتْ شيئاً من ثيابهِ، وذلك لإخلاصهِ وقوَّةِ دِينهِ وصدقِ توكُّلهِ ويقينهِ، كما رُوي أنه عليه السلام لما انفصلَ من المنجنيقِ أتاهُ جبريل في الهواءِ، فقالَ هل لكَ من حاجةٍ؟ فقال: وأمَّا إليكَ فلاَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ ؛ أي أرادُوا به شرّاً، وهو أن يُحرقوهُ بالنار، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ، لأن إبراهيمَ علاَهُم بالحجَّة حين سَلَّمَهُ اللهُ تعالى وردَّ كيدَهم عنه، ولم يلبَثُوا إلاَّ يَسيراً حتى أهلكَهم اللهُ تعالى، وجعلَهم في نارٍ أعظمَ وأسفلَ مما ألقوهُ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ: إنِّي ذاهبٌ إلى مرضاتِ ربي سيَهديني لِمَا فيه رُشدِي وصَلاحِي، وأرادَ بهذا الذهابَ إلى الأرضِ المقدَّسة، وَقِيْلَ: إلى أرضِ الشَّام، قال مقاتلُ: (فَلَمَّا قَدِمَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ)(١) فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي ولَداً صَالحاً.

واستجابَ اللهُ دعاءَهُ بقولِه: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذِهِ الْبشَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ مُبَشَّرٌ بابْنِ ذكَرٍ، وَأنَّهُ يَبْقَى حَتَّى يَنْتَهِي فِي السِّنِّ،

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٣.

وَيُوصَفُ فِي الْحِلْمِ)، قال الحسنُ: (وَهُوَ إسْحَاقُ عليه السلام)[١]. وقال الكلبيُّ: (هُوَ إسْمَاعِيلُ، وَكَانَ أكْبَرَ مِنْ إسْحَقَ بثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً).

قولُهُ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ ﴾ ؛ أي فلمَّا بلغَ ذلكَ الغلامُ معه حالةَ السَّعيِ في طاعةِ اللهِ تعالى، كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ﴾[٢]، وَقِيْلَ: معناهُ: فلما بلغَ أن يمشِيَ معه، وقال مجاهدُ: (لَمَّا شَبَّ حَتَّى بَلَغَ أنْ يَتَصَرَّفَ مَعَهُ وَيُعِينَهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ ابْنَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ سَنَةً)[٣]. وَقِيْلَ: أرادَ بالسَّعيِ في الوقتِ الذي ينتفعُ الوالدُ بالولدِ في قضاءِ حوائجه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ ؛ أي رأيتُ في المنامِ رُؤيا تأويلُها أنِّي أذبحُكَ، وَقِيْلَ: رأيتُ في المنامِ أنِّي أذبحُكَ، قال مقاتلُ: (رَأى إبْرَاهِيمُ ذلِكَ فِي الْمَنَامِ ثَلاَثَ لَيَالٍ مُتَوَالِيَاتٍ)[٤]، قال ابنُ جبير: (رُؤْيَا الأَنْبيَاءِ وَحْيٌ)، وقال قتادةُ: (رُؤَى الأَنْبيَاءِ حَقٌّ، إذا رَأوا شَيْئاً فَعَلُوهُ)[٥].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ ؛ أي مِن الرأيِ فيما ألقيتُ إليكَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (مَاذا تُري) بضمِّ التاءِ وكسرِ الراءِ، ومعناهُ: ماذا تُشِيرُ وماذا تُريني من صَبركَ أو جزَعِكَ؟ ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾ ؛ به من ذبحِي، ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ على بَلائهِ، وإنما قالَ له إبراهيمُ هذا القولَ مع كونهِ مأموراً بذبحِهِ؛ لأنه أحبَّ أن يعلمَ صبرَهُ وعزيمتَهُ على أمرِ اللهِ وطاعته.

---

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:[الذبيحُ إسْحَقُ]. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي:(أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود) وذكره.

(٢) البقرة / ١٢٧ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٢١.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٤، وفيه قال: (ثلاث ليال متتابعات) بدل (متواليات).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٨).

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ إبراهيمَ كان مأموراً بذبحِ ولَدِهِ، لأن رُؤيَا الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ وَحْيٌ بمنزلة الوحيِ إليهم في اليقظةِ، ولذلك قالَ الابنُ: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) ولَم يقل: افعلَ ما رأيتَ في المنامِ.

واختلَفُوا في الذبيحِ مَن هو ؟ فذهبَ الأكثرون إلى أنه إسحقُ، وإليه ذهبَ من الصَّحابة عمرُ بن الخطَّاب وعليُّ بن أبي طالبٍ وعبدُالله بن مسعودٍ وعبَّاسُ بن عبدِالمطَّلب، ومِن التابعين كعبُ الأحبار وسعيدُ بن جبير وقتادةُ ومسروق وعكرمة وعطاءُ ومقاتل والزهريُّ والسدي.

وقال آخرُونَ: هو إسماعيلُ، وهو قولُ ابنِ عمر وابنِ عبَّاس وسعيدِ بن المسيَّب والشعبيِّ والحسن ومجاهدٍ والكلبيِّ والربيع بن أنسٍ ومحمَّد بن كعب القُرَظِيِّ. ورُوي عن أبي إسحق الزجَّاج أنه قال: (اللهُ أعْلَمُ أيُّهُمَا الذبيحُ)(١).

وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه إسحق؛ لأنه تعالَى قال (فَبَشَّرْنَاهُ بغُلاَمٍ حَلِيمٍ) ولا خلافَ أنه إسحقَ، ثم قالَ: فلما بلغَ معه السعيَ، فعطفَ بقصَّة الذبحِ مع ذكر اسحق، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ القولانِ، ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [الَّذِي أرَادَ إبْرَاهِيمُ ذبْحَهُ هُوَ إسْحَقُ](٢).

وعن معاويةَ ﷺ أنه قالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عُدَّ عَلَيَّ مِمَّا أفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذبيحَيْنِ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ مُعَاوِيَةُ وَمَنِ الذبيحَان؟ فَقَالَ: [إنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا حَفَرَ زَمْزَمَ نَذرَ للهِ تَعَالَى لَئِنْ سَهَّلَ اللهُ أمْرَهُ لَيَذْبَحَنَّ أحَدَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِاللهِ، فَمَنَعَهُ أخْوَالُهُ وَقَالُوا: إفْدِ ابْنَكَ بِمِائَةٍ مِنَ الإبلِ، فَفَدَاهُ بِمِائَةٍ مِنَ الإبلِ، وَالذبِيحُ الثَّانِي

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص١٠٩٤. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٥ ص١٠٠.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: ج ٢: الحديث (٣١٧٣). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٢؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه مبارك بن فضالة وقد ضعفه الجمهور). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الدراقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود وأخرجه ابن مردويه عن (بهار) وكانت له صحبة).

إسْمَاعِيلُ][1]، ويدلُّ على صحَّة هذا قولهُ ﷺ: [أنَا ابْنُ الذبيحَيْنِ] يريدُ أبَاهُ الأدنى عبدُالله بن عبدِالمطَّلب وجدُّهُ إسماعيلُ[2].

وقال محمَّد بن كعب القُرظي: (إنَّ الَّذِي أمَرَ اللهُ إبْرَاهِيمَ بذبْحِهِ من بَنِيهِ إسْمَاعِيلُ، وَإنَّا لَنَجِدُهُ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَى، إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ حِينَ فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإسْحَقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3])[4].

وقال الأصمعيُّ: (سَألْتُ أبَا عَمْرو بْنَ العَلاَءِ عَنِ الذبيحِ هَلْ هُوَ إسْمَاعِيلُ أوْ إسْحَقُ ؟ فَقَالَ: يَا أصْمَعِيُّ أيْنَ ذهَبَ مِنْكَ عَقْلُكَ ؟! وَأيْنَ كَانَ إسحق؟ وَإنَّمَا كَانَ إسْمَاعِيلُ بِمَكَّةَ وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أبيهِ كَمَا قَالَ ﴿وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ﴾[5]، وَالنَّحْرُ بِمَكَّةَ لاَ شَكَّ فِيْهِ)[6]. وسُئل أبو سعيدٍ الضَّرير عن الذبيحِ فأنشدَ:

إنَّ الذبيحَ هُدِيتَ إسْمَاعِيلُ ... نَطَقَ الْكِتَابُ بِذاكَ وَالتَّنْزِيلُ
شَرَفٌ بِهِ خَصَّ الآلَهُ نَبِيَّهُ ... وَأتَى بِهِ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ

وأما قصَّةُ الذبحِ فقال السديُّ: (لَمَّا فَارَقَ إبْرَاهِيمُ قَوْمَهُ مُهَاجِراً إلَى الشَّامِ هَارِباً بِدِينِهِ، دَعَا اللهَ تَعَالَى أنْ يَهَبَ لَهُ مِنْ سَارَةَ ابْناً صَالِحاً، فَقَالَ: (رَب هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بغُلاَمٍ حَلِيمٍ) وَهُوَ اسْحَقُ). قال السديُّ: (فَهُوَ وَاللهِ إسْحَقَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: الحديث (٤٠٩٠). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٥؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير والآمدي في مغازيه والخلعي في فوائده، والحاكم وابن مردويه بسند ضعيف).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا: ج ١ ص١٨١؛ قال: (كذا في الكشاف، قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديثه: لم نجده بهذا اللفظ، وقال في المقاصد: حديث ابن الذبيحين رواه الحاكم في المناقب). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٦٤٥).

(٣) الصافات / ١١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٤٥). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٥) البقرة / ١٢٧ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره: ص١٠٩٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٨١.

الذبيحُ)[١]. وقال محمَّد بن كعبٍ: (هُوَ إسْمَاعِيلُ)[٢].

فلمَّا أمرَ اللهُ إبراهيمَ بذبحِ مَن أمَرَ، قالَ لابنه: يا بُنَيَّ خُذِ الحبلَ والْمُديَةَ وانطلِقْ بنا إلى هذا الشِّعب لنحتَطِبَ، فلمَّا خلاَ إبراهيمُ بابنهِ في شِعب ثَبيرٍ قالَ لَه: (إنِّي أرَى فِي الْمَنَامِ أنِّي أذبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذا تَرَى) قال: يا أبتِ افعل ما تُؤمَرُ واشدُدْ رِبَاطِي حتى لا أضطربَ، واكفُفْ ثيابَكَ عني حتى لا ينضحَ عليها شيءٌ من دمِي فينقُصَ أجرِي وتراهُ أمِّي فتحزنَ، واستحِدَّ شَفرتَكَ وأسرِعْ حدَّ السكِّين على حلقِي حتى تجسُرَ عليَّ فتذبَحني ليكون أهون عليَّ، فإن الموتَ شديدٌ، وإذا أتيتَ أمِّي فأقرِئها منِّي السلامَ، فإن رأيتَ أن تَرُدَّ إليها قميصِي فافعَلْ، فإنه عسَى أن يكون أسْلاَ لَها عني.

فقالَ إبراهيمُ: نِعْمَ العونُ أنتَ يا بُنَيَّ على أمرِ الله، فأقبَلَ عليه يُقبِّلُهُ وقد ربطَهُ وهو يبكِي، والابنُ يبكي حتى استفرغَ الدموعَ تحت خدِّهِ، ثم إنه وضعَ السكِّين في حلقهِ فلم تعمل في حلقهِ شيئاً.

قال السديُّ: (ضربَ اللهُ تعالى في حلقهِ صفحةً من نحاسٍ فلم تقطَعِ السِّكينُ شيئاً، فقالَ الابنُ عندَ ذلك: يا أبتِ كبَّني على وجهي فإنَّكَ إذا نظرتَ في وجهِي رحِمتَني وأدركَتْكَ الرِّقَّةُ فتحولَ بينكَ وبين اللهِ تعالى، ففعلَ ذلك إبراهيمُ، ثم وضعَ السكِّين على قفاهُ فانقلبت السكينُ.

ونادَى أن يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا هذه ذبيحتُكَ فداءً لابنِكَ فاذبَحها دونَهُ، فنظرَ إبراهيمُ فإذا هو جبريلُ ﷺ ومعه كبشٌ أقرن أملَحٌ، فكبَّرَ جبريلُ ﷺ وكبَّرَ إبراهيمُ وكبَّر ابنهُ، فأخذ إبراهيمُ الكبشَ وأتى به المنحرَ من مِنَى فذبَحَهُ، فلما ذبحَ إبراهيمُ الكبشَ رجع إلى إبنهِ فجعلَ يقولُ له: يا بُنيَّ قد وهبَكَ اللهُ لي، ثم رجعَ إلى أمِّه فأخبرَها الخبرَ فجزِعت وقالت: يا إبراهيمُ أردتَ أن تذبحَ ولَدِي ولا تُعلِمني[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٦٠٧).

وعن أبي هُريرة ﷺ قالَ: (لَمَّا رَأى إبْرَاهِيمُ ذبْحَ ابْنِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: وَاللهِ لَئِنْ لَمْ تزلَّ آلَ إبْرَاهِيمَ فِي هَذا الأَمْر لاَ بَقِيت استَزلَّ مُنْهُمْ أحداً، فَتَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ رَجُلاً وَأتَى الْوَلَدَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَدْري أيْنَ يَذْهَبُ بكَ أبُوكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ نَحْتَطِبُ لأهْلِنَا حَطَباً مِنْ هَذا الشِّعْب، قَالَ: وَاللهِ مَا يُريدُ إلاَّ أنْ يَذْبَحكَ، قَالَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: زَعَمَ أنَّ رَبَّهُ أمَرَهُ بذبْحِك، قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أمَرَهُ بهِ رَبُّهُ، فَسَمْعاً وَطَاعَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَرَجَعَ الشَّيْطَانُ إلَى أمِّ الْوَلَدِ فَقَالَ لَهَا: أتَدْرينَ أيْنَ ذهَبَ إبْرَاهِيمُ بابْنِكِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ ذهَبَا يَحْتَطِبَان، قَالَ: لاَ وَاللهِ مَا ذهَبَ بهِ إلاَّ لِيَذْبَحَهُ، قَالَتْ: كَلاَّ هُوَ أرْحَمُ بهِ وَأشَدُّ حُبّاً لَهُ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: إنَّهُ زَعَمَ أنَّ اللهَ أمَرَهُ بذلِكَ، قَالَتْ: فَإنْ كَانَ رَبُّهُ قَدْ أمَرَهُ بذلِكَ فَقَدْ أحْسَنَ فِي امْتِثَالِ أمْرِ رَبهِ.

فَخَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ عِنْدِهَا حَتَّى أتَى إلى إبْرَاهِيمَ ﷺ فَقَالَ: أيْنَ تُريدُ أيُّهَا الشَّيْخُ ؟ قَالَ: أُريدُ هَذا الشِّعْبَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: إنِّي وَاللهِ لأدْري الشَّيْطَانَ قَدْ جَاءَكَ فِي مَنَامِكَ فَأمَرَكَ بذبْح ابْنِكَ هَذا، فَعَرَفَهُ إبْرَاهِيمُ وَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ لأمْضِيَنَّ لأمْرِ رَبي. فَرَجَعَ إبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ بغَيْظِهِ وَلَمْ يُصِبْ مِنْ آلِ إبْرَاهِيمَ شَيْئاً مِمَّا أرَادَ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾؛ أي فلمَّا انقادَا وخضعا لأمرِ الله تعالى ورَضِيَا به، وقرأ ابنُ مسعود: (فَلَمَّا سَلَّمَا) أي فَوَّضَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) أي صَرَعَهُ واضجعَهُ وكَبَّهُ على وجهِهِ للذبحِ، وَقِيْلَ: طرحَهُ على الأرض على أحدِ جَنبَيْهِ كما يُفعَلُ بالكبشِ حين يُذبَحُ، نادته الملائكةُ من الجبلِ بإذن الله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾؛ أي وَفَّيتَ الرُّؤْيا حقَّها؛ أي وفَّيتَ بما أُمِرتَ به في المنامِ، دَعِ ابنكَ وخُذِ الكبشَ الذي ينحدرُ إليكَ من الجبلِ المشرفِ على مسجدِ مِنًى.

وقولهُ تعالى (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) أي نُودِيَ من الجبلِ أن يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا لأنَّ الله تعالى قد عرفَ منهُما الصدقَ حين قصدَ إبراهيمُ الذبحَ بما أمكنَهُ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: الحديث (٤٠٩٩). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٢٦٣٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٨٢٣٦).

وطاوعَ الابنُ بالتمكينِ من الذبحِ، ففعلَ كلٌّ واحدٍ منهما ما أمكنَهُ وإن لم يحقّقوا الذبحَ، وكان قد رأى في المنام معالجةَ الذبح ولم يُرَق الدمُ، ففعلَ في اليقظةِ ما رأى في المنامِ، فلذلكَ قيل له: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) وتَمَّ الكلامُ. ثم قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾؛ أي هكذا نُجزي كلَّ مُحسنٍ ممن سلكَ طريقَهما في الانقيادِ لأمر الله، وجميلِ الصبر على ابتلائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ أي لَهُوَ الاختبارُ البيِّنُ فيما يوجبُ النعمةَ والنقمةَ، وأيُّ اختبارٍ أعظمُ من أن يؤمرَ الشيخُ الكبير بذبحِ الولدِ العزيزِ بيده. وقولهُ تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾، أي بكبشٍ عظيم؛ أي أقَمنا الذبحَ مقامَهُ وجعلناهُ بَدَلاً عنه.

وعن عطاءِ بن يسار قال: (لَمَّا بَلَغَ إسْمَاعِيلُ سَبْعَ سِنِينَ رَأى إبْرَاهِيمُ ﷺ أنَّهُ يَذْبَحُهُ، فَأَخَذ بيَدِهِ وَمَضَى بهِ إلَى حَيْثُ أمِرَ حَتَّى انْتَهَى إلَى مَنْحَرِ الْبُدْنِ الْيَوْمَ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إنَّ اللهَ أمَرَنِي بذبْحِكَ، قَالَ إسْمَاعِيلُ: فَأَطِعْ رَبَّكَ.

فَفَعَلَ إبْرَاهِيمُ، فَجَعَلَ يَنْحَرُهُ فِي حَلْقِهِ، نَحَرَ فِي فَأْسٍ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ الشَّفْرَةُ، فَشَحَذَهَا مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاَثاً بالْحَجَرِ، وَفِي كُلٍّ لاَ يَسْتَطِيعُ، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَإذا هُوَ بكَبْشٍ قَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً).

قال الحسنُ بن الفضل: (مَا فُدِيَ إلاَّ بتَيْسٍ هَبَطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبير فَذبَحَهُ إبْرَاهِيمُ فِدَاءً عَنِ ابْنِهِ)[(١)]. وَقِيلَ: كان الفداءُ وَعْلاً من الأوْعَال الجبليَّة.

وأما قولهُ (بذِبْحٍ عَظِيمٍ) قال سعيدُ بن جبير:(حَقٌّ عَلَيْهِ أنْ يَكُونَ عَظِيماً، وَقَدْ رَعَى فِي الْجَنَّةِ أرْبَعِينَ خَرِيفاً)[(٢)]. وقال مجاهد: (سُمِّيَ لأَنَّهُ مُتَقَبَّلٌ)[(٣)]، وقال الحسنُ ابن الفضل: (لأَنَّهُ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى)، وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ نَسْلٍ وَإنَّمَا كَانَ بالتَّكْوِينِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٦٤). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٥٥). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٢٦٦٥). والبغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾؛ أي تركنا على إبراهيم في العالَمين أنْ يُقالَ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾، ويصلَّى عليه إلى يوم القيامةِ، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾، وبقينا عليها حُسناً، ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾؛ مَن جعلَ الذبيحَ إسماعيلَ قال: بشَّرَ اللهُ إبراهيمَ بولدٍ بعدَ هذه القصَّة جزاءً لطاعتهِ، ومَن جعلَ الذبيحَ إسحق قالَ: بُشِّرَ إبراهيمُ بنبوَّةِ إسحق، وأُثيبَ إسحقُ بصبرهِ بالنبوَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾؛ أي وباركنا على إبراهيمَ وعلى إسحقَ، وَقِيْلَ: على إسماعيلَ وعلى إسحقَ، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾؛ الْمُحسنُ هو المؤمنُ، والظالِمُ المبينُ هو الكافرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾؛ أي أنعمنا عليهما بالنبوَّة والرسالةِ وغير ذلك من أنواعِ النعيم، والْمَنُّ قطعُ كلِّ أذيَّةٍ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أجرٌ غيرُ ممنُونٍ﴾[1] أي غيرُ مقطوعٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾؛ أي وخلَّصناهما من الخزي القطيع من استعبادِ فرعون إيَّاهم، ومن ذبحِ الأبناء، وتسخيرِ الرجلِ في الأمور الشاقَّة، ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾، على فرعونَ وقومهِ، ﴿ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾؛ بعدَ ما كانوا مغلوبين، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾؛ أي أعطيناهُما الكتابَ البيِّنَ وهو التوراةُ، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾؛ وهو دينُ الاسلام، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَمُّ الْيَسَعَ، وَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ، وَهَارُونُ هُوَ جَدُّ أبِيهِ)[2]. وقال ابنُ

---

(١) الانشقاق / ٢٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

إسحق: (إلْيَاسُ هُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ)[١].

ويقالُ: إلياس والخضِرُ في الأحياءِ، فإلياسُ صاحب البراري، والخضِرُ صاحبُ الجزائرِ، ويجتمعان في كلِّ سنةٍ مرَّة بعرفات!

وعن أنس ﷺ قال: (غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنَّا نفحَ الناقةِ إذ نحن بصَوتٍ يقولُ: اللَّهم اجعلني من أمة مُحَمَّد المرحومةِ المغفور لها المثوب عليها المستجاب لها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: [يَا أَنسُ انْظُرْ هَذا] فدخلتُ الجبلَ فاذا أنا برجُلٍ أبيضَ الرأسِ واللحيَةِ، عليه ثيابٌ بيض طولهُ أكثرَ من ثلاثمائة ذراعٍ، فلما نظرَ إليَّ قال: أنتَ من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قلتُ: نعم، قال: ارجِعْ إليه فأقرئْهُ منِّي السَّلامَ، وقل له: أخوكَ إلياسُ يريدُ لقاءكَ، فجاءَ النبيُّ ﷺ وأنا معه، حتى إذا كُنَّا قريباً منه، تقدَّمَ النبيُّ ﷺ وتأخرتُ، فتحادثا طويلاً، فنَزل عليهما من السَّماء شبه السُّفْرَةِ، فدعَونِي أكلتُ معهما، فإذا فيها كمأةٌ ورمَّان وكرفس، فلما أكلتُ قمت فتنحيتُ، فجاءت سحابةٌ فاحتملَتْهُ وأنا أنظرُ إلى بياضِ ثوبه، فهوَت به قبَل الشَّام)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ عقابَ اللهِ بعبادة غير الله، وقولُه تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ ؛ أي أتدَّعون بالإلهيَّة بَعْلاً صَنماً، ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ ، وتتركون عبادةَ، ﴿ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ وكان قومهُ يعبدون صَنماً لهم من ذهب يقال له بَعْلٌ، وكان طولهُ عشرين ذراعاً، وكان له أربعةُ وجوهٍ، فجعلَ إلياسُ يدعوهم إلى عبادةِ الله وهم في ذلك لا يسمَعون منه شيئاً.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٠٩٥.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٥ ص٤٢١؛ قال: (إسناد هذا الحديث ضعيف). وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ج ١ ص٣٩٤؛ وقال: (فقد كفانا البيهقي أمرَهُ وقال... والعجب أن الحاكم أبا عبدالله أخرجه في مستدركه على الصحيحين، وهذا مما استدرك به على المستدرك، فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه). وفي لسان الميزان: ج ٦ ص٢٩٥؛ قال ابن حجر: (حديث باطل أخرجه الحاكم في مستدركه... فما استحى الحاكم من الله بتصحيح مثل هذا). وقال في تلخيص المستدرك: (هذا حديث موضوع، ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح هذا، وهذا ما افتراه يزيد البلوي).

وقولُهُ تعالى: ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) ﴾ ؛ أي خالقُكم وخالقُ آبائكم، ومَن قرأ (رَبَّكُمْ) بالنصب فعلى صفة (أحْسَنَ الْخَالِقِينَ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ ؛ أي لَمُحضَرون في النار والعذاب بتكذِيبهم، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾ ؛ أي لكن عبادَ الله المخلَصين مبعَدُون من الموضعِ الذي فيه المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) ﴾ ، يريدُ إلياسَ ومَن آمنَ معه، ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ ؛ قال أبو علي الفارسي: (تَقْدِيرُهُ: اليَاسِيِّينَ)[2] إلاَّ أنَّ اليَائيْنِ لِلنِّسْبَةِ حُذِفَتَا، كَمَا حُذِفَتَا فِي الأشْعَرِيِّينَ وَالأَعْجَمِينَ، وقرأ نافعُ (آلِ يَاسِينَ) أي سلامٌ على أهلِ كلام الله وآل مُحمَّد ﷺ، فإن يس مِن كلامِ الله تعالى في القرآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) ﴾ ؛ أي من جُملة المرسَلين، ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ﴾ ؛ يعني امرأتَهُ المنافقةَ تخلَّفت في موضعِ العذاب في جُملة الباقين، ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) ﴾ ؛ أي أهلكناهم بعذاب الاستئصال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ ؛ هذا خطابٌ لِمُشركي العرب، كانوا يَغْدُونَ على قرياتِ قوم لوطٍ فلم يعتَبروا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾ ؛ أي هربَ من قومهِ إلى السفينةِ المملوءَةِ بالناسِ والدواب، وإنما هربَ لأن الله كان أوعدَهم بالعذاب إنْ لم يؤمِنُوا فلم يؤمنوا، وعلِمَ أنَّ العذابَ نازلٌ بهم، فخرجَ من بينِهم من غيرِ أن يأمرَهُ اللهُ تعالى بالخروجِ، فكان ذلك ديناً منه وكان

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٣٥؛ قال الزجاج: (وقرئت (اللهَ رَبَّكُمْ) على صفة أحسن الخالقين اللهَ، وقرئت (اللهُ رَبُّكُمْ) على الابتداء والخبر).

(٢) الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٢٠.

قصدهُ حين خرجَ منهم للمبالغةِ في تحذيرِهم وإنذارِهم، فكان بذهابِهِ كالفارِّ من مولاهُ، فوُصِفَ بالأَبَاق.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾؛ وذلكَ أنه لَمَّا رَكِبَ السفينةَ، وقفَتِ السفينةُ ولم تَسِرْ بأهلِها، فقالَ الملاَّحون: هـهُنا عبدٌ آبقٌ من سيِّدِهِ، وهذا رسمُ السفينة إذا كان فيها عبدٌ آبقٌ لا تجري، واقترَعُوا فوقعتِ القُرعَةُ على يونسَ فقال: أنا الآبقُ، ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ ﴾.

قال سعيدُ بن جبير: (لَمَّا اسْتَهَمُوا جَاءَ حُوتٌ إلَى السَّفِينَةِ فَاغِراً فَاهُ يَنْتَظِرُ أمْرَ رَبهِ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ وَاحِداً مِنْ أهْلِهَا، فَقَالَ يُونُسُ: يَا أهْلَ السَّفِينَةِ أنَا الْمَطْلُوبُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَقَالُوا: أنْتَ أكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ أنْ يَبْتَلِيكَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: اقْتَرِعُوا فَمَنْ خَرَجَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى اسْمِهِ ألْقِيَ إلَى الْحُوتِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أنَّ الْقُرْعَةَ تَخْرُجُ عَلَيْهِ، إلاَّ أنَّهُ لَمْ يَبْدَأ بِإلْقَاءِ نَفْسِهِ إلَى الْحُوتِ مَخَافَةَ أنْ تَلْحَقَهُ سِمَةُ الْجُنُونِ، فَسَاهَمَ فَوَقَعَ السَّهْمُ عَلَيْهِ فَكَانَ مِنَ الْمَسْهُومِينَ).

وَالْمُدْحَضُ في اللغة: هو المغلوبُ في الحجَّة، وأصلهُ من دَحَضَ الرجلُ إذا نزلَ مِن مكانهِ، فلما ألقِيَ عليه السُّلَّمُ في البحرِ ابتلعَهُ الحوتُ ابتلاعَ اللُّقمَةِ.

وقولـهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾؛ أي أتى بما يستحقُّ عليه اللَّومَ، والمَلِيمُ: الآتِي بما يُلائِمُ على مثلِهِ، وسببُ استحقاقِهِ اللَّومَ خروجهُ من بين قومِهِ قبل ورُودِ الإذنِ عليه مِن اللهِ تعالى.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾، أي لـولاَ أنـه كان قبلَ أن يلتقمَهُ الحوتُ من المصلِّين للهِ تعالى، ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾؛ لَمَكَثَ في بطنِ الحوتِ إلى يوم البعثِ والنُّشور. قال الحسنُ: (مَا كَانَتْ لَهُ صَلاَةٌ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً قَبْلَ ذلِكَ)[١].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧١٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٢٩.

ويقالُ: إن المرادَ بالتسبيحِ في هذه الآيةِ قولهُ في الحوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. قال السديُّ: (لَبثَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ أَرْبَعِينَ يَوْماً)(١)، وقال الضحَّاكُ: (عِشْرِينَ يَوْماً)(٢)، وقال عطاءُ: (تِسْعَةَ أَيَّامٍ)(٣)، وقال مقاتلُ: (ثلاثَةَ أَيَّامٍ)(٤).

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾؛ أي أَلْهمنَا الحوتَ أن يطرحَهُ على فضاءٍ من الأرض، والعَرَاءُ هو المكانُ الخالِي من الشَّجر والبناءِ، قال مقاتلُ: (مَعْنَى: (فَنَبَذْنَاهُ بالْعَرَاءِ) يَعْنِي وَجْهَ الأَرْضِ وَهُوَ سَقِيمٌ قَدْ بَلِيَ لَحْمُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْمَوْلُودِ)، قال ابنُ مسعودٍ: (كَهَيْئَةِ الْفَرْخِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ رِيشٌ).

وَقِيْلَ: معنى (وَهُوَ سَقِيمٌ) أي وهو مَرِيضٌ، وذلك لما أصابَهُ في بطنِ الحوت من الشدَّةِ والضَّغطَةِ والبُعدِ من الهواءِ والغذاء، حتى ضعُفَ جسمهُ ورقَّ جلده ولم يبقَ ظُفْرٌ ولا شعرٌ كالولدِ أوَّلَ ما يخرجُ من بطنِ أمِّه.

فلما أُلقِيَ على وجهِ الأرض كان يتأذى بحرِّ الشمس، فأنبتَ اللهُ تعالى عليه شجرةً من يَقْطِينٍ، قال الكلبيُّ: (هِيَ الْقَرْعُ)، وهي شجرةُ الدُّبَّاءِ العربي، وكلُّ شجرةٍ لا تقومُ على ساقٍ وتمتدُّ على وجهِ الأرضِ مثل القَرْعِ والبطِّيخ ونحوها فهو يقطينٌ، واشتقاقهُ من قَطَنَ من المكانِ إذا أقامَ به، فهذا الشَّجرُ يكون ورقهُ وساقهُ على وجهِ الأرض، فلذلك قِيْلَ: يَقْطِين، ومن خصائصِ شجرةِ القَرْعِ أنَّها لا يقربُها ذبابٌ، قالوا: فكان يستظلُّ بها من الشَّمس، وسخَّرَ اللهُ له وَعْلَةً(٥) بُكرَةً وعَشِيّاً تختلفُ إليه، فكان يشربُ من لبَنِها حتى اشتدَّ لحمهُ ونبتَ شعرهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧٢٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٤) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٢٣ عن مقاتل بن حيان. وكذا البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠١.

(٥) الوَعْلُ: تَيْسُ الْجَبَلِ. والأنثى: وَعْلَةٌ. ينظر: القاموس المحيط: (و ع ل)

ثم أرسلَهُ اللهُ بعدَ ذلك وهو قولُهُ: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ ؛ وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: بَلْ يَزِيدُونَ)، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَيَزِيدُونَ)، وكان الذين أُرسِلَ إليهم أهلُ نِينَوَى، كأنَّهُ أُرسِلَ قبلَ ما الْتَقَمَهُ الحوتُ إلى قومٍ، وبعدَ ما نبذهُ الحوتُ إلى قومٍ آخَرين.

قولهُ: ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ ؛ أي فآمَنَ مَن أرسِلَ إليهم يونسُ عليه السلام بما جاءَهم به من عندِ الله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ؛ أي إلى حين آجالِهم. واختلفُوا في الزيادةِ على مائة ألفٍ، قال مقاتلُ: (كَانَتِ الزِّيَادَةُ عِشْرِينَ أَلْفاً)[1]، وقال الحسنُ: (بِضْعاً وَثَلاَثِينَ أَلْفاً)[2]، وقال سعيدُ بن جبير: (سَبْعِينَ أَلْفاً)[3].

وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ ؛ أي سلهُم - يا مُحَمَّدُ- أهلَ مكَّة سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ(أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)؟ وذلك أنَّ قُريشاً وقبائلَ من العرب منهم خُزاعةُ وجُهَيْنَةُ وبنو سُليم كانوا يقولُون: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً. وقولهُ تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ ؛ أي حَاضِرُوا خلقِنا إيَّاهم، فكيفَ جعَلوهم إناثاً ولم يشهَدُوا خلقَهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ؛ في إضافةِ الأولادِ إلى اللهِ تعالى حين زعَمُوا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً، ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ؛ القراءة المعروفةُ المشهودة بفتحِ الألفِ على الاستفهامِ الذي فيه التوبيخُ، والمعنى: سَلْهُمْ أصْطَفَى البناتِ، إلاَّ أنه حذفَ ألِفَ الوصلِ وبقيت ألِفُ الاستفهامِ مفتوحةً

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٢.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٧٤٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٣١.

(٤) الزخرف / ١٩ .

مقطوعة على حالِها مثل أستَكبَرتَ وأستغفرتَ[١]، وأذهَبتُم ونحوها. وقرأ نافعُ برواية وَرْشٍ (اصْطَفَى) موصولةً على الخبرِ والحكاية عن قولِ المشركين، تقديرُهُ: ليَقولُون ولدَ اللهُ ويقولون اصْطَفَى البناتِ[٢].

وقولهُ تعالى: ﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾؛ هذا توبيخٌ لَهم؛ أي كيف ترضُون لله ما لا ترضون لأنفسِكم، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾، أفلا تتَّعظُون فتمتَنعون عن مقالتِكم، ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾؛ أم لكم حجَّةٌ بيِّنةٌ على صحَّة دعواكم هذهِ، ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾؛وحجَّتِكم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ فيما تدَّعون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾؛ أي جعلَ هؤلاءِ بينَ اللهِ وبينَ الملائكةِ الذين يشاهدونَهم نسَباً، وسُميت الملائكة جِنَّةً في هذا لاستتارهم عن أعيُنِ الناسِ كاستتار الجنِّ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾؛ أي علِمَت الملائكةُ أنَّ الكفارَ الذين عبَدُوهم لَمُحضَرون في العذاب لدُعائِهم إلى هذا القولِ.

ثم نزَّهَ اللهُ تعالى نفسَهُ فقالَ: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾؛ أي عمَّا يصِفُونَهُ ويُضِيفُونَهُ إليه، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾؛ لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين من الجنِّ والإنسِ لا يُحضَرون هذا العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾؛ هذا خطابٌ لأهلِ مكَّة، معناهُ: فإنَّكم أيُّها المشركون وما تعبدونَهُ من دون الله الأصنامُ، ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾؛ أي ما أنتم على ذلك بمُضلِّين أحَداً، ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾، إلاَّ مَن كان في علمِ الله أنه يَصْلَى الجحيمَ، وفي هذا بيانٌ على أنَّهم لا يُفسِدون أحَداً إلاَّ مَن كان في معلومِ الله أنه سيَكفُر، يعني أن قضاءَ اللهِ سبَقَ في قومٍ بالشَّقاوة، فإنَّهم يَصلُونَ النارَ، فهُم الذين يُضِلُّونَ في الدِّينِ ويعبدون الأصنامَ.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٣٣-١٣٤.

(٢) ينظر: إعراب القرآن: ج ٣ ص٢٩٩. والحجة للقراء السبعة: ص٣٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ هذا من قول جبريل عليه السلام للنبيِّ ﷺ يقولُ: ليس منَّا معشرُ الملائكةِ ملَكٌ في السَّمواتِ والأرض إلاَّ له موضعٌ معلوم يَعبُدُ اللهَ فيه، لا يتجاوزُ ما أُمِرَ به، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصْطَفُّونَ في الصَّلاة كصُفوفِ المؤمنين. وَقِيْلَ: صافُّون حولَ العرشِ ينتظرون الأمرَ والنهيَ من اللهِ تعالى، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصَلُّونَ للهِ، المنَزِّهُون له عن السُّوءِ، وعن جميعِ ما لا يَليقُ بصفاتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ، أي وقد كان كفارُ مكَّة يقولون: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ، لو جاءَنا ذِكرٌ كما جاءَ غيرَنا من الأوَّلِين من الكتُب، ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ لأخلَصْنا العبادةَ للهِ، فلمَّا جاءَهم الرسولُ والكتاب كما قالُوا وطلبوا؛ ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ، كفرُوا بذلكَ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ، ماذا ينْزِلُ بهم، وهذا كما قالُوا: لو أنَّا أُنزِلَ علينا الكتاب لكُنَّا أهدَى منكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لقد تقدَّمَ وعدُنا بالنصرِ والظَّفَرِ لعبادِنا المرسَلين، ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ، يعني بالكلمةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِي﴾[1] فهذه الكلمةُ التي قد سبقَت، فاللهُ تعالى لم يفرِضَ على نبيٍّ الجهادَ إلاَّ ونصرَهُ وجعلَ العاقبةَ له، قال الحسنُ: (مَا غُلِبَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ وَلاَ قُتِلَ فِيْهِ قَطُّ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي جندُ اللهِ لهم الغلبةُ بالحجَّة والنصرِ في الدُّنيا، وينتقمُ الله من أعدائهِ في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي أعْرِضْ عنهم حتى تنقضيَ المدَّةُ التي أُمهِلوا فيها، ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ ، في عذاب الآخرة، ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ؛ ما وُعِدوا من

---

(١) المجادلة / ٢١ .

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٣٩ .

العذاب. وَقِيْلَ: معناهُ: أعرِضْ عنهم حتى نأمُرَكَ بقتالهم، وأبصِرهُم بقلبكَ فسوف يُبصِرُونَ العذابَ بأعيُنهم.

فقالوا للنبيِّ ﷺ: متى ينْزلُ بنا العذابُ الذي تعِدُنا به؟ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ أي يطلبُون تعجيلَ عذابنا لجهلِهم، ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ ؛ العذابُ، ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ ؛ أي بفناءِ دارهم وموضعِ منازلهم، ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ؛ أي فبئسَ صباحُ قومٍ أنذرَهم الرسلُ فلم يؤمنوا.

وعن أنسٍ ﷺ قال: لَمَّا أتَى النَّبِيُّ ﷺ خيبرَ، قالَ: [اللهُ أكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ إنَّا إذا نَزَلْنَا سَاحَةَ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ][(١)].

وقولُه تعالى: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ؛ إنما ذكرَهُ ثانياً تأكيداً لوعدِ العذاب، وقولُه تعالى: ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ ؛ ليس هذا بتكرار؛ لأنَّهما عذابَان، أرادَ بالأولِ عذابَ الآخرةِ، وبالثاني عذابَ الدُّنيا يومَ بدرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ؛ أي تنْزيهاً لربكَ رب القُدرةِ والمنَعةِ والغلبةِ عمَّا يقولون من الكذب بالأوثان آلهة، وأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ.

وقولُه تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ ؛ الذين بلَّغُوا عن اللهِ التوحيدَ والشرائعَ. قال النبيُّ ﷺ: [إذا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَإنَّمَا أنَا رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؛ أي الشُّكْرُ للهِ رب الخلائقِ على إهلاكِ الأعداء وإعزاز الأولياء. وَقِيْلَ: معناهُ: والحمدُ للهِ رب العالَمين

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: الحديث (٦١٠). ومسلم في الصحيح: كتاب النكاح: الحديث (١٢٠/ ١٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٢ ص١٣٩: الحديث (٢٢٨٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن مردويه مرسل).

على إهلاكِ المشركين ونُصرَةِ الأنبياءِ.

وعن عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (مَنْ أحَبَّ أنْ يَكْتَالَ بالْمِكْيَال الأَوْفَى مِنَ الأَجْـرِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرُ كَلاَمِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...)[1] إلى آخرِ السُّورة.

آخر تفسير سورة (**والصافات**) والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل بإسناده عن أصبغ بن نباته عن علـي ﷺ، وذكـره. وفي الجـامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤١؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي من حديـث ﷺ مرفوعـاً). ينظـر: الكشف والبيان للثعلبي: ج ٨ ص١٧٤.

سُورَةُ ص~

سُورَةُ ص~ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ص~ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ وَزْنَ كُلِّ جَبَلٍ سَخَّرَهُ اللهُ تَعَالَى لِدَاوُدَ حَسَنَاتٍ، وَعُصِمَ مِنْ أنْ يُصِرَّ عَلَى ذنْبٍ صَغِيْرٍ أوْ كَبيْرٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ ؛ اختلفُوا في قولهِ (ص) قَالَ: (صَدَقَ اللهُ) وهو قول الضحَّاكُ[2]، وقال عطاءُ: (صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ)، وقال مُحَمَّدُ بن كعبٍ القرظي: (هُوَ مِفْتَاحُ اسْمِ اللهِ صَمَدٌ وَصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ وَصَادِقُ الْوَعْدِ)[3]. وَقِيْلَ: هو من فَواتِحِ السُّوَر. قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ قَسَمٌ أقْسَمَ اللهُ بِهِ)[4]، وقال سعيدُ بن جُبير: (هُوَ بَحْرٌ يُحْيي اللهُ بِهِ الْمَوْتَى بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ)[5]. وَقِيْلَ: هو إشارةٌ إلى صُدودِ الكفَّار عنِ القُرْآنِ والْهُدَى.

قال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: أعْرَضَ عَنِ الْهُدَى) كَأنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ كَانَ فِي الأَصْلِ صَدَّ؛ أيْ صَدَّ أبُو جَهْلٍ أوْ صَدَّ أهْلُ مَكَّةَ عَنِ الْحَقِّ، فَأبدِلَتِ إحْدَى الدَّالَيْنِ ألِفاً).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨١٢).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨١٠).

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٣.

وقرأ عِيسَى بن عُمر: (صَادَ) بفتحِ الدَّال، ومثلُ قاف ونون، لاجتماعِ السَّاكِنَين وحرَّكَها بأخفِّ الحركَاتِ. ومعناهُ: صَادَ مُحَمَّدٌ قلوبَ الرِّجالِ واستَمالَها حتى آمَنُوا به. وقرأ الحسنُ: (صَادِ) بكسرِ الدَّال من الْمُضَادَّاتِ التي هي مِن المقابلَةِ والمعارضةِ؛ أي عارضْ عمَلَكَ بالقُرْآن[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) أي ذِي البيَان الْهَادِي إلى الحقِّ. وَقِيْلَ: معناهُ: ذِي الشَّرَفِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٢] والمعنَى: أقْسَمَ اللهُ تعالى بالقُرْآنِ أنَّ مُحَمَّداً صادقٌ، وجوابُ قَسَمٍ محذوف تقديرهُ: والقُرْآنِ ذِي الذِّكرِ ما الأمرُ كما يقولُ الكفَّار[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾؛ يعني: كفَّارَ مكَّةَ في مَنَعَةٍ وحَمِيَّةٍ وتكبُّرٍ عن الحقِّ، (وَشِقَاق) أي خِلافٍ وعداوةٍ لِمُحَمَّدٍ ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي مِن أمَمٍ بتكذِيبِهم الرُّسُلَ، ﴿فَنَادَوا﴾؛ عند وُقوعِ الهلاكِ بهم بالاستغاثةِ، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾؛ أي وليسَ الحينَ حينَ نَزْوٍ ولاَ قرار[٤]، قال وهبُ:(لاَتَ باللُّغَةِ السِّرْيَانِيَّةِ: وَلَيْسَ، وذلك أنَّ السِّريانِيَّ إذا أرَادَ أنْ يَقُولَ وَلَيْسَ يَقُولُ: وَلاَتَ)[٥] وقال أئِمَّةُ اللُّغَةِ: (أصْلُهَا (لاَ) زِيْدَتْ فِيْهَا التَّاءُ، كَمَا زِيْدَتْ فِي ثُمَّتَ وَرُبَّتَ). وقال قومٌ: إنَّ التاءَ زِيدَتْ في (حِينَ) كما زِيدَتْ في قولِ الشَّاعرِ:

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ   وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أيْنَ الْمُطْعِمُ؟[٦]

---

(١) ذكره ابن النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص٣٠٢.
(٢) الزخرف / ٤٤ .
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٤؛ قال القرطبي: (ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قبول الحق).
(٤) النَّزو: من نَزَا، أي وثب، وبابه عَدَا. والمراد: ضربُ العدُوّ.
(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه) وذكره.
(٦) البيت لأبي وجزة السعدي. قاله ابن النحاس في إعراب القرآن: ج ٣ ص٣٠٤. وينظر: اللسان: (ليت): ج ١٢ ص٣٧٣.

والمرادُ بتَحِينَ: حِينَ. فمَن قالَ: إنَّ التاء مع لاَ، فالوقفُ عليه بالتاءِ. ورُوي عن الكسائيِّ (وَلاَه) بالهاءِ في الوقفِ، ومثلهُ روى قنبلُ عن ابنِ كثير. ومَن قالَ: إن التاءَ مع حينَ لاَ، فالوقفُ عليهِ،(ولا) ثُم تبتدئ: تحين مناص[1].

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ إذا قَاتَلُوا فاضْطَرَبُوا فِي الْحَرْب، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنَاص؛ أيْ اهْرُبُوا وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، فَلَمَّا نَزَلَ بهمُ الْعَذابُ ببَدْرٍ قَالُوا: مَنَاص، عَلَى عَادَتِهِمْ، فَأَجَابَتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ: وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاصٍ؛ أَيْ لَيْسَ هَذا حِيْنَ مَنْجَى)[2].

وَقِيْلَ: معناُه: (وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاصٍ) أي ليسَ هذا حينَ نَزْوٍ ولا حينَ فِرَار، والمناصُ مصدر من النَّوْص، يقالُ: نَاصَهُ يَنُوصُهُ إذا فَاتَهُ، ويكون النَّوْصُ بمعنى التأخُرِ؛ أي ليس هذا حينَ التأخُرِ، والنَّوْصُ هو الفَوْتُ والتأخُر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي وعَجِبَ المشركونَ أنْ جاءَهم نَبيٌّ منهم يخوِّفُهم من عذاب الله، ﴿ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعنونَ النبيَّ ﷺ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ؛ أي قالُوا لفَرْطِ جَهلِهم على وجهِ الإنكار: أجعلَ مُحَمَّدٌ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً ؟ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أمَّا هذا الذي يقولُ مُحَمَّدٌ ﷺ من ردِّ الحوائجِ إلى إلَهٍ واحدٍ، إلاَّ شيء مُفْرِطٌ في العَجَب.

والعُجَابُ: ما يكون في غايةِ العَجَب، يقالُ: رجلٌ طُوَالٌ، وأمْرٌ كُبَارٌ، وسيفٌ قُطَاعٌ، وسَيلٌ حُجَافٌ، ويرادُ بذلك كلِّ مبالغةٍ.

وذلك أنَّ عُمرَ بنَ الخطَّاب لَمَّا أسلمَ شَقَّ على قُريشٍ، فقال الوليدُ بن المغيرةِ للمَلأ مِن قريشٍ وهم الرُّؤساءُ والصَّناديدُ والأشرافُ، وكانوا خَمسةً وعشرين رَجُلاً، منهم الوليدُ بن المغيرة وهو أكبرُهم سِناً، وأبو جهلٍ، وأبَيُّ بن خلفٍ، وأبو البحتري بن

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣٠٤.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٥. وينظر: الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٤. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٤٦.

هِشَام، وعُتبة وشيبَةُ ابنَا ربيعةَ، والعاصُ بن وائلٍ، والنضرُ بن الحارثِ، ومَخرَمَةُ بن نوفلٍ، وزمعَةُ بن الأسودِ، والأحنَفُ بن شُريقٍ، وغيرُهم.

قال لَهم الوليدُ بن المغيرة: امْشُوا إلَى أبي طَالِبٍ وَقُولُوا لَهُ: أنْتَ شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا، وَإنَّا أتَيْنَاكَ لِتَقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ أخِيْكَ. فَمَشَوا إلَيْهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ مَرَضَ الْمَوْتِ، فَشَكَوا إلَيْهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: [أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً إذا قَالُوهَا مَلَكُوا الْعَرَبَ وَدَانَتْ لَهُمُ الْعَجَمُ] فَقَالُوا: وَمَا هِيَ ؟! قَالَ: [قُولُوا لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ] فَنَفَرُوا مِنْ ذلِكَ؛ وَقَالُوا: أنَجْعَلُ آلِهَةً إلَهاً وَاحِداً ؟![1]

وَقِيلَ: إنَّ أبا طالبٍ لَمَّا دعَا النبيَّ ﷺ قالَ: يا ابنَ أخِي؛ هؤلاءِ قومُكَ يسألونكَ السَّواءَ، فلا تَمِلْ كلَّ الميلِ عليهم، فقال: [وَمَاذا يَسْألُونَنِي ؟] قال: ترفضُ ذكرَ آلهتِهم ويدَعُونَكَ وإلَهكَ، فقال النبيُّ ﷺ: [إنِّي أدْعُوهُمْ إلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ] قَالُوا: وما هي؟ قالَ: [لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ].

فنَفَرُوا من ذلكَ، وقال: (اجْعَلِ الآلهةَ إلهاً واحداً)، فاغتاظوا مِن ذلكَ وخرَجُوا من عندِ أبي طالبٍ يقولُ بعضهم لبعضٍ: أمشُوا واصبروا على آلهتِكُم[2]. فذلكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾[3]؛ أي انطلقَ مِن مجلسهم وهم يقولون الذي كانوا فيه عندَ أبي طالب، وهم يقولون: اثبتُوا على عبادةِ آلهتِكُم واصبروا، ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ؛ على دِينكم، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي هذا الشيءُ يريده مُحَمَّدٌ ﷺ ولا يتمُّ له ذلكَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٢٧. والترمذي في السنن: كتاب التفسير: الحديث (٣٢٣٢). والنسائي في السنن الكبرى: ج ٥ ص٨٧٦٩.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٥٠.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص١٥٠.

قولهُ تعالى: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ أي قالُوا: ما سَمِعْنَا بهذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ ﷺ من التَّوحيدِ في الملَّةِ الآخرةِ، يعنونَ النَّصرانيةَ؛ لأنَّها آخِرُ الْمِلَلِ، والنصارَى لا تُوحِّدُ بأنَّهم يقولون: ثالثُ ثلاثةٍ. ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي قالُوا: ما هذا الذي يقولهُ مُحمَّدٌ ﷺ إلاَّ كذِبٌ اختَلَقَهُ من تلقاءِ نفسهِ، يعنونَ الذي جاءَ به من التوحيدِ والقُرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ ؛ أي قالَ المشركون: اختُصَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بالنُّبوة والكتاب من بيننا، ونحن أكبرُ منه سنّاً وأعظمُ شرَفاً! والمعنى بالذِّكْرِ القرآن.

يقول اللهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ ؛ أي يقولون ما يعتقدونهُ إلاّ شاكِّين، ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ الاستئصال، وهذا تهديدٌ لهم، أي أنَّهم سيذُوقوا العذابَ ثم لا ينتفِعون بزوالِ الشَّكِّ في ذلكَ الوقتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: عندَهم خزائنُ رحْمَة ربكَ؛ أي بأيديهم مفاتيحُ النُّبوة والرِّسالة فيضعونَها حيث شاؤُا. وَقِيْلَ: معناهُ: عندَهم خزائنُ رحمة ربكَ فيمنعونكَ ما مَنَّ اللهُ به عليكَ من الكرامةِ وفضَّلَكَ به من الرِّسالةِ. ومعنى الآيةِ: ليس ذلكَ بأيدِيهم ولكنه بيَدِ العزيزِ في مُلكهِ، الوهَّاب الذي وَهَبَ النبوَّةَ لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهم كانوا يَحْسِدُونَ النبيَّ ﷺ على ما خُصَّ به من النبوَّةِ والوحْيِ، فقالَ اللهُ تعالى: (أمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ) فيُنازعُوا خالِقَهم، وينزِّلُ الوحيَ على من يختارُ، فقال لَهم: (فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَاب) أي فَلْيَصْعَدْ في طَوْقِ السَّموات مِن سماءٍ إلى سماء، فليَمْنَعِ الوحيَ عنكَ إنْ كان لهم مَقْدِرَةٌ على ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ أنه سيُهزَمُ جندُ المشركين ببَدْرٍ، و(جُنْدٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي هُمْ جُنْدٌ، و(مَا) زائدةٌ، و(هُنَالِكَ) إشارةٌ إلى بدلٍ ومَصَارِعهم بها و(الأَحْزَاب) سائرُ مَن تقدَّمَهم

من الكفَّار الذين تجرَّؤوا على الأنبياءِ عليهم السلام[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، أي كذبَتْ قبلَ قومِكَ قومُ نوحٍ، ﴿ وَعَادٌ ﴾ ، هوداً، وَ كذب، ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ ، وموسى ﷺ، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ ، صالحاً، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ ، لوطاً، ﴿ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ﴾ ؛ شعيباً، كَذبَ هؤلاءِ أنبياءَهم فحلَّ بهم عذابُ الاستئصال، وكذلكَ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ؛ أي أوْلَئِكَ، ﴿ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ ، والأحزابُ الجماعةُ الكثيرة القويَّة، ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ ، كلُّهم كذبُوا الرُّسُلَ رسلهم، ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ ، فحَقَّ عليهم عقابي وعذابي، وكذلك يحقُّ على قومِكَ.

وسُمِّيَ فرعونُ ذُو الأوتادِ؛ لأنه كان يَمُدُّ بين الأوتادِ فيُرسِلُ عليهم الحيَّات والعقارب. وَقِيْلَ: إنه كان إذا غَضِبَ على الإنسان وَاتَدَ يَدَيْهِ ورجلَيْهِ ورأسَهُ على الأرض، قال عطيَّة: (ذُو الأوتادِ؛ أي ذُو الجنودِ والْجُمُوعِ الكثيرةِ)[٢] يعني أنَّهم كانوا يُقَوُّنَ أمرَهُ ويشددون مُلكَهُ كما يُقوِّي الوتدُ الشيءَ. وَقِيْلَ: الأوتادُ الأَبْنِيَةُ الْمَشِيدَةُ، سُمِّيت بذلك لارتفاعِها كما سُميت الجبالُ أوتاداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي ما ينظر أهلُ مكَّة لوقوعِ العذاب بهم إلاَّ صيحةً واحدةً وهي نفخةُ البعثِ، وذلكَ أنَّ العقوبةَ في قومِ النبيِّ ﷺ مُؤَخَّرَةٌ إلى يومِ البعثِ، وعقوبةُ الأممِ الماضية كانت مُعَجَّلَةً في الدُّنيا ومُؤَجَّلَةً في الآخرةِ، ألاَ ترَى أنَّ اللهَ تعالى ذكرَ عقوبةَ الاستئصالِ في الدُّنيا من الأُممِ الماضيةِ، وقالَ في هذهِ الأُمَّة ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي ما لِتِلْكَ الصَّيحةِ مِن رجعةٍ إلى الدُّنيا، والفَوَاقُ بضَمِّ الفاءِ وفتحِها بمعنىً واحدٍ وهو رجوعٌ، ومن ذلكَ قولُهم: أَفَاقَ فلانٌ من الْجُنُونِ ومِن المرضِ؛ إذا رَجَعَ إلى الصِّحة. والفُوَاقُ بضَمِّ الفاءِ ما بين

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٣٩٩. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣٠٦.
(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦.
(٣) القمر / ٤٦.

حَلْبَتَي النَّاقَةِ؛ لأن اللَّبن رجوعهُ إلى الضَّرعِ بينَ الحلبَتين. والمعنى: ما ينظرُ هؤلاء إلاّ صيحةً واحدة ما لَها من رُجوعٍ. وَقِيْلَ: يردِّدُ لكَ الصوتُ فيكون له رجوعٌ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ ؛ أي قالَهُ المشركون عَجِّلْ لنا صَحِيفتَنا قبلَ الحساب حتى نَعلَم ما فيها، قال الكلبيُّ:(لَمَّا نَزَلَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ و﴿أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ قالُوا على جهةِ الاستِهْزاء: رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا فِي الدُّنْيَا، فقيل: يومُ الحساب أعجِلْ لنا كتابَنا، قالُوا ذلك تَكذِيباً واستهزاءً)[٢].

والقِطُّ: الصَّحِيفَةُ التي أحْصَتْ كلَّ شيءٍ. وَقِيْلَ: القِطُّ: النَّصيبُ، وسُميت كتبُ الجوائز قُطُوطاً لأنَّهم كانوا يكتبون الأنصِبَاءَ من العطَايَا في الصَّحائفِ، يقالُ: أخَذ فلانٌ قِطَّهُ؛ إذا أخذ كتابَهُ الذي كُتِبَ له بجائزتهِ وصِلَتِه.

وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (قِطَّنَا) أيْ حَظَّنَا مِنَ الْعَذاب وَالْعُقُوبَةِ)[٣]. قال قتادةُ: (نَصِيبَنَا مِنَ الْعَذاب)[٤]. قال مجاهدُ: (عُقُوبَتَنَا)[٥]. وقال عطاءُ: (هُوَ يَقُولُهُ النَّضرُ بْنُ الْحَارثِ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائْتِنَا بعَذابٍ أَلِيمٍ)[٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ؛ اصبْرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقولون مِن تكذِيبِكَ وعلى قولِهم إنَّكَ ساحرٌ وشاعر ومجنونٌ وكاهن، وانتظِرْ ما وعَدَكَ اللهُ من

---

(١) الفُواق والفَواق: اسمان من الإفاقة. ومعنى الإفاقة الرجوع والسكون كما في إفاقة المريض، إلا أن الفَواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر، والفُواق اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن. والفِيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين. ينظر: الجامع لأحكام القرآن:ج ١٥ ص١٥٦. واللباب في علوم الكتاب: ج١٦ ص٣٨٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٨٧٦).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٦. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

النصرِ عليهم والانتقامِ منهم، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ ؛ أي ذِي القوَّة في العبادةِ وذا النِّعَم الكثيرةِ، كيف صبَرَ على أذى قومه، ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي مُطيعٌ للهِ، مُقبلٌ على طاعتهِ. والأَوَّابُ: كثيرُ الأَوْب الى اللهِ تعالى. قال الزجَّاجُ: (كَانَتْ قُوَّةُ دَاوُدَ عَلَى الْعِبَادَةِ أتَمَّ قُوَّةٍ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً، وَذلِكَ أشَدُّ الصَّوْمِ، وَكَانَ يُصَلِّي نِصْفَ اللَّيْلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الجبالَ كَانَتْ تُسَبحُ معَهُ غُدوةً وعشِيَّةً. والإشراقُ طُلُوعُ الشَّمسِ وإضاءَتُها، يقالُ: شَرَقَتْ إذا طلَعَتْ، وأشْرَقَتْ في الآية بصلاة الضُّحى، وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه: (كُنْتُ أقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ لاَ أدْري مَا هِيَ، حَتَّى حَدَّثَتْنِي أمُّ هَانِيءٍ فِي بَيْتِ أبي طَالِبٍ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَدَعَا بوُضُوءٍ، فَتَوَضَّأ ثُمَّ صَلَّى الضُّحَى، وَقَالَ: [يَا أمَّ هَانِيءٍ هَذِهِ صَلاَةُ الإشْرَاق])[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا له الطَّيرَ مجموعةً إليه تُسبحُ اللهَ معه غُدوةً وعشياً، (كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ) أي كلٌّ للهِ تعالى مُسَبحٌ ومطيعٌ يرجع التسبيحَ مع داودَ كلما سبَّحَ. وَقِيْلَ: معناهُ: كلٌّ له رجَّاعٌ إلى طاعتهِ وأمره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ؛ أي قوَّينا مُلكَهُ وثبَّتناهُ بالهيبةِ، ويقالُ بالحرَس، كان يحرسُ محرابَهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجُلٍ، كان فيهم أبناءُ الأنبياءِ لم يطمَعْ في مُلكهِ أحدٌ. قرأ الحسنُ: (وَشَدَّدْنَا) بالتشديد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (الْحِكْمَةُ هِيَ النُّبُوَّةُ وَالْمَعُونَةُ بكُلِّ مَا حكَمَ). فقال مقاتلُ: (الْحِكْمَةُ الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ)[2]. وَقِيْلَ: الحكمةُ كلُّ كلامٍ حسَنٍ يدعُو إلى الهدى وينهَى عن الرَّدَى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥: الحديث (٤٢٥٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١١٥.

وأما (فَصْلَ الْخِطَاب) فهو فصلُ القضَاءِ بين الحقِّ والباطلِ فيما بين الخصُـومِ، لا يُتعْتِعُ في قضائهِ[١]. وَقِيْلَ: فصلُ الخطاب وهو الحكمُ بالبيِّنـة واليمـين. وَقِيْـلَ: هـو قولهُ: أمَّا بعدُ، وهو أوَّل مَن قال: أمَّا بعدُ، ومعناهُ أما بعـدَ حمـدِ الله فقـد بلغـتُ كـذا وسمعتُ كذا.

قَوْلُهُ تَعـالَى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) ﴾؛ اختلَفُوا في خَطِيئَةِ داودَ عليه السلام والذي هو مستفيضٌ بين العوامِّ ما ذكـرَهُ الكلـبيُّ: (أن داودَ عليه السلام كان يُصَلِّي ذاتَ يومٍ في محرابه، والزَّبُورُ منشـورٌ بـين يدَيـهِ، إذ جـاءَهُ إبليسُ في صُورةِ حَمامةٍ من ذهَبٍ فيها كلُّ لونٍ حَسَنٍ، فوقفت بـين يديـهِ فمَـدَّ يـدَهُ ليأخُذهـا، فطارَتْ غيرَ بعيدٍ من غيرِ أن توَسِّد مِن نفسِـها، فـامتدَّ إلَيـها ليأخُذهـا فطـارت حتـى وقعَتْ في الكُوَّة، فذهبَ ليأخُذها فطارَتْ من الكوَّة، فجعلَ داودُ عليه السلام ينظر أين تقعُ، فأبصرَ امرأةً في بُستان تغتسلُ، وإذا هي من أعجَب النِّساء وأحسَنِهنَّ، وأعجبته، فلمـا حانَتْ منها التفاتةٌ أبصرَتْهُ فأسبَلَتْ شعرَها على جسـمِها فغطَّـى بدنَـها، فـزادَهُ ذلـك إعجاباً بها. فسألَ دواد عنها وعن زوجِها، فقالوا اسمها تشايعُ بنـت شـائعٍ وزوجُـها أوريَّا بن حنانا وهو غائبٌ في غُزَاةٍ بالبلقاء مـع أيُّـوب بـن صوريـا ابـنِ أخـت داود، فكتبَ داودُ إلى ابنِ أخته: اذا أتاكَ كِتَابي هذا فابعَثْ أوريا إلى موضعِ كذا وإلى القلعـةِ الفلانيَّة، ولا يرجِعُوا حتى يفتحوها أو يُقتلوا. فلما جاءَ الكتابُ نَدَبَـهُ ونـدبَ النـاسَ معه، فأتَوا القلعةَ فلما أتَوْها رمَوهُم بالحجارةِ حتى قَتلُوهم وقُتِلَ أوريـا معـهم. فلمـا انقضت عدَّتُها تزوَّجَها داودُ عليه السلام، فهي أمُّ سليمان[٢].

---

(١) التَّعْتَعَةُ في الكلام: التردد من حصر أو عيٍّ. والأصل أن فصل الخطـاب عبـارة عـن كـون الـذي أوتيه يكون قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضـر في الخيـال، بحيـث لا يختلـط شـيئاً بشيء، وبحيث يفصل كل مقام عما يخالفه. وهذا معنى عام يتنـاول فصـل الخصومـات ويتنـاول الدعوة إلى دين الله الحق.

(٢) مـا أورده الطـبراني هنـا في حقِّ داود عليــه الصـلاة والسـلام مـن قبيـل الإسـرائيليات، ولا صحـة لـه. وأورده الطـبري علـى سـبيل حكايـة اختـلاف كمـا في جـامع البيـان: الآثـار (٢٢٩٣٥-٢٢٩٤٢). وهي ضرب من أوهام القصَّاص وخيالاتهم التي يجـل الله عنـها المؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين.

فلما دخلَ داودُ عليه السلام بها، فلم يلبَثْ إلاَّ يسيراً حتى بعثَ عليه مَلَكين في صُورةِ آدميِّين، فطلبَا أن يدخُلا عليهِ فوجداهُ في يومِ عبادتهِ، وكان مِن عادتهِ أنَّهُ جَزَّأ الدهرَ يوماً لعبادتهِ؛ ويَوماً لنسائهِ؛ ويوماً للقضاءِ بين النَّاسِ.

فلما جاءَ الملَكان في يومِ عبادته منَعَهُما الحرسُ من الدخول عليه، فتسوَّرُوا المحرابَ؛ أي دخَلُوا عليه مِن فوق المحراب[1] ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ ﴾ ، فلم يشعُرْ وهو يصلِّي إلاّ وهُما بين يدَيه جالِسَين، ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ ﴾ ، ففَزِعَ منهما، فقالا: لا تخَفْ يا داودُ نحنُ، ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ؛ أي ولا تجُرْ، قال السدِّيُّ: (وَلاَ تُسرِفْ)[2]، وقال المؤرِّج: (وَلاَ تُفَرِّطْ).

وقرأ أبو رجاء (تَشْطُطْ) بفتح التاءِ وضمِّ الطاء الأُولى من الشَّطَطِ، والإشْطَاطُ مجاوزةُ الحدِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وَأرْشِدْنَا إلى الطريقِ المستقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ ؛ قال أحدُ الملَكين: إن هذا أخِي؛ أي على دِيني لهُ تِسعٌ وتِسعون امرأةً. والنعجةُ: البقرَةُ الوحشيَّة، والعربُ تكنِّي عنِ المرأةِ بها، وتشبهُ النساءَ بالنِّعَاجِ من البقرِ، وإنما يعني بهذا داود؛ لأنه كان له تسعٌ وتسعون امرأةً، وهذا من أحسنِ التَّعريضِ، ويُسمَّى تعريضُ التفهيمِ والتنبيهِ؛ لأنه لم يكن هناك نعاجٌ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ ؛ أي امرأةٌ واحدة، ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ؛ أي ضُمَّها إلَيَّ واجعلني كبَعْلِها أعُولُها. والمعنى: طلِّقها حتى أتزوَّجَها، وقال ابنُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٣٨. وقال ابن كثير في التفسير: ج ٤ ص٣٢:(وقد ذكر المفسرون قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، ولكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر في رواية هذه القصة وأن يُرَدَّ علمها إلى الله عزَّ وجلَّ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩١٤) بلفظ: (ولا تُحِف).

جبير: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (أَكْفِلْنِيهَا) أيْ تَحَوَّلْ عَنْـهَا)، ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي غلبَني، وقال الضحَّاك: (أيْ تَكَلَّمَ وَكَـانَ أفْصَـحَ مِنِّـي، وَإنْ عَـادَانِي كَـانَ أبْطَـشَ مِنِّي)(١)، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ أعَزُّ مِنِّي وَأقْوَى عَلَى مُخَاطَبَتِي لأنَّهُ كَانَ الْمَلِكَ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ ؛ أي إنْ كـان الأمرُ كما تقولُ فقد ظلمَكَ بما كفلَكَ من قولهِ عن امرأتِكَ ليتزوَّجَها هو. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ معنـاهُ: وإنَّ كثـيراً مـن الشُّـركاء لَيظلِمُ بعضُهم بعضاً، ظنَّ داودُ أنَّهما شَريكان. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: إلاَّ الذين آمَنُوا ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ فإنَّهم لا يَظلمُونَ أحَداً، ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ؛ أي هم قليلٌ، يعني الذين لاَ يظلِمُون.

قال السديُّ: (لما قال أحدُهما: إنَّ هذا أخِي له تسعٌ وتسعون نعجةً، قـال داودُ عليه السلام للآخر: ما تقولُ؟ قالَ: نَعَمْ لي تسعٌ وتسعون نعجـةً ولـه نعجـةٌ، وأنـا أريـد أنْ آخُذها وأكَمِّل نعاجِي مائةً، قال داودُ عليه السلام: وهو كارهٌ ؟ قال نعَمْ وهو كارهٌ، قال: إذاً لا ندعُكَ وإنْ رُمْتَ ذلك ضرَبْنا منكَ هذا، وهذا يعني طرفَ الأنفِ، وأصلهُ: الجبهة.

قال: يا داودُ أنتَ أحقُّ أن يُضرب مثلَ هذا، وهذا يعني طرفَ الأنـفِ وأصلـهُ، حيث كان له تسعٌ وتسعون امرأةً ولم يكن لأوريَّا إلاّ امرأةً واحدة، فلم تـزَلْ تُعَرِّضُـهُ للقتلِ حتى قُتل وتزوَّجتَ امرأتَهُ. ثم صعدَا إلى السَّـماء، فعَلِـمَ داودُ عليه السلام أنَّ الله قـد ابتلاهُ وامتحنَهُ، فخَرَّ راكعـاً أي سـاجِداً وأنـابَ، ورجـعَ إلى طاعـةِ الله تعـالى بالتَّوبـةِ والنَّدامَةِ(٢).

ومعنى قولهِ تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ ؛ أي وعلِمَ داودُ أنَّا امتحنَّاهُ بمـا قدَّرنا عليه من نظرهِ إلى المرأةِ وافتتانه بها، وهذا قولُ بعضِ المفسِّرين، إلاّ أنَّ هذا قَوْلٌ مَرْدُودٌ، لاَ يُظَنُّ بدَاوُدَ عليه السلام ضَلاَلَـةٌ، فـهو أجَـلُّ قـدرةً وأعظَـمُ منْزلَـةً، وكيـف يُظَـنُّ بالأنبياءِ عليهم السَّلام أن يعرِّضَ المسلمينَ للقتـلِ لتحصيـل نسـائهم لأنفسِـهم، ومَـنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩٢٩).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٠٩.

نَسَبَ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إِلَى هَذا وَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ مِمَّنْ لاَ يَصْلُحُ لإِيْمَانِهِ بهِمْ، وَلَئِنْ يُخْطِئَ الإِنْسَانُ فِي نَفْيِ الْفَوَاحِشِ عَنْهُمْ خَيْرٌ مِمَّنْ يُخْطِئُ فِي إِضَافَتِهَا إِلَيْهِمْ، وَقَدْ أُمِرْنَا فِي الشَّرِيعَةِ بِحَمْلِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ مَا أَمْكَنَ.

وعن عبدِالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: (مَا زَادَ دَاوُدُ عليه السلام عَلَى أَنْ قَالَ لِزَوْجِهَا: تَحَوَّلْ لِي عَنْهَا)(١). وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال: (لَئِنْ سَمِعْتُ أحَداً يَقُولُ إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام قَارَبَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ سُوءاً أوْ حَدَّثَ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عليه السلام عَلَى مَا يَرْوِيهِ الْقُصَّاصُ مُعْتَقِداً صِحَّتَهُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ جَلْدَةً)(٢) يعني مثلَ حدِّ قذفِ سائرِ الناس.

وَقِيْلَ: إنَّ ذنبَ داودَ عليه السلام أنه تَمَنَّى أن تكون له امرأةُ أوريا حَلالاً، وحدَّثَ نفسَهُ بذلك، فاتفقَ غزوُ أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكهُ، فلما بلغَهُ قتلهُ لم يَجْزَعْ ولم يتوجَّع عليه كما يجزعُ على غيرهِ من جُندهِ إذا هلكَ، ثم تزوَّجَ امرأتَهُ فعاتبَهُ اللهُ على ذلكَ؛ لأن ذنوبَ الأنبياءِ وإن صغُرت فهي عظيمةٌ عند اللهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) ﴾؛ أي خَرَّ سَاجداً، وعبَّر عن السُّجود بالرُّكوع لأن كلَيهما بمعنى الانحناءِ، رُوي أنه مكثَ ساجداً أربعين ليلةً حتى نبتَ العشبُ من دموعهِ على رأسهِ وأكلتِ الأرضُ جبينَهُ، وكان يقولُ: رب زَلَّ داودُ زلَّةً أبعدَ ما بين المشرقِ والمغرب، سُبحان الْمَلِكِ الأعظمِ الذي يبتَلِي الخلقَ بما يشاءُ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي تبْكِي الثَّكلَى على ولَدِها إذا فَقَدَتْهُ، وداودُ يبكِي على خطيئتهِ.

إلَهي أنتَ خلقتَنِي وفي سابقِ علمِكَ ما أنا إليه صائرٌ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي الويلُ لداودَ إذا كُشِفَ الغطاءُ، فيقالُ: هذا داودُ الخاطِئُ، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي بأيِّ عينٍ أنظرُ إليكَ يومَ القيامةِ، وإنما ينظرُ الظالِمون من طرفٍ خفِيٍّ، وبأيِّ قَدَمٍ أقُومُ بها يوم تَزِلُّ أقدامُ الخاطئين، سُبحان خالقِ النُّور.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٢٩٢٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٤٠. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٦١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس) وذكره.

(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب: ج ١٦ ص٤٠٢.

إلَهي أنا الذي لا أطِيقُ حرَّ شَمسِكَ فكيف أطيقُ حرَّ نارِكَ؟ سبحانَ خالق النُّور، إلَهي قَرُحَ الجبينُ وجمدَتِ العينان من مخافةِ الْحَرِيقِ على جسَدِي، سُبحان خالق النُّور، إلَهي أنتَ المغيثُ وأنا المستغيثُ، إلَهي أنتَ تعلمُ سَريرَتي وعَلاَنِيَتِي، فاقْبَلْ معْذِرَتِي، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي برحمَتِكَ اغفِرْ لي ذُنوبي ولا تُباعِدْني من رحمتِكَ فإنَّ إليك رَغبَتِي، سُبحان خالقِ النُّور.

إلَهي أعوذُ بنور وجهكَ الكريمِ من ذُنوبي التي أوْبَقَتْنِي، إلَهي أعوذُ بكَ من دعوةٍ لا تُستجاب، وصلاةٍ لا تُقبَلُ، وذنبٍ لا يغفَرُ، سبحانَ خالقِ النُّور، إلَهي فرَرْتُ إليكَ بذنُوبي واعترفتُ بخطِيئَتِي فلا تجعَلنِي من القَانِطِينَ، ولا تُخزِني يومَ الدِّين، سُبحان خالقِ النُّور، إلَهي قَرُحَ الجبينُ وفَنِيَتِ الدموعُ وتناثرَ الدُّودُ من رُكبَتَيَّ وخطيئتي الزَمْ بي من جِلدِي، سُبحان خالقِ النُّور.

فأتاهُ نداءٌ من السَّماء يا داودُ أجائعٌ أنتَ فتَطْعَمْ ؟ أظمآنٌ أنتَ؟ لتبقَى مظلومٌ أنتَ فتُنصرْ، ولم يُجبْهُ في ذكرِ خطيئته بشيءٍ، فصاحَ صيحةً فنُودِيَ: ارفَعْ رأسَكَ فقد غَفَرْتُ لكَ، فلم يرفَعْ رأسَهُ حتى أتَى جبريلُ فرفعَهُ.

قال وهبُ: (لَمَّا نُودِي داودُ عليه السلام يا داود إنِّي قد غفرتُ لكَ، قال: يا رب وكيف أنتَ لا تظلمُ أحداً ؟ قال اذهَبْ إلى قبرِ أوريا فناده وأنا أسمعهُ نداءَك فتحلَّلْ منه، وانطلقَ حتى أتَى قبرَهُ، وناداهُ يا أوريا فقالَ: لَبَّيكَ مَن هذا الذي قطعَ عليَّ لذتِي؟ فقال أنا داودُ، فقال ما جاءَ بكَ يا نبيَّ الله ؟ قال: أسألُكَ أن تجعلَني في حِلٍّ مما كان منِّي إليكَ، قال: وما كان منكَ إلَيَّ ؟ قال: عرَّضتُكَ للقتلِ، قال: إنما عرَّضتَني للجنَّة، فأنتَ في حلٍّ.

فأوحَى اللهُ إليه: يا داودُ ألَم تعلَمْ إنَّ حُكمِي عدلٌ، ألاَ أعلمتَهُ أنَّكَ قد تزوَّجتَ امرأتَهُ. قال: فرجعَ فناداهُ، فقال: مَن هذا الذي قطعَ عليَّ لذتِي ؟ فقالَ: أنا داودُ، قالَ: يا نبيَّ اللهِ أليسَ قد غفرتُ عنكَ ؟ قال: بلَى؛ ولكنْ إنَّما فعلتُ ذلك بكَ لمكان امرأتِكَ، وقد تزوَّجتُها فسكتَ فلم يجِبْهُ، فدعَا فلم يجِبْهُ، ودعاه فلم يجِبْهُ، فقامَ عند قبرِهِ وجعلَ الترابَ على رأسِهِ. ثم نادَى: الويلُ لداودَ ثم الويلُ الطويلُ لداود إذا نُصبت الموازينُ القِسْطُ يومَ القيامةِ، سُبحان خالقِ النُّور، الويلُ ثم الويلُ لداودَ حين

يؤخَذُ بذنبهِ، سُبحان خالقِ النُّور، الويلُ لداودَ ثم الويلُ له حين يُسحَبُ على وجههِ مع الخاطِئين إلى النَّار، سُبحان خالقِ النُّور.

فنودِيَ يا داودُ قد غفرتُ لكَ ذنبكَ ورحمتُ بكاءَك واستجبتُ دعاءَك وأقَلْتُ عثرتَك، فقال: يا رب تعفُوني وصاحبي لم تعفُ عنه ؟ قال: يا داودُ أعْطِيهِ يومَ القيامةِ ما لَم ترَ عيناهُ ولم تسمَعْ أذُناهُ، وأقولُ له: هذا عِوَضٌ مِن عبدي داودَ، فاستوهبْكَ منه فيهَبُكَ لِي، قال: يا ربِ الآنَ قد عرفتُ أنَّكَ قد غفرتَ لي[1]، فذلكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا ﴾ ؛ بعد المغفرة؛ ﴿ لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لقُربةً ومكانةً ومنزلةً حسَنة.

وعن مالكِ بن دينار في قولهِ تعالى: (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى) قال: (يَقُولُ اللهُ لِدَاوُدَ وَهُوَ قَائِمٌ بسَاق الْعَرْشِ: يَا دَاوُد مَجِّدْنِي بصَوْتِكَ الرَّخِيم، فَيَقُولُ: كَيْفَ وَقَدْ سَلَبْتَنِيهُ فِي الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ: إنِّي أرُدُّهُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَرَفَعَ دَاوُدُ صَوْتَهُ بالزَّبُور فَيَسْتَفْرغُ نَعِيمَ أهْلِ الْجَنَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ (وَحُسْنَ مَآبٍ) يَعْنِي الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ مَآبُ الأَوْلِيَاءِ وَالأَنْبيَاءِ)[2].

وعن وهب بن منبه قال: (لَمَّا تابَ اللهُ على داود بكَى على خطيئتهِ ثلاثين سنةً لا ترقَى له دمعةٌ ليلاً ولا نَهاراً، وكان أصابَ الذنبَ وهو ابنُ سبعين سنةً، وكان يخرجُ إلى الفَيَافِي فيبكي ويبكِي معهُ الشجر والرمال والطيرُ والوحش، ثم يجيءُ إلى الجبالِ فيرفَعُ صوته بالبكاءِ فتبكي معه الحجارةُ والجبال والدواب، ثم يجيءُ إلى الساحلِ فيبكي وتبكِي معه الحيتانُ ودوابُّ البحرِ وطيرُ الماء.

ثم يرجعُ إلى محرابهِ وقد بسطَ له فيه فُرُشٌ من مسوحٍ حشْوُهَا لِيف، فيجلسُ عليها ويجيءُ الرُّهبان فيجلسون معه فيبكِي ويَنُوحُ، والرهبانُ معه فلا يزالُ يبكي حتى تغرَقُ الفُرُشُ في دموعهِ ويصيرُ داود مثل الفرخ، فيضطربُ ويجيء ابنهُ سليمان عليه السلام

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٤٠.

فيحملهُ، فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببُكاءِ أهلِ الدُّنيا لعدلَهُ)[١].

ورُوي أن داودَ عليه السلام ما شَرِبَ قطّ بعد المغفرةِ شَراباً إلاّ ونصفهُ ممزوجٌ بدموعهِ، وكان يقولُ: سُبحانكَ إلَهي إذا ذكرتُ خطيئَتي ضاقَتْ علَيَّ الأرضُ برَحْبِهَا، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّت إليَّ رُوحي، إلَهي أتيتُ أطبَّاء عبادِكَ فكلُّهم عليك دَلُّونِي.

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: [خَدَتِ الدُّمُوعُ فِي وَجْه دَاوُدَ خَدِيدَ الْمَاءِ فِي الأَرْضِ][٢]، وعن ابنِ عُمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: [كَانَ النَّاسُ يَعُودُونَهُ وَأنَّهُ يَظُنُّونَ أنَّ بِهِ مَرَضٌ وَمَا بِهِ مِنْ مَرَضٍ إلاَّ الْخَوْفُ وَالْحَيَاءُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا رَفَعَ دَاوُدُ عليه السلام رَأسَهُ بَعْدَ الْخَطِيئَةِ إلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ][٣].

وكان داودُ عليه السلام اذا ذكَرَ عقابَ الله تخلَّعَت أوصالهُ، وإذا ذكَرَ رحمتَهُ تراجَعت. وعن الحسنِ رضي الله عنه أنه قالَ:(كانَ داودُ عليه السلام بعد الخطيئةِ لا يجلسُ إلاَّ مع الخاطِئين، ثم يقولُ: تعالَوا إلى داودَ عليه السلام الخطَّاء، وكان يُؤتى بخبزِ الشَّعير في الإناءِ، فلا يزالُ يبكي حتى يمتلئَ بدُموعِ عَينَيه، وكان يذرأ عليه الرَّماد ويأكلهُ ويقول: هذا أكلُ الخاطئين)[٤].

وقال الكلبيُّ رضي الله عنه: (سجدَ داودُ أربعين يوماً حتى سقطَت جلدةُ وجههِ ونبتَ العشبُ من دموعه فعَلَى غطاءَ رأسه، وكان لا يقومُ من سجودهِ إلاّ لصلاةٍ أو قضاءِ حاجة، وكان يقولُ في دعائه ومُناجاتهِ: قد عرفتُ يا رب رحمتَك واسعةً، ولولا رحمتُكَ لفضَحتَني، فمَن الذي ينصُرني إنْ خذلتَني؟ ومَن الذي يغفرُ لي خطِيئَتي إنْ لم تَمحُها عنِّي؟ ومَن الذي يتداركُني برحمتهِ إنْ لم تجاوزْ عنِّي؟

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٩٣-١٩٤. وذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١١١.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص١٩٥. وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص١٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد في الزهد، والحكيم الترمذي عن الأوزاعي).

(٣) لم أجده.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٢.

تصدَّعت الخدودُ وانقطَتِ الاشجارُ وارتجَّت البحارُ وفزعت الجبالُ والآكام من عِظَمِ خطيئَتي، لا أطيقُ حملَها إنْ لم تحمِلْها عني، فَنِيَ دمعِي وطالَ حُزنـي ودقَّ عظمـي وبانَ لَحمي، وبقِيَ ذنبي على ظهرِي.

إليكَ أشْكُو فاقَتي وضَعفِي وإفراطِي في أمري، يا إلهَ إبراهيمَ واسحق ويعقوبَ، تنامُ كلُّ عينٍ وتستريحُ، وقد شَـخِصَتْ عينَـايَ تنتظُـران إلى رحمتِـكَ، أدعـوكَ يـا رب فأسرِعْ إجابَتي وتقبَّل دُعائي وارحم شَحْطِي[1]، وتجاوَزْ عنِّي برحمتِـكَ. فاسـتجابَ اللهُ دعاءَهُ وغفرَ له ذنبَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي قال اللهُ له بعدَ المغفرةِ، (يَاداوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَـةً فِـي الأَرْضِ) أي نَبيّـاً مَلِكـاً علـى بـني إسـرائيلَ، والخليفةُ هو المدبرُ للأمرِ والمقيم. يا داودُ إنَّـا صيَّرنـاكَ خليفـةً في الأرضِ تدبـرُ أمـورَ العبادِ مِن قِبَلِنا، ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي العدل الذي هـو حكـمُ اللهِ بـين خلقهِ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ، في الحكم بين النَّـاس، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي فيصرفُكَ الهوَى عـن طاعـةِ الله، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي عـن دين الله، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ ، في الآخرة، ﴿ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي تركُوا العملَ ليومِ الحساب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ﴾ ؛ أي مـا خلقنَاهُما وما بينَـهما مـن الخلـقِ عبثـاً إلاَّ للأمـرِ والنَّـهي، وإنَّمـا خلقنَاهُمـا للتعبُّـدِ ولنجزِي الْمُحسِنَ على إحسانهِ والمسِيءَ على إساءَتِه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة الذين ظَنُّـوا أنَّـهما خُلِقـا لغـيرِ شـيء، وأنَّـهُ لا قيامـةَ ولا حسابَ، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

(١) الشَّحْطُ والشَّحَطُ: البُعد، وقيل: البعدُ في كلِّ الحالاتِ، يثقَّـل ويخفَّـف، وشَـحَطَ الْمَـزَارُ: بَعُـدَ، وأشحطتُه: أبعدتُه، وشَواحطُ الأودية: ما تباعَدَ منها، وشَحَطَ فلانٌ في السَّوم: إذا اسـتامَ بسـلعته وتباعَدَ عن الحقِّ وتجاوز القَدْرَ). ينظر: لسان العرب: (شحط): ج ٧ ص٤٥.

قال مقاتلُ: قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: إنَّا نُعْطَى فِي الآخِرَةِ مَا تُعْطَوْنَ فأنزلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[١]؛ معناهُ: أنَجْعَلُ المؤمنينَ المطيعينَ كالْمُفسِدِينَ في الأرضِ ؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؟ أي أم نجعلُ الذين يتَّقون الكفرَ والكبائرَ كالفجَّار الذين يرتكبون تلكَ الكبائر[٢]، لا نُسَوِّي بين الفريقينِ ولا نُنْزِلُهما منْزِلةً واحدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ ﴾ أي هذا كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ فيه بركةٌ لكم، كثيرٌ خيرهُ ونفعه يعني القرآنَ، وقولهُ تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾؛ أي ليتدبَّرِ الناسُ آياتهِ يعني آياتِ الله، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي ليتَّعِظْ ذوي العقولِ من الناس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾؛ أي أعطينا لداودَ ولداً وهو سليمانُ، ثم أثنى على سليمان فقالَ: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي رجَّاعٌ إلى اللهِ، مُقبلٌ على طاعته.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾؛ معناه: إذ عُرِض على سليمان بعدَ العصرِ الخيلُ السَّوابقُ وهي الخيول التي غَنِمَها سليمانُ من أهلِ دمشق وأهلِ نَصيبينَ، كانوا جَمعوا جُموعاً ليقاتلوهُ فهزمَهم وأصابَ منهم ألفَ فَرَسٍ غُرابٍ فعُرِضَتْ، فجعلَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ من حُسنها حتى شغلَتْهُ عن صلاةِ العصرِ وغربَتِ الشمسُ.

فذكرَ الصلاةَ فغَضِبَ وقال: رُدُّوا الخيلَ عَلَيَّ، فرُدَّت فجعلَ يضربُ سُوقَها وأعناقَها بالسَّيف حتى عَقَرَ منها تِسعمائة فرَسٍ، وهي التي كانت عُرضت عليه وبقيت مائةٌ لم تُعرض عليه، فكُلُّ ما في أيدِي الناسِ من الخيلِ العِراب فهي من نَسْلِ تلك المائةِ. هذا ذكرَهُ الكلبيُّ[٣].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١١٧.

(٢) في المخطوط: (ذلك الكبائر).

(٣) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٣.

وقد اعتُرِضَ على هذا القولِ فقالُوا: كيف يجوزُ على النبيِّ ﷺ مِـن الأنبياءِ أنْ يَغْفَلَ عن الصَّلاةِ المفروضةِ ثم يعمدَ إلى خيلٍ لا ذنبَ لها يعقِرُها؟! ويجـابُ عنـه: أنْ لم يكن ضربُ سُوقِها وأعناقِها إلاَّ وقد أباحَ اللهُ ذلك وأجـزى بـهِ، وليـس في الآيـةِ مـا يقتضِي أنَّ الصلاةَ كانت مفروضةً عليـهِ في ذلـك الوقـتِ. وقـد يذكـرُ المسحُ ويـراد الضربُ، يقول العربُ: مسحَ علاوته[١] اذا ضربَها بالسَّيف.

والصَّافِنَاتُ هي الخيلُ التي تقومُ ثلاثاً وتكون القائمةُ الرابعـةُ تَصِـلُ إلى طـرفِ حافرِها بالأرضِ. صَفَنَ الفرسُ إذا يَصفِنُّ صُفُوناً إذا قـامَ علـى ثـلاثٍ، وقَلَـبَ أحـدَ حوافرِهِ. والجِيادُ جمعُ جَوَادٍ، يقال فَرَسٌ جوادٌ اذا ((كان سابقاً))[٢] بالرَّكضِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ؛ يعـني إنِّـي آثَرْتُ الخيرَ، ينالُ بهذا الخيلَ فشُغِلْتُ به عنِ الذِّكْرِ، وقد يذكرُ الخيرُ ويراد بـه الخيـلُ، لأن الخيلَ معقودٌ بنواصيها الخيرُ. قال الفرَّاء: (يَعْنِـى آثَـرْتُ حُـبَّ الْخَيْرِ)[٣]. وقـال قطربُ: (أَرَادَ حُبّاً عَلَى الْمَصْدَر، ثُمَّ أَضَافَ الْحُبَّ إِلَى الْخَيْرِ).

وقولهُ تعالى: (عَنْ ذِكْرِ رَبي) يعني صَلاةَ العصرِ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ كنايةٌ عن الشَّمسِ، والمعنى حتى استَوت الشـمسُ بمـا يحجبُـها عن الأبصار؛ ولأنَّ قولَهُ تعالى (بالْعَشِيِّ) كنايةٌ عن الشمس؛ أي فيه مـا يجـري مجـرَى الشمسِ، وجازَ الإضمارُ إذ في الكلامِ ما يدلُّ عليه، قال لَبِيدُ:

حَتَّـى إذا أَلْقَـتْ يَـداً فِـي كَـافِرٍ   وَأجَـنَّ عَـوْرَاتِ الثُّغُـور ظلاَمُـهَا

وقولهُ تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ قال أبو عُبيد: (مَعْنَى الطَّفْقِ يَقُولُ مِثْلَ مَا زالَ يَفْعَلُ[٤]، وَهُوَ مِثْلُ: ظَـلَّ وَبَـاتَ، وَالْمَعْنَـى

---

(١) العِلاَوَةُ: بالكسر، ما علَّيْتَ عليه من البعير بعد تمام الوقـر، أو علَّقتَـهُ عليـه كالسِّقاء والسَّفُود. والجمع (العَلاَوَى) مثل إدْوَاةٍ وإداوَى. قالَه الرازي في مختار الصحاح.

(٢) ما بين ((   )) سقطت من المخطوط، وفي معالم التنزيل: ص١١١٣؛ قـال البغـوي: (والجيادُ: الخيارُ السِّراعُ، وقال ابن عباس: يريد الخيلَ السَّوابق).

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٥.

(٤) في المخطوط: (يفعل مثل ما ذاك يفعل). وهو كما اثبته البغوي في معالم التنزيل: ص١١١٣.

طَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً؛ أيْ يَضْـرِبُ ضَرْباً). وقـال الفـرَّاء: (الْمَسْـحُ هَـهُنَا الْقَطْـعُ)[١]. والمعنى: أنه ضرَبَ سُوقَها وأعناقَها؛ لأنَّها كانت سببَ فَوْتِ صلاتهِ، وقال عندَ ذلك: حتى لا تشغَلَني عن عبادةِ ربي مرَّةً أخرى. والسُّوقُ جَمْعُ سَاقٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ؛ اختلَفُوا في سبب فتنـةِ سُـليمان، قـال بعضُهم: سمعَ سليمانُ بمدينةٍ في جزيرةٍ من جزائر البحر يقالُ لها صَـدُوقُ، بـها مَلِـكٌ عظيمُ الشَّأنِ، فخرجَ سليمانُ إلى تلك المدينةِ تحملهُ الرِّيح حتى نـزلَ بـها بجنـودهِ مـن الجنِّ والانسِ، فقتَلَ مِلكَها وسَبَا ما فيها، وأصابَ فيما أصابَ بنتاً لذلك الملـكِ يقـالُ "لها" جرَادَةٌ، لَمْ يُرَ مثلها حُسناً وجمالاً.

فدعَاها سليمانُ إلى الاسلامِ فأسلَمَت على قلَّة نيَّة منها، ولم يعلَمْ سليمانُ ما في قلبها، فتزوَّجَها وأحبَّها محبةً شديدة لم يُحِبَّ أحداً من نسائهِ، فكانت عنـدَهُ لا يذهـبُ حزنُها ولا يرقَى دمعُها، فشُقَّ ذلك على سليمان، وقال لَها: ويحَـكِ! مـا هـذا الحزنُ الذي لا يذهبُ؟ قالت: إنِّي أذكرُ أبي أذكرُ مُلكَهُ وما كان فيـه ومـا أصابَـهُ، فيُحزِنُـني ذلك. قال سليمانُ: قد أبدَلَكِ اللهُ به مَلِكاً هو أعظمُ مـن مُلكـه، وسُلطاناً خَيراً مـن سُلطانهِ، وهَداكِ للإسلامِ، وهو خيرٌ مِن ذلـك كلِّـه. قـالت: هـو كذلـكَ؛ ولكـن إذا ذكرتُ أبي أصابَني ما ترَى من الحزن، فلو أمرتَ الشَّياطين فصوَّرُوا صورتَـهُ في داري التي أنا فيها أرَاها بُكرةً وعشِيّاً لرجوتُ أنْ يُذهِبَ ذلك حُزني، ويسَلِّي عني بعـضَ مـا أجدُ. فأمرَ سُليمان الجنَّ فمثَّلوا لها صورةَ أبيها في دارها كأنَّه هو، إلاَّ أنه لا روحَ فيـه، فعمَدَت إليه حين صنَعُوهُ فأزَرَتْهُ وقمَّصَتْهُ وعَمَّمَتْهُ وردَته بمثل ثيابهِ التي كان يلبسُها.

وكان إذا خرجَ سُليمان مـن دارهـا تغـدُو عليـه في ولائدِهـا حتـى تسـجدَ لـه ويسجُدنَ هُنَّ له، وكذلكَ كانت تعملُ بالعَشِيِّ وسليمانُ عليه السلام لا يعلمُ شيئاً من ذلك، فكانت على ذلك أربعينَ صباحاً، وبلغَ ذلك آصِفَ بـن برخيـا وكـان صدِّيقـاً، فقـال لسُليمان عليه السلام: إنَّ غيرَ اللهِ يُعبد في دارك منذُ أربعين صَباحاً في هوَى امرأةٍ، قال: فِـي داري؟! قال: في داركَ، قال: إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ.

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٥.

ثم رجعَ سُليمان إلى دارِهِ فكَسَرَ ذلك الصنمَ وعاقَبَ تلك المرأةِ وولائدَها، ثم خرجَ إلى فَلاَةٍ من الأرضِ وحدَهُ، فأمَرَ برمادٍ قد رُشَّ، ثم أقبلَ تائباً إلى اللهِ حتى جلسَ على ذلك الرمادِ وتَمَعَّكَ فيه بثيابهِ تذلُّلاً لله عَزَّ وَجَلَّ وتضرُّعاً إليه، يدعُو ويبكي ويستغفرُ مما كان في دارِهِ، فلم يزل يومَهُ كذلك حتى أمسَى ثم رجعَ.

وكانت أمُّ ولَدٍ يقالُ لها الأَمِينَةُ، كان إذا دخلَ لقضاءِ حاجته وضعَ خاتَمَهُ عندَها حتى يتطهَّرَ، وكان لا يَمَسُّ خاتمهُ وإلاَّ وهو طاهرٌ، وكان مُلكه في خاتمهِ، فوضعَ يوماً من الأيامِ خاتمه عندها كما كان يضعهُ، ثم دخلَ موضعَ الحاجةِ فأتاها الشيطانُ صاحبُ البحرِ وكان اسمهُ صَخْراً على صورةِ سُليمان لا تُنكِرُ منه شيئاً، فقال: يا أمِينَةُ هاتِ خاتَمي، فناولَتْهُ إياهُ، فجعلَهُ في يدِهِ ثم خرجَ حتى جلسَ على سريرِ سُليمان، وعكفَتْ عليه الطيرُ والجن والإنسُ.

وخرجَ سُليمان فأتى أمينةَ وقد تغيَّر من حالهِ وهيئته عند كلِّ من رآهُ، فقال: أمينةُ هاتِ خاتَمي، قالت: ومَن أنتَ؟! قال: أنا سُليمان بن داودَ عليه السلام، قالت: لستَ سُليمان، وقد جاءَ سليمانُ وأخذ خاتمه وهو جالسٌ على سريرِهِ في مُلكه. فعرفَ سليمان أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْهُ، فخرجَ فجعل يقفُ على الدُّور من دُور بني اسرائيلَ، فيقولُ: أنا سليمانُ بن داودَ، فيحثُون عليه الترابَ ويسُبُّونَهُ ويقولون: انظرُوا إلى هذا المجنونِ يزعمُ أنه سليمان.

فلما رأى سُليمان ذلك عَمَدَ إلى البحرِ، فكان ينقلُ الحيتانَ لأصحاب البحر إلى السُّوق ويعطونَهُ كلَّ يوم سَمكتين، فاذا أمسَى باعَ إحدى سَمكتيهِ بأرغفةٍ وشَوَى الأُخرى فأكلَها. فمكثَ كذلك أربعين يَوماً صَباحاً عدَّةَ ما كان عُبِدَ الوثنُ في دارِهِ.

فلما مضَى أربعون يوماً طارَ الشيطانُ عن مجلسهِ، ثم مرَّ بالبحرِ فقذفَ الخاتم فيه، فَبَلَعَتْهُ سمكةٌ فأخذها بعضُ الصيَّادين وكان قد عَمِلَ له سليمانُ، فأعطاهُ سَمكتين أجرَته، فباعَ سليمانُ إحدَى السَّمَكتين بأرغفةٍ وعَمَدَ إلى السَّمكة الأُخرى فشَقَّ جوفَها ليَشويَها، فوجدَ الخاتم فجعلَهُ في يدهِ، ووقعَ ساجداً وعكفتْ عليه الطيرُ والجن، وأقبلَ عليه الناسُ وعرفَ أنَّ الذي كان دخلَ عليه إنما هو بسبب ما كان أحدثَ في دارِهِ، فرجعَ إلى مملكتهِ وأظهرَ التوبةَ من ذنبهِ.

وأمرَ الشياطين فقال: إئتُوني بصخرٍ، فطلبته له الشياطينُ حتى وجدته، فأُتِيَ به فأُدخِلَ في صخرةٍ وسُدَّ عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديدِ والرَّصاص ثم أمِرَ به فقُذف في البحرِ(١).

وقال بعضُهم: كان سببُ فِتْنَتِهِ قتلهُ الخيلَ وضربهُ سُوقَها وأعناقَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ ؛ أي شَيطاناً اسمهُ صَخْرٌ، وقد ذكرناهُ. ويقالُ: معنى ذلك أنَّ سليمان كان له ولدٌ فاجتمعَتِ الشياطينُ فقالَ بعضُهم لبعضٍ: إنْ عاشَ له ولدٌ لم نُنفَكَّ ما نحنُ فيه من البلاءِ والخدمة، فسبيلُنا أن نقتلَ الولدَ أو نُخَبِّلَهُ، فعلِمَ سليمانُ بذلك فأمرَ الرِّيحَ فحملَتْهُ إلى السَّحاب فأودعَهُ السحابَ خوفاً عليه مِن الشياطين، فعاقبَهُ اللهُ تعالى على تخوُّفهِ من الشياطين، وأماتَ ولدَهُ في السَّحاب فأُلقِيَ ميِّتاً على كُرسيِّهِ فهو الجسدُ الذي أُريدَ بقولِه (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) لأن الجسدَ عبارةٌ عما لا يكون رُوحاً. وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ ثم رجعَ بعد أربعين يَوماً إلى مُلكه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ؛ معناهُ: لَمَّا رجعَ مُلك سليمان إليه قال: رَب اغْفِرْ لي ذنْبي وَهَبْ لِي مُلكاً لا أُسْلَبُ فيه كما سُلِبْتُ في المرَّة الأولى، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، ولا يجوزُ أن يكون سؤالهُ الْمُلْكَ برغبتهِ له في الدُّنيا ولا بُخلاً بمثلهِ على مَن بعده، ولكن طلبَ آيةً تدلُّ جميعَ الخلقِ على أنَّ الله تعالى غفَرَ له ذنبَهُ وردَّهُ إلى منْزلَةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام.

وعن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ صَلَّى صَلاَةً فَقَالَ: [إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي لِيُفْسِدَ عَلَيَّ صَلاَتِي، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَخَنَقْتُهُ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أنْ أُوثِقَهُ إلَى سَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبحُواْ وَتَنْظُرُواْ إلَيْهِ جَمِيعاً، فَذلِكَ قَوْلُ سُلَيْمَانَ ﷺ (وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)](٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٦٧٥) مختصراً. وذكره السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص١٧٨؛ وقال: (أخرجه الفريابي والحكيم الترمذي والحاكم). وذكره البغوي بطوله في معالم التنزيل: ص١١١٤-١١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب العمل في الصلاة: باب ما يجوز من العمل في الصلاة:=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ فاستجَبنا له دعاءَهُ وسخَّرنا له الريحَ تسيرُ بأمرهِ لَيِّنَةً كيف أرادَ، وذلك أنه كان إذا أرادَ تَسْيِيرَ الريحِ عاصفةً كانت تجري عاصفةً حالةَ حملِ السَّريرِ لكثرةِ مَن عليه من النُّجـوم والحشَمِ والأواني والفُرُشِ والأطعمةِ والأشربةِ، وكانت في حالـةِ مـا تجـري بالسَّـرير وذلكَ أرفقُ بِمَنْ يكون على السَّريرِ، وأبعدُ من الضَّرر.

ومعنى الآية: فسخَّرنا له الريحَ تجـري بـأمرهِ لَيِّنَـةَ الْـهُبُوب ليسـت بالعـاصفِ (حَيْثُ أصَابَ) أي حيث أرادَ من النواحِي، وحيث قَصَدَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي وسـخَّرنا لـه الشياطينَ يَبْنُونَ له الأبنيةَ الرفيعةَ التي تعجزُ عنها الإنسُ، ويَبْنُونَ له أيضاً ما يشاءُ مـن محاريب وتماثيلٍ، وقولهُ تعالى: (وَغوَّاصٍ) أي ويغُوصُونَ له في البحرِ فيستخرجون لـهُ اللآلِئَ والجواهرَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي وسخَّرنا آخرين مِن الشياطين وهم الْمَرَدَةُ، سُخِّروا له حتى قَرَنَهم في الأصْفَـادِ وهـي السَّلاسِـلُ مـن الحديدِ، فكان سليمانُ يجعل الشياطين مقرَّنين في القيودِ والأغلال، ويعرفُ مَن شاء منهم في الأعمال، فمعنى قوله (مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) أي مشدُودون في القيُودِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ معنـاهُ: قلنا لهُ هذا عطاؤُنا لكَ من المالِ والْمُلكِ والجنودِ المسخَّرة لم نُعطـهِ أحـداً قبلَـكَ، ولا نعطيهِ أحداً بعدكَ.

وقوله (فَامْنُنْ أوْ أمْسِكْ) أي إعطاء ما أعطيناكَ مَـن شِـئْتَ وكيـف شـئتَ ومـا شئتَ ولِمن شئت، واحبسْ عمَّن شئتَ بغيرِ تقديرٍ، ولم يؤخَذْ عليك حدٌّ محـدودٌ في المنـعِ ولا في الإعطاءِ، ولا حرجَ عليك فيما فعلْـتَ مِـن ذلـك، وقـال في معنـى (فَـامْنُنْ أوْ أمْسِكْ) أي أطلِقْ من الشَّياطين الذين أوثقْتَهم[1] أو امسِكْ في الوَثَاقِ مَن شئتَ منهم، وليس عليك في ذلك تَبِعَةٌ ولا جزاءٌ.

=الحديث (١٢١٠)، وفيه: [فَدَعَتُّهُ] بدل [فَخَنَقْتُهُ].

(١) في المخطوط: (الذي أوثقتهم).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ ؛ أي وإنَّ مع ما خُصَّ به في الدُّنيا في الْمُلْكِ والبَسْطَةِ والنبوَّة والرسالةِ لَقُربهِ عندنا، ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، في الآخرةِ ونَصيباً وافراً من ثَوابنَا في الجنَّة، فجُمِعَ له ملكُ الدُّنيا وملكُ الآخرةِ.

وروي أن مدةَ مُلكِ سُليمان قبلَ الفتنةِ عشرين سنةً، ومَلَكَ بعد الفتنةِ عشرين سنةً، ومَلَكَ يوم مَلَكَ وهو ابنُ ثلاثَ عشر سنةً، وماتَ وله ثلاثٌ وخمسون سنةً، ومدَّة مُلكه أربعون سنةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكُرْ يا مُحمَّد عبْدَنا أيُّوب إذ نادَى ربَّهُ في البلاءِ فقالَ: يا رَب إنِّي أصابَني الشيطانُ بنُصْبٍ؛ أي بتَعَبٍ في بدَني وعذابٍ في أهلي ومالِي. والنُّصْبُ والنَّصَبُ بمعنى واحدٍ، مثل الرَّشَدِ والرُّشْدِ والْحَزَنِ وَالْحُزْنِ.

قرأ أبو جعفرٍ (بنُصُبٍ) بضمَّتين، وقرأ يعقوبُ (بنَصَبٍ) بفتحِ النون والصاد، وقرأ هُبَيْرَةُ عن حفصٍ وعاصم (بنَصْبٍ) بفتح النون وجزم الصاد، وقرأ الباقون بـ (النُّصْب) بضمِّ النون وسُكون الصاد، وكلُّ ذلك لغاتٌ فيه[(١)].

قال قتادة: (مَعْنَى قَوْلِهِ (بنُصْبٍ وَعَذابٍ) النُّصْبُ الضُّرُّ فِي الْجَسَدِ، وَالْعَذابُ فِي الْمَالِ)[(٢)]. قال السديُّ: (النُّصْبُ أنْصَبَ الْجَسَدَ، وَالْعَذابُ أهْلَكَ الْمَالَ)[(٣)].

ثُم فرَّجَ اللهُ عنه، واختلفوا في سبب بَلاء أيُّوب، قال الحسنُ رضي الله عنه: (إنَّ ابليسَ قالَ: يا رب هل مِن عبيدك مَن إنْ سلَّطتَنِي عليه يمتنعُ عليَّ؟ قال: نَعَمْ؛ عبدِي أيُّوبُ، فجعلَ يأتيهِ الشيطانُ بوسَاوسِهِ وحبائلهِ فلا يقدرُ منه على شيءٍ. قال: يا رب إنه قدِ امتنعَ عليَّ فسَلِّطْنِي على مالهِ، فجعلَ يأتيهِ فيقولُ: يا أيوبُ هَلَكَ مِن مالِكَ كذا وكذا، فيقولُ أيوب: اللَّهُمَّ أنتَ قد أعْطَيْتَنِيهُ وأنتَ قد أخذتَهُ، اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ على ما منَعْتَ، ولكَ الحمدُ على ما أبقيتَ، فمكثَ كذلك حتى هَلَكَ مالهُ كلُّه.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٢٥-٣٢٦. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١٢.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠١٩).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٢٠).

فقال إبليسُ: يا رب إنَّهُ لا يُبالِي بمالهِ فسَلِّطْنِي على جسدهِ، فأنَّكَ لو سلَّطْتَني على جسدهِ لم تجدْهُ شاكراً، فسلَّطَهُ عليه فنفخَ في أنفهِ فانتفخَ وجههُ وسَرَى ذلك إلى جسدهِ، فوقعَ فيه الديدانُ.

إلاَّ أنَّ هَذا الْقَوْلَ لاَ يَصِحُّ وَلاَ وَجْهَ لقَبُولِهِ، وَلاَ يَجُوزُ أنْ يُسَلِّطَ اللهُ إبْلِيسَ عَلَى نَبِيٍّ مِنْ أنْبيائِهِ فَيَفْعَلَ بِهِ مَا أحَبَّ.

ويقالُ: سببُ ابتلائهِ أنَّ إنسَاناً استغاثَ بهِ في ظُلْمٍ يدرَؤُهُ عنه، فصبرَ لوردهِ حتى فاتَهُ فابتُلِيَ. فلَمَّا مكثَ أيوبُ في البلاءِ ما مكثَ، قاربَتِ امرأتهُ الشيطانَ في بعضِ الأمور، قِيْلَ: إنَّ الشيطانَ قال لها: لئِنْ أكلَ أيُّوبُ طَعاماً لم يذْكُرِ اسمَ اللهِ عليهِ عُوفِيَ. ويقالُ: إنَّها قالت لأيُّوبَ: لو تقرَّبْتَ إلى الشيطان فذبحتَ له عِنَاقاً، فقالَ: لا واللهِ، ولاَ كفّاً من تُرابٍ. وحلفَ ليَجْلِدَنَّهَا إنْ عُوفِيَ مائةَ جلدةٍ. وَقِيْلَ: إن إبليسَ قالَ لها: إنْ شَفَيْتُهُ تقولين لِي شفيتَهُ، فأخبرَتْ بذلك أيوبَ فحلفَ.

فلما طالَ البلاءُ على أيُّوب، وبلغَ به غايةَ الجدِّ سألَ اللهَ تعالى أنْ يكشِفَ ضُرَّهُ، فقيلَ له: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي اضربْ بها الأرضَ، فركَضَ برجلِهِ الأرضَ فنَبَعَتْ عَينُ ماءٍ فاغتسلَ منها فذهبَ الداءُ من ظاهرهِ، فضربَ برجلِهِ الأرض مرَّةً أخرى فنبعَ ماءٌ وشربَ منه، فذهبَ الداءُ من باطنِ جسده. والرَّكْضُ: هو الدفعُ بالرِّجلِ على جهةِ الإسراعِ، ومنه ركضُ الفرس لاسراعِهِ، والْمُغْتَسَلُ موضعُ الاغتسال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ ؛ أي أحْيَيْنَا له أهلَهُ وأولادَهُ الذين كانوا بأعيانِهم، ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ ، ورزقناهُ مثلَهُم في المستقبلِ، ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، أي نعمةً مِنَّا عليه، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ، وعظمةً لأُولِي العقول من النَّاس، وذلكَ ليعلَمَ العاقلُ أنَّ ما يصيبهُ في الدُّنيا من الْمِحَنِ والْمَكَارهِ والمصائب في النَّفسِ والأهلِ والمال، لا يكونُ لِهَوانِ العبدِ على اللهِ كما يظنُّهُ الْجُهَّالُ، وإنَّما هو امتحانٌ من اللهِ لأوليائه كي يُعوِّضَهُمْ بذلك جَزِيلَ ثوابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ ؛ وذلك أنَّ أيوبَ كان حلفَ في مرضهِ أن يجلدَ امرأتَهُ مائةَ جلدةٍ، وكان ذلك لشيءٍ كَرِهَهُ منها على ما تقدَّم، فجعلَ الله تَحِلَّةَ يَمِينِهِ أن يأخذ حُزمةً واحدةً فيها مائةُ قضيبٍ فيضربُها بهِ. والضِّغْثُ: هو مِلْءُ الكَفِّ من الشجرةِ والحشيشِ والشَّماريخِ.

وقولهُ تعالى: (وَلاَ تَحْنَثْ) أي لا تَدَعِ الضَّربَ فتَحْنَثُ، وفي هذا دليلٌ على جواز الاحتيال بمثل هذه الحِيلَةِ في اليمين على الضَّرب، فأما في الحدُودِ فلا يجوزُ الاحتيالُ بمثلِ هذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[1] وهذا نَهْيٌ عن التخفيفِ عن مَن وجبَ عليه الحدُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ أي إنَّهُ صَبَرَ على البلاءِ الذي ابتُلي به. فإنْ قِيْلَ: كيف صَبَرَ وهو يقولُ مسَّنِيَ الضُّرُّ ؟ قِيْلَ: إنه لم يَشْكُ إلى مخلوقٍ وإنما شَكَا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حين ألَحَّ عليه الشيطانُ بالوسوسةِ، وخافَ على نفسهِ أن لا يقومَ بطاعةِ الله تعالى، فدعَا الله بعد أن أذِنَ له في الدُّعاء. والأَوَّابُ: هو الْمُقْبلُ على طاعةِ الله تعالى الرَّاجعُ إليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معناهُ: اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ لقَومِكَ وأمَّتِكَ حديثَ هؤلاء الأنبياءِ؛ ليقتَدُوا بهم في حُسْنِ إقبالِهم؛ فيستَحِقُّوا بذلك جميلَ الثَّناءِ وجزيلَ الثَّواب. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: وَاذكُرْ يَا مُحَمَّدُ صَبْرَ عِبَادِنَا إبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار، وَصَبْرَ اسْحَقَ عَلَى الذبْحِ، وَصَبْرَ يَعْقُوبَ حِينَ ذهَبَ بَصَرُهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَاعِيلَ لأَنَّهُ لَمْ يُقبلْ بشَيْءٍ)[2].

قَوْلُهُ: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ ؛ معناهُ: أولِي القوَّةِ في طاعةِ الله والأبصار في معرفةِ الله. قال قتادةُ: (أعْطُوا قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ، وَبَصَرٍ فِي الدِّينِ)[3]. ويقالُ: إنَّ الأيدِي جمعُ اليَدِ وهي الصَّنيعةُ؛ أي وهم ذُوو الصَّنائعِ الجميلةِ في طاعةِ الله تعالى.

---

(١) النور / ٢ .
(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢١.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٤).

وقرأ الحسنُ: (الأَيْدِ) بغيرِ الياء وهو عبارةٌ عن القوَّة[١]. ويجوزُ أن يكون المرادُ به، فخذفَ الياءِ كما نحذفُ الدَّاعِي والهادِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ ﴾ ؛ معناهُ: إنا آثرناهُم بخِصلَةٍ خَالِصَةٍ وهي ذكرَى الدار الآخرة. وقال مجاهدُ: (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُكْثِرُونَ ذِكْرَ الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا)[٢]. وقال السديُّ: (أَخْلَصُواْ بِذِكْرِ الآخِرَةِ؛ أيْ بخَوْفِ الآخِرَةِ)[٣] ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧ ﴾ ؛ الأَصْفِيَاءُ هو إخراجُ الصَّفوَةِ مِن كلِّ شيءٍ، فهُم صَفْوَةٌ وغيرُهم كَدَرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ ﴾ ؛ أي اذكُرْهُم بصبرِهم وفضلِهم لتسلُكَ طريقَهم، ﴿ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨ ﴾ . والْيَسَعُ نبيٌّ من الأنبياءِ، قال الكلبيُّ: (هُوَ ابْنُ عَمِّ الْيَاسَ). وَأمَّا ذِي الكِفْلِ وهو نبيٌّ أيضاً كَفَلَ مائة نَبيٍّ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ يُطعِمُهم ويَسْقِيهِمْ. وَقِيْلَ: إنه كان يعمَلُ في العبادة عَمَلَ رجُلَين فسُمِّي ذا الكفلِ، والكفلُ الضِّعْفُ كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٩ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ عِظَةٌ وشَرَفٌ للناسِ، وَقِيْلَ: هو ذِكْرٌ في الدُّنيا لهؤلاء الأنبياءِ يُذكَرُونَ بهِ أبداً، وإنَّ لهم مع ذلك لَحُسْنَ مرجعٍ في الآخرة، فَسَّرَ حُسنَ المرجعِ فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ﴾ ؛ أي بسَاتِين إقامةٍ، ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ ﴾ ؛ وانتصبَ على الحالِ، وذلك أنَّهم اذا انْتَهوا إليها وجدُوها مُفَتَّحَةَ الأبواب لا يُحبَسُونَ على الباب ليُفتَحَ لهم عند الوُرُودِ. ويقال: إنَّ أبوابَها تُفتَحُ من غيرِ فَتْحٍ ولا مفتاحٍ، والْمُفَتَّحَةُ أبلغُ من اللفظِ من الْمَفْتُوحَةِ، والألِفُ واللامُ في قولِه (الأَبْوَابُ) عِوَضٌ عن الإضافةِ؛ تقديرهُ: مُفَتَّحَةٌ لَهُمْ أبْوَابُهَا كما في قولِه تعالى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٥] .

---

(١) في معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٤٠٦: (أنها قراءة عبدالله).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٤٨).

(٤) الحديد / ٢٨ .

(٥) النازعات / ٤١ .

وقولُهُ تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الجنَّات، ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ ؛ في الجناتِ، ﴿ بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي يَدْعُون في الجناتِ بألوان الفاكهة وألوان الشَّراب. والاتِّكَاءُ: هو الاسْتِمْسَاكُ بالسِّنَادِ على هيئةِ جُلوسِ الْمُلُوكِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي وعندَهم حُورٌ في الجنَّةِ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ لا يُرِدْنَ غيرَهم بقُلوبهم ولا يَنْظُرْنَ إلى غيرِ أزواجهنَّ. وقوله (أتْرَابٌ) أي مُستَويات على ميلادِ امرأة واحدة، مستويات في السِّنِّ والشباب والْحُسنِ، كلُّهن بناتُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو بالياءِ؛ ومعناه: قُل للمتَّقين: هذا ما يُوعَدون به ليومِ الحساب. وقرأ الباقون (يُوعَدُونَ) بالياء؛ أي هذا الذي تقدَّم ذِكرهُ ما يوعَدُ به المتَّقون على لسانِ النبيِّ ﷺ. ومعنى الآية: هذا الذي ذكرناهُ ما توعدونَ به يومَ الحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا ﴾ ؛ أي هذا الذي ذكرناهُ رزقنا لهم، ﴿ مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهُ مِن انقطاعٍ ولا فَناءٍ. قال ابنُ عبَّاس: (لَيْس بشَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ نَفَادٌ، مَا أُكِلَ مِنْ ثِمَارِهَا خُلِّفَ مَكَانَهُ مِثْلُهُ، وَمَا أُكِلَ مِنْ حَيْوَانِهَا وَطَيْرِهَا عَادَ حَيّاً مَكَانَهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي هذا الثوابُ الذي تقدَّم ذِكرهُ للمتَّقين، ثم ابتدأ الخبرَ عمَّا للطَّاغِينَ فَقَالَ: (وَإنَّ لِلطَّاغِينَ) أي الذين طَغَوا على اللهِ وكذبُوا الرُّسلَ وجاوزوا الحدَّ في الكفر والمعصية (لَشَرَّ مَآبٍ) أي لشَرِّ مرجعٍ ومصير، ثم أخبرَ بذلك فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ ؛ أي يلزَمُونَها يومَ القيامةِ، ﴿ فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يُمهِّدُنَّها لأنفسهم، ﴿ هَٰذَا ﴾ العذابُ ﴿ فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ لهم في ذلك اليومِ: هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فلْيَذُوقُوهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٦٢) عن السدي.

والْحَمِيمُ: الماءُ الحارُّ الذي قد انتَهى حَرُّهُ من طِينَةِ الْخَبَال وهي عُصَارَةُ أهْلِ النَّار. والغَسَّاقُ: ما سَالَ من جُلودِ أهلِ النَّار من القَيْحِ والصَّديدِ، مِن قولهم: غَسَقَتْ عينهُ إذا تَصَبَّتْ، والغَسَقَانُ الانْصِبَابُ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلف: (وَغَسَّاقٌ) بالتشديد على معنى أنه يُسَالُ من صَديدِ أهلِ النار. وقرأ الباقون بالتخفيف مصدرُ غَسَقَ يَغْسِقُ إذا سَالَ.

قال الكلبيُّ: (الْغَسَّاقُ هُوَ الزَّمْهَرِيرُ الْبَارِدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى بَرْدُهُ، يُحْرِقُـهُمْ بِبَرْدِهِ كَمَا تُحْرِقُهُمُ النَّارُ). وقال ابنُ زيد: (هُوَ الْمُنْتَنُ بلُغَةِ التُّرْكِ وَالطَّخَارِيَّةِ[1] وَالْعَمَالِيق)[2]. وقال الحسنُ: (لاَ أدْري مَا الْغَسَّاقُ وَمَا سَمِعْتُ فِيهِ شَيْئاً مِنَ الصَّحَابَةِ إلاَّ أنَّهُ بَعْضُ مَا أعِدَّ لأَهْلِ النَّار، قَوْمٌ اخْفَوا مِنَ الْمَعْصِيَةِ اعْمَالاً فَأخْفَى اللهُ لَهُمْ عِقَاباً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ قرأ الأكثرون (وَآخَرُ) على الوحْدَان؛ أي وعذابٌ آخرُ من شكلِ العذاب الأوَّل، والشَّكْلُ الْمِثْلُ؛ يعني ضَرْباً من العذاب على مثلِ الحميم والغَسَّاق في الكرَاهَةِ. وقرأ أهلُ البصرة (وَأخَرُ) على الجمعِ على معنى: وأنواعٌ أخَرُ مِنْ شَكْلِهِ؛ أي وأصنافٌ من العذاب، وقولُهُ (أزْوَاجٌ) أي ألوانٌ وأنواع وأشباهٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾؛ معناهُ: أنَّ القادةَ والرؤساءَ مِن المشركين إذا دخلُوا النارَ ثم دخلَ بعدَهم الاتباعُ، قال الملائكةُ من الْخَزَنَةِ للقادةِ: هذا فوجٌ؛ أي قطيعٌ من الناسِ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ النارَ، أي داخلون معكم النار، فتقولُ القادة: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾؛ كما صَلَيْنَاهَا، فيقول الاتباعُ للقادةِ: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾؛ أي أنتم بَدَأتُمْ بالكفرِ قبلَنا، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾؛ جهنَّم للمشركين.

---

(١) لعله يريد أهل طخارستان.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٠٧٦) عن عبدالله بن بُريدة.

ثم يقولُ الأتباعُ: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي يقولون ربَّنا مَنْ شَرَّعَ لنا هذا الكُفرَ وسَنَّهُ لنا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً في النار. والاقتحامُ: هو الدخولُ في الشَّيء بشدَّةٍ وصُعوبَةٍ، وذلك أنَّ أهلَ النار يُساقُونَ إليها فَوْجاً فَوْجاً، فيقالُ للرُّؤساء: هؤلاءِ الاتباعُ داخلون معكم، فيقولونَ لاَ مَرْحَباً بهِمْ، كيف يدخلُون معنا ونحنُ في هذا الضِّيق[1]؟! فيقولُ لهم الْخَزَنَةُ: إنَّهُمْ صَالُوا النَّار؛ أي دَاخِلُونَها كما دخلتُم.

والرَّحْبُ في اللغة هو السِّعَةُ، وكذلك الْمَرْحَبُ، ومعنَى لا مَرْحَباً بهم يعني لا اتَّسعت بهم مساكنُهم ولا كرامةَ لهم، وهذا إخبارٌ أن مَوَدَّتَهُمْ تنقطعُ وتصيرُ عداوةً، فيقول لهم الأتباعُ: (بَلْ أنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بكُمْ) أي لا وَسَّعَ اللهُ عليكم، أنتم شَرَعتُم لنا بهذا العذاب، فيقولُ اللهُ تعالى: (فَبئْسَ الْقَرَارُ) أي بئْسَ المكانُ الذي أنتم فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ) أي قالت الأتباعُ والقادةُ جميعاً: ربَّنا مَنْ سَنَّ لنا هذا الكفرَ قبلَنا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً مما علينا من العذاب، يعني حيَّاتٍ وعقاربَ وأفاعي. قال الحسنُ: (مَا مِنْ أحَدٍ مِنْ أهْلِ النَّار إلاَّ وَهُوَ يَعْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْطَانَهُ الَّذِي يُضِلُّهُ وَيُوَسْوِسُ إلَيْهِ فِي الدُّنْيَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ يَنْظُرُونَ فِي النَّار، فَلاَ يَرَوْنَ مَنْ كَانَ يُخَالِفُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَار الدُّنْيَا يَعْنِي فُقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا لَنَا لاَ نَرَى رجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الأَشْرَار؛ أيْ كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّفَلَةِ، وَنَقُولُ لَهُمْ: أنْتُمْ تَتْرُكُونَ شَهَوَاتِكُمْ تَطْلُبُونَ بذلِكَ النِّعَمَ بَعْدَ الْفَنَاءِ، فَهَذا مَعْنَى (كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَار) وَهُمْ عَمَّارُ وَخَبَّابُ وَصُهَيْبُ وَبلاَلُ وسَلْمَانُ وَسَالِمُ وَأشْبَاهُهُمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ).

---

(١) في المخطوط: (ضيق).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي يقولُون قد اتَّخذناهُم سِخْرِيّاً؛ أي مَالَتْ أبصارُنا عنهم فلم نكن نعدُّهم شيئاً، قال الحسنُ: (كُلُّ ذلِكَ قَدْ فَعَلُوهُ، اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيّاً وَزَاغَتْ عَنْهُمْ أبْصَارُهُمْ مُحَقِّرَةً لَهُمْ).

ومن قرأ (أَتَّخَذْنَاهُمْ) بقطعِ الألف وفتحِها معناهُ الاستفهامُ؛ كأنَّهم يُنكرون ذلك على أنفُسِهم، وهم يقولون في الآخرةِ سخَّرْنَاهُم وزَاغَتْ أبصارُهم عنهم لضَعفِهِم، فيقولون: ما لنَا لا نراهُم، ولم يدخلُوا معنا في النار، أمْ دخَلُوا معنا ولكن لا نراهُم.

وفي قولهِ (سِخْرِيّاً) قِراءَتان: ضَمُّ السِّين وكسرُها، فمَن ضمَّها فهو من السُّخريَةِ؛ أي استذلُّوهم، ومَن قرأها بالكسرِ فهو من الْهُزْؤِ[1].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ ؛ أي إنَّ الذي وُصف عنهم لصِدْقٌ كائن واقعٌ، ثم بيَّنَ ما هو فقال: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي تخاصُم القادةِ والأتباعِ على ما أخبر به عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: إنَّما أنا مُنذِرٌ لكم أحذِّرُكم عقوبةَ اللهِ، ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي وقُل لهم أيضاً: مَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ اللهُ الوَاحِدُ لا شريكَ لهُ، القهَّارُ لِخلقهِ الغالبُ عليهم، ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي المنتقمُ ممَّن لا يؤمنُ به، المتجاوزُ عمَّن تابَ وآمنَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لهم هذا القرآن الذي أتيتُكم به عظيمُ الشَّأن والشرفِ، أنتم عن تدبُّرهِ والعملِ بهِ مُعرضون. وَقِيْلَ: معناهُ أمرُ القيامةِ عظيمٌ؛ ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ ﴾ ؛ عن الاستعدادِ له، ﴿ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وقَوْلُهُ: ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن النبأَ الذي أتيتُكم بهِ من قصَّة آدمَ وإبليس دليلٌ واضحٌ على نُبُوَّتي؛ لأن ذلك

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١٦. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٣٣.

لا يُعلم إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى أو بقراءةِ الكُتب، ثم بَيَّنَهُ من بعدُ بقولِه: ﴿إذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[1] الآيةَ أي إنِّي ما علمتُ ذلك إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ؛ معناهُ: ما يُوحَى إلَيَّ هذا القرآنُ، ﴿ إِلَّآ أَنَّمَآ ﴾ ؛ لأنِّي؛ ﴿ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي ما يُوحى إلَيَّ إلاَّ لأنِّي نبيٌّ ونذيرٌ مُبين، أبَيِّنُ لكم ما تأتُونَ من الفرائضِ والسُّنن، وما تترُكون من الحرامِ والمعصية.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ هذا.

وقوله: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ؛ أي ما مَنعَكَ عن السُّجودِ لِمَنْ تولَّيتُ خَلْقَهُ من غيرِ واسطةٍ وسبب، وقولـه: ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ، أي رفعتَ نفسَك فوق قدرِكَ، (أم كُنتَ مِنَ العَـلِينَ) الذين عَلَو في مَنْزِلَةٍ من السُّجود لمثلِه.

قال ابليسُ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ والنارُ شيء مضيءٌ، والطِّينُ شيء مظلمٌ.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي قيـلَ: من السَّماء، وَقِيْلَ: من الجنَّة، وَقِيْلَ: من الأرضِ إلى جزائرِ البحار. والرَّجيمُ: هو الْمَرْجُومُ بـالْخِزْيِ والفضيحـةِ والشُّـهُب إذا رجـعَ إلى السَّـماء. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ المؤجَّلين إلى وقتِ النَّفخة الأُولى، فلـم يُجبْـهُ إلى مـا سـألَ، ولم يُعرِّفْهُ ذلك الوقت.

---

(١) البقرة / ٣٠ .

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي لأَدعُونَّهم إلى الغِوَايَةِ ولأُضِلَّنَّهُمْ، ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ، إلاَّ عبادك الذين أخلَصْتَهم وعَصَمْتَهم فلا سبيلَ لي عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ قول مجاهدٍ والأعمش وحمزة وخلف: برَفْعِ الأوَّل ونصب الثاني؛ أي بمعنى فأنَا الْحَقُّ أو فَمِنِّي الحقُّ وأقولُ، وقرأ الباقون بنصبهما.

واختلفَ النُّحاة في وجهِ ذلك، فقيل: نُصِبَ الأولُ على الإغراءِ، والثاني بإيقاعِ القول عليه. وَقِيْلَ: الأولُ قَسَمٌ، والثاني مفعولٌ، تقديرهُ: قالَ فبالْحَقِّ وهو اللهُ، أقسَمَ بنفسهِ ثم حذفَ الخافضَ فنُصِبَ كما يقولُ الله: لأَفْعَلَنَّ، أقْسَمَ اللهُ تعالى ليمْلأنَّ جهنَّمَ من إبليس وأتباعهِ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لكفَّار مكَّة: ما أسألُكم على تبليغِ الوحي والقرآن من مالٍ تُعْطُونِيَهُ جُعلاً، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي لم أتكَلَّفْ دُعاءَكم اليه من تلقاءِ نفسي بل أمرت بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي ما القرآنُ إلاَّ مَوعِظَةٌ للحقِّ أجمعين، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ ؛ أنتم يا كفارَ مكَّة، ﴿ نَبَأَهُ ﴾ ؛ أي خَبَرَ صدقهِ، ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي بعدَ الموتِ، وَقِيْلَ: يومَ القيامةِ. وقال الحسنُ: (يَا ابْنَ آدَمَ؛ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ)[(٢)].

آخر تفسير سورة (صۤ) والحمدُ لله ربِّ العالمين

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج٣ ص٣١٨. والحجة للقراءات السبعة: ج٣ ص٣٣٦.

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٢٠.

سُورَةُ الزُّمَر

سُورَةُ الزُّمَر مَكِّيَّةٌ إلاَّ قَوْلَهُ[1]: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ...﴾ الآيَةُ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةُ أحْرُفٍ، وَألْفٌ وَاثْنَان وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الزُّمَرِ لَمْ يَقْطَعِ اللهُ رَجَاءَهُ، وَأعْطَاهُ ثَوَابَ الْخَائِفِينَ][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: هذا تنْزيلٌ من اللهِ العزيزِ بالنِّقمة لِمَن لا يؤمنُ، الحكيمُ في أمرهِ وقضائه. ويجوزُ أن يكون (تَنْزِيلٌ) مبتدأ وخبرهُ (مِنَ اللهِ) كما يقالُ: نِعَمُ الدُّنيا والدينِ من اللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي أنزلنا إليكَ هذا القرآنَ بالحقِّ ولم يُنْزِلهُ بَاطلاً، وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي اعبدِ اللهَ وحدَهُ لا كما يعبدهُ عبدَةُ الأوثان.

وقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ ؛ أي إنَّ العبادةَ الخالصةَ للهِ، وفي هذا بيانُ أنَّ غيرَ الخالصِ لا يكون للهِ، والإخلاصُ أن يقصُدَ العبدُ بنيَّتهِ وعملهِ خالقَهُ لا يجعلُ ذلك تعرُّضاً للدُّنيا.

---

(١) في المخطوط: (إلى). والصحيح كما أثبتناه. وفي معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٥٨؛ قال الزجاج: (مكية ما خلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ...﴾ إلى تمام ثلاث آيات). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٠؛ قال السيوطي: (وأخرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ...﴾ إلى ثلاث آيات).

(٢) ذكره البيضاوي في التفسير: ج ٢ ص١٧٥، وهو من رواية الثعلبي في تفسيره، وفيه نظر.

وَقِيْلَ: معنى (ألاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) أي إن الدينَ الخالصَ من الشِّرك هو للهِ، وما سواهُ من الأديان فليس بدينِ اللهِ الذي أمرَهُ به. قال قتادةُ: (الدِّينُ الْخَالِصُ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؛ يعني الذين يعبُدون الأصنامَ والملائكةَ والشَّمس والقمرَ والنجومَ يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ ؛ أي يقولون ما نعبُدهم إلاَّ ليَشفعُوا لنا إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي بين أهلِ الأديان يومَ القيامةِ، ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ؛ من أمور الدينِ، كلٌّ يقولُ: الحقُّ دِيني، فهُم مختلفونَ، وحكمُ الله بينَهم: أن يُعذِّبَ كُلاًّ على قدر استخفافهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يُرشِدُ لدينهِ مَن كذبَ في زعمهِ أنَّ الآلهةَ تشفعُ له الله تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لو أرادَ أن يتَّخِذ لنفسهِ ولَداً كما زعمَ بعضُ الكفَّار أنَّ الملائكةَ بناتُ الله! لَمَا اقتصرَ على الأدوَن من البناتِ دون الأعلى من الذُّكران، وهذا كقولهِ تعالى ﴿أفأصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بالْبَنِينَ وَاتَّخذ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ إنَاثاً﴾(٢)، وقالَ تعالى ﴿ألَكُمْ الذكرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾(٣).

وَقِيْلَ: معناهُ: لو أرادَ أن يتَّخذ ولَداً كما قالتِ النصارَى في المسيحِ واليهودُ في العزير لاختارَ خلقاً أفضلَ من عيسَى عليه السلام وعُزير. وقولهُ تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً له في كلِّ صفةٍ لا تكون من أرفعِ الصِّفات، وقولهُ: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ ؛

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة). وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣١١٨).

(٢) الاسراء / ٤٠ .

(٣) النجم / ٢١ .

لا شريكَ له و"ليس"[(١)] شيء كمثله، ﴿ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ ؛ الغالبُ على خلقِهِ الذي لا يحتاجُ إلى ولدٍ وظَهيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ؛ أي خلقَ السَّموات والأرضَ عبرةً للخلق، وإقامةً للحقِّ لا للعبثِ والباطلِ، يُديرُ الليلَ على النهار، ويديرُ النهارَ على الليلِ، وكلٌّ واحدٍ على الآخرِ، ويزيدُ من ساعاتِ أحدِهما في ساعاتِ الآخرِ.

والتكويرُ: هو إدارَةُ الشيءِ على الشيء، ومنه كُورُ العِمامَةِ، وقد تسمَّى الزيادةُ كُوراً، كما قيلَ في الدُّعاءِ: (اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الْحَوَرِ بَعْدَ الْكَوَرِ)[(٢)] أي من النُّقصان بعدَ الزيادةِ. وقولُهُ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ؛ أي إلى الوقتِ الذي وقَّتَ اللهُ الدنيا إليه وهو انقضاؤُها وفناؤها، وقولُهُ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ ؛ أي خالقُ هذه الأشياءِ هو اللهُ الغالب على كلِّ شيء، الغفَّارُ لأوليائهِ وأهلِ طاعتهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ؛ أي خلقَكم من نفس آدمَ وحدَها ثم خلقَ منها زوجَها حوَّاء من ضلعٍ من أضلاعهِ القصيرة، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ؛ يعني الإنزالَ هاهنا الإنشاءَ والخلقَ؛ أي وخلقَ لكم من كلِّ صنفٍ من الإبلِ والبقر والضَّأْنِ والمعزِ زوجَين ذكراً وأنثى.

وقولُه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ، أي خلقكم نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضغَةً إلى أن تخرجوا من البطون، ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ؛ يعني

---

(١) (ليس) سقطت من المخطوط، والسياق يقتضيها.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره: الحديث (٤٢٦/ ١٣٤٣): عن علي الأزدي أن ابن عمر علَّمَهم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره... الحديث. والترمذي في الجامع الصحيح: الدعوات: باب ما يقول إذا خرج مسافراً: الحديث (٣٤٣٩)، وقال: حديث حسن صحيح من طريق عبدالله بن سرجس.

ظُلمةَ البطنِ وظُلمةَ الرحِمِ وظلمةَ الْمَشِيمَةِ[(١)]. وَقِيْلَ: ظلمةَ الأصلاب وظلمةَ الأرحامِ وظلمةَ البُطون. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾؛ الدائمُ الذي لا يزولُ، ولا خالقَ غيرهُ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾؛ بعدَ هذا البيانِ والبرهان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾؛ أي إنْ تكفُروا يا أهلَ مكَّة بنِعَمِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكم، لم يأمُرْكم بالإيمان من حاجةٍ له إليكم لا لجلبِ منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّةٍ، وإنما آمرُكم به لنفعِكم، ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾؛ أي لا يرضَى لأوليائهِ وأهلِ طاعته الكُفرَ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يرضَى لعبادهِ المخلصِين الذي قالَ ((فيهم))[(٢)] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[(٣)] فالزمَهم شهادةَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وحبَّبَها إليهم.

وقال السديُّ: (وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكْفُرُوا)، وهذه طريقةُ مَن قالَ بالتخصيصِ في هذه الآيةِ ومَن أجرَاها على العمومِ فمعناهُ: لا يرضَى الكفرَ لأحدٍ، وكفرُ الكافرِ غيرُ مُرضٍ، وإنْ كان بإرادةٍ، فاللهُ تعالى مقدِّرٌ الكفرَ غيرَ راضٍ به لأنه ((ما)) يَمدحهُ[(٤)] ولا يُثني عليه، قال قتادةُ: (مَا رَضِيَ اللهُ لِعَبْدٍ ضَلاَلَةً وَلاَ أمَرَهُ بهَا وَلاَ دَعَاهُ إلَيْهَا، وَلَكِنْ قَدَّرَهُ عَلَيْهِ)[(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾؛ معناهُ: وإن تَشكُروا ما أنعمَ عليكم من التوحيدِ يَرضَ ذلك الشكرَ لكم ويُثيبكم عليه، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾؛ أي لا تُؤخذُ نفسٌ وزراً بذنب أخرى، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾؛

(١) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١٢ ج ٣ ص٢٣٣، وعزاه إلى عكرمة وابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد والضحاك.

(٢) ما بين (( )) ليس في المخطوط.

(٣) الاسراء / ٦٥ .

(٤) (ما) سقطت من المخطوط، والسياق يقتضي ذكرها.

(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن قتادة ﷺ قال: (والله...) وذكره).

في الآخرةِ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ، فيَجزيكـم، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، في الدُّنيـا، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ، بعزائمِ القلوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ ؛ إذا أصابَ الكافرَ شدَّةٌ في عَيشهِ أو بلاءٌ في جسدهِ دعَا ربَّهُ راجعاً إليه بقلبـهِ، قـال عطـاءُ: (يُريـدُ عُتْبَةَ بْنَ رَبيعَةَ)[1]، وقال مقاتلُ: (يَعْنِي أبَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ)[2].

وقولهُ: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ ؛ أي ثُم إذا أعطاهُ نِعْمَةً منـه؛ أي أغناهُ وأنعمَ عليه بالصحَّة، ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي نَسِيَ الضـرَّ الـذي كـان يدعُـو اللهَ إلى كشـفهِ، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ؛ أي رجعَ إلى عبـادةِ الأوثــان، ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي ليَزِلَّ عن دينِ الإسلام، ويُضِلَّ النـاسَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ لهذا الكافرِ: ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ ؛ في الدُّنيا إلى أجَلِكَ، لفظـهُ لفـظ الأمـرِ ومعناهُ التهديدُ والوعيـدُ، ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في الآخـرةِ فمـا ينفـعُ التمتُّعُ القليلُ من الدنيا.

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: هذا خيرٌ أيُّها الكافرُ أم مَن هو قانتٌ؟ وَقِيْلَ: معناهُ: أمَّنْ هو قانتٌ كمَن جعلَ للهِ أنـداداً. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: أهـذا الخـيرُ أم مـن هـو قـانتٌ للهِ؟. والقَانِتُ: هو المواظِبُ على طاعةِ اللهِ تعالى، القائمُ بمـا يجِبُ عليـه لأمـرِ اللهِ. و(آنَـاءَ اللَّيلِ) ساعاتهُ.

وقوله: (سَاجِداً وَقَائِماً) نُصِبَ على الحالِ؛ أي تارةً ساجداً وتارةً قائماً، يفعَـلُ ذلك حَذِراً من العذاب وطَمعاً في الثواب. وقرأَ نافعُ وابن كثـير: (أَمَـنْ) بـالتخفيفِ؛ لأن ألِفَ الاستفهامِ دخلت على (مَنْ) هو استفهامُ إنكارِ، والمعنى: أمَنْ هــو قانـتٌ

---

(١) في معالم التنزيل: ص١١٢٢؛ قال البغوي: (نزلت في عتبة بن ربيعة) ونقل قول مقاتل ثـم قـال: (وقيل: عامٌ في كل كافر).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢٨؛ قال: (يعني أبا حذيفة بن المغيرة بن عبدالله المخزومي).

كالأوَّل. ورُوي أنَّ قوله: (أمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّان رضي الله عنه[(١)].

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: و﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ أي لا يستوي العالِمُ والجاهلُ، فكذلك لا يستوي المطيعُ والعاصي،﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يتَّعِظُ بمواعظِ الله ذوُو العقولِ من الناسِ.

وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّار بْـنِ يَاسِـرٍ وَأبـي حُذيْفَـةَ بْـنِ الْمُغِـيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ. (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) يَعْنِي عَمَّارَ (وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) يَعْنِي أبَا حُذَيْفَةَ).

وعن ابنِ عبَّاس؛ أنَّهُ قالَ: (مَنْ أحَبَّ أنْ يُهَوَّنَ عَلَيْهِ الْمَوْقِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَرَهُ اللهُ سَاجِداً فِي سَوَادِ اللَّيلِ[(٢)] سَاجِداً أوْ قَائِماً يَحْذرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبهِ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي أطِيعـوهُ واجْتَنِبُـوا معاصيَهُ، وتَمَّ الكلامُ ثم قالَ: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي وحِّـدُوا اللهَ وأحسِنُوا العملَ، ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ ؛ أي ارحَلُوا من مكَّةَ، وهذا حثٌّ لهـم على الهجرةِ من مكَّة إلى حيث يَأْمَنُونَ، فيه بيانُ أنه لا عذرَ لأحـدٍ في تـركِ طاعـةِ الله تعالى لكونه بأرضٍ لا يتمكَّنُ فيها من ذلكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث (١٨٣٧٨) عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمـر قرأ الآية، ثم قال: (ذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وفسَّر ابن أبي حاتم قوله: (وإنمـا قـال ابنُ عمر ذلك؛ لكثرةِ صلاةِ أمير المؤمنين عُثمانَ باللَّيل وقراءته).

(٢) كرر الناسخ (ساجداً) والسياق لا يقتضيها.

(٣) بمعناه ذكره الطبري تفسيراً في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٣ ص٢٤٠، ونقله مختصراً بسـنده عـن ابن عباس رضي الله عنـهما في الأثـر (٢٣١٦٣). وأخرجـه ابـن أبـي حـاتم في التفسـير الكبير مختصراً: الأثر (١٨٣٧٩).

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾؛ معناهُ: إنما يُوَفَّى الصَّابرُون على دِينهم فلا يترُكونَهُ بمشقَّةٍ تَلحقُهم. وهذه الآيةُ نزلَتْ في جعفرَ بن أبي طالبٍ وأصحابهِ حين لم يترُكوا دينَهم، ولَمَّا اشتدَّ عليهم الأمرُ صبَرُوا وهاجَرُوا[١]، والمعنى: يُعطَوْنَ أجرَهم كاملاً على صبرهم على البلاءِ، وهجران أهلِهم وأوطانِهم بغير وزنٍ ولا مقدار، بل يعطون نعيماً وثواباً لا يهتدِي إليه عقلٌ ولا وصف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لكفَّار مكَّة: إنِّي أمرت أن أعبُدَ اللهَ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾، وأمرتُ أن أعبدَهُ على التوحيدِ والإخلاصِ، لا يشوبُ عبادتَهُ شركٌ.

قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا أتَيْتَنَا بهِ ؟ ألاَ تَنْظُرُ إلَى مِلَّةِ أبيكَ وَجَدِّكَ وَسَادَةِ قَوْمِكَ يَعْبُدُونَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى فَتَأْخُذ بـهَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢]. أي قُل لَهم إنِّي أمرتُ بالقرآن بتوحيدِ الله تعالى، وأن آمُرَ الخلقِ كلهم بذلك، وأمِرتُ أن أكون أوَّلَ من أسلمَ من أهلِ هذا الزَّمان.

وقولُهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ بالرُّجوعِ إلى دين آبائي، ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾؛ بالتوحيدِ لا أشركُ به شيئاً، ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ هذا أمرُ تهديدٍ، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾؛ بأن صارُوا إلى النار، ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾، يعني الكفارَ هم الذين خَسِرُوا أنفُسَهم وأهليهم من الأزواجِ والخدَمِ بالتخلية في النار. ويقالُ: خُسْرَانُ الأهلِ أن يخسَرُوا أهلَهم من الحور العينِ التي أعِدَّت لهم في الجنَّة لو أسلَمُوا.

---

(١) أيضاً ذكره البغوي وبعبارة المصنف في معالم التنزيل: ص١١٢٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٢٩ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي أطباقٌ من النار تلهبُ عليهم، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ؛ أي مِهَادٌ من النار. يريدُ بذلك أنَّهم جُعِلُوا بين أطباقِ جهنَّم، فأحاطَت بهم النارُ من كلِّ جانبٍ.

وإنما سُمي الذي من تحتِهم ظِلاً لأنه ظُلَلٌ لا يكون أسفلَ منهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكر من عذاب الكفَّار تخويفٌ للمؤمنين ليخَافوهُ فيتَّقونَهُ بالطاعةِ والتوحيدِ. ثم أمرَهم بذلك فقالَ: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا عذابي بامتثالِ أوامِري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ ؛ يعني اجتنَبُوا كلَّ ما يُعبَدُ من دون اللهِ، ﴿ وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ورجَعُوا إلى طاعةِ الله بعزائمِهم وأقوالِهم وأفعالهم، ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ، بالجنَّة، ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ ؛ وذلك لأنَّ القرآن يشتملُ على ذكرِ المباحات والطَّاعات، والمباحات حسَنةٌ، والطاعات أحسَنُ، واستحقاقُ الثواب يتعلَّقُ بفعلِ الأحسنِ.

ويجوزُ أن يكون معنى الآيةِ: أن العفوَ عن القصاص أحسنُ من استيفاءِ القصاص، والصبرُ أحسن من الانتصار، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[3] فجعلَ الأخذ بأحسنِ الطَّريقَين أعظمُ للصواب.

وَقِيلَ: معنى(فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) أي أحسنَهُ وكلُّه حسنٌ، قولهُ تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي الذين وصَفْنَاهم ، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ ، هم الذين وفَّقَهم اللهُ للصواب، ﴿ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ذوُو العقول.

---

(١) البقرة / ٢٣٧ .
(٢) الشورى / ٤٣ .
(٣) البقرة / ١٨٤ .

وقال عطاءُ عن ابن عبَّاس: (أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ فصَدَّقَهُ، فَجَاءَ عُثْمَانُ ﷺ وَعَبْدُالرَّحْمَن بْنُ عَوْفٍ وطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيدُ، فَسَأَلُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ بإيْمَانِهِ فآمَنُوا، فَنَزَلَ فِيهِمْ (فَبَشِّرْ عِباد، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ) أيْ يَسْتَمِعُونَهُ مِنْ أبي بَكْرٍ (فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ) أَيْ حُسْنَهُ، وكُلُّهُ حَسَنٌ، أوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأولَئِكَ هُمْ ذوُو الْعُقُول)[١].

وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَنْ وجبَتْ عليه كلمةُ العذاب بكفرِهِ كمَن ليس كذلك، ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي سبقَ في علمِ الله أنه من أهلِ النار، أفأنتَ تنقذهُ فتجعلهُ مؤمناً، يعني لا تقدِرُ على ذلك.

قال عطاءُ: (يُرِيدُ أبَا لَهَبٍ وَأوْلاَدَهُ وَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْ عَشِيرَةِ النَّبيِّ ﷺ عَنِ الإيْمَان بهِ)[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ بالإيمان والطاعة، ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ ؛ أي لَهم منازلُ في الجنَّة رفيعةً وفوقَها منازلُ أرفعُ منها، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، وعدَهم اللهُ تلك الغُرَف والمنازلَ وعْداً لا يُخْلِفهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي فأجراهُ في الأرض ينابيعَ وهو جمعُ يَنْبُوعٍ، والينبوعُ: المكانُ الذي يَنْبَعُ منه الماءُ. قال مقاتلُ: معناهُ (فَجَعَلَهُ عُيُوناً وَرَكَايَا[٣] فِي الأَرْضِ)[٤] وَذلِكَ أنَّ أصْلَ الْمِيَاهِ الَّتِي فِي الأرْضِ مِنَ السَّمَاءِ.

---

(١) أيضاً ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص١١٢٣.

(٢) ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص١١٢٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٤٤.

(٣) الرَّكَايَا: أصلها (الرَّكْوَةُ) وهي شِبْهُ تُور مِنْ أدَمٍ، وفي الصحاح: الرَّكْوَةُ التي للماءِ وجمعُها (رِكَاءٌ) و(رَكَوَات) بفتح الكاف. وهي إناءٌ صغيرٌ من جلدٍ يُشرب فيه الماء. ورَكَا الأرضَ رَكْواً: حفرَها. ورَكَا رَكْواً: حفرَ حَوْضاً مستطيلاً. والرَّكِيَّةُ: البئرُ تحفَرُ، والجمع رَكِيٌّ وركَايَا. ينظر: مادة (ركا) في لسان العرب.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٠.

وقولهُ: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ أي ثم يُخرجُ بالمطر زَرْعاً من بين أحمرِ وأصفر وأبيض وأخضر، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ؛ أي يَيْبَسُ، ﴿ فَتَرَىٰهُ ﴾ ؛ بعدَ الْخُضْرَةِ، ﴿ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ ﴾ ؛ اللهُ، ﴿ حُطَٰمًا ﴾ ؛ أي متكسِّراً متفتِّتاً دِقَاقاً، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي الذي ذكرَ من صُنعِ الله وقدرتهِ لدلالةِ ذوي العقولِ على سُرعة زوالِ الدُّنيا، وعلى قدرةِ الله على البعثِ بعدَ الموت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَن وسَّعَ الله صدرَهُ لقبولِ الإسلام، فهو على بيانٍ وحجَّة من ربه يُبصِرُ به الحقَّ من الباطلِ، كمَن طبعَ الله على قلبهِ فلم يهتَدِ للحقِّ لقَسوَته، قال قتادةُ: (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبهِ: النُّورُ هُوَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، فِيْهِ يَأْخُذُ وَبهِ يَنْهَى)(١).

وتقديرُ الآيةِ: أفمَن شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نور من ربه، كمَن قَسِيَ قلبهُ.وعن ابنِ مسعود ﷺ أنه قالَ: (تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هَذا الانْشِرَاحُ ؟ قَالَ: [إذا دَخَلَ نُورٌ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ] قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا عَلاَمَةُ ذلِكَ؟ قَالَ: [الإنَابَةُ إلَى دَار الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَار الْغُرُور، وَالتَّأَهُّب لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ](٢). قِيْلَ: إنَّ هذه الآيَةَ نزلت في عمَّار بن ياسرٍ(٣)، وقال مقاتلُ: (أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلاَمِ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ؛ هم أبو جهلٍ وأصحابهُ من الكفَّار، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ . وَقِيْلَ: إنَّ قوله (أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبهِ) يعني عَلِيّاً وحمزةَ، وقولهُ تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ) هو أبو لَهَبٍ وأولادهُ(٤). وقولهُ (مِنْ ذِكْرِ اللهِ) أي عن ذكرِ اللهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣١٨٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢١٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود) وذكره.

(٣) نقله القرطبي في مقاتل، كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٤٧.

(٤) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٤٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، سُمي حَديثاً لأن النبيَّ ﷺ كان يُحَدِّثُ به قومَهُ. وقوله: ﴿ كِتَابًا ﴾ ؛ منصوب على البدل من أحسن الحديث. قولهُ: ﴿ مُتَشَابِهًا ﴾ ؛ أي يُشبهُ بعضه بعضاً في كونهِ حكمةً ومصلحةً، وفي أنه حقٌّ لا تناقُضَ فيه.

وقولهُ تعالى: ﴿ مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي مُكرَّرُ الأنباءِ والقصصِ للإبلاغِ والتأكيدِ، وتُثنَى تلاوتهُ في الصَّلاةِ وفي غيرِها فلا يمل من سماعهِ.

وقوله: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) خوفاً مما في القرآنِ من الوعيدِ، ومعنى تَقْشَعِرُّ: تأخذُهم قَشْعَريرَةٌ وهي تغيُّر يحدثُ في جلدِ الإنسان عند الوجَلِ والخوفِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا][1]. وقال الزجَّاجُ: (إذا ذُكِرَتْ آيَاتُ الْعَذاب اقْشَعَرَّتْ جُلُودُ الْخَائِفِينَ)[2]، وقال النبيُّ ﷺ:[إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ الإنْسَانِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّار][3].

وعن عبدِالله بن عُروةَ قالَ: قُلْتُ لأَسْمَاءَ بِنْتِ أبِي بَكْرٍ ﷺ: كَيْفَ كَانَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ؟ قَالَتْ: (كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَى، تَدْمَعُ عُيُونُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ) فَقُلْتُ لَهَا: إنَّ نَاساً الْيَوْمَ إذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرُّوا مَغْشِيّاً عَلَيْهِمْ ؟ قَالَتْ: (أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ)[4].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن العباس بن عبدالمطلب ﷺ) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣١٠؛ قال الهيثمي: (رواه البزار، وفيه أم كلثوم بنت العباس، ولم أعرفها، وبقية رجالها ثقات). وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل: ص١١٢٤.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٤٦.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٥٠، بلفظ: [مَا اقْشَعَرَّ جِلْدُ عَبْدٍ...]. وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل: ص١١٢٥.

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن=

ورُوي: أنَّ ابْنَ عُمَرَ ﷺ مَرَّ برَجُلٍ مِنْ أهْلِ الْعِرَاق سَاقِطٍ فقَالَ: (مَا بَالُ هَذا؟) فَقَالُوا: إنَّهُ إذا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: (إنَّا لَنَخْشَى اللهَ وَلاَ نَسْقُطُ) وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: (إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَدْخُلُ فِي جَوْفِ أحَدِهِمْ! مَا كَانَ هَذا صُنْعَ أصْحَاب رَسُولِ اللهِ ﷺ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي تسكنُ رعدَةُ أعضائِهم إذا سمعوا آياتِ الرَّحمة، وَقِيْلَ: تلينُ جلودُهم وقلوبُهم؛ أي تطمئنُّ وتسكنُ إلى ذكرِ الله للجنَّة والثواب.

قال قتادةُ: (هَذا نَعْتُ أوْلِيَاءِ اللهِ، وَصَفَهُمُ اللهُ بأنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بذهَاب عُقُولِهِمْ وَالْغِشْيَان عَلَيْهِمْ، إنَّمَا ذلِكَ فِي أهْلِ الْبدَعِ وَهُوَ مِنَ الشَّيْطَان)[٢].

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ ﴾ ؛ يعني أحسنَ الحديثِ وهو القرآنُ، هُدَى اللهُ يهديه، ﴿ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْكَافِرَ يُلْقَى فِي النَّار مَغْلُولَ الْيَدِ إلَى الْعُنُق، لاَ يَتَهَيَّأُ لَهُ أنْ يَتَّقِي النَّارَ إلاَّ بوَجْهِهِ)[٣]، فكان معنى الآيةِ: أفمَن يتَّقي بوجههِ شدَّةَ العذاب يومَ القيامةِ كمَن يدخلُ الجنةَ ويتلذذُ بنعيمِها.

=مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر ع عروة بن الزبير...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٣٨٣).

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١١٢٥.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة...) وذكره.

(٣) في جامع البيان: مج ١٢ ج ٢٣ ص٢٥١: تفسير الآية؛ قال الطبري: (وقال آخرون: هو أن يُنطلق به إلى النَّار مَكتُوفاً، ثم يُرمى به فيها، فأوّلُ ما تمسُّ النارُ وجهَهُ، وهذا قولٌ يُذكَرُ عن ابنِ عباس من وجهٍ كرهتُ أن أذكره لضعفِ إسناده).

قِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في أبي جهلٍ، قال الكلبيُّ: (يُنْطَلَقُ بهِ إلَى النَّار مَغْلُولاً، فإذا دَفعَتْهُ الْخزَنَةُ فِيْهَا تَتلَقَّفُهُ النَّارُ بأَوَّل وَجْهِهِ)، وقولُه: ﴿ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي يقولُ الخزَنة للكفار: ذوقُوا العذابَ بما كنتم تكسبُون في الدُّنيا من الكفرِ والمعاصي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي كذبَ الذين من قبلِ كفَّار مكَّة رسُلَهم، ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ يعني وهم آمِنُون في أنفسِهم غَافِلون عن العذاب. وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ لأهلِ مكَّة لئلاَّ يسلُكوا طريقةَ مَنْ قبْلَهُم فينْزِلُ بهم من العذاب ما نزلَ بمَن قبلَهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي الهوانَ والعذابَ في الحياةِ الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾؛ مما أصابَهم في الدُّنيا، ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ ولكنَّهم لم يعلَمُوا ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾؛ أي ولقد ضرَبنا لأهلِ مكَّة في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ لَهم فيه من كلِّ وجهٍ ما يحتاجون إليه، ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ فيؤمِنُوا.

وقولهُ تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ قُرْآناً نصَبهُ على الحالِ كما يقالُ: جاءَنِي زيدٌ رجُلاً صالحاً، وقولهُ تعالى (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) أي مستقيمٌ وليس مختلِفٌ، وعن ابنِ عبَّاس:(غَيْرَ ذِي عِوَجٍ؛ أيْ غَيْرَ مَخْلُوقٍ)[1]، وَقِيْلَ: غيرَ تضَادُدٍ واختلافٍ، لا يخالِفُ الكتبَ المنَزَّلةَ قبلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾؛ أي وصفَ اللهُ مثلَ آلِهَتِهم التي يعبدونَها من دون الله، يقولُ اللهُ: الذي يعبدُ آلهةً شيِّنٌ في أخلاقِهم وشراسة، والذي يعبدُ ربّاً واحداً خالصاً في عبادتهِ إياهُ، والمعنى فيه شركاءُ متشَاحُّون، ورجُلاً سَلَماً لرَجُل سلم له من غيرِ منازعٍ، وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ أرباباً كثيرةً فيه

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٢٣؛ قال السيوطي: (أخرجه الآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات).

شركاءُ متشَاحُون سَيِّئَةٌ أخلاقُهم، وكلٌّ واحدٍ منهم يستخدمهُ بقدرِ نصيبهِ، يقـالُ: رجـلٌ شَكِسٌ وَشَرِسٌ، وضَرِسٌ وضَبِسٌ، إذا كان سَيِّءَ الْخُلُقِ ومُخَالِفاً للناسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ ؛ (ورَجُلاً سَالِماً) هذه قراءةُ ابـنِ كثـير وأبي عمرٍو ومجاهد والحسن ويعقوب، واختيار أبي عُبيد؛ لأن السالِمَ "الْخَـالِصَ"(١) ضدُّ المشترَكِ، وقرأ الباقون (سَلَماً) من غيرِ ألف بفتحِ اللام وهـو ضـدُّ المحـارب، ولا موضعَ للحرب هـهُنا، والمعنى ورَجُلاً ذا سَلَمٍ لرَجُلٍ، من قولِهم: هـو لـكَ سَـلَمٌ؛ أي مسلم لا منازعَ لكَ فيه.

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؛ أي هل يستوي عندكَ شِرْكٌ فيه مختلفـون يملكونهُ جميعاً ورجلٌ خالِصٌ لرجلٍ لا شركةَ فيه لأحدٍ. والمعنى هل يستوي من يعبـدُ آلهةً شتَّى مختلفةً، يعني الكافرَ، والذي يعبدُ ربّاً واحداً، يعـني المؤمـنَ، وهـذا اسـتفهامٌ معناهُ الإنكارُ؛ أي لا يستويان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي الشكرُ للهِ دون غيرِهِ من المعبودِين، وقولـهُ: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ ما يصيرُون إليـه مـن العقـاب، والمـرادُ بـالأكثرِ الكلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ إنكَ يا مُحَمَّدُ ميِّـتٌ عـن قليلٍ وإنَّهم ميِّتون، وَقِيْلَ: معناهُ: إنـكَ ستموتُ وإنَّـهم سيمُوتون، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعـني الْمُحِـقَّ والْمُبْطِـلَ، والظـالِمَ والمظلومَ. قولهُ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، بـأن جعـلَ لـه ولـداً وشَريكاً، ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ ؛ وكذبَ بالصدق بـالتوحيد والقـرآن إذْ جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ لفظَةُ استفهامٍ وهو تقديرٌ وتحقيقٌ؛ أي مثْوَاهُم جهنَّمُ.

قولـهُ: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ ؛ رسـولُ اللهِ ﷺ، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ ؛ أبو بكرٍ ﷺ كَانَ يُصدِّقهُ في كلِّ ما أخبرَ به، فلذلك سُمي صِدِّيقـاً، وقولـهُ تعـالى:

---

(١) في المخطوط: (هو) وضبطت كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٥٣.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعني أبا بَكرٍ وأصحابَهُ المؤمنين، وقولُهُ تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ يعني لَهم ما يَشاؤُون من الكرامةِ في الجنَّة و ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ في أقوالِهم وأعمالِهم. وقولُهُ تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي ليُكفِّرَ اللهُ عنهم أقبحَ أعمالِهم التي عمِلُوها في الدُّنيا بحسناتِهم، ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، قال مقاتلُ: (بالْمَحَاسِنِ مِنْ أعْمَالِهِمْ، وَلاَ يَجْزِيهِمْ بالْمَسَاوِئ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ؛ وذلك ((أنَّ))[2] المشركين من أهلِ مكَّة قالُوا للنبيِّ ﷺ: إنَّكَ لا تزالُ تشتمُ آلِهَتَنا وتُعيبُها فاتَّقِها أنْ لا تصيبَكَ بشيءٍ فتُخبلَكَ! فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ. وَقِيْلَ: معناهُ: أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ مُحمَّداً ﷺ يكفِيه عداوةَ من يُعاديهِ.

ومن قرأ (عِبَادَهُ) فالمرادُ بالعبادِ الأنبياء، وذلك أنَّ الأُمم قصدَتْهم بالسُّوء، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾[3] فكفاهم اللهُ شرَّ من عاداهم، يعني إنه كافِيكَ كما كفَى هؤلاء الرسُلَ قبلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ ، أي بالذين يَعبُدون من دونِهِ هم الأصنامُ. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم ((مع))[4] عبادتِهم غيرَ اللهِ يُقرُّونَ أن اللهَ خالقُ هذه الأشياءِ، فجعلَ اللهُ إقرارَهم بذلك حجَّةً عليهم.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٣.

(٢) (أنَّ) سقطت من المخطوط.

(٣) غافر / ٥ .

(٤) ((مع)) سقطت من المخطوط.

وبيَّن أنه تعالَى إذا أرادَ بعبدِهِ ضُرّاً لم تقدر الأصنامُ على دفعهِ عنهُ، وإذا أرادَ بعبدٍ رحمةً لم تقدر الأصنامُ على حبسِها عنه، فكيف يعبدونَها ويتركون عبادةَ اللهِ الذي له هذه الصفاتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ أفَرَأيْتُمْ مَا تَدْعُونَ) أي أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أن يحتجَّ عليهم بأن جميعَ ما تعبُدون من دون اللهِ لا يَملِكون كشفَ ضُرٍّ، قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (وَالْمَعْنَى: أرَادَنِي اللهُ بفَقْرٍ أوْ مَرَضٍ أوْ بَلاَءٍ أوْ شِدَّةٍ، هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ، أوْ أرَادَنِي برَحْمَةٍ أيْ بخَيْرٍ وَصِحَّةٍ، هَلْ هُنَّ حَابسَاتٌ تِلْكَ الرَّحْمَةَ عَنِّي).

قرأ أبو عمرٍو ويعقوب (كَاشِفَاتٌ) و(مُمْسِكَاتٌ) بالتنوينِ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ غيرُ واقعٍ، وما لَمْ يقع منهُ فوجهُها التنوينُ، وقرأ الباقونَ بغير تنوينٍ استخفافاً، وكِلاَ الوجهين حسنٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي يكفيني اللهُ تعالى الذي بيدهِ الضرُّ والرحمةُ، ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي به يَثِقُ الواثِقُون لا بغيرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ؛ أي على ناحيَتِكم التي اختَرتُموها، ﴿ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾ ؛ على ناحِيَتِي وجِهَتِي، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ ؛ أي يَفضَحهُ ويُهلِكهُ في الدُّنيا، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ وينْزلُ عليه عذابٌ دائم في الآخرةِ. ويجوز أنْ يكون قولهُ (مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ) ابتداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى، وخبرهُ (يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ يعني القرآن لتعلَمُوا ما فيه وتعملُوا به، ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي فمنفعةُ اهتدائهِ راجعةٌ إلى نفسهِ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ، ومن ضَلَّ فضَلالهُ راجعٌ إليه، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بحفيظٍ؛ أي تُجبرُهم بالإيمانِ، وهذا كان قبلَ أن يؤمرَ بقتالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ معناهُ: اللهُ يقبضُ الأرواحَ عند انقضاءِ آجَالِها، ويقبضُ الأرواحَ التي لم تَمُتْ في منامِها، ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ؛ فيحبسُ الأرواحَ التي قَضَى عليها الموتَ ولا يردُّها إلى الأجسادِ، ويَرُدُّ أرواحَ النائمين إليهم عند الاستيقاظِ، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي إلى الأجلِ الذي قدَّرَ اللهُ لهم وهو انقضاءُ الأجَلِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ ؛ إن في رَدِّ الأرواحِ بعدَ القبضِ لعلاماتٍ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ في قُدرةِ الله تعالى، فيستدلُّون بذلك على قُدرتهِ على البعثِ.

قال الزجَّاجُ: (لِكُلِّ إنْسَانٍ نَفْسَانِ؛ أحَدُهُمَا: نَفْسُ التَّمْيِيزِ؛ وَهِيَ الَّتِي تُفَارِقُهُ إذا نَامَ فَلاَ يَعْقِلُ. وَالأُخْرَى: نَفْسُ الْحَيَاةِ؛ إذا زَالَتْ زَالَ مَعَهَا النَّفَسُ، وَالنَّائِمُ يَتَنَفَّسُ)[(١)]. وعن ابن جُريج عن ابن عبَّاس أنه قالَ: (إنَّ النَّفْسَ الَّتِي هِيَ الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَالرُّوحُ هُوَ الشُّعَاعُ الَّذِي بِهِ يَتَحَرَّكُ الإنْسَانُ، فَإذا نَامَ الْعَبْدُ قَبَضَ اللهُ نَفْسَهُ وَلَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ، وَإذا مَاتَ قَبَضَ نَفْسَهُ وَرُوحَهُ)[(٢)].

ويقالُ: إن الأشباحَ له نفسٌ وروح وحياةٌ، والبهائمُ لها أرواحٌ، والنباتُ له حياةٌ، فنَمَا النباتُ بحياتهِ، وتحرَّكَ البهائمُ بأرواحِها، وتمييزُ الإنسان بنفسِه، فإذا نامَ غَرَبَ عنه عقلهُ وفَهمهُ وتَمييزهُ، فإذا انتبهَ عادَ كما كان، وكذلك الميِّتُ إذا بُعِثَ عادَ يبعث كما كانَ.

(١) بمعناه في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٢٦٨، وعلى ما يبدو أن المصنف ساقه بالمعنى، ونقل البغوي معناه في معالم التنزيل: ص١١٢٧-١١٢٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٣٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس). وذكره بلفظ قريب. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٣٨٩٧). وبمعناه أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ١ ص١١٦: الحديث (١٢٢). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٠٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح).

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: [النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لاَ يَنَامُونَ وَلاَ يَمُوتُونَ][(١)]. ورُوي أن في التوراةِ مكتوبٌ: يا بن آدمَ كما تنامُ تموتُ، وكما تستيقظُ تُبعَثُ.

وقوله (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ) أي يُمسِكُها عن جسدٍ، يعني الروحَ التي توفَّاها فلا تعودُ إلى الجسدِ، وقوله (وَيُرْسِلُ الأخْرَى) يعني النَّفسَ إلى الجسدِ (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي إلى انقضاءِ الأجلِ.

قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلف: (قُضِيَ عَلَيْهَا) بضمِّ القاف وكسرِ الضاد وفتح الياء، ورفعِ (الْمَوْتُ) على ما لَمْ يُسمَّ فاعلهُ. وقرأ الباقون: (قَضَى) على الفعلِ الماضي، ونصب (الْمَوْتَ عَلَيْهَا)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ) قال المفسِّرون: إن أرواحَ الأحياءِ والأمواتِ تلتقِي في المنامِ فتعارَفُوا ما شاءَ اللهُ، ثم يُمسِكُ اللهُ أرواحَ الأمواتِ فلا يردُّها، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ إلى الأجسادِ إلى وقتِ انقضاء مدَّة حياتِها. وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا أوَى أحَدُكُمْ إلَى فِرَاشِهِ فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: باسْمِكَ رَبي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبكَ أرْفَعُهُ، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بمَا تَحْفَظُ بهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ ؛ نزلت في أهلِ مكَّة، زعَمُوا أن الأصنامَ شفعاؤُهم عند اللهِ، فقالَ تعالى مُنكراً عليهم (أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) أي بل اتَّخذُوا من دون اللهِ آلهةً يعبدونَها طمَعاً في شفاعتِها، ﴿ قُلْ ﴾ ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٩٢٤) عن جابر بن عبدالله، والحديث (٨٨١١) مختصراً. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤١٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح).

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء: الحديث (٣٥٤-٣٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الذكر والدعاء: الحديث (٦٤/ ٢٧١٤). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٠١)، وقال: حسن.

لَـهم يـا مُحَمَّـد: ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾، أتَعبدُونَهم وإنْ كانوا لا يقدِرون على شيءٍ من الشفاعةِ ولا يعقِلون الشفاعةَ، فكيف يشفَعُون ؟ وَقِيْلَ: ولا يعقِلون أنّكم تعبدونَهم.

ثم أخبرَ أنه لا شفاعةَ إلاّ بإذنه، فقالَ: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي لا يشفعُ أحدٌ إلاّ بإذنه، والمعنى لا يملِكُ[1] أحدٌ الشفاعةَ إلاّ بتمليكِه، وهو إبطالٌ لشفاعةِ الأصنامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾؛ وذلك أنَّ المشركين إذا قيلَ لَهم لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ نفَرُوا من ذلك واستَكبَروا.

والاشْمِئزَازُ في اللُّغة: النُّفُورُ وَالاسْتِكْبَارُ. قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (اشْمَأَزَّتْ انْقَبَضَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ) وقال قتادةُ:(اسْتَكْبَرَتْ)[2]، وقال أبو عُبيدة:(نَفَرَتْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾؛ يعني الأصنامَ التي يعبُدونَها من دون اللهِ، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ والمعنى إذا قيل لَهم: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، نفَرُوا من ذلك، وإذا ذُكرت أصنامُهم فرحُوا بذكرها. فقيل لـه: ﴿ قُلِ ﴾؛ لَـهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي خالقَهما، ﴿ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ، وما علِمَهُ العبادُ، ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾، أي تقضي بين عبادك، ﴿ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ من الدِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي لو كان للذين ظلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جميعاً من المالِ ومثلَهُ معَهُ لفَدَوا به أنفُسَهم لشدَّةِ ما ينْزِلُ بهم من العذاب، ثم لا يُقبَلُ منهم ذلك الفداءُ، وظهرَ لهم من عقاب اللهِ ما لم يكونوا يتوقَّعون في الدُّنيا أنه ينْزِلُ بهم في الآخرةِ.

---

(١) في المخطوط: (يملكون).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٣٥).

وذلك أنَّهم لَمَّا كانوا لا يُقِرُّونَ بالبعثِ والنُّشور كانوا لا يتوقَّعون أهـوالَ يـومِ القيامة، بل كانوا ينتظِرُون ثوابَ اللهِ أن لو قامَتِ القيامةُ كما أخبرَ اللهُ عنهم بقوله ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[1] فإذا رأوُا العذابَ فقد، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ وظهرَ لهم عقوباتُ ما كسبُوا من المعاصي، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، وحلَّ بهم جزاءُ استهزائِهم بالكتاب والرسول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ ؛ أي إذا أصابَهُ مكروهٌ دعانا لنكشِفَ عنهُ، ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ ، ثم أعطيناهُ نعمةً منَّا من صحَّة وعافيةٍ، ويُسْرٍ بعد شدَّةٍ، ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾ ؛ اللهِ أنَّني أهلٌ لذلك، وقالَ: على علمٍ منِّي فيه بوجُوهِ مُكاسبَة.

وقولهُ: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي بل النعمةُ والشدَّة بَلِيَّةٌ وامتحانٌ من اللهِ للغنيِّ والفقيرِ، للغنيِّ بالشُّكر وللفقيرِ بالصبرِ، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أنَّها من اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ أي قد قالَ تلك الكلمةِ قارونُ حين قالَ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2]. والمعنى قد قالَها الذين من قبلِ هؤلاء الكفَّار، ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي ما أغنى عنهم الكفرُ من العذاب شيئاً، والمعنى أنَّهم ظنُّوا إنما آتيناهم لكرامتِهم علينا، ولم يكن كذلك؛ لأنَّهم وقعُوا في العذاب، ولم يُغْنِ عنهم ما كسَبُوا شيئاً، وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي جزاؤُها.

ثم أوعدَ كفارَ مكَّة فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي جزاءُ ما قالُوا وعمِلُوا، ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ لأن مرجِعَهم اللهُ، فهم لا يُعجِزُونَهُ ولا يَفُوتُونَهُ فيُجازيهم بأعمالِهم.

---

(١) فصلت / ٥٠.

(٢) القصص / ٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَم يعلَمُوا أنَّ اللهَ يوسعُ الرزقَ على مَن يشاءُ ويُضيِّقُ على مَن يشاءُ، كلُّ ذلكَ من عندهِ لا بحَوْلِ الإنسانِ وقوتهِ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ إنَّ في البَسْطِ والتقتيرِ لآياتٍ لقومٍ يُصدِّقون أنَّها من اللهِ تعالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَحْشِي وَأصْحَابهِ الَّذِينَ قَتَلُوا حَمْزَةَ عَمَّ النَّبيِّ ﷺ وَجَمَاعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أرْسَلُوا إلَى النَّبيِّ ﷺ رَسُولاً يَطْلُبُونَ التَّوْبَةَ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه قَالَ: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى وَحْشِي يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَمِ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ: يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ تَدْعُونِي إلَى دِينِكَ وَأنْتَ تَزْعُمُ أنَّهُ مَنْ قَتَلَ أوْ أشْرَكَ أوْ زَنَى يَلْقَ أثَاماً، يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيْهِ مُهَاناً؟! وَأنَا قَدْ فَعَلْتُ ذلِكَ كُلَّهُ، فَهَلْ تَجِدُ لِي فِيْهِ رُخْصَةً ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾[2].

فَقَالَ وَحْشِي: هَذا شَرْطٌ شَدِيدٌ لاَ أقْدِرُ عَلَى هَذا، فَهَلْ غَيْرُ ذلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3] وَقَالَ وَحْشِي: وَإنِّي فِي شُبْهَةٍ فَلاَ أدْرِي أيُغْفَرُ لِي أمْ لاَ، فَهَلْ غَيْرُ ذلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) فَجَاءَ وَحْشِي فَأَسْلَمَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: هَذِهِ لَهُ خَاصَّةً أمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً؟ فَقَالَ: [بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً][4].

معنى الآيةِ: قُل يا عبادِي الذي جاوَزُوا الحدَّ في المعاصِي بالكُفرِ والزِّنا والقتلِ ونحوِها: لا تيأسُوا من رحمةِ اللهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي الصغائرَ

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٠١). وذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٤٢١.	(٢) الفرقان / ٧٠ .	(٣) النساء / ٤٨ .

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٣٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبري وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عباس رضي الله عنهما) وذكره.

والكبائرَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾ ؛ بمَن تابَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي ارجِعُوا إلى طاعةِ ربكم بالتوبةِ، ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ ﴾ ، واستَسلِمُوا له من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُمنَعون مما يرادُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ ؛ وهو القرآنُ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ ﴾ ؛ وقتَ مجيئهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: بَادِرْ واحذرْ من أنْ تقولَ نفسِي، أو حَذار من أن تصيرَ إلى حالةٍ تتحسَّرون فيها على التفريطِ فيما يُنَالُ به ثوابُ اللهِ، قال الفرَّاءُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فِي جَنْبِ اللهِ): هُوَ الْقُرْبُ؛ أيْ فِي قُرْبِ اللهِ وَجِوَارِهِ)[1].

والمعنى: أنْ تقولَ نفسِي: يا حسرَتَا على ما فرَّطتُ في طلبِ جِوَارِ اللهِ وقُربهِ وهو الجنَّةُ، وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: عَلَى مَا ضَيَّعْتُ مِنْ ثَوَابٍ). وقولُهُ تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ ﴾ ؛ أي وما كنتُ إلاَّ من المستهزِئين بالقرآنِ والمؤمنين في الدُّنيا وبمَن دعَانِي إلى التوحيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ ﴾ ؛ أي وخَوفاً أنْ تقولَ لو أنَّ اللهَ نَجَّانِي من العذاب لكنتُ من جُملَةِ المتَّقين الشِّركَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ﴾ ، الموحدين، ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ ﴾ ؛ أو تقولَ حين ترَى العذابَ أو لِئَلاَّ تقولَ حين ترَى العذابَ: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدُّنيا فأكون من الموحِّدين الْمُحسِنِينَ.

---

(١) نقله عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٧١.

فيُقال لهذا القائلِ: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ ؛ يعني القرآنَ؛ ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ ؛ أي قُلتَ: ليست من عندِ الله، ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ ؛ أي وتكبَّرتَ من الإيمانِ بها، وتعظَّمتَ عن الإقرار بذلك، ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ، وصرتَ من الجاحدِين لنِعَم اللهِ، فأصابكَ ما أصابكَ بجنايتِكَ على نفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ؛ أي وترَى يا مُحَمَّدُ يومَ القيامةِ الذين كذبُوا على اللهِ في قولِهم: عُزَيْرٌ ابنُ الله، وقولِهم: المسيحُ ابن اللهِ، وقولِهم: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، وقول عبدَةِ الأصنام: مَا نعبُدهم إلاَّ ليقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى، ترَى هؤلاءِ تسوَدُّ وجوهُهم وتزرَقُّ أعينُهم. وقوله: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ تحقيقٌ وتقرير، والْمَثْوَى: هو الْمَنْزِلُ، والمتكبرُ: هو المتعظِّمُ عن الإيمانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ ؛ أي يُخَلِّصُهم من العذاب بفَوزهم الذي استحقُّوهُ بأعمالِهم، قال المبرِّدُ: (الْمَفَازَةُ: مَفْعَلَةٌ مِنَ الْفَوْزِ)[١] وَهِيَ السَّعَادَةُ وإنْ جُمِعَ فَحَسَنٌ كَقَوْلِهِمْ السَّعَادَةُ وَالسَّعَادَاتُ، ويقرأ (بِمَفَازَاتِهِمْ). وقولهُ: ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ ؛ أي لا يُصِيبُهم العذابُ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ لأنَّهم رَضُوا بالثواب.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي جميع ما في الدُّنيا والآخرةِ من شيءٍ فاللهُ خالِقُهُ، وهو المستحقُّ للعبادةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي الأشياءُ كلُّها موكلةٌ إليه، فهو القائمُ بحفظِها، المدبرُ لأمُورها، الكفيلُ بأرزاقِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له خزائنُ السَّمواتِ والأرض، يفتَحُ الرزقَ على من يشاءُ ويغلقه، قال ابنُ عبَّاس: (الْمَقَالِيدُ الْمَفَاتِيحُ)[٢] وَاحِدُ الْمَقَالِيدِ مِقْلِيدٌ، كَمَا يُقَالُ مِنْدِيلٌ وَمَنَادِيلُ، وقال الضحَّاكُ: (مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ

---

(١) ذكره عنه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٢٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٧٣).

وَالأَرْضِ خَزَائِنُهَا)[١]. ويجوزُ أن تكون المقاليدُ جمعَ الْمِقْلاَدِ، وهو مِفْعَالٌ من الْمِقْلاَدَةِ؛ أي هو مالكُ الخلقِ وله طاعتُهم وبيدهِ قلوبُهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: والذين كفرُوا بالقرآنِ هم الذين خَسِرُوا حتى صارُوا في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المشركين من قُريشٍ قالوا للنبيِّ ﷺ: أتُؤمِنُ ببعضِ آلهتنا ونؤمِنُ بإلَهِكَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[٢]. والمعنى أتأمُرونني أن أعبدَ غيرَ اللهِ أيُّها الجاهلونَ بالنعمةِ.

قرأ نافعُ (تَأْمُرُونِي) بنونٍ واحدة خفيفة على التخفيف، وقرأ ابنُ عامرٍ بنُونَين على الأصلِ، وقرأ الباقون بنُونٍ واحدة مشدَّدة على الإدغامِ.

وقولُه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي ليَحبَطَنَّ عمَلُكَ الذي عَملتَهُ قبلَ الشِّركِ، وهذا أدبٌ من اللهِ لنبيِّهِ ﷺ وتَهديدٌ لغيرهِ، لأنَّ اللهَ قد عصمَهُ من الشِّركِ ومُداهَنَتِهِ الكفارَ. قولُه تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ ؛ أي وَحِّدْ؛ لأن عبادتَهُ لا تصحُّ إلاّ بتوحيدهِ، ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ لإنعامهِ عليكَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ؛ أي ما عرَفُوا اللهَ حقَّ معرفتهِ، ولا عظَّموهُ حقَّ تعظيمهِ، إذ عبَدُوا الأوثانَ مِن دونه، وأمَرُوا النبيَّ ﷺ بعبادةِ غيره. ثم أخبرَ عن عظَمتهِ فقالَ: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ أي وجميعُ الأرضِ في مَقدُورهِ يومَ القيامةِ كالذي يقبضُ عليه القابضُ في قَبضَتهِ، وهذا كما يقالُ: فلانٌ في قبضةِ فلان؛ أي تحتَ أمرهِ وقبضتهِ، والقَبْضَةُ في اللغة: ما قَبَضْتَ عليهِ بجمعِ كفِّكَ، أخبرَ اللهُ تعالَى عن قُدرتهِ فذكرَ أن الأرضَ كلَّها مع عَظَمتِها وكثافتِها في مَقدُورهِ، كالشَّيء الذي يَقبضُ عليه القابضُ بكفِّه.

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن زيد في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٧٦).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ؛ ذكرَ اليمينَ للمبالَغةِ في الاقدار، يعني أنَّهُ يَطويها بقُدرتهِ كما يطوي الواحدُ منَّا الشيءَ المقدورَ له طَيُّهُ بيمينهِ، قال الأخفَشُ: (مَعْنَاهُ مَطْوِيَّاتٌ فِي قُدْرَتِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ؛ أيْ مَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِ قُدْرَة وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِلْيَمِينِ دُونَ الشِّمَال)[1]. وقد يُذكَرُ اليمينُ بمعنى القوَّة كما قالَ الشاعرُ[2]:

إذا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدِ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِين

ثُم نَزَّهَ نفسَهُ عن شِركهم فقالَ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ قد ذكَرنا أن النفخةَ نفخَتان في قولِ أكثر المفسِّرين وبينَهما أربعون سَنة، فالنفخةُ الأُولى هي نفخةُ الصَّعقِ.

والصعقُ: هو الموتُ بصيحةٍ شديدة حالَّةٍ هَائلةٍ، ومنها الصواعقُ وهي التي تأتِي بشدَّةِ الرَّعدِ، وعن عبدِالله بن عمر قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصُّور فَقَالَ: [قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيْهِ فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ][3] أي يَموتُونَ من الفزَعِ وشدَّة الصوتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يعني الملَكَ الذي ينفخُ في الصُّور، ثم يُمِيتهُ اللهُ بعدَ ذلك، وقال الحسنُ: (يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإسْرَافِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَلَكَ الْمَوْتِ)[4]. وعن أبي هُريرة ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٧٤. تحقيق د. عبدالأمير. وج ٢ ص٤٥٧، تحقيق د. فائز فارس.

(٢) قاله الحطيئة، وقيل: الشماخ الذبياني، (؟-٢٢هـ).

(٣) أخرجه الإمام أحد في المسند: ج ٢ ص١٦٢ و١٩٢. وأبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في ذكر البعث والصور: الحديث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع: أبواب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الصور: الحديث (٢٤٣٠)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٢٩٥) عن السدي.

جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: [مَنِ الَّذِي شَاءَ اللهُ أنْ يَصْعَقَهُمْ؟ قَالَ: هُمُ الشُّهَدَاءُ مُتَقَلِّدُون أسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ][(١)].

عن أنسٍ بن مالك قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: [جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ خُذْ نَفْسَ إسْرَافِيلَ، فَيَأْخُذُهَا؛ ثُمَّ يَقُولُ: خُذْ نَفْسَ مِيكَائِيلَ، فَيَأْخُذُهَا، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ يَا رَب تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ جِبْرِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مُتْ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ، فَيَمُوتُ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ: تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ بَقِيَ وَجْهُكَ الْبَاقِي الدَّائِمُ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ الْمَيِّتُ الْفَانِي، فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ مُتْ، فَيَبْقَى سَاجِداً يَخْفِقُ بِجَنَاحَيْهِ فَيَمُوتُ][(٢)].

وقال الضحَّاك: (مَعْنَى قَوْلِهِ: (إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ) هُمْ رُضْوَانُ وَالْحُورُ وَمَالِكُ وَالزَّبَانِيَةُ)، وقالَ قتادة: (اللهُ أعْلَمُ بِثُنْيَاهُ). وَقِيلَ: هم عقاربُ النار وحيَّاتُها[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ يعني نفخةَ البعثِ، ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ ماذا يقالُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ؛ وأضاءَتِ الأرضُ يومئذٍ بعدلِ ربها، فسُمِّيَ العدلُ نُوراً كما سُمِّيَ النبيُّ ﷺ نُوراً وسُمِّي القرآنُ نوراً. ويقالُ: إن نورَ الأرضِ العدلُ، كما أنَّ نورَ الدينِ العلمُ، وقال بعضُهم: يخلقُ اللهُ تعالى يومئذٍ نوراً يُضِيءُ لأهلِ القيامة غيرَ الشمسِ والقمرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ؛ يعني صحائفَ الأعمالِ، ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ (وَالشُّهَدَاءِ) هُمُ الَّذِينَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٤٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الافراد وابن المنذر والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في البعث) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في الإبانة وابن مردويه) وذكره.

(٣) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٠.

يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ)[١] وَهُمْ أمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقال عطاءُ: (يَعْنِي الْحَفَظَةَ)[٢] وقال السديُّ: (يَعْنِي الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي طَاعَةِ اللهِ)[٣].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قُضِيَ بين الرُّسلِ والأمم بالعدل، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي لا ينقصُ من حسناتِ أحدٍ ولا يزادُ في سيِّئات أحدٍ. قولهُ: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ ؛ أي أعطيت كلُّ نفسٍ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ وهو أعلمُ بفعلِهم، لا يحتاجُ إلى كاتبٍ ولا شاهدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ ؛ وذلك أنَّهم يُساقُونَ إلى جهنَّم فَوْجاً فَوْجاً، الأوَّلُ فالأولُ، يُسَاقُ كفارُ كلِّ أمة على حِدَةٍ، والزُّمَرُ: جماعاتٌ في تَفْرِقَةٍ بعضُها على إثْرِ بعضٍ، يُسَاقُونَ سَوْقاً عَنِيفاً، يُسحَبُونَ على وُجُوهِهم إلى جهنَّم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ؛ عند مجيئِهم، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ ؛ وهم الزَّبانيةُ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ ، ويخوفونكم، ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ، اليوم، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ، أتونا بالرسالة، ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ ولكن وجَبتْ كلمةُ العذاب على الكافرين، فيقولُ لهم الزبانيةُ: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ ادخلوا أبوابَ جهنَّم السبعة خالِدين فيها.

ومعنى قولهِ (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) هو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾[٤]. واختلفَ القُراء في قولهِ (فُتِحَتْ) فخفَّفها الكوفيُّون، وشدَّدها الباقون على التكثيرِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣١١). وذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٣٣.

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣١).

(٤) هود / ١١٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ ؛ وذلـك أنَّ المؤمنين يُنطلَـقُ بـهم إلى الجنَّـة فَوْجـاً فوجـاً بـالتلطُّفِ والإكـرام، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ؛ قال الأخفشُ:(هَذِهِ الْوَاوُ زَائِدَةٌ)[١] وَالْمَعْنَى: فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا حَتَّى تَكُونَ جَوَاباً لِقَوْلِهِ (حَتَّى إذا جَاءُوهَا). وقـال الزجَّـاجُ: (الْقَـوْلُ عِنْـدِي أنَّ الْجَـوَابَ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: حَتَّى إذا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أبْوَابُهَا وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ خَزَنَتُـهَا سَارُوا إلَـى السَّعَادَةِ وَوَصَلُوا إلَى مَقْصُودِهِمْ)[٢].

وَقِيْلَ: هذه الواوُ واوُ الحـال تقديـرهُ: حتـى إذا جاؤهـا وَقـد فُتحـت أبوابُـها، وأدخل الواو ههنا لبيانِ أنَّها قد كانت مفتَّحةً قبل مجيئِهم، وحذفَـها مـن الآيـة الأُولى لبيانِ أنَّها قد كانت مُغلقَةً قبلَ مجيئهم.

ويقالُ: زيدَتِ الواوُ ههنا لأن أبوابَ الجنَّة ثمانيةٌ وأبوابَ جهنَّم سبعةٌ فزيـدت الواوُ فَرْقاً بينهما. وحُكي عن أبي بكرِ بـن عيَّـاش[٣]: (أنَّـهَا تُسَـمَّى وَاو الثَّمَانِيَـةِ)[٤] وَذَلِكَ أنَّ مِنْ عَادَةِ قُرَيْشٍ أنَّهُمْ يَعُدُّونَ الْعَدَدَ مِـنَ الْوَاحِـدِ إلَـى الثَّمَانِيَـةِ، فَـإذا بَلَغُـوا الثَّمَانِيَةَ زَادُوا فِيهَا الْوَاوَ، فَيَقُولُونَ: خَمْسَةٌ سِتَّةٌ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ، يَدُلُّ عَلَيْـهِ قَوْلُـهُ تَعَـالَى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَال وَثَمَانِيَةَ أيَّام﴾[٥]، وَقَالَ اللهُ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[٦] فَلَمَّا بَلَـغَ الثامن[٧] ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٨]، وَقَالَ تَعَـالَى

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٧٣، تحقيق د. عبدالأمير. وج٢ ص٤٥٨، تحقيق د. فائز.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٤ مع بعض التصرف في العبارة. ونقله كما عند المصنف البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٣
(٣) في المخطوط: (عن أبي بكر بن عبد أوس) والصحيح: (عن أبي بكر بن عيـاش) وهـو الكوفي الخياط المقرئ، ترجم له ابن حجـر في تـهذيب التـهذيب: الرقـم (٨٢٦٥). وذكـره القرطـبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٥.
(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٢-٣٨٣؛ قال القرطبي: (وحكى القرطبي عن أبي بكـر ابن عياش أن قريشاً...) وذكره. وينظر: ج ١٥ ص٢٨٥.
(٥) الحاقة / ٧ .
(٦) التوبة / ١١٢ .
(٧) في المخطوط (الثا) ولم يتمها الناسخ.
(٨) الكهف / ٢٢ .

﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1]. وَقِيلَ: زيادةُ الواو في صفة الجنَّة علامةٌ لزيادةِ رحمةِ الله تعالى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (طِبْتُمْ) أيْ طَابَ لَكُمُ الْمُقَامُ)[2]، وَقِيلَ: معناهُ ظَفرتُم بصالحِ أعمالكم وكنتم طيِّبين في الدنيا. وَقِيلَ: طابت لكم الجنَّة فادخلُوها خالدين. فلما دخلُوها ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ ، أي أنْجزَنا وعدَهُ، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ ، وأنزلنا أرضَ الجنَّة، ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ؛ أي نتَّخذُ فيها من المنازل ما نشاءُ، لقول الله تعالى ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ؛ أي نِعمَ ثوابُ العاملين للهِ في الدُّنيا الجنَّةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ؛ أي مُحدِّقين حول العرشِ مُحيطِينَ به، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ؛ إجْلالاً لعظَمته، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ ؛ الخلائق، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ؛ أي بالعدل وانتصفَ بعضُهم من بعض، ﴿وَقِيلَ﴾ ، ويقال لهم بعد الفراغ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى ابتدأ خلقَ الأشياءِ بالحمدِ فقالَ: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[3] فلمَّا بعثَ الخلقَ واستقرَّ أهلُ الجنَّة في الجنةِ، وأهلُ النار في النار، ختمَهُ بقولِهِ:(الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ).

آخر تفسير سورة (**الزمـر**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) التحريم / ٥ .

(٢) ذكره عنه أيضاً ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٦ ص٥٥٥.

(٣) الأنعام / ١.

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ (غَافـر)

سُورَةُ الْمُؤْمِنِ مَكِّيَّةٌ[١]، وَهِيَ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسُتُّونَ حَرْفاً[٢]، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ حم الْمُؤْمِنُ، لَمْ يَبْقَ رُوحُ نَبِيٍّ وَلاَ صِدِّيقٍ إلاَّ صَلَّوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ][٣]. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَلْيَقْرَأْ الْحَوَامِيمَ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ][٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [الْحَوَامِيمُ أَدْبَاجُ الْقُرْآنِ][٥]. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [الْحَوَامِيمُ سَبْعٌ، وَأَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعٌ، فَيَجِيءُ كُلُّ حم مِنْهُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بَابٍ مِنْ هَذِهِ الأَبْوَابِ تَقُولُ: لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ يَقْرَؤُنِي][٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ، وَثَمَرَةُ الْقُرْآنِ الْحَوَامِيمُ، هُنَّ رَوْضَاتٌ حِسَنَاتٌ مُخْصِبَاتٌ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيَقْرَإِ الْحَوَامِيمَ][٧]. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (إذا وَقَعْتُ فِي الْحَوَامِيمِ وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتٍ أَتَأَنَّقُ فِيهِنَّ)[٨].

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٦؛ قال الزجاج: (الحواميم كلها مكية). وتسمى سورة غافر، وسورة الطَّول، وهي سورة المؤمن. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٨.
(٢) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٨ ص٣؛ قال ابن عادل: (أربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً).
(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ.
(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن الضريس عن إسحق بن عبدالله).
(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو الشيخ، وأبو نعيم والديلمي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ...) وذكره.
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن: الحديث (٢٤٧٩)، وقال: (هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع).
(٧) تقدم.
(٨) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٦٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد ومحمد بن نصر وابن المنذر عن ابن مسعود). وذكره.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ١ ﴾ ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [حم، اسْمٌ مِـنْ أَسْـمَاءِ اللهِ تَعَـالَى، وَهِيَ مِفْتَاحُ خَزَائِنِ رَبكَ](١)، وقال ابـن عبـاس: [هُـوَ اسْـمُ اللهِ الأَعْظَـمُ](٢). وعـن عكرمةَ قال: (ألر و حم و ن حُرُوفُ الرَّحْمَن مُقطَّعَـةٌ)(٣)، وَقِيْـلَ: (أقسـمَ اللهُ بِجَمَلَـةِ ((عَرشهِ)) وَمَلاَئِكَتِهِ لاَ يعذِّبُ أَحَداً عَادَ إلَيْهِ يقُوْلُ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِـهِ)(٤)، وقال عطاء الخراسانيُّ: (الْحَـاءُ: افْتِتَـاحُ أَسْـمَاءِ اللهِ: حَلِيـمٌ وَحَمِيـدٌ وَحَـيٌّ وَحَكِيـمٌ، وَالْمِيمُ: افْتِتَاحُ أَسْمَائِهِ: مَلِكٌ وَمَجِيدٌ وَمَنَّانٌ)(٥)، وقال الضحَّاك: (حم قَضَـى مَـا هُـوَ كَائِنٌ)(٦).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ ﴾ ؛ أي هـذه تنْزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم بخَلقهِ، وقرأ حم بفتح الميم؛ أي أتْلُ حَمِيمُ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ ؛ أي غافرِ الذنب لِمَن قالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وهم أولياؤهُ وأهلُ طاعتهِ، وقابلِ التَّوب من الشِّركِ، شديدِ العقـاب لِمَـن ماتَ على الشِّركِ.

---

(١) في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٢٨) عن ابن مسعود موقوفاً. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٢٧٠؛ قـال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي أمامة ﷺ) موقوفاً. وفي الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٥ ص٢٨٩، وذكره القرطبي كما عند المصنف رحمه الله، وأشار إلى إسناده عن عكرمـة، قـال النـبي ﷺ. فهو مرسل ولم أقف على إسناده.

(٢) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٢٧) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره الثعلبي عـن محمـد بـن كعـب القرظي، كمـا في الكشـف والبيـان: ج ٨ ص٢٦٣. وفي المخطوط: (بحمله) ولعله يريد (بحلمه) وترجح عندي كما أثبتناه.

(٥) عطاء بن أبي مسلم الخراساني، روى عن الصحابة مرسلاً، ولد سنة (٥٠) ومات سـنة (١٣٥) من الهجرة. ترجـم لـه ابـن حجـر في تـهذيب التـهذيب: الرقـم (٣٧٣٧). ونقـل قـال: (وقـال الطبراني: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا من أنس).

(٦) ذكره القرطبي عن الضحاك والكسائي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٨٩.

والتَّوْبُ: جمعُ التَّوبَةِ، ويجوزُ أن يكون مَصدراً مِن تَابَ يَتُوبُ تَوباً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ ؛ أي ذِي الغِنَى عمَّن لا يُوحِّدهُ ولا يقولُ: لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ. وقال الكلبيُّ: (ذُو الْفَضْلِ عَلَى عِبَادِهِ وَالْمَانُّ عَلَيْهِمْ)، وقال مجاهدُ: (ذُو السَّعَةِ وَالْغِنَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي لا معبودَ للخلقِ سواهُ، ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مصيرُ مَن آمَنَ، ومصيرُ مَن لم يؤمِنْ، وعن الحسنِ ﷺ: (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ﷺ سَأَلَ عَنْ بَعْضِ إخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا بالشَّام، فَقَالَ: مَا فَعَلَ أخِي فُلاَنٌ؟ وَقَالُوا: ذاكَ أخُو الشَّيْطَان يُخَالِطُ أهْلَ الأَشْرَفِيَّةِ وخَالَفَ أصْحَابَهُ. فَقَالَ: إذا خَرَجْتُمْ إلَى الشَّامِ فَآذِنُونِي. فَلَمَّا أرَادُوا الْخُرُوجَ أعْلَمُوهُ، فَكَتَبَ:

مِنْ عَبْدِاللهِ عُمَرَ بْن الْخَطَّاب أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إلَى فُلاَن بْنِ فُلاَنٍ. بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. سَلاَمٌ عَلَيْكَ؛ فَإنِّي أحْمَدُ إلَيْكَ اللهَ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُو.

أمَّا بَعْدُ: فَإنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: (حم تَنْزِيلُ الْكِتَاب مِنْ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذنْب وَقَابِلِ التَّوْب شَدِيدِ الْعِقَاب...) إلَى قَوْلِهِ (إلَيْهِ الْمَصِيرُ). وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَلَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ قَالُوا لَهُ: اقْرَأ كِتَابَكَ أيُّها الرَّجُلُ، فَلَمَّا قَرَأ (الْعَزِيز الْعَلِيم) قَالَ: عَلِيمٌ بمَا أصْنَعُ، (غَافِرِ الذنْب) إن اسْتَغْفَرْتُ غفَرَ لِي، و(قَابلِ التَّوْب) إنْ أنَا تُبْتُ لِيَقْبَلَ تَوْبَتِي، (شَدِيدِ الْعِقَاب) إنْ لَمْ أفْعَلْ عَاقَبَنِي (ذِي الطَّوْل لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ إلَيْهِ الْمَصِيرُ). ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَنَصحَ عُمَرُ ﷺ، فَأقْبَلَ بطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ إلَى أنْ مَاتَ.

فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أمْرُهُ، قَالَ: هَكَذا فَاصْنَعُوا؛ إذا رَأيْتُمْ أخَاكُمْ نَزَلَ فَسَدِّدُوهُ وَوَفِّقُوهُ، وَادْعُوا اللهَ لَهُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَكُونُوا أعْوَاناً لِلشَّيْطَان عَلَيْهِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ أي ما يُخاصِمُ في آياتِ اللهِ لتكذيبها والطَّعنِ فيها والمراءِ عليها إلاَّ الذين كفروا، ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ

(١) أخرج القصة من وجه آخر ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤١٦ و١٨٤١٧). وأورد القصة بألفاظ قريبة القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٢٩١.

تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾؛ بالتِّجارَاتِ وسلامتِهم في تصرُّفاتِهم بعدَ كُفرهم، فإنَّ عاقبةَ أمرهم العذابُ كعاقبةِ مَن قبلهم من الكفَّار. وَقِيْلَ: معناهُ: فلا يَغْرُرْكَ ذهابُهم ومجيئُهم في الأسفار بالتِّجارات، فإنَّهم ليسُوا على شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾؛ أي قبلَ قومِكَ، ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾؛ وهم الذين تحزَّبُوا على أنبيائِهم بالتكذيب نحوُ عادٍ وثمود؛ أي كذبُوا رُسلَهم كما كذبكَ قومُكَ، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾؛ فيقتلوهُ، ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾؛ أي وخاصَمُوا الرُّسلَ بالباطلِ ليُبطِلُوا به الحقَّ الذي جاءَت به الرسلُ، ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾، بعاقبةِ الاستئصالِ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾؛ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾؛ أي مثلَ ما حقَّ على الأُمَمِ المكذِّبةِ حقَّت كلمةُ ربكَ بالعذاب على الذين كفرُوا من قومِكَ، ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾، في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾؛ يعني حَمَلَةَ العرشِ والطائفِين به، وهم الكرُوبيُّونَ وهم سادة الملائكةِ، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾؛ بأنه واحدٌ لا شريكَ له، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ويقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾؛ أي وسعَتْ رحمتُكَ كلَّ شيءٍ، ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾؛ عن الشِّركِ والمعصيةِ، ﴿ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾؛ الطريقَ الذي دعوتَهم إليه، ﴿ وَقِهِمْ ﴾، وادفَعْ عنهم، ﴿ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾؛ أي ربَّنا وأدخِلهُم بساتينَ إقامةٍ، ﴿ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾؛ في الكتُب على ألسِنَةِ الرُّسلِ، و أدخِلْ معهم، ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾؛ ونسائِهم وأولادهم، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾؛ في مُلكِكَ وسُلطانِكَ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾؛ في أمْركَ وقضائكَ، ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾؛ وادفعْ عنهم عقوبةَ السَّيئاتِ، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ ومَن يدفَعْ عنه عقوبةَ السيئاتِ، ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي النجاةُ الوافرة.

وانتصبَ قولهُ (رَحْمَةً وَعِلْماً) على التمييز، قال ابنُ عبَّاس: (حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ كَعْبِ أحَدِهِمْ إلَى أسْفَلِ قَدَمِهِ مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ، وَمُسْتَقَرُّ أرْجُلِهِمْ فِي الأَرْضِ السَّابعَةِ السُّفْلَى، وَرُؤُوسُهُمْ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُمْ خُشُوعٌ لاَ يَرْفَعُونَ أبْصَارَهُمْ، وَهُمْ أشَدُّ خَوْفاً مِنْ أهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ)[1].

وعن الضحَّاك قال: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ قَالَ لَهُمْ: احْمِلُوا عَرْشِي، وَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مِنَ الأَعْوَانِ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَعْوَانِ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَأرَضِينَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَمِثْلَ مَنْ فِي الأَرْضِينَ مِنَ الْخَلْقِ، وَقَالَ لَهُمْ: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَخَلَقَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ جُنُودِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَجُنُودِ سَبْعِ أرَضِينَ وَعَدَدَ مَا فِي الرَّمْلِ مِنَ الْحَصَى والثَّرَى[2] وَقَالَ: احْمِلُوا عَرْشِي، فَلَمْ يُطِيقُوا! فَقَالَ: قُولُوا: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، فَلَمَّا قَالُوهَا حَمَلُوا الْعَرْشَ)، وقال ﷺ: [أُذِنَ لِي أنْ أتَحَدَّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شَحْمَتَي أُذُنِهِ إلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعَمِائَةِ عَامٍ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أن الكفارَ لَمَّا دخلُوا النارَ مَقَتُوا أنفُسَهم، ومَقَتَ بعضُهم بعضاً لاشتغالِهم في الدُّنيا بما قادَهم إلى النار، فيُنادِيهم مُنادٍ: (لَمَقْتُ اللهِ أكبَرُ) أي مَقْتُ اللهِ إيَّاكم في الدُّنيا (إذْ تُدْعَوْنَ إلَى الإيْمَانِ فَتَكْفُرُونَ) أكبرُ مِن مَقْتِكُم أنفُسَكم اليومَ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٣٥.

(٢) الثَّرى: التُّراب النَّدي.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب السنة: باب في الجهمية: الحديث (٤٧٢٧) عن جابر بن عبدالله. والطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٤٢٥: الحديث (١٧٣٠) بلفظ: [مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَاماً]. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٨٠؛ قال الهيثمي: (رواه أبو داود، ورواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ ؛ قـالَ بعضُـهم: معناهُ: كُنَّا نُطَفاً في أصلاب آبائنا أمْوَاتاً فخَلَقتَ فينا الحياةَ، ثـم أمَتَّنـا بعـد ذلـك عنـد انتهاءِ آجالِنا ثُم أحيَيْتَنا للبعثِ، وهذا كقولهِ تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(١). قالوا هكذا لأنَّهم كانوا في الدُّنيا فكذبوا في البعثِ، فاعترَفُوا في النار بما كذبوا بهِ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ ؛ أي بالتَّكذيب.

وقال بعضُهم: أرادَ بالموتِ الأُولى الـتي تكـون عنـد قبـضِ الأرواحِ، وبـالموتِ الثانية التي تكون بعدَ الإحياءِ في القبرِ للسُّؤال؛ لأنَّـهم أُمِيتُـوا في الدُّنيـا ثـم أُحْيُـوا في قبورهم فسُئِلُوا، ثم أُمِيتُوا في قبورهم، ثـم أُحْيُـوا في الآخـرةِ للبعـث، فيكـون المـرادُ بالإحياءِ الأَول الإحيـاءُ في القـبر، وبالإحيـاءِ الثـاني الإحيـاءُ للبعـثِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (فَاعْتَرَفْنَا بذُنُوبنَا) أي بإنعَامِكَ علَينا ونفوذ قضائِكَ فينـا وتكذيبنـا في الدُّنيـا، ﴿ فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن ﴾ ؛ النار، من، ﴿ سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ﴾ ، طريقٍ فنُؤمنَ بـكَ ونرجـعَ إلى طاعتك؟

فيجابُون: ليس إلى خروجٍ مِن سبيلٍ، يقـالُ لَـهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ في النـار والْمَقـتُ بـأنَّكم إذا قيـلَ لكـم في الدُّنيا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، أنْكَرتُم وكفرتُم وقلتُم أجَعلَ الآلهـةَ إلهـاً واحـداً، ﴿ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ ﴾ ؛ بـاللهِ، ﴿ تُؤۡمِنُواْ ﴾ ، صدَّقتُـم، ﴿ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ﴾ ؛ في سُـلطانه، ﴿ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في عظَمتهِ لا يُردُّ حكمهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي دلائلَ توحيدهِ ومصنوعاتهِ التي تدلُّ على قدرته من السَّماء والأرض، والشَّـمسِ والقمـرِ، والنجـومِ والسَّـحاب وغيرِ ذلك، ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ ﴾ ؛ يعني المطرَ الذي يسببُ الأرزاقَ، ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي ما يتَّعظُ بهذه المصنوعاتِ. وَقِيْـلَ: معناهُ: وما يتَّعِظُ بالقرآن إلاَّ من يرجعُ إلى دلائلِ الله فيتدبَّرها.

(١) البقرة / ٢٨ .

ثم أمَرَ المؤمنين بتوحيدِه فقالَ: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي مخلصِين له الطاعةَ موحِّدين، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ منكُم ذلكَ.

ثم عظَّمَ تعالى نفسَهُ فقالَ: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ أي رافعُ درجاتِكم، والرفيعُ بمعنى الرافعِ، والمعنى: أنه يرفعُ درجات الأنبياءِ والأولياء في الجنَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذُو الْعَرْشِ) أي خالِقهُ ومالِكهُ، ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ ، أي ينزل الوحي، ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي على مَن يختصُّ بالنبوَّة والرسالةِ، ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ ؛ ذلك النبيُّ الموحَى إليه، ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يومَ القيامةِ، وسُمي يومَ التَّلاقِ؛ لأنه يلتقِي فيه أهلُ السموات والأرضِ، والمؤمنون والكافرونَ والظالمون والمظلُومون، ويلتقِي المرءُ فيه بعملِه، وقرأ الحسنُ: (﴿لِتُنْذِرَ﴾ بالتاء ﴿يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أي لِتُخَوِّفَ فِيْهِ)[1]، وقرأ العامةُ بالياء؛ أي لِيُنذِرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ﴾ ؛ أي يومَ هم خارجون من مواضِعهم من الأرضِ والبحَار وحواصلِ الطَّير وبطُون السِّباعِ، ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ ﴾ ؛ ولاَ مِن أعمالِهم، ﴿ شَىْءٌ ﴾ ؛ ومحلُّه رُفع بالابتداءِ، و(بَارزُونَ) خبرهُ.

ويقولُ اللهُ في ذلك اليومِ: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ فيقولُ الخلقُ كلُّهم: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وقال الحسنُ: (هُوَ السَّائِلُ وَالْمُجِيبُ؛ لأَنَّهُ يَقُولُ ذلِكَ حِينَ لاَ أحَدَ يُجِيبُهُ، فَيُجِيبُ نَفْسَهُ)[2].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي تَصَرَّفَ بالْقُدْرَةِ وَقَهَرَ الْعِبَادَ بالْمَوْتِ، نَظَرَ اللهُ إلَيْهِ، وَمَنْ يَنْظُرْ إلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ كُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي الأَرْضِ][3].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٠؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميقع: (لِتُنْذِرَ) بالتاء خطاباً للنبي عليه السلام). وينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٢١.

(٢) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٠.

(٣) هكذا ورد النص في المخطوط، وفيه اضطراب من حيث بناء الجملة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ أي تُجزَى كلُّ نفسٍ بعملِها، الْمُحسِنُ بإحسانه، والمسِيءُ بإساءَتِه، ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ من أحدٍ إلى أحدٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ يُحاسِبُهم جميعاً في ساعةٍ واحدة، يظنُّ كلُّ واحدٍ أنه المجابُ دون غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ ﴾ ؛ أي حَذِّرهُم يومَ القيامةِ؛ والمعنى: يا مُحَمَّدُ أنْذِرْ أهلَ مكَّة يومَ الآزفَةِ، يعني القيامةَ، سُميت القيامةُ آزفةً مِن الأزفِ: وهو الأمْرُ إذا قَرُبَ، والقيامةُ آزفَةٌ لِسُرعَةِ مَجيئِهَا. قال الزجَّاجُ: (قِيلَ لَهَا: آزفَةٌ لأنَّهَا قَريبَةٌ وإِن اسْتَبْعَدَهَا النَّاسُ، وَكُلُّ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ)(١)، ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ ؛ أي تزولُ القلوبُ من مواضعِها من الخوفِ، فتشخَصُ صدورُهم حتى يبلغَ حاجِزَهم في الحلُوقِ، فلا هي تعودُ إلى أماكنِها ولا هي تخرجُ من أفواهِهم فيموتُوا فيستريحُوا.

وذلك أنَّ القلبَ بين فَلَقَتَي الرِّئة، فإذا انتفخَتِ الرِّئةُ عند الفزَعِ رفعَتِ القلبَ حتى يبلُغَ الحنجرةَ، فيلصقُ بالحنجرةِ فلا يقدرُ صاحبه على أن يرُدَّهُ إلى مكانهِ، ولا على أن يلفظَ به فيستريح. ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾(٢)، وقولهُ تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾(٣) وقولهُ تعالى ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(٤) وقولهُ تعالى: ﴿إذا بَلَغَتِ التَّرَاقِي﴾(٥).

وقولهُ تعالى: (كَاظِمِينَ) أي مَغمُومِينَ مكرُوبينَ مُمتَلِئين غمّاً وخوفاً وحُزناً، يعني أصحابَ القُلوب يتردَّدُ حُزْنُهم وحسراتُهم في أجوافِهم، والكَاظِمُ: هو المتلِيءُ أسَفاً وغيظاً، والكَظْمُ تردُّدُ الغيظِ والحزن والخوف في القلب حتى يضيقَ به، نصبَ (كَاظِمِينَ) على الحال، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ما لَهم مِن قريبٍ ينفعُهم ولا شفيعٍ يطاعُ الشفيع فيهم فتُقبَل شفاعتهُ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٧٩.
(٢) الاحزاب / ١٠ .
(٣) الواقعة / ٨٣ .
(٤) ابراهيم / ٤٣ .
(٥) القيامة / ٢٦ .

وقولهُ تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ ؛ أي خيانتها وهي مُسارَقَةُ النظرِ إلى ما لا يحلُّ، قال ابنُ عبَّاس: (خَائِنَةُ الأَعْيُنِ: هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ جَالِساً مَعَ الْقَوْمِ، فَتَمُرُّ الْمَرْأَةُ فَيُسَارِقُهُمُ النَّظَرَ إلَيْهَا)(١). وقال قتادةُ: (هِيَ هَمْزُهُ بعَيْنِهِ وَإغْمَاضُهُ فِيمَا لاَ يُحِبُّ اللهُ)(٢). ويجوزُ أن يكون المرادُ به: يعلَمُ العينَ الخائنةَ؛ أي يُجازي بخائنةِ الأعيُن، فكيف بما فوقَها، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(٣).

وفي الحديث: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: [لاَ تُتْبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإنَّ لَكَ الأُوْلَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةَ](٤)، يعني بأنَّ الأُولى إذا وقعَ نظرٌ إلى موضعٍ لا يجوزُ له النظرُ إليه لا عن تعمُّد منه، فإنه لا يكون إثماً في ذلك، وإنما يأثَمُ إذا عادَ بالنظرِ ثانيةً. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ويعلمُ ما تُضمِرُ الصدورُ عند خائنةِ الأعيُن، ويعلمُ ما تُسِرُّ القلوبُ من المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي يحكمُ بالقسطِ والعدلِ، لا يمنعُ أحَداً من ثواب عملِه، ولا يعاقبهُ على ذنبٍ لا يكتسبهُ، بل يجزي بالحسَنةِ والسيئة، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ ؛ معناهُ: والذين تدعُونَ من دون اللهِ من الأصنامِ لا ينفعُون مَن أطاعَهم، ولا يضرُّون مَن عصَاهم ولا يُجازون أحداً؛ لأنَّهم لا يعلَمُون ولا يقدِرُون.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٨٢؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم). وذكره القرطبي بلفظه في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٧٧).

(٣) الاسراء / ٣٦ .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ١ ص٣٨٨: الحديث (٦٧٨) عن علي رضي الله عنه، وأولهُ: [يَا عَلِيُّ، إنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ كَنْزاً... وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ]. وقال الطبراني: (لا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد وتفرد به عن حماد). وأخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب ما يؤمر به من غض البصر: الحديث(٢١٤٩) من حديث ابن بريدة عن أبيه. والترمذي في الجامع: أبواب الأدب: باب ما جاء في نظر الفجاءة: الحديث (٢٧٧٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك:كتاب النكاح: باب إذا تزوج العبد: الحديث (٢٨٤٢)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

قرأ نافعُ (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ) بالتاءِ، وقرأ الباقون بالياء[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ ؛ لِمَقالتِهم، ﴿ٱلْبَصِيرُ ۝٢٠﴾ ؛ بهم وأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٢﴾ ؛ الآيةُ ظاهرة المعنى. وقولهُ تعالى: (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) أي ما كان لهم من عذاب الله من واقٍ يقي العذابَ عنهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ؛ يعني الآياتِ التسع، ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣﴾ ؛ أي حجَّة ظاهرةٍ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ ؛ أي كثيرُ الكذب، وخَصَّ فرعونُ وهامان وقارون بالكذب؛ لأنَّهم كانوا همُ المتبُوعِين، وفي ذكرِ المتبوعين ذكرُ التابعين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ ؛ أي استبقُوا النساءَ للخدمةِ، وذلك أنَّ فرعون كان قد أخبرَ أنه يولَدُ مِن بني إسرائيلَ مولودٌ يذهَبُ ملكهُ على يديهِ، فأمَرَ بقتلِ أبنائهم واستبقاءِ نسائهم، فلمَّا جاءَهم مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحقِّ، أمَرَ بإعادةِ ذلك القتلِ عليهم كيلاَ يبلُغَ الأبناءُ فيُعِينُوهُ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ ؛ أي يذهبُ كَيدُهم باطلاً، ويحِيقُ بهم ما كانوا يَكِيدُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ ؛ وذلك أنَّ قومَ فرعون قالوا له: أرْجِئْهُ وأخاهُ ولا تقتُلهما، فإنَّكَ إنْ قتلتَهما قبلَ ظُهور حُجَّتنا عليهما وقعَتْ للناسِ الشُّبهَةُ في أنَّهما كانا على الحقِّ، فقالَ فرعونُ: دَعُونِي أقْتُلْ موسى، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ﴾ ؛ حتى يدفعَ ذلك القتلَ عنه.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٦؛ قال أبو علي الفارسي: (اختلفوا في الياء والتاء من قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ فقرأ نافع وابن عامر: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بالتاء، والقراء الباقون ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء، وكلهم فتح الياء).

ثم بيَّن لأيِّ معنى يقتلهُ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ ؛ يعني يبدِّلَ عبادتكم إيَّايَ، ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ ؛ وأرادَ ظُهورَ الهدَى وتغيُّرَ أحكَامِ فرعون فجعلَ ذلك فساداً.

قرأ الكوفيُّون ويعقوب: (أوْ أنْ يُظْهِرَ) بالألفِ، وقرأ نافعُ وأبو عمرو: (وَيُظْهِرَ) بضمِّ الياء وكسرِ الهاء، ونصب (الْفَسَادَ)، وقرأ الباقون بفتحِ الياءِ والهاءِ ورفعِ (الْفَسَادُ)، واختارَ أبو عُبيد قراءةَ نافعٍ وأبو عمرٍو، ولأنَّها أشبهُ بما قبلَها لإسنادِ الفعلِ إلى موسى وعطفهِ على بَدلِه[(١)].

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ؛ أي لَمَّا توعَّدَ موسى بالقتلِ، قال موسَى: إنِّي عُذْتُ بربِي وربكم، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ ، مُتَعظِّمٍ عن الإيمانِ[(٢)] وعن قَبول الحقِّ لا يصدِّقُ بيومِ القيامةِ، استعاذَ موسَى باللهِ مِمَّن أرادَ به سُوءً.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ ؛ اختلَفُوا في هذا المؤمنِ، فقال بعضُهم: كان قِبْطِيّاً من آلِ فرعون، غيرَ إنه كان آمَنَ بموسى وكان يكتمُ إيمانه من فرعون وقومه خَوفاً على نفسهِ.

وقال مقاتلُ والسديُّ: (كَانَ ابْنَ عَمِّ فِرْعَوْنَ)[(٣)]، وهُوَ الَّذِي حكَى اللهُ عَنْهُ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[(٤)]، وهذا هو الأشيرُ وكان اسمهُ حزقِيلَ، وَقِيْلَ: حِزْبيلُ[(٥)]. وقال بعضُهم كان إسرائيليّاً، وتقديرُ الآية: وقال رجلٌ مُؤمِنٌ يكتمُ

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٧. وإعراب القرآن لابن النحاس: ج ٤ ص٢٣. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٤٩. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٥.

(٢) في المخطوط: (من الايمان).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٨٣)، وقاله مقاتل أيضاً في التفسير: ج ٣ ص١٤٧.

(٤) القصص / ٢٠.

(٥) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٨٤؛ قال السيوطي: (أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (لَمْ يَكُنْ فِي آلِ فِرْعَوْنَ مُؤْمِنٌ غَيْرُهُ، وَغَيْرُ امْرَأةِ فِرْعَوْنَ، وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ=

إيمانه مِن آلِ فرعون.

وقولهُ تعالى: (أتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبي اللهُ) أي لأنْ يقولَ رَبيَ اللهُ، وقد جاءَكم بالبيِّنات من ربكم بما يدلُّ على صدقهِ من المعجزات، ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ ﴾ ؛ لا يضرُّكم ذلك، ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡ ﴾ ؛ أي يُصِبكُمْ كلُّ الذي يَعِدُكم من العذاب إنْ قتلتموهُ وهو صادقٌ.

والمرادُ بالبعضِ الكلَّ في هذه الآيةِ، وقال الليثُ: (بَعْضُ هَهُنَا زَائِدَةٌ؛ أيْ يُصِبْكُمُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)، وقال أهلُ المعاني: هذا على الْمُظَاهَرَةِ في الحِجَاجِ، كأنهُ قالَ لَهم: أقلُّ ما يكون في صِدقهِ أنْ يُصِبكُم بعضُ الذي يَعِدُكم وفي بعضِ ذلك هَلاكُكم)[1]، فذكَر البعضَ ليُوجِبَ الكلَّ، ويدلُّ على ذكر البعضِ بمعنى الكلِّ، قال لبيد:

تَـرَّاكُ أمْكِنَـةٍ إذا لَـمْ أرْضَـهَا ... أوْ يَعْتَلِـقْ[2] بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَامُـهَا[3]

أراد كلَّ النُّفوسِ، ومثلُ قولِ الآخر[4]:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَـدْ يَكُـونُ مَـعَ الْمُسْـتَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يهديهِ في الآخرةِ إلى جنَّتهِ وثوابهِ. والمسرفُ: هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؛ أي قالَ لهم الرجلُ المؤمِنُ على وجهِ النَّصيحةِ لَهم: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ) أي غالبينَ مُستعلِينَ فِي أرضِ مصرَ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ ؛ أي فمَن يَمنَعُنا من عذاب الله إنْ جاءَنا، ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ ؛ أي ما

=الَّذِي أنْذَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ)، وقال ابن المنذر: (أخْبِرْتُ أنَّ اسْمَهُ حِزْقِيل).

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨١.

(٢) يروى: (يرتبط) بدل (يعتلق) كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٠٧.

(٣) لبيد العامري (؟-٤١هـ)، شاعر مخضرم، أدرك النبي وأسلم.

(٤) هو عمرو بن شُيَيْم، الشهير بـ (القطامي) لقباً. ينظر: معاني القرآن للزجاج: ج ٤ ص٢٨١.

أشيرُ عليكم إلاَّ ما أراهُ حقّاً من الصواب في أمـرِ مُوسَى، ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ما أعَرِّفُكم إلاَّ طريقَ الهدى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ، معناهُ: وقالَ لَهم الرجلُ المؤمِـنُ: إنِّـي أخـافُ عليكـم في قتلـهِ وتركِ الإيمان بهِ أنْ ينْزِلَ بكُم مـن العـذاب، ﴿ مِثْلَ دَأْبِ ﴾ ، مِثلَما نـزلَ بـالأُمَم الماضيةِ قبلَكُم حين كذبُوا رُسُلَهم، ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ . وقولـه تعـالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي لا يُعـاقِبُ أحـداً بــلا جُرم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ يعـني يـومَ القيامةِ يُنادَى فيه كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم، وينادي فيه أهلُ النار أهلَ الجنة، وأهلُ الجنة أهلَ النار، وينادَى فيه بسعادةِ السُّعدَاءِ وشقاوةِ الأشقياءِ، وأصلهُ: يومَ التَّنَادِي بإثباتِ الياء كما في التَّناجِي والتَّقَاضِي، إلاّ أنَّ الياءَ حُذفت منه كما حُذف مِن قولـهِ تعـالى ﴿يَـوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[1] وشبهِ ذلك.

وَقِيْلَ: سُمِّي يومُ التَّنادِي؛ لأنَّ الكفَّارَ يُنادُونَ فيه على أنفسِهم بالويلِ والثُّبُـور، كما قالَ تعالى ﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِـيراً﴾[2]، وَقِيْـلَ في معنـى ذلك: أنه يُنادِي المنادي ألاَ أنَّ فُلان بـن فـلان سَـعِدَ سـعادةً لا شـقاوةَ بعدَهـا أبـداً، ويُنادِي: ألا إنَّ فلان بنَ فلان شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

وقرأ الحسنُ: (يَوْمَ التَّنَادِي) بإثباتِ الياء على الأصل[3]. وقرأ ابنُ عبَّاس: (يَوْمَ التَّنَادِّي) بتشديدِ الدال على معنى يوم التنافُرِ، وذلك إذا هربُوا فندُّوا في الأرضِ كمـا يَنُدُّ الإبلُ إذا شرَدَتْ على أصحابها.

قال الضحاكُ: (إذا سَمِعُوا بزَفِيرِ النَّار نَادَوا هَرَباً، فَلاَ يَأْتُوهُ قِطْـراً مِـنَ الأَقْطَـار إلاَّ وَجَدُوا مَلاَئِكَةً صُفُوفاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، فَذلِكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى

---

(١) القمر / ٦. (٢) الفرقان / ١٤ .

(٣) نقله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٢.

(يَوْمَ التَّنَادِ)[1]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[2].

وقولهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ؛ أي منصرفين عن موقفِ الحساب إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ؛ أي مانعٍ يمنعُكم من عذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ؛ أي جاءكم يوسفُ بن يعقوبَ مِن قَبْلِ موسى بالدَّلالاتِ ظاهرةً على وحدانيَّة اللهِ تعالى ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[3]. وَقِيْلَ: معنى قوله (مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ الْمُؤمِنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ ؛ أي في شَكٍّ من عبادةِ الله وحدَهُ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ، حتى إذا ماتَ، ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ؛ يأمُرنا وينهانا، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ؛ هكذا يُهلِكُ اللهُ مَن هو متجاوزٌ عن الحدِّ، ﴿مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي شاكٌّ في توحيدِ الله وصدق أنبيائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذا تَفْسِيرُ الْمُسْرِفِ الْمُرْتَابِ) على معنى هُم الذين يُجادِلُونَ في آياتِ الله بغيرِ سُلطان بالإبطال والتكذيب والطَّعنِ بغير حُجَّة أتتْهُم، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ؛ أي عَظُمَ جدالُهم بُغْضاً وسُخْطاً عندَ الله وعند الذين آمنوا، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ ؛ أي هكذا يَختمُ اللهُ بالكفر، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ ؛ عن الإيمانِ، ﴿جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ ؛ للناسِ على ((ما))[4] يُريد.

---

(١) نقله الفراء عن الضحاك في معاني القرآن: ج ٣ ص٨. وأصله أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٣٩٣).

(٢) الرحمن / ٣٣ .

(٣) يوسف / ٣٩ .

(٤) (ما) سقطت من المخطوط.

قال ابنُ عبَّاس: (يَخْتُمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يَسْمَعُونَ الْهُدَى وَلاَ يَعْقِلُونَ الرَّشَادَ) وقُرئ (عَلَى كُلِّ قَلْبٍ) بالتنوين، وقال الزجاجُ: (الْوَجْهُ الإضَافَةُ لأَنَّ الْمُتَكَبِّرَ هُوَ الإنْسَانُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ ؛ أي قالَ لوزيرهِ هامان: ابْنِ لِي قَصراً مَنِيفاً مشيَّداً بالآجُرِّ[٢]، قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا﴾[٣] وكانَ هامانُ هو أوَّلَ مَن استعملَ الآجُرَّ لبناءِ الصَّرحِ، ولكن كُرِهَ بناءُ القبور بالآجُرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ ؛ الطريقَ للسَّموات، والسَّبَبُ في الحقيقةِ: كُلُّ ما يُوصِلُكَ إلى الشيءِ، ولذلك سُمي الجبلُ سَبَباً. وقال بعضُهم: أسبابُ السَّموات طَبَقَاتُهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ؛ ظنَّ فرعون بجهلهِ أنَّ إلهَ موسى مما يرقى إليه، قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ ، أي إني لأظن موسى كَاذِباً فيما يقولُ إنَّ له ربّاً في السَّماء، ولما قالَ موسى: ربُّ السَّمواتِ، فظنَّ فرعون بجهلهِ واعتقاده الباطل أنه لَمَّا لَم يُرَ في الأرض أنه في السماء، فرَامَ الصعودَ إلى السَّماء لرؤيةِ إله موسى. وقيل: معناهُ: وإني لأظنُّ موسى كَاذباً فيما يقولُ أنَّ له ربّاً غيري أرسلَهُ إلينا.

وقرأ الأعرجُ[٤] (فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) بنصب العين على جواب (لَعَلِّي) بالفاء على معنى إنِّي إذا بلغتُ اطَّلَعتُ، وقراءُ العامة (فَأَطَّلِعُ) عطفاً على قولهِ تعالى:

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٣.

(٢) الآجُرُّ: الذي يُبْنَى بهِ. وأصله فارسي معرَّبٌ. مختار الصحاح: ص٧.

(٣) القصص / ٣٨.

(٤) هو حميد بن أبي حكيم المروزي الأعرج، من أهل مرو، روى عني يحيى بن يعمر – تابعي روى عن عثمان وعلي وغيرهما من الصحابة – وثقة ابن حبان في (الثقات): ج٣ ص٢٨٥: الرقم (٨٤٢). وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (١٦٠٠).

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ؛ أي كذا حُسِّنَ له قُبْحُ عملِهِ، زَيَّنَ له الشيطانُ جهلَهُ، ومَن قرأ (زَيَّنَ) بفتح الزاي على أنَّ المعاصي يدعُو بعضُها إلى بعضٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ ؛ أي صدَّ غيرَهُ عن الهدى، ويحتملُ أنه صدَّ عن السبيلِ بنفسه، و(صُدَّ) بضم الصاد أي مُنِعَ عن سبيلِ الحقِّ، ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي في خسَارٍ وهلاكٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي قال الرجلُ المؤمن من آل فرعون: يا قوم اتَّبعوني على دِيني أحملكُم على طريقِ السَّداد والهدى، ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ ؛ أي مشقَّةٌ يسيرةٌ تنقطعُ، ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ فلا تزولُ؛ أي هي المحِلُّ الذي يقعُ فيه الاستقرارُ.

قولهُ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ ، يعني الشِّرك، ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ؛ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها في العِظَم، معنى النار، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ أي طاعةً، ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ مخلصٌ، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي قَوْلَ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ)[1] ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بما لا يُعرَفُ له مقدارٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي قال لَهم الرجلُ المؤمنُ: يا قومِ مَا لِي أدعُوكم إلى سبب النَّجاةِ، ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ ، وتدعونَني إلى عملِ أهلِ النَّار وهو الشِّركُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ أي من لا أعرفُ له ربوبيَّته، ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ﴾ ؛ أي الغالب المنتقِم ممن عصاهُ، ﴿ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمَنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ؛ يعني قوله (لاَ جَرَمَ) أي حَقّاً أنَّ ما تدعونَني إليه من المعبودِين دون الله

---

(١) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣١٧.

ليس له دعوةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، قال السديُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ يَسْتَجِيبُ لأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ)[1]، والتقديرُ: ليس له استجابةُ دعوةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وإنَّ مَرجِعَنا إليه في الآخرةِ، يفصلُ بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ؛ أي وإنَّ المتجاوزين عن الحدِّ في الكُفرِ وسَفكِ الدماء بغيرِ الحقِّ، ﴿ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ؛ أي فستذكُرون هذا الذي أقولُ لكم في الدُّنيا من النَّصيحة إذا نزلَ بكم العذابُ في الآخرةِ، في حين لا ينفعُكم الذِّكرُ عليه، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وأتركُ أمرَ نفسي إلى اللهِ فأثِقُ به ولا أشتغِلُ بكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي بأوليائهِ وأعدائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ ؛ وذلك أنَّ فرعون أرادَ أن يَقتُلَهُ فهربَ منهم، فلم يقدِرُوا عليه، ودفعَ اللهُ عنه غَائِلَةَ مَكرِهم، ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي نزلَ بفرعون وقومه أشَدُّ العذاب، قال الكلبيُّ: (غَرِقُوا فِي الْبَحْرِ وَدَخَلُوا النَّارَ) والمعنى: وحاقَ بآل فرعون سوءُ العذاب، في الدُّنيا الغرقُ، وفي الآخرةِ النارُ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ؛ ارتفاعُ (النارُ) على البدلِ من (سُوءُ الْعَذاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً) أي صَباحاً ومساءً، يقالُ لَهم: يا آلَ فرعون هذهِ منازِلُكم، توبيخاً ونقمةً، قال ابنُ مسعود: (إنَّ أرْوَاحَ آلِ فِرْعَوْنَ فِي أجْوَافِ طَيْرٍ سُودٍ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ)[2]، وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ:[إنَّ أحَدَكُمْ إذا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إنْ كَانَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤١٦) عن السدي، وأسقطه الناسخ هناك، وأثبته ابن كثير في التفسير: ج ٤ ص٨٢: (قال السدي: لا يجيب داعية لا في الدنيا ولا في الآخرة).

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٢٩١؛ قال السيوطي:(أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﷺ) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٣٥).

فَمِنْ ((أَهْلِ)) الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ ((أَهْلِ)) النَّـارِ، يُقَـالُ: هَـذا مَقْعَـدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ](١).

وقولهُ تعـالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ قرأ نافعُ والكوفيُّون بقطعِ الألفِ وكسرِ الخاء؛ أي يقالُ للملائكةِ: أدْخِلُوا آلَ فرعـون أشدَّ العذاب، وهو الدَّرْكُ الأسفلُ من النار، وقرأ الباقون بضَمِّ الخاء ووصـلِ الألـف على الأمرِ لهم بالدخول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي واذكُـر يـا مُحَمَّـدُ لقومِـكَ: إذ يختصِـمُ أهـلُ النـار في النـار، وبـاقي الآيـة مفسَّـرٌ في سـورةِ إبراهيمَ ؏.

وقولهُ تعـالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ ؛ أي إنـا نحـنُ وأنتم قد استوَينا في العـذاب، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي قضَى بهذا علينا وعليكم وحَكَمَ أنْ لا يتحملَ أحدٌ عذابَ أحدٍ.

فلمـا رأوا شـدَّة العـذاب، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، قـالوا، ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي يُـهوِّنْ عنّـا العذابَ قدر يوم من أيَّام الدُّنيا، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ ، فيقول الزبانيـة: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بـالدَّلالاتِ الظـاهرةِ علـى وحدانيَّـة اللهِ، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ، فيقولـون: بلَـى قـد أتتْنـا الرسُـل، ﴿ قَالُواْ ﴾ ، فتقـولُ لـهم الزبانيـةُ: ﴿ فَٱدْعُواْ ﴾ ، أنتم فإنَّ اللهَ تعالى لم يأذنْ لنـا في الدُّنيـا، ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي في ضياعٍ لا ينفعُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي إنا لَنُعينُ الرسُلَ والمؤمنـين علـى أعدائِـهم في الدُّنيـا بالاسـتعلاءِ عليـهم بالحجَّـة

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب الميت يعرض عليه مقعـده بـالغداة والعشـي: الحديث (١٣٧٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: الحديث (٦٥/ ٢٨٦٦).

وبالغَلبةِ عليهم في المحارَبةِ، و َنُعينُهم، ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ بإعلاءِ كلِمَتهم وإظهار منْزلتهم، والمعنى: ويومَ القيامةِ تقومُ الحفَظَةُ من الملائكةِ يشهدون للرُّسُلِ بالتبليغِ، وعلى الكفَّار بالتكذيب.

وواحدُ الأشهَادِ: شَاهِدٌ، مثل صَاحِبٍ وأصحابٍ، وطائر وأطيَار، والمرادُ من الأشهادِ الأنبياءُ والملائكةُ والمؤمنونَ والجوارحُ والمكانُ والزمانُ، يشهدون بالحقِّ لأهلِهِ، وعلى المبطلِ بفعلِه، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ ؛ أي إن اعتذرُوا من كُفرِهم لم يقبَلْ منهم، وإنْ تابوا لم تنفعْهم التوبةُ، ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ ؛ أي البُعْدُ من الرحمةِ، ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ يعني جهنَّمَ سوءُ المنقلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ من الضَّلالةِ يعني التوبةَ، وَقِيْلَ: معناهُ: ولقد أعطَينا موسى الدِّينَ المستقيمَ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ، ونزَّلنا على بني إسرائيلَ التوراةَ والإنجيلَ والزَّبُورَ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ هُدًى من الضَّلالة وعِظَةً لذوي العقول، ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ ، يا مُحَمَّدُ على أذى الكفَّار كما صَبَرَ الرسلُ قبلَكَ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، في نُصرَتِكَ وإظهار دِينِكَ صدقٌ كائن، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ؛ يعني الصغائرَ؛ لأن أحداً من البشرِ لا يخلُو من الصغائرِ وإنْ عُصِمَ من الكبائرِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: واستغفِرْ لذنُوب أمَّتِكَ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي نَزِّهْهُ عن كلِّ صفةٍ لا تليقُ به، واحْمَدْهُ على كلِّ نعمةٍ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالتسبيحِ في الآية مِن قوله: ﴿ بِٱلْعَشِىِّ ﴾ ؛ الصَّلوات الخمسِ وقت ما بعدَ الزَّوالِ إلى وقتِ العشاءِ الآخرةِ، ومِن قوله: ﴿ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ صلاةُ الفجرِ. والمعنى: صَلِّ لربكَ شَاكراً لربك بالعشيِّ والإبكار.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ ؛ وذلك أن اليهودَ كانوا يجادلون في النبيِّ ﷺ في رفعِ القرآن، وكانوا يقولون له: صَاحِبُنا المسيحُ بن داودَ، يعنون الدجَّالَ يخرجُ في آخرِ الزمان فيبلغُ سلطانَ البرِّ والبحرِ، ويرُدُّ المُلْكَ إلينا وتسيرُ معه الأنهارُ، وهو آيةٌ من آياتِ الله! ويعظِّمون أمرَ الدجَّال، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناهُ: إنَّ الذين يخاصِمون بغيرِ حجَّةٍ أتتْهُم، ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما في قُلوبهم إلاَّ عَظَمَةٌ عن قبولِ الحقِّ لِحَسَدِهم، ما هم ببَالِغِي تلك العَظَمة التي في قُلوبهم لأنَّ الله تعالى مُذِلُّهم، فلا يَصِلُونَ إلى دفعٍ من آياتِ الله.

قال ابنُ عبَّاس:(وَالْمَعْنَى: مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَكْذِيبكَ إلاَّ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْعَظَمَةِ مَا هُمْ ببَالِغِي مُقْتَضَى ذِلكَ الْكِبْرِ لأَنَّ اللهَ مُذِلُّهُمْ)(١). وقال ابنُ قتيبة: (إنَّ فِي صُدُورِهِمْ إلاَّ تَكَبُّرٌ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَطَمَعٌ أنْ يَصِلُوهُ وَمَا هُمْ بِبَالِغِي ذلِكَ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِبْرِ وَمِنْ شَرِّ الْيَهُودِ وَمِنْ شَرِّ الدَّجَّال وَمِنْ كُلِّ مَا تَجِبُ الاسْتِعَاذةُ مِنْهُ)(٢)، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ بهم وبأعمالِهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي هذا أكبرُ من خلقِ بغيرِ عَمَدٍ وجريانِ الأفلاكِ بالكواكب فيه أعظمُ في النفس وأهْوَلُ في الصدر من خلقِ الناس، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ الكفار، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ حين لا يستدلُّون بذلك على توحيدِ خالقِهما وقدرتهِ على ما هو أعظمُ من خلقِ الدجَّالِ، وعلى أنْ يمنعَ المسلمين من غلَبَتِهِ عليهم.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [إنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّال ثَلاَثُ سِنِينَ، أوَّلُ سَنَةٍ تُمْسِكُ السَّمَاءُ ثُلُثَ قَطْرِهَا وَالأَرْضُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، وَالثَّانِيَةُ تُمْسِكُ ثُلُثَي قَطْرِهَا وَالأَرْضُ ثُلُثَي نَبَاتِهَا، وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ تُمْسِكُ السَّمَاءُ مَا فِيهَا وَالأَرْضُ وَمَا فِيهَا، وَيَهْلَكُ كُلُّ ذاتِ ظِلْفٍ وَضِرْسٍ](٣).

وعن أبي أمامةَ الباهليِّ قال: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ، فَكَانَ أكْثَرُ خُطْبَتِهِ أنْ يُحَدِّثَنَا عَنِ الدَّجَّال وَيُحَذِّرَنَا، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ: [أيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ أعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال، إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلاَّ حَذرَ أُمَّتَهُ مِنْهُ، وَأنَا

(١) نقله البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٤٢.
(٢) نقله عنه البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١١٤٢.
(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٢ بإسناده عن أسماء بنت يزيد الأنصارية.

آخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنْ يَخْرُجْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ تَعَالَى خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

أَنَّهُ يَخْرُجُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ يَعِيثُ يَمِيناً وَيَعِيثُ شِمَالاً، فَيَا عِبَادَ اللهِ اثْبُتُوا، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ: أَنَا نَبِيٌّ وَلاَ نَبِيَّ بَعْدِي! ثُمَّ يُثْنِي وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ! وَلَنْ تَرَوا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَلَيْسَ رَبُّكُمْ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَتْفُلْ فِي وَجْهِهِ.

وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَاراً، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَيَسْتَغِيثُ بِاللهِ، فَتَكُونُ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاَماً، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ شَيَاطِينَ يَتَمَثَّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ، فَيَأْتِي الأَعْرَابِيُّ فَيَقُولُ لَهُ: إِذَا بَعَثْتُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَأَهْلَكَ تَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صَوْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَمِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ فَيَقْتُلُهَا، ثُمَّ يُحْيِيهَا اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا، فَإِنِّي بَعَثْتُهُ الآنَ وَيَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبّاً غَيْرِي])[(١)].

قال مقاتلُ: (إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُسَلَّطُ عَلَيْهِ الدَّجَّالُ رَجُلٌ مِنْ جَشْعَمٍ، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى، فَيَقُولُ لَهُ الدَّجَّالُ: مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: اللهُ رَبِّي وَإِنَّكَ الدَّجَّالُ عَدُوُّ اللهِ).

[وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ يَقُولُ لِلأَعْرَابِيِّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبِيكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيَاطِينُهُ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ. وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً،

(١) الحديث لم أقف عليه عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، وهو حديث مشهور بألفاظ عديدة وأسانيد عديدة. وأصله عن أبي هريرة وجابر وأبي سعيد وغيرهم كثير رضي الله عنهم جميعاً. ومن هذه الأسانيد، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجائز: الحديث (١٣٥٤ و١٣٥٥)، وكتاب الأنبياء: الحديث (٣٣٣٧)، وكتاب الجهاد: الحديث (٣٠٥٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن وأشراط الساعة: الحديث (١١٢/ ٢٩٣٨).

فَيَوْمٌ كَالسَّنَةِ، وَيَوْمٌ دُونَ ذلِكَ، وَيَوْمٌ كَالشَّهْرِ، وَيَوْمٌ دُونَ ذلِكَ، وَيَوْمٌ كَالْجُمُعَةِ، وَيَـوْمٌ دُونَ ذلِكَ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشُّرْفَةِ، فَيُصْبحُ الرَّجُلُ بِبَاب الْمَدِينَـةِ فَـلاَ يَبْلُـغُ بَابَـهَا حَتَّـى تَغْرُبَ الشَّمْسُ].

قَـالُوا: يَـا رَسُـولَ اللهِ ﷺ كَيْـفَ نُصَلِّـي فِـي تِلْـكَ الأَيَّـامِ الْقِصَـار ؟ قَـالَ: [تَقْدُرُونَ فِيْهَا كَمَا تَقْدُرُونَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الطِّوَال، فَـلاَ يَبْقَـى شَـيْءٌ مِـنَ الأَرْض إلاَّ وَطِئَهُ الرَّجُلُ وَغَلَبَ عَلَيْهِ، إلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فَإنَّهُ لاَ يَأْتِيهِمَا، وَيَكُونُ إمَامُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ رَجُلاً صَالِحاً، فَيُقَالُ لَهُ: صَلِّ الصُّبْحَ، فَـإذا كَـبَّرَ وَدَخَـلَ فِـي الصَّـلاَةِ وَنَـزَلَ عِيسَى عليه السلام، فَإذا رَآهُ ذلِكَ الرَّجُلُ عَرَفَهُ فَيَتَأَخَّرُ لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى، فَيَضَعُ عِيسَى يَـدَهُ بَيْـنَ كَتِفَيْهِ وَيَقُولُ لَهُ: صَلِّ قَائِماً، أُقِيمَتْ لَكَ الصَّلاَةُ.

فَيُصَلِّي عِيسَى وَرَاءَهُ ثُمَّ يَقُولُ: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ بَابُ الْمَدِينَةِ، وَمَعَ الدَّجَّال يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذوُو سِلاَحٍ وَسَيْفٍ مُحَـلاًّ، فَـإذا نَظَـرَ الدَّجَّـالُ إلَـى عِيسَى ذابَ كَمَا ذابَ الرَّصَاصُ مِنَ النَّار وَالْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَيَقُولُ لَهُ عِيسَـى: إنَّ لِـي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَفُوتَنِي بهَا، فَيُدْركُهُ عِنْدَ بَاب كَذا الشَّرْقِيِّ وَهُوَ بَابُ قَتِيلَـةَ، فَـلاَ يَبْقَـى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إلاَّ أَنْطَقَ اللهُ ذلِكَ الشَّيْءَ، فَلاَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَـرٌ وَلاَ دَابَّةٌ إلاَّ قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ الْمُسْلِمُ هَذا كَافِرٌ فَاقْتُلْهُ.

وَيَكُونُ عِيسَى عليه السلام حَكَماً عَدْلاً وَإمَاماً مُقْسِطاً، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ، وَتُرْفَعُ حُمَةُ[1] كُلِّ دَابَّةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الصَّبِيُّ يَدَهُ فَمَ الْحَنَش[2] فَلاَ يَضُرُّهُ، وَيَلْقَى الإنْسَانُ الأَسَدَ فَـلاَ يَضُـرُّهُ، وَيَكُـونُ الأَسَـدُ فِـي الإبلِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَيَكُونُ الذِّئْبُ فِـي الْغَنَـم كَأَنَّـهُ كَلْبُـهَا، وَيَمْـلأُ الأَرْضَ إسْلاماً[3]، وَيُسْلَبُ الْكُفَّارُ مُلْكَهُمْ، وَلاَ يَكُونُ الْمُلْكُ إلاَّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيُبَارِكُ فِي الأَرْزَاقِ حَتَّى أَنَّ

---

(١) حُمَةُ العَقرَب: سُمُّها وضرُّها.

(٢) الْحَنَشُ: كلُّ ما يُصاد من الطَّير والهوام، والجمـع (الأَحْنَـاشُ). والحَنَـشُ أيضـاً: الحيَّـةُ، وقيـل: الأفعَى.

(٣) هكذا في المخطوط: (إسْلاَماً).

النَّفَرَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى رُمَّانَةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَكُونُ الْفَرَسُ بِدِرْهَمَيْنِ][1] وباللهِ التَّوفيقُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ ؛ أي فكما لا يستويَان فكذلك لا يستوي المؤمنُ والكافر في الآخرةِ في الجزاءِ بالعذاب والنَّعيم، وباقي الآيتين: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؛ أدعُوني ووحِّدُوني في الدُّنيا أقبلُ منكم وأستمع دعاءَكم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ؛ إنَّ الذين يتعظَّمُون عن طاعتِي وعن المسألةِ مني، ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي صاغرُون ذليلون، والدَّاخِرُ: هو الذليلُ الصَّاغِرُ، قال حسَّان:

قَتَلْنَا مَنْ وَجَدْنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَجِئْنَا بالأُسَارَى دَاخِرَا

قرأ ابنُ كثير (سَيُدْخَلُونَ) بضمِّ الياءِ وفتح الخاءِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي تُبصِرُونَ فيه لطلب المعاش، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ نِعَمَ اللهِ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ ومُبتَدِعهُ، لا معبودَ سواهُ، فلا ينبغِي لأحدٍ أنْ يدعوَ مخلوقاً مثلَهُ، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ وقد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك، ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي هكذا كان لمصرفِ القوم الذين كانُوا بدلائلِ الله يجحَدُون.

---

(١) أخرجه أبو داود مختصراً في السنن: كتاب الملاحم: باب خروج الجدال: الحديث (٤٣٢٢). وابن ماجة في السنن: كتاب الفتن: باب فتنة الدجال: الحديث (٤٠٧٧). وفي الدر المنثور: ج ٢ ص٧٣٩-٧٤٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة الباهلي) وذكره.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٢٨؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن كثير وابن محيصين ورُوَيس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو المفضل عن عاصم) وذكرها وقال: (على ما لم يُسَمَّ فاعله).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ ؛ أي مُسْتقرّاً للأحياءِ والأموات، كما قال ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1] ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ ؛ أي وجعلَ السَّماء سَقْفاً مرفوعاً فوقَ كلِّ شيءٍ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ؛ أي خلقكم فأحسنَ خلقكم.

قال ابنُ عبَّاس: (خَلَقَ اللهُ ابْنَ آدَمَ قَائِماً مُعْتَدِلاً يَأْكُلُ بيَدِهِ وَيَتَنَاوَلُ بيَدِهِ، وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ يَتَنَاوَلُ بفِيهِ)[2]. وقال الزجَّاجُ: (خَلَقَكُمْ أحْسَنَ الْحَيَوَانِ كُلِّهِ)، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي من لَذيذِ الأطعمةِ وكريمِ الأغذية.

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ؛ أي الذي فَعَلَ ذلك كلَّهُ هو ربُّكم فاشكروهُ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي فتعالَى اللهُ دائمُ الوجودِ لم يزَلْ ولا يزالُ ربَّ كلِّ ذي روحٍ من الجنِّ والإنسِ وغيرِها، ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ بلاَ أوَّلٍ ولا آخرٍ، لم يَزَلْ، كان حَيّاً ولا يزالُ حيّاً، مُنَزَّهٌ عن كلِّ آفاتٍ، وليس أحدٌ غيرهُ من الأحياءِ بهذه الصِّفات، لا مستحقٌّ للإلهيَّة غيره، ﴿ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ، فوحِّدوهُ مخلصين له الدِّين؛ أي الطاعةِ، واشكروهُ على معرفةِ التوحيد. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (إذا قَالَ أحدُكُمْ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ فَيَقُلْ فِي إثْرِهَا: الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ)[3].

وقولـهُ تعـالَى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي أُمِرتُ أن أستقيمَ على الإسلام.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي خلقَ أصلكم من ترابٍ، ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ لآبائكم، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، ثم نقلكُم إلى العلقةِ وهو الدمُ الغليظ، ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ﴾ ؛ من بطونِ أمَّهاتِكم أطفالاً واحداً واحداً لذلكَ

---

(١) الأعراف / ٢٥ .

(٢) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٤٢).

قوله: ﴿ طِفْلًا ﴾ ؛ وقال ﴿بالأخسَرينَ أعمَالاً﴾(١) لأن الواحدَ يكون أعمال"(٢).

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ ؛ أي بنقلِكم إلى حال اجتماع القوَّة والكمال، ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ﴾ ؛ أي تصيرُوا شُيوخاً بعدَ الأشُدِّ، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ من قبلِ البُلوغ ومن قبلِ الشَّيخوخةِ، ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ ؛ يريدُ أجلَ الحياةِ إلى الموتِ، ولكلٍّ أجلِ لحياتهِ ينتهي إليه، ويقالُ: لتبلغُوا أجَلاً مسمًّى؛ أي لتُوافُوا القيامةَ للجزاءِ والحساب، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ، ولكي يعقِلُوا وحدانيةَ اللهِ تعالى وتَمام قدرتِه، وتصدقوا بالبعثِ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ أي يُحيي الأمواتَ ويميتُ الأحياءَ، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ ﴾ ، يريدُه، ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، ويُحدِثُه.

وقولُهُ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي يُخاصِمُونَ في القرآن بالردِّ والتكذيب، وهم المشركون، ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، كيف يُصرَفُونَ إلى الكَذب بعد وضُوحِ الدلالةِ، ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ الذين كذبوا بالقرآن، ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ ، من الشَّرائعِ والأحكامِ والتوحيد، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ، عاقبةَ أمرهم، ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ، حين تُجعَلُ الأغلالُ الحديدُ مع السَّلاسلِ في أعناقِهم، يُسحَبُونَ في الحبالِ على وجُوهِهم، يُلقَوْنَ، ﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ ، في نارٍ عظيمة، ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: (تُوقَدُ بهمُ النَّارُ فصَارُوا وَقُودَهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ ، ثم تقولُ لهم الزَّبَانِيَةُ: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ، أين الآلِهةُ التي كُنتم تعبدونها، وتَرجُونَ منافعَها، وتدعونها،

---

(١) الكهف / ١٠٣.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١١؛ قال القرطبي: (أي أطفالاً، فهو اسم جنس، وأيضاً فإن العرب قد تسمي الجمع باسم الواحد).

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، فيُؤلِمُـونَ قلوبَـهم بمثلِ هـذا التوبيخِ كما يؤلِمُـون أبدانَـهم بالتعذيب، ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ فيقولُ الكفار: ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ ، أي ضَلَّتْ آلهتُنا عنَّا؛ أي ضاعَت فلا نراهَا، ثم يجحَدُون عبادةَ الأصنامِ فيقولـون: ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ ، إنْ لم نكن نعبدُ مِن قبلِ هذا شيئاً، ويجوزُ أن يكون هذا كالرَّجُل يعملُ عملاً لا ينتفعُ به، فيقالُ له: إيش تعملُ ؟ فيقول: لا شيءَ.

وقولـهُ تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي هكذا يُهلِكُـهم ذلكَ العذابُ الذي نزلَ بكم، ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ بالباطلِ، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (يَعْنِي الْبَطَرَ وَالْخُيَلاَءَ).

والغِلُّ: هو ما يُجعَـلُ في العنُقِ للإذلالِ والإهانـةِ. والطَّوقُ: هـو مـا يجعلُ للإجلالِ والكرامةِ. وقرأ ابنُ عبَّاس: (وَالسَّلاَسِلَ) بفتحِ اللام، و(يَسْحَبُونَ) بفتحِ الياءِ؛ معناهُ: ويَسحَبُونَ السلاسلَ[(١)].

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ بنصركَ والانتقامِ منـهم، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: فإن انتقَمْنا منهم وأنتَ حيٌّ فبُشرَى لكَ، وإن نتوَفَّـاكَ قبـل ((أنْ)) نُريَـكَ ذلـك فإلَينا مرجِعُ الكلِّ منهم للمُجازاةِ، وسيَصِلُ إليهم موعدُهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾ ؛ أي منهُم من قصَصْنا عليكَ خبرَهم في القرآن، ومنهم مَن لَم نقصُصْ عليكَ خبرَهم، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ في الآيةِ إبلاغُ عُذر النبيِّ ﷺ فيما يأْتِيهم به من الآياتِ التي كانوا يقترحونَـها عليه، وليس علينا حصرُ عددِ الرُّسل، ولكنا نؤمنُ بجُملَتِهم.

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٣١؛ قال: (وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ ﴿والسلاسلَ﴾ بالنصب ﴿يَسحبون﴾ والتقدير في قراءته: ويَسحبون السلاسلَ).

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي إذا جاءَ قضاؤهُ بين أنبيائهِ وأمَمِهم، ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، لم يُظلَموا إذا عُذِّبوا ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ ؛ عند ذلك، ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ، المكذِّبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ اللهُ الذي خلقَ لكم الإبلَ والبقرَ والغنَمَ لتركَبُوا بعضَها وتأكلُوا لحمَ بعضِها، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ ؛ من ألبانِها وأصوافِها وأوبَارها وأشعارِها، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ ؛ أي لتبلغُوا عليها في ركوبها حاجةً في قلُوبكم لا تبلغونَها إلاّ بها، قال مجاهد: (تَحْمِلُ أثْقَالَكُمْ مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ، وَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَاتِكُمْ فِي الْبلاَدِ مِمَّا كَانَتْ)، ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي وعلى ظهُورها في البَرِّ وعلى السُّفن في البحرِ تحمَلُون في كسبكم وحجِّكم وتجاراتِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُريكم اللهُ دلائلَ قُدرتهِ من الشمسِ والقمرِ والنُّجوم والليلِ والنهار والجبالِ والبحار، وتسخُّرُ الأنعامُ لمنافعِ العباد، كلُّها من آيات اللهِ، ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ، فأيُّ آيةٍ من آياتِ اللهِ تجهَلُون أنَّها ليست من اللهِ تعالى؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأُمَمِ كيف أهلكَهم اللهُ بتكذيبهم الرسُلَ، ﴿ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ من أهلِ مكَّة بالعددِ، ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ ؛ في البُلدان، و أظهرَ؛ ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ في الأبنيةِ العظيمة، والقصُور الْمَشيدَةِ، والعيُون المستخرجة، ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ، فلم ينفعْهُم من عذاب الله كثرةُ عَدَدِهم وشدَّةُ قُوَّتِهم وجمعهم الأموال، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ بالجهلِ الذي عندهم أنه علمٌ، وقالوا: نحنُ أعلَمُ منهم، لن نُبعَثَ ولن نعذبَ، فمعنى قوله: (فَرِحُوا بمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) أي رَضُوا بما عندَهم من العلمِ وهو في الحقيقةِ جهلٌ وإنْ زعمُوهُ عِلْماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ ، فلمَّـا رأوا عذابَنـا آمَنُـوا، ﴿ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ ؛ ولا ينفعُ الإيمان عندَ ذلك.

وقولهُ تعـالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي هـذا قَضَـائِي في خَلْقِي أنَّ من كذبَ أنبيائِي وجحَدَ رُبوبَتِي؛ أي سنَّ اللهُ هذه السُّنة في الأمـمِ كلِّـها أنْ لا ينفعَهم الإيمانُ إذا رأوا العذابَ، وسُنة اللهِ هي حكمُ اللهِ الذي مضَـى في عبـادهِ في بعثِ الرُّسل إليهم، ودُعائِهم إلى الحـقِّ وتـرك المعاجَلـةِ بالعقوبـة، وأنَّ الإيمـانَ وقـتَ البأسِ لا ينفعُ.

ونُصب قولهُ (سُنَّةَ اللهِ) على التحذيرِ أو على المصدر، وقولهُ تعالى: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي هلكَ عندَ ذلك المكذِّبون.

آخر تفسير سورة (**غافـــر**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ السَّجْدَةِ (فُصِّلَتْ)

سُورَةُ حــم السَّــجْدَة مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ ثَلاثَـةُ آلافٍ وَثَلاثُمِائَـةٍ وَخَمْسُــونَ حَرْفـاً، وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً[(١)]، وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَ حَمِ السَّجْدَةُ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ حَـرْفٍ مِنْـهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ][(٢)] وَاللهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ ؛ قال (تَـنْزِيْلٌ) مبتدأ؛ وخبرهُ[(٣)]: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ؛ أي بُيِّنَ حلالُـهُ وحرامـهُ، ومعنـى التَّـنْزِيْل: الْمُنَزَّلِ كما يذكرُ العلمُ بمعنى المعلوم، والخلقُ بمعنى الْمَخلُوق، قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ؛ منصوبٌ على الحالِ؛ أي بُيِّنَتْ آياتهُ في حال جَمعهِ على مجرَى لُغةِ العرب، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ ؛ اللِّسـانَ العربـيَّ، ﴿ بَشِيرًا ﴾ ؛ بالجنَّــة لِمَـن أطـاعَ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ ؛ بالنـار لِمـن عصَـى اللهَ، ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ؛ أهـلُ مكَّـة عـنِ الإيْمان، ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾ ؛ سَماعاً ينتفعُونَ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي قالَ كفَّـارُ مكَّة للنبيِّ ﷺ: قلوبُنا في أغْطِيَةٍ مما تدعُونا إليه مِن القُرْآنِ لا يصـلُ إلى قُلوبنـا، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ ؛ أي ثُقْلٌ وصَمَمٌ يَمنعُ مِن استماعِ ما تقرؤهُ.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص٩٦؛ قال ابن عادل: (وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة).

(٢) ذكره أيضاً الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٠١، وهــو في تفسـير الثعلـبي وابـن مردويـه مـن حديث أبي، ولا يصح، والله أعلم.

(٣) هذا مذهب البصريين، نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٧.

والأَكِنَّةُ: جمعُ كِنَان، مثل عِنَان وأعِنَّة. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ ؛ وبيننا وبينكَ حاجزٌ وفِرْقَةٌ في الدِّين فلا نوافِقُكَ على ما تقولُ، ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ ؛ على أمرِكَ ودِينِكَ، ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ ؛ على أمرنا ومذهَبنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ ؛ أي كواحدٍ منكُم ولولاَ الوحيُ ما دعوتُكم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ؛ لاَ شريكَ لَهُ، ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ؛ أي لا تَميلُوا عن سَبيلهِ وتوجَّهُوا إليه إلى طاعتهِ، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ ؛ مِن الشِّرك ووحِّدُوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦﴾ ؛ وويلٌ لِمَن لا يقولُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ، ولا يُطَهِّرُونَ أنفسَهم من الشِّركِ بالتوحيدِ، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ ، وقال الحسنُ: (لاَ يُقِرُّونَ بالزَّكَاةِ، وَلاَ يَرَوْنَ إيْتَاءَهَا وَلاَ يُؤْمِنُونَ بهَا)[1]، قال الكلبيُّ: (عَابَهُمُ اللهُ وَقَدْ كَانُواْ يَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ)، قال قتادةُ: (الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الإسْلاَمِ، فَمَنْ قَطَعَهَا نَجَا)[2] أي فمَن عَبَرَهَا نَجَا، ومَن لَم يعبُرْها هَلَكَ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الكفارَ يُعاقَبون في الآخرةِ على تَرْكِ الشَّرَائِعِ كما يُعاقَبون على تَرْكِ الإيْمَان؛ لأن اللهَ وَعَدَهم على ذلكَ، وقال في جواب أهلِ النار حين يقالُ لَهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾ ؛ أي غيرُ مقطوعٍ، مِن قولِهم: مَنَنْتُ الْحَبْلَ إذا قطعتَهُ، وثوابُ المؤمنِ لا ينقطعُ. وَقِيلَ: لا يُمَنُّ عليهِم بذلكَ؛ لأن الْمِنَّةَ تُكَدِّرُ الصنيعةَ.

---

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٧٣).

(٣) المدثر / ٤٢ -٤٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ؛ أي (قُلْ إئِنَّكُمْ) يا أهلَ مكَّة (لَتكفُرُونَ بالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ) في عِظَمِها وقوَّتِها في يوم الأحَدِ ويوم الاثنين، ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ ؛ من الأصنام؛ أي أضداداً[1]، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي هذهِ قدرتهُ ربُّ كلِّ ذِي رُوحٍ ومَلِكُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ ؛ أي وخَلَقَ فيها جِبالاً ثَوابتَ أوتَاداً لَها في يوم الثّلاثاء، ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ ؛ أي بَارَكَ في الأرض بالسَّماء والشجر والنبات والثمار، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ؛ أي معايشَها، قدَّر اللهُ لكلِّ حيوانٍ ما يكفيهِ بحسبَ الحاجةِ، وجعلَ في كلِّ أرضٍ معيشةً ليست في غيرِها لتعايَشُوا وتَتَّجِرُوا.

وكان تقديرُ الأقواتِ في يومِ الأربعاءِ، فتَمَّ خلقُ الأرضِ بما فيها في أربعةِ أيَّام، ولو أرادَ اللهُ أن يخلُقَها في لحظةٍ واحدة لفعَلَ وقَدِرَ، ولكنه خلقَها في ستَّة أيامٍ لأنه تعالى حَلِيْمٌ ذُو أناةٍ، أحبَّ أن يُعلِّمَ الخلقَ الأناةَ في الأمور.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (وَقَدَّرَ فِيْهَا أقْوَاتَهَا) أيْ قَسَّمَ الأَرْضَ أرْزَاقَ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ)[2]، وقال الكلبيُّ: (الْخُبْزُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالتَّمْرُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالذرَّةُ لأَهْلِ قُطْرٍ؛ وَالسَّمَكُ لأَهْلِ قُطْرٍ، جَعَلَ اللهُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَا لَمْ يَجْعَلْ فِي الأُخْرَى؛ لِيَعِيْشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بالتِّجَارَةِ مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ)[3].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ﴾ ؛ رفعَهُ أبو جعفرٍ على الابتداءِ؛ أي هُنَّ سَوَاءٌ، وخفضَهُ الحسنُ ويعقوب نعتُ أربعةِ أيَّام، ونصبَهُ الباقون على معنى: اسْتَوَتْ سَوَاءً للسَّائِلِيْنَ، واستواءً يعني على المصدر كما يقالُ: في أربعةِ أيَّام تَماماً. ومعناهُ: مَن سألَ عنه فهكذا الأمرُ.

---

(١) في المخطوط: (أغلالا).

(٢) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٧ عن مقاتل والحسن.

(٣) نقله أيضاً البغوي عن الكلبي في معالم التنزيل: ص١١٤٧.

وقال السديُّ: (سَوَاءً لاَ زِيَادَةَ وَلاَ نُقْصَانَ جَوَاباً لِمَنْ سَأَلَ فِي كَمْ خُلِقَتِ الأَرْضُ وَالأَقْوَاتُ، فَيُقَالُ: أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً)[١]. و(لِلسَّائِلِيْنَ) ههنا هُم اليهودُ، سألُوا النبيَّ ﷺ عن مدَّة خَلْق السَّموات والأرض، ويجوزُ قولهُ (سَوَاءً لِلسَّائِلِيْنَ) عائداً على تقديرِ الأقواتِ، كأنه قال: لكلِّ مُحتاجٍ إلى القُوتِ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ؛ قال السديُّ: (كَانَ ذلِكَ الدُّخَانُ مِنْ نَفْسِ الْمَاءِ حِيْنَ تَنَفَّسَ، وكَانَ بُخَارُهُ يَذْهَبُ فِي الْهَوَاءِ، فَخُلِقَتِ السَّمَاءُ مِنْهُ وَفُتِقَتْ سَبْعاً فِي يَوْمِ الْخَمِيْسِ وَالْجُمُعَةِ)[٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ؛ أي ائْتِيَا ما آمُرُكما وافْعَلاَ، *كما يقالُ: ائْتِ ما هو الأحسنُ؛ أي افْعَلْهُ.*

قالَ المفسِّرون[٤]: إن الله تعالى قال: أما أنتِ يا سماءُ فأطلِعي شَمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأما أنتِ يا أرضُ فَشَقِّقِي أنْهَارَكِ واخرجِي ثِمارَكِ ونباتَكِ، وقال لَهما: اعْمَلا ما آمُرُكُمَا طَوْعاً وإلاَّ أَلْجَأْتُكما ذلكَ حتى تفعلاهُ كَرْهاً، فأجَابَتا بالطَّوعِ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أتَينا أمرَكَ. ولَمَّا ركَّبَ اللهُ فيهنَّ العقولَ، وخطابُ مَن يعقل جمَعُهن جمع مَن يعقلُ كما قال تعالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٥] ولو جمعَهن جمعَ مَن لا يعقلُ لقيلَ: طَائِعَاتٍ.

ويقالُ في معناهُ: أتَينا نحنُ مَن فينا طائعينَ، وإنَّما ذكرَ تارة بلفظِ التَّثنيةِ وتارةً بلفظ الجمعِ؛ لأن السَّموات والأرضِ شيئان من حيث الجنسُ بمنْزِلة الفئتين

---

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٧ عن قتادة والسدي.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٤٣؛ قال القرطبي: (أو على تقدير: هذه سواء للسائلين. وقال أهل المعاني: ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ ولغير السائلين، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي مَن سأل ومَن لا يسأل).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٩٩).

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس في جامع البيان: الأثر (٢٣٤٩٧).

(٥) الأنبياء / ٣٣ .

(والطائعين)، فقيلَ لَهما: ائْتِيَا، ثُم السَّموات بنفسِها جماعةً، وكذلك الأرضُ، فلذلك قالتَا: (أتَيْنَا طَائِعِيْنَ). وانتصب (طَوْعاً) و (كَرْهاً) على معنى أطِيعَا طاعةً أو تُكرَهَان كَرْهاً.

وبلَغَنا أن بعضَ الأنبياءِ قالَ: يا ربِّ؛ لو أنَّ السَّمواتِ والأرضَ حين قُلْتَ لَهما (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) عصيَاكَ ما كُنْتَ صانِعاً بِهما؟ قال: كنتُ آمُرُ دابَّة من دوابي فتبتلعهُما[١]. قال: فأينَ تلك الدابةُ ؟ قال: في مَرْجٍ من مُروج، قال: وأين ذلكَ الْمَرْجُ ؟ قال: فِي علمٍ من عُلومِي[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ ؛ أي صَنَعَهُنَّ وأحكَمَهن وأتَمَّ خَلْقَهن سَبع سَموات بعضُها فوق بعضٍ بما فيهنَّ من الشمسِ والقمر والنجوم، ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، في يوم الخميسِ والجمُعة، فتَمَّ خلقُ السموات[٣] والأرض في ستَّة أيامٍ.

لفظُ القَضَاءِ في اللغة بمعنى الإتْمَام، ومِن ذلك: انقضاءُ الشَّيء إذا تَمَّ، وقضَى فلانٌ إذا ماتَ؛ لأنه تَمَّ عمرهُ، وقال الشاعرُ[٤]:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابغِ تُبَّعُ

عَمِلَهما وصَنَعَهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ ؛ قال قتادةُ: (يَعْنِي خَلْقَ شَمْسِهَا وَقَمَرِهَا وَنُجُومِهَا، وَخَلَقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَالْخَلْقِ الَّذِي فِيْهَا مِنَ الْبحَارِ وَجِبَالِ الْبَرِّ وَمَا لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ هُوَ). وَقِيْلَ: أمَرَ في كلِّ سَماءٍ بما أرادَ. وَقِيلَ: أوحَى إلى أهلِ كلِّ سَماءٍ ما يصلحُها به مِن أمرهِ.

---

(١) في المخطوط وضع الناسخ علامة تصحيح، ولم يصحح، وكتب برسم غير واضح (تبتلعهما). وتم ضبط النص من الجامع لأحكام القرآن.
(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٤٤، نقله القرطبي على أنه حديث، وقال: (ذكره الثعلبي) والمعروف أن الثعلبي ليس من أهل الحديث.
(٣) في المخطوط: (الشمس).
(٤) الشاعر هو: أبو ذؤيب الهذلي. والصَّنَعُ بفتحتين: الحاذق. ومسرودتان: صفة الموصوف محذوف، أي درعان مسرودتان. والبيت من شواهد الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٨٩. وينظر: لسان العرب: ج١ ص١٦: (تبع) وج١١ ص٢٠٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ ؛ أي زَيَّنَا السَّماءَ القُربَى إلى الأرضِ بمصابيحَ وهي النجومُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ ؛ أي وحَفِظْنَاهَا بالنُّجوم من استراقِ الشَّياطين السمعَ حِفْظاً.

وَقِيْلَ: انتصبَ (حِفْظاً) على تقدير: وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ زينةً وحِفظاً، فبعضُ النُّجوم زينةٌ للسَّماء لا يتحرَّكُ، وبعضُها يُهتدَى بها في ظُلمات البرِّ والبحرِ، وبعضُها رجومٌ للشَّياطين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ؛ تقديرُهُ: الْعَزِيْزُ في مُلكهِ القادرُ القاهرُ الذي لا يلحقهُ عَجزٌ ولا يَعْتَرِيهِ[(١)] سهوٌ ولا جهل، أحكَمَ ذلك كلَّهُ وأتقنَهُ حتى لا يدخلَهُ الخللُ مدَى الدُّهور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ الآيةُ، وذلكَ أنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْنَا أمْرُ مُحَمَّدٍ، فَلَو الْتَمَسْتُمْ رَجُلاً عَالِماً بالشِّعْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ فَأَتَاهُ وَكَلَّمْنَاهُ، وَأَتَانَا بِبَيَان أمْرِهِ. فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيْعَةَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَ، وَعَلِمْتُ مِنْ ذلِكَ عِلْماً لاَ يَخْفَى عَلَيَّ إنْ كَانَ كَذلِكَ.

فَمَضَى عُتْبَةُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْحَطِيْمِ، فَكَلَّمَهُ وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً إلاَّ قَالَهُ، وَكَانَ عُتْبَةُ مِنْ أحْسَنِ النَّاسِ حَدِيْثاً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أنْتَ خَيْرٌ أمْ هَاشِمٌ[(٢)]؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ أنْتَ خَيْرٌ أمْ عَبْدُ اللهِ؟ فِيْمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتُضَلِّلُ آبَاءَنَا ؟ فَإنْ كَانَ ذلِكَ طَلَباً لِلرِّئَاسَةِ عَقَدْنَا لَكَ الْوِيَتَنَا وَكُنْتَ رَأْسَنَا مَا بَقِيْتَ، وَإنْ كَانَ لَكَ الْبَاءَهُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ مِمَّنْ تَخْتَارُ مِنْ بَنَاتِ قُرَيْشٍ، وَإنْ كَانَ بكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مَا تَسْتَغْنِي بهِ أنْتَ وَعَقِبُكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاكِتٌ لاَ يَتَكَلَّمُ.

---

(١) في المخطوط: (يعتد به).

(٢) في المخطوط: (هشام).

فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ مِنْ كَلاَمِهِ قَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (حم، تَنْزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ...) إلَى قَوْلِهِ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ). فَوَثَبَ عُتْبَةُ فَزِعاً مَخَافَةَ أَنْ يُصَبَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الَّذِي خَوَّفَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَى قَوْمَهُ مَذْعُوراً وَأَقْسَمَ لاَ يُكَلِّمُ مُحَمَّداً بَعْدَهَا أَبَداً.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لَعَلَّكَ صَبَوْتَ إلَى مُحَمَّدٍ، وَمَا ذَاكَ إلاَّ مِنْ حَاجَةٍ أَصَابَتْكَ، وَإِنْ كَانَ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ مُحَمَّدٍ! فَغَضِبَ عُتْبَةُ وَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أَبِي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالاً، وَلَكِنْ أَتَيْتُهُ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ وَلاَ كَهَانَةٍ وَلاَ سِحْرٍ، وَاللهِ مَا اهْتَدَيْتُ لِجَوَابِهِ. فَقَالَ حَرْثُ بْنُ عَلْقَمَةَ: وَاللهِ لَقَدْ أَفْسَدَ هَذَا الرَّجُلُ دِينَنَا وَفَرَّقَ بَيْنَ كَلِمَتِنَا، وَايْمِ اللهِ لَئِنْ بَقِيَ هَذَا الرَّجُلُ وَيُقِيمُ لَيَكُونَنَّ بَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا، وَسَيَبِينُ ذَلِكَ لَكُمْ إذَا خَرَجَ مِنْكُمْ إلَى غَيْرِكُمْ، فَذَرُوهُ مَا تَرَكَكُمْ[(١)].

ومعنى الآيةِ: فإنْ أعرَضُوا عنِ الإيْمَانِ بكَ ولَمْ يقبَلوا قولكَ بعد هـذا البيـان، فقُلْ: خوَّفْتُكم عَذاباً مثلَ عذاب قوم هودٍ وقوم صالِح. والصَّاعِقَةُ: هو الهـلاكُ على حالةٍ هائلةٍ.

وقولهُ تعالى: (إذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أي إذا جاءتـهم الرسلُ إلى مَن كان قبلَهُم فعلِمُوا بتواتر الأخبار، ثم إنَّهم الرسلُ أيضاً من خلفِ مَن كان قبلَهم بأن لا يعبدُوا إلاّ الله، ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ؛ أي لو شاءَ ربُّنا أن ينزِّل إلينا رسولاً لأنـزلَ ملائكةً من جُنده، ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ؛ ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا. ويجوز أن يكونَ معنى (مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) بأن الرُّسُلَ أتَتْهُمْ من جميعِ جِهاتِهم.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٠٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، وابن عساكر عن جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما) وذكره. وأخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١١٤٨. والنحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٣٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ أي تَعظَّمُوا عنِ الإيْمانِ بنبيهم وأعجبَتْهم أجسامهم، ﴿ وَقَالُوا ﴾ ؛ لنبيِّهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؛ بالبَدَنِ فيهلِكَنا، وذلك أنَّ هُوداً عليه السلام خوَّفَهم وهدَّدَهم بالعذاب، فقالوا: نحن نقدرُ على دفعهِ بفضل قوَّتنا، وكانت لَهم أجسامٌ طويلة وخَلْقٌ عظيمٌ، فلما أتَتْهُمُ الريحُ قاموا ليصدُّون عنهم فحملَتْهم إلى عَنَان السَّماء ثُم صرَعتهم على وجوهِهم ثُم ألقت عليهم الرَّملَ حتى غطَّتهم، وكان يُسمَعُ أنينُهم تحتَ التُّراب حتى أهلكَهم اللهُ.

فلمَّا قالوا لنبيِّهم: (مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) قالَ اللهُ تعالَى ردّاً عليهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ؛ لأن الخالقَ للشَّيءِ لا بدَّ أن تكون له مزِيَّةٌ على خلقهِ، ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي يكفُرون .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ؛ أي عاصِفاً شديدَ الصَّوتِ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ وهي الصيحةُ، وقال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْبَارِدَةَ، مَأْخُوذٌ مِنَ الصَّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ). قال الفرَّاءُ: (هِيَ الْبَارِدَةُ تُحْرِقُ كَمَا تُحْرِقُ النَّارُ)[1] وَهِيَ رِيحٌ بَارِدَةٌ شَدِيْدَةُ الْهُبُوب، ذاتُ صَوْتٍ تُحْرِقُ كَالنَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ ؛ أي نَكِداتٍ مَشْؤُوماتٍ عليهم، ذاتِ نُحُوسٍ، قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَتَشَاءَمُونَ بتِلْكَ الأَيَّامِ). قرأ ابنُ عامرٍ وأهلُ الكوفة (نَحِسَاتٍ) بكسرِ الحاءِ، وقرأ الباقون بسكونِها، يقالُ: يَوْمُ نَحْسٍ وَنَحِسٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي عذابُ الْهَوْنِ والذُّلِّ وهو العذابُ الذي يُخزَونَ به، والْخِزْيُ والفَضِيحَةُ والنَّكَالُ كلُّه بمعنى واحدٍ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ، وعذابُ الآخرةِ أبلغُ في الْمَذلَّةِ وأبقَى وأشدُّ، لا يدفعُ عنهم ولا يخفَّفُ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ؛ أي وأمَّا ثَمُودُ فَبَيَّنَّا لَهم سبيلَ الْهُدَى ودعَوناهم ودلَلْناهم على الخيرِ بإرسال الرُّسلِ، فاختارُوا

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٣.

الكُفْرَ على الإيْمَان بعد أنْ أرينَاهُم الأدلَّة وأخرجنا لَهم ناقةً عَشْراءَ من صخرةٍ ملسَاءَ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ ؛ أي ذِي الْهوَان، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، بكُفرهم وعَقْرهم الناقة، ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؛ بصَالِح، ﴿ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ الشِّرْكَ والكبائرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ قرأ نافعُ ويعقوب (نَحْشُرُ) بنون مفتوحة وضمِّ الشِّين، ونصب (أعْدَاءَ)، وقرأ الباقونَ (يُحْشَرُ) بالياء المضمومةِ ورفعِ (أعْدَاءُ). ومعنى الآيةِ: وأنذِرْهُم يومَ يُجمَعُ أعداءُ اللهِ ويُساقونَ إلى النار بالعُنفِ، وقولهُ تعالى (فَهُمْ يُوزَعُونَ) أي يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم ليتلاحَقُوا ثُم يقذفُون في النار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ ؛ أي حتَّى إذا جَاءُوا النارَ التي لم يقذفوا[1] ثم يقذفون في النار. قولهُ تعالَى: حُشِر أعداءُ الله حُبسُوا عندَها وهم يُعاينُونَها، ويقالُ لَهم: أينَ شُركاؤُكم الذين كنتم تَزعُمون، فيجْحَدُون ويقولونَ: واللهِ ربنا ما كُنا مشركينَ، فعند ذلك يُخْتَمُ على أفواهِهم وتُسْتَنْطَقُ جوارحُهم ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ ﴾ ؛ وكلُّ عُضوٍ من أعضائِهم بما ارتكبُوا من الكُفرِ والمعاصِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ فُرُوجَهُمْ، كَنَّى عَنْهَا بالْجُلُودِ)[2]. وَقِيلَ: الجلودُ الجوارحُ، ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ﴾ ، فيقولُ الكفَّار لجلودِهم بَعدَما يُردُّ النطقُ إلى ألسِنتهم: ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ ؛ وعمِلتُم على هلاكِنا، ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ وتَمَّ الكلامُ.

ثم قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ليسَ إنطاقهُ الجلودَ أبدعَ من خلقِهِ إيَّاكم ابتداءً وإعادةً بعد الموتِ، وليس هذا مِن كلامِ الجلود.

---

(١) في المخطوط: (حتى إذا جاءوا النار التي ثم يقذفون في النار).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٢٧) عن الحكم الثقفي، و(٢٣٥٢٨) عن عبيدالله ابن أبي جعفر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ما كنتم تَستَتِرُونَ بالمعاصِي عن الناسِ مخافةً مِن أن تشهدَ عليكم هذه الجوارحُ في الآخرةِ؛ لأنَّكم ما كنتم تظنُّونَ ذلكَ، ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ ولكن عمِلتُم بالمعاصِي عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ لا يعلمُ بما يعملهُ في السرِّ. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ مَا فِي أنْفُسِنَا وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَظْهَرُ!).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي ظنكم أن الله لا يعلم ما تعملون، ﴿ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أهلَكَكُم فصِرتُم من المنبذين بالوِزْر والعقوبةِ. وَقِيْلَ: معنى (أرْدَاكُمْ) أي طَرَحَكم في النار[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ؛ أي فإنْ يُمسِكُوا عن الاستغاثةِ ولم ينطقوا بشكوَى فالنارُ مسكنٌ لَهم منتقمةٌ منهم، ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ يطلبُوا العُتْبَى وهي الرِّضَا فمَاهُم عن "أنْ" يطلبُوا رضَاهُم ويقبلُ عُذْرَهم. يقالُ: أعتَبَنِي فلانٌ؛ أي أرْضَانِي بعدَ اسْتِخَاطِهِ إيَّايَ، واستَعْتَبْتُهُ طلبتُ منه أن يَعتَبَ أي يرضَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ ؛ معناهُ: سبَّبنا لَهم أعواناً وقُرَناءِ من الشَّياطين حتى أضَلُّوهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ من أمرِ الآخرةِ أنْ لا جنَّةَ ولا نارَ ولا بعثَ ولا حسابَ، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ من أمرِ الدُّنيا أن لا يُنفِقُوا في وجوهِ البرِّ، وأن يتلَذذُوا في الدُّنيا ويجمَعُوا الأموالَ، ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي وجبَ عليهم، ﴿ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا لأتْبَاعِهِم: لاَ تَسْمَعُواْ هَذا الْقُرْآنَ

(١) نقله البغوي عن ابن عباس في معالم التنزيل: ص١١٥٠.

الَّذي يَقْرَؤُهُ عَلَيْكُمْ مُحمَّدٌ، فَإذا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأ فارْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ بالأشْعَار وَالأرَاجِيز وَالْغُوا فِيْهِ بالْمِكَاءِ وَالصَّفِير، وقابلُوهُ بكَلامِ اللَّغْوِ حتى تَغْلِبُوهُ فَيَسْكُتَ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ؛ أي في الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ، ولنُعاقِبَنَّهم في الآخرةِ بعذابٍ أشدَّ مِن عذابهم في الدُّنيا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ العذابُ، ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ ؛ بدلٌ مِن العذابِ؛ أي بدلٌ من قولهِ (جَزاءُ أعْدَاءِ اللهِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ ؛ أي لَهم في النَّار دارُ الإقامةِ، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ؛ يعني القُرْآنَ جحَدُوا أنه مِن عند اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ؛ معناهُ: يقولُ الَّذين كفرُوا في النار: يا ربَّنا أرنا اللَّذين أضلَّانا عن الحقِّ. قال بعضُهم: يريدُ به إبليسَ وقابيلَ أوَّلَ مَن أحدثَ المعصيةَ في بنِي آدمَ، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ؛ أي أسفَلَ منَّا في النار، ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ؛ في الدَّركِ الأسفَلِ. وقِيْلَ: معناهُ: ليكونا أشَدَّ عذاباً منَّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ؛ أي إنَّ الذين وحَّدُوا اللهَ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ، على الإيْمَان ولَم يشركُوا. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّنَا فَارْزُقْنَا الاسْتِقَامَةَ)[١].

وقال أبو بكرٍ ﷺ: (يَعْنِي ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى أنَّ اللهَ رَبٌّ لَهُمْ)[٢]، وقال مجاهدُ: (هُمُ الَّذِيْنَ لَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً حَتَّى يَلْقَوْهُ)[٣]. وقال بعضُهم: يعني الاستقامةَ على أداءِ الفرائضِ ولُزومِ السُّنة. وروي عن عُمر ﷺ: (اسْتَقَامُوا للهِ بطَاعَتِهِ وَلَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِب)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٩).

(٢) بمعناه؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٣٥٥١-٢٣٥٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن=

وقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؛ يعني قَبْضَ أرواحِهم فتقولُ لَهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ ﴾؛ أي لا تَخافُوا ما أنتم وَاقِفُونَ عليه، ولا تحزَنُوا على الدُّنيا وأهلِها، وتقولُ لَهم عند خُروجِهم حين يَرونَ أهوالَ القيامةِ: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾؛ تولَّيناكم وحَفِظْنا أعمالَكم، ونتولاَّكم في الآخرةِ ونحفظُكم.

وعن ثابتٍ أنه قالَ: (بَلَغَنا أنَّ الْمُؤْمِنَ إذا خَرجَ مِنْ قَبْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَظَرَ إلَى حَافِظَيْنَ قَائِمَيْنَ عَلَى رَأسِهِ يَقُولاَنِ لَهُ: لاَ تَخَفِ الْيَوْمَ وَلاَ تَحْزَنْ وَأبْشِرْ بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتَ تُوعَدُ)[١].

وقال عثمانُ ﷺ في معنى قولِهِ: (ثُمَّ اسْتَقَامُوا: ثُمَّ أخْلَصُوا الْعَمَلَ للهِ عَزَّوَجَلَّ)[٢]. وقال مجاهدُ وعكرمة: (مَعْنَاهُ: ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ حَتَّى لَحِقُوا باللهِ)[٣].

وقال مقاتلُ: (اسْتَقَامُوا عَلَى الْمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ)[٤] فِي ثَلاَثِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَفِي وَقْتِ الْبَعْثِ: أنْ لاَ تَخَافُوا عَلَى صَنِيعِكُمْ وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مُخَلِّفِيكُمْ[٢].

وقال مجاهدُ: (أنْ لاَ تَخَافُوا عَلَى مَا تُقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَحْزَنُوا عَلَى خِلْفَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأهْلٍ، فَإنَّهُ سَيَخْلُفُكُمْ فِي ذلِكَ كُلِّهِ)[٢]. وقال السديُّ: (لاَ تَخَافُوا مِنْ ذُنُوبكُمْ فَإنِّي اغْفِرُهَا لَكُمْ).

=المنذر) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٩).

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٢٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة) وذكره.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٥٧).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٦.

وقال بعضُهم: معنى هذه الآيةِ: أنَّ الذين قالُوا: (رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ) بالوفـاءِ على ترك الْخَنَى[1] تَتَنَزَّلُ عليهمُ الملائكةُ بالرِّضَى: أن لا تخافُوا من الغِنَـى ولا تحزنُـوا على الغنَى وأبْشِرُوا بالبَقاءِ مع الـذي كنتـم توعـدونَ مـن اللقـاءِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: ألاَّ تَخافُوا فلا خوفٌ على أهلِ الاستقامةِ، ولا تَحزنُوا فإن لكم أنواعَ الكرامـةِ وأبشِـرُوا بالجنةِ التي هي دارُ السَّلامةِ، لا تخافُوا فعل دِينِ الله إن استقمتُم، ولا تحزَنُـوا، فبحبلِ اللهِ اعتصَمتُم، وأبْشِرُوا بالجنةِ إن تُبْتُمْ لا تخافوا ما دُمتم ولا تحزنوا فقد نِلتُمْ ما طلبتم، وأبشِرُوا بالجنةِ التي فيها رَغِبْتم، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الإيْمان، ولا تحزنوا وأنتم أهـلُ الغفران، وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دارُ الرِّضوان، لا تخـافوا وأنتـم أهـلُ الشَّـهادة، ولا تحزَنُوا فأنتم أهلُ السَّعادة، وأبشروا بالجنةِ التي هي دارُ الزِّيادة، لا تخـافوا فـأنتم أهـلُ النَّوال، ولا تحزنوا فأنتم أهلُ الوِصال، وابشروا بالجنة التي هي دارُ الحَلال، لا تخـافوا فقد أَمنتم الثُّبُورَ، ولا تحزنوا فإن لكم الحورَ، وأبشروا بالجنة التي هي دار السرور، ولا تخافوا فسعيُكم مشكورٌ، ولا تحزنوا فذنبُكم مغفورٌ، وابشروا بالجنة التي هي دار النور، لا تخافوا فطَالَما كنتم خائفينَ، ولا تحزنوا فقد كنتم عَارفين، وأبشِرُوا بالجنة التي عَجَـزَ عنها وصفُ الواصفين، لا تخافُوا فأنتم مِن أهل الإيْمان، ولا تحزنـوا فـأنتم مـن أهـلِ الحرمَان، وأبشِروا بالجنة التي هي دارُ الأمانِ. لا تخافوا فَسلِمتُم من أهلِ الجحيـم، ولا تحزنوا فقد وَصلتُم إلى الرب الرحيم، وأبشِروا بالجنةِ الـتي هـي دارُ النعيـم، لا تخـافُوا فقد زالت عنكم المخافةُ، ولا تحزنوا فقد سَلِمتُم من كلِّ آفةٍ، وابشِرُوا بالجنةِ التي هـي دارُ الضيافةِ، لا تخافوا العَزْلَ من الولايـةِ، ولا تحزنـوا علـى مـا قدَّمتُـم مـن الجنايـةِ، وأبشِرُوا بالجنةِ التي هي دار الهداية، لا تخافوا حُلولَ العـذاب، ولا تحزنـوا مـن هَـولِ الحساب، وأبشِرُوا بالجنة التي هي دارُ الثواب، لا تخافوا فأنتم سَـالِمون مـن العقـاب، ولا تحزنوا فأنتم وَاصِلون إلى الثواب، وأبشِرُوا بالجنة فأنَّها نِعمَ المآب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ ؛ أي تقولُ لَهم الملائكـةُ: نحنُ أولياؤُكم؛ أي نحنُ الْحَفَظَةُ الذي كنا معكُم في الأُولَى، ونحنُ أحبَّاؤكم أوليـاؤكم

---

(١) الْخَنَا: الفُحْشُ، وقد (خَنَى) عليه من بـاب (صَدَى) و(أخنَـى) عليـه في مَنْطِقِـهِ: أي أفحَشَ. وأخْنَى عليه الدهرُ: أتى عليهِ وأهلكَهُ. مختار الصحاح: ص١٩٢.

في الآخرةِ، لا نفارقُكم حتى تدخلُوا الجنـةَ، (وَلَكُـمْ فِيـهَا مَـا تَشْتَهِي أنفُسُكُمْ) مـن الكَراماتِ واللَّذاتِ، يعـنِي ولكـم في الآخـرةِ مـا تشـتَهِي أنفسُكم، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أنْزَلَـهم اللهُ نُـزُلاً، ولا يجـوزُ أن يكونَ قولهُ (نُزُلاً) جمع نَازلَةٍ، ويكون المعنَى: ولَكُمْ ما تَدَّعُونَ من غَفُورٍ رَحِيْمٍ نَازلِينَ. ويجوزُ أن يرادَ به القوتُ الذي يقامُ للنازلِ والضَّيفِ، والمعنى: ثَبـتَ لَـهم مـا يدَّعـون (نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) أي كثيرِ المغفرةِ، رَحيمٍ بمَن كان على الإيْمانِ والتوبةِ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (إنَّ الَّذِيْنَ قَالُواْ رَبُّنَـا اللهُ ثُـمَّ اسْتَقَامُوا) قَالَ: [أمَّتِي وَرَب الْكَعْبَةِ](١)، لأنَّ اليهودَ قالوا ربُّنا اللهُ ثُم لَم يَستقِيمُوا إذ قالُوا: عزير ابن الله! والنصارى قالوا: ربنا الله، ثم لم يستقيموا إذ قـالوا: المسيحُ ابـنُ اللهِ!

قولهُ تعالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ؛ قال ابـنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا إلَى شَهَادَةِ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)، وقـال الحسنُ: (هُوَ الْمُؤْمِنُ أجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ وَدَعْوَةَ النَّاسِ إلَى مَـا أجَـابَ اللهُ فِيـهِ دَعْوَتَـهُ وَعَمِلَ صَالِحاً فِي إجَابَتِهِ)(٢) ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ وقالت عائشـةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِيْنَ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ إلَى الصَّلاَةِ وَيُصَلُّونَ بَيْنَ الأَذانِ وَالإقَامَةِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ ؛ ولا تَستوي كلمةُ التَّوحيـدِ وكلمةُ الشِّرك، وَقِيْلَ: هُما الطاعةُ والمعصية، ويقالُ: الخِصْلَةُ الحميدةُ والخِصلة السيِّئةُ. وَقِيْلَ: الحِلْمُ والجهلُ، والعَفْوُ والإساءةُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٨ ص٢٩٤؛ قال: (روى ثـابت عـن أنـس) وذكـره. ونقلـه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٥٨، ولم أقف عليه.

(٢) نقلهما البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥١. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٦٩).

(٣) نقله البغوي في معـالم التـنزيل: ص١١٥١. وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٣٢٥؛ قـال السـيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه).

ودخولُ (لاَ) في قولهِ: (وَلاَ السَّيِّئَةُ) زائدةٌ للتأكيدِ وبُعدِ المساواةِ[1]؛ لأن المعنى: لا تستَوِي الحسنةُ والسيئةُ، ومثلهُ قولُ الشاعرِ:

مَـا كَـانَ يَرْضَـى رَسُـولُ اللهِ فِعْلَـهُمُ وَالطَّيِّبَـانِ أَبُـو بَكْـرٍ وَعُمَـرُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ أي ادْفَعِ السَّفَاهَةَ والعجَلَةَ بالأَناةِ وبالرِّفقِ، وذلك أنكَ إنْ لقِيتَ بعض مَن يضمرُ في نفسهِ عداوتَكَ فتبدأهُ بالسَّلام أو تبتسِمُ في وجهه لأن ذلكَ يلين لك قلبَهُ، ويسلَمْ لك صدرُهُ فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي إذا فعلتَ ذلك صارَ الذي يُعادِيكَ صَدِيقاً قريباً لك. وتُسمِّي العربُ القريبَ حَمِيماً؛ لأنه يَحمِي لِمَا يهُم صاحبهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ؛ أي ما يلقَى هذه الخصلَةَ التي هي دفعُ السَّيِّئة بالحسنةِ إلاّ الذين صَبَرُوا على كَظْمِ الغَيْظِ واحتمال المكروهِ وصبَرُوا على طاعةِ الله، وصبَروا عن معصيتهِ، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ ، أي وما يُعْطَاها، ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ من الخير. وَقِيْلَ: مِن الصبر، وَقِيْلَ: الحظُّ العظيمُ الجنَّة، أي ما يُلَقَّاهَا إلاّ مَن وجبت له الجنَةُ. وَقِيْلَ: الحظُّ العظيمُ القَدْر، العظيمُ عندَ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ ؛ أي وإمَّا يلحقنَّكَ مِن الشيطان وَسْوَسَةٌ عند هفوةِ غيرك وعندما يدعُو بكَ إلى معصيةِ الله فتصرفُكَ الوَسوسةُ عن الاحتمال، ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي اعْتَصِمْ باللهِ من شرِّ الشَّيطان، امْضِ على حُكمِكَ، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمقالَةِ أعدائِكَ، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ بهم وبمُجازاتِهم.

ثُم ذكرَ اللهُ علاماتِ توحيدِهِ ودلائل قُدرتهِ؛ فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ ؛ أي ومن آياتهِ الدَّالةِ على رُبُوبيَّتِهِ ووَحدانِيَّتِهِ الليلُ والنهارُ بما فيهما من المنافعِ والمقاصدِ، والشمسُ والقمرُ بما فيهما من البدائعِ، ﴿ لَا

(١) ينظر: معاني القرآن للأخفش: ج ٢ ص٦٨٤.

تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ ؛ أي لا تَعبدُوا الشمسَ والقمرَ، واعبدُوا اللهَ الـذي خلَقـهُنَّ، ﴿ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي إنْ كُنتم تُريدونَ بعبادةِ الشَّمس والقمرِ عبادةَ اللهِ.

وذلك أنَّ قَوماً من الكفَّار يَسجُدونَ لَهما ويزعمونَ أنَّهم يتقرَّبـون بذلـكَ إلى اللهِ تعالى، فقيلَ لَهم: إنْ كنتم تريدون بذلكَ عبادةَ الله تعالى، فالسُّجود لِخالِقِهما أولَى من السُّجود لَهما.

فإنْ قِيلَ: ما معنى قولـهِ (خَلَقَـهُنَّ) والقمـرُ مذكَّـرٌ والشـمسُ مؤنَّثـة، والمذكَّـرُ والمؤنث إذا اجتمَعا غلبَ المذكَّر؟ قُلْنا: إنَّ قوله (خَلَقَهُنَّ) راجعٌ إلى الآياتِ التي سَبَقَ ذكرُها في أوَّل هذه الآيةِ من الليلِ والنهار والشَّـمسِ والقمـر، ويكـون ضمـيرُ مـا لا يعقلُ على لفَظ التأنيثِ كما يقالُ: هذه كِبَاشُ دُبِحْنَ وذُبحَتْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي فإن تكبَّرُوا عن عبادتِي والسـجودِ لِـي فالملائكـةُ الذيـن عنـدَ ربـك بقرب الكرامة والمنْزلة يُصلُّون له بالليلِ والنهار، وينَزِّهُونَهُ عـن كـلِّ مـا لا يليـقُ بـه، ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يَميلُونَ على عبادتهِ ولا يَفتُرُونَ.

واختلَفُوا في موضعِ السُّـجود مـن هـذه السُّـورة؛ فقـال الحسـنُ: (عِنْـدَ قَوْلِـهِ (تَعْبُدُونَ). وهو قولُ الشَّـافعي. وقـال ابـنُ عبَّـاس ومسـروقٌ: (هُـوَ عِنْـدَ قَوْلِـهِ: لاَ يَسْأَمُونَ) وهو قولُ عُلمائِنا، وهو الأصحُّ لأنه موضِعُ تَمام الكلامِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً ﴾ ؛ مِن آياتهِ الدَّالة علـى وحْدَانِيَّتِهِ وقُدرتهِ أنَّكَ تـرَى الأرضَ مُغبَرَّةً يابسـةً لا نبـاتَ فيـها، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ ﴾ ؛ تحرَّكت للنباتِ وانتفخَتْ وارتفعت لـه حتـى يكـادُ النبـاتُ يظهر. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا ﴾ ؛ بإنزال المطر، ﴿ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ ؛ في الآخرة، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإمَاتةِ.

---

(١) نقله القرطبي الخلاف بتفصيل أكثر في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٦٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ؛ أي يَميلُونَ عن الحقِّ في آياتنا إلى جانب الباطل، قال مقاتلُ: (يَمِيلُونَ عَنِ الإِيْمَانِ بِالْقُرْآنِ[١])[٢]، وقال مجاهدُ: (يُلْحِدُونَ بآيَاتِنَا بالْمُكَاءِ وَاللَّغَطِ)[٣]، ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ ، بأشْخاصِهمْ وأفْعَالِهِمْ وأقْوالِهِمْ وعَزَائِمِهِمْ. واللَّحْدُ واللِّحَادُ بمعنى واحدٍ وهو الْمَيْلُ، ومنهُ الْمُلْحِدُ لعدولهِ عن الحقِّ، ومنهُ اللَّحْدُ الذي في القبرِ لأنه في جانبٍ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ؛ هو تقديرُ نفي المساواة بين الفريقين. قِيْلَ: المرادُ قولهُ (أفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ) أبو جهل وجدلُه (خَيْرٌ أمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) حمزة، وقَوْلُهُ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ ؛ لفظهُ لفظُ الأمرِ، ومعناهُ التهديدُ والوعيدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ ؛ أي بالقرْآن، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ ؛ محذوفُ الجواب، تقديرهُ: (إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) سيَنْزِلُ بهم مِن العذاب ما هو مذكورٌ في الكتاب العزيز. والعَزِيزُ: هو الكريمُ على اللهِ. وَقِيْلَ: هو الممتنعُ على مَن يريدُ مُعارضَتَهُ وتغْييرَهُ بزيادةٍ ونُقصانٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ؛ أي لا يأتيهِ التكذيبُ من الكتب التي قبلَهُ ولا يجيءُ بعده كتابٌ فيبطلهُ، وقال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: أنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنْ أنْ يُنْقَصَ مِنْهُ فَيَأْتِيَهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، أوْ يُزَادَ فِيهِ فَيَأْتِيَهِ الْبَاطِلُ مِنْ خَلْفِهِ)[٤]، فمعنى الباطلِ على هذا الزيادةُ والنقصانُ. وفي عَينِ المعاني: (الْبَاطِلُ إبْلِيسُ).

(١) في المخطوط: (بالكفران).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٥٩١).

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ص٢٩٤.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مُنَزَّلٌ من عالِمٍ بوجوه الحكمةِ، مستحقٌ للحمدِ على خَلْقِهِ بإنعامهِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ ؛ فيه تسلية للنبيِّ ﷺ على ما كان يلحقهُ من أذيَّةِ قومهِ؛ أي قد قيلَ للأنبياءِ قبلَكَ ساحرٌ، وكُذِّبُوا كما كُذِّبْتَ. ويجوز أن يكون معناهُ: ما أقولُ لكَ ولا آمرُكَ بتبليغِ الوحْيِ والرسالةِ إلاّ ما قد قيلَ للرُّسلِ قبلَكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لذُو مغفرةٍ لِمَن تابَ وآمنَ، وذُو عقابٍ أليمٍ لِمَن ثابَ[1] على الكُفرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ﴾ ؛ أي لو جعلناهُ قُرْآناً بلُغةٍ غيرِ لغةِ العرب لقال العربُ: ولو بُيِّنَتْ آياتهُ بلغةِ العرب حتى نفهمَها عندَكَ بغيرِ مُترجمٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ؛ استفهامٌ على وجهِ الاستبعادِ؛كأنَّهم قالُوا: كتابٌ أعجميٌّ ورسول عربيٌّ، كيف يكونُ هذا؟! فيُنكِرونَهُ أشدَّ الإنكار. يقالُ: رجل أعجميٌّ إذا كان لا يُفْصِحُ سواءٌ كان مِن العرب أو العجمِ، ورجلٌ عَجَمِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العجمِ وإنْ كان فَصِيحاً، ورجلٌ أعْرَابِيٌّ إذا كان مِن أهل الباديةِ سواءٌ كان من العرب أو لَم يكن، ورجلٌ عَرَبِيٌّ إذا كان مَنْسُوباً إلى العرب وإن كان غيرَ فصيحٍ.

ومعنَى الآيةِ: أنَّهم كانوا يقولُون: إنَّ الْمُنَزَّلَ عليه عربيٌّ، والْمُنَزَّلُ أعجميٌّ، فكان ذلك أشدُّ لتكذيبهم، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ هُدًى للذين آمَنُوا من الضَّلالةِ وشِفَاءٌ من الأوجاعِ. وقال مقاتلُ: (شِفَاءٌ لِمَا فِي الْقُلُوب بالْبَيَانِ الَّذِي فِيْهِ)[2].

---

(١) ثابَ: رجعَ، وثابَ الناس: اجتمعوا وجاءوا. والمثابة: الموضع الذي يُثاب إليه مروى بعد أخرى، ومنه سمي المنزل مثابةً، وأراد هنا الإصرار على الكفر.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٦٩.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ ؛ أي إنَّهم في تَرْكِ القَبُول بمَنْزلَةِ الصُّمِّ العُمْي، وسيؤدِّيهم تكذيبُهم إلى العَمَى، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ؛ أي عَمُوا عن القُرْآنِ وصَمُّوا عنه.

وقال السديُّ: (عَمَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ)[1]. والمعنى: وهو عليهم ذُو عمًى. وانتصبَ قولهُ (عَمًى) على المصدر. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّهم لا يَسمَعُونَ ويفهمونَ كما أنَّ مَن دعَا مِن مكانٍ بعيد لَم يسمَعْ ولَم يفهم. والمعنى: أنَّهُ بعيدٌ عندَهم مِن قُلوبهم ما يُتْلَى عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ؛ يعني التوراةَ، ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ؛ قومهُ كما اختلفَ قومُكَ في القُرْآن، وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ[2]؛ أي كما آتيناكَ الكتابَ وكذبَ به قومُكَ وصدَّقَ به بعضُهم كذلك آتَينا موسى الكتابَ فكذبَ به بعضُ قومهِ وصدَّقَ به بعضُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن هذه الأُمةِ إلى يوم القيامةِ كما قَالَ تَعَالَى ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[3] لعَذبَهم بعذاب الاستئصالِ. وَقِيلَ: أرادَ بسبقِ الكلمةِ: أنْ لا يعذِّبَهم وأنتَ فيهم.

والمعنى: ولَوْلاَ كلمةٌ سَبَقَتْ مِن ربكَ في تأخيرِ العذاب عن مُكَذِّبي القُرْآن إلى أجلٍ مُسمًّى يعني القيامةَ، لقُضِيَ بينَهم بالعذاب الواقعِ بمَن كذبَ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ ، مِن صِدقِكَ وكِتَابكَ، ﴿ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي موقعٌ لهم الرِّيبة، وَقِيلَ: إنَّهمْ لَفِي شَكٍّ من القُرْآنِ ظاهرِ الشَّكِّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦١٣).

(٢) في المخطوط: (وهذا تعدية للنبي ﷺ)، والمناسب ما أثبتناه، والله أعلم.

(٣) القمر / ٤٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ ﴾؛ أي لا يَعْلَمُ متى وقتُ قيامِها إلاّ اللهُ تعالى، ولا يجابُ فيها بشيءٍ، ويقالُ: اللهُ أعْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾؛ قرأ نافعُ وابن عامر (ثَمَرَاتٍ) بالجمعِ، وقرأ الباقونَ (ثَمَرَةٍ) على الوحدَانِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى (مِنْ أكْمَامِهَا) الأكْمَامُ جَمْعُ الكُمَّةِ[1]، وهي لِيفُ النَّخلِ، وقال ابنُ عبَّاس: (الأكْمَامُ الكُفُرِّيُّ قَبْلَ أنْ يَنْشَقَّ، فإذا انْشَقَّ فلَيْسَ بأكْمَامٍ)[2] ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾؛ بَيَّنَ اللهُ أنَّ الذي يعلمُ الثِّمارَ في الأكمامِ، والأولادَ في الأرحامِ مع مُشاهدةِ الأكمامِ، والأمَّهاتِ هو اللهُ تعالى لا يَعْلَمُهُ أحدٌ غيرُه، ومَن لَم يُشاهد شيئاً منها أوْلَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾؛ فيه وعيدٌ للمشركين؛ أي يقالُ للمشركين يومَ القيامةِ: أيْنَ شُرَكَائِي في ظَنِّكُمْ وزَعمِكم؟! فيقولون: ﴿ قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي أعْلَمْنَاكَ وعرَّفنَاكَ أنَّا كُنا في الدُّنيا جُهلاءَ غيرَ عارفين، ما مِنَّا من شهيدٍ أنَّ لكَ شَريكاً، يَتَبَرَّؤُونَ يومئذٍ مِن أن يكونَ مع اللهِ شريكٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾؛ أي ضَاعَ، ﴿ مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ ﴾؛ يَعبُدُونَ، ﴿ مِن قَبْلُ ۖ ﴾؛ في الدُّنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي أيْقَنُوا أنه لا خلاصَ لَهم من النَّار.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾؛ أي لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن الخيرِ، ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾؛ والمكروهُ والأمراض والأسقامُ والشَّدائدُ،

---

(١) هو كلُّ ظَرْفٍ لماء أو لغيره، والعربُ تدعو القشرةَ الكُفُرَّاةِ كُمّاً، والكُفُرَّاةُ والكُفُرِّيُّ: كافورُ الطَّلْعِ. والكافورُ: وعاءُ طلعِ النَّخل، أي قِشرهُ. أخرجه الطبري بإسناده عن السدي كما في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٢١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٢١) عن السدي. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٥ ص٣٧١ عن ابن عباس.

﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ ؛ أي يصيرُ آيَسَ شيءٍ من عَوْدِ النِّعمةِ، وزوالِ المكروهِ عنه، فيَضْجَرُ على ذلكَ غايةَ الضَّجرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ ؛ أي نِعْمَةً منَّا، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ ؛ من بعدِ مَكْرُوهٍ مَسَّهُ، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ؛ أي بفضْلِي وقوَّتِي وعملِ استَحْقَقْتُهُ، وهذا من اختلافِ الكفَّار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ ؛ هذا يدلُّ على أنَّ هذا الإنسانَ كافرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ؛ أي لستُ على يقينٍ من البعثِ، فإن كان الأمرُ على ذلكَ ورُدِدْتُ إلَى رَبي أنَّ لِي عندَهُ الجنةَ ويعطيني في الآخرةِ أفضلَ ما أعطانِي في الدُّنيا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٠﴾ ؛ وعيدٌ لَهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ؛ أي اذا أنْعَمْنَا على الكافرِ أعرضَ عن الطاعةِ والشُّكر وتباعدَ عن الواجبِ كِبراً، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ ، وإذا أصابَهُ مكروهُ الدَّهرِ فإذا هو يَئِسٌ يدعُو اللهَ ليكشِفَ ذلك عنهُ.

والمعنى بقولهِ تعالى (دُعَاءٍ عَرِيضٍ) أي كثيرٍ لا يَمِلُّ من الدُّعاء. وإنَّما لَم يقلْ: طَويلٍ؛ لأن ذِكْرَ العريضِ أبلغُ في بابِ الامتدادِ والانبساط، لأن العريضَ يدلُّ على الطَويلِ، ولا يدلُّ الطويلُ على العريضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد لأهلِ مكَّة: أرَأيْتُمْ إنْ كان القُرْآنُ من عندِ اللهِ، ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ﴾ ؛ عن الحقِّ والْـهُدَى، ﴿مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٢﴾ ؛ خِلافٍ للحقِّ بعيدٍ عنهُ، وهو أنتُمْ، فلا أحدٌ أضَلُّ منكُم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ؛ أي سنُريهم دلائلَ التوحيدِ من مَسيرِ النُّجومِ وجَرَيان الشَّمسِ والقمرِ طُلُوعاً وغُرُوباً على مرِّ الدُّهور، وفي الأرضِ من الجبالِ والأودية والأشجار. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفِي أنْفُسِهِمْ) من مَخَارجِ الأنْفَاسِ ومجَاري الدَّم وموضعِ العَقْلِ والفِكْرِ والفهمِ وآلاَتِ الكلامِ.

وَقِيْلَ: معنى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاق) أي سَنُرِيهم ما نفتحُ مِنَ القُرَى على مُحَمَّد ﷺ في النواحِي والأطرافِ (وَفِي أنْفُسِهِمْ) فتحُ مكَّة[1]. قال الحسنُ: يعني (سَنُرِيْهِمْ ظُهُورَ مُحَمَّدٍ عَلَى الآفَاق وَعَلَى مَكَّةَ حَتَّى يَعْرِفُوا أنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَى بَعْدَ أنْ كَانَ وَاحِداً لاَ نَاصِرَ لَهُ)[2]. وذلك معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي ما يقولُ لهم النبيُّ ﷺ هو الحقُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أوَلَمْ يَكْفِ بربكَ شَاهداً أنَّ القُرْآنَ من اللهِ وأنَّ النبيَّ ﷺ صادقٌ وشهيد هو العالِمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: ألا إنَّهم في شكٍّ من البعثِ والثواب والعقاب، ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً؛ إنَّهُ يعلَمُ الغيبَ والشَّهادةَ.

آخر تفسير سورة حم السجدة (**فصلت**)، والحمد لله رب العالمين

---

(١) قاله الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٧. ونقله عن السدي في الأثر (٢٣٦٣٢)، عن المنهال في الأثر (٢٣٦٣١).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٤ عن مجاهد والحسن والسدي والكلبي.

سُورَةُ الشُّـورَى

سُورَةُ الشُّورَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافٍ وَخَمْسُمِائَةِ حَـرْفٍ وَثَمَـانُونَ حَرْفـاً[1]، وَثَمَانُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَثَلاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم عسق كَانَ مِمَّنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَـةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ][2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ ؛ (ح) حِلمـهُ و (م) مجـدهُ و (ع) عِلمـهُ و (س) سناؤه و(ق) قُدرَتهُ، أقسمَ اللهُ بها[3]، ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ ؛ اخباراً بالغيب ويكون قبلَ أن يكون، وَقِيلَ: الحاءُ من الرَّحمنِ، والميمُ من مَلِكٍ، والعين من عزيزٍ والسين من قدُّوسٍ والقافُ من قاهرٍ، ومعنـى (كَذلِكَ يُوحِي إلَيْكَ) مثل ما أوحَينا إليك بـهذه السُّـورة أوحَينـا إلى مَـن قَبلَـكَ مـن الرُّسلِ. وعن ابنِ عبَّاس ﷺ أنه قالَ: (لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ أُوْحِيَ إلَيْهِ بـ حـم عسـق كَمَا أُوحِيَ إلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)[4].

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص١٦١؛ قـال الحنبلـي: (وثلاثـة آلاف وخمسـمائة وثمانيـة وثمانون حرفاً).

(٢) أخرجه أهل التفسير، وهو من مرويات الثعلـبي وابـن مردويـه عـن أبـي في تفسـيرهما. ينظـر: الكشاف للزمخشري: ج ٤ ص٢٢٨. واللباب لابن عادل الحنبلي: ج ١٧ ص٢٢٥.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج١٩ ص٢؛ قال القرطبي:(وروى نافع عن ابـن عبـاس...) وذكـره. وفي معالم التنزيل: ص١١٥٥ ذكره البغوي عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ ؛ أي تكادُ كلُّ سماءٍ تشَقَّقُ فوقَ التي تَلِيها من قول المشركين: اتَّخذ اللهُ ولداً، ومِن استعظامِ كُفرِ أهلِ الأرضِ مع عِظَمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي يُنزِّهُونَ اللهَ عن القول الذي تكادُ السَّموات يتفطَّرن منه، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لأوليائهِ وأهلِ طاعته.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة اتَّخذُوا آلهةً فعبَدُوها من دونِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي اللهُ حفيظٌ على أعمالِهم ليجازيَهم بها، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي لم يوكِّلكَ حتى تُؤخَذ بهم وتعاقَبَ بمخالفتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ؛ أي كما أنزلنا على مَن قبلكَ بلسان قَومِهم أنزلنا عليكَ قُرآناً بلُغَةِ العرب لتُخوِّفَ به أمَّ القُرى وهي مكَّةُ، سُمِّيت أمَّ القرى لأنَّ الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها. وقولهُ تعالى: (وَمَنْ حَوْلَهَا) أي لتُنذرَ أهلَ أمِّ القُرَى ومَن حولَها مِن البُلدان، وَقِيلَ: يعني قُرَى الأرضِ كلِّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ ؛ وهو يومُ القيامةِ، يَجْمَعُ اللهُ فيه الأوَّلين والآخِرين، وأهلَ السمواتِ وأهلَ الأرض، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا شكَّ في الجمعِ فيه أنه كائنٌ، ثم بعدَ الجمعِ يتفرَّقون كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي طائفةٌ من أهل الجمع وهم المؤمنون يُساقون إلى الجنَّة يتنعَّمون ويتمتعون، وطائفة يُساقون إلى النار ذات الوقود وهمُ الكفَّارُ فيها يُعذبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي لو شاءَ لجمَعَهم على دينِ الإسلامِ بأنْ يُعرِّفَهم طريقَ الحقِّ بالاضطرار، ولكنَّهُ لم يفعلْهُ، أرادَ أن يعرضهم[١] للثواب والإلجاءُ يَمنَعُ من ذلكَ، ومثلُ قولِهِ تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[٢]. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي في دينِ الإسلام، ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ، يمنعُهم؛ أي والكافِرُون ما لَهم من ولِيٍّ يدفعُ عنهم العذابَ ولاَ نَصيرٍ يَمنَعُهم من ((النار))[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ بلِ اتَّخذ الكفارُ من دون اللهِ أرباباً، ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَلِيُّكَ يا مُحمَّدُ ووَليُّ مَنِ اتَّبَعَكَ)[٤] ﴿ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ يَبعثُهم للجزاءِ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: وما اختلفتُم فيه من شيءٍ من الدِّين فرُدُّوا حُكمَهُ إلى كتاب الله، واعتَمدُوا الأدلَّةَ دون التقليدِ والشبه كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[٥].

وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ ؛ الذي ادعُوكم إلى عبادتهِ وهو اللهُ ربي، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ في كِفَايَةِ مهمَّاتِي، ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي أرجعُ في المعادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي هو مُبتَدِعُهما ومدبرُهما، ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ؛ أي خَلَقَ لكم من مثلِ خلقِكم

---

(١) في المخطوط: لعله (يعوضهم).

(٢) الانعام / ٣٥ .

(٣) (النار) سقطت من المخطوط.

(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٥) النساء / ٥٩ .

نساءً، و َ خلقَ لكم، ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ ؛ ذُكوراً وإناثاً لتَكمَلَ منافعُكم بـها، يعني خلقَ الذكرِ والأنثى مـن الحيـوانِ كلّـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي يَخلقُكم في الرَّحِمِ ويُكثِرُكم بالتزويجِ، ولولاهُ لَم يكن الناسُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ؛ في العلمِ والقدرةِ والتدبيرِ، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ بمقالَةِ العبادِ، ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ بأعمالِـهم، والكـافُ في (كَمِثْلِـهِ) زائدةٌ مُؤكِّدَةٌ، والمعنى: ليس مثلهُ شيءٌ، إذ لا يجوزُ أن يقالَ: ليس مثلَ مثلهِ شيءٌ؛ لأن مَن قال ذلكَ فقد أثبتَ المثلَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذلِكَ عُلُوّاً كَبيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له مَفاتِيحُها، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ مَفَـاتِيحَ الـرِّزْقِ فِـي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[1]. وقـال الكلـبيُّ: (مَقَـالِيدُ السَّمَوَاتِ خَزَائِنُ الْمَطَرِ، وَخَزَائِنُ الأَرْضِ النَّبَاتُ)[1]. والمعنى أنه يقدِرُ علـى فتحِـها، يَملِكُ فتحَ السَّماء بالمطرِ، وفتح الأرضِ بالنبات، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي يُوسِّعهُ على مَن يشاءُ، ويُضيِّقهُ على مَـن يشـاءُ؛ لأن مفاتيحَ الرزق بيدهِ، ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ من البَسْـطِ والضِّيـقِ مـا لا يفعلُ ذلك جُزَافاً، ولكن يرزقُ كلَّ أحدٍ على ما تُوجِبهُ الحكمةُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ ؛ أي بَيَّـنَ وأوضحَ مـن الديـنِ، ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ ؛ يعني التوحيدَ، ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ من القـرآنِ وشَرائعِ الإسلام، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ؛ وشَـرعَ لكـم مـا وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى.

ثم بيَّن ما وصَّى به هؤلاء فقال: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ يعني التوحيدَ، ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ ؛ أي لا تختلِفُوا في التوحيدِ، قـال مجاهدُ: (يَعْنِـي شَـرَعَ لَكُـمْ وَلِمَـنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الأَنْبيَاءِ دِيْناً وَاحِداً)[2]؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْ نَبيّاً إلاَّ وَصَّاهُ بإقَامَةِ الصَّـلاَةِ

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٣٩؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٥٧).

وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالإِقْرَار باللهِ تَعَالَى وَالطَّاعَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، فَذلِكَ دِينُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾؛ قَالَ مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: عَظُمَ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ مَا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَالإِخْلاَصِ لَهُ وَحْدَهُ وَخَلْعِ الأَنْدَادِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ ﴾؛ أي يصطفي من عباده لدينه من يشاء، ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ ﴾؛ إلى دينه؛ ﴿ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي مَن يُقبلُ إلى طاعتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: اللهُ يختارُ لرسالتهِ مَن يشاءُ مِمَّن تقتضِي الحكمةُ اختيارَهُ، ويَهدِي إلى جنَّتهِ وثوابهِ مَن يرجعُ إلى طاعتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي ما اختلفَ اليهودُ والنَّصارى إلاَّ من بعدِ ما وَضُحَ لهم أمرُ النبيِّ ﷺ، وذلك أنَّهم كانوا يَعرِفُونَهُ كما يعرفون أبناءَهم، فأنكرَ مَن أنكرَ مِن علمائِهم للبَغي والعداوةِ على طلب الدُّنيا، خافُوا أن تذهبَ عنهم رئاسَتهم ومكانتهم[٣]، وأن يصيرُوا تابعين بعد أن كانوا مَتبوعِين، فتركُوا اسمَ الإسلامِ، وقولهُ تعالى (بَغْياً بَيْنَهُمْ) أي بَغياً منهم على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي لولاَ حُكم اللهِ بإنظارهم وتأخيرِ العذاب عن هذه الأُمة (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يعني يومَ القيامةِ (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أي بين مَن آمنَ ومَن كفرَ بنُزول العذاب بالمكذِّبين في الدُّنيا. وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾؛ يعني اليهودَ والنصارى أُورثُوا التوراةَ من بعدِ أنبيائهم وأسلافِ أحبارهم[٤]، ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾؛ من دينِ الإسلام ظاهرِ الشكِّ.

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٤.

(٣) في المخطوط: (دياستهم ومأكلتهم).

(٤) في المخطوط: (أخبارهم).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ ﴾ ؛ أي فلذلكَ الذي سبقَ ذِكرُهُ، يعني الذي وصَّى به الأنبياءُ من التوحيدِ فادعُ. وَقِيْلَ: معناهُ: فلأجلِ ما وقعَ منهم من الشكِّ فادعُ واستقِمْ على دينِ الإسلامِ كما أمِرتَ، ولا تتَّبع أهواءَ أهلِ الكتاب، وذلك أنَّهم دعوا إلى دينِهم، ﴿ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ ﴾ ؛ أي آمنتُ بكُتب الله كلِّها. وإنما قالَ ذلك لأنَّ الذين تفرَّقوا آمنُوا ببعضِ الكُتب دون بعض. وقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ﴾ ؛ أي أمرت أن لا أحيفَ عليكم بأكثرَ مما افترضَ اللهُ عليكم في الأحكامِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ ﴾ ؛ أي إلهُنا وإلهُكم وإن اختلفَتْ أعمالُنا، وكلٌّ يجازَى بما عَمِلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ ﴾ ؛ لنا جزاءُ أعمالِنا ولكم جزاءُ أعمالِكم، لا يؤاخَذُ أحدٌ بعملِ غيره، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ﴾ ؛ أي قد ظهرَ الحقُّ وسقطَ الباطلُ، ومع ذلك الحجَّة لنا عليكم لظهُورها، وقولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ ﴾ ؛ وبينكم في الآخرةِ فيُجازي كُلاًّ بعملهِ، ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي والذين يخاصِمُون في دين الله من بعد ظُهور دلائلهِ، وهم اليهودُ والنصارى قالوا:كتابُنا قبلَ كتابكم، ونبيُّنا قبلَ نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم! فهذه خصومتُهم وإنما قصدُوا بما قالوا دفعَ ما أتى به مُحمَّدٌ ﷺ، وقولهُ تعالى: (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) أي من بعدِ ما دخلَ الناسُ في الإسلامِ وأجابُوا النبيَّ ﷺ إلى ما دعاهُم إليه، ﴿ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ ؛ أي خصومتُهم باطلةٌ حين زعمُوا أن دينَهم أفضلُ من الإسلامِ، و قوله (عِنْدَ رَبهمْ) أي في حُكم ربهم، وإنما قالَ ذلك لأنَّها لم ((تكن))[1] باطلةً في زعمِهم، ﴿ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ ﴾ ؛ من اللهِ، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ﴾ في الآخرةِ.

---

(١) ((تكن)) ساقطة من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ الذي أنزلَ القرآن بالحقِّ؛ أي بما ضَمَّنَهُ من الأمر والنهي والفرائضِ والأحكام، وكلُّه حقٌّ من اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى (وَالْمِيزَانَ) اختلَفُوا في إنزالِ الميزان، قال الحسنُ ومجاهد والضحَّاك: (أرَادَ بهِ الْعَدْلَ)[١] وإنما كنَّى عن العدلِ بالميزان لأنَّ الميزانَ طريقٌ معه العدلُ والمساواة.

وقال بعضُهم: أنزلَ الميزان الذي يوزَنُ به في زمنِ نوحٍ ﷺ. وقال ابنُ عبَّاس: (أمَرَ اللهُ بالْوَفَاءِ، وَنَهَى عَنِ البَخْسِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ هذا تخويفٌ للمشركين من قُرب الساعة لينْزَجِرُوا، وقد كان قومٌ من المشركين سألُوا النبيَّ ﷺ عن الساعةِ تكذيباً بها، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، وإنَّما قال (قَرِيبٌ) ولم يقل قريبةٌ؛ لأن تأنيث الساعةِ غيرُ حقيقيٍّ كما في قولهِ تعالى ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[٣] ولأن معنى الساعةِ البعثُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ ؛ والذين يستعجِلون بها قصدَ الإتيان بها استبعاداً لقيامِها لأنَّهم لا يؤمنون بها، وهذه طريقةُ الْجُهلاءِ في كلِّ شيء يجحَدُونه من حقائقِ الأمُور.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ ؛ أي خائِفُون منها لاَ يَدرُون على ما يُقدِمون عليه لأنَّهم موقنون أنَّهم مبعُوثون مُحاسَبون، ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي الساعةُ لا ريبَ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ ؛ تدخلُهم الْمِرْيَةُ والشكُّ في القيامةِ، ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ حين لم يفكِّروا فيعلَمُوا أن الذي خلقَهم أوَّلاً قادرٌ على بعثِهم.

---

(١) أخرجه الطبري عن مجاهد وقتادة في جامع البيان: الأثر (٢٣٦٧٧ و٢٣٦٧٨).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٦.

(٣) الأعراف / ٥٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ ؛ أي بارٌّ رحيم بهم، يعني أهلَ طاعة، وقال مقاتلُ: (لَطِيفٌ بالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، لاَ يُهْلِكُهُمْ جُوعاً)[١]، يدلُّ على هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ وكلُّ مَن رزقَهُ اللهُ من مؤمنٍ وكافر ذي روحٍ ممن يشاء أن يرزقَهُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ﴾ ؛ على ما أرادَ من رزقِ مَن يرزقه، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ يعني الغالبُ الذي لا يلحقهُ عَجْزٌ فيما أرادَ. واللطيفُ هو الْمُوصِلُ للنفعِ إلى غيرهِ من جهةٍ يدُقُّ استدراكُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ ؛ أي مَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الآخرةِ (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) أي نُعينهُ على العبادةِ، ونسَهِّلُ له، وَقِيْلَ: نزدْ له في ثوابهِ الْحَسَنَةَ بعشرِ أمثالها. وَقِيْلَ: نزدْ له في قوَّتهِ ونشاطهِ وخشيَتهِ في العملِ، كما قالَ تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ومَن كان يريدُ بعملهِ نفعَ الدُّنيا من رزقٍ أو مَحْمَدَةٍ، ﴿ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ؛ ما نشاءُ على ما تقتضيهِ الحكمةُ، ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ مِن ثوابٍ؛ لأنه عَمِلَ لغيرِ اللهِ[٣]، قال السديُّ: (هَذا الْمُنَافِقُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْطِيهِ سَهْمَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّة أَلَهُمْ آلِهةٌ سَنُّوا من الدين والشريعةِ ما لَم يعلم اللهُ به؟ قال ابنُ عبَّاس: (شَرَعُوا لَهُمْ دِيناً غَيْرَ دِينِ الإسْلاَمِ)[٤] ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي لولاَ حكمُ اللهِ بأن يَفصِلَ بينهم يومَ القيامةِ لعاجَلَهم بالعقوبةِ، ﴿ وَإِنَّ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٦.

(٢) العنكبوت / ٦٩ .

(٣) عن أبي العالية عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: [بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٣٤. وابن حبان في الإحسان: الحديث (٤٠٥) بإسناد حسن.

(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٨.

ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي وجيعٌ في الآخرةِ ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، الذين يكذبونك خائفين يوم القيامة، ﴿ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ ؛ مِن الكفرِ والتكذيب، ﴿ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ ﴾ ؛ أي وجزاؤهُ واقعٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ ﴾ ؛ الرَّوضَةُ: هي البستانُ الجامع لأنواعِ الرَّياحين، والجنَّةُ هي البستانُ الجامعُ لأنواعِ الشَّجر، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ﴾ ؛ مِن النعيمِ في حكمةِ ربهم، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي الْمَنُّ العظيمُ من اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِۗ ﴾ ؛ أي ذلك الذي سبقَ ذِكرهُ من النعيم يبشِّرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين المخلِصين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ ؛ أي لا أسألُكم على تبليغِ الرسالة؛ أي تعليمِ الشريعةِ أجْراً، وهذا دأبُ كلِّ نبيٍّ مع قومهِ، وقولهُ تعالى: (إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) أي لاَ أسألُكم عليه أجراً إلاَّ أن تَصِلُوا ما بيني وبينَكم من القرابةِ. قال ابنُ عبَّاس: (لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إلاَّ وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ قَرَابَةٌ فِيهِمْ)[1].

والمعنى: قُل لا أسألُكم على ما أدعُوكم إليه من الحقِّ إلاَّ أنْ تحفَظُوني في قرابَتِي بيني وبينكم. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أقُولُ أجْراً، أرْقُبُونِي فِي الدُّعَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَلاَ تَعْجَلُوا إلَيَّ وَدَعُونِي وَالنَّاس). وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إلاَّ أنْ تُوَدُّوا إلَى اللهِ فِيمَا يُقَرِّبُكُمْ إلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)[2].

وعن ابنِ عبَّاس قالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ (قُلْ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) قَالُواْ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْمُرُنَا اللهُ بمَوَدَّتِهِمْ ؟ قَالَ: [عَلِيٌّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٦٨٤ و٢٣٦٨٥). والطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٩٦٠٠) بمعناه، و(٧٢٦٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٥٨.

وَفَاطِمَةُ وَوَلَدَهُمَا])[1].

وعن عليٍّ ﷺ قالَ: (قَالَ فِينَا، فِي آل مُحَمَّدٍ، فِي حَم آيَةً لاَ يَحْفَظُ مَوَدَّتَنَا إلاَّ كُلُّ مُؤمِنٍ، ثُمَّ قَرَأ: (قُلْ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى))، وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَى الإيْمَانِ جُعْلاً إلاَّ أنْ تُوَادُّوا أقَارِبي، حَثَّ اللهُ النَّاسَ عَلَى مَوَدَّةِ ذوي قَرَابَتِهِ).

وعلى الأقوال كلِّها قولهُ (إلاَّ الْمَوَدَّةَ) استثناءٌ ليس من الأوَّل، وليس المعنى: أسأَلُكم المودَّةَ في القُرَبى؛ لأن الأنبياءَ لا يسألُون أجْراً على تبليغِ الرسالة، والمعنى ولكنِّي أذكِّرُكم المودةَ في قرابَتِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ ؛ أي ومَن يكتَسِبْ حسنةً نُجازيه عليها أضْعَافاً، بالواحدةِ عشراً فصاعداً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لذُنوب الناس، ﴿ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ للقليلِ حتى يُضاعفَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ يعني كفَّارَ مكَّة قالوا: اختلَقَ مُحَمَّدٌ كَذِباً حين زعمَ أن القرآنَ من عندِ اللهِ، فَاغْتَمَمْتَ لذلكَ يا مُحَمَّدُ، ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ؛ أي يَرْبطْ على قلبكَ بالصبرِ على أذاهُم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم، ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ، ويُذهِبُ اللهُ ما يقولون من الباطلِ، ﴿ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ يعني الإسلامَ، ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ ؛ أي بما أنزلَ من كتابهِ، وقد فعلَ اللهُ ذلك فأزهقَ باطلَهم وأعلَى كلمةَ الإسلام، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي بما ((في))[2] قلوب خلقهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ مِن خيرٍ وشرٍّ، مَن قرأ بالتاءِ فهو خطابٌ للمشركين وتهديدٌ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٤٨؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال...) وذكره. وفي التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٧٦: النص (١٨٤٧٣)؛ قال ابن أبي حاتم: (بسند ضعيف...) وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص١٦٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جماعة ضعفاء، وقد وثقوا).

(٢) ((في)) سقطت من المخطوط.

لَهم، ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ أي يُجيبُهم ما سألوهُ. قال ابنُ عبَّاس: (يُثِيبُهُمْ)، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ سِوَى ثوابِ أعمالهم تفضُّلاً عليهم، وقال أبو صالح: (يُشَفِّعُهُمْ فِي إخْوَانِهِمْ)[١]، ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لو وسَّعَ على عبادهِ لطغَوا وتطاوَلُوا، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: لَوْ وَسَّعَ اللهُ لِعِبَادِهِ فَرَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ كَسْبٍ لَعَصَوا وَبَطَرُوا النِّعْمَةَ وَطَلَبُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَطْلُبُوهُ)[٢]؛ لأَنَّ الَّذِي يُوَسَّعُ عَلَيْهِ يَرْتَفِعُ مِنْ مَنْزِلَةٍ إلَى مَنْزِلَةٍ، وَمِنْ مَرْكَبٍ إلَى مَرْكَبٍ، وَمِنْ مَلْبَسٍ إلَى مَلْبَسٍ، وَيَسْتَطِيلُ بذلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْتَعِينُ برزْقِ اللهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ ؛ معناهُ: ولكن يوسِّعُ على قومٍ، ويُضيِّقُ على آخَرين على ما تقتضيهِ الحكمةُ، ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي أعلَمُ بهم من أنفُسِهم، منهم من يصلحُ له الفَقرُ ولو أغناهُ لكان شرّاً له، ومنهم من يصلحُ له الغِنَى، ولو أفقرَهُ لكان شرّاً له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ ؛ أي يُنَزِّلُ المطرَ من بعدِ ما يَئِسُوا منه، ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ ؛ بإخراجِ النباتِ والثِّمار، وَقِيلَ: معنى (يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ) أي يبسطُ مطرَهُ، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ ؛ لِمَن أطاعَهُ، وَقِيلَ: وهو الوليُّ بإنزال المطرِ عاماً بعدَ عامٍ، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ المستحقُّ للحمدِ على خَلقهِ بإنعامهِ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ؛ معناهُ: ومِن دلائلِ توحيدهِ خلقُ السَّموات والأرضِ بما فيهما من الشَّمسِ والقمر والنُّجوم والجبال والبحار والأشجار (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا) أي وما فرَّقَ فيهما من الملائكةِ والناس وغيرِهم، وَقِيلَ: معناهُ: وما بثَّ في الأرضِ من دابَّة، وهذا كقولهِ

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٠.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٧٨.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[1] وإنما يخرجُ من أحدِهما، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ ؛ يعني وما أصابكم من المعاصِي في النَّفسِ والمالِ والولدِ أو نكبةِ حجَرٍ أو عثرةِ قدَمٍ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، يعني المعاصِي، ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ ؛ فلا يعاقِبُ بها لُطفاً بهم.

قال ﷺ: [مَا مِنْ خَدْشَةِ عُودٍ أوْ عَثْرَةِ قَدَمٍ أو اخْتِلاَجِ عِرْقٍ إلاَّ بذنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ تَعَالَى أكْثَرُ][2]. وقال الحسنُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَمَا أصَابَكُمْ مِنْ حَدٍّ فِي سَرِقَةٍ أوْ زنَى فبمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ)[3]. وقال الضحَّاكُ: (مَا حَفِظَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إلاَّ بذنْبٍ) وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ وَقَالَ: إنَّ أعْظَمَ الذُّنُوب نِسْيَانُ الْقُرْآن)[4].

وفي مصاحفِ المدينةِ والشَّام (بمَا كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ). قال الزجَّاجُ: (وَإثْبَاتُ الْفَاءِ أجْوَدُ لأَنَّ الْفَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ)[5]. وَمَنْ حَذفَهَا فَعَلَى أنَّ (مَا) بمعنى (الَّذِي) تقديرُهُ: والَّذي أصابَكم وقعَ بما كسبَت أيديكُم) ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ يا معشرَ المشركين لا تُعجِزوني في السَّموات حيث كُنتم، ولا تَسبقوني هَرباً في الأرضِ ولا في السَّماء لو كُنتم فيهما، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ ؛ أي ومِن آياته الدَّالة على توحيدِهِ وقُدرتِهِ الجوَاري في البحرِ، وهي السُّفُنُ جمعُ جَاريَةٍ تجري في

---

(١) الرحمن / ٢٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن البصري) وذكره. وبلفظ آخر قال: (أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن أبي طالب).

(٣) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٣٧٢٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الأثر (١٨٤٨٤).

(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٠٣.

البحر، (كَالأَعْلاَمِ) أي كالجِبَالِ الطِّوَال، ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ ؛ معناهُ: إن شاءَ اللهُ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تَجري بهَا السُّفنُ فيَبقَينَ واقفاتٍ على ظهرِ الماءِ، ويبقى أهلُها حيَارَى لا يجدُونَ حيلةً في الخلاصِ؛ لأن ماءَ البحرِ راكدٌ لا تجري السفينةُ فيه إلاَّ بريحٍ تُجريهِ، فذلك معنى قولهِ تعالَى: ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ ؛ يعني السُّفنَ رَوَاكِدَ؛ أي ثوابتَ على ظهرِ البحرِ لا تجري ولا تبرحُ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ ؛ أي لدلاَلاتٍ على توحيدِ اللهِ تعالَى، ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ ؛ على طاعتهِ، ﴿ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ على نِعَمِهِ. وَقِيْلَ: لكلِّ صبَّارٍ في الشدَّة، شَكُورٍ في الرَّخاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ ؛ أي يُهلِكهُنَّ بالريحِ العاصفِ، ويُغرقُهُنَّ، يعني: أهلَهُنَّ (بِمَا كَسَبُوا) أي بما أشرَكُوا واقترَفُوا من الذنب، ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ من ذنوبهم فيُنَجِّيهم من الغرقِ والهلاكِ. والمعنى: (أَوْ يُوبِقْهُنَّ) وإنْ يشَأْ يَعْفُ عن كثيرٍ فتجري السُّفنُ على ما يشاؤونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ يعني أن الكفارَ الذين يكذِّبون بالقرآنِ إذا صَارُوا إلى اللهِ بعدَ البعثِ عَلِمُوا أنْ لا مهربَ لَهم من عذاب اللهِ تعالى.

فمَن قرأ (وَيَعْلَمُ) بالرفعِ فعلى الابتداءِ من غيرِ أن يكون مَعطُوفاً على (وَيَعْفُ) لأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مقطوعٌ به لا يجوزُ تعليقه بمشيئةٍ، ومَن قرأ بالنصب فهو نصب على إضمار (أنْ) معناهُ: ولئن يَعْلَمَ الذين يُنازعُونَ في آياتِنا بالتكذيب أنه لا مَخْلَصَ لَهم في الآخرةِ مِن عذابهِ، كما لا مَخْلَصَ لأهلِ السَّفينة من البحرِ إلاَّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي ما أعطِيتُم من شيءٍ مما في أيديكم فهو متاعٌ يتمتَّعُ به إلى حين، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ؛ من الثواب أفضَلُ وأدومُ مما في أيديكم، ثم بيَّنَ اللهُ لِمَنِ الثوابُ فقالَ: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ الكلامُ في الكبائرِ والفواحشِ في سُورة النِّساء، قال

مقاتلُ: (الْفَوَاحِشُ مَا يُقَامُ فِيهَا الْحَدُّ فِي الدُّنْيَا)(١). وَقِيلَ: الفواحشُ الزِّنَى وأنواعهُ، وكبائِرُ الإثمِ الشِّركُ، كذا قالَ ابنُ عبَّاس. وقرأ حمزةُ (كَبيرَ الإثمِ) على الوِحدان وهو يريدُ الجمعَ(٢).

وقولهُ تعالى (وَإذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) أي يَكْظِمُونَ الغَيْظَ ويَعْفُونَ عمَّن ظلَمَهم، ويطلبون بذلك ثوابَ الله وعفوَهُ. وهذه الآيةُ نزلت في أبي بكر ﷺ حين أقبلَ رجلٌ من المشركين يَشتِمهُ ويقعُ فيه ولم يَرُدَّ عليه أبو بكرٍ ﷺ.

قولهُ: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾؛ أي أجابوهُ إلى ما دعاهم إليه من التوحيدِ والعبادة، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي فعالاً مِن المشورةِ، وهي الأمرُ الذي يُتَشاوَرُ فيه، يقالُ: صارَ هذا الأمرُ شُورَى بين القومِ إذا تشاوَرُوا فيه.

والمعنى أنَّهم يتَشاوَرُونَ فيما يبدُو لهم، ولا يَعجَلُونَ في الأمر. وقال الحسنُ: (وَاللهِ مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلاَّ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لأَفْضَلِ مَا بحَضْرَتِهِمْ)(٣). والمعنى: أنَّهم إذا حَدَثَ بهم أمرٌ لا نصَّ فيه من كتابٍ ولا سُنة ولا إجماعٍ؛ شاوَرَ بعضُهم بعضاً لإظهار الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، معناهُ: الذين إذا أصابَهم البغيُ والظُّلم والعدوان هم ينتَصِرون مِمَّن ظلَمَهم، قال عطاءُ: (يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أخْرَجَهُمُ الْكُفَّارُ مِنْ مَكَّةَ وَبَغَوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ مَكَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الأَرْضِ حَتَّى انْتَصَرُواْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ)(٤).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٠.

(٢) ينظر: جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٤٧: النص (٢٣٧٣٧) عن السدي، وتعليق الطبري ومتابعته عليه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن المنذر عن الحسن).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٢.

قال ابنُ زيد: (جَعَلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ: صِنْفٌ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ، فَبَدَأَ بِذِكْرِهِمْ فَقَالَ: (وَإِذا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ). وَصِنْفٌ يَنْتَصِرُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِرُواْ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَمَنِ انْتَصَرَ فَأَخَذَ حَقَّهُ وَلَمْ يُجَاوِزْ فِي ذلِكَ مَا حَدَّ اللهُ فَهُوَ مُطِيعٌ للهِ، وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ فَهُوَ مَحْمُودٌ).

ثم اعْلَمْ: أن أوَّلَ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ الاقتصارَ بأخذِ الواجب من القصاصِ أو نحوه أفضلُ؛ لأن اللهَ تعالى عطفَ هذه الآيةَ على الآيةِ التي ذكرَ فيها الاستجابةَ للهِ تعالى وإقام الصَّلاة.

وتكلَّمُوا في معنى ذلك، قالَ بعضُهم: أرادَ به الانتصارَ مِمَّن فارَقَهم في دِينهم، فأما مِن المسلمين فالانتصارُ مباحٌ، كما قال ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾(١) والعفوُ أفضل، كما قالَ تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾(٣).

وقال بعضُهم: إذا كان العفوُ يؤدِّي إلى الإخلال بشيءٍ من حُقوق الله مثل العفوِ عن الفاسقِ الذي لا يرتدعُ، والعفوِ عن الباغِي الذي لا يكون مُصِرّاً على قصدهِ، فالانتصارُ أولى من العفو، وإذا كان العفوُ لا يؤدِّي الى إسقاطِ شيءٍ من حُقوق الله تعالى فالعفوُ أفضلُ كما قالَ تعالى في آيةِ القصاص ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾(٤). وفي بعضِ التَّفاسير: إنما جُعِلَ الانتصارُ في أوَّل هذه الآياتِ أفضلَ لأنَّهم كانوا يَكرَهُونَ أن يُذلِّلُوا أنفُسَهم فيَجْتَرِئُ عليهم الفُسَّاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ؛ فيه بيانُ أنه لا تجوزُ الزيادةُ على السَّيئة الأُولى، وإنما سُميت الثانيةُ سيئة لأنَّها في مقابَلة الأُولى، والأُولى سيِّئة لفظاً ومعنىً، والثانيةُ سيئةٌ لفظاً لا معنى، وسُميت بهذا الاسمِ لأن مُجازاةَ السُّوء لا تكون إلاَّ بمثلهِ، قال مقاتلُ: (مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ فِي الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحَاتِ وَالدِّمَاءِ)(٥).

---

(١) الشورى / ٤١. (٢) البقرة / ٢٣٧ . (٣) الشورى / ٤٠.
(٤) المائدة / ٤٥ . (٥) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن عفَى عمَّن ظلمَهُ وأصلحَ بالعفو بينه وبين ظالِمه فأجرهُ على اللهِ تعالى، وقولـهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يعني مَن يبدأ بالظُّلمَ. وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى إنما نَدَبَ المظلومَ إلى العفوِ لا لِمَيلهِ إلى الظالِمِ أو لِحُبهِ إياهُ، ولكن ليُعَرِّضَ المظلومَ لجزيلِ الثَّواب بالعفوِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ ؛ أي بعدَ ظُلمِ الظالِمِ إيَّاهُ، فالمصدرُ ها هنا مضافٌ إلى المفعول، كقولهِ: ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[1] و﴿سُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾[2]، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ؛ يعني الذين يَبدَأونَ بالظُّلمِ، ﴿ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي يعمَلون بالمعاصي، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ ؛ يعني من صبَر ولم ينتصِرْ وغفرَ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الصبرُ والتَّجاوُز، ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (مِنَ الأُمُور الَّتِي أمَرَ اللهُ بهَا)[3]، وَالْمُرَادُ بذلِكَ إذا كَانَ الْجَانِي نَادِماً مُقْلِعاً. وَالْعَزْمُ على الشيءِ هو أن يَعْقِدَ قَلْبَهُ على أنَّهُ سيفعَلهُ، وكلُّها كانت رغبةَ الصابرِ في الثواب أكثرَ كان عزمهُ على التجاوُز أتمَّ لتيَقُّنهِ بالخلَفِ والثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي مَن يخذلْهُ الله بعنادهِ وجُحودهِ، ويُضِلَّهُ عن الهدَى، ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ أي ما لَهُ من أحدٍ يَلِي هِدَايتَهُ بعدَ إضلالِ اللهِ إيَّاهُ. وَقِيلَ: معناهُ: مَن يُهلِكْهُ اللهُ ويُضَيِّعْهُ فما لَهُ من ولِيٍّ يَلِي أمرَهُ ويدفعُ عنه العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ؛ أي ترَى المشركين يا مُحمَّدُ، ﴿ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ في الآخرةِ يسألُون الرجعةَ إلى الدُّنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

---

(١) فصلت / ٤٩. (٢) ص~/ ٢٥.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي على النار قبلَ أن يدخلُوها، ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ؛ أي أذِلاَّءَ من الهوَان، وَقِيْلَ: سَاكِنِين مُتواضِعين، ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ؛ أي يَنظُرون إلى النار سَارقَةِ[1] الأعيُن نظرَ الخائفِ؛ أي مَن يخافهُ فزَعاً منه. وَقِيْلَ: معنى (خَاشِعِينَ) مُطرِقِينَ من الْخَجَلِ والوَجَلِ، والطَّرْفُ هو العينُ.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قال: (يَنْظُرُونَ بقُلُوبهِمْ نَظَرَ الأَعْمَى، إذا سَمِعَ حِسّاً وَقَفَ مُسْتَمِعاً خَائِفاً مِنْهُ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾[2]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي عرَفَ المؤمنون خُسرانَ الكفَّار في ذلك اليوم فقالوا: (إنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ) بأن صَارُوا إلى النار، وأهلِيهم في الجنَّة بأنْ صَارُوا لغَيرهم. وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي دائم لا ينقطعُ، ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾ ؛ أي أجيبُوا دَاعِيَ ربكم، يعني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لا يقدرُ أحدٌ على دفعهِ وهو يومُ القيامةِ، ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ ؛ تلجَأُون إليه، ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يُنكِرُ العذابَ ويدفعهُ عنكم، وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَقدِرُونَ أن تُنكِرُوا ما توقَفُون عليه مِن ذنوبكم وما ينْزلُ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ ؛ فإنْ أعرَضُوا عن إجَابَتِكَ يا مُحَمَّدُ فما أرسَلناكَ عليهم حَفيظاً تحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ؛ عن اللهِ.

(١) في المخطوط: (صادقة).

(٢) الاسراء / ٩٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ﴾ ؛ أي غِنًى وصحَّةً، ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ ؛ يعني الكافرُ، ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ ﴾ ؛ أي قَحْطٌ، ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ ؛ من الكُفرِ، ﴿ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ (٤٨) ﴾ ؛ لِمَا تقدَّمَ من نِعَمِ اللهِ عليه ويجحَدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ؛ أي له التصرُّفُ فيهما بما يريدُ[1]، ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ﴾ ؛ مثلَ ما وَهَبَ للُوطٍ عليه السلام، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) ﴾ ؛ مثلَ ما وهبَ لإبراهيم عليه السلام لم يكُن له ولدٌ أنثى، ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ ﴾ ؛ أي يَجمَعُ لِمَن يشاءُ البنينَ والبناتِ، كما وهبَ لنبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ فإنه كانَ له ثلاثةُ بَنين وأربعُ بناتٍ، ﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ ؛ لا يولَدُ له مثلَ يحيَى وعيسَى عليه السلام، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ ﴾ ؛ بعواقبِ الأمُور وَأواخرِها وأوائلِها، وفواتِحها وخواتِمها، وظواهرِها وبواطنِها، ﴿ قَدِيرٞ (٥٠) ﴾ ؛ على كلِّ شيءٍ، لا يلحقهُ عَجزٌ ولا يعتريهِ منعٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ ﴾ ؛ أي ما كان لآدميٍّ أن يُكلِّمَهُ اللهُ مواجهةً بغيرِ حجابٍ، إلاَّ أن يوحِي أن يقذفَ في قلبِهِ ويُلهِمَ إما في المنامِ أو بالإلهام[2]، كما أخبرَ اللهُ في قصَّة إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[3].

وقولهُ تعالى: (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) كما كلَّمَ موسَى عليه السلام، كان يسمعُ كلامَهُ من حيث لا يراهُ، أو يُرسِلَ من الملائكةِ جبريلَ أو غيرَهُ فيُوحِي ذلك الرسولُ إلى الْمُرسَلِ إليه بإذن اللهِ ما يشاءُ اللهُ.

قال الزجَّاجُ:(الْمَعْنَى: أنَّ كَلاَمَ اللهِ لِلْبَشَرِ إمَّا أنْ يَكُونَ بإلْهَامٍ أوْ يُكَلِّمَهُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى، أوْ برِسَالَةِ مَلَكٍ إلَيْهِمْ)[4]. فمَن قرأ (أوْ يُرْسِلَ) بنصب

---

(١) قاله البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٣.

(٢) في المخطوط: (يقذف في قلبه ويلهم إما في المنام أو في الآخرة) والعبارة غير مستقيمة.

(٣) الصافات / ١٠٢ .

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٠٦.

اللام فمعناهُ: أو أنْ يُرسِلَ رسُولاً من الملائكةِ، كما أرسلَ جبريلَ الطَّيْلا، وتقديرهُ: وما كان لبشرٍ أن يُكلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أن يُوحِي إليه أو يُكلِّمه من وراءِ حجابٍ أو يرسِلَ رسُولاً. ومَن قرأ بالرفعِ أرادَ: وهو يُرسِلُ فهو ابتداءٌ واستئناف، والوقفُ كافٍ على ما قبله.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي هو أعلَى مِن أن يدركَهُ الخلقُ بالأبصار الفانية بلا حجابٍ، الحكيمُ فيما يأمرُ وينهَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ؛ أي كما أوْحَينَا إلى الرُّسُلِ من قبلِكَ أوحَينا إليك جبريلَ بالقُرآن الذي ((فيه))(١) حياةُ القلوب من الجهلِ. ومِن هذا سُمِّي القرآنُ رُوحاً؛ لأنه سببُ حياةِ الدِّين، كما أنَّ الروحَ سببُ حياةِ الجسد. وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (رُوحاً) يَعْنِي الْوَحْيَ)(٢) وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ لأَنَّـهُ يُهْتَدَى بهِ، فَفِيهِ حَيَاةٌ مِنْ مَوْتِ الْكُفْرِ. وقوله (مِنْ أمْرِنَا)، وَقِيْلَ: إنَّ الروحَ ها هنا جبريلُ.

وقولهُ: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ ؛ أي ما كنتَ تدري قبلَ الوحيِ ما الكتابُ ولا ما الإيمانُ؛ قيل: لأنه كان لا يعرفُ القرآنَ قبلَ الوحيِ، ولا كان يعرفُ بشرائعِ الإيمان ومعالِمه، وهي كلُّها إيمانٌ، وهذا اختيارُ الإمامِ محمَّد بن جرير، واحتجَّ بقولهِ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ﴾(٣) يعني الصَّلاةَ سَمَّاها إيْماناً. وَقِيْلَ: معناهُ: ما كُنتَ تدري ما الإيمانُ قبلَ البلوغِ، يعني حين كان طِفْلاً في الْمَهْدِ. وقال الحسينُ بن الفضلِ: (هَذا مِنْ بَاب حَذْفِ الْمُضَافِ؛ مَعْنَاهُ: ((أيْ مَا كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتَابُ))(٤) ولا أهْلَ الإيْمَان ((أيْ))(٥) مَن الَّذِي يُؤْمِنُ وَمَن الَّذِي لاَ يُؤْمِنُ)، وَفِي الْجُمْلَةِ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْكُفْرِ قَطُّ، وَإنَّهُ كَانَ عَلَى فِطْرَةِ الإسْلاَمِ حِينَ وُلِدَ،

---

(١) (فيه) سقطت من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٣.

(٣) البقرة / ١٤٣ .

(٤) (أيْ مَا كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتَابُ) سقطت من المخطوط، وأجرينا ضبط العبارة من كلام الحسين ابن الفضل، كما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٥٩.

(٥) (أي) سقطت من المخطوط.

وَكَذلِكَ جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْوَحْيِ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْبُدُ اللهَ قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى دِينِ إبْرَاهِيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾ ؛ يعني الوحيَ ودليلاً على الإيمان والتوحيد، ﴿ نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ؛ إلى دينِ الحقِّ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي لتَدعُو الخلقَ كلَّهم بوَحينا إليك إلى طريقٍ قائم يرضاهُ اللهُ وهو الإسلامُ. وقولهُ تعالى: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ خُفِضَ على البدل، وقولهُ تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي إليه ترجعُ عواقِبُ الأمور في الآخرةِ.

آخر تفسير سورة (**الشورى**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الزُّخْـرُف

سُورَةُ الزُّخْرُفِ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ ثَلاثَةُ آلافٍ وَأرْبَعُمِائَـةِ حَـرْفٍ، وَثَمَانُمِائَـةٍ وَثَلاَثٌ وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً[2].

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ الزُّخْرُفَ كَانَ مِمَّنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ: يَا عِبَادِي لاَ خَـوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أنْتُمْ تَحْزَنُونَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ][3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾؛ أقسمَ اللهُ بالقرآن، الْمُبين: الـذي أبَانَ طريقَ الهدى من طريق الضَّلالةِ، وأبانَ مـا يحتـاجُ إليـه مـن الشَّـرائعِ، وجـوابُ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي إنَّـا أنزلنـاهُ علـى لُغـةِ العرب ليكون أبلغَ في الحجَّة وأدعى إلى القَبول، كي يَعْقِلَهُ العربُ من غيرِ مترجِمٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي إنَّـهُ مذكورٌ مُثْبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ عندَنا، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[4]، وسُمي اللوحُ أمَّ الكتاب؛ لأنه أصلُ كلِّ كتابٍ، وتُسـمَّى الوالـدةُ: أمّاً؛ لأنَّها أصلُ الولدِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٦١؛ قال القرطبي: (مكيَّةٌ بالإجماع. وقال مقـاتل: إلاَّ قولـه ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾).

(٢) في المخطوط: (وسبع وثمانون آية).

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ﷺ، وذكره الزمخشـري أيضـاً في الكشاف: ج ٤ ص٢٦١.

(٤) البروج / ٢١ ، ٢٢ .

وقولهُ تعالى (لَدَيْنَا) يريدُ الذي عندَنـا نُخبرُ عـن فضيلتهِ ومَنْزلتِه وشرفِهِ أنْ كذبتُم به يا أهلَ مكَّة، فإنه عندَنا شريفٌ رفيع مُحكَمٌ من الباطلِ. ويقالُ: ذُو حِكمَةٍ لا يحتملُ الزيادةَ والنُّقصانَ، والتبديلَ والتغييرَ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (يَقُولُ اللهُ لأَهْـلِ مَكَّـةَ: أَفَنَتْرُكُ عَنْكُمُ الْوَحْيَ صَفْحاً فَلاَ نَأْمُرُكُمْ وَلاَ نَنْهَاكُمْ وَلاَ نُرْسِلُ إلَيْكُمْ رَسُولاً؟ وَهَذا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ الإنْكَارُ؛ أيْ لاَ نَفْعَلُ ذلِكَ).

ومعنى الآيةِ: أفنُمسِكُ عن إنزالِ القرآن ونُهمِلُكم فلا نُعرِّفُكم ما يجبُ عليكم من أجلِ أنّكم أسرفتُم في كُفرِكم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ)، والمعنى: لإنْ كُنتم، والكسرُ في (إنْ) على أنه جزاءٌ استغنى عن جوابهِ بما تَقدَّمَـهُ، كما تقـولُ: أنتَ ظالِمٌ إنْ فعلـتَ كـذا، ومثلـهُ ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُـمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ انْ صَدُّوكُـمْ﴾ بـالفتحِ والكسر، وقد تقدَّمَ.

ومعنى الآيةِ: أفنَضربُ عنكم تَذكُّرنا إيَّاكم الواجبَ ونترُكُكم بلا أمرٍ ولا نـهيٍ مُعرضين عنكم لَئِن أسرفتُم. والصَّفْحُ في اللغة: هو الإعراضُ، يقالُ: صَفَحَ عن دِينـه أي أعرضَ عنه، "صَفَحَ"[1] فلانُ عنّي بوجههِ؛ أي أعرضَ، وهو في صِفات اللهِ بمعنى العَفْوِ، يقالُ: أصْفحَ عـن دينه؛ أي أعـرضَ عنـه. والإضـرابُ والضَّـربُ في الكلامِ كلاهُما بمعنى الإعراضِ والعدُول.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ فيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، وبيانُ أنَّ دَأبَ كلِّ أمـةٍ مع رسولِهم التكذيبُ والاستهزاءِ به، وإنَّ من سُنة اللهِ تعالى إهلاكُ المكذِّبين، فحدِّث أيها الرسولُ قومَكَ كي لا يَسلِكوا طريقَ من قبلهم فينزلُ بهم من العـذاب مـا نـزلَ بمَـن قبلَهم.

(١) (صفَحَ) سقطت من المخطوط.

وقولهُ تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ؛ أي أقوى من قومِك، يعني الأوَّلين الذين هَلَكوا بتكذيبهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ ؛ وسبقَ فيما أنزلنا إليكَ تشبيهُ بتكذيبهم، فعاقبةُ هؤلاء أيضاً الإهلاكُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ معناهُ: ولئن سألتَ قومَكَ مَن خلقَ السَّموات والأرض، ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ ، وهذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم إذ أقَرُّوا بأنَّ الله خلقَ السموات والأرض، ثم عَبَدُوا معه غيرَهُ وأنكَرُوا قدرته على البعثِ، فهُم يُقرُّون بالله ويُشركون به غيرَهُ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(١) وتَمَّ الكلامُ والإخبار عنهم.

ثُم ابتدأ قوله عَزَّ وجَلَّ فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ؛ هذا ابتداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى على معنى: نَعَمْ خلَقَهُنَّ العزيزُ العليم الذي جعلَ لكم الأرضَ مِهَاداً يمكنُكم القرارُ عليها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ؛ أي طُرقاً، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ ؛ في الطريقِ من بلدٍ إلى بلد، وتهتدون بوحدانيَّة اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ ؛ يعني المطرَ بمقدار معلوم يعلمهُ خازنُ المطرِ ليس كما أنزلَ على قوم نوح بغير قَدَر حتى أهلكَهم، بل هو بقَدرٍ يكون مَعاشاً لكم ولأنعامِكم، وقولهُ تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ؛ أي فأحيَينا بذلك المطرِ بَلداً ميتاً بإخراجِ الأشجار والزرعِ، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ ؛ من القبُور يومَ النشور للحساب والجزاء .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ ؛ معناهُ والذي خلقَ الأصنافَ كُلَّها والألوانَ كُلَّها، ويقالُ: الذكورُ والإناث كلَّها، وجعل لكم من الفُلكِ والأنعامِ ما تركبون عليها في البَرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ؛ الكنايةُ تعود إلى لفظ (مَا) أي لتستَوُوا على ظُهور ما تركبون، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ؛

---

(١) يوسف / ١٠٦ .

يعني النعمةَ بتسخيرِ ذلك المركَب في البَرِّ والبحر، قال مقاتلُ والكلبي: (وَهُوَ أنْ تَقُولَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنِي هَـذا وَحَمَلَنِي عَلَيْهِ)[(١)]، ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ؛ المركَبَ وذلَّلَـهُ لنـا، وسـهَّلَ رُكوبَـهُ، ولـولاَ تسـخيرهُ لنـا، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ ؛ أي مُطيقين ضابطين، يريدُ: لا طاقـةَ لنـا بـالإبلِ ولا بـالفلكِ ولا بالبحر، لولاَ أنَّ اللهَ تعالى سخَّرَ لنا ذلك.

قال قتادةُ: (قَدْ عَلَّمَكُمُ اللهُ كَيْفَ تَقُولُونَ إذا رَكِبْتُمْ)[(٢)]. وعن ابـنِ مسـعودٍ أنَّـهُ قالَ: (إذا رَكِبَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ فَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ، رَدِفَهُ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ لَهُ: تَغَـنَّ، فَـإنْ لَمْ يُحْسِنْ قَالَ لَهُ: تَمَنَّ)[(٣)].

وعن رسول الله ﷺ: [أنَّهُ كَانَ إذا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارجاً فِي سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاَثاً سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإنَّـا إلَـى رَبنَـا لَمُنْقَلِبُـونَ، اللَّـهُمَّ إنَّـا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذا الْبرَّ وَالتَّقْوَى، وَالْعَمَلَ بمَـا تَرْضَـى، اللَّـهُمَّ هَـوِّنْ عَلَيْنَـا سَـفَرَنَا وَاطْوِعَنَا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُـوذُ بكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَب، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْـلِ وَالْمَـالِ]. وَإذا رَجَـعَ قَالَ: [آيبُونَ تَائِبُونَ لِرَبنَا حَامِدُونَ][(٤)].

وقولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ؛ فيه بيانُ أنه كما يَذكرُ نعمـةَ اللهِ عليه في الدُّنيا، فعلَيهِ أنْ يذكرَ مصيرَهُ إلى الآخرةِ. وينبغِي للعاقلِ إذا ركِبَ دابَّـةً أو سفينةً أن يتذكَّرَ آخرَ مركَبِهِ وهي الجنازةُ، وإذا لَبسَ أن يتذكَّرَ آخرَ مَلبَسهِ وهو الكفَنُ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٧٩١).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم(٢٤٩٩٥). وعزاه الديلمي عن ابن عباس. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٣١: كتاب الأذكار: باب ما يقـول إذا ركـب دابتـه؛ قـال الهيثمـي: (رواه الطبراني — عن ابن مسعود — موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح).

(٤) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب ما يقـول إذا ركـب إلى سـفر حـج وغـيره: الحديـث (١٣٤٢/٤٢٥).

وإذا اغتسلَ أن يتذكَّرَ آخرَ عهدهِ بالغُسلِ، وإذا نامَ أن يذكُرَ الحالَ التي يوضَعُ فيها على جَنبهِ في اللَّحدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ ؛ أي جَعل الكفـارُ للهِ تعـالى من عبادهِ جُزءاً؛ لأنَّهم قالوا: الملائكةُ بنات اللهِ، فوصَفُوا عبادَ اللهِ بأنَّهم جزءٌ من اللهِ، وقد تقدَّمَ أن الذين قالوا هذا القولَ حـيٌّ مـن خزاعـةَ، ومعنـى الجعـلِ هـهنا الحكـمُ بالشيءِ، والوصفُ والتسمية كما جعلَ فلانٌ زيداً مِن أعلمِ الناس؛ أي وصفَهُ بذلك، ويقالُ: إن الْجُزْءَ في كلامِ العرب عبارةٌ عن الأنثى كما قال الشاعر[1]:

إنْ أجْـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَوْمـاً فَـلاَ عَجَـبٌ ... قَـدْ تُجْـزِئُ الْحُـرَّةُ الْمِذْكَـارُ أحْيَانَـا

أرادَ بـ (أجْزَأتْ): ولَـدَت أنثـى. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالإنسانِ الكافرَ، وقولهُ تعالى (لَكَفُورٌ مُبينٌ) أي لَجَحُودٌ لنِعَمِ اللهِ، (مُبينٌ) ظاهرُ الكُفرَانِ.

ثُم أنكـرَ عليـهم هـذا فقـالَ تعـالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ هذا استفهامُ توبيخٍ وإنكار، يقولوا: أتَّخَـذ ربُّكـم لنفسـهِ البنـات وأصفاكم بالبنينِ وأخلَصَكم بهم. والمعنى: كيف اختارَ لنفسـهِ أهـونَ قِسْمَي الولـدِ، واختارَ لكم أعلَـى القِسمَين، والحكمـةُ لا توجـبُ أن يختـارَ الحكيـمُ الأدونَ لنفسـهِ والأعلَى لغيرهِ.

ثم وصفَ كراهتَهم بالبنات، فقالَ قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ ؛ أي وإذا أُخـبر أحدُهـم بمـا وصـفَ للرحمنِ من إضافةِ البنت إليه صار وجهـهُ مُسْـوَدّاً متغـيِّراً يُعـرَفُ فيـه الحـزنُ. وقَوْلُـهُ تَعالَى: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي يتردَّدُ حُزنهُ في جَوفهِ. وقـد تقـدم تفسـيرُهُ في سورة النحلِ.

---

(١) نقلـه الزجـاج في معـاني القـرآن وإعرابـه: ج ٤ ص٣٠٩؛ وقـال: (لا أدري البيـت قديـم أو مصنـوع). وفي الكشـاف: ج ٤ ص٢٣٤؛ قـال الزمخشـري: (ومـن بـدَعِ التفاسـير تفسـير الجـزءِ بالإناث، وادِّعاء أن كلمةَ الجزء في لغةِ العرب هو اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ علـى العـربِ، ووضع مستحدَث منحولٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ ؛ زيادةٌ في الإنكار عليهم والْمَذمَّةِ لَهم، كأنَّهُ قالَ: أوَيختارُ لنفسهِ مع استغنائهِ عن الخلقِ كلِّهم (مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ) أي مَن رُبيَ في حلية الذهب والفضَّة، ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ ، وهو في الكلامِ غيرُ ثابتِ الحجَّة.

قال المبرِّدُ: (تَقْدِيرُ الآيَةِ: أوَتَجْعَلُونَ لَهُ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ، يَعْنِي الْبِنْتَ نَبَتَتْ)[(١)]. (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)؛ أي وهو عندَ الْمُخاصَمَة غيرُ مُبينِ الحجَّة، قال قتادةُ: (قَلَّ مَا تَكَلَّمَتِ امْرَأةٌ بِحُجَّتِهَا إلاَّ تَكَلَّمَتْ بِحُجَّتِهَا عَلَيْهَا)[(٢)] لِضَعْفِ رَأيِهَا وَنُقْصَانِ عَقْلِهَا[(٣)].

ويستدَلُّ من هذه الآيةِ على ثُبوتِ الترخُّصِ للنساءِ في التزيُّن بِحِلية الذهب والفضَّة، كما قالَ ﷺ وَقَدْ أخَذَ الذهَبَ بإحْدَى يَدَيْهِ، وَالْحَرِيرَ بالأُخْرَى وَقَالَ:[هَذانِ مُحَرَّمَانِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لإنَاثِهِمْ][(٤)].

---

(١) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص١٨٧؛ قال: (يعني ينبت في الزينة، يعني الحلي مع النساء، يعني البنات).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٠٨). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر) وذكره.

(٣) لا يبدو لي المعنى على هذا الإطلاق، فإن حديث [نَاقِصَات عَقْلٍ وَدِينٍ] مبيَّن معناه كما في نصه، وهو متعلق التوقيف في الطهارة للعبادة والشهادة في الحدود والجراحات، وليس كما ذهب البعض من العلماء.

ثم إن الأمر بالنسبة للمرأة هو كذلك بالنسبة للرجل بالوصف الإنساني، ولولا الخبرات المتأتية من ممارسة الحياة وأسباب القوة فيه للمرأة غير ما هي للرجل، ثم ما عيَّن الشرع لها وأناط بها وعرف بحقها. ويمكن أن يكون الأمر على أحوال معينة، وهي أكثر عموماً من تحديد النقص بالمرأة وحصرها بها فقط.

مثال ذلك ما حكاه المبرِّد قال: (يقال: لا ينبغي لعاقل أن يشاور واحداً من خمسة: القطَّان، والغزَّال، والمعلِّم، وراعي الضأن، ولا الرجل الكثير المحادثة للنساء) فالقضية ليست على عمومها، وهي مختلفة بحسب تنامي الرأي العام في المجتمع حسب الزمان والمكان. والله أعلم.
ينظر: الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد: ج ٢ ص١٥٥، دار الفكر العربي.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث(١٠٨٨٩) وإسناده ضعيف، و(١١٣٣٣) كلاهما=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ ؛ معناهُ: ووَصَفُوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمنِ أنّهم بناتُ اللهِ، وقرئ (عَبْدُ الرَّحْمَـنِ) وكلٌّ صوابٌ، وقد جاءَ القرآنُ بالأمرين معاً، وذلك قولهُ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[١] وقولهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[٢]، وفي قولهِ تعالى (عَبْدُ الرَّحْمَنِ) دلالةٌ على رفعِ المنْزلة والقُربَةِ من الكرامةِ[٣].

وقولهُ تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ ؛ معناهُ: أحَضرُوا عندَ خَلقِهم فعَلمُوا ذلك، والشهادةُ ها هنا من الحضور، ووبَّخهم اللهُ على ما قالوا ما لَمْ يُشاهِدُوهُ. وقرأ نافعُ: (أشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) بهمزة الاستفهامِ وتخفيفِ الهمزةِ الثانيةِ على معنى أحَضَرُوا وعَايَنُوا خَلقَهُم حتى عَلِموا أنّهم أناثٌ، وهكذا كقوله ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[٤] .

قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ: أحَضَرُوا وَعَايَنُوا خَلْقَهُمْ؟)، قال الكلبيُّ: (لَمَّا قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: [مَا يُدْرِيكُمْ أنَّهُمْ إنَاثٌ ؟] قَالُوا: سَمِعْنَا مِنْ آبَائِنَا وَنَحْنُ نَشْهَدُ أنَّهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا أنَّهُمْ إنَاثٌ)[٥] فقالَ اللهُ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ؛ عنها في الآخرةِ.

=عن ابن عباس إسناده ضعيف. وفي الأوسط: الحديث (٣٦٢٩) عن عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٩٦ و١١٥. وابن ماجة في السنن: كتاب اللباس: باب لبس الحرير: الحديث (٣٥٩٥). وابن حبان في الإحسان: الحديث (٥٤٣٥) عن علي ﷺ، بإسناد حسن إن شاء الله.

(١) الأنبياء / ٢٦.

(٢) الأعراف / ٢٠٦ .

(٣) تفصيل لهذه القراءات، ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٦٩. والحجة للقراء السبعة: ج٣ ص٣٧٠، والخلاف الحاصل لما روي من حوار بين ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه).

(٤) الصافات / ١٥٠ .

(٥) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٨٧. وفي معالم التنزيل: ص١١٦١؛ قال البغوي: (قال الكلبي ومقاتل) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ ؛ يعني بني مَلِيح من خُزاعة، كانوا يعبُدون الملائكةَ، (وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمَنُ ما عَبَدْناهُمْ) أي ما عبَدُوا الملائكةَ، وإنما عبَدناهم بمشيئةِ الله تعالى. وإنما كانوا يقُولون هذا القولَ إبلاغاً لعُذرهم عند سَفلَتِهم، يقول اللهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ؛ بقولِهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله وإنَّهم كَذبُوا في ذلك، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ ؛ أي ما هُم إلا يكذبون فيما قالوا، ولم يتعرَّضْ لقولِهم (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) بشيءٍ؛ لأن هذا القولَ حقٌّ، وإنْ كان من الكفار، وهذا كقولِه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] أي ولو جعلتَ قولَهُ (مَا لَهُمْ بذلِكَ مِنْ عِلْمٍ) ردّاً لقولِهم (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) كان المعنى: أنَّهم قالوا: إنَّ الله قدَّرَنا على عبادتِهم فلم يُعاقِبْنا لأنه رَضِيَ ذلك، وهذا كذبٌ منهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإنْ قدَّرَ كُفرَ الكافرِ لا يرضاهُ، وتقديرُ الكفرِ من الكافرِ لا يكون رضًى من اللهِ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ ؛ أي هل أعطيناهم كِتاباً من قبلِ القرآن بأن يعبُدوا غيرَ اللهِ، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ ؛ أي آخِذُون بما فيه. ثم أعلمَ اللهُ أنَّهم اتَّبعُوا آباءَهم في الضَّلالةِ فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ ؛ أي على سُنَّةٍ وملَّةٍ ودينٍ.

ومَن قرأ (عَلَى إمَّةٍ) بكسر الهمزةِ فمعناهُ: على طريقةٍ؛ أي ليس لَهم حُجَّةٌ إلاَّ هذا القول، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ ؛ أي ليس لهم حُجَّة إلاَّ تقليدُ آبائِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي مُلوكُها وأغنياؤُها ورؤساؤها: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ ؛ بهم.

فقالَ اللهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ ؛ معناهُ: أتتَّبعون دينَ آبائكم وتكفُرون مِثلَهم، ولو جئتُكم بأرشدِ

---

(١) النحل / ٣٥.

مما وجدتُم عليه آباءَكم، فأبوا أنْ يقبلُوا ذلك؛ و﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثُم ذكَرَ ما فعَلَ بالأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ تخويفاً لَهم فقالَ تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ يعني ما صَنَعَ بقومِ نوحٍ وعاد وثمود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ معناه واذكُر يا مُحَمَّدُ إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقومهِ حين خرجَ من السِّرب وهو ابنُ سبعَ عشرة سنةً، رأى أباهُ وقومَهُ يعبدون الأصنامَ، فقالَ لَهم: إنِّي بَرَاءٌ مما تعبُدون من دونِ الله تعالى، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، إلاَّ مِن الذي خلقَني فإنه سيحفَظُني ويُرشِدُني لدينهِ وطاعته.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ ؛ أي وجعلَ براءتَهُ عن عبادةِ غير الله وهي كلمةُ التوحيد: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ باقيةً في عَقِبهِ لكي يرجِعُوا إلى التوحيدِ، ويدعُوا الخلقَ إليهِ، فلا يزالُ في ولَدهِ مَن يوحِّدُ اللهَ تعالى. ومعنى الآيةِ: وجعلَها كلمةً باقيةً في ذريَّة إبراهيم ونسلهِ، فلا يزالُ في ذُريَّته مَن يعبدُ اللهَ ويوحِّدهُ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لعلَّ أهلَ مكَّة يتَّبعون هذا الدِّينَ ويرجعون إلى دِينِكَ دينِ إبراهيمَ، إذ كانوا مِن ولَدهِ. وقال السديُّ: (لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى)[١].

ثُم ذكَرَ نِعمَتهُ على قريشٍ فقالَ: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ ؛ يعني المشركين متَّعْتُهم بأموالِهم وأنفسِهم وأنواعِ النِّعَم، ولم أعاجِلْهُم بعقوبةِ كُفرهم، بل أمهَلتُهم زيادةً في الْحُجَّةِ وقطعاً للمعذرة، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي القرآنُ، ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ للحُجَجِ وهو النبيُّ ﷺ بيَّنَ لهم الأحكامَ والدينَ.

وكان من حقِّ الإنعَام أن يُطيعوا الرسولَ بإجابتهِ، فلم يُجيبوه وعَصَوا، وهو قولُهُ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لما جاءَهم الرسولُ والقرآن، نَسَبوا القرآنَ إلى السِّحر وجحَدُوا بهِ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٧.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ ؛ أي قال كفَّارُ مكَّة: هلاَّ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين مكَّة والطائف، وعَنَوا بالرَّجُلين إما الوليدَ بنَ المغيرةِ من مكَّة، وإما أبا مسعودٍ الثقفيَّ من الطائفِ[1]، ظنُّوا بجهلِهم أنَّ استحقاقَ النبوَّة إنما يكون بشرَفِ الدُّنيا مع اعترافِهم بأنَّ النبيَّ ﷺ مِن أرفعِهم نَسباً.

فقالَ اللهُ تعالى ردّاً عليهم وإنكاراً لِمَا قالوا: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؛ يعني النبوَّةَ التي هي مِن أعظمِ النِّعَم، وذلك أنَّهم اعترَضُوا على اللهِ بقولِهم: لِمَ لَمْ ينْزِل هذا القرآنُ على غيرِ مُحَمَّدٍ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنه الذي يقسِمُ النبوَّةَ لا غيرهُ.

قال مقاتلُ: (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أبأيْدِيهِمْ مَفَاتِيحُ الرِّسَالَةِ فَيَضَعُونَهَا حَيْثُ شَاؤُا). فبيَّن اللهُ تعالى أنه لَمْ يجعَلْ أمرَ معايشِهم مع قلَّةِ خطرِ ذلك إلى رأيهم، بل رفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ في الرِّزق، وتلقاه شذ على ما تُوجبهُ الحكمةُ[2]، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ ؛ أي قسَمنا الرزقَ في المعيشةِ، وليس لأحدٍ أن يتحكَّمَ في شيءٍ من ذلك، فكيف نجعلُ أمرَ النبوَّة مع عِظَم قَدرهِ ورفعةِ شأنه إلى رأيهم، قال قتادةُ في معنى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ): (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعِيفَ الْحِيلَةِ عَيَّ اللِّسَانِ وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي الرِّزْقِ، وَتَلْقَاهُ شَدِيدَ الْحِيلَةِ بَسِطَ اللِّسَانِ وَهُوَ مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ)[3].

وقولهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ ؛ يعني الفضلَ في الغنى والمال ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ؛ أي ليستخدِمَ بعضُهم بعضاً،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٣٧) عن ابن عباس، قال: (يعني الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي).

(٢) المعنى كما جاء في حديث قتادة، قال: (قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتلقاهُ ضعيف الحيلة، عيَّ اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاهُ شديد الحيلة، سليط اللسان، وهو مقتور عليه). أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٤).

فيُسخِّر الأغنياءُ بأموالهم الفقراءَ لِيلتئِمَ قِوَامُ أمرِ العالَم، وقال قتادةُ: (لِيَمْلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَيَتَّخِذُونَهُمْ عَبيداً وَمَمَالِيكَ)(١). والسُّخْرِيُّ بالكسرِ مِن الاستهزاءِ، وبالضَّم من التسخيرِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي وما خصَّكَ اللهُ به من النبوَّةِ خيرٌ لكَ مما يجمَعُون من المالِ. وقِيْلَ: معناهُ: ورحمةُ ربكَ يعني الجنَّةَ للمؤمنين خيرٌ مما يجمَعُ الكفَّارُ من الأموالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ معناهُ: ولولاَ أن تَميلَ بالناسِ الدُّنيا فيصيرَ الخلقُ كلُّهم كُفَّاراً لأعطى اللهُ الكافرَ في الدُّنيا غايةَ ما يتمنَّى فيها لِهَوانِهَا وقلَّتِها عندَ الله تعالى، ولكنَّهُ لم يفعَلْ ذلك لعلمهِ بأن الغالبَ على الخلقِ حبُّ العاجلةِ.

وقوله (سَقْفاً) من قرأهُ بالوحدان فهو على معنى جعلنا لكلِّ بيتٍ سَقْفاً من فضَّة. ومن قرأ (سُقُفاً) بضمَّتين فهو جمعُ سَقْفٍ، مثلُ رَهْنٍ ورُهُنٍ(٢). ومَن قرأهُ (سُقْفاً) بضمِّ السين وجزمِ القاف فعلى تخفيفِ سِقْفٌ مثل رهْنٌ(٣). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) يعني الدَّرَجَ عليها يرتَفِعون ويَعلُون، واحدُها مَعْرِجٌ، ويقالُ مِعْرَاجٌ ومَعَاريجُ وَمَعَارِجُ، مثل مَفَاتيح ومَفَاتِح في جمعِ مِفتاحٍ، والمعنى: وكذلك جعلنا لَهم معارجَ من فضَّة عليها يصعَدُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ أي ولبُيوتِهم أبوَاباً من فضَّة وسُرُراً من فضَّة، على سُرُر الفضَّة يجلِسُون ويتَّكِئُون، وقولهُ تعالى: ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾؛ الزُّخرُفُ هو الذهَبُ، كأنَّهُ قال: وجعَلنا أمتِعَتَهم من الذهب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٤٨).

(٢) في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٥ ص٨٩؛ قال الطبري: (وعامة قراءة الكوفة ﴿سُقُفاً﴾ بضم السين والقاف، ووجهوها إلى أنها جمع سقيفة أو سقوف. وإذا وجهت إلى أنها جمع سقوف كانت جمع الجمع؛ لأن السقوف جمع سقف، ثم تجمع السقوف سُقُفاً). ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٢.

(٣) في المخطوط: (زهر). ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٧٥.

هكذا في التفاسيرِ أنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ الذهبَ، إلاَّ أنَّهُ في اللغةِ الزُّخرف: كَمَالُ الزِّينةِ[١]، كما قالَ تعالى ﴿حَتَّى إذا أخذتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[٢]، ويجوزُ أن يكون قولهُ (وَزُخْرُفاً) عَطفاً على قولهِ (مِنْ فِضَّةٍ) كأنَّهُ قالَ: مِن فضَّةٍ وزُخرُفاً، إلاَّ أنه لَمَّا قالَ حذفَ (مِنْ) جعل نصباً[٣]، وهذا إنما يكون على قول الكوفِيِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ مَن قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ فالمعنى: ما كلُّ ذلك إلاَّ متاعُ الحياةِ الدُّنيا، ومَن قرأ بالتخفيفِ فـ (مَا) صلةٌ زائدة، والمعنى: وإنْ كلٌّ لَمَا متاعُ الحياة الدنيا، يُتَمَتَّعُ به إلى حين ثُم يفنَى، وَ ثوابُ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ ؛ الكفرَ والفواحشَ، والذي قرأ (لَمَّا) بالتشديدِ حمزةُ جعلَهُ في معنى إلاَّ، وحُكي عن سيبويهِ: نشَدتُكَ لَمَّا فعلتَ، بمعنى إلاَّ فعلتَ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَوْلاَ أنْ يَجْزَعَ عَبْدِي الْمُؤْمِن لَعَصَبْتُ الْكَافِرَ بعَصَابَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَلَصَبَّبْتُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ صَبّاً][٤]. قال[٥]: ومصداقُ ذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْلاَ أنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ).

---

(١) نقله الزجاج عن زيد بن أسلم، كما في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٣.

(٢) يونس / ٢٤ .

(٣) العبارة هكذا رسمت في المخطوط، وفي معاني القرآن: ج ٣ ص٣٢؛ قال الفراء: (وجاء في التفسير: نجعلها لهم من فضة ومن زخرف، فإذا ألقيتَ (من) الزخرف، نصبتَهُ على الفعل توقعه عليه، أي وزخرفاً، تجعل ذلك لهم منه).

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ...) وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ٦ ص٨٨؛ قال القرطبي: (وقال كعب: إني أجد في كتب الله المنزلة: (لولا أن يحزن عبدي المؤمن لكلَّلتُ رأس عبدي الكافر بالإكليل لا يتصدع منه عرق بوجع).

(٥) القائل ابن عباس رضي الله عنهما؛ كما في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٧٦؛ قال: (قد أنزل الله شبه ذلك في كتابه).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾ ؛ أي مَن يُعرِضُ عن ذكرِ الرَّحمنِ نُسَبِّبْ له شيطاناً يُضِلُّهُ، يجعلُ ذلك جزاؤه، ﴿ فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ لا يفارقهُ في الدُّنيا والآخرةِ، يقالُ: عَشِيَ إلى النار بالَّليل إذا تنوَّرَها فقصَدَها، وعَشِيَ عنها إذا أعرضَ عنها قاصداً لغيرها، ونظيرُ هذا مالَ إليه ومالَ عنهُ، قال الشاعرُ[١]:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوْقِدِ

ومَن قرأ (يَعْشَ) بفتح الشينِ وهو من عَشَى يَعشَى إذا لم يُبصِرْ بالليلِ، والمعنى: ومَن يَعْمَ عن ذكرِ الرَّحمنِ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ إلَى أبَاطِيلِ الْمُضِلِّينَ، نُعَاقِبْهُ بشَيْطَانٍ نُقَيِّضُهُ لَهُ حَتَّى يُضِلَّهُ وَيُلاَزِمَهُ قَريناً لَهُ فَلاَ يَهْتَدِي، مُجَازَاةً لَهُ حِينَ آثَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبين)[٢].

وقوله تعالى: (فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) أي صاحبٌ يُزَيِّنُ له العَمَى، ويُخَيِّلُ إليه أنَّهُ على الْهُدَى وهو على الضَّلالة، وذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ الشياطين ليمنعونهم عن سبيلِ الهدى، ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ ؛ الكفارُ، ﴿ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ ؛ يعني الكافرَ إذا جاءَ يومَ القيامةِ ﴿ قَالَ ﴾ ، لقَرينهِ وهو الشيطانُ الذي يُجعَلُ معه في سِلسلةٍ واحدةٍ: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ ؛ المشرقُ والمغربُ إذ كُنَّا في الدُّنيا فلم أرَكَ ولم ترَنِي، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ كُنتَ لِي.

وإنما سُمِّيَ المشرقُ والمغربُ باسمِ الواحد للازدواجِ، كما يقالُ للشَّمسِ والقمر: القَمَرَانِ، وفي تثنيةِ أبي بكرٍ وعمرَ: العُمَرَينِ، قال الشاعرُ[٣]:

---

(١) الحطيئة يمدح بُغيض بن عامر التميمي.

(٢) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ولعلَّ المصنِّفَ نقلَهُ سَماعاً.

(٣) الفرزدق من قصيدة له يفتخر بآبائه ويهجو جريراً. من شواهد الزجاج في معاني القرآن=

أخذْنَـــا بآفَـــاقِ السَّـــماءِ عَلَيْكُـــمُ لَنَـــا قَمَرَاهَـــا وَالنُّجُـــومُ الطَّوَالِـــعُ

وقُرِئ: (حَتَّى إذا جَاءَنَا) يعني الكافرَ وشيطانهُ يُبعثـان يـومَ القيامـةِ في سلسـلةٍ واحدة، كما رُوي أنَّ الكافرَ إذا بُعث يومَ القيامةِ مِن قبرِهِ أخذ بيدِهِ شَيطانهُ فلم يُفارِقْهُ حتى يُصَيِّرهُما اللهُ إلى النار، فلذلك حيثُ يقولُ: (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْـرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيــنُ)، ويقـولُ اللهُ في ذلـك اليـومِ للكـافرين «و»(١) أنـت أيـها الشـيطان: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ ؛ أي إذا أشركتُم في الدُّنيـا، ﴿ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: لا يُخفَّفُ عنهم الإشراكُ شيئاً من العـذاب، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم الحظَّ الأوفرَ من العذاب، ولا يستأنِسُ بعضُهم ببعضٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ ؛ أي أفـأنت تُسـمِعُ الكفـارَ الذيـن يتصَـامَمُون عـن الحـقِّ ويتعـامَون عنـهُ، ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بَيِّنٍ قد ظهرَتْ ضَلالتهُ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ ؛ أي نُميتُـكَ قبـلَ أن نُريَـكَ النَّقمَـةَ في كفار مكَّـة، ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ بـالقتل بَعـدَكَ، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ﴾ ؛ في حياتِكَ ما، ﴿ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ﴾ ؛ من الذُّلِّ، ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ . بيَّـنَ اللهُ تعالى أنه قادرٌ على عقوبتِهم في حالِ حياة النبيِّ ﷺ وبعدَ وفاتهِ.

والأصلُ في (إمَّا): (إنْ مَا) فحُذف الشرطُ (ان وما) صلةٌ ومتى دخلـت (مَـا) في الشرطِ للتوكيدِ دخلت النونُ الثَّقيلةُ المؤكّدة في الفعلِ المذكور بعدَها.

ومعنى الآية: أنَّ الله تعالى «قال»(٢) مُطَيِّباً لقلب نبيِّهِ ﷺ: إنْ ذهبْنا بكَ انتقَمنَـا لكَ مِمَّنْ كَذبَكَ بعدَكَ أو نُريَنَّكَ في حياتِكَ ما وعدنـاهم مـن العـذاب، فإنَّـا قـادِرُون عليهم متى شِئْنَا عذبنَاهُم ثم أريَ ذلكَ يومَ بدر.

=وإعرابه: ج ٤ ص٣١٤. وقال: (يريد الشمس والقمر، وكما قالوا: سُنَّة العُمَرَين، يرادُ سُنة أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما).

(١) (و) سقطت من المخطوط.

(٢) (قال) ليس في المخطوط، وهو مقتضى السياق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ ؛ أي استَمسِكْ بالقرآن، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ؛ أي القرآنُ شَرَفٌ لكَ ولَهم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ؛ عن شُكرِ هذه النِّعمةِ، يعني ما أعطاهُ اللهُ من الحكمةِ وقومَهُ المؤمنين من الْهُدَى بالقرآن إلى إدراكِ الحقِّ، وقال مجاهدُ: (الْقَوْمُ هَا هُنَا الْعَرَبُ، وَالْقُرْآنُ لَهُمْ شَرَفٌ إذْ نَزَلَ بلُغَتِهِمْ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ؛ وذلك انه لَمَّا أسري بالنبيِّ ﷺ بعثَ اللهُ آدمَ وجميعَ الْمُرسَلِينَ وأذنَ جبريلُ ثم أقامَ، وقالَ: يا مُحَمَّدُ تقَدَّمْ فصلِّ بهم، فلمَّا فرغَ من الصَّلاةِ قَالَ جِبْرِيلُ: سَلْ يا مُحَمَّدُ مَنْ أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ، هَلْ أرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ جوازَ عِبادةِ غيرِ اللهِ ؟ فقَالَ ﷺ: [لاَ أسْأَلُ قَدِ اكْتَفَيْتُ](٢).

وَقِيلَ: معناهُ: اسأل أمَمَ مَن أرسَلنا قبلَكَ، يعني مؤمني أهلِ الكتاب سَلْهُم هل جاءَتْهم الرُّسُلُ إلاَّ بالتوحيدِ، فلم يشُكَّ ولم يسأَلْ، (ومعنى الأمرِ بالسُّؤال لتقريرِ مُشركي قريشٍ أنه لَمْ يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى)(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ؛ أي يَهْزَأونَ ويضحَكُون منها جَهْلاً وغفلةً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ؛ يعني ما نرادفُ عليهم من الطُّوفان والجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّمِ والطَّمْسِ، وكانت كلُّ آيةٍ من هذه الآياتِ أكبرَ مِن التي قبلَها، وهي العذابُ المذكور في قولهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ لأنَّهم عُذِّبوا بهذه الآياتِ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٩.

(٢) في معالم التنزيل: ص١١٦٩؛ قال البغوي:(قال عطاء عن ابن عباس) وذكره، ثم قال: (وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٨٨٨) عن ابن زيد. ونقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج٤ ص٣١٥.

(٣) نقله البغوي العبارة ولم يعزها إلى الطبراني، ينظر: معالم التنزيل: ص١١٦٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (يَا أَيُّهَا الْعَالِمُ، وكَانَ السَّاحِرُ فِيْهِمْ عَظِيماً يُعَظِّمُونَهُ، ولَمْ يَكُنْ ((السِّحْرُ)) صِفَةَ ذمٍّ، وكَانَ عُلَمَاؤُهُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ السَّحَرَةُ، فَكَانُوا يُوَقِّرُونَهُ بهَذا الْقَوْلِ، ولَمْ يُرِيدُوا شَتْمَهُ)[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ؛ أي سَـلْ ربَّـكَ بما عَـهدَ عِندَكَ فيمن آمنَ بكَ ليكشِفَ العذابَ عنَّا، والمعنى: بمَا عَهدَ فيمَنْ آمنَ به مـن كشـفِ العذاب عنه، ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾ ؛ مُؤمنون بك.

فدَعَا مُوسَى ربَّهُ فكشفَ عنهم فلم يُؤمِنُوا، فذلكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ ؛ العهدَ الذي عَاهَدُوا موسَى، معناهُ: إذا هم يَنقُضُونَ عهُودَهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ﴾ ؛ إلى قولـهِ: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَـٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١﴾ ؛ يعنِـي أنْـهارَ النِّيـلِ تجري مِن تَحتِي؛ أي من تحتِ قُصوري وفي بساتيني، وقال الحسنُ:(بـأَمْري)[2] فعلـى هذا معناهُ: من تحتِ أمري، أفلا تُبصِرُونَ عظمَتي وشدَّةَ مُلكِي وفضلِي على موسَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ ؛ أي بل أنـا خـيرٌ مـن هذا الذي هو ضعيفٌ حقير، يعني موسَى؛ وإنمـا وصفَـهُ بـهذا لأنـه كـان يقومُ بـأمر نفسه، ولم يكـن أحـدٌ يقـومُ بـأمرِهِ، ومـن ذلـك المهنَـةُ، وقولـهُ تعـالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ ؛ أي لا يكادُ يُبِينُ الكلامَ، يعني أنه كان بلسانِهِ لَثْغَةٌ من أثرِ العُقدةِ التي كانت، وكان مع ذلك بَليغاً مُبيناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ ؛ معناهُ: قالَ فرعونُ: هـلاَّ أُلقِيَ على موسى أسورَةٌ من ذهبٍ إن كان رَسُولاً كما يُسَوِّرُ الملـوكُ رُسُلَهم تَعظيماً لهم، وكان آلُ فِرعَـون يلبَسُـون الأَسَاوِرَ، والأَسْوِرَةُ جمعُ السِّـوَار، والأَسَاوِرُ جمعُ الأَسْوِرَةِ.

---

(١) ينظر نقولات القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٩٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٧٠.

وقولـه تعـالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ أي مُتَتابعِين يُعِينُونَهُ على أمرِهِ الذي بُعث له، ويشهَدُون له بصِدقهِ. والمعنى: أنَّ فرعون قال: هلاَّ جاءَ معه الملائكةُ متعاونين يَمشُونَ معه فيدُلُّون على صدقهِ بنبوَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ ؛ أي استخفَّ فرعونُ عُقُولَ قومِهِ القبطِ فوجَدَهم خِفَافَ العقول فأطاعوهُ على تكذيب موسى، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ؛ أي خارجين عن أمْرِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ أي فلمَّا أغضبُونا انتقمنا منهم، وجازَيناهم على معاصيهم، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ . والآسَفُ: الْغَضَبُ في هذه الآيةِ، وأصلهُ في اللغة: الْحُزْنُ، إلاَّ أن الحزنَ لا يجوزُ في صفاتِ الله.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ ؛ أي متقدِّمين، وَقِيْلَ: سَلَفاً إلى النار، ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ؛ يُتمثَّلُ بهم في الهلاكِ إلى آخر الدَّهرِ.

وقرأ حمزةُ (سُلُفاً) بالضمِّ في السين واللامِ: جمعُ سَلِيفٍ وهو الماضِي مأخوذٌ من سُلُفٍ بضمِّ اللام يَسْلُفُ؛ أي تقدَّمَ فهو سَلِيفٌ. ومَن قرأ (سُلَفاً) بضمِّ السين وفتحِ اللام فهو جمعُ سُلَفَةٍ وهي الفِرقَةُ التي قد مضَتْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ...﴾ الآيةُ، قَرَأهَا النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: أخَاصٌّ هَذَا أمْ عَامٌّ ؟ فَقَالَ: [عَامٌّ] فَقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: فَإنَّ عِيسَى تَعْبُدُهُ النَّصَارَى، فَهُوَ وَالنَّصَارَى فِي النَّارِ، وَعُزَيْرٌ تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ، وَخُزَاعَةُ تَعْبُدُ الْمَلاَئِكَةَ، فَإنْ كَانَ هَؤُلاَءِ فِي النَّارِ فَآلِهَتُنَا خَيْراً مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً))[1].

---

(١) في معالم التنزيل: ص١١٧٠؛ قال البغوي: (قال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الآية نزلت في مجادلة عبدالله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى). وحكاه مقاتل في التفسير: ج ٣ ص١٩٣-١٩٤. والقصة أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١ ص٣٨٥.

والمعنى: لَمَّا شبَّهوهُ بآلهتهم (إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) يعني قومَهُ الكفارَ كانوا يضُجُّون ضجيجَ المجادَلةِ، حيث خاصَموهُ وقالوا: رضِينَا أن تكون آلهتَنا، وهو قولُهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ ؛ أي ليست آلِهتُنا خيراً من عيسَى، فإنْ كان عيسَى في النار بأنه يُعبَدَ من دونِ الله فآلِهتُنا في النار.

قرئ (يَصِدُّونَ) بكسرِ الصاد وضمِّها، قال الفرَّاءُ والزجَّاجُ والأخفش والكسائيُّ: (هُمَا لُغَتَان، مَعْنَاهُمَا: يَضُجُّونَ)[1]. وَقِيْلَ: يَصُدُّونَ: يُعْرِضُونَ. ومَنَ قرأ بكسرِ الصاد فمعناهُ: يضحَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ ؛ أي ما ذكَروا لكَ وصفَ عيسى إلاَّ ليُجادِلُوكَ به؛ لأنَّهم قد علِمُوا أن المرادَ بحصَبِ جهنَّم ما اتخذوهُ من المواتِ.

ثم ذكرَ أنَّهم أصحابُ خصُومَاتٍ فقالَ: ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي جَدِلُونَ بالباطل، وعن أبي أمامةَ الباهليِّ أنه قالَ: (مَا ضَلَّ قَوْمٌ إلاَّ أُوْتُوا الْجَدَلَ. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ عيسَى عليه السلام عبدٌ مثلُهم فضَّلَهُ بالنبوَّةِ والرسالةِ، والمعنى: أنعَمْنا عليه بالنبوَّة، ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي جَعلنا خلقَهُ بغيرِ الأب آية تدلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتهِ على ما يريدُ.

ثم خاطبَ كفارَ مكَّة فقالَ تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ ﴾ ؛ أي لو نشاءُ أهلَكنَاكُم وجعلنا بَدَلاً منكم ملائكةً، ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ كم يكون خَلَفاً منكم.

---

(١) في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٦-٣٧ ذكرهما الفراء وقال: (العرب تقول يَصِدُّ ويَصُدُّ). وفي معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٧؛ قال الزجاج: (يقرأ يَصِدُّونَ بضمِّ الصاد والكسرُ أكثر). وقاله الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٩٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٩٢٨). والطبراني في المعجم الكبير: ج٨ ص٢٧٧: الحديث (٨٠٦٧). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٣٥)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (٤٨). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٢٦)، وقال: صحيح الإسناد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ؛ يعني نزولَ عيسى من أشراطِ السَّاعةِ نعلمُ به، ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ ؛ أي لا تَشُكُّنَّ في القيامةِ إنَّها كائنةٌ، ولا تُكَذِّبُوا، و؛ قُل لَهم: ﴿ وَاتَّبِعُونِۚ ﴾ ؛ على التوحيدِ، و ﴿ هَٰذَا ﴾ ؛ الذي أنا عليهِ، ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي دينٌ قائم لا عِوجَ فيهِ، ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُۖ ﴾ ؛ أي لا يَصرِفنَّكُم عن هذا الدينِ، ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي ظاهرُ العداوةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالْمُعجِزَاتِ، وقال قتادةُ: (يَعْنِي الإنْجِيلَ)[1]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ ؛ أي بالإنجيلِ، وَقِيلَ: بالنبوَّةِ، و؛ جئتكم ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ ؛ فيما بينكم، قال مجاهدُ: (مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ)[2].

فإن قِيْلَ: فهلاَّ بَيَّنَ لَهم جميعَ ما اختلَفُوا فيه وقد أرسِلَ إليهم؟ قُلنا: قد اختلفوا فيه؛ قال بعضُهم: إنَّ الذي جاءَ به عيسى في الإنجيلِ إنما هو بعضُ الذي اختلَفُوا فيهِ، وقد بيَّنَ لهم من غيرِ الإنجيلِ ما احتاجُوا إليه.

وقال بعضُهم: معناهُ: لأُبَيِّنَ لكم بعضَ الكتاب الذي تختلفون فيهِ، إذ كانوا مختلفين في بعضِ التَّوراةِ. وقال بعضُهم معناهُ: لأُبيِّنَ لكم أمرَ دينكم لأنَّهم كانوا مُختلفين في أمرِ دينهم ودُنياهم، والمقصودُ من إرسال الرسُلِ بيانُ الدين، فكان ذلك بعضَ ما اختلفوا فيه، وقد يذكرُ البعضُ أيضاً بمعنى الكلِّ، كما قالَ الشاعرُ[3]:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأَنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَـدْ يَكُـونُ مَـعَ الْمُسْـتَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وأرادَ بالبعضِ الكلَّ، لأن المستعجلَ أيضاً قد يدركُ البعضَ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٠٧-١٠٨؛ قال القرطبي: (وقال قتادة: البينات هنا الانجيل). وقاله مقاتل أيضاً في التفسير: ج ٣ ص١٩٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٤٤) عن قتادة.

(٢) قاله الطبري في جامع البيان: وأورد قول مجاهد في الأثر (٢٣٩٤٦) وقال: (من تبديل التوراة).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١٨؛ قال الزجاج: (واستشهدوا أيضاً بقول القطامي) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ ؛ يعني اليهودَ والنصارَى، وَقِيْلَ: المرادُ به فِرَقَ النصارَى على ما تقدَّم ذِكرهُ من الاختلافِ فيما بينهم في عيسَى عليه السلام، وقولُه تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي هل ينظرون إلاَّ القيامةَ أن تأتِيَهم فجأةً على غِرَّةٍ منهم، ((مِنْ)) غير تأهُّبٍ ولا استعدادٍ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ وقتَ مجيئها.

فإنْ قِيْلَ: كيف تُسمَّى القيامةُ الساعةَ وهي تشتملُ على خمسين ألفَ سَنة؟ قلنا: إنما سُمِّيت ساعةً لسُرعَةِ مجيئِها، ولأنَّها في جنب ما وراءَها ساعةٌ، وهي سريعةُ الانقضاءِ على المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ يعني الأخِلاَّءَ في يومئذٍ؛ أي يومَ تأتي الساعةُ (بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) يعني إذا كانت الْخِلَّةُ على المعصيةِ والكُفر صارت عداوةً يومَ القيامةِ، (إلاَّ الْمُتَّقِينَ) يعني المؤمنينَ الذين يُخالِلُ بعضُهم بعضاً على الإيمانِ والتقوَى، فإنَّ خِلَّتَهُمْ لا تصيرُ عداوةً.

وفي الحديثِ: [أنَّ الأَخِلاَّءَ أرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَان وَكَافِرَان، فَإذا سُئِلَ الْمُؤْمِنُ عَنْ خَلِيلِهِ، قَالَ: مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ أمَّاراً بالْمَعْرُوفِ نَهَّاءً عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الثَّانِي عَنْ خَلِيلِهِ، فَيَقُولُ مِثْلَ ذلِكَ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ خَيْراً، فَتَزْدَادُ مُخَالَلَتُهُمَا فِي الآخِرَةِ عَلَى الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا. ثُمَّ يُسْأَلُ أحَدُ الْكَافِرَيْنِ عَنْ خَلِيلِهِ، فَيَقُولُ: بئْسَ الأَخُ؛ مَا عَلِمْتُهُ إلاَّ أمَّاراً بالْمُنْكَرِ، نَهَّاءً عَنِ الْمَعْرُوفِ، اللَّهُمَّ أضْلِلْهُ كَمَا أضَلَّنِي، وَيَقُولُ الآخَرُ مِثْلَ ذلِكَ، وَيُثْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ شَرّاً وَتَنْقَلِبُ مُخَالَلَتُهُمَا عَدَاوَةً، لأنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي ذاتِ اللهِ تَعَالَى][1].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٠٩؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي رضي الله عنه في هذه الآية). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن قتادة) وذكره بمعناه ولفظ قريب منه. و ص٣٨٩ قال: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه) وذكره في لفظ قريب منه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٥٢).

قولـه تعـالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ للمتَّقـين: يـا عِبـادِي لا خـوفٌ عليكم من أهوالِ القيامة ومـا بعدهـا، ولا أنتـم تحزَنـونَ إذا حَـزِنَ النـاسُ، فقولـه: (الَّذِينَ) موضعُ نَصبٍ على النعتِ لِعِبَادِي، لأن عِبَادِي مُنَادَى مضاف.

وقولهُ تعالى: (وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) أي خَـاضِعِين مُنقَـادِين، يقـالُ لَـهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي لأَنْتم وحَلائِلكُم المؤمنـاتِ تُكرَمُـون غايةَ الإكرامِ بالتُّحَفِ والهدايا. ويقالُ: معنى: تُحبَرُونَ: تُسَرُّونَ، والْحُبُورُ السُّرُورُ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ ؛ أي يَطُـوفُ عليـهم خَدَمُهم بقِصَاعٍ من ذهبٍ فيها من أنواعِ الأطعمَةِ اللَّذيذةِ الشَّهيَّةِ، وواحدُ الصِّحَـافِ: صَحْفَةٌ؛ وهي القَصْعَةُ الواسعةُ العريضة، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ ؛ أي وأكـوابٍ من ذهَبٍ، والأكوابُ جمع الكُوب، وهو إناءٌ مستدير مُدَوَّرُ الرأسِ لا عُروةَ له. وَقِيـلَ: الأكوابُ هي الأباريقُ التي لا خراطِيمَ لها ولا أذُنَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ ؛ أي في الجنَّـة ما تتمنَّى الأنفسُ وتستحسـنهُ الأعيـن، ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ مِن الأعمال الصالحـة، ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ ألوان الفاكهةِ الكثيرة، ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الْمُجرِمِينَ في عذاب جهنَّم دائمون، ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي يُرَفَّهُ عنهم ولا يُـهَوَّنُ عليهم، ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي آيسُونَ مِن الرَّوْحِ والرَّاحَةِ.

والإبْلاَسُ هو: اليأسُ من الخير، والْمُبْلِـسُ هـو السـاكتُ المنقطـعُ لِيَأسِـهِ مـن الفرح، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ ؛ بهذا العذاب، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ لأنفُسِهم بالكفرِ والمعاصي.

وفي قراءةِ ابنِ مسعود (الظَّالِمُونَ) بالرفعِ على لُغة تميم يُعمِلُونَ الْمُضْمَرَ قبلَهُ، وأما على القراءةِ التي ليست في المصحَـفِ (فَهُمْ) زيـادةٌ وفصـلٌ لا موضـعَ لهـا مـن

الإعراب بمنْزلة (مَا) في قولهِ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا اشتدَّ عليهم العذابُ وقد صيَّرَهم، تمنَّوا الموتَ، فنادَوا مَالِكاً خازنَ جهنَّم: يا مالِكُ ادعُ لنا ربَّكَ يقضِي علينا بالموتِ فنستريحَ من العذاب بعد أربعين سنةً، ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ مُقيمون دائمون، وعن ابنُ عبَّاس: (أنَّهُمْ يُنَادُونَ مَالِكاً ألْفَ سَنَةٍ فَيُجِيبُهُمْ: إنَّكُمْ مَاكِثُونَ فِي الْعَذاب)(٢)، وقرأ عليٌّ وابنُ مسعودٍ(٣): (يَا مَالِ) بالترخيمِ(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي لقد أرسَلنا إليكم يا معشرَ قُريش مُحَمَّداً رسُولَنا بالحقِّ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

---

(١) آل عمران / ١٥٩ . في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٠؛ قال الزجاج: (ويجوز: ولكن كانوا هم الظالمون، في غير القرآن – أي فيما يتخاطب به الناس – ولكن لا نقرأ بها لأنها تخالف المصحف). والسبب في القراءة على ما نقله النحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٨٠؛ قال: (قال أبو جعفر: وعلى هذا يكون (هُمْ) في موضع رفع بالابتداء، و(الظَّالِمُونَ) خبر الابتداء، وخبره خبر كان، كما تقول: كان زيدٌ أبوهُ خارجٌ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم (آمين): الحديث (٣٢٣٠) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال:[سمعتُ النبي ﷺ يقرأ على المنبر: (وَنَادَوا يَا مَالِ)] قال سفيان: (من قراءة عبدالله: (ونادَوا يا مالِ). وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري:ج٨ ص٧٣٠؛ قال ابن حجر: (يذكر عن بعض السلف أنه لما سمعها قال:(ما أشغل أهل النار عن اسم الترخيم؟) قال ابن حجر:(وأجيب باحتمال أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وشدة ما هم فيه). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج١٦ ص١١٧؛ قال القرطبي: (قال أبو بكر: لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن رسول الله عليه السلام، وكتاب الله أحق أن يحتاط له وينفى عنه الباطل).

(٤) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٠؛ قال الزجاج: (ورُوِيَت: يا مالِ – بغير الكاف، وبكسر اللام- وهذا يسميه النحويون الترخيم، وهو كثير في الشعر في مالك وعامر، ولكني أكرههما لمخالفتهما المصحف).

وقولهُ تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي بل احكمُوا عند نُفوسِهم أمراً في كيدِ مُحمَّد ﷺ والمَكْرِ به، فإنَّا مُحكِمُونَ أمْراً في مُجازَاتِهم شرّاً بشرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ السِّرُّ ما يعقدهُ الإنسانُ في نفسهِ ويُضمِرُهُ بقلبهِ، والنَّجوَى ما يُحَدِّثُ به غيرَهُ في الخِفْيَةِ، وقولهُ تعالى (بَلَى) أي نسمعُ سِرَّهم ونَجواهُم، ورسُلُنا هم الْحَفَظَةُ عندَهم، يكتُبونَ عليهم ذلكَ.

ويقالُ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في ثلاثةِ نَفرٍ من المشركين، وهم صفوانُ بن أمَيةَ، وربيعةُ بن عمرٍو وأخوهُ حبيبُ بن عمرٍو، وكانوا يَمْكُرُونَ في قتلِ النبيِّ ﷺ، فقالوا: أخبرَنا أنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ لأصحابهِ: إنَّ اللهَ يعلَمُ السرَّ يكون بين الاثنين، أفتَرَوْنَهُ يعلمُ ما نقولُ؟ قال ربيعةُ: أراهُ يعلَمُ بعضَ ما نقولُ ولا يعلَمُ بعضاً، فقال صفوانُ: ولا كلمةً واحدةً، ولو عَلِمَ بعضَهُ لعلمَهُ كُلَّهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المشركين لَمَّا قالوا: لله ولدٌ! ولَم يرجِعُوا عن مَقالَتِهم، أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، والمعنى: قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: (إنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) في زَعمِكم (فَأنَا أوَّلُ العَابدِينَ) مَن عبدَ اللهَ وحدَهُ وكذبَكم بما تقولون، هكذا رُوي عن مجاهد[٢].

وقال قتادةُ والحسن: (مَعْنَاهُ: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، وَأنَا أوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ مِنْ أهْلِ هَذا الزَّمَانِ)[٣]. وَقِيْلَ: معناهُ: إنْ كان للرَّحمنِ ولدٌ كما تزعمون فأنا أوَّلُ مَن غَضِبَ للرحمنِ، فعلى هذا القولِ العَابدُ من العَبَدِ بمعنى الغَضَب. وقال الفرَّاءُ: (عَبَدَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٣٩٧٧) من غير ذكر الأسماء. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٤؛ عزاه السيوطي للطبري فقط.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٣٩٨١). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير).

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن الحسن والقتادة) بلفظ: (فأنا أول من عبدَ الله من هذه الأمة).

عَلَيْهِ أيْ غَضِبَ عَلَيْهِ). وَقِيلَ: معناهُ: فأنا أوَّلُ الآنِفِينَ، يقالُ: عَبِدَ يَعْبَدُ؛ إذا أنِفَ وَغَضِبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ نَزَّهَ اللهُ تعالى نفسَهُ مما يقولُ المشركون؛ أي تَنْزِيهاً لخالقِ السَّمواتِ والأرضِ، ﴿ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ يُضِيفُونَ إليه مِن الولَدِ.

وقولُه تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أمرٌ بتركِهم على وجه التوبيخِ؛ أي اتْرُكْ يا مُحَمَّدُ كفارَ مكَّةَ يخوضُوا في أباطيلِهم، ويلعَبُوا في دُنياهم بمقالتِهم حتى يُعاينُوا يومَ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ؛ أي هو معبودُ مَن في السَّموات ومَن في الأرضِ، لا معبودَ غيرهُ ولا إلهَ إلاَّ هُوَ، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ؛ في أمرهِ وقضائه، ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ بخلقهِ وتدبيرِهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ؛ أي تعالَى ودامَ الذي بيدهِ خزائنُ السموات والأرضِ وما بينهما، ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ ؛ أي عِلمُ قيامِ الساعة، لا يعلَمُ وقتَها أحدٌ غيرهُ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ ؛ أي لا يَملِكُ الذين يدْعُونَ من دونهِ الشفاعةَ، ثُم استَثْنَى عيسَى والعزيرَ والملائكةَ فقالَ: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي مَن شَهِدَ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ بقلوبهم ما شَهِدُوا به بألسِنَتِهم. والمعنى: إلاَّ مَن شَهِدَ بكلمةِ التوحيد، وعَلِمَ بقلْبهِ أنَّها حقٌّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي ولئِنْ سألتَ هؤلاءِ الذين عبَدُوا غيرَ اللهِ: مَن خلقَهم وخلَقَ معبودَهم؟ ليقُولُنَّ: اللهُ خلقَهم، فمِن أين يُصرَفُونَ عن عبادةِ اللهِ مع معرفتِهم بأنه الخالقُ، والخالقُ أولى بالعبادةِ من المخلوقِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾؛ من قرأ بنصب اللام؛ فمعناهُ: يعلمُ قيامَ الساعة، ويعلمُ (قِيلَهُ) محمد يا ربِّ؛ لأن معنى (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) ويعلمُ قيامَ الساعةِ. وقيل: انتصبَ عطفاً على قوله (سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) كأنه قال: أمْ يحسبون أنا لا نسمعُ سِرَّهم ونجواهم، (وَقِيلَهُ) يا ربِّ في شكوى منهم إلى ربه. قال المبرِّدُ: (الْعَطْفُ عَلَى الْمَنْصُوب حَسَنٌ وَإنْ تَبَاعَدَ الْمَعْطُوفُ عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ).

ومَن قرأ (وَقِيلِهِ) بكسر اللامِ فهو على معنى: وعندَهُ علمُ الساعةِ وعلمُ قِيلِهِ. والقِيْلُ مصدرٌ كالقول، يقالُ: قلْتُ قَوْلاً وقِيْلاً وقَالاً. ولو قُرِئ (وَقِيلُهُ) بالرفعِ على معنى: وقيلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، هذا كان جائزاً في الكلامِ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾؛ أي أعرِضْ عنهم إلى أن تُؤمَرَ فيهم بشيءٍ، ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾، قال عطاءُ: (يُرِيدُ مُدَارَاةً حَتَّى يَنْزِلُ حُكْمِي)، ومعناهُ: الْمُتَارَكَةُ؛ أي سلامُ هِجرَانٍ وتركٍ لا سلامَ تَحِيَّةٍ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾؛ عاقبةَ كُفرِهم، وماذا ينْزِلُ بهم فيَندَمُونَ حين لا ينفعُهم الندمُ.

ومَن قرأ (تَعْلَمُونَ) فعلى الأمرِ للنبيِّ ﷺ بأن يُخاطِبَهم بهذا، قال مقاتلُ: (نَسَخَ السَّيْفُ الإعْرَاضَ وَالسَّلاَمَ)[٢].

آخر تفسير سورة (**الزخرف**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٣٨. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٢١. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٨١-٨٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠٠: (فنسخَ السيفُ الإعراضَ والسَّلامَ).

سُورَةُ الدُّخَـــانِ

سُورَةُ الدُّخَان مَكِّيَّــةٌ كُلُّـهَا، وَهِـيَ أَلْـفٌ وَأَرْبَعْمِائَـةٍ وَوَاحِـدٌ وَثَلاثُـونَ حَرْفـاً، وَثَلاثُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾ ؛ أوَّلُ السـورةِ قَسَمٌ، وجوابـهُ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: جوابهُ:(إنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) لأنــه ليـس مـن عـادةِ العـرب أن يُقسِمُوا بنفسِ الشيءِ الذي يُخبرُونَ عنه، فعلَى هذا يكون قولهُ: (إنَّا أنْزَلْنَاهُ) مُعتَرضاً بين القسَمِ والجواب، ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ ﴾ ، والليلةُ المباركَـةُ: هي ليلـةُ القَـدْرِ، ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ ، أنـزلَ اللهُ فيـها القـرآنَ إلى السَّفَرَةِ في السَّماءِ الدُّنيا، فوضعوهُ في بيت العِزَّةِ، ثُم كان جبريلُ يَنْزِلُ بــه علـى النبيِّ ﷺ شيئاً بعدَ شيءٍ على مقدار الحاجة، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس، وقد قدمنا ذلكَ في قولِهِ تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال السيوطي:(وأخرج الترمذي ومحمد بن نصـر وابـن مردويـه والبيهقي عن أبي هريرة قال...) وذكره. وأخرجه الترمذي في الجـامع: أبـواب فضـائل القـرآن: الحديث (٢٨٨٩) عن أبي هريرة ﷺ، وقال: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجـه، وهشـام أبو المقدام يضعَّف، ولم يسمع من الحسن من أبي هريرة). فـالحديث إسـناده ضعيـف. وأخرجـه البيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٢٤٧٦) وإسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) البقرة / ١٨٥ .

وسُمِّيت هذه الليلةُ مباركةً لأنَّ فيها الرحمةُ ومغفرةُ الذنوب، وفيها يقدِّرُ اللهُ الأشياءَ من أرزاق العباد وآجالِهم وغيرِ ذلك من الأمُور. ويقالُ: إنما سُمِّيت مباركةً لأنه لا يُقدِّرُ فيها شيئاً من الْمَكَارِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(١).

وعن عكرمةَ أنه كان يقولُ: (اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فِيهَا يُقْضَى كُلُّ أمْرٍ فِيْهِ حِكْمَةٌ، وَفِيهَا يُنْسَخُ لِجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإسْرَافِيلَ وَمَلَكُ الْمَوْتِ جَمِيعَ مَا هُمْ مُوَكَّلُونَ بهِ مِنْ سَنَةٍ إلَى سَنَةٍ)(٢). وكان ابنُ عبَّاس يقولُ:(إنَّكَ لَتَلْقَى الرَّجُلَ فِي السُّوقِ قَدْ كُتِبَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى)(٣). والصحيحُ: أنَّ الليلةَ المباركةَ هي ليلةُ القَدْر، وعليه أكثرُ المفسِّرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ ؛ انتصبَ بـ (يُفْرَقُ) بمنْزلة (يُفْرَقُ) لأن (أمْرا) بمعنى فَرْقاً، وفيه بيانُ أنَّ الذي يُفْرَقُ في هذه الليلةِ لا يكون إلاَّ من عندِ الله تعالى وتدبيرِهِ، كأنَّهُ قال: بأمرٍ مِن عندِنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي مُرسلِين مُحَمَّداً ﷺ ومَن قبلَهُ من الأنبياءِ، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي رأفةً منِّي بخَلْقِي ونعمةً عليهم. وانتصبَ على أنه مفعولٌ له على تقدير الرَّحمةِ، وقال الزجَّاجُ: (تَقْدِيرُهُ: إنَّا أنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ لِلرَّحْمَةِ)(٤). ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ ؛ لِمَا يقولهُ الْمُحِقُّ والْمُبْطِلُ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ ، بأفْعَال العبادِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ؛ بالخفضِ على البدل من قوله (رَحْمَةً مِنْ رَبك). وقولهُ تعالى (وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني من الهواءِ والخلق. وقولُه تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

---

(١) القدر / ٥ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٠١؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٠٨) وذكره بمعناه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٠٠؛ قال السيوطي: (وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس...) وذكره.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٢.

ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الذي دبَّرَ السمواتِ والأرضَ هو الذي دبَّـرَ بإرسال الرُّسُلِ رحمةً منه، فإنْ كُنتم مُوقِنينَ بتدبيرهِ في السَّمواتِ والأرض، فأيقِنُوا إنَّما هو مثلهُ. واليقينُ: ثلْجُ الصَّدر بالْعِلْمِ، ولذلك يقالُ: وجدَ بَـرْدَ اليَقِـينِ، ولا يجوزُ في صفاتِ الله تعالى: مُوقِنٌ، ويجوز: عَليمٌ وعَالِمٌ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ ؛ يعـني الكفـارَ مـن هـذا القـرآنِ، ﴿ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ ؛ أي يَهْزَأونَ به لاَهِينَ عنهُ.

وقولـه تعـالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ ؛ وذلك أنَّ الْمُشْرِكِينَ بَالَغُوا فِـي إيْـذاءِ النَّبيِّ ﷺ ويَئِسَ مِنْ إيْمَانِهِمْ بهِ ودعَا عَلَيْهِمْ فقَالَ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْـأتَكَ عَلَـى مُضَـرِ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ][(١)].

فأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَـذِهِ الآيَـاتِ، فَأَخَذَتْـهُم السَّنَةُ حَتَّى أكَلُـوا الْجِيَـفَ وَالْكِـلاَبَ وَالْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ مِنَ الْجُوعِ، وَارْتَفَعَ الْقَطْرُ وَأجْدَبَتِ الأَرْضُ، وَكَانُوا إذا نَظَرُوا إلَـى السَّمَاءِ رَأوا دُخَّاناً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لِلظُّلْمَةِ الَّتِي غَشِيَتْ أعْيُنَـهُمْ وأبْصَـارَهُمْ مِـنْ شِدَّةِ الْجُوعِ. ويقال: يَبسَتِ الأرضُ وانقطعَ الغيثُ.

والمعنى: فانتظِرْ يا مُحَمَّدُ يوم تأتِي السَّماءُ بدُخَانٍ مُبِينٍ، فَجَاءَ أبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُواْ، فَـادْعُ اللهَ لَـهُمْ، فَقَـالَ ﷺ: [اللَّهُمَّ دَعَوْتُكَ فَأجَبْتَنِي، وَسَألْتُكَ فَأعْطَيْتَنِي، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً مَرِيّاً مَرِيعـاً طَبَقـاً عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ نَافِعاً غَيْرَ ضَارٍّ]، فَمَا بَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أنْزَلَ اللهُ الْمَطَرَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الاستسقاء: باب دعاء النبي ﷺ: الحديث (١٠٠٦).
ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب استحباب القنوت في جميع الصلوات: الحديث (٢٩٤/ ٦٧٥) وللفظ له.

وَجَاءَ النَّاسُ يَشْتَدُّونَ وَقَالُوا: الْغَرَقُ الْغَرَقُ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الشِّدَّةَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْكُفْرِ(١). فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ ؛ وذلك يومُ بدر، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)﴾.

وهذا التأويلُ إنما يستقيمُ على قول ابن مسعودٍ فإنه كان يقولُ: (خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَّانُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ)(٢) وكان يذهبُ إلى أنَّ البطشةَ الكُبرَى هي التي أصابَتْهُم يومَ بدر، وذلك أعظمُ من الجوعِ الذي أصابهم بمكَّةَ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالدُّخان في هذه الآياتِ: الدخَّانُ الذي يُنْزِلُهُ اللهُ تعالى عندَ قيامِ الساعة، ثم يغشَاهم عذابٌ أليم بعدَ ذلك، كما رُوي عن مسروق أنه قالَ: (إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ دُخَّانٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَأَخَذَ بِأَسْمَاعِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ حَتَّى تَصِيرَ رُؤُوسُهُمْ كَالرَّاسِ الْحَنِيذِ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْزِلَةِ الزُّكَامِ)(٣).

فعلى هذا القولِ يكون معنى قولهِ تعالى: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى) أي مِن أين لهم الذِّكرَى، أي مِن أين ينفعُهم إيمانُهم (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ) في الوقتِ الذي كانوا مكلَّفين فيه ثُمَّ أعرَضُوا عن الإيمانِ به (وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ) أي هو معلَّمٌ يعلِّمهُ الجنُّ، ويعترِضُون له. وَقِيْلَ: معناهُ: يعلِّمهُ بشرٌ مجنونٌ بادِّعائهِ النبوَّة. ويكون معنى

---

(١) الحديث بألفاظ عديدة، إلى سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن مسروق، كما في الدار المنثور: ج ٧ ص٤٠٦. وذكر مجيء أبي سفيان أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب الدخان: الحديث (٣٩و٤٠/ ٢٧٩٨).

(٢) في المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ج ١٧-١٨ ص١٤٨-١٤٩؛ قال الإمام النووي: (وفسرها كلها في الكتاب إلا اللزام، والمراد به قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي يكون عذابهم لزاماً، قالوا: وهو ما جرى عليهم يوم بدر من الأسر والقتل، وهي البطشة الكبرى).

(٣) بهذا اللفظ لم أقف عليه، ولعله أدرج أحاديث ابن عمر والحسن وحذيفة في حديث ابن مسعود.

قولهِ: (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذاب) أي عذابَ الدُّنيا بعد مجيءِ الرسولِ إلى وقت الدُّخان، فمَهَّلَهُم لكي يتُوبُوا، ولن يتُوبُوا.

والمرادُ بالبطشةِ الكُبرَى على هذا القولِ يومُ القيامةِ، وأما على القولِ الأوَّلِ فقولهُ: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى) أي التذكُّر والاتِّعاظُ، يقولُ: كيف يتذكَّرُون ويتَّعِظون، وحالُهم أنه قد جاءَهم رسولٌ مُبينٌ ظاهرُ الصِّدقِ والدلالة، (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) أي أعْرَضُوا ولَمْ يقبَلُوا قولَهُ.

وقولهُ تعالى: (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذاب) يعني عذابَ الجوعِ (قَلِيلاً) أي زَمَاناً يَسِيراً، قال مقاتلُ: (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ فِي كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ) وفيه إعلامٌ أنَّهم لا يتَّعِظُون، وإنه إذا رُفِعَ عنهم العذابُ عادُوا إلى طُغيانِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) أي واذكُرْ لَهم ذلك اليومَ، يعني يومَ بدرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ أي كلَّفنا قبلَ أهلِ مكَّة قومَ فرعون مِن الطاعةِ ما اشتدَّ عليهم، ﴿ وَجَآءَهُمْ ﴾ ؛ موسَى، ﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ، لا خلافَ على اللهِ تعالى.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بأنْ أدُّوا إليَّ بني إسرائيلَ، وهذا قولُ موسَى، يقولُ: أطلِقُوا بني إسرائيلَ من العذاب والتسخيرِ، فإنَّهم أحرارٌ، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ ؛ من اللهِ، ﴿ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ على الرسالةِ، لستُ بخائنٍ ولا كذابٍ ولا كاتمٍ مما أُوحِيَ إليَّ، ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا تتجبَّرُوا عليه بتركِ طاعته، ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بحجَّةٍ بيِّنَةٍ ظاهرةٍ تدلُّ على صِدقِي.

فلمَّا قالَ موسى هذه المقالةَ توعَّدُوهُ بالقتلِ بالحجارةِ، فقال: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، أي اعتصمتُ بخالقي وخالقكم من أن تقتلوني بالحجارة، ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي وإنْ لَم تصدِّقون فاتركوني لا معِي ولا عليَّ، فلا أقلَّ مِن أن تكفُّوا شرَّكم عنِّي.

فأبَوا أن يقبَلُوا منه، ولم يؤمنوا به، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مُشرِكون، ولم يَدْعُ إلاَّ بعد أنْ أذِنَ له في الدُّعاء عليهم، فدعا عليهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى لَه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ ؛ حتى تَقْطَعَ بِهِمُ البحرَ، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ يتبعكم فرعونُ وقومهُ فيكون ذلك سَبباً لغرقِهم، فسارَ موسَى بمَن معَهُ من بني إسرائيلَ حتى أتى بهم البحرَ، فضربَهُ بعصاهُ بأمرِ الله تعالى فانفلَقَ ودخلَهُ أصحابهُ.

ثُم عطَفَ موسَى ليضرِبَ البحرَ بعصاهُ ليَلتئِمَ ويخلطَ الطريقَ التي جعلَها الله لبني إسرائيل حتى لا يعبُرَ فيها فرعونُ وقومه، فقيلَ له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ؛ أي سَاكِناً مُنفَتِحاً على ما هو عليه حتى يدخلَهُ فرعونُ وجنوده، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ؛ في حُكمِ اللهِ تعالى.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ اتْرُكْهُ رَهْواً؛ أي اتْرُكْهُ طَرِيقاً)[1]. والرَّهْوُ: يكون بمعنى الفُرْجَةِ بين الشَّيئين، ونظرَ أعرابيٌّ إلى فَالِجٍ؛ فقالَ: سُبحان اللهِ! رَهْوٌ بين سِنامَين، فيكونُ المعنى على هذا: واترُكِ البحرَ ذا رَهْوٍ؛ أي ذا فُرجَةٍ، وهي الطريقُ التي أظهرَها اللهُ تعالى في الماءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي كَم ترَكَ فرعونُ وقومه بعدَ الغرق من بسَاتين عامرةٍ بليغةِ الأشجار، وعيون ظَاهرةٍ عَذْبَةٍ فيها زرعٌ ومساكن شريفةٌ حسَنَةٌ، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ ؛ أي وعيشٍ ليِّنٍ، ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي نَاعِمينَ متعجِّبين، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ؛ كانت حالُهم. وَقِيْلَ: كذلك أفعَلُ بمَن عصَاني، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ ؛ وأورثنا ما تركوه، ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ؛ وهم بنو إسرائيل، رجعُوا بعدَ هلاكِ فرعون إلى مصرَ فصارت أموالُ قومِ فرعون ونَعيمُهم لهم من غيرِ كُلفَةٍ ولا مشقَّةٍ، كالميراثِ الذي ينقلُ من الموَرثِ إلى الوارثِ من غيرِ مشقَّةٍ تلحقُ الوارثَ، وهذا من غايةِ إنعامِ الله على بني إسرائيل.

قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ؛ أي ما بَكَتْ على فرعونَ وقومه؛ أي كانوا أَهْوَنَ من أن يَبكِي عليهم أحدٌ من أهلِ السَّماء والأرضِ، إنَّهم كانوا في مقامِ الجدي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٥٩).

قال ﷺ: [مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَان: بَابٌ يَصْعَدُ فِيْهِ عَمَلُهُ، وَبَابٌ يَنْزِلُ فِيْهِ رِزْقُهُ، فَإذا مَاتَ بَكَيَا عَلَيْهِ، وَكَذلِكَ مُصَلاَّهُ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيْهِ مِنَ الأَرْضِ] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ)[1]. وعن مجاهدٍ أنه قالَ: (إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ بَكَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ أرْبَعِينَ يَوْماً صَبَاحاً)[2]. وعن السديِّ قالَ: (لَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ ﷺ بَكَتِ السَّمَاءُ عَلَيْهِ، وَبُكَاؤُهَا حُمْرَةُ أطْرَافِهَا)[3].

والمعنى على هذا: لَمْ يكن لفرعونَ وقومه موضعُ طاعةٍ في الأرضِ ولا مصاعِدُ طاعاتٍ في السَّماء فتفقِدَهم وتبكِي عليهم، بخلافِ المؤمنين. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي لَمْ يُنظَروا ولم يُمهَلُوا حين أخذهم العذابُ لتوبةٍ ولا لغيرِها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي خلَّصنَاهُم مما كان فرعونُ يفعلُ بهم من ذبحِ الأبناءِ واستحياءِ النِّساء واستعمالِهم في الأمُور الشاقَّة. وقوله تعالى: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾؛ أي متكبراً؛ ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، من الْمُتجاوزينَ عن الحدِّ حتى ادَّعى الإلهيَّة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي اخترنا بني إسرائيلَ بكثرَةِ الأنبياءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ فيهم على عالَمي زمانِهم، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾؛ من فَلْقِ البحرِ وتظليلِ الغَمامِ وإنزال الْمَنِّ والسَّلوَى وغيرِ ذلك، ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي نعمةٌ ظاهرة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾؛ راجعٌ إلى ذكرِ كفَّار مكَّة يقولون: ما الْمَوْتَةُ نموتُها في الأُولى ثم لا نُبعَثُ بعدَها، ومعنى قولِهِ: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي بمبعُوثِينَ، وهذا ذمٌّ لهم على الجهلِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٠٧٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي قالوا فَأحْيِي يا محمد آباءَنا الذين ماتوا حتى نسألَهم: أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ ؟ ورُوي أنَّهم كانوا يقولون: إنْ كان ما تقولهُ فَأْتِ بقُصَيٍّ بن كلابٍ ليُخبرَنا عنكَ، فإنه كان صَدُوقاً فيما بيننا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ خوَّفَهم اللهُ تعالى مثلَ عذاب الأمم الخاليةِ، فقال: (أَهُمْ خَيْرٌ أمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) أي ليسوا خيراً منهم، يعني أقوَى وأشدَّ وأكثرَ، والمعنى أهُمْ خيرٌ في القدرةِ والقوَّةِ والمالِ، أمْ قومُ مَلِكِ اليمَنِ (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).

وخصَّ مَلِكَ اليمنِ بالذِّكرِ لأنه كان أقربَ إلى زمانِهم. وتُبَّعُ اسمٌ لكلِّ مَن كان من مُلوكِ اليمنِ، كما أنَّ فرعونَ اسمُ ملكِ مصرَ، وقيصرَ اسمُ ملكِ الرومِ، وكسرَى اسم ملك العجَمِ. وإنما سُمِّي ملكُ اليمنِ بهذا الاسمِ لكثرة تَبَعِهِ.

وجاءَ في التفسيرِ: أنَّ ملكَ اليمنِ الذي كان أقربَ إلى زمانِهم كان مُؤمناً، وكان اسمهُ أسعَدُ بنُ مَلكي كرب، وكان قومهُ كُفَّاراً. ورُوي عن عائشةَ أنَّها قالت: (كَانَ تُبَّعُ رَجُلاً صَالِحاً، ألاَ تَرَى أنَّ اللهَ تَعَالَى ذمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذِمَّهُ)(١). ورُوي: (أنَّهُ وُجِدَ مَكْتُوباً عَلَى قَبْرَينِ بنَاحِيَةِ حِمْيَرَ: هَذانِ قَبْرَا رَضْوَى وَحَصْيَا ابْنَيْ تُبَّعٍ مَاتَا لاَ يُشْرِكَانِ باللهِ شَيْئاً)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لَمْ نَخلِقْهُما عابثين، ﴿ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحَقِّ؛ أي للثواب على

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤١٥؛ عزاه للحاكم وقال: وصححه. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٣٣)، وقال: (هذا حديث على شرط الشيخين، ولم يخرجاه).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٥؛ قال القرطبي: (وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم: أنه حُفر قبرٌ له بصنعاء – ويقال: بناحية حمير – في الاسلام، فوجد فيهما امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: (هذا قبر حُبَّى ولميس) ويروى أيضاً: (حُبَّى وتماضر) ويروى أيضاً: (هذا قبر رَضْوَى وقبر حُبَّى ابنتا تُبَّع...). وذكره الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٣٢٥. والزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٧٢.

الطاعـة والعقـاب علـى المعصيـة، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ ؛ أكـثر المشـركين، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقولهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّ يومَ الفَصْلِ بين الخلائقِ ميعادُهم أجمعين، يُوافِي يومَ القيامةِ الأوَّلُون والآخِرون.

ثم نَعَتَ ذلك اليومَ فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ ؛ أي يومَ لا ينفعُ فيه صديقٌ صديقاً ولا قريـبٌ قريباً، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي ولا يُمنَعُونَ من عذاب الله، ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ ؛ وهم المؤمنون، فإنـه يَشْـفَعُ بعضُهم لبعضٍ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وَإنَّ الرَّجُلَ مِنْ أمَّتِي لَيَشْفَعُ لأَكْـثَرَ مِـنْ رَبِيعَـةَ وَمُضَرَ][1]. ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ؛ في انتقامهِ من أعدائـهِ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ بالمؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ قـد تقدَّمَ تفسيرُ شجرةِ الزقُّوم، والأثيمُ ذو الإثمِ وهو أبو جهلٍ، قال أهـلُ اللغـة: الأثيـمُ كثيرُ الإثمِ، وعن ابنِ مسعود: (أنَّهُ كَانَ يُلَقِّنُ رَجُلاً: (إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَـامُ الأَثِيـمِ) فَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ: طَعَامُ الْيَتِيمِ! فَقَالَ لَهُ: قُـلْ: طَعَـامُ الْفَـاجِرِ)[2]. ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ ؛ دُرْدِيُّ الزيتِ[3] وعكرُ القِطْرَانِ، وهو أسودُ غليظٌ. وَقِيْلَ: الْمُهْلُ كُلُّ مَا يُمْهَلُ في النار من نُحاسٍ أو فضَّةٍ أو غيرِ ذلك حتى يَذُوبَ ويَنْمَاعَ يشتَدُّ حرُّهُ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي في بُطـونِ الكفَّـار، وقـرئَ (يَغْلِي) بالياءِ يعني الطعامَ، واختارَهُ أبو عبيدٍ[4] ؛ لأن الْمُهْلَ مذكَّرٌ، وقرئَ بالتـاءِ يعـني

---

(١) أخرجه ابـن سـعد في الطبقـات الكـبرى: ج ٧ ص٦٧: ترجمـة الحـارث بـن أقَيـش. وأخرجـه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٣٣٦١). والحـاكم في المستدرك: كتـاب الإيمـان: الحديـث (٢٤٧)، وقال: (الحارث بن أقيش مخرج حديثه في مسانيد الأئمة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٩؛ قال القرطبي: (قال أبو بكر الأنباري: وذكر إسـناده عن ابن مسعود).

(٣) الـ (دُرْدِيُّ) الزيتُ وغيرهُ: ما يبقى في أسفله. ينظر: مختار الصحاح:(درد): ص٢٠٢.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن: ج ٤ ص٨٩.

الشَّجرة، قال أبو علي الفارسي: (لاَ يَجُوزُ أنْ يُحْمَلَ الْغَلْيُ عَلَى الْمُهْلِ؛ لأنَّ الْمُهْلَ إنَّمَا ذُكِرَ لِلتَّشْبيهِ بهِ فِي الذوْب، ألاَ تُرَى أنَّ الْمُهْلَ لاَ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ إنَّمَا يَغْلِي مَا شُبِّهَ بِهِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ يعني الماءَ الحارَّ إذا اشتدَّ غليانُهُ. وقولهُ تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ يقالُ للزَّبانِيَةِ: (خُذُوهُ) يعني الآثِمَ (فَاعْتِلُوهُ) أي قُودُوهُ بالعُنقِ دَفعاً وسَحباً إلى وسطِ الجحيمِ، يقالُ: عَتَلَهُ يَعْتُلُهُ، ويَعْتِلُهُ إذا جَرَّهُ وذهبَ به إلى مكروهٍ، وقال مجاهدُ: (فَادْفَعُوهُ عَلَى وَجْهِهِ إلَى وَسَطِ الْجَحِيمِ)[٢]. وَقِيْلَ للوسَطِ: سَوَاءٌ لاستواءِ المسافة بينَهما وبين أطرافهِ المحيطة به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ قال مقاتلُ[٣]: (إنَّ خَازِنَ النَّار يَضْرِبُهُ عَلَى رَأسِهِ ((بمِقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ)) فَيَنْقِبُ رَأسَهُ عَنْ دِمَاغِهِ، ثُمَّ يَصُبُّ فِيْهِ مَاءً حَمِيماً قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ، وَيَقُولُ لَهُ): ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

وذلكَ أنَّ أبا جَهلٍ قالَ للنبيِّ ﷺ: بأيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي! فَوَاللهِ مَا تَسْتَطِيعُ أنْتَ وَلاَ رَبُّكَ ((أنْ)) تَفعَلاَ[٤] بي شَيْئاً، وَإنِّي لَمِنْ أعزِّ أهْلِ هَذا الْوَادِي وَأكْرَمِهِم! فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: ذُق الْعَذابَ أيُّهَا الْمُتَعزِّزُ الْمُتَكرِّمُ فِي زَعْمِكَ كَمَا كُنْتَ تَقُولُهُ[٥]. وقرأ الكسائيُّ (أنَّكَ) بالفتحِ على تقديرِ: ذُقْ بأنَّكَ أو لأنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ، أو بهذا القولِ الذي قلتَهُ في الدُّنيا[٦].

---

(١) ذكره بمعناه أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص٣٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٠٤) عن مجاهد، والأثر (٢٤١٠٥) عن قتادة، وجمع بين اللفظين الإمام الطبراني في نص واحد.

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٠٨.

(٤) (أن) سقطت من المخطوط.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٤٣-٤٤.

(٦) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٢٦؛ وقال: (الناس كلهم على كسر (إنك) إلا الكسائي وحده، فإنه قرأ: ذُق أنك أنت)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ لهم الخازنُ: إنَّ هذا العذابَ الذي كُنتم به تَشكُّونَ في الدُّنيا أو تُكذِبُونَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الأمِينُ هو المقَامُ الذي أمِنُوا فيه الغِيَرَ من الموتِ والحوادث، والْمَقَامُ هو المجلسُ، وقرئَ (مُقَام) بضمِّ الميمِ، يريدُ موضعَ الإقامةِ، ومعنى القراءَتين واحدٌ.

وقوله: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ؛ السُّنْدُسُ ما لَطُفَ من الدِّيباجِ، والاسْتَبْرَق ما غَلُظَ منه مع دقَّةِ السِّلكِ، وهما نوعَان من الحرير. وقوله تعالى: ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي يُقابلُ بعضُهم بعضاً في المجالسِ بالتحيَّة والمحبَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي كذلكَ حالُهم في الجنَّة، وقرَنَّاهُمْ بحُور عِين، والْحُوْرُ: الشَّدِيدَةُ بيَاضِ العين، الشديدةُ سَوَادِها، البيضاءُ البشَرةِ والعين، جمعُ العَيْنَاءِ، واسعةُ العينِ الحسَنةِ، قال مجاهدُ: (الْحُورُ: هُنَّ اللَّوَاتِي يُحَارُ الطَّرْفُ فِيْهِنَّ، يَرَى مُخَّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهِنَّ، يَرَى النَّاظِرُ وَجْهَهُ فِي صَدْرِ إحْدَاهُنَّ كَالْمِرْآةِ مِنْ رِقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّونِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ بساتينَ الجنَّة تشتملُ على كلِّ الفواكهِ في كلِّ وقتٍ من الأوقاتِ بخلاف بساتِينِ الدُّنيا، وقولهُ تعالى: (آمِنِينَ) من الانقطاعِ والنُّقصانِ، وآمِنِينَ مما يخافُ من الفواكهِ من التُّخَمِ والأمراضِ والأسقامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؛ أي لا يَمُوتونَ سِوَى الموتَة التي ذاقُوها في الدُّنيا، ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي ودفعَ عنهم ربُّهم عذابَ النار مع ما أعطاهُم من النعيم المقيم. وقوله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي فَعَلَ اللهُ ذلك بالمتَّقين تَفضُّلاً منه عليهم. وسُمي الثوابُ "فضلاً" لأنَّ اللهَ تعالى لم يكلِّفْهم لحاجتهِ، ولكن ليَصِلُوا إلى ذلك الثواب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ؛ أي أنزَلنا القُرآنَ بلُغَتِكَ ولُغةِ قَومِكَ لِيَسهُلَ عليـهم، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ يتَّعِظُـونَ فيُؤمِنُـوا بـه، ولـولا تَيسِيرُ اللهِ حِفظَهُما ما قَدَرَ أحدٌ على حفظهِ لعِظَمِ أمرهِ وجَلالِ قَدرهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي انتَظِـرْ بالكفَّـار مـا وعَدنَاهُم من العذاب إنَّهم مُنتَظِرُونَ هلاكَكَ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الدُّخَّانِ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِيْمَانـاً وَاحْتِسَـاباً وَتَصْدِيقاً بهَا، أصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ، وَإِنْ قَرَأَهَـا فِـي سَـائِرِ اللَّيَـالِي كَـانَتْ لَـهُ نُـوراً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ](١).

آخر تفسير سورة (**الدخان**) والحمد لله رب العالمين.

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٣٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الدارمي عن عبدالله بن عيسى: (أخبرت أنه من قرأ...) وذكره.

سُورَةُ الْجَاثِيَــةِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَمِائَةٌ وَوَاحِدٌ وَسَبْعُون حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَثمَانٌ وَثمَانُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَثلاَثُون آيَةً[1]. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَــهُ، وَسَكَّنَ رَوْعَتَهُ عِنْدَ الْحِسَاب][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ (حم) مبتدأ وخبرهُ (تنْزيلُ)، وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ أي لدَلالاَتٍ على الحقِّ تدلُّ بخلقِها على أنَّ لها خالقاً قَديماً لا أوَّلَ له، ويدلُّ تعظِيمُها وبقاؤها من غيرِ علاقةٍ فوقَها ولا عِمَادٍ تحتَها على قادرٍ لا يُعجِزهُ شيءٌ. وقولهُ تعالى (لآيَاتٍ) في موضعِ نصبٍ؛ لأنه اسمُ (إنَّ)، كما يقالُ: إنَّ في الدار لزيداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ ﴾ ؛ أي وفي خلقِكم حَالاً بعد حالٍ من نُطفةٍ إلى أن يصيرَ إنساناً ثم يصيرَ فيه العقلُ ثم الحواسُّ، وما يُبثُّ من دابَّةٍ على وجهِ الأرض على اختلافِ أجناسِ الدواب ومنافعِها وصُوَرِها، وما يقصرُ من منافعِها في ذلك دلالاتٌ واضحةٌ على وحدانيَّة اللهِ تعالى، ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يطلُبون علمَ اليقينِ، ويوقِنُون أنَّه لاَ إلهَ غيرُهُ.

وقرأ حمزةُ (آيَاتٍ) (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) بالكسرِ على أنَّهما منصُوبان نَسَقاً على قولهِ تعالى (إنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) على معنى وإنَّ في خلقِكم آياتٍ، ومَن رفعَ

---

(١) في المخطوط: (تسع وتسعون آية).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج٤ ص٢٨٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

فعلى الاستئنافِ بعدَ أنْ، تقولُ العرب: إنَّ لِي عليكم مَالاً وعلى أخِيكَ مالٌ، ينصبُون الثاني ويرفعونَهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي وفِي ذهابهما ومجيئِهما، وما يحدثُ في كلِّ واحدٍ منهما من الزيادةِ والنُّقصان من غير أنْ يكونا جميعاً أزيدَ من أربعٍ وعشرين ساعةً، ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ ، وفيما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ من المطرِ فأحيَا به الأرضَ بعد يُبسِها، وفي تقلُّب الرياحِ شمالاً وجَنُوباً وقُبُولاً ودُبوراً وعذاباً ورحمةً، ﴿ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ ﴾ ؛ الدلالةَ ويتدبَّرونَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ ؛ أي تلكَ التي سبقَ ذِكرُها دلائلُ اللهِ لعبادهِ يتلُوهَا عليكَ جبريلُ بأمرنا بقصصنا عليك بالحقِّ، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ﴾ ، كتاب، ﴿ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾ ؛ إنْ لم يُؤمِنُوا بهذا القرآنِ. ومَن قرأ بالتاءِ فعلى تأويلِ: قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: فبأيِّ حديثٍ تؤمنون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ ﴾ ؛ يعني النضرَ بن الحارثِ، كان يروي من أحاديثِ العجَمِ للمشركين فيستَملِحُونَ حديثَهُ، وكان إذا سمعَ آياتِ القرآنِ استهزأ بها، فجعلَ اللهُ له العذابَ مرَّتين، مرَّةً ألِيماً ومرَّة مُهِيناً، وقد ذكرنا تفسيرَ الآيةِ في سُورةِ لقمان.

ومعنى الآية: ويلٌ لكلِّ كذابٍ فاجرٍ كثيرِ الإثم، يسمعُ القرآنَ يُقرَأ عليهِ ولا يتدبَّرهُ، ولا يخشعُ لاستماعهِ، بل يُقِيمُ على كُفرهِ مُتعَظِّماً عن الإيمانِ بالله، كأنْ لَمْ يسمَعْ آياتِ اللهِ، فخوِّفْهُ يا مُحَمَّدُ بعذابٍ وجيعٍ يَخلُصُ وجعهُ إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ ؛ أي إذا سمعَ من آياتِ القرآن شيئاً اتَّخذها هُزُواً، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ ﴾ .

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٣٩٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي لَهم من بعدِ موتِهم جهنَّمُ، ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئًا ﴾ ؛ ولا ينفعُهم ما كسَبُوا من الأموالِ والأولادِ شيئاً، ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أرباباً في دفعِ شيءٍ من عذاب الله، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ؛ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ﴾ ؛ كلُّ ذلك للنَّضرِ بن الحارث وأمثالهِ.

وقولهُ: ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ بيانٌ للحقِّ من الباطلِ في كلِّ ما يحتاجُ إليه من أمرِ الدِّين والدُّنيا، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ اللهِ أي جحَدُوا دلائلَ اللهِ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾ ؛ أي عذابٌ من عذابٍ وجيعٍ يخلصُ وجعهُ إلى قلوبهم، وقرئ (أليمٌ) بالرفعِ على نعت العذاب، وبالكسرِ على نعتِ الرِّجْزِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ ؛ أي هو الذي ذلَّلَ لكم البحرَ بتسهيل السبيل إلى سُلوكِها باتِّخاذِ السُّفنِ وإصلاحِها، ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ ، وباقي الآيةِ قد تقدَّم تفسيرُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ؛ من شَمسٍ وقمرٍ ونجوم ومطرٍ وثلج وبَردٍ، ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ ؛ من دابَّةٍ وشجرٍ ونبات وثمار وأنهار، ومعنى سَخَّرَهُ لنا: هو أنَّهُ خلقَها لانتفاعِنا بها على الوجهِ الذي يريدهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ ؛ أي الكلُّ رحمةٌ منه وبفضلهِ ومنِّهِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ ؛ في صُنعِ الله وإحسانهِ، فيُوَحِّدُونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ؛ نزَلت في عُمر ﷺ: شَتَمَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَار بمَكَّةَ، فَهَمَّ أنْ يَبْطُشَ بهِ، فَأَمَرَهُ اللهُ بالْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ[1]. والمعنى: قُل للَّذين آمَنوا اغْفِرُوا، ولكنه شَبَّهَهُ بالشرطِ والجزاء كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[2].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢١٢.

(٢) إبراهيم / ٣١ .

وقولهُ: (لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) أي لا يَخَافُونَ عذابَ اللهِ من إيذائِكُم، فتجاوَزُوا عنهم ليُوفِّيَهُمُ اللهُ عقابَ سيِّئاتِهم بما عملُوا. ويجوزُ أن يكون المعنى: تجاوَزُوا عن الذين لا يرجُونَ ثوابَ اللهِ للمؤمنين، ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ ؛ اللهُ، ﴿ قَوْمًا ﴾ ، المؤمنين يومَ الجزاءِ، ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بما كانُوا يعملون من الخيراتِ.

وَقِيْلَ: إن الآية نزلت في أصحاب النبيِّ ﷺ، كانوا في أذًى شديدٍ من أهلِ مكَّة قبلَ أن يُؤمَرُوا بقتالِهم، فأمرَ اللهُ المؤمنين بتركِ مكافأَتِهم، ثم نُسخت بقولهِ تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[(١)].

وقالَ الحسَنُ: (لَمْ تُنْسَخْ هَذِهِ الآيَةُ، وَهِيَ عَلَى الاسْتِحْبَاب فِي الْعَفْو مَا لَمْ يُؤَدُّوا إلَى الإخْلاَل بحَقِّ اللهِ أوْ إلَى إذْلاَل الدِّين). ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ يعني التوراةَ والإنجيلَ، ﴿ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ ؛ أي الفهمَ في الكتاب وفصلَ الأمرِ، وجعلنا فيهم الأنبياءَ والرُّسلَ، ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي من الحلالِ ومن لذيذِ الأطعمةِ كالْمَنِّ والسَّلْوَى وغيرهما، ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي على عالَمي زمانِهم بكثرةِ النبيِّين فيهم، وفضَّلَ اللهُ أمَّةَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ بكثرةِ العُلماءِ فيهم، والقائمِين بالحقِّ منهم كما قالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ يعني العلمَ بمبعَثِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وما بَيَّنَ لَهم من الأمرِ، ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ الآيةُ قد تقدَّمَ تفسيرُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ ؛ أي ثُم أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بعدَ اختلافِهم فجعلناكَ على طريقةٍ مستقرَّةٍ من الدِّين، فاستقِمْ

---

(١) الحج/ ٣٩ . أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤١٢٠) عن مجاهد، و(٢٤١٢١) عن قتادة.
(٢) آل عمران / ١١٠ .

عليها وادْعُ الخلقَ إليها، ولا تعمَلْ بأهواءِ الذين يخالِفونكَ في أمرِ الدِّين والقِبلة، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، توحيدَ اللهِ؛ قيل: يعني كفَّارَ قريش.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾؛ أي لن يدفعُوا عنكَ من عذاب الله شيئاً إن اتَّبعتَ أهواءَهم، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾، يعني المشركين أنصارُ بعضِهم بعضاً، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي ناصرُ المؤمنين المتَّقين الشركَ وهم أمة مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾؛ أي هذا القرآنُ عِظَاتٌ للناسِ وعبرةٌ وبيان لهم من الضَّلالةِ ونجاةٌ من العذاب، ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أنه من اللهِ تعالى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في ثلاثِ نفرٍ من المشركين؛ وهم عُتبَةُ وشَيبَةُ والوَلِيدُ بنُ عُتبَةَ، بارزُوا علِيّاً وحمزةَ وعبيدةَ بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يومَ بدرٍ، كانوا يقُولون لَهم: لئِنْ كان مُحَمَّدٌ حقّاً في الآخرةِ لتَفضَّلَ عليكم في الآخرةِ كما فضَّلْنا عليكم في الدُّنيا[1].

ومعنى الآيةِ: أحَسِبَ الذين (اجْتَرَحُوا) اكتسَبُوا (السَّيِّئَاتِ) المعاصِي (أنْ نَجْعَلَهُمْ) فِي الآخرةِ (كَالَّذِينَ آمَنُوا) بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآنِ (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) من الصَّلاة والزكاةِ.

وتَمَّ الكلامُ، ثم قالَ: ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾، ارتفعَ (سَوَاءٌ) على أنه خبرُ مبتدأ مقدَّمٍ، تقديرهُ: محياهُم ومماتُهم سواءٌ، والضميرُ فيهما يعودُ إلى القبيلتين المؤمنين والكافرين، يقولُ المؤمِنُ مؤمنٌ في محياهُ ومؤمنٌ في مماتِهِ، والكافرُ كافرٌ في حياتِهِ ومماتِهِ. والمعنى: إنَّ المؤمن يموتُ على إيمانِهِ ويُبعَثُ عليه، والكافرُ يموت على كُفرِهِ ويبعَثُ عليه، يريد مَحيَا القبيلتَين ومَمَاتهم سواءٌ.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٦٥.

ومَن قرأ (سَوَاءً) بالنصب جعلَهُ مفعولاً ثانياً، فجعلَهُ على تقدير: فجعلَ محيَاهم ومماتَهم سواءً، يعني أحَسِبُوا أنَّ حياتَهم وموتَهم كحياةِ المؤمنين وموتِهم؛ كَلاَّ، وقولُهُ تعالى: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ ما يَقضُونَ حين يرَون أنَّ لهم في الآخرةِ ما للمؤمنين، ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يعبُدون الحجرَ والخشبَ، فإذا رأوْا ما هو أحسنُ منه، رَمَوا بالأوَّل وعبَدُوا الثانِي، فهُم يعبدون ما تَهواهُ أنفسُهم، قال قتادةُ: (هُوَ الْكَافِرُ لاَ يَهْوَى مَا شَاءَ إلاَّ رَكِبَهُ، يَبْنُونَ الْعِبَادَةَ عَلَى الْهَوَى لاَ عَلَى الْحُجَّةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (أفَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ)). قال الحسنُ: (اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ لاَ يَعْرِفُ إلَهَهُ بعقْلِهِ وَإنَّمَا يَعْرِفُهُ بهَوَاهُ).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي خذلَهُ على ما سبقَ في عملِهِ أنه ضَالٌّ قبلَ أن يخلقَهُ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ ؛ فلم يسمَعِ الهدَى؛ و على ﴿ وَقَلْبِهِۦ ﴾ ؛ فلم يعقل الهدى، ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ ؛ أي ظُلمةً فهو لا يُبصِرُ الهدَى بهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن يَهديهِ مِن بعدِ إضلالِ اللهِ لَهُ، ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ فتعرفُوا قدرتَهُ على ما يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ ؛ أي نموتُ نحنُ ويحيَى آخَرُون مِمَّن يأتُون بعدَنا، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ نُحيي وَنُمِيتُ، وَالْوَاوُ لِلاجْتِمَاعِ)[1] وَالْقَائِلُونَ بهَذا زَنَادِقَةُ قُرَيْشٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ ؛ أي إلاَّ طُولُ الْعُمْرِ واختلافُ الليلِ والنهار، ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ؛ أي لَمْ يقولوهُ على علمٍ عَلِمُوهُ، بل قالُوا ضُلاَّلاً شَاكِّين.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ وكان هذا القولُ من زنادقتهم الذين كانُوا يُنكِرُونَ الصانعَ الحكيمَ، ويزعمُون أنَّ الزمانَ ومُضِيَّ الأوقاتِ هو الذي يُحدِثُ هذه الحوادثَ، يَموتُ قومٌ ويحيَا قومٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّهم كانوا يتعلَّقون بالْحُجَجِ الباطلةِ، ولو تأمَّلوا لعَلِمُوا أنَّ دلائلَ معجزاتِ النبيِّ ﷺ أوكدُ مما كانوا يطلُبون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ ﴾ ؛ أي وترى أهلَ كلِّ دينٍ باركةً على الرُّكَب متهيِّئةً للحسابِ والجزاءِ، مُترقِبةً لِمَا يُصنَعُ بها، كما يَنحَنِي بين يدَي الحاكم ينتظرُ القضاءَ، ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ ؛ أي إلى صحائفِ أعمالِها، يقالُ لَهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ في دار الدُّنيا من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني كتابَ الحفظِ يقرؤُونَهُ فيدلُّهم على ما عَمِلوا، فكأنَّهُ ينطقُ كما يقالُ: نطقَ الكتابُ بتحريمِ الخمرِ، وقولهُ (بالْحَقِّ) أي بالعدل، فيه حسناتُهم وسيِّئاتُهم، وقولهُ تعالى (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ) أي نأمرُ الملائكةَ بنسخِ ما عمِلتُم وتبيينهِ بياناً شافياً وتثبيتهِ عليكم.

وما بعدَها هذا ظاهرُ المعنى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ لبعثٍ، ﴿ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ؛ أي القيامةُ كائنةٌ من غيرِ شكٍّ، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ ؛ أنكرتُموهم وأظهرتُم الشكَّ فقلتم: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ ومَن قرأ (وَالسَّاعَةَ) بالنصب فهو عطفٌ على (وَعْدَ) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا؛ أي ظَهرَ لَهم قَبائحُ أعمالهم حين عايَنُوا ذلكَ في كتابهم الذي أحْصَى عليهم كلَّ قليلٍ وكثيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي نترُكم في النار، ونتركُ مراعائكم وحِفظَكم، ولا نحفظُكم من العذاب كما لم تحفَظُوا حقَّ اللهِ، وتركتُم الإيمانَ والعملَ بلقاءِ هذا اليوم. والنسيانُ ضِدُّ الحفظِ، وقد يكون للتَّركِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ عليكم بسبب أنَّكم اتَّخذتُم كتابَ اللهِ ورسولَهُ استهزاءً. ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ حتى قُلتم لا بعثَ ولا حساب، ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي لا يُطلَبُ رضاهُم، ولا يقالُون؛ لأنه لا يقبل في ذلك اليوم استقالة[1] وقد انقطعتِ المعايَنةُ فلا يُجابون، ولا يُقبَلُ لَهم في ((ذلك)) اليومِ عُذرٌ ولا توبةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي للهِ الشُّكر على عظيمِ نعمائهِ على الخلائقِ كلِّهم، ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ وهو المختصُّ بالكبرياءِ في السَّموات والأرض، وله العظَمةُ والجبَروتُ فيهما، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكهِ وسُلطانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في قضائهِ وأمرِهِ[2] لَهُ وَحْدَهُ فِي أعْلَى مَرَاتِب التَّعْظِيم لأنه سبحانَهُ لا يجوزُ عليه صفةُ النقصِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَقُولُ اللهُ: الْكِبْرِيَاءُ ردَائِي، وَالْعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ][3].

آخر تفسير سورة (**الجاثية**) والحمد لله رب العالمين.

آخر المجلد الخامس

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

---

(١) في المخطوط: (أن ذلك استقالوا).

(٢) أدرج الناسخ عبارة: ((قاله رسول الله ﷺ)) في المتن، وهو غير مناسب.

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٣٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ﷺ) وذكره.

فهرس المجلد الخامس

سورة النمل	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٥
٥٥-٩٣	٣٣
سورة القصص	
الآيات	الصفحة
١-٤٤	٤٩
٤٥-٨٨	٦٩
سورة العنكبوت	
الآيات	الصفحة
١-٦٩	٨٨
سورة الروم	
الآيات	الصفحة
١-٦٠	١١٣
سورة لقمان	
الآيات	الصفحة
١-٣٤	١٣١
سورة الجُرُز	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	١٤٩
سورة الأحزاب	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	١٦١
٣١-٧٣	١٩١

سورة سبأ	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٢٢٤
سورة الملائكة	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٢٥٢
سورة يس	
الآيات	الصفحة
١-٨٣	٢٧١
سورة الصافات	
الآيات	الصفحة
١-٩٠	٢٩٥
٩١-١٨٢	٣١١
سورة ص	
الآيات	الصفحة
١-٨٨	٣٢٩
سورة الزمر	
الآيات	الصفحة
١-٧٥	٣٦١
سورة المؤمن	
الآيات	الصفحة
١-٨٥	٣٩٠
سورة السجدة	
الآيات	الصفحة
١-٥٤	٤١٨
سورة الشورى	
الآيات	الصفحة
١-٥٣	٤٤٠

سورة الزخرف	
الآيات	الصفحة
١-٨٩	٤٦٠
سورة الدخان	
الآيات	الصفحة
١-٥٩	٤٨٥
سورة الجاثية	
الآيات	الصفحة
١-٣٧	٤٩٧